

تَهْجُ البَيَّانِ فِي التَّفْسِيرِ الْقُرْآنِ

مَلَامَةُ الشَّيْخِ عَمِّهِ الْحَبَّارِ الْمَشْهُورِ

مُطْبَعَةُ الْكَلْبِ فِي الْقُرْبَى سَاعِدًا

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

عَمِّهِ الْكَلْبِ فِي الْقُرْبَى

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهرومائية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية أو الاسترخ الفوتوغرافي أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من المؤلف.



9 789938 141887

ISBN: 978-9938-14-188-7



مطبعة وناشر
Reliance d'Art

الهاتف: +216 74 432 030

الفاكس: +216 74 432 248

البريد الإلكتروني

reliance.dart@tunet.tn

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة :

إلى الله ترفع آيات الحمد كما علمنا في فاتحة الكتاب ؛ فكتاب الذي أنزله هدى ورحمة ونكرى لأولي الأبواب؛ لولي الأبواب الذين اهتدوا بهديه واتبعوا رضوانه فتفتحت لهم الأبواب؛ أبواب الأمن والتقوى فسمعوا في حياتهم الدنيا وفازوا يوم الحساب بحسن الثواب. نحمده ونشي عليه تقرد بالعمة والكمال؛ ونقدس في علاه متعاليا عن التشبيه والصد والمثال. تولدت علينا نعمه وأيانيه، وما بكم من نعمة فمن الله ومن فضله، وأجلها ما شرفنا به من إنزال كلامه إلينا وجعلنا من أهله. كتاب أفرجنا به من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة والشك إلى الصراط المستقيم المسطور. قللنا في الحياة الدنيا وهاينا إلى ما فوزنا برضوانه سبحانه في يوم البعث والنشور.

ولصلي أفضل صلاة ولزكاهاء وأشرفها وأعلاها، مقرونة بالسلام لتسلم الرضوي. على الفضل رسول وأكرم نبي، ختم للرسائل كبرام، وداعى الله إلى دار السلام، سبنا محمد وعلى آله وصحبه، وأرواحه وعترته وحزبه. اللهم ضاعفا أرسل فضلك عليه، كما يرضيك ويرضيه، وأنه الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة والمقام المحمود كما وعدته . إنك لا تخلف الميعاد.

أما بعد. فقد وجه رب العزة خطابه لمحمد ﷺ بقوله: **(كتاب أنزلناه إليك مبشرا، لننبئوا آياته ولينبئوا أولو الكتاب)**¹ هو القرد الذي تخيره الطليم للخبير من بين خلقه ليكون المنلق للقرآن من جبريل عليه السلام، الأمين على نشره في العالمين، وعلى إيلاغه للناس قاطبة. إيلاغا يحفظ نصه ويشرح لفظه، ويبين معناه وينبه المغول والأرواح إلى أهدافه العالية، وليقيم لهم ﷺ من سلوكه في الحياة الصورة

العملية لما تضمنه من هداية وتشريع واستقامة وفعل في الكون، وفي المجتمع الإنساني عامة.

وصفه بأنه مبارك، كثيرة خيراته، تتجاوز بركاته زمن نزوله إلى الأجيال البشرية المتعاقبة، كيفما اختلفت أجناسهم ولغاتهم وثقافتهم ومستواهم الحضاري. هو كتاب الدهر، الذي يقتبس منه الفرد منهجا يفتح له مسالك الهداية، ويؤمنه في حياته الدنيا بالرضا والصلاح، ويربط بينه وبين الخير بأمن الأسباب، ويحجزه عن الشر والفساد. ويقيم له من دنياه ما يسعده في آخرته، ويفوزه برضوان ربه وورثة جنته، والنعيم المقيم.

كما تقتبس منه مجموعات البشرية مستورها الذي يحكم الروابط بين أعضائها، لتكون علاقاتهم علاقات البناء والتعاون، لا الهدم والبغى والتسلط والاستبداد. هو دستور يقيم للعمل سبلاته، وللكرامة ميادها في التصور والفعل، سيادة تطبيع بها نفس الحاكم والمحكوم، وولي الأمر وكل عضو من أفراد الأمة، وتغرس في المجتمع: الأبوان وذريتهما، والزوج وزوجه، والجار وجاره، والموظف والشعب، والعامل وصاحب العمل. مما يجعل كل فرد يشتمز من عظم والتمعلي، ويألف من الرضا بانهك أي حق من حقوقه، الرضا الذي يطوع النفس للذل والمهانة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾¹ وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُ الْغَنَى﴾² وصرح الآية معللة صورة العلاقة التي تحقق للبشر استفادتهم من هذا الكتاب، العزيز الذي لا يئته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب الدهر الذي يتجاوز زمن الوحي إلى الأمد الحضارية في مستقبل البشرية إلى أن يورث الله الأرض ومن عليها.

يقول سيد قطب رحمه الله: وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مثلات المرات؛ ثم يفهم الموقف، أو يولج الحادث، فإذا النص القرآني جديد، يوحى إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر سورة الأحزاب³.

يجب أن تقوم هذه العلاقة على تذكير، **[التذكير آياته]** والتعمق في مفاهيمه الثرية البعيدة الأعماق الباقية أعموار النفس، والنبذة عن سنن الله في الكون وفي المجتمعات. تذكير آياته بفهمها الفهم السواحي لأغراضها وأبعادها، وطريقة تطبيقها. التذكير الذي يحرك العقل لينظر في النص نظرة من يصنع بين آيات الكتاب فيزيده كل مورد غوصا في إدراك الحقيقة القرآنية والهداية الربانية. قال تعالى: **[وَأَمْرٌ كَانَ]**

¹ سورة المنافقون آية 24

² سورة فاطر آية 18

³ مجلد 6 ص 13/212

من عند غير الله لوجعوا فيه الفلقا كثيرا)¹ ويوقظ الروح فيجمع إشعاعها بين الحياة والموت، والدنيا والآخرة، قال تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتابا منشأها مثلى تقتصر منه جنة الذين يعيشون ربهم ثم الذين جسدتهم والسيوفهم إلى نكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء)²

لتدبر الفعل بين التالي وبين النص القرآني، يستقبله ويعيش معه في قرارة فكره ومشاعره، وتستشف به روحه، وقد يبلغ من مراتب يقظتها ما ينسبه في أعلى درجات التجلي المحيط الذي يعيش فيه، فتستولي الروح على الحواس وتستصن ما لها من نشاط طبيعي، وهو فتح من الله وجهاد من الذات لتتخلص في النص القرآني وتنفعل به.

وستان بين ما دعت إليه الآية للكرامة من التدبر، وبين السلاوة التي تحرك السامعين بالوزن الذي يصنعه القارئ بما مرّن عليه، وبما أوتيه من الجبال الصورية المساعدة، فيزهم طائفتان فهم يعيشون في الجو الرفيع الذي كتبه الله للمتدبرين، وهيات. يتلو آية العذاب كما يتلو آية الرحمة والنعيم، ويتلو آيات القيامة والفجار الكون، كما يتلو فوز المنعمين بالجنة، ويهدد القرآن وينذر، أو يعد ويبشر، ويطرب السامعون على جميع الأحوال للصوت المنجي، وللتغيمات المرتبة ترتيبا فنيا مصنوعا، دون أن تخضع قلوبهم وأرواحهم لمضامين الآيات، فما لبعدهم عن قوله تعالى: (وبدروا آياته). والتدبر الواعي هو التأمل الذي يتمثل للتالي معه سلوكه في الكون، وتصرفه في الحياة، وعلاقته بالخلق وبما خلق. فيتأثر بالقرآن تأثرا يقوم ما أعوج، ويعدل ما جف، ويحمد الاستقامة، وتقوى عزيمته على اتباع طريق الخير.

وليتذكر أولو الألباب، نزل القرآن ليكون مع أصحاب العقول الذكية في جميع المواقف، يسعدهم بمعرفة الحقيقة في كل شأن من شؤون حياتهم. وإذا عرفوا الحقيقة أعانهم على اتباع الهدى، وقمع بما أنبتى عليه، من إحياء للضمير وصل للروح، دواعي الشهوة ومن طائف الشيطان. يتذكر فلذا هو مبصر يمزق حجاب الغفلة، ونقذ لا يهتر بالبهرج، ولا يُخدع بلباع لزيف المعشوش.

تكرر في القرآن الإشارة بقوله تعالى: (هذا) إلى القرآن أربع عشرة مرة كقوله: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، تثبيتا وتأكيدا ليكون حاضرا في الذاكرة غير منسي، ولا بعيد عن حياة المؤمن. يصحبه في عبادته، وفي عمله، وفي يقظته

¹ سورة النماء آية 82² سورة الزمر آية 23

ونومه، وفي جده وراحتة، وعندما تشبّه المسالك، وتضخم الحيرة ويتطالق داعي البحث عن المعين والمسدد للرأي.

يقول الأستاذ الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله: (إنعمت الله بالقرآن نبيه الأمين محمدا ﷺ لهذا العالم الإنساني كله، حين بلغ رشده الاجتماعي، واستعد للكمال، واستشرف لسانك من وراء العقل يكون سندا له إذا زل، وهدى له إذا ضل، ومصححا لخطئه إذا أخطأ، ومخرجا له من ظلمات الحيرة إذا التبس عليه مناهج الحياة، ومفسحا له في أماله إذا ضيق عليه هذه الحياة المصنودة حدود الآمال، ومحررا له من أصناف العبودية للتكرية والبدنية التي تقلب فيها قرونا، مرشدا إياه إلى وسائل الكمال التي كان يطلبها فلا يجدها)¹

هو كلام رب العزة تستمد منه العقول والضمائر والأرواح ما يتلأم مع مستواها الفكري والحضاري، وكلما تقدمت البشرية حضاريا وجدت في القرآن المعين الذي لا ينضب، تقوم أياته مساعدة لهم كلها لزلت لهم، لتحل مشاكلهم وتستجيب لطلباتهم، وتهددهم سواء السبيل. قال تعالى: **(استرهم أياتنا في الأفلاك وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)**² رجع إليه العلماء فتوتوا لأهملهم في التأليف التي فاقت الحصر، وما يزال القرآن يفيض من عطائه، ولا يزال للناس في حاجة إلى تحديد النظر، ومواصلة البحث، واستكشاف أسرار، نعم هو كلام رب العزة الذي وسع علمه كل شيء، وإن النظر الإنساني مبني على سطودية علم الناظر، ونقصانه، وقصوره. لنضرب لذلك مثلا ما نوقه الإمام محمد فخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب في المقدمة، إذ يقول: اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة [سورة الفاتحة] يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحصاد، وقوم من أهل الجهل والخي والمعاد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاد والمبني، فثما شرعت في تصنيف هذا الكتاب فتمت هذه المقدمة لتصوير كالتيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول. فتقول: وبالله التوفيق: إن قولنا: أصود بالله من الشيطان الرجيم، لا شك أن المراد منه الاستعاذة بالله من جميع المنهيات والمحظورات، ولا شك أن المنهيات إما أن تكون من باب الاعتقادات، أو من باب أعمال الجوارح. أما الاعتقادات فقد جاء في الخير المشهور قوله صلى الله عليه وسلم: ستفترق أمتي على ثلاث ومبعض فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة. وهذا يدل على أن اللتين والمبعض موصوفون بالعقائد الفاسدة، والمذاهب الباطلة. ثم إن الضلال في كل

¹ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج (ص 328)

² سورة فصلت آية 53

واحدة من أولئك الفرق غير مختص بمسألة واحدة بل هو حاصل في مسائل كثيرة، من المباحث المتعلقة بذات الله تعالى وبصفاته وبأحكامه، وبأفعاله وبإسمائه، وبمسائل الجبر والقدر، والتعديل والتجوير، والثواب والمعاد، والوعد والوعيد، والأسماء والأحكام، والإمامة فإذا وزعنا عدد الفرق الضالة وهو الاثنان والسبعون على هذه المسائل الكثيرة بلغ العدد الحاصل مبلغاً عظيماً. وكل ذلك أنواع الضلالات الحاصلة في فرق الأمة. ولذا فمن المشهور أن فرق الضلالات من الخارجين عن هذه الأمة يربون من سبعئة. فإذا ضمت ضلالتهم إلى أنواع الضلالات الموجودة في فرق الأمة، في جميع المسائل العقلية المتعلقة بالإلهيات، والمتعلقة بأحكام الذوات والصفات، بلغ المجموع مبلغاً عظيماً في العدد. ولا شك أن قولنا: أعوذ بالله يتناول الاستعانة من جميع تلك الأنواع، والاستعانة من الشيء لا تكون بعد معرفة المستعان منه... ويختص بقوله: فثبت بهذا الطريق أن قولنا أعوذ بالله مشتمل على عشرة آلاف مسألة لو أريد لو قيل من المسائل المهمة للمعبرة! ثم إن شخصية كل من قام بتفسير القرآن، وثاقته ومسعة مداركه، والغرض الذي يهدف إليه قد ملغ أثره بطابعه الخاص. اعتنى بعضهم بتسجيل ما روي من الأخبار في توضيح معنى النص. وعنى آخرون بالمقارنة بين الآثار وترجيح ما اطمأن إلى أنه أولى بحمل النص عليه. وعنى بعضهم بإيراد الإعجاز القرآني، وجعله شايته الأولى وعظم قصده، كما فعل الزمخشري، ومن سار على نهجه. وأهتم أبو حيان فيما اهتم به، بالكشف عن الوظائف النحوية وبيان ما يشكل من ناحية الإعراب، وبرز في القرن الأخير من توجهت عنايته إلى هداية القرآن في التأثير على المجتمعات لتقتبس من مثل الله التي الفصح عنها في كتابه ما ينهض بالأمة من وضعها ويدفعها إلى تبنى مكانتها، مكانة العزة والريادة، وإسماهم في هذا الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه.

ويكاد كل المفسرين الذين تروج مؤلفاتهم ويعود المسلمون إليها لفهم كتاب الله منجذبين إلى ربط النصوص بالقواعد اللغوية بما يدخل تحت علم النحو مما يعود إلى الإعراب، ووظيفة للكلمة في الجملة، أو محل الجملة من غيرها، والعطف والتأكيد وبقية التوابع. أو ما يدخل تحت علم البلاغة، كعلم المعاني، ومباحثه من التأكيد وتزويل العنكر منزلة غير العنكر والعكس، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة ونحو ذلك. ومباحث البياني كالجواز المرسل والمجاز العقلي والاستعارة الأصلية والتمثيلية، والمكنية والتشريح ونحو ذلك.

وليبين كالجمع والجنس الكامل والنقص. وما يدخل تحت علم أصول الفقه كقواعد الاستنباط التي حققها علماء، كدلالة الألفاظ من الأمر والنهي، والمعموم

والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الاختصاص، ومفهوم الموافقة، ومفهوم المخالفة، والقياس بأقسامه، وممالك العلة ونحو ذلك، وبخلاف المفسرين في تفاصيل تلك العلوم التي تشعبت فروعها وارتبطت بمصطلحات لا يفهمها إلا من درس تلك العلوم الأصولية واللغوية وحذفها، بدخولهم في تلك التفاصيل أسلموا حاجزا بينهم وبين من لم يتقيا معرفيا لإدراك تلك المصطلحات، فاستغلق ما كتبوه لبعث تلك المصطلحات وعدم رواجها في لغة العصر وطرقه ومناهجه، ففسر شعبا لذلك فهم كلامهم، و إدراك أغراضهم. وثابتت صحتات عدم الفهم على القارئ لكلامهم، فلم يقدّر على متابعة ما حرروه من التفسير. والعصوف وهو حسير؛ متبرما لعدم فهمه، يلتهب شوقه لينفذ إلى إدراك المراك من النص القرآني، وتقوم تلك المصطلحات حاجزا منيعا.

ومن ناحية أخرى قاله إذا نظرنا إلى المجتمعات اليوم، فإننا نجد أن التعليم قد انتشر، فغزا الأمية وسحراها. وأن عددا غير قليل من المتعلمين يرغبون رغبة صادقة في فهم القرآن وجمع الناس بتلاوته إلى إدراك معانيه إدراكا سليما ينفذ إلى عقولهم فيهديها سواء السبيل، وإلى مشاعرهم فيهذبها ويعليها، وإلى أرواحهم فيوقظها ويجليها بنوره، فتشع على حياتهم طمأنينة ورضوانا، وسعادة وسلاما. لا أقصد بتفصيل هذه الصعوبة القويهن من أمر العناية بالأنواع البلاغية والنحوية والقواعد الأصولية. ذلك أن من درس تلك العلوم، يتعمق إحساسه بمعجز كلام الله، ويدرك حق الإدراك من تحدي القرآن للبشرية أن يأتوا بعشر سور أو بمسورة من نسخ القرآن. ويكون فهمه أعمق وكذلك شعوره بكون كلام الله أعلى ولكمل. ويتبين ما اختص به القرآن ويشرق في مشاعره إثرا فابينا كاملا، قوله تعالى: **﴿أَفَلَا لِمَن لَّهِ لَهْجَتُهُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَيَّ أَنْ يَسْأَلُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَسْأَلُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ شَهِيدًا﴾**¹ ولتقريب ذلك أقول ما روي عن أبي العباس المبرد إمام اللغة.

روي ابن خلكان: أن أبا العباس كان في مجلس بالبصرة فقلت جارية من وراء ستارة:

وقالوا هذا حبيبك معرض *** فقلت ألا إعراضه ليس الخطب

فما هي إلا نظرة لابسامة *** فتصطك رجلا ويسقط للجنائب

فطرب كل من حضر إلا المبرد. فقال له صاحب المجلس: كنت أضيق بالطرب! فقالت له الجارية: دعه يا مولاي، فإنه سمعتي أقول هذا حبيبك معرض، فظنني

لحنت. ولم يعلم أن ابن مسعود قرأ [وهذا بطي شيخ] فقال قطرب المبرد من قولها إلى أن شق ثوبه!

هذه القصة توضح أن من حقق علوم العربية: النحو والبلاغة، ودرّب ذوقه على البيان العربي، فأدرك أسرار العربية وما تفيض به من جمال ونقّة، يجد كل شرح للنص القرآني لا يتعرض لخواص التركيب مستنداً إلى قواعد المضبوطة في علوم العربية، يجده شرحاً منقوصاً بل مشوهاً للإعجاز الذي وقع لتأدي به.

ثم إنه قد طلب مني كثير ممن اتسعت أفاق تفكيرهم، وبلغوا في اختصاصاتهم المتنوعة حداً مرموقاً، من المهتمين والأطباء والصيادلة والحقوقيين، وتعلقوا تعلقاً كبيراً بالقرآن وتلونه، ويشعرون شعوراً مجيداً بجلاله^١ سألوني هل يوجد تسمير يصل بينهم وبين القرآن، يهتّم ببيان معانيه، وهدية الراشد، لا يعجزهم مثابته، ويندمجون بواسطته في الجو القرآني لا تباع هديه، وتعميق إيمانهم بطريقته في الدعوة إلى الله، وفتح أبواب الخير، ويقومون سلوكهم على أصوله، وينير أرواحهم ومشاعرهم ما تميز به، ولم أجد فيما أعلم من راعى في تفسيره ذلك،^٢ وألحوا علي في الطلب لأقوم بهذه المهمة.

وحضرتي وأنا أفكر في الأمر، ما نكره الإمام ابن عرفة في شرح الحديث الذي رواه مسلم بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له. يقول الأبى: وكان شيخنا أبو عبد الله [ابن عرفة] يقول: تدخل التأليف في ذلك إذا اشتملت على فوائد زائدة، إلا فذلك تخسير للكاغذ. ويعني بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة عليه. وأما إذا لم يشمل التأليف إلا على نقل ما في الكتب المتقدمة فهو الذي قال فيه: إنه تخسير للكاغذ^٣.

كما حضرتي ما نكره ابن خلدون في فصل (المقاصد التي ينبغي اعتمادها في التأليف وإلغاء ما سواها) لما قال إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها فعدوها سبعة:

أولها: استنباط العلم بحيث يكون المولف قد استقبل له الموضوع، وعناصره الأساسية ومبادئه، فيدون ما حصل في ذهنه ليستفيد منه من يأتي بعده.

ثانيها: أن يتأمل فيما كتب في الفن من السابقين، فيجد أن الإفادة منها لا تنلني لكثير من الناس، فيعمد إلى إيضاحها وتقريبها.

^١ وفيه الأعيان ج ٤ ص ٣١٧

^٢ إكمال الإكمال ج ٤ ص ٣٤٦

ثالثها: أن يترد على خطأ وقع فيه من تخمه ممن له المقام العلمي الرفيع الذي يجعل الناس يتابعونه ويتقون بما كتبه، فيعد إلى تصويب الخطأ والتبنيه عليه لينتفع به من سيأتي.

رابعها: أن يهديه تأمله في الموضوع أن من سبقه أغفل بعض الأبواب والمسائل، فيكملها ويكون استيعاب من يأتي بعده للموضوع أتم.

خامسها: أن يلاحظ أن مسائل العلم غير مرتبة ترتيباً منطقيًا، يسهل على طلابها النظر بها، فيعد إلى تنظيمها وترتيبها.

سادسها: أن يجد مسائل العلم مفردة دخلت في علوم أخرى، فينتبه إلى الجامع بينها، ويقوم بذلك فيضمها ويكملها ويرتيبها فتأخذ مكانها في أصناف العلوم.

سابعها: أن يبعد إلى اختصار المطولات التي تصاب فيها قلم المؤلفين السابقين، فكرروا، وتوسعوا في التعبير، مع الحرص على الاحتفاظ بما هو ضروري¹.

إن ما نقلته عن هذين العلمين الكبيرين جعلني أقدم رجلاً ولآخر آخرى. وضاعف تهيبي من أن يسجل قلبي في كتاب الله فيها غير شديد يؤثر في غيري. وهذا لي ربي أن استفتح بالاستخارة المثبة في يوم مبارك يسر لي فيه أن أكون في الروضة الشريفة والقنبر القوي عن يميني. توجهت إلى علي ذاته لي يخبر لي ما فيه خير، فقد عزمي على المضي فيها قصدي، وشرعت مستعيناً برعايته وتسيده، وجميل عونه، فأمل كل أية تأملاً عيقاً، وأنظر فيما تبليغه يدي من أنظار علماء الأمة رضي الله عنهم، وجازاهم عنا أجمل الجزاء. ولأكون بين مدلول الآية وبين نظائرها، ثم أسجل ما فهمته، بأدلاجي ليكون التعبير عما استقر في ذهني تعبيراً سهلاً، دون أن أصرح بالارتباط بين دلالة النص والقواعد اللغوية والأصولية التي أراعيها. فضلاً، لا أقول إن المخاطبين بالآية منكرون لمضمونها إنكاراً شديداً مما أوجب التأكيد رفعا لإنكارهم، لو هم سلوكهم منزلة لمنكر فجاء التأكيد تبعاً لذلك التزليل، بل أقول في تقديم الآية مثلاً: بكل تأكيد. ويسر لي سبحانه أنني ما كتبت كلمة في هذا الكتاب، طيلة السنوات التي محضتها لتفسير كلامه جل وعلا، إلا وأنا على وضوء. وكلما توقفت في فهم الآية، ولم أجد فيما كتب حولها ما يلغني توجهت إلى الله بالصلاة ليفتح علي بصيرتي، فما كتبت إلا ما أتا مقتنع به ظان أنه المفصود. والله الشكر على ما أسخطني به من الطمأنينة. وما لم أصل فيه إلى رأي راجح مقبول لديه عليه وأكمله إلى العليم الخبير. كقوله تعالى: **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دِينَ مِنَ الْأَرْضِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ**² إنه بعد التأمل ومراجعة ما

¹ المقدمة ج 1 ص 441/442/443 - ينصرف.

² سورة النمل آية 82

كتبه المتابعون لم يجد تصوراً متفقاً في تعيين المصرك من الدابة، فوضعت الأمر إلى عالم الغيب.

ومجد الناظر في هذا التفسير لفي ضربت بعض الآيات على وجه ما رايت أحداً سبقني إليه، مثلاً قوله تعالى في سورة البقرة: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَلَسُوا وَالتَّصْلَى وَالسَّالِينَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَفِيهِمُ الْغَايِبُونَ)** ¹ بصرح المفسرون بأن الصائفة يجدون الكواكب ولم أقبل ذلك. إذ كيف يستقيم أنهم عبدة كواكب ونص الآية: من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فمنهم قطعاً مؤمنون بالله، وهذا ما استحدثني لمواصله البحث حتى طفرت بما يربط الإنشغال، وعلمت من التدرسات التي عانيت بهذه الطائفة، أنهم يؤمنون بالله ويعتقدون أن شريعتهم أوحى الله بها إلى سيدنا يحيى، وينفون نوة ما عدها من الرسل كما كتبت تفصيل ذلك في تفسيري للآية. ولذا اخترت أن أحق الفهارس بحول الله، بغير من خلاص بالآيات التي لم أتبع في فهمها غيري من المفسرين السابقين. وهم كما يقول ابن مالك في ليل معطي:

وهو بسبق جازز تفضيلاً *** مستوجب ثقتي الجميلاً

والله يقضي بهيات وفرة *** لي وله في درجات الآخرة.

واعتمدت في تفسير النص على رواية كانوا عن نافع رضي الله عنهما، وأسم تعرض لأختلاف القراء، تيسيراً على القارئ حتى يحصر فهمه في النص على وجه واحد. ولعن يرغب في تتبع للقراءات وما يترتب على ذلك من اختلاف في فهم للآية، أن يعود إلى تفسير ابن عطية رحمه الله، فقد عني بذلك وأجابه.

ومنهجي في هذا الكتاب أيضاً لفي:

1- أعني أولاً، بشرح الألفاظ التي توقع أن تأتي في حاجة إلى بيانها، وحتى للبي رغبة المفسر الباحث فقط على معنى الكلمات.

2- ثم أقوم بشرح إجمالي للوحدة القرآنية دون تفصيل ليجد فيها القارئ الأصول التي نكل عليها.

3- لفصل ما نكل عليه الوحدة بطريفة تجعل النص واضحاً، ومقسماً تقسيماً قد يكون بالأرقام ليكون أعون على المتابعة الواعية لظاهر النص القرآني. وأريد أن أنهي هذه المقدمة بما شكره الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: **(وَمَا ذَا كُنْهِ إِلَّا كُنْهُ سِرّاً)**. والقرآن مبارك لأنه يدل على الخير العظيم فالبركة كائنة به، فكل البركة جعلت في لفظه. ولأن الله تعالى قد أودع فيه بركة لغزونه المشغل به، بركة في الدنيا وفي الآخرة. ولأنه مشغل على ما في

لعمل به كمال النفس وطهرتها بالمعارف النظرية، ثم العملية، فكانت البركة ملازمة لقراءته وفهمه، قال فخر الدين: (قد جرت سنة اديان الباحث عنه، [القرآن] المتمسك به يحصل له عز' للعنوا، وسعادة الآخرة. وأنا نقلت أنواعا من العلوم العقلية والعملية فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدنيا مثل ما حصل لي بسبب خدمة هذا العلم [يعني التفسير])¹

وختاماً أتوجه إلى الرحمن الرحيم، العلي القدير، مبتهلاً لفتهال المخبئين، داعياً في ضراعة أن ينفع به المؤمنين والمؤمنات، وأن يرحم والدي ومن علمني . وأن يكتب لي ولكم حسن الخاتمة .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

¹ التفسير والتبوير ج ١ ص ١٧٩

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ۝
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

أسماء السورة:

فاتحة الكتاب، أم القرآن السبع المثاني. سميت بفاتحة الكتاب لأنها أول سورة في ترتيب المصحف المحفوظ عن رسول الله ﷺ. فمن يكتب المصحف يفتتح بها ومن يقرأ القرآن كله يفتتح قراءته بها. وهي سورة مكية وهي من أوائل السور نزولا. واختلف في ترتيبها بين أن تكون الثالثة تقمها نزولا قرا باسم ربك الذي خلق وسورة المدثر، فتكون هي الثالثة. وذهب بعضهم إلى أنها الخامسة تقمها أيضا المزمّل والقلم.

وسميت أم القرآن لأنه عند التأمل فيها، تجدها تستل على الأصول التي على القرآن ببيانها وتفصيلها، كما ميشين لك ذلك في تصوير معاني آياتها. وسميت السبع المثاني لما ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني).

البسمة (بسم الله الرحمن الرحيم).

بسم الله الرحمن الرحيم: ثبتت كتابتها في أول سورة الفاتحة، وفي أوائل السور ما عدا سورة براءة. ولجمع فقهاء الأمة على أنها آية من سورة النمل في قوله تعالى

(إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ وَإِنَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

وأداهم اجتهداهم في عدا آية في فواتح السور غير سورة براءة إلى الآراء الثلاثة التالية:

- أنها ليست آية في أوائل السور لا في الفاتحة ولا في غيرها.
- أنها آية في سورة الفاتحة فقط.
- أنها آية في فاتحة كل سورة ما عدا سورة براءة.

تسميه

كل واحد من الذين رجحوا رأيا من هذه الآراء الثلاثة على هدى من الله، وهو مأجور - ولذا فعلى المؤمن أن لا يعترض على غيره إذا سمعه يترك قراءة البسملة مع الفاتحة في الصلاة كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك، ولا على من يفرضها كما هو مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل.

بيان معاني الألفاظ:

بسم الله: هو العلم الدال على الذات للعلية.

الرحمن: صفة لله تكل على كمال لطفه بمخلوقاته وإعانتهم وتيسير أمرهم.

الرحيم: صفة ثانية لله تعالى، تكل على أن رحمته تعم الكائنات جميعا كما قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

بيان المعنى الإجمالي:

افتتح قرآني للقرآن مستعينا باسم الله الذي يرحمته يستعني بمناوذة كتابه على الطريقة التي يرضاها، ويقف قلبي على هدياته، ويفهمني مقاصده، وييسر عليّ اتباع أحكامه وتعاليمه بآياته، ويلقني به في الدنيا والآخرة.

والبسملة: يقرر المؤمن بها شريف أعماله، ويكتسب منها الأمر الباطني، وتنزل بها عليه البركات.

والافتتاح بها هو الأدب الذي طمعه النبي ﷺ للمؤمنين في مناسبات عدة، منها عند قصد الطهارة، وعند الأكل، وعندما يلقي قسما من إلهي فرائضه. وعندما يستوقف من نومه، وعند الاتصال الجنسي بالزوجة، فقد قال ﷺ: لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان، وعندما يخرج من بيته، وعندما يعود إليه، وعندما ما يركب، وعندما ينزل، وعندما يشرع في عمل، وعندما يفلق بلسه أو يفتح، وعندما ينكي، وعندما يصطد.

2-1 الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم

بيان معاني الألفاظ:

الحمد لله: الكامل في ذاته وصفاته مستحق للحمد، وأهل اللثناء عليه بما فيه من كمالات.

رب العالمين: هو الذي أثر لطفه في جميع الكائنات وربهم من بداية أمرهم حتى بلغوا كمالهم.

يوم الدين: هو يوم اجراء في الآخرة

بيان المعنى الإجمالي.

نشئ عليك ربنا، ونعير لك عما استقر في عقولنا وأرواحنا من تعظيمك وتقديسك لما اتصفت به من الكمالات، ونشهد أنك رب كل كائن في هذا الوجود لا شريك لك. وأنك الموصوف بالرحمة التي لا تحدها حدود، وأنك وحدك المالك لكل أمور يوم القيامة.

بيان المعنى العام.

1- أثنى الله على نفسه، وفي ذلك تعليم للبشر طريقة تتلهم على ربهم، فعلى القلوب أن تستشعر دوماً عظمة الله وكماله، وأن تتحرك الأسمعة بالتعظيم عن ذلكنم الكمال. وتقتصر اللغة عن الشاء على الله بما هو إله، فعلمهم ربهم ما يقبله منهم في حدود طاقتهم بأن يقولوا **(الحمد لله رب العالمين)**

اعتنى الله بهم في جميع أطوار خلقهم، ورباهم حتى بلغوا كمالهم. يستوي في ذلك عالم البشر وعالم الحيوان وعلم النبات، والأرض وما تحويه، والكراتيب والمجرات، فهو الذي لطف بها في كلياتها وجزئياتها، في حركاتها، وفي كل طور من أطوار وجودها. على المؤمن أن يتكلم بهذا الأدب، وينطلق لسانه وقلبه بالتوجه إلى الله بالحمد كما تأمل في الكون، وكلما بشر لسوا من أمور حياته التي أنعم الله له في مباشرتها، مستشعرا عظمة الله به وتيسيره.

2- وعلى المؤمن أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله موصوف بالرحمة الكاملة التي تظهر آثارها في الرفق واللطف والإحسان والعون والتوفيق والجزاء على ما يصدر من الإنسان من خير. وما كان ليحصل كل ذلك لولا رعايته وعنايته **(الرحمن)** الذي نصل رحمته إلى جميع المخلوقات **(الرحيم)** قل تعالى **(ورحمته وسعت كل شيء)**.

3- مائة يوم الدين.

قرأها النبي ﷺ بالآلاف بعد العيم، وقرأها **(مكث)** بدون لفظ، وأقر من قراها على الوجهين جميعاً.

وصف الله نفسه أولاً بأنه رب الكائنات جميعاً العاقل منها وغير العاقل، وثانياً أنه تولى الجميع برحمته والطفه، فلا يخرج عن ملكه شيء ولا يصوم من رحمته كائن. وثالثاً أنه من كمال ربوبيته ولطافته وإحسانه أن ينصرف الإسم بالخالقة في الأرض، ورحمة ظم يعمله بدون هدائيه التي بلغها إياه بولسطة رسالاته. إنه لا يصلح العالم إلا بقباع أولاده واجتنب نواهيهم، ولذا نهى أنه مجزئ عن أعماله في يوم لا يملك أحد أي أمر من الأمور، تخص فيه الكائنات البشرية لعنله فيلقى كل فرد جزاء أعماله الأخيرة ثوباً وتكريماً، وجزاء عصيانه ومخالفته شرع ربه مهانة

وعقبا اليماة إذا لم يظفر له ربه تقويه. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

4- إياك نعبد وإياك نستعين

بيان معاني الألفاظ:

إياك. أنت لا غيرك.

نعبد. نقوم بما يقتضيه الخضوع.

نستعين: نطلب العون على تحقيق الخير.

بيان المعنى الإجمالي:

نخصك ربنا بالعبادة فلا نعبد غيرك ولا نطلب العون إلا منك.

بيان المعنى العام:

4- لما كان الخلق والعبادة بالكائنات، في جميع أطوارها، من فضل الله ورحمته، وأن تصرف الإنسان فيها تكليف وشرف له سيحاسب عليه يوم القيامة: هل كان ملتزما بما شرعه الله أو مفرطا؟ ولا ينجح في حياته هذه ولا يحقق الفوز يوم القيامة إلا إذا طبق ما شرعه الله له في تصرفاته. ولول ما تقوم به أعمال الإنسان الإخلاص لله، الإخلاص الذي يوجب أن لا يفتن رضا أي كائن على مرضاة ربه. فالمؤمن لا يعبد إلا الله، ولا يفتن على مرضاته ولدا ولا مالا ولا زوجا ولا سلطانا. هذا معنى لا نعبد أحدا إلا أنت (إياك نعبد)

وقوة الإنسان محدودة لتحقيق معانيه. فالافتداء لما هو أسلم في العقبة، وقوة تأثير شهوات النسر والمعوقات المختلفة، تجعل المكلف لا يستطيع بما أوتي من قدرات أن يتغلب عليها، والقادر المقصوف المساعد برحمته وفضله هو الرب الكريم، فيطلب المؤمن منه أن يعينه، ويعد عنه المعوقات ويسد بالأطراف.

أَعِدْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ

بيان معاني الألفاظ:

أعدنا: أعنا بلطفك على الخير معرفة ووعلا.

الصراط: الطريق الواسع.

الممكّن، غير المعوج.

أنعمت عليهم. مكنتهم من خيرات الدنيا والآخرة التي لا يصاحبها ولا يعقبها ما يكرها.

المغضوب عليهم: ضد المرضي عنهم

الضالين: الضالين جمع ضال، والضال من عرف الطريق للصحيح ثم حاد عنه حتى سبه وكذلك من جهله وتلفقه الضياع.

بيان المعنى الإجمالي:

أعز ربنا وأهدى لاتباع الطريق القويم الذي يبلغ به سالكه الغاية ولا يضل. هذا الطريق القويم الذي أكرمته بآهدية إليه الذين تعصفت بالإتباع عليهم، فلا هم من الذين عصبت عليهم، ولا هم من الذين اختلفت عليهم السبل وكتبت عليهم الضلال والضياع والحيرة.

بيان المعنى العام:

5-74: تختتم سورة الفاتحة بإرشاد المؤمنين أن يتوجهوا إلى ربهم، وقد أعلنوا عن إخلاصهم في العبادة **(إيساء لعبد)** وعن اعترافهم بالحاجة إلى عونه **(وإيساك نسمين)**، أن يتوجهوا بقلوبهم ولؤلؤهم وعقولهم إلى الله تعالى الأعلى الذي بيده الأمر كله في خضوع وإذلة، أن يلطف بهم فيصبرهم بالطريق المستقيم الحق الذي لا عرج فيه. المتميز بالوضوح من يداينه إلى غايته ونهايته، الطريق الذي لا يحدون فيه معطيات ولا مجامع طرق محيرة، يتحدر فسالك فيها إليها الموصول. هو طريق مستقيم يدينه الإيمان وغايته رضوان الله.

ويتميز هذا الطريق مع استقامته ويسره وسهولته، بأنه طريق واضح ينم من مسار عليه في الحال والمآل بالطمأنينة والرضا، لا يتحيز في مساره ولا يفلق ولا يضطرب، مشرح الصدر أمل لا يئس. وهو الذي موّده وبينه المعصطفى بما بلغه من وحى، وبما أقام عليه الحياة الفردية والاجتماعية من قيم هي الحق الذي لا يختلف باختلاف الأزمنة والظروف، وهو ما يتفق في أصوله مع رسالات الله المتعاقبة للبشرية. **قال تعالى (إني أنذرتهم ربهم إلى صراط مستقيم هذا آية ما شاء إبراهيم حنبلاً وما كان من المشركين)**¹. هو الطريق الذي يختلف عن الطرق التي هلك من تبعها فحل عليه غضب الله بما يتبعه من عذابه ونقمته. من الذين جاءهم الهدى من الله على لسان رسوله فغيروا عن عهده وبنوا وحرقوا الحق عن قصد، وحكموا أهواءهم ومصالحهم العاجلة، فرفضوا منكرين الحق الذي أسروا باتباعه. ويشمل المفضوب عليهم اليهود ومن جرى على شاكلتهم من أهل الديانات السابقة.

كما يختلف عن طريق الذين اتباعوا الله هداهم فقصروا في فهمه وحفظه فاختلفوا عليهم الذي جاءهم به رسول الله، فحكموا تلويلاتهم وآراءهم فضلوا عن

للتطريق الممتد من المعنى. ومن هؤلاء النصارى الذين كرموا رسولهم حتى جعلوه
إلهاء وسنوا الوثنية، ورفضوا ما خلقه الله للناس ولمن عليهم به من مباحح الحياة
واستلخهم في أرضه. قال تعالى **﴿وَرَحِيمَةً يُدْعَوْنَ بِهَا كُنْتُمُ الْغَالِيينَ﴾** **﴿إِلَّا الْغَالِيينَ﴾**
﴿وَهُوَ الَّذِي يُدْعَىٰ بِهَا عِبَادًا حَقًّا عَلَيْهِ﴾

من مزايا سورة الفاتحة:

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي سعيد بن العلى **﴿عنه أن رسول الله
ﷺ قال له (لأعلمك سورة هي أعظم السور في القرآن قيل أن يخرج من المسجد.
قال: ثم أخذ بيدي فلما أريد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمك سورة هي أعظم
سورة في القرآن؟ قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم
الذي أوتيته)﴾**¹ وأخرج الإمام مسلم في صحيحه الحديث لقنسي بسنده إلى أبي
هريرة **﴿عنه والأربعة وأحمد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: قال الله عز وجل:
صمعت الصلاة بيني وبين عبدي ولعبدني ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب
العالمين قال الله تبارك: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تبارك: أتيتني
على عبدي. وإذا قال: مالك يوم الدين. قال: مجدتني عبدي. وقال مرة: فوضت إلي
عبدي. فإذا قال: **﴿هك نعوذ بك نستعين﴾** قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدني ما
سأل. فإذا قال: **﴿هك نعوذ بك نستعين﴾** قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدني ما
سأل. فإذا قال: **﴿هك نعوذ بك نستعين﴾** قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدني ما سأل.﴾**

¹ فتح الباري ج 9 ص 223.

² قبض التدوير ج 4 ص 475.

كَمْثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٥﴾ سَوْفَ يَكْفُؤُكُمْ عَنْهُمُ فِيهِمْ لَا يُزِجُوهُمْ ﴿٢٦﴾ أَوْ كَمْثَلِ بَيْنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَزَعْدٌ وَنَارٌ تَمُوتُ أَضْيَعُ فِي أَظْهَانِهِمْ بَيْنَ الصَّوْعِ وَحَذَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ عَجِيزٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ بِكَذَلِكَ أَلْهَى اللَّهُ الْكُفْرَانَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْبَصَرَهُمْ ﴿٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

عشرون آية افتتحت بها السورة. رسمت بدقة ملامح الأنماط البشرية في الحياة، في عهد الرسالة وفيما يتلوها من أزمان إلى أن يورث الله الأرض ومن عليها.
النمط الأول: المؤمنون - النمط الثاني: الكافرون - النمط الثالث: المنافقون
بيان معاني الألفاظ:
الكتاب - القرآن.

لا يهيب لهم: لا شك فيه، صحيح على التوهم.
هدى: الإرشاد لما هو أصح في الحاضر والمآل في الدنيا والآخرة.
المؤمنين: جمع: واحده المؤمن، وهو الذي اتخذ لنفسه وقاية من المكروه، فتحصن بذلك ليحقق لنفسه السلامة والنجاح في عاقبه.
الغيب: ما لا تدركه الحواس من الحقائق كالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر وكل ما أخبر عنه النبي ﷺ مما لا يدرك بحاسة من الحواس.
يقيمون الصلاة: يتكرر منهم أداء الصلاة كاملة.
الآخرة: الحياة بعد الموت.
يوقنون: يعلمونها ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا شك فيه.
المفلحون: جمع مفلح: الفلحون بصلاح الدنيا والآخرة.

بيان المعنى الإجمالي:

ذلك الكتاب العظيم الذي عصمه الله من التبدل والتغيير. والحق الذي ورد فيه ثابت على مر الدهور والعصور، لا يلحقه شك نسيه ولا ما يدل عليه، يهدي من لم يكن على دين سماوي فسدق بما جاء به وحصن نفسه من الخسران فأسلم بالله وبرسوله وبكل ما أخبر به الرسول من الأمور التي لا يتغيها العقل ولا يستطيع الوصول إليها بمفرده (غيب) ويوظفون على أداء صلواتهم كاملة ويبدلون أسوأهم في سبيل الخير مع سماحة نفس. ويهتدي به أيضاً أهل الكتاب الذين وصلوا إيمانهم برسولهم فأمنوا

بما أنزل إليك. مع يقينهم بالبعث واليوم الآخر. فهؤلاء فريقان هم الذين اهتدوا بما بلغه الرسول من وحي وهم الذين تحقق فوزهم في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام .

1-المرء

الحروف المقطعة في أوائل السور

المرء تحرا هكذا ألف - لام - ميخ -

لفتت هذه الطريقة المبتكرة في القرآن أنظار المتأملين في القرآن العظيم. إذ لا يوجد في شعر العرب ولا في نثرهم موضوع مفتتح بحروف لا تتكون منها كلمة. والقرآن نزل بلغة العرب وعلى طريقتهم في التخلط. وقد تكرر تلك في فواتح تسع وعشرين سورة. ثلاث منها نزلت في المدينة (البقرة وآل عمران والرعد) وباقها نزلت بمكة.

تجد في كتب التفسير محاولات ثلثين وجها لذلك. ومعظمها ذاتي غير موضوعي. وتقربها: أن ذلك لإبراز أن القرآن مركب من هذه الحروف التي يجد كل فرد منكم أنه ممكن منها، ومع ذلك فإن يستطيع البشر مجتمعين ولا مقترقين أن يأتوا بمثله. ولا بسورة تبلغ مستوى قصص سورة منه. ولعل من ذهب إلى هذا قد استألف لذلك بأن السور التي افتتحت بهذه الحروف قد ورد ربط تلك الحروف المفتحة بها بالقرآن وتنزيله. لكن هذا حكم اعطى فأربع من السور المفتحة بالحروف المقطعة لم يذكر لفظ الكتاب ولا القرآن ولا التنزيل ولا الوحي بعدها (مريم- العنكبوت - الزمزم وظاهر سورة القلم). والطريقة الأصل والأرجح أن نوقف بأن لهذه الحروف مزايا في لفتناج القصور التي بنيت بها. وأن علمها عند الله. وأنه لا يتعلق بها حكم ولا تشريع ولا بيان عقيدة. وكما أن حاسة البصر لا تستطيع أن تدرك كثيرا من المحسوسات مع أنها موجودة تقابل عتبة عينه ولا يراها وقلمه جلده ولا يحس بها. فكنك العقل البشري رغب وسمع الفقه. وعظيم قدرته. يضعف عن إدراك جميع الأسرار.

2.1. المرء ذلك الكتاب..... للمتقين

ورد في سورة الفاتحة امنا الصراط المستقيم. والصراط المستقيم تكفل ببيانه الكتاب العظيم الكامل (القرآن) الذي ضمن الله بقائه على نفاذه لا يدخله التحريف ولا الزيادة ولا النقصان ولا يحدث في الوجود ما يرزعع النفاذ به. يجد فيه المؤمن

الطريق الامن الموصل للنجاة في عصر نزوله وفي الأزمنة التالية إلى يوم القيامة. وهذه خاصية للقرآن لا يشاركه فيها كتاب آخر، فقصه لم يتخل فيه أي تغيير يقينا. هذه صورة الفريق الأول وهو نوعان:

النوع الأول: المسلمون الذين آمنوا بما جاء به النبي ﷺ ولد يكونوا متدينين قبل ذلك بدين سماوي، ممن نفذ القرآن إلى أرواحهم وعقولهم فهداهم إلى الطريق المستقيم، كل فرد منهم قد أبدع القرآن، عن فكرة الضلالات والأوهام، وكشف له ما ينجيته وحذره مما يفسد عليه أمره ويهلكه في حاضره وعقبه أمره، فحصن نفسه بالمقيدة للصحة الواضحة، وتبعنا لذلك أجرى لعله على ما يوافق لأمر ربه ولم يمتد عن نواحيه وما حرمه، هؤلاء هم المؤمنون الذين آمنوا بهدية القرآن.

3- الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناههم ينفقون

ثم عمق القرآن بين المهتدين.

أولاً: إنهم يؤمنون بكل ما جاء به الكتاب الحكيم، وصنفوا رسول الله في جميع ما أخبر به عن الله مما لا تستطيع حواسهم أن تصل إليه، يؤمنون بما تصصف به المولى سبحانه من صفات الكمال والجلال، ويؤمنون بالملائكة ورسوله الذين بعثهم الله متتابعين لهدي الناس، وبالبعث واليوم الآخر، وما أخبر به عن لحول يوم القيامة، وبكل ما أثبتته القرآن، فطمأنوا بأيمانهم هذا، ووجدوا في ذلك ما يحبيهم عن التساؤلات التي حيرت غيرهم ودمت بهم في الضلال. إنه بالإيمان بالغيب يسمو الإنسان عن مرتبة الحيولى الذي لا يدرك إلا ما يصل إليه بحواسه ويذكر ما وراء ذلك، فيرتقي إلى الأتم بعالم الكمال والتجرد.

ثانياً: إنهم يحافظون على الصلاة عمداً للدين، ويؤدونها على الكمال وجه خالصين لله، يعمون بأداة المناجاة والوقوف بين يدي ربهم. إنه بالصلاة تصفو الأرواح ويتمتع الإيمان، وتلين القلوب.

ثالثاً: إن إيمانهم أقتهم بالحقيقة التي بغفل عنها كثير من البشر هذه الحقيقة هي أن ما بأيديهم من مال ومن متاع ومن خيرات هي فضل الله عليهم وورقه الذي مكنهم منه، وهذا ما يقطع من النفوس جرثومة الشح والأثنية وشدة الحرص واستبداد الخوف من الفقر، فشورهم بالتضامن مع المجموعة يطوّرهم للبذل والإنفاق.

4- الذين يؤمنون بما أنزل اليهم وما أنزل من قبله وبالأخرة هم يوقنون

النوع الثاني: أهل الكتاب: الذين آمنوا برسالة النبي الذي كانوا يظنون أنهم يقيمون شريعته، كحال اليهود مع سيدنا موسى، والنصارى مع سيدنا عيسى، عليهما

السلام. ثم أضافوا إلى إيمانهم السابق قبول القرآن وما أنزل على سيدنا محمد ﷺ وقوموا عقائدهم السابقة بحقائق الإسلام. وضبطوا علاقاتهم بالبشر وبخالق البشر، على الأسس التي بينها منهج الدين الحق. الكل عبيد الله. فطهروا عقائدهم مما ترسخ فيها من الضلال والزيغ، وما علق بها، كعقيدة اليهود والنصارى: أن الله فضلهم على غيرهم، كما حكى القرآن عنهم: **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ نُوحٌ أُنْذَارًا** **وَلَحِيزَةً**^١

5. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون

للقريقتان من النوع الأول، من الذين لم يكونوا على دين فانتشروا صنوورهم للإسلام، قاموا بالغيب وحافظوا على الصلاة، واتقوا مستحضرين أن ما يفتقونه هو في الحقيقة رزق الله الذي رزقهم، ومن الذين كانوا ينتسبون إلى رسالة من الرسالات السماوية، واتقوا ربهم على هذا النحو وجمعوا بين الإيمان برسالة الإسلام وما سبقها من الرسالات، ينشروهم ربهم بأمرين:

أولاً: أن الله حكم لهم بأنه قد تمكنت هداية الله في قلوبهم تمكنوا لوضح لهم الطريق، وكرسخت صلتهم بهدايته واستقرت في أرواحهم ومشاعرهم.

ثانياً: بشارة اختصوا بها، هي الفوز في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وما أعظمها بشارة من عالم الغيب والشهادة. وكما قال ابن أبي إسحق: المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا.

النمط الثاني: الكافرون .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ هَٰذَا اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

بيان معاني الآيات:

الذين كفروا. المجاهرون برفض ما جاء به رسول الله ﷺ سواء أكان هذا الرقض بالقول أو بالفعل أو بهما معاً.

سواء عليهم أأنذرتهم. لا يختلف حالهم بين إعلامهم بما يحصل لهم من مكروه في المستقبل يخاف الإنكار أن يصيبه، وبين عدم إنذارهم به.

لهم الله على قلوبهم. الختم طبع وتغطية تمنع من الفتح كالختم على الرسالة والطبع على الباب.

غشوة: ما يُغطى به الشيء حتى لا ينفذ إليه ما يرد عليه من الخارج.
العذاب: الألم الذي يذهب حلاوة العيش.

بيان المعنى الإجمالي

إن المصممين على الكفر يستوي تحذيرك لهم وعدم تحذيرك فهم لا ينفذ نور الوحي إلى عقولهم، عليها قفل محكم لا يزول. وكذلك أسمعهم لا يصل إليها صوت الوحي، وحببت أبصارهم حجب غليظة فهم لا يبصرون ما في الكون من دلائل على الحقيقة، وحكم الله عليهم تبعا لذلك بأنهم سيعذبون عذابا عظيما.

بيان المعنى العام:

6-7: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ مَسْأَلُهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**

النمط الثاني: هم الكافرون الذين صمموا على رفض ما ندعوهم إليه وما تحذره منهُ، بلغ رفضهم وعنادهم أن منعوا عقولهم من التفكير فيما تنبأ عليهم وما تحذره منهُ، فسواء وعظك وعدم وعظك، لا ينفذ لعقولهم المقطة أي شعاع من نور الوحي. وأصموا أذانهم وأقفوا أسمعهم فلا تصل إليها كلمات الوحي، وغطوا أبصارهم فهم لا يتأملون في آيات الله في الكون الدالة على كمال علمه وقدرته.

والله قد رزقهم عقولا يتأملون بها وينفخون بها إلى الحقيقة فيدركونها حسب ما تقتضيه قوانين التفكير، ويستطيعون بحولهم من سماع وبصر ليكون ما تدركه الأسماع والأبصار هاديا ودليلا للعقل على المعرفة السعيدة عن الخطأ، فاقفل عقولهم عن التأمل وعدم انتفاعهم بأسماعهم فيما خلقت من أجله، وعنادهم بالتزام الرقض، هو الذي منعهم من الإيمان ومن الانتفاع بما أودعه الله في كونه من آيات بيئات. وقد صرحت الآية الخامسة من سورة فصلت بذلك قال تعالى: **(وَقَالُوا**

كَلِمَةً فَرَكْنَا مَا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفَرَّ أَزْوَاجُنا مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ).

كفروا بإزافتهم، رفضوا للتكثير فيما جاءهم به عن الله بإزافتهم، وانصرفوا عن سماع الوحي بإزافتهم، ولم يعملوا أبصارهم فأغضوا أعينهم عن مشاهد الخلق والحكمة في كل جزء من أجزاء الكون بإزافتهم. فهم مسؤولون عن ذلك جزاؤهم عذاب عظيم. وما أشد هول هذا العذاب الذي وصفه ذو الجلال والإكرام **(عذاب عظيم)** فهو فوق ما ينصوره البشر أعلننا الله من الحزي والعذاب.

النمط الثالث للمناقضين:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ: آمَنَّا بِاللَّهِ وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِالْآخِرِ وَإِنَّا لَمُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ فَتُخَذَلُوعُونَ
اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا تُخَذَلُوعُونَ، إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾ وَلِلَّهِ يَوْمَئِذٍ

فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ وَإِذَا نَبِلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ وَإِذَا نَبِلَ لَهُمْ تَابُوا كَمَا تَابُوا لَأَنَّهُمْ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا تَأْمُرُ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِمُنَظِّبِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُنْذِرُونَ ۖ اللَّهُ يَشْخَرُ بِكُمْ وَيَعْلَمُ مَا هُمْ نَاصِحُونَ ۖ أُولَئِكَ الَّذِينَ آسَرُوا الْعُقُلَةَ بِالْهَيْدَىٰ كَمَا وَعَدَ فَنَجَّيْنَاهُمْ بِمَا آتَوْا مُؤْتَايَ ۖ إِنَّ مِثْلَهُمْ كَمَثَلِ الْآلِيِّ أَسْتَوَفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَ ۖ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ لَا يَخْرُجُونَ ۖ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ عَمُوا ۖ لَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۖ أَوْ كَصَيْفٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَزَعَا يَرْجَىٰ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَقُوا الْمَوْتِ ۖ وَاللَّهُ يَحِيطُ بِالْكَاذِبِينَ ۖ يَكَاذِبُ الْبَرِّي وَيُخْلِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ سَبُّوا لَهُ ۖ وَإِذَا ظَلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَهْلَكَهُمْ سَمِيعًا ۖ أَتَعْصِمُونَ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ

يَخَادَعُونَ اللَّهَ: يظهرون من أقوالهم وأفعالهم وجها حسنا وهم يخفون ضد ذلك تضليلا وتمويه.

مرض القلوب: اللجاج.

ألا: حرف يأتى به في أول الكلام لينبه السامع على ما سيمعه من المتكلم كما يتنبه بالنداء. المفسدون: جمع فسد وهو الذي يحول النافع إلى ضار.

السفهاء: جمع سفيه وهو وصف لمن كان ضعف العقل لا يحسن التمييز.

بمذمهم: بمهلهم وبملي لهم ويزيدهم.

الظقيين: مجاوزة الحد والمبالغة في الشر، ومنه الكفر.

يعصون: يتحيزون لأطماعهم بصائرهم.

الشیطان: مخلوق محض قدراته جميعها للشر، والتطيس على الناس، وإضلال من يتبعه.

الاستهزاء: السخرية.

الصيب: سحاب تصحبه لمطار.

أصابعهم: لأصابعهم.

الصواعق: جمع صاعقة، النار التي تنفخ بها لسحب.

خوف الموت: خوف الموت.

الضلالة: الأخذ بسرعة.

لنساء لهم: النار البرق لهم الطريق.

لظلم عنهم: عميد بظلامه فأخفى عنهم معالم الطريق.

لنصوا: وقوا عن المشي.

بباز المعمر الإجمالي.

ثلاث عشرة آية نالت لكشف حال المنقذين. هذه الصفة الثالثة للخطيئة في المجتمع. أول صفاتها الكذب فهي تعلق الإيمان وهي كلمة بشهادة الله، والصفة الثانية هي الخداع، والصفة الثالثة هي الغيابة بظنهم أن كذبهم يروج ويكتسب لهم السلامة، وغفلوا عن علم الذي لا تخفى، خفية. وذلك تابع من نفسية حسنة ورضيت بالفساد التي هي عليه، ورأبنا أن عقولهم منحرفة مريضه تمكن منها المرض الذي يتعاقب مع الزمن، والوصف الخامس المكشوفة للوقحة حتى إذا تقدم إليهم من يعرف منكرهم ونهاهم عما يقومون به من فساد، قالوا: إنما نحن مصلحون. ويُلبسهم الله بكلمته الفصل: للوصف السادس وهو الفساد. **ألا بهد المفسدون.** وتكشف الآية عن ثلوثهم تبعا للظروف. فهم مع المؤمنين يدعون الإيمان، ومع كلاتهم الكفرة يذكرون ثباتهم على الكفر وأنهم يستهزئون بالمؤمنين. وتكون عاقبة هذا التلويح أن الله لا يبيهم، بل يتركهم يجولون جولات قصيرة المدى وهم معجبون بأنفسهم، مع أنه يعلم ما يترصدهم من تمار وإدلال، قصورتهم صورة من يستهزأ به. وهم كمن عقد صفة خاسرة. ومثلهم القرآن بمثلين:

المثل الأول: أنهم كجماعة سائرة في ليل مظلمة فلوقد أحدهم تارا تهديهم للطريق الذي يبلغهم غايتهم. ثم إن لنساء نورها حتى لطفأت وأطبق عليهم الظلام الموحش. فتحيروا كلهم فقدوا جميع حواسهم: السمع والبصر والنفوس. وهكذا حال المنقذين بعد أن بعث الله نور الإسلام في العالم الذي أشرقته به معالم الحقيقة، فبعد ما بلغتهم أنوار كلمات الله أصعوا بصائرهم وأغفلوا أسماعهم وحلوا بيبيهم وبينه سدا بعداهم، فبقوا في ظلامهم تاهين.

والمثل الثاني: جماعة سائرة في ظلام داس، غشت السماء سحب كثيفة فلا ضوء لكرب، ولا أثر للنجوم الهادية. والزعدي يزمجر وفوقه تصم الأذان، قد استولي الخوف من الموت على النفوس، يفرون إلى دصع أصابعهم في أذانهم وإن كانت لا

تغني، ويملع البرق بين الحين والآخر فيضيء لهم ما حولهم، ولكن ما إن يتحركوا حتى يتوقفوا عن المسير لعودة الظلام والوعود والأمطار. والله محيط بهم لا ينفقون من فضله العسل. ولو شاء الله ليقطع أبصارهم وأسماعهم لفعل، فهو الغابر الذي لا يعجزه شيء. وهكذا حال المنفقين فهم في وضعهم وقد نزل القرآن في بيئتهم الضالة وخبراته كالمنظر المحيي للأرض، وما هم فيه من شرك هو كالظلام الدامس وكثافة ليلهم دافئة ولكنهم ما إن ينظروا فيها حتى يغمضوا بصائرهم عنها فتعود بالعمية إليهم كالبرق الذي يخطف الأبصار ولا يستقيمون منه إلا الخوف والحيرة.

بيان المعنى العام.

النمط الثالث من البشر هم المنفقون. إنه إذا كان أمر النمط الأول واضحا يتحدد ظواهرهم وبواطنهم على الإيمان، بمسوى في تلك من لم يكونوا مؤمنين بأي دين ثم نظروا في الدعوة المحمدية فامنوا وطبقوا، ومن كانوا على دين سملوي وإن كان محرفا، ثم سمعوا ما أنزل على الرسول ونظروا في آياته فامنوا بكل ما بلغه عن ربه على أنه نبي ختم الله به رسالاته للعالمين، وأنهم سيجزون عما قدموا من الأعمال يوم القيامة.

والنمط الثاني من البشر: المعتنون الذين رفضوا أن ينظروا في الدعوة المحمدية وفي الآيات البينات التي تؤكد دعوته واحتاروا الثبات على الكفر. وأمرهم واضح أيضا، ونظروا لوضوح أمر التزييف المومن والكفر، فتصبر لفساد في بيان ملامح كل فريق منهما، باعتبار أنه لا تحيد في تركيبها النفسي، فتصبر على أقل ما يكفي لإبراز حقيقتهما.

أما النمط الثالث: فهو فريق المنفقين، أخطو نمط في البشر في عهد الرسالة وفي الأزمان التالية؛ فاعتلى القرآن بالكشف عن تركيبهم النفسي المريب، وطرقهم في التعامل فخصص ذلك ثلاث عشرة آية. تطوأت بواطنهم على مله مترابطة من الفساد والخسة والكفر، وكانت مسورتهم الظاهرة وسماتهم المعلنة تغلظ المتعاملين معهم، وتطمئنتهم تبعاً لذلك فلا يخشونهم، يطهرون كأنهم من جماعة المؤمنين. إنه إذا كل المؤمنون يعرفون القسم الثاني المعصوم بكفوره الذي كانت له من الجراءة ما ولجه به صريح الحق، وأعلن عن تخلص نفسه في المنفقين يتسبون في المجتمع الإسلامي وهم يكتفون له نون أن يتعطل لمكرهم لو يأخذ المؤمنون لحيطه منهم.

جماعة من البشر متخفية مستورة منكم في المسلمين، نعلن أنها تؤمن بالله واليوم الآخر، وينبئ عن خداعها وكتبها أنها لم تذكر إيمانها برسول الله ﷺ، ولقد قصرت على إعلان إيمانها بالله واليوم الآخر.

ولما كان الإيمان أمراً مستوراً في القلوب والعقول صرح الله المطلع الذي لا يخفاه خافية بتكذيبهم فقال: وما هم بمؤمنين. وبرز بهذا الوصف الأول للمنافقين، وهو (الكذب).

كما دلت الآية على أن الإيمان لا يعتبر إلا إذا كان القلب مطمئناً والعقل متيقناً بالعقيدة التي شرحها رسول الله ﷺ. من الإيمان بالله وبرسوله وبالغيب حسبما فصله. ولما اقرروا بالظن إذا لم ينبع من العقل والقلب هو إقرار لا يرتب عليه أي أثر ولا يطمع صاحبه في النجاة. وهم بخيلتهم يتوهمون أنهم بإعلانهم الإيمان بما يخالف عقيدتهم قد تمكنوا من مخالطة المؤمنين وخداعهم، ويشنع عليهم القرآن بأن محاولتهم خداع المؤمنين هي خداع لله الذي يتولى المؤمنين، ولذلك جمعت الآية بين الله والمؤمنين **يخدعهم الله والمؤمنين يخدع الله الذين آمنوا**

ومعظم المنافقين يظنون أنهم لن يخدعهم في التوصل إلى نفعهم في نفعهم، وفي الحقيقة هم قد خدعوا أنفسهم لما خيل لهم أنهم ضمنوا لأنفسهم النجاة بكذبهم. والله مطلع عليهم ويعلم ما تخفي صدورهم ولا يفلتون من الجزاء الذي يترصد لهم وهم ذاهلون عن المصير الذي سينقلبون إليه. وتقرر تبعاً لذلك الصفة الثانية والثالثة للمنافقين: وهي الخداع والقباه.

10- في قلوبهم مرض، وهم عذاباً أليماً بما شكلوا بحكدهم

كلما جاء ذكر القلب في القرآن فهو لا يدل على القلب المادي الذي يتقبل المدد ثم يضخه في الجسم، ولكن يقصد به العقل والروح. فالوصف الرابع للمنافقين أن قلوبهم مريضة غير سليمة، مريضة بلوثة الفسك الذي رسوا به وأخفوه وتحيلوا على إخفائه ليغفروا به غيرهم. ومن سنن الله في الكسور أن الفرد إذا خبير بطريقة في الحياة وألقاها، وأغلب عليها، ولم يعد إليها بالتهيب والتنفد، أنها تصبح ملكة راسخة فيه، تزداد وتتمو مع الزمن. فالكاذب مثلاً إذا تعود على الكذب ينقلب الكذب له عادة راسخة متعينة منه، وكذلك المخادع والمكشوق والمثاليهما، يستشري الانحراف كلما عمل مساحته على إخفائه ومواصلة حياته عليه رضاً به. كالمرض البطني إذا أخفاه صاحبه ولم يستعن بالطبيب الخبير ولم يتناول ما يوصف له من الدواء، فإن مرضه يستشري وينتشر في البدن إلى أن يفك بصاحبه.

ومالات أهل التفلح ثلثة، منها ما يظهر أثره في الدنيا، ومنها ما هو مستخر ليوم الجزاء. والمنفقون ما أقدموا على نفقاتهم واضرارهم بالمجتمع وبث الفتنة إلا بتكذيبهم بالبعث والجزاء، فحق عليهم العذاب بتكذيبهم.

11-12: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُعْسِدُوا وُجُوهَكُمْ لَا يَحْسَبُونَ

للصفة الخامسة من صفات السافقين، التضايل شديداً للحقائق والمكابر عند تنبيههم على فسادهم، ويكرن الواقع. والقرآن لم يحدد اسم من ذكرهم ونهواهم، عن الفساد الذي نذروا أنفسهم إليه، ومحضوا له مكرهم وتحركوا في إبطاءه، من الدس وترويج الأخبار الزائفة، والتشكيك، وبذر الفتنة بين الجماعة، والاستهزاء بالمؤمنين إلى آخر المناكر التي يبدؤون لها، ويتوهمها سوماً في المحتسب. قد يكون هؤلاء الناصحون بعض المؤمنين الذين تربطهم بهم قرابة أو جوار من المظلمين على خفايا أمرهم، والذين رأوا التزنية الفاسدة الإسلامية من التهمي غير المنكر. كان جوابهم لهؤلاء الأخبار إمعاناً في التضايل: إما نحن مصلحون، ونفسرهم ضلالاتهم وفقدوا الميزان، فيرتفع صوت الحق من القرآن: ألا إليهم هم المفسدون، وقد أطلق الضلال على عقولهم ومداركهم فلفسدهم الشهور بما هم عليه من فساد. وهو لوصف السامع من صفاتهم الشديدة.

13-إذا قيل لهم امنوا كما امنّا-ألا إليهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون-

للصفة السابعة والثامنة: الكبر وخفة العقل. يحرص على هدايتهم، من يعرف دخالهم، فينصحهم بأن يتسجما مع الجماعة وأن يؤمنوا برسالة النبي ﷺ التي وحدث للكلمة وألأت كوامن للتلازم والقبضاء، فيبدو منهم عند ذلك ما يعللون عليه من كبر وتعال، وهو شأن المنفذين في كل زمان ومكان، يظنون أنهم أعلى من أن ينضموا إلى الجماعة الضعيفة العقل المحدودة المدارك في زعمهم، وينزل الجواب من رب العزة مؤكداً منبهاً لهم قد اختصوا بضعف العقل والقرن الرأى، وأن عقولهم محجوبة بكبرهم وعنادهم، ولذلك فهم لا يعلمون، فجهلهم من الجهل المركب الذي يجهل صاحبه الحق ويجهل أنه حائل.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَاوْا إِلَىٰ غُفَيَاتِهِمْ قَالَُوا إِنَّا مِنكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُتَعِزُّونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ مِن قَبْلُ وَلَٰكِن كَذَّبُوا ﴿١٤﴾ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ

أَشْتَرُوا عَصَاكَ أَلَيْسَ آلِهَةً بَعْدَ آلِهَتِكَ إِنَّمَا زُجِجْتُمْ فِي شِرْكِكُمْ ۖ إِنَّمَا تَقَدَّرُ السُّعْيُ

13-16: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا... وَمَا كَانُوا بِهَتْدَىٰ

هذه صورة ثلاثة المنافقين مركبة من ثلاثة لحول: حالتهم مع مجتمع المؤمنين الذين يعيشون معهم: وحالتهم إذا كانوا في مجامعهم الخاصة مع لشائهم وقلة بضاللتهم: وحالتهم وهم مفضوحون محكوم عليهم من رب العزة.

فالحالة الأولى يبدو فيها وقد صرخوا الأمور تصريفاً محكما، في طعنهم، يحقق لهم تنفيذ مخططاتهم. إذا التقوا بالمؤمنين في المجامع العامة أو الخاصة أو همومهم أنهم متفقون معهم، فهم مؤمنون صائقون، حتى لا يحترهم المؤمنون، ولا يأخذوا الحيلة منهم فيتمكون بذلك من الاطلاع على نقط الضعف ومداخل الفكر بهم.

والحالة الثانية: إذا كانوا في مجامعهم الخاصة مع لشائهم وقلة بضاللتهم في التفاف، فيؤكدون لهم بأن ما صدر عنهم في مجامع المؤمنين، إنما هو خداع للمؤمنين واستهزاء بقولهم.

والحالة الثالثة: بعد حولاتهم القصيرة التي طنوا أنهم خدعوا المؤمنين بها ونجوا من رفض المجتمع لهم وقبوا الحمة للتخلص بينهم، وأنهم ثابتون على معاداة المؤمنين والاستهزاء بهم، يصرح القرآن بأن الله يمهلهم قليلا حتى إذا طنوا أنهم قد فازوا في مكرهم تأخذهم بد القدرة إلى مصيرهم وتتخذ فيهم الوعيد. ويلبدي في ضمائر البشر عامة إعلانا عن خيبتهم بأن المنافقين قد مكنتهم الله من الهداية ببشارة النبي ﷺ وما أعطاه من قوة فائقة في بيان الحق، فكانهم ملكو الهداية بذلك، ولكنهم باعوا هذا الهدى واشتروا به الضلالة لقله رايهم وموه نفوسهم، فهم بذلك ممن يبيع عزيز الهدى الذي ينفعه في الدنيا والآخرة ويستقبله بالضلال الذي يخسر به دنياه لأنه يعيش على تكون فيجرحه حقد ميتة وحول من ظهور امره، ويخسر الآخرة من باب أولى. فكانت تجارتهم هذه خاسرة وفقدوا الهداية التي هي أعز ما يملكه الإنسان.

مَنْهُمْ كَمَثَلِ الْيَرَى اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ رَهَقَ اللَّهُ غُورَهُمْ فَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصَرُونَ ﴿١٦﴾ مَكَرَ بَكُمْ عَمْرٍو فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ كَصَيْفٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرُوءٌ أَصْدِقُكُمْ فِي مَا نَادَيْتُم بِمِنَ السُّوعَىٰ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ كَذَّابٌ أَفْتَرَا أَن لَّهُمْ أَصْنَاءٌ لَهُمْ مِّمَّنْ ذَاكَ أَفْتَرَا أَطْلَحَ عَلَيْهِمْ فَأَمْوَأَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَرَبْتُمْ بِسُجُودٍ وَأَبْصَرْتُمْ إِنِ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

يتو اصل تتبع كشف حال المنافقين السيء ومكرهم وما ينتظرهم في تسمع آيات، من قوله تعالى [ومن للتار من يقول آمنا] إلى قوله [ربما - سبوا بهتسين] ويختم القرآن حديثه عنهم في هذا الموقع بجمع صفاتهم وتبنيها بلوضاح تكشف لمرهم بصفة لوصح، شأن الأمثال. فصر لهم مئين:

17-18، مثلهم صكمل الذي استوقد... لهم لا يرجعون.

المثل الأول: قافلة في صحراء مظلمة وليل بحجب كل شيء عن الأبصار، فأوقد أحدهم نارا وأضاء ليهيها ما حوله ولبصر كل واحد ما حوله. وفي لحظه تنطفئ النار، ويذهب النور الذي هناك لتتار الظلام، فاطبق عليهم سواد الليل وعادوا متحيرين، غمي عنهم كل ما حولهم. وبالحق في وصف حيرتهم في ذلك للظلام لليلس: كأنهم فتوا جميع حولهم، فتتوا سمعهم ونظرهم ونطقهم. وهذه حالة المنافقين، فما أبعدهم عن الرجوع إلى الحق.

19-20، أو عكسهم من السماء... إل الله تلى مثل شيء قدس.

المثل الثاني: رضع يشبه الوضع في المثل السابق. سحاب متراكم يحجب السماء والضياء والنجوم الهادية، ظلام في ظلام، تصببه زمبرة الرجوع التي تهزمهم هزا، تهددهم بالموت، ويحاولون تخفيف وقعا بوضع أصابعهم في أذلالهم، ويتخلل طبقات السحب الكثيفة حيوط من البرق تكك تخطف الأبصار، والجهات مختلفة لا يترى شمال من جنوب ولا شرق من غرب. حيرة وخوف وأمطار مع الظلام تقيد الصائرين، لا ينحركون إلا إذا ومض البرق وميض السدي. لا يمكنهم مع قوة ضيائه من المعنى بعيدا لأن قوة نوره تكاد تخطف لبصارهم، فهد كلما أضاء لهم هموا بالحركة ولكنهم لا يعضون بما تكشف لهم من نور. لأن القوق في سرعته يذهب عاجلا، فلا هم سائرون ولا هم جالسون مطمئنين. بل هم قائمون يهيمون بالحركة ولا يستطيعون. وهذا شأن المنافقين مع الأنوار الإيمانية. اخفروا للظلام الشقي هم فيه، ورفضوا الإسلام الذي لثر في المجتمع فاصلحه وبث في أرجائه العدل والأمان، لا ينتفعون منه إلا كاستفاد الفلانة من صوء البرق.

وتختم الآية بأن الله لو أرك أن يرتكب على هذا البرق والزعاد ذهب الأسماع والأبصار لعل، وفيه تهديد للمنافقين بأن إعراصهم عن الحق ومكرهم بالجماعة الإسلامية يعرضهم لانتقام الله منهم وقتلهم حوسيم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا إِلَهًا الَّذِي خَلَقَ لَكُمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ إِنَّكُمْ لَعِندَهُ قُنُودٌ ۝
 خَلَقَ لَكُمُ الْأَرْضَ ۖ فَرَوْهَا ۖ وَالسَّمَاءَ بَنَاءً ۖ وَأَرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِهَذَا آدَاءً ۚ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ:

اعبدوا: اخضعوا متقربين إليه.

لكنكم: رجاء.

تقنون: يحصل لكم ما يحكمكم من عقاب الله.

الله المماوي المماثل.

بيان المعنى الإجمالي:

يدعو الله جميع الناس، من كان مؤمناً ومن كان يدين بدينه من قبل ثم اهتدى بسبيل الإسلام، ومن أسير على الكفر ومن تافق من الذين عرقت الآيات السابغة ملامحهم، ومن غيرهم ممن كانوا في عصر الرسالة ومن يأتي بعدهم، دعوة عامة لجميع البشر أن يعبدوا الله متيقنين أنه هو الذي جعل الأرض كقفرات لهم، وجعل السماء بناءً وأقيا لهم. ولا أحد غير الله يتصرف في قليل أو كثير من هذا النظام الذي أقام عليه الكون ويسره للإنسان. فاحذروا أن تجعلوا له أمثالا تخضعون لهم، والحمد أنكم تعلمون أنه لا يستطيع أحد غير الله أن يحفظكم في هذا الكون.

بيان المعنى العام:

21-22: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا... وَانْتَهُ تَعْلَمُونَ.

دعا الله الناس جميعهم أن يخضعوا له، ولا يخضعوا لأحد سواه خضوعاً بنسبهم ربهم، فبالنسبة للمؤمنين هو نداه لهم أن يواصلوا يفلتهم فلا يفتنون عنها، فكم من مؤمن تراه يتعلق بمخلوق مثله إلى حد أن يرى أن لا مفرج لكربته ولا محقق لأماله ولا معين له على ما يسعى لبلوغه إلا هو. وكم من مؤمن يضعف فيهن ويخضع لشهوة أو رغبة ويستعين بها أمره به رب العالمين كما قال تعالى **تَوَلَّيْتُ مِنَ اللَّهِ إِلَهُهُ هَوَاهُ**¹، وبالنسبة للكافرين رحمة الله تبدو واضحة بهذا النداء، فإنه يستحثهم ليعودوا إليه، وليتعلقوا به، وينتهبهم إلى أن ما يخضعون له عاجز عن التأثير، ويدعو المنافقين إلى أن يلقوا عن نفقهم ولن لا يخصعوا لأوامرهم وأهوائهم ولن يتخلوا بواطنهم بفراق الله بالعبادة.

¹ سورة الحجية الآية 23

إن تحريك القرآن لجميع البشر يعتمد على تذكيرهم بحقيقة اقرب ما تكون إليهم ولكنهم يغفلون عنها. هذه الحقيقة تتمثل:

أولاً: أن الله هو المقرد بالخلق، فكل من يفتنه ويكشف حجب الغفلة عن عقله، يدرك أنه غير كامل لا في مواهبه العقلية، ولا في تركيبه النفسي، ولا في جسمه، ولا يملك أن يبقى على الحال التي هو عليها. ولا أحد غير الله مكنه مما مكنه ولا أحد غيره يبقى على ما مكنه منه. لكل قلب إذا ترك لظفرته بحس بالنداء المديق بأن الله وحده هو الخالق الذي بيده الأمر.

ثانياً: إن حياة الإنسان على هذه الأرض تسير في يسر ونفاق بينه وبين محيطه. فمثلاً لو زادت جاذبية الأرض لتسمر الإنسان في مكانه لو لتقل عليه الانتقال تعلا بلغا يجعله عاجزاً عن السعي في هذه الأرض. ولو خفت هذه الجاذبية لما استطاع أن يثبت، بل يكون كالريشة التي تتطاير في الهواء. فكما يستقر الإنسان على فراشه ويجد راحته فيه، فكذلك هو على وجه البسيطة يجد أنها تلائمه كما يلائمه فراشه.

ثالثاً: هذا الغلاف المحيط بالأرض الذي بني بناء محكم يحمي الإنسان والأرض من الأشعة الواردة من الفضاء الأعلى. ويتكرر العلماء أن سوء تصرف الإنسان في الكون وما بينه من عناصر مضرة نعلو إلى تلك البناء فتخرقه (الأوزون)، هو ما يهدد البشرية والنبات والحيوان بالفاء.

رابعاً: السر الكبير في الارتباط بين الماء والحياة في نزوله من السماء، ثم في سريانه في طبقات الأرض القريبة والبعيدة، ثم في القوتين التي بها تنشأ عنه ثمار الأرض المتنوعة الأشكال والمنافع والطعم والأكوان. ثم في ارتباط حياة الإنسان بذلك سواء في ذلك ما يتناولها منها مباشرة أو ما يتحول عن طريق الحيوان إلى اللحم. ينادي القرآن للبشر شعاً لذلك أن يتسللوا، بأن يحركوا مداركهم وعقولهم تحريكا يفتح حتماً أن يفسدوا الله بالعبادة، والتمسك إليه والاعتماد عليه وحده.

عجبا كيف يممهم ما هم سائرون فيه من غفلات فينصبون قوى وهمة، يطلبون منها عوناً لو فضاء أمر، أو يقربون إليها استكثراً لعطفها عليهم ورضاها عنهم! رغم أن شواهد العقل تنفي نفيها قطعاً أن يكون له مصلو أو شريك يعطي أو يمنع. ليس الشرك بعد التأمل في ذلك بمقتضى الفطرة لا يليق بمن يدعي أن له عقلاً؟

وَأَن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا قَوْلُنَا عَلَىٰ غَيْبِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ أَيْمَانِهِمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

بيان معاني الألفاظ:**الترتيب:** الترتيب.**عقبًا:** رسول الله محمد ﷺ .**سورة:** مجموع آيات من القرآن تكون وحدة بينها تفتح بالبسملة.**منه:** مثابه منلو .**تمهده:** جمع شهود يروى منه النصير، وهو في الآية ألهمهم.**بيان المعنى الإجمالي:**

إذا كان الإشكال الذي يعترضكم ،هو شككم في أن صاحب الرسالة محمدًا ﷺ مبعوث من عند الله ،فاملوا في الوحي الذي أُلهم به فاملوا في القرآن، إنكم قد رزقتم قوة في البيان، وفصاحة وبلاغة تتصرفون بها في مختلف الأغراض، وتكون بالنسخ البديع، وهذا قرآن من جنس الكلام الذي تدعون أنكم حرزتم فيه قدم السبق، وطوّعتموه لمختلف أعراضكم فأتوا بسورة لها مثل بلاغة القرآن، واستعينوا بالهتكم التي تدعونها لنصرتكم حسب زعمكم.

بيان المعنى العام:**23. إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ ۖ لَكُمْ صَدُوقٌ مُّبِينٌ.**

من لطف الله بعباده أنه يساعدهم على الإيمان، فيعد أن لفت أنظارهم إلى خلق أنفسهم وخلق الأرض والسماء، وتظيم للعلاقة بينهما، وبينهما وبين الإنسان، تلك التنظيم المحكم الذي أحصى كل كبيرة وصغيرة وتنظم الكل، وهو ما لا يستطيع من له أدنى منبذة من عقل أن يرتاب في أن الجميع من خلق الله وتقديره نعمًا لعلمه الشامل للباقي. بعد أن أبرز الحجة التي لا يمكن رفضها من أن الله هو الخالق ولا خالق ولا رب سواه، عطف على ذلك أن لفت أنظارهم إلى الركن الثاني في هذا الدين، وهو الإيمان بأن محمدًا رسول من عند الله، فيقول لهم القرآن عنايته وهدايتهم، إن حصل لكم شك في أن هذا القرآن وحي من عند الله، فالسبل بين أيديكم على صدقه: إنكم تمارون بالفصاحة والبيان والبلاغة، وإن فتواكم على إدراك ما في الكلام من قوة وإحكام معلومة لكم ومعترف بها من غيركم والقرآن أمامكم فإذا كان من كلام غير الله فأتوا بسورة واحدة تكون مساوية له في البلاغة وروعة البيان وجمال الأسلوب، والصدق الأبدي، واستعينوا على ذلك بمن شققتكم حتى بالآرباب التي تدعونها للنصر والتأييد.

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ
لِلكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

التقوا: لحموا أنفسهم.

الوقود: ما يوقد به كالخشب والنفط والفحم.

أعدت: هيئت، هيأها الله.

بيان المعنى الإجمالي:

لم يستطيعوا في الماضي أن يتقوا بمسورة مثل القرآن ولا يستطيعون في المستقبل أبداً ذلك، فاحموا أنفسهم من النار رفضكم وتكذيبكم فإله أعد للكافرين نارا مادية تستعملها أجسام الكافرين من الناس ومن الحجارة.

بيان المعنى العام:

24- فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا... أعدت للكافرين.

لغت القرآن لفظا لرافضين نصديق الرسول ﷺ إلى أن دليل صفة هو القرآن، فتداهم أن يكونوا مسورة مثله ذلك أن قوتهم في التعبير البدني وتجويد الكلام والتصرف فيه، قد أعطتهم ميزة لا يشاركهم فيها أحد وقت نزول الوحي، ثم أخبرهم أنهم عاجزون عن ذلك وقت نزول الوحي وعاجزون أيضا عجزا أبديا فيما يستقبل من الأزمات، وهذا التحدي مفتوح للبشرية في عمرها الطويل، وثبت عجزها، فكان القرآن بذلك حجة الله على العالمين في جميع الأزمنة والظروف على صدق رسوله محمد ﷺ.

والله رحيم بعباده فنبههم إلى أن يصبروا على العبد، رغم عجزهم عن معارضة القرآن والإتيان بمسورة مثله يعرضهم قطعا للعقاب يوم القيامة، فتداهم كي يحسموا بالإيمان أنفسهم من النار التي تستعمل بأجسام الكافرين وبالحجارة. وفي تصريح القرآن بأن الحجارة وقود إعجاز علمي، فقد تميز اليوم أن الطاقة الحرارية التي تتولد من ذرات حجارة اليورانيوم مثلا من قوى الطاقات المعروفة للبشرية.

وَيَذَرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ هُمْ جَسَدٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
كَأَنَّهُمْ زُرْقًا يَنْفَعُ مِنَ شَرِّهِمْ وَلَهُمْ فِيهَا زُرْقًا يَنْفَعُ مِنَ شَرِّهِمْ وَلَهُمْ فِيهَا زُرْقًا يَنْفَعُ مِنَ شَرِّهِمْ
مُتَّحِينَ وَهُمْ فِيهَا زُرْقًا يَنْفَعُ مِنَ شَرِّهِمْ وَلَهُمْ فِيهَا زُرْقًا يَنْفَعُ مِنَ شَرِّهِمْ

بيان معاني الألفاظ:

المشرفة: إخبار بأمر محبوب للمخاطب.

الصالحة: جمع صالحة، الفعلة الحسنة.

جنات: جمع جنة وهي المكان الكثير الشجر المتنوع.

الأزواج: جمع زوج يطلق على الرجل وعلى المرأة بعد لقرانهما.

مطهرة: لا عيب فيهن.

خالدون: باقون بقاء أبدياً.

بيان المعنى الإجمالي:

أخبر يا محمد المؤمنين الذين قرروا الإيمان بصلاح العمل بأن الله أعد لهم جنات تتخللها الأنهار الجارية، وأن ثمارها وإن تنوعت فقد بلغ كل نوع من أنواعها كمال اللذة حتى إنه يُخجل لآكلها نهر الثمار التي كان يتناولها من قبل، مع أن لكل واحدة منها مذاقها ولذتها. وإن الله أعد لهم أزواجا مطهرة من العيوب والنفائس. وفوق هذا لا خوف من الزوال واللفاء، فهم خالدون في الكرامة التي أنعم الله بها عليهم.

بيان المعنى العام:

25. للتربية التي تضل بها ربنا على عبيده تربية تحرك نواحي التركيب الفكري والعاطفي للبشر، فسبحانه لا يقتصر على التحذير الذي يرمي بهم في اليأس والخوف الذي يشل تطلمعهم إلى التحول إلى ما هو خير، ولا يملئ لهم في البشائر التي تتراخي معها العزائم وتتوكل النفوس. فكان من شأن القرآن أنه يجمع بين البشارة والإنذار، يطمع ويخوف. فبعد أن حذر الكافرين من النار التي تلهم البشر والحجارة ووقوده منهما، بشر المؤمنين بجنات تكاثفت أشجارها وجرت خلالها المياه في أنهارها، وفُتحت أشجارها ثماراً طعم كل نوع منها بلغ الغاية في اللذة بحسن المذاق وسهولة تناول، يكاد لكلها يظن أنها نوع واحد، وكلها في الحقيقة مختلفة، وفي هذا الجو البديع يتم التعميم والأكس بأزواج طهرت منهن النفسانيات والأجسام من النفائس التي كانت ملازمة لهن في الدنيا، وفوق كل ذلك إن نعمهم هذا لا يكره خوف لفظاعه، فقد تحقق لهم الخلود الدائم المرمدي إلى أبد الأبد.

• **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي. أَوْ يَتُوبُ غَلًا مَا يُعْذِرُ. فَمَا تَوْفِيقُنَا؟ إِنَّا إِلَهُ الْإِنْسَانِ. فَاتَّقُوا**
فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْخُلُوفَ مِنْ رَبِّهِمْ؟ وَإِنَّا الْإِنْسَانُ خَفِرُوا فَيَقُولُوا: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا؟

مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا ضَلالُهُ إِلَّا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ
يَعْتَصِرُ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسَدُونَ وَالْأَنْزِلُ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ

استعصى: احتشم، وذلك إذا تلى بأمر لا يليق بمنزله.

بعوضة: حشرة صغيرة، ولها أنواع.

الفسق: الخارج عن الطاعة وهو على مراتب، وأرسله ما بيته الآية بعد.

نقض: خالف وأعطى ما التزمه.

عهد الله: ما أمر بالتزامه ووعده.

مثاله: تأكيده.

التمسك: تحويل ما هو نافع إلى ما هو ضار.

بيان المعنى الإجمالي

مكائد يهود لا تنتهي، بعد أن تحدى القرآن البشرية قاطبة بأن يأتوا بمثل سورة من القرآن وعجزوا، أثار اليهود مكيدة جديدة فقلوا: إن الله في عظمته وجلاله لا يليق به أن يضرب الأمثال بالحشرات كالقمل والبعوض والحل، فطعنوا: بأن ذلك يمثل على أن القرآن ليس منزلاً من الله، وبهذا روجوا على عقول الضملاء من الكافرين لينصرفوا عن الدعوة الإسلامية. سجل الله في كتابه لهم أضياء عندما ظنوا أن القدرة لا تظهر إلا في الأجرام الكبيرة، ذلك أن أصغر مخلوق فيه من أسرار الخلق وكمال التقدير ما يرفعه لأن يضرب الله به المثل. وقد تقدم العلم التجريبي فأبرز بعض أسرار الخلق في البعوض في جينومه، وطريقة تكاثره، وخصائص ذكرائه وإناثه، وما يزل يواصل البحث لاكتشاف كثير من الجوانب التي ما تزال خفية، يدرك العلماء وجودها دون حقيقتها ونظامها. ولذا يكون ضرب المثل بهذا المخلوق الضعيف يزيد الذين آمنوا إيماناً، ويتأكد عندهم صدق الرسول فيما يخبر به عن ربه، ولما الكافرون فيزيدهم إيماناً في الضلال وبعداً عن الحق، وما رفضهم للتمثيل بالمخلوقات الصغيرة وتكذيب الرسول ﷺ إلا جرياً على ما التزموه في حياتهم من نقض العهود التي أخذ منهم الميثاق المؤكد على احترامها، التي منها عدم تخيير ما شرعه لهم وعدم إخفاء بعضه، وتأييد الرسل الذين يأتون بعد موسى وآدم، وقطعوا ما أمرهم الله أن يصلوه. إن هاديتهم للمؤمنين خيط واحد، فرفض قبول ما نزل على سيدنا محمد ﷺ هو قطع لما نهوا أن يقطعوه. ويفسدون في

أرض الله التي أمر الله بإعمارها ونشر الخير في جنباتها، ولذلك أنبأهم عاقب الغيب والشهادة بأنهم هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام

26-27، إن الله لا يستحي... أولئك هم الخاسرون.

قرب الله لعباده المعاني الطبيعية لطفاً بهم وغاية بهديتهم وذلك بمقارنتها وتشبيهاها بما هو قريب منهم مألوف لديهم. مثل تشبيه الإيمان بالترسخ بالشجرة المثمرة الضاربة عروقها في الأرض، ومثل تشبيه الذين يتخذون الهة من دون الله بالعنكبوت ووهن ما تبنيه، ونحو ذلك من الأمثال المنتشرة في القرآن. ولما تحذى القرآن البشرية في جميع عصورها الحضرة والفني تأتي بأن يأتوا بسورة تشبه القرآن، وثبت عزهم عن ذلك، كان ذلك أوضح دليل على أن القرآن من عند الله.

عمل اليهود على تشكيك المغفلين من الكافرين بمكرية سخيفة، فلو لموه بأن القرآن قد جاءت فيه الأمثال بالمخلوقات الضعيفة التي ليس لها عظيم شأن في الوجود، كالبعوض والنمل ونحو ذلك، والله في عظمته وجلاله لا يخلق به أن يضرب الأمثال بهذه الأشياء التي لا خطر لها وليس لها قيمة كبيرة وينوا على ذلك أن القرآن ليس من عند الله.

نبه سبحانه بهذه الآيات أن كل كائن من خلق الله له أسوار لا يعلم جميعها إلا خالقها، فالبعوض على صغر حجمه تمثل خريطة الورقية (حيوموه) نفة عجيبة، وضبطاً محكماً لجميع تحولاته وتوجيهاته في الحياة، أنه من الجبل والغياض أن يستهين الإنسان بأسرار الخلق في أي كائن، هذه الأسرار التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى **(إِنَّا قَدْ افْعَلْنَا مِنْ شَيْءٍ لَّكَ لَئِيْلٌ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِندِنا عَمْرٌ قَلِيلٌ مِنْ الْعِلْمِ الْمُتَمِيزِينَ عَكَفُوا عَلَىٰ دِرَاسَةِ الْبَعُوضِ، وَمَا هُوَ لِصَفَرٍ مِنْهُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْحَيَّةِ، لَكُنْفَ أَسْرَارُ الْخَلْقِ، وَرَغْمَ مَا بَنَوْهُ مِنْ جُهودٍ، فَإِنَّهُ مَا يَزَالُ قَسَمَ مِنْهَا غَيْرَ مَعْلُومٍ، وَمِنْ ذَلِكَ سِرُّ الْحَيَاةِ فِيهَا.**

فإنه العظيم في عزته وجلاله قد أحكم خلق كل شيء، ولا يختلف عند خلق الكبير عن خلق الصغير، أو ما يستوره بعض المثقلين الضالين تلقاها. ولتمثيل به منسجم الانسجام الكامل مع عظمة الخلق سبحانه.

وينبني على ذلك أن هذه الأمثال تزيد المؤمنين سمعة في أفلاك يسألهم، إذ مجرد ما يأتي المثل بهذه المخلوقات الضعيفة تنفتح بصائرهم على النظام الكوني للعجيب، ويدركون ارتباط الكائنات كلها في هذا الكون بتقدير من الخلاق العظيم، كلها شاهدة

المبدعة هي التي خلقت للبشر كل ما تحويه الأرض فوق ظهرها وفي باطنها. وغرق ذلك أن الله هو الذي خلق السموات السبع، والسموات بأمرها وحكمة خلقها لا يحتثها إلا من وسع علمه كل كبيرة وصغيرة.

بيان المعنى العام:

28-29 كيف تحكروا بالله... وهو بكل شيء عليم.

ليقت القرآن بمسألة (كيف) القول، وأمرهم لأمر عجب، ذلك أن الأيات السابقة ذكرت البشر بمظاهر القدرة المبدعة من أن كل فرد هو مخلوق له من ماضي ومن مآلتي وأنه يسر لهم الحياة في الأرض ويربط بينها وبين السماء ربطاً محكما أخرج به للأناس آياتهم وفلكيهم. وعجب كيف يكثر الإنسان ويحدد الخالق، وفي ذلك ما يرفع هذا الضلال الذي وقع فيه.

كل فرد كان معدوماً فتملكت القدرة الإلهية فأخرجته من العدم إلى الوجود، ونفخت فيه الروح، وسرت فيه الحياة بذلك، وكل فرد سينتهي أجله ويموت، ومن قدر على الإيجاد بعد العدم قادر على الإحياء ثانية، الإحياء الذي يعود به كل فرد إلى من أبدعه لولا فلكته، وثانية ليحسبه عن عمله فيما كلفه به. وفي محيطه أيضاً من المظاهر ما يوجب العجب من إنكار الخالق سبحانه. فباطن الأرض وما على ظهرها يتلاءم مع البشر ويستفيدون منه في حياتهم هذه. لاهم بينهم وبين ما تخرجه الأرض على وجهها من خيرات وما يحويه بطنها من مختلف المعادن وما يصرها من الطافات. فالمثل إذا رفع عنه حجاب الغفلة يعجب من إنكار الخالق الذي لا يستطيع أحد سواه أن يمس لنفسه خلق أي شيء من ذلك.

ورفع القرآن من تحريك نظر الإنسان إلى نفسه إلى نظره في الأرض ثم حركه إلى القدرة الباهرة في خلق السموات. وأمر أن السموات لا تحيط بها القدرات البشرية. الأبعاد بينها تذكر بالسموات الضوئية. وما تحويه كل سماء منها مقدر تقديرها محكما من العليم الذي وسع علمه كل كبيرة وصغيرة. (وهو بكل شيء عليم).

وإذ قال ربك للملئكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويفسلك الأيما، نحن نسبح بحمديك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ رَدَاهَا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا أَتُوقِنُ بِأَسْمَاءِ مَخْلُوقَةٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَتُحِبُّكَ لَا جُنْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ

الْحِكْمَ ۚ قَالَ يَبَادُءُ آثِمُهُمْ بِآثِمِهِمْ فَلَمَّا نَبَاهُمْ بِآثِمِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
 إِنْ أَعْلَمْتُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُدْبِرُونَ وَمَا تُنْهَوْنَ عَنْكُمْ تُكْفَرُونَ ۚ وَإِذْ قُلْنَا
 لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝
 وَقُلْنَا يَبَادُءُ آثِمَ اسْكُرْ أَثَمَ وَزَوْجَكَ الْمَلَكَةَ وَكَلَّا بَيْنَهَا وَفِدَا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
 هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا
 كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا مَعْشَرَ الْبَغْضَاءِ عَذَّوْا وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى
 حِينٍ ۚ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝
 قُلْنَا هَبْطُوا مِنْهَا جُوعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ قَوْمٍ مُدَايِ فَلَا حَوْلَ لَكُمْ
 وَلَا مِنْ حَزُونٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِلَهُكُمُ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ

الملائكة: جمع ملك، والملك مخلوق من غير المادة لا يعلم حقيقته إلا الله خالقه. من طبيعته
 أنه غير قادر على فعل الشر فهو محض للطاعة. ولكل ملك مقامه ومهامه الموكولة إليه
 وينفذها حسب طبيعته تلك. وجماع ذلك وصف القرآن لهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
 ما يأمرون) ٩.

خليفة: هو آدم وذريته، وأطلق عليه لفظ الخليفة بالنظر إلى أن قوى الأرض سخرت له فهو
 المتصرف فيها.

وقصد: يحول القناع فيها إلى ضار.

يسفك الندماء: يهلل غيره.

تمجيح: التسميح هو ما يصدر من الكائن من قول أو عمل يدل على تعظيم الله وتزجيده عن
 النقص.

تمجيح بحمدك: تعظيمك تعظيما مقرونا بحمدك.

لقدس: التقديس تزييه الله سبحانه عن كل نقص باعتقاد كماله المطلق والتعيز عن ذلك.

أنبأوني: أخبروني.

سبحانك: نعظّمك ونزّهك.

غيب: خلاف المُشاهد.

عكيد: الذي لا يلحق ما فعله ولا ما نجره «نقص بسب خفاء بعض الجوانب».

يثبون: نظهرون.

تكتمون: تخفون.

أبى: امتنع.

استكبر: امتنع عن قبول الحق تكبرا طائفاً لئله أرفع.

رعدا: أكلا هنيئا وافرأ لا يتمب فى تحصيله.

زُلْهُمّا: الزلل الانزلاق، ومعناه فى الآية فعل ما نهى الله عنه.

مستقر: مكان استقرار.

مقاع: ما يستمتع به الإنسان من ملذات.

هين: الوقت يصبح أن يكون وقت فناء العالم أو وقت موت كل شخص.

قلب: قاب العبد رجع عن المعصية إلى الطاعة تائما عما صدر منه وتائب الله على اللائب

فيل توبته وأعاد رضاء عنه.

التوبة: القابل للتوبة المنسبين على كثرتهم، وتكررها منهم.

الأولئك: جمع أية وهى ما يدل على أمر من شأنه أن يخفى، وتطلق الآية على الحجة لأنها

تظهر وجه الحق إذا خفى على المخالط.

بيان المعنى الإجمالى:

بينت الآيات السابقة أن الله مكن الإنسان من الأرض وبسرها له، ثم لتقل القرآن

لعرص قصة خلق الإنسان لعمارها.

أعلم الله ملائكته أنه سيجعل فى الأرض من هو متصرف فيها مكلف بعمارها. ولم

ينبئ لهم كيف لى للمستخلف هذا يستطيع أن يحقق الإرادة الإلهية مع أن فيه

جوانب تتلقى للتصرف الرشيد. فمن طبيعته أنه يغضب فيقتل خصمه وتستبد به

شهواته فيفسد ويحول الصالح إلى ضار. فاعربوا عن استعزائهم مع ما يليق بهم

من الأدب نحو الله قائلين نحن ننزهك وبحمك ونعظمك.

كان الجواب مختصرا: إني لآ الله أعلم ما لا تعلمون.

ثم عرّفهم بحكمته فى استخلاف آدم وفريته فى الأرض. وذلك بسلأ أعلان آدم على

معرفة أسماء الأشياء كلها. والتسمية مرحلة فوق معرفة الأشياء، إذ لا يستطيع أحد

أن يسمى الشيء تسمية صحيحة، إلا بعد التمييز بين المتشابهات ومعرفة

الخصائص. ثم أحضر آدم معهم وأحضر شريط الأشياء التى علمها لأدم. وقال

لملائكته: لخبروني بأسماء هذه الأشياء التي هي حاضرة أمامكم، إن كنتم صائقين في تصورك أن هذا المخلوق لا يصلح لعبارة الأرض، فأجلبوا قائلين: ننزهك ربنا لا نعلم إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الذي ومع علمه كل شيء. فبالغ الحكمة فيما قدره وأتجزه.

وبعد أن تبين عجز الملائكة عن الإجابة، قال الله تعالى: وما أئتم أخبرهم بأسماء جميع الأشياء الحاضرة، وفعل أئتم، فبين ولم يخطئ، فعندها قال الله تعالى لملائكته: ألم أقل لكم إني أعلم ما ظهر وما هو خفي مسطور في السماوات والأرض، وأعلم ما تظهرونه وما هو كامن في بواطنكم.

ويتابع القرآن العرض بمشهد آخر: هو أمره سبحانه للملائكة بالسجود لأئتم، لما ظهر من مزاياه. ويبدو المشهد وقد خسر جميع الملائكة سجدًا بتفريطهم لأمر ربهم، يبقى كائن واحد رفعا هامة كان مأمورا مع الملائكة لما توجه الله بالأمر، وهو إلياس أبو الجن، امتنع من السجود لتكبراء ظننا أنه أعظم من أئتم وأكثر منه، ويقول الله عنه إنه كافر قد استحكم منه جحود حق الخلق.

المشهد التالي في هذه القصة العجيبة التي ستكرر في القرآن يتمثل في الجمع بين أمر الله وبهية: أمر الله أئتم أن يسكن مع زوجته الجنة. ولجأ لهما أن يأكل ما شاءا من ثمارها من أي مكان أولاد، ثمار لا تفسد، ولا ينعيب أكلها لا في التحصيل عليها ولا في هضمها.

نهاما عن شجرة في الجنة عرفهما بها وأحضرها لهماهما، وحذرهما أن يقتربا منها قربا يمكنهما من الأكل منها.

سكن أئتم وزوجته الجنة ونعا ما شاء لهما للنعيم، يعيشان في أفضل حال وأئتم كرامة.

والشيطان يظن حقا للكرام الذي خصا به فمكر بهما، وسيلكنا في آيات أخرى كيف نفذ مكره، فارتكبا الخطيئة وكلا من الشجرة التي منعنا من الأكل منها. وبالأجزاء العاجل فأخرجنا من الجنة محرومين من النعيم الذي علما في رختنا الأمم الذي قدر لهما.

أصدر الله أمره لهما أن يسزلا من دار الكرامة والنعيم ويحصلوا عن تلك الحياة الرغيدة الهنيئة إلى نوع آخر من الحياة، في أقل منزله وأكثر عناء. وهي دار مغالية ناجية من حب كل فرد إثارة نفسه بالخير، وما يتربص طمى تلك مما يوجب لتشار العدوات بين ذريته لو أن العدوة مستحكمة بين البشر وإليس.

أدم في موقف رهيب وتحول مزعج، والمنة عظيمة، والخوف من العقوبة بالسخط الدائم تحرك عقله وقلبه لتصور المعصير المجهول.

لم يبق أدم طويلا على هذه الحال حتى جاء اليسر بعد العسر تقضلا من الله، إذ لهما ربه كلمت لم يبينها القرآن، قلها أدم قتاب الله عليه. فأنتهت أزمة آدم الكبرى.

وبعد أن أعلمه الله بتوبته عليه أمره الثانية أن يهبط من الموقع الذي هو فيه بعد خروجه من الجنة، وهو نزوله إلى الأرض التي سبق في علم الله أن يسكنه وذريته فيها ليمروها مساعدين بما ينزله عليهم من هداية على لسان رسله حتى يكون معهم فيما استخلفوا فيه مساعدا محققا لحسن الخلافة. وأنه من تبع الهدى الذي ينزله الله يحقق لنفسه السعادة فهو لا يخاف من المستقبل، ولا يحزن على ماضيه، وفي المقابل فإن الذين يرفضون ما جاء عن الله ويحسدون، ويكذبون الرسل وما أقامه الله على الحق من أدلة بيّنة، فلو أنك تملكهم لتلج بهم لا يفلقونها خالدين فيها لا مطلع لهم في العفو.

بيان المعنى العام:

هذه أول قصة في القرآن، موضوعها خلق آدم أول الناس وجودا، ولد البشر جسيما، حدث عظيم اعتنى به القرآن وفصله في أكثر من سورة، واتصالها بالآية السابقة التي بين فيها أن الله خلق للبشر ما في الأرض جميعا، بين وما ذكر في هذا الموقع من سورة البقرة يشمل المشاهد للآية:

30- ولا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة... ملائكة تعلمون

المشهد الأول: يجمع الله الملائكة ويطلبهم أنه سيجعل في الأرض من يقوم على عمارتها ويصرف فيها.

المشهد الثاني: تحير الملائكة حيرهم تركيب هذا المختلف وخصائصه رولا فيه أنه قادر على التعيير كما هو قادر على التخريب وأنه مؤهل للطاعة كما هو مؤهل للمعصية، وهكذا... فتوجهوا إلى الله طالبيين أن يكشف حيرتهم وسألوا سؤال استفسار لا سؤال اعتراض: لتجعل عمارة الأرض بيد من هو قادر على الإفساد، ولتنفاعة لتحقيق مصالحه قد يصل به إلى قتل من يقف دون ذلك؟ ويؤكدون مع الأدب الكامل معنيين ما استقر في عقولهم بقولهم: نحن نعظمك ربنا ونعتقد أنك الحكيم العليم وثقلنا عليك ربنا متصل بنا لا يفارقنا (نصبح تسبيحا مقترنا بحمك) ونزكك عن كل نقص لكمالك لذاتي. (وللشكر لك) ويحييهم الله

جواباً قاطعاً لسؤالهم: إني أعلم ما لا تعلمون، فهذه المشهد حيرة لمعت في الأفق، خيوط حلها مستكنة في علم الله الذي لا يغيب عن علمه شيء.

31- وعلم آدم الأسماء كلها-إني كنتم سادتيق.

المشهد الثالث: قرب الله آدم، وحرك ما لودعه في بطنه من حب المعرفة، وأعانته على تبيين الأشياء، ثم التحول بما حصل في بطنه من صورها إلى مرتبة وراء ذلك هي التعبير عن ذلكم الحاصل الذهني بالكلام الذي عليه، وذلك سر من أسرار استخلافه، الذي هو المعرفة واختزان ما عرفه في ذهنه ثم القدرة على إيلاغ الحاصل الذهني لغيره. واستقرت المعلومات في عقل آدم، وارتبطت للمعرفة بالطق والتعبير.

32-33- قالوا سبحانه لا علم لنا-سيتبدون وما كنتم تكتمون.

المشهد الرابع: أحضر الله سبحانه الملائكة وعرض عليهم شريطاً للموجودات التي علمها لآدم، وطلب منهم أن يظفروه بأسماء ما قدم لهم بما يميز بعضها عن بعض في التعبير كتميزها في الواقع.

وكان جوابهم: نلزمك مشاكلك، لا نعلم إلا ما علمتنا إياه، وفحنت لنا باب معرفته. لسان حالهم يقول: إننا نجهلها وما غننا من علم هو لا يتجاوز ما تفضلت علينا فعلمتنا إياه.

ويبرر هذا المخلوق الجديد آدم، ويخطبه ربه في الجمع الحشد: عرفكم بأدم بأسماء جميع الأشياء المعروضة، ويتقم بما سبق له من تعليم إلهي لا خطأ فيه فيفرق بين كل شيء واسمه، وهي مرحلة الفصح البشري، فلأن الطفل يسم في صغره الباكر، فكل مستدير قد يطلق عليه كرة، ثم كلما ارتقى ذهنه يخرج من التعميم إلى التفريق فالتفاحة غير الكرة مثلاً، ثم يسمو في معرفته فيفرق بين أنواع التفاح، ثم يسمي كل جزء مما تركبت منه التفاحة، ثم يسمو فيتعرف على خصائص كل جزء ويطلق عليه اسمه وهكذا.

ويبهر الملائكة من مزاجها هذا الكائن المختلف، ويخاطبهم ربهم عندها: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض؟ إن هذه الأشياء التي حوتها الأرض والسموات أنا خلقتها وأنا أعلم بها ويتضمن ذلك لني أعلم من هو قادر على تنفيذ إرادتي فيها، وأعلم قبل تعيينكم طواهر ما تظنونونه وما لم تظنونه مما هو مكتوم عنكم.

34- وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم-وسكان من الشاكارين.

المشهد الخامس: أدرك الملائكة مزيا آدم التي أهلتها للخلافة في الأرض، وتبين لهم مقام العلم للتأهل لشرف الاستخلاف، بما كشف لهم ربهم في المشهد السابق، فصنر الأمر الإلهي لجميع الحاضرين كي يعبروا عن هذا التقدير للعلم بأن يسجدوا لآدم. وبدا مشهد التكريم المرتفع بسجود الملائكة جميعهم، وبقي كل من واحد سدا في المشهد ولاحرف ولم ينفذ الأمر، هو إيليس الذي كل من الجن من غير جنس الملائكة وكان يعيش معهم وشمله الأمر، ويشهر القرآن بعضياته ويشرح طه فساد به بأنه رأى نفسه أعظم من آدم، وحمله طغيانه على عصيان الله. وفي امتناعه من السجود، زيادة عن المعصية ورفض الاستجابة للأمر، أن سؤدى استكباره نفى الحكمة عن الله في أمره بالسجود لآدم، فهو معرض بفى الحكمة عن الله، وذلك كفر يوجب أن يكون إيليس من جملة الكافرين بالله. لا يختلف عنهم لأن الكفر كما يطبع به صاحبه بالرفض لوحدة الله بطبع به أيضا بالاعتراض عليه وتحكيم الرأي في أولاده ونواهيه برفضها أو قبولها.

35- وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فتسلولا من الثامن.

المشهد السادس: افترق في هذا المشهد الحاضرون إلى ثلاثة أقسام:

- (1) الملائكة المنفوقون لأمر ربهم وقد أدركوا من استخلاف آدم وسجدوا له.
- (2) إيليس المتعظم المستكبر، وقد نزل عن المرتبة التي كان عليها من رفعة الملائكة ودخل في زمرة الكافرين.

(3) آدم وزوجه وقد كرم آدم بالعلم ثم بسجود الملائكة ثم بالإذن له في سكنى الجنة، مع زوجه وهو حسب طبيعة خلقه محتاج لتسمر حياته أن ياكل ويشرب ويسهر لئلا يفقد مفومات بقاءه. ويطلق الله لهما الحرية في الانتفاع بما حوله الجنة من نعيم لا ينفد من متوع أشجارها وموائلها ومنجلاتها، لا يلحقهما في ذلك تعدد ولا جوع ولا عطش. ومن بين أشجار الجنة، ثمر لا يلحقها القحط، يعين لهما شجرة ويحضرها لهما فيتفرقان عليها تعرفا يجعلها لا تقتلها بغيرها من شجر الجنة وينهاهما ربهما أن يقرباها أو يأكلا منها. ويؤكد النبي بأن القرب منها يدخلهما في زمرة الظالمين، بمصيان الأمر وبظلم النفس بالحرمات من النعيم.

36- فأولهما الشيطان عنها فأخرجهما من الجنة ومنا إلى حين.

المشهد السابع: آدم وزوجه وقد لقا الجنة ونعيمها، فلنحت عزيمتهما والتقربا من الشجرة التي حرمها الله عليهما وأكلا منها. ويكسى آدم وزوجه ثوب الخطيئة ومخالفة الأمر بفعل المنهى عنه، وللشيطان دور كبير فيما قام به من وسوسة

وتزيين الأكل منها. وتبرزهما الآية ومما خرجا من الجنة لا يستطيعان البقاء فيها لحظة بعد ذلك، كل الجنة ففتحتهما إلى الخارج، ومما أشد حسرتهما عندما يأتيهما النداء الجازم يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: أمر بالهبوط والنزول، أمر ينهي ما خولهما عندما قال: **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**، وهو حرمان لهما ولعقبهما من اقترية من دخول الجنة في الدنيا.

الثاني: أن العلاقة بين ذريته لا تكون علاقة ود دائم ومحبة مسترسلة وإخاء، إنهما لما كانا في الجنة ما كان حصول الرزق يههما ولا الخوف من النقص يخطر على بالهما، فلما أخرجا من الجنة وتبعهما الذرية فإن الحياة الدنيا برافقها التقلب وحسب الاستتار بالخير، والخوف من المستقبل، وكل ذلك مما يثير التنازع والتناظر.

الثالث: أن كوكب الأرض هو المنع الحيوي الذي يعيش فيه وتربسه، يستمتعون بالخيرات العنبية فيه، فليست الأرض التي من الحياة فيها دار عذاب بل فيها من المقام ما قدره الله ليبي الإنسان، وذلك إلى الأجل الذي قدره الله في سابق علمه.

ملاحظة

سرى القرآن بين آدم وحواء ولم يلق بالمسؤولية على حواء، ولم يلق باللائمة عليها وحدها، على أنها استكبرت زوجها لارتكاب المعصية بل حملها معا جريرة المخالفة للأمر بالأكل من الشجرة، وخالفهما معا بالخروج من الجنة كما خاطبهما عندما أدخلهما الجنة. وفي هذا رفض لما نقله اليهود والنصارى من أنها هي التي ملوحت زوجها للأكل ولها سبب قبلاء.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ **فَلَمَّا أَهبطَا**
بَيْنَا جَمِيعًا قُلْنَا يَا ابْنَيْ آدَمَ خُذَا زَوْجَيْكِ وَارْكُزَا فِي الْجَنَّةِ
مَعَكُمْ وَأَلَا تَأْمَنُونَ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**



37- انتهى آدم من الترحيب

المشهد الثامن.

يذهب النصور ما يشاء في تقدير حالة آدم لله وهو خارج من الجنة، محروم منها، لا يما ثوب المعصية النازلة به عن مرتبة الكرامة التي كان عليها من تقدير

الملائكة له، بجهل مصيره وتتحرك نفسه للأولمة، ومحنة الله أنه يعقب الضيق بالفرج، فتفتتح روح آدم ليتلقى من ربه كلمات هي معناه لرضوانه عليه، وهي كلمات لم يفصلها القرآن في هذا الموضع ولكنها تشير إلى إعلان التوبة والندم والابتغال إلى الله في ينفر له.

أي فرحة تهب آدم وقد أعلن الله أنه تاب عليه! وهو فضل الرحمن الرحيم لا يختص به آدم، فالله هو القواب يعفو عن الذنب ورجع إلى باب فضله سلاسل، ولنفسه الأئمة مؤنبا ولائما، إنه هو الرحيم الذي شملت رحمته خلقه، فتحها لمن زل ثم التزم طريق الهدى وأوى إلى ربه ثانيا.

38- قلنا اهبطوا منها جميعا سحزون

مع الفرحة العارمة التي يظهر فيها آدم وقد تقبل الله توبته ورفع عنه إثم خطيئته، بأمره الله تعالى بالمصير إلى الأرض التي سيجمعها وتعمرها ذريته من بعده، ويعلمه أن بقاءهم فيها مقرون بنقل التكليف والمسؤولية، مع بيان أن هذا التكليف يرفقه اللطف ببينة الرسل يبينون لذريته الطريق الذي يرضى عنه خالفهم ويساعدهم على النجاح في تحمل كل المسؤولية، مؤكدا أنهم يضمون بالتباع الهدى الذي يبين معالمه رسل الله لمرئين كبيرين:

أ- أنهم ينوزون بالطمأنينة في الحياة الدنيا والأخرة، فلا يقرب الخوف قلوبهم ولا يشل حركتهم..

ب- وأنهم لا يحزنون على ما فاتهم إذ أن ملوكهم كل على وضاه المنهج الإلهي.

39- والذين كفروا وكتبوا سحزالدون

وفي المغال فيه بحذر من يرفض قبول ما يبلغه رسل الله جاحدا لما تقتضيه العبودية به مكنيا بالآيات اللينة التي تحرك القلوب والعقول الأدلة على أن الله هو وحده الخالق المتصرف، وعلى صدق المرسلين من المعجزات، فيكون التحذير لذرية آدم من يوم نزل آدم إلى الأرض وما لحق نزوله بواسطة رسالات الله للبشر، وإيماء إلى رسالة النبي محمد ﷺ - لمزيد بالقرآن هذا الكتاب الذي اختصر بأن كل وحدة من وحدته آية. التكتيب بها كفر، ويستحضر الكثرة المكثرون بإياته في ختام المشهد بأنهم ممنوعون في النهاية إلى النار التي ارتبطت بهم وارتبطوا بها **(الصحابي الثار)** لا يتفك عنهم مهلتها ولا يخفف عنهم من عذابها خالدين فيها أبدا.

وإذا كانت المشاهد السابقة تعرض علينا خلق الإنسان وما جف به، في هذه الآية نخلنا معشر البشر في المشهد، إنه بين الإشارة والإنذار يتحرك القلب ويستيقظ

العقل، وينتبه كل تال ليرى منزلته وما ملوكه في هذه الحياة مقرروا يتحقق نفاذه يوم القيامة.

من عبر القصة:

هذه القصة تسجل قيمة العلم فيعلم تقدم أم للاستخلاف في أرض الله، وبالعالم مسجد الملائكة لأنهم، وهذا ما يفرض على المؤمنين أن يحترموا العلماء، وأن يتقدموا في التخصص العلمي إلى أبعد مقامات التخصص. كما تنبئ إلى أن الابتكار ليس الخطايا وجالب للبلاتيا، أن باب التوبة مفتوح لبقى أم. وأن المؤمن لا يقنط من روح الله.

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰذْكُرُوْا يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰتَمَنُوْا عَلٰىكُمْ وَاُوْلٰٓئِكَ يَهْتَدٰى اَوْفٰى يَهْتَدٰى وَلٰٓئِيْ

لَا اَهْمُوْنَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الآيات

إسرائيل: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

اتكروا: لتكون حاضرة في أذهانكم.

اولوا: حقوقا.

المعهد ما اقرمه به لليهود من التوحيد وتطبيق شرائع موسى والإيمان بمحمد ﷺ .
وعهد الله إليهم بالتكريم والحو.

ارهبون: خافوني

بيان المعنى الإجمالي:

دعا الله بني إسرائيل (اليهود) إلى أن يستحضروا دائما فيض العلم التي أنعم بها عليهم وعلى أسلافهم، وأن يحقوا في الحياة ما أخذ عليهم من موثيق التزموا بها، وأنهم إن وفوا بعهودهم لنجز لهم ما وعدهم. وشدد عليهم أن لا يرهبوا أحدا إلا الله مهما اختلفت الظروف والأحوال.

بيان المعنى العام:

4- يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰذْكُرُوْا...وَاِيَّاىَ لَّا اَهْمُوْنَ

تكرر في القرآن دعوة بني إسرائيل ليذكروا عن الكيد للإسلام، وتذكيرهم بما أنعم الله على أبائهم، وتقريعهم بمتنوع مظاهر عبادهم وجرائعهم وبمختلف المكائد التي كانت دينهم في التعامل مع الآخرين، وبما صنع أبائهم مع رسول الله إليهم سيدنا موسى ﷺ ومع الأنبياء الذين تولوا فيهم، مما سيأتي تفاصيله في سور القرآن الكريم.

صلة خطاب بني إسرائيل بالآيات الصالحة:

دعا الله البشر جميعا لعبادته في الآيات السابقة **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** الآيات 25/21 - ثم قصر عليهم قصة خلق أبيهم آدم وأنه سيبيط لهديتهم رسله. وأقدم وحي باق عند البعثة للمحمدية هي التوراة التي أُنزلت على سيدنا موسى عليه السلام. وقد استحققت عليها بني إسرائيل. ولكن التوراة قد اختلطت فيها صادق الوحي بالضلالات البشرية، وحرف اليهود عبر القرون ما حرقوا وكتبوا منها ما كتبوا. وهم يدعون أنهم وحدهم المملكون للحقيقة. فتوجهت عنيزة القرآن إليهم ليقرعهم بالحقائق التي أخفوها، وبالتحريف الذي غيروا به ما استعظوا عليه، ويدعوهم إلى معاضده الحق الذي جاء على لسان محمد رسول الله ﷺ، فينصروا دينه ويتبعوا شريعته. وتتابع الآيات في هذه السورة مقصدا ما نكرناه. فنداء في هذه الآية من الله إلى بني إسرائيل يوظفهم ليكونوا على ذكر لأشياء مهمة التذكير:

أولاً: أن يكونوا مستحضرين دائما للنعم الكثيرة التي نعم الله بها عليهم حاضرة في قلوبهم جار ذكرها على أنفسهم، لم يفصل النعم هنا في هذه الآية، وسورد تفصيلها في مواقع كثيرة من القرآن.

ونكرهم ثانياً: باليهود التي قطعوا على أنفسهم، وسبيلاني تفصيلها أيضاً، كالمحافظة على شريعة موسى وعدم تغييرها، والإيمان بمحمد ونصرته، وقبول ما أتى به من ربه وافق رغبتهم ومخططاتهم أو خالفها.

ونكرهم ثالثاً: بأن ما صنع لهم من النجاة والفوز مرتبط بالوفاء بمهودهم، مشعرا لهم أنهم إذا فسروا ضاع عنهم ما كانوا يرجون.

وحرك مشاعرهم في ختام هذا النداء بأن عليهم، مهما اختلفت بهم الظروف والأحوال وبرزت نواحي الإحلام والإحجام، عليهم أن لا يرهبوا ولا يخالوا أحداً إلا الله. وما ذلك إلا لأن خوف الله لسبب صلاح الإنسان في عبديته وسلوكه.

وَابْتَئُوا مِنَّا أَزْوَاجًا مُّشَابِهًا مَّا تَمْكُرُونَ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ بِهِمْ وَلَا تُشْرِكُوا بِمِثْلِ

لَهُمَا قَبْلَهُمَا وَزَوْجَيْنِ فَإِن تَوَلَّوْا

بِإِن سَأَلْتُمُوهُنَّ

مُتَصِلِينَ الدال على صدق ما في كتبهم.

تَشْتَرُوا: تستقبلوا.

بيان المعنى الإجمالي:

يا بني إسرائيل آمنوا بالوحي الذي أنزلته على قلب محمد المؤكد لما يؤمنون به في جوهره، ولما كان مصدقا لما معكم فخالوا يجب يقتضيهكم أن لا تكونوا مسارعين للكفر به ورفضه، ولا تبعوا ما تقول من الهدى يثمن قليل من الحفظ العاجلة.

بيان المعنى العام:**41- وَاٰمَنُوْا بِمَا نَزَّلْنَا**

يتوكل على دعوتهم للوفاء بالعهود أن يؤمنوا بالإيمان بما أنزل الله من وحي على لسان رسوله محمد ﷺ ، لأن ما جاء به يؤكد في جوهره ما معهم من وصايا أنبيائهم. ويضع على من سبق منهم إلى الكفر به ورفضه، ثم تشير الآية إلى أنه لا يبرر الاستعجال بالكفر به، إلا حفظ دنيوية خيصة يستبدلون بما عندهم من صريح الحق وشريف الإيمان وعزم العهود، يستبدلون بذلك ثمنًا بخصًا من متاع الدنيا وحفظها للرخصة، سواء أكلت مالا أو رئاسة وتحكما، فجميعها لا وزن لها أمام ما وعدهم الله من ثواب والنصر والكرامة **(وَلَوْ لَوْا بِعَهْدِيْ اَوْفَ بِعَهْدِكُمْ)**. وجماع ذلك هو ما ينبغي أن يعمر به قلوب المخاطبين من تقوى الله التي بها يحصى المكلف نفسه من غضب الله وعقابه.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَانْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾**بيان معاني الألفاظ:**

لا تلبسوا: لا تشربوا الحق بالباطل حتى يخفى.

تكتُموا الحق: اخفوا وعدم إظهاره.

بيان المعنى الإجمالي:

يا بني إسرائيل لا تخطئوا الحق بالباطل حتى يسبق الباطل ويخفى الحق لا تقصروا لذلك وأنتم تعلمون الحق.

بيان المعنى العام:**42- وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ سَلْبًا**

نهى الله بني إسرائيل عن تضليل الناس بخاط الحق بالباطل حتى يمسق الباطل وبضيق الحق. أن مما بلغهم إياه موسى ﷺ من الوحي: ما أوصاهم به وشدد عليهم من نشر كلمة الله وعدم كتمانها **(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُقِيمَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهَا)**¹ إن إيقاع الناس في الضلالة يعظم شذاعته إذا كان

عند، بحيث يعلم المضل الحقيقة ويفش غيره فكريا ليضلّه. إن في نهى بنى إسرائيل عن التتويه والتلبس والتلبس فيما يعلمون حقيقة، إيقاظا للمؤمنين حتى لا يسبوا في طريق الضلال بتزييف الحق والترويج للباطل.

وَالْيَمِينُ الصَّلَاةُ وَهَاتُوا الزَّكَاةَ، أَرْكَعُوا نَحْ الرُّكْعَيْنِ ﴿٢٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ

إقامة الصلاة: الإتيان بها كاملة.

الركوع: انحناء الظهر ليكون مع الرجلين زاوية قائمة.

بيان المعنى الإجمالي:

يا بني إسرائيل اقرءوا الإيمان بمحمد بإقامة الصلاة وأداء زكاة أموالكم والاندماج مع المؤمنين في العبادة.

بيان المعنى العام:

43- وَاَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ.

أمر بني إسرائيل بعد أن فرض عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ في الآية السابقة (وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ نَعَلْنَا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ مَعَكُمْ) أمرهم أن يقرءوا الإيمان الباطني بالقيام بشعائر الإسلام: فأمرهم بالصلاة على الطريقة التي يؤديها عليها المسلمون فركعوا مع الركعتين، ولما يقوموا بواجبهم في التزام الاجتماع بإبلاغ زكاة أموالهم لمن يستحقها.

هَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَدْرُونَ

بيان معاني الألفاظ

تبر: جماع الخير في العقيدة وفي الفعل.

لنفسين: ذهاب ما في الذاكرة.

تتوب: تفرلون التوراة .

بيان المعنى الإجمالي:

ينكر القرآن على يهود دعوة غيرهم إلى الاستقامة وفعل الخير والتزام طريق الفضيلة عقيدة وسلوكا وقولا، وهم يخالفون ما يبينونه للناس مع أنهم يتلون التوراة التي تنهاهم عن الخداع.

بيان المعنى العام

44- أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَأَنْتُمْ لَا تَدْرُونَ

صورة الخطاب صورة سؤال وجهه الله إلى بني إسرائيل. وهذا السؤال لا يقصد منه تلقي الجواب، ولكن يراد منه توبيخ يهود وإنكار منهجهم، تلك أنهم يدعون إلى فعل الخير والاستقامة والتطهي بالفضائل، ثم إنهم في حياتهم يمثلون مستوا من الشر والرذيلة والخداع. ويوضح تناقضهم هذا بأنهم يقدمون على الشر وهم يتلون التوراة التي تتهاهم عن ذلك، وتذكرهم بالمواقب الخاسرة لهذا الخداع. كأنهم فقدوا عقولهم فأصبحوا كالأنعام بل هم أضل.

ونظير هذا الاستهزام أن تقول لمن أهان والده: فهين والدك وقد حنا عليك ورباك صغيراً؟ فانت تقصد إلى توبيخه ولا تطلب منه جواباً.

وفي هذا الإنكار والتوبيخ ما يوقظ المؤمنين أن لا يسلكوا مسلك يهود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم فعل المنكرات وترك المعروف.

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ لَكُم مِّنْهَا بَرَاءَةٌ وَالَّذِينَ يَأْتُواكَ

بِأَهْوَاءِ شَهْوَاهِهِمْ أُولَٰئِكَ أَمَّا أَرْسِلَ إِلَيْهِم مَّا يَشَاءُونَ ۖ

وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

الاستعانة: طلب ما يتلذذ به الإنسان ويتقوى به.

الصبر: قوة في النفس تثبت بها عزيمة الإنسان على تحقيق ما هو خير له في العاقبة وإن كان مخالفاً لرغباته العاجلة وكذلك تقبل الواقع المؤلم أو المزعج دون شكاية ولا ضجر.

الصلاة: الركن الثاني من أركان الإسلام.

لهيئة: هيئة شاقة.

الفاطمين: الخشوع حالة باطنية تجعل الخاشع مثلاً مطمئناً للعبادة يظهر آثارها في سلوكه الخارجي وعدم الانشغال بغير ما هو مقبل عليه في تلك الحال.

يتقنون:

صالحوا ربهم: راجعون إليه ليحاسبهم ويحزيهم.

بيان المعنى الإجمالي:

أرشد القرآن بني إسرائيل أن يستعينوا بالثبات على الدين الحق (الإسلام) بالصبر عليه وإن فاتهم بذلك بعض الحظوظ العاجلة، وبإقامة الصلاة، رغم أن المواقفة عليها أمر شاق إلا على الذين مكثت قلوبهم لذكر الله مكيدين أنهم سيقفون بين يديه ويعودون إليه ليحاسبهم ويحزيهم.

بيان المعنى العام:

45-46، واستعينوا بالصبر والصلوة.

اليهود حسب تربيتهن وما عمرت به أعمقتهن شديدا لتعصب ليهوديتهن، أفوا ذلك ورمخ فيهم حتى صار ملكة، فلكسى يطمئنون بالإسلام الذي دعاهم القرآن إليه، أرشدهم ليستعينوا بأمرين هامين:

أولهما: الصبر، بمعنى أن تكون عزيتهن قوية ماضية، إن دواعي بقائهم على دين اليهودية قائمة من التكتل اليهودي وتعصبهم لبعضهم، ومن قرينة التي لرجال الذين منهم والولاء لهم وقطاعة، ومن ثمر الإلف لما تعودوا عليه منذ بواكير صباهم من الطقوس والأعباد، ومن شدة التمسكين باليهودية على من دخل منهم في الدين الإسلامي ورفضهم له. يهزم كل هذه الدواعي قوة في النفس ومضاء في العزيمة وتغليب الفوز في الآخرة على كل شيء، وبالإزالة لصلبة يتميز الرجال في مقامات السمو الإنساني.

ثانيهما: إقامة الصلاة، وهو تكرير لما سبق في قوله تعالى **(وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ)** ولما كانت الصلاة هي العبادة التي تتخلل فترات اليوم خمس مرات فهي التي تفي الإنسان على صلة دائمة بربه، فتصل روحه كلما أصابها غيب عن مخالطة المادة واللهث وراء المطالب العاجلة. وفي الصلاة أسرار عظيمة تدرك آثارها في يقظة الروح، والاستقامة، والسمو عن الدنيا وحفظ النفس في ترك الخطيئة والإثم. عبادة الصلاة نظرا لتكررها خمس مرات في اليوم واليلية، وما تقتضيه من طهارة بالوضوء أو الغسل، ومن طهارة المكان والثياب ومن إعداد الباطن ليتفرغ للمناجاة والإقبال على الله، لا ينهض بها إلا من استقر الإيمان في قلبه فاستمتع بالخشوع لمولاه، وبدأ على جولحه وأعضائه للمكينة والافتقار فكان مستحضرا دوما موقفا جازما بأنه سيلقى ربه ويرجع إليه مجردا من كل قوة ومن كل تصوير، وأنه سيحاسبه ثم يجزيه.

نبينا **(مَرْسُومٌ أَذْكُرُوا بِغَنِيٍّ إِلَىٰ أَتَمَمْتُمْ عَلَيْكُمْ رَبِّيَ لَضَلَّتْكُمْ عَنْ الْغَلَمِينَ ٥٥)** وَأَذْكُرُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ فَيْدٌ وَلَا يَقْبَلُ بَيْنَهُ شَفَعَةٌ وَلَا تَوْحِيدٌ بَيْنَهُ عَذَلٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ٥٦

بيان معاني الألفاظ

لفكروا نصلي: لتكن النعم التي أتممت بها على أهلكم حاضرة في أذهانكم لا بتطرق إليها السيلان.

اتقوا يوما: احذروا عذاب يوم،

لا تجزي نفس عن نفس: لا تقوم نفس بقضاء حق عن غيرها.

ولا يقبل منها شفاعة لا يقبل منها أي وسيط يظن أن له مكانة لجلب نفع، لو ادفع ضرر.
ولا يؤخذ منها عذر ولا يؤخذ منها فدية تغري بها نفسها من عذاب الله.

بيان المعنى الإجمالي

يكرر تنبيه بني إسرائيل إلى النعم الكثيرة التي أنعم بها على أبائهم، ويفرد منها نعمة تقضيلهم على العالمين في عصورهم، ويحذرهم من عذاب يوم القيامة اليوم الذي تتحدد فيه مسؤولية كل شخص عما قدم فلا شفاعة في ذلك اليوم ولا يقبل أي عوض عن التقصير، أو ما تطلق بالنفس من مظالم.

بيان المعنى العام

47-48، يا بني إسرائيل سولاً هم يتصورون.

يتواصل توجه القرآن إلى بني إسرائيل ليطلعوهم لفضول الإسلام والدخول في دين الله الخاتم. يوظفهم ليكونوا ذكركين ما أنعم الله به على أبائهم، تلك أنه من المعلوم أن الانتساب إلى المميزين من البشر يعطى للأخلاق مكانة وعزة بذلك الانتساب ومن النعم التي خصها بالذكر أنه فضل آباءهم على جميع معاصريهم. وتقضيلهم كان ببعث الرسل والأنبياء منهم وتمييزهم بحمل هداية الله، وبالكتاب المنزل (التوراة) وبأن التوراة التي لوئها بقيت المرجع للهداية حتى في عهد عيسى عليه السلام. وفأثر بني إسرائيل بتلك النعم أعدمهم للتعمق في فهم الوجود مما كان له مدخل في خروجهم عن الأمية وشرفوا بمخاطبة القرآن لهم أنهم أهل الكتاب. ويقصد القرآن بهذا التذكير تزع ما نوهه بنو إسرائيل أن تلك التكريم هو لأمر ذاتي فيهم، فليفظهم ليخلصوا أنفسهم من الغرور بتلك النعم. وإن مما يقتضيه الإكرام والتفضل بالنعمة أن يكونوا لوفياء لما نزل على لسان موسى الله بما أمرهم به من اتباع الرسالة الخاتمة. وللتكريم لا يقتضي الانفلات من تحمل المسؤولية، بل بالعكس فكما ارتفع مستوى الإنسان كلما كثر ذلك مما يقتضي منه أن يكون أحرص على الكمال والبعد عن التسيب، فحذرهم من عذاب يوم القيامة. هذا اليوم الذي يتحمل فيه كل فرد نتائج عمله فلا يقوم أحد مقام غيره ولا شفاعة تخرج الكافر من العذاب، ولا يقدم أي بديل ولا فدية عما يكون الفرد مطلوباً به، ومن أين الفدية وكل الناس فقراء في تلك اليوم. لا يملكون إلا ما قدموه من الأعمال الصالحة.

وَلَا تَحْتَسِبُكُمْ مِنْ دَالٍ يَزْعُمُونَ يَسْمُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْكُرُونَ آيَاتَكُمْ

وَيَسْتَعْمِدُونَ بِسَاءَتِكُمْ وَلَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

ال فرعون: الال بمعنى الأهل، وفرعون حاكم مصر، وواله قومه وأعرانه وخاصته وأتباعه.
يسوءونكم سوء العذاب: ينفقونكم أسوأ العذاب ويعتبرونكم حقيقتين بذلك.
يستحيون: يفتقون نساءكم أحياء.

التيلا: الامتحان والاختبار، ويكون بالخير ليظهر الممتحن بالنعمة شكرها أو كفرانها، وتكون بالشر ليظهر المبثلي مقدار صبره وتحمله أو جزعه.

بيان المعنى الإجمالي:

يوالي القرآن على بني اسرائيل تعدد النعم التي أنعم بها على أبائهم فيقول: اذكروا
 إذ نجينا آبائكم من ظلم فرعون الذي نفذت أحكامه فيكم، يسلط عليكم أسوأ
 العذاب، يتيح لذكوركم ويبقى نساءكم. لقد كلن امتحانا شديدا.

بيان المعنى العام:

49- وَإِذْ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَفْثِهِمْ

بعدد القرآن ذكر النعم التي أنعم بها على بني اسرائيل، وحفظهم إلى الوقت بما
 تقتضيه. فقد نجاهم من بطش فرعون لما كانوا في مصر تابعين لحكمه، سلط عليهم
 زبانيته الذين بلغ بهم التشكيل ببني اسرائيل لأهم كانوا يفتخرون بإنهائهم كما تنبج
 الخراف، ويبقون على النساء.

عزم فرعون على استئصال بني اسرائيل وإذلالهم، فسلط عليهم ألقابه كلما ولد
 ذكر فبحوه حتى يقطع نسلكهم، ومسخروا الرجال للأشغال الشاقة، واستبقوا النساء
 بدون رجال وفي ذلك إيماء إلى ما كانوا يريدونه من الاستمتاع بهن أو الخشعة. ولو
 لم تتركهم عذابة الله للحقهم الغناء، ومن نجا منهم من السج فإله يتأصل الذل فيه
 ويورثه ما يتأصل منه. وإله امتحان عظيم بنهاده رب العزة.

وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْيَمَّ وَالْخَيْطَ وَأَفْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ، أَشْتَرُ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

فرقنا: فصلنا بعضه عن بعض.

بكم البحر: بسبيكم.

بيان المعنى الإجمالي:

والذكروا يا بني اسرائيل نعمة فرق البحر بكم فنجوكم من طلب فرعون ونجوتكم من الفرق،
 ونعمة إغراق عدوكم وإلحاق البحر عليه وعلى أتباعه. ولتم قد شاهدتم النعمتين.

بيان المعنى العام:

50- وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ تَنْظُرُونَ

تفصيل للجنة السابقة في قوله تعالى (وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) فجاءهم الله لما لوحي إلى سيدنا موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البحر الأحمر فيعبده. وتبعه فرعون بجنوده حتى لم يبق بينهم وبينه كبير مسافة. وانزعج بنو إسرائيل، فلوحي الله إلى سيدنا موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه وتفلق البحر وسار موسى بقومه على يمس قاع البحر، ولما تبعه فرعون لطبق عليه وعلى جنوده للبحر فغرقوا. وبني إسرائيل يشاهدون الآيات الممتلئة المؤيدة لنبيه سيدنا موسى ﷺ.

**وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْثِهِ وَأَنتُمْ طَائِفَةٌ
ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم مِّنْ ذَلِكَ وَلَكُمُ الْعَذَابُ ۖ فَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾**
بيان معاني الآيات:

وإذنا موسى أربعين ليلة: حدثنا له موعدا أربعين ليلة.

اتخذتم العجل: جعلتم العجل معبودا.

علونا: عدم المؤلحة بالذنب.

بيان المعنى الإجمالي:

وعد الله موسى ثلاثاً أربعين ليلة ليتمكن من الشريعة الهادية، وفي هذه الفترة صنع السامري لهم عجلا من ذهب، له خوار، فعبده بنو إسرائيل على أنه إلههم، فكان ذلك منهم أعظم تجاوز للحق. وتظهر الجنة إثر ذلك فيعفو الله عن هذه الجريمة رجاء أن يقدروها حق قدرها ويشكروا ربهم.

بيان المعنى العام:

51-52. وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ شَتَاكَرُونَ

بعد أن من الله على بني إسرائيل بإخراجهم من فرعون وإغراقه، أعلمهم موسى أن الله سيعطيهم من الشريعة التي تبين لهم المنهج الذي يضمن لهم الهداية في علاقاتهم الاجتماعية وفي علاقاتهم بالكون. وأن الله ضرب له ميعادا أربعين ليلة يتقرب فيها إلى ربه ويناجيه لوظفر بالشريعة الموقفة. وأقام عليهم مدة مغيبه لأخاه هارون، وفي فترة مغيبه عنهم اتخذوا عجلا من ذهب على أنه إلههم، وتوجهوا إليه بالعبادة بالرغم من أن هارون عليه السلام عمل على أن يشرحهم عن هذا الضلال المبين. (وسيفصل الله هذا الأمر في سور أخرى). ولكن الله بفضله وكرمه لم يطرد بني إسرائيل من رحمته، ولم يعجل لهم العقوبة الماحقة بل نأب عليهم وعفا عنهم. وهي منة عظيمة تثير في نفوسهم حياء مما هتروا، وتقديرا لفضل الله عليهم مع أنه

لا عذر لهم في هذا الذنب العظيم، وذلك مما يوجب إيقاظهم لشكره سبحانه، على عظيم فضله.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَكُمْ تَحْتَدُونَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكتاب: التوراة الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام.

الفرقان: المعجزات التي فرق الله بها بين الحق والباطل.

بيان المعنى الإجمالي:

اذكروا يا بني إسرائيل نعمة أنزل التوراة على موسى مع المعجزات التي أظهرت الفرق بين الحق وبين الباطل.

بيان المعنى العام:

53- وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى سِقِّيتَهُ

النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل وعندهما عليهم في هذه الآيات تقتضي أن يشكروا ربهم على ما أنعم به عليهم، ويحتم عليهم أن يؤمنوا بالحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ، فمن هذه النعم أن الله جعلهم أهل كتاب منزل من عنده، وأن الله أنزل رسوله بالآيات المعجزة، وجاء أن تفتح قلوبهم لهداية رب العالمين فيؤمنوا بتأييد الحق ولا يرفضونه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِمْ طَحُّوا أُنْفُسَكُمْ فِي سَبَاطِ الْمَعِينِ فَأَنزَلْنَا إِلَيْنَ بَابِكُمْ فَأَتَلْتُمْ مِنْهُمْ دَبْلَ حِمْلِكُمْ وَلَكُنْ مِنْكُمْ خِزْيَانٌ لَّهُمْ فَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَوَجَدَا آلِهَةً لَهُنَّ عِثْرٌ لَّهُمْ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هَٰؤُلَاءِ السَّاعُونَ

الترجمة: ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

لوم موسى: هم الذين خلفهم لما ذهب لقبول الشريعة.

طاحتم أنفسكم: عصيتم ربكم وجئتم على أنفسكم.

نوبوا: أرجعوا عن المعصية إلى الطاعة.

الساعون: هو الخلق بتقدير محكم، ينفل المخلوق من حال إلى حال.

ساع: عفا عن الخطيئة.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن ما دار بين موسى وقومه بعد أن وجدهم يعبدون العجل، فأمروهم أن يقتلوا أنفسهم ليطهروها من الخطيئة، وقللوا بذلك إلى أن أنزل الله توبتهم، ورفع عنهم القتل، والله هو الثواب الرحيم بعباده.

بيان المعنى العام :

54- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ... إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ.

نعمة أخرى من النعم التي أنعم بها الله على بني إسرائيل تكرمهم بها. وهي أن الله أوحى إلى موسى عندما رجع من معبد ربه يحمل ألواح التشريع، ووجد قومه عاكفين على عجل من ذهب يعبدونه، أوحى الله إليه أن يخاطب قومه مسجلاً عليهم أنهم قد ظلموا أنفسهم ظلماً كبيراً بعبادة العجل، إذ قطعوها عن خالقها وباريها وربطوها بذلك العجل. وأمر قومه أمراً جازماً أن يطهروا أنفسهم من هذه الخطيئة الشلعية، وأن يتوبوا على الطريقة التي يقبل الله بها توبتهم، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضاً، وقاموا بذلك وقبل أن يطهروا بالقتل تدفركهم لعطف الله فعفا عنهم ورفع القتل عنهم، على أن من قتل كان شهيداً، ومن بقي حياً أحييت رائته وقبيلت توبته. وهذه الرحمة الإلهية العظيمة ليست غريبة عن الله، فهو التواب الرحيم، يغفر الزلات، ثم يعود بالرحمة على التائب. الرحمة التي يتبعها محو آثار الخطيئة والاثم، ثم التفضل والتكريم.

وَإِذْ لَقِيتُمْ مُوسَى لَوْ تَوَمَّنْ لَكَ خَيْرٌ نَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخَذْتُكَ الْمَصِيبَةَ وَأَشْرَفْتَ

تَنْظُرُهُمْ... ثُمَّ مَقَّنْتُكُمْ بِرَأْسِ بَعْدَ نَوْمِكَ لَعَلَّكَ تَشْكُرُونَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

جبهة : رؤية ظاهرة واضحة.

أخذتكم الصاعقة : استولت عليكم صاعقة، نار كهربائية تنزل عادة من خلال السحب المزركمة وخاصة البرقانية.

بمناكم : أرجعنا لكم الحياة.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل رفاة واجه بنو إسرائيل موسى بقولهم: إنا لاؤمن برسالتك في المستقبل حتى تمكن أبصارنا من النظر إلى الله بكل وضوح، فأخذتهم نار لأهقت لأرواحهم لعظم الوقاحة والذنوب التي صدر منهم، ثم عفا الله عنهم ولحياتهم، رجاء أن يشكروا هذه النعمة الكبرى نعمة الإحياء.

بيان المعنى العام:

55-58: وَإِذْ قُلْتُ يَا مُوسَى اامسكك تشكرن.

واقعة أخرى ظهرت فيها المنة والسبح لله بغيره، ذلك أن بني إسرائيل واجهوا موسى عليه السلام بصفة غريبة، فقالوا له: لن نؤمن برسالتك حتى تمكننا من النظر بأبصارنا إلى الله رؤية واضحة بيّنة، لا يدخلنا فيها شك أن الذي تبصره هو الله الذي تدعون لعبادته، وهذا تجاوز للحدود وصفقة بعد ما رلوا من المعجزات المتوالية المؤيدة لسيدنا موسى عليه السلام، وعندها علقهم الله بأن سلط عليهم قوى كهربائية خلقت أرواحهم في الحين - قد تكون من نوع الصواعق التي تعملها السمجد للكثيفة السوداء- ثم إن الله بعد ذلك عفا عنهم وأرجع لهم أرواحهم، فعادوا للحياة كما كانوا، ولو لم يتركهم عفو الله ورحمته لانتقطع وجود بني إسرائيل. انه لنعمة يقضي إيلها لشكر المتفضل عليهم، من الذين أحبهم وممن يأتي بعدهم لما لم يتأصلوا استتمالا بمعقهم وتسلمهم من الوجود.

وطللنا عليكم القمار وأزلنا عليكم الموائى كروا من طينيت ما فنكم
وما ظلمونا ولكن كروا أنفسهم يكلون

بيان معاني الألفاظ:

القمار: سحاب أبيض يلطف حرارة الشمس ولا يظم الأرض.

الموائى: مادة صخرية فيها خلوة، تنزل في بعض البيودي مع الصباح، تجمع وتعالج، صالحة لأن تقات.

المسؤى: طائر دور الحمام طيب اللحم.

كلوا من طيبات ما رزقكم: إن بالأكل مما رزقوا مع وصفه بأنه لذيق الطعم.

بيان المعنى الإجمالي:

يوالي القرآن تكثير بني إسرائيل بالنعمة التي أنعم بها على أبائهم، ومنها أنهم لما كانوا في صحراء سيناء تاتين لطف عليهم حرارة الصحراء بسحاب أبيض رقيق وأنزل عليهم الممن فكثروا ولتقلونه كل صباح ويطلقونه، وسخر لهم طيور السمائي، يسكنونها ويستمتعون بلذيق لحومها، وأن لهم في الانتفاع بذلك.

بيان المعنى العام:

57- وظللنا عليكم القمار - يكلون.

تو الى آيات سورة البقرة منكرة بني إسرائيل بالنعمة التي أنعم الله بها عليهم وعلى آبائهم، وبما أن الله ان سيقصها في مقامات أخرى كان شكرها هنا مختصرا. كان

بنو إسرائيل في صحراء سيناء ثلثين، وشال الصحرَاء أن تكون شديدة الحر في النهار قاطعة. لطف الله بهم في وضعهم هذا من نواح ثلاث: غطى سماء الصحراء بسحب بيضاء تنكسر على طبقتها العليا أشعة الشمس فتحميهم من حرها، دون أن تعظم عليهم الرؤية. أنزل عليهم مع الصباح مادة حلوة تنضج بأوراق الشجر يمكن جمعها وتعالج كما يعالج النقيع، ويصنع منها خبز اللبنة. فضمن لهم لقواتهم بدون تعب. بعث لهم طيور السماني (السلوى) وسخرها لهم يسكنونها بسهولة، يذبحونها ويأكلون لحومها ذات الطعم اللذيذ. ومن تمام النعمة أنه لأن لهم في الاكتفاء بكل ذلك حتى يكونوا مطمئنين إلى أن الله ألحها لهم. ثم إلى موقف بنى إسرائيل المنخفض بالنعم التي افتتحت آيات سورة البقرة بتذكيرهم بها (يا أيها الإسرائيليون انكروا نصرتي التي أنصت عنكم) وتوالت مصل الله عليهم. فكان موقفهم هذا لا يضر الله شيئاً، ولكنهم ظلموا أنفسهم بإفساد فطرتهم وتعريضهم للعقوبات التي لا تتواصلهم، ولكنها تنصح عن خروجهم عما يقتضيه الإكمال.

وَإِذْ لَمَّا أَذْخَلُوا فِيهِ الْقُرْآنَ لَنَحْكُمَ بِهَا بِمَا مَنَّا عَلَيْهِمْ وَإِذْ ذَاكَ الْحُكْمُ
سُجَّدًا وَقُولُوا حَقًّا. إِنَّمَا نَحْكُمُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ وَتَزِيدُ الْوَافِينَ فِي الْإِيمَانِ
ظَلَمُوا قَوْلًا فَمِ الْإِيمَانِ. قِيلَ لَهُ فَأَرْفَعْنَا غَنَاءَ الْوَفِيِّ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ
كَانُوا بِغَضَبٍ ۖ

بيان معاني الألفاظ :

القرية : البلدة المكونة من مجموع ميلين. تطلق على المدينة الكبيرة وعلى البلدة الصغيرة .

من حيث شتم: من كل مكان فيها.

رعداً: عظم رعد: طيب واسع.

سجداً: جمع ساجد، أي أن يدخلوا على هيئة السجود شكراً لله.

قولوا حقا: قولوا هذه الكلمة.

بدل: غير دون إزالة الأصل.

رجزاً: عذاباً.

يسقون: يخرجون من الطاعة إلى المعصية.

بيان المعنى الإجمالي.

قال الله لبني إسرائيل اخللوا هذه القرية التي هي حاضرة أسلمكم، وقد اجئت لكم أن تأكلوا من ثمارها وغلاتها من أي مكنى شئتم، اخللوا من بابها سجدا لي وقولوا (حطة) وإضافة إلى ذلك سأغفر لكم جميع ما ارتكبتم في السابق من أثام، ومنزلة المحسنين فوق ذلك فضلا مني. ولكن بني إسرائيل ظلموا أنفسهم قبلوا الكلام الذي أمروا أن يقولوه فأنزل الله عليهم عذابا من السماء بسبب خروجهم عما حده الله لهم.

بيان المعنى العام.

58-59، وإذ قلنا اخللوا سمعا مكانوا يفتنون.

من الوقائع التي حصلت في عهد سيدنا موسى ما جاء في هذه الآية: توجهت إليهم عناية الله فقال لهم: هذه القرية التي أمامكم اخللوا فند ملككم خيراتها، كلوا من أي مكان منها ما شئتم رزقا طيبا واسمعا، اخللوا من بابها مستحضرين نعمة الله وفضله معبرين عن ذلك بالسجود لله. (وقولوا حطة)

قرض المفسرون لبني ملول هذه الكلمة **فروض** كثيرة، والذي لنا مقتنع به: أن بني إسرائيل قد أمروا بأن يقولوا ما يؤديه هذه الكلمة (حطية) بلغتهم العبرانية، وقد يكون مفهومها ما يدل على الخضوع المناسب للسجود والتوبة إلى الله، لقوله مع ذلك تغفر لكم خطاياكم، إذ الشأن في الفضل الإلهي أنه يغفر عن طلب شعور، وخاصة إذا كان كلامه موافقا لما أن فيه الله كما رأينا في قصة آدم أن الله نادى عليه لما توجه إليه بالكلمات التي تلقاها منه، ثم فتح لهم باب الأمل ليسخطهم على الاستقامة بأنه سيزيد المحسنين منهم ما يرقى بهم عن منزلة العفوان للخطوب إلى مقامات أرفع غير محدودة. ولكن بني إسرائيل لغلظ لكبادهم، بتعودهم التمرد على الأوامر الإلهية، وإفهم العصيان وظلم أنفسهم بالخروج دوما من طاعة إلى المعصية، غيروا ما أمروا به إلى كلام آخر قريب منه لا يؤدي نفس المعنى. وكان جزاؤهم أن الذين ظلموا قهروا ساط عليهم عذابا نزل عليهم من السماء لم يستطيعوا منه توفيا ولا ردا. جزاء خروجهم عن الطاعة إلى المعصية. وفي هذه القصة ما ينبغي المؤمنين إلى التزلم لتغيير الذي جاء عن الله في كل المناسبات التي قصر المكلفين على ذلك. كإلغاف القرآن، والدخول للصلاة وما يذكر فيها.

♦ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ضَرْبٌ يَخْصَالُكَ الْحَجَرِ فَأَنفَجَرَتْ مِنْهُ
 اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيقًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا بِأَنزِيلِ اللَّهِ مِنَّا
 نَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُثَسِّينَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ

استسقى: طلب الماء الذي يسقى به قومه.

النفجر: انفجح بفرة.

لا تعتوا في الأرض مفسدين: لا تفسدوا في الأرض فسادا كبيرا.

بيان المعنى الإجمالي.

نعمة أخرى ذكر بها القرآن بني إسرائيل وإن كانوا يعرّفونها: عطشوا في بؤية لا
 ماء فيها فطلب موسى لِقَوْمِهِ، فأمره الله أن يضرب حجرا بعصاه التي
 كانت إحدى معجزاته، فصوبه فانفجرت من الحجر الصلدا اثنتا عشرة عينا، لكل
 سبط من أسباط بني إسرائيل مشرع يروى منه. ثم أعلن سبحانه لهم أنه أحل لهم
 أن يأكلوا هذينا مما رزقهم الله، وأن يشربوا من ماء تلك العيون، ونبيهم كى
 يتذكروا فضل الله عليهم ولا ينسوا هذه النعمة ففسدوا في الأرض لشدة الفساد.

بيان المعنى العام:

60- وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ

كان موسى عليه السلام حريصا على سلامة قومه، شأن الرّسل بما جبلهم الله عليه
 من الرّافة والرّحمة، ولما كان في الصحراء أدرك قومه العطش، فتوجه متوسلا إلى
 الله أن يسقيهم، فأمره ربه أن يضرب الحجر بعصاه، التي جمع الله فيها لمرارا
 كثيرة، وكانت مظهرا لكثير من معجزاته. ضرب موسى بعصاه، فتدفقت بقوة من
 الحجر الصلدا اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط بني إسرائيل، وألهم الله كل سبط من
 أسباطهم، معرف المشرع الذي يشرب منه، لطفاً بهم حتى لا يتدافعوا وقد أدركهم
 العطش، وتدفق الماء أمام أنظارهم صافيا تسان ماء العيون التي تنفجر من
 الصخور. ثم لأن لهم أن يأكلوا وأن يشربوا من الخيرات التي رزقهم الله، ونبيهم
 بنهيه أن يفسدوا في الأرض لشدة الفساد.

وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ أَرِ نَجِيمَ عَلٰى طَعَامٍ وَجِبَا، فَأَذَىٰ لَّنَا نَزْلَكَ خُرُجٌ لَّنَا شَا لِهَتْ
 الْأَرْضِ مِنْ بَلَدِيهَا، بَلَدِيهَا زُلُوبِيهَا وَعَدِيهَا يَنْصَلِيهَا قَالَ اسْتَعْبِدُونَكَ الْوَدَى، هُوَ

أَذَىٰ وَالَّذِي هُوَ غَدْرٌ أَهْمَلُوا بَصُرًا فَإِنْ لَحِمٌ مَّا سَأَلْتَهُمْ وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ
الْبَلَاءُ وَالْمَسْخَنَةُ وَيَأْخُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِفَاتِنَةِ
اللَّهِ يَكْفُرُونَ الْكُفْرُ مِنْ بَعْدِ الْإِيمَانِ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الآيات:

لن نصير: لن نطبق الاستمرار.

مكمن واحد: نوع واحد من الأطعمة لا يختلف.

البقل: نبات عشبي يتخذ به الإنسان دواء علاج.

القشاة: نبات قرعي أطول من الخيل.

الثوم: الثوم ويطلق أيضا على الحب الذي يخبز.

الذي هو الذي: الذي هو أقل قيمة وأخس.

مصريا: كل مدينة هي مصر ويمكن أن يرك منها مصر هرعون.

ضربت عليهم الفتنة: فضي عليهم بالذل.

للمسكنة: للفقر.

بالوا رجعوا وقد أزمهم.

يكفرون بأيت الله يكذبون بها.

بيان للمعنى الإجمالي:

مما عايناه سيدنا موسى من قومه أنهم قالوا له بكل صفاقة ويورم من الخيرات التي
ينعمون بها. أنهم لن يستطيعوا الاستمرار على الأمن والسلاوي، أكل غير متنوع.
ولذا فادع ربك لن يخرج لنا البقول والقشاة والثوم والعدس من القصب. أجابهم سيدنا
موسى: عجباً لكم! لتطلبون الأقل قيمة وتبتلون في مقابلة الأرفع والأفضل، انزلوا
إلى أي مدينة تستجدون فيها هذه الشهوات القفينة. فانزلوا إلى أي مدينة من المدن
فإنه يتوفر فيها ما تعلقتم به. وكان جزاؤهم أن أزمهم الله بالذل والفقر. وانقلبوا
يصحبهم غضب الله عليهم. وفصحهم بما كانوا يقترفون من شذاعات، فقد كانوا
يكذبون الرسل ويرفضون قبول معجزاتهم ويقولون الأنبياء وهم الخيرة من البشر،
بدون مبرر يحق به قتلهم وإنما هو ظلم شنيع، تلك الغضب والذلة والمسكنة
استحقوه بسب عصيائهم وتجاوزهم للحدود التي حدها الله.

بيان للمعنى العام:

61- ولا قلتم يا موسى...وكانوا يعبدون.

كان حرص سيدنا موسى دفع لتوفير ما يضمن لبني إسرائيل الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة حرماً كبيراً، سأل رسول الله فذبح عورت قلوبهم حسب الإنسانية وخاصة بالذين أرسلوا إليهم، وكان يلقي من قومه صنوفاً من الفناء، قلوبهم قاسية سريعة للتبرم كثيرة المطالب. لقد هم من ظلم فرعون وزيافته ورفع عنهم النذل، وأراه من الآيات والمعجزات ما أكرمه الله به، وفي صحراء القية حماهم من شواظ الحر الشديد، من شمس الصحراء الحارقة، بواسطة الغمام الذي يتكسر عليه الأمعة ويبقى للنور المماعد. وفر لهم الله بدعائه الأكل الهني يصلهم نون عناء ولا جهد، ولا يترجمهم الخوف من انقطاعه، وتنفتحت السماء صليحية موزعة على ألباطهم. وفي كل مرة يذكرهم بأن ما أكرمهم به ربه هو رجاء أن يشكروا نعمه كما ختمت به الآيات المغفرة، ولول مراقب الشكر للشعور بالنعمة وبفضل مسديها والاجتهاد في طاعته. ولكن بني إسرائيل فسدت نفوسهم وهبطت همهم بالرغم مما بذله موسى قنص من جهد ليرفع مستواهم، ويهينهم لتحمل الحفاظ على الرسالة وعلى الكتاب المنزل (التوراة)، فسجل القرآن في هذه الآية وقاحتهم وجزاءهم.

قالوا: يا موسى لقد سئمتنا هذه الحياة ولكن نستطيع أن نستمر عليها في المستقبل، صرحوا بأن صبرهم، ولا يكون الصبر إلا على مكروه، صبرهم على ما توفر لهم من لحوم الطيور (السلوى) وما ينزل جديداً كل يوم مع الصباح ما يطبخونه ويعملون منه خير القلة، صبرهم نقد وطلبوا منه على ما تعرفوه من أن الله يستجيب دعاءه، طلبوا منه أن يدعو ربه، وهي وقاحة أخرى إذ نسبوا الله لموسى فقط، ولم يقولوا ربنا، ما هو طلبهم؟ أن يحرح الله لهم من الصحراء للقبول والثوم والعسل والبصل.

قال لهم موسى منكراً عليهم: أترغبون أن يتوفر لكم الأكل قيمة والأحط في الموازنة، بل ما أنتم ممتكون منه مما هو خير وأزكى طعاماً ومذاقاً مع الاطمئنان على توفره؟ إذا كان همكم في تنوع الأكل، وهمكم متعلقة بالأمشياء الهائلة نازلة بكم عن عزائم المصلحين. فأنزلوا إلى المدينة التي تتوفر فيها هذه الأشياء، وقد روي أن المركب بها أي مدينة لونداء رحله بعضهم على مصر فرعون التي كانوا يقامون فيها لنوع النذل والمهانة، ولما كانوا قد خرجوا بذلك عن التفضل الذي عودهم به، فلذا كان الظاهر أن يحمل الأمر بتحول مصر على غير الإجابة أو الإذن ولكن على التوبيخ أو التعجيز. لأنهم في الصحراء يعيدين عن الأمصار. وكذلك لا يتصور رجوعهم إلى مصر فرعون التي انفخوا بالخروج منها، ويسجل القرآن ما أكرمهم به الله إلزاماً لا ينك، من الذلة والمسكنة، ولهم رجعوا بأشد خيبة

كانوا في عهده ومن سيلاحقون بهم في عهد الأمم، وكذلك اليهود والنصارى، والصابئين. وهم فرقة كانت تؤمن بالله خالق الكون ويلتزم أصحابها في حياتهم بالغيم الخلقية الجامعة للفضائل الأربع (العفة والشجاعة والحكمة والعدل) ومنهم من لم يكن على هذه الحال. ولما كانت فرق الصابئة مختلفة، ولمنقول عنهم أنهم يتخفون ولا يملكون عن عقائدهم، لذلك اختلف لقبها في إجراء أحكام أهل الكتاب عليهم فذكرت هذه الآية أن الذين آمنوا: الذين اتبعوا دين الإسلام وكذلك اليهود والنصارى والصابئين ممن جمع إلى الإيمان ما يقتضيه الإيمان من قبول كل ما جاء به النبي ﷺ، وطبق ما بلغه من تشريع فعل الصالحات. هؤلاء يحق الله لهم أجرهم تحفيظاً مؤكداً بأن ذلك الأجر هو عنده سبحانه، وكفى بذلك دلالة على نيفته وثباته. هذه الآية تقرر حقيقة كبرى تكاد في ضمير البشرية أن المسؤولية بما يتبعها من ثواب أو عقاب، هي مسؤولية فردية ترتبط أساساً بصلاح العقيدة، ثم بالوفاء لما تقتضيه وتهدى إليه من العمل الصالح الذي يرضى المعبود. وبهذا يكون بنو إسرائيل لا يضاع لهم نعمهم إلى إسحق ويعقوب وإسراهم، كما لا يضر من آمن منهم وعمل صالحاً بما فرط من أسلافهم من كفر وغش وجوراء.

وَرِثُوا مِيرَاثَكُمْ وَرَزَقْنَا أَلْفُورَ خُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُورٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١١﴾

بيان معنى الآية

أَلْفُورَ مِيرَاثَكُمْ: الميراث الذي أخذ منهم بعد رفع ألقور عليهم.

اللقور: جبل.

خُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُورٍ: لزموا ما آتيناكم من التشريع بعزم على التطبيق.

وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ: كبروا ما تضمنه.

تَوَلَّيْتُمْ: أعرضتم.

بيان المعنى الإجمالي.

يفكر القرآن بني إسرائيل بالعهد الذي أخذه الله من آباؤهم على العمل بالشرعية ثم نقضهم للعهد رغم ما شاهدوه من المعجزات وتوجهه الله إليهم مؤكداً عليهم بالعمل بذلك. ثم إليهم رغم ذلك لم يعملوا به، وأنه لولا أن الله تحصل عليهم ففضلاً عنهم لكلاوا من الخاسرين خسراناً لئبداً.

بيان المعنى العام:

63-64. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ... لَعَنَّا مَنِ الْخَاسِرِينَ.

لذكروا يا بني إسرائيل لنا أخذنا الميثاق بالعمل بالوصايا العشر من أيديكم الذين كنتموا حاضرين عندما أتى موسى بالشرعة بعد تردد منهم، وما أذعنوا إلا عندما شعروا أن الجبل سينقض عليهم ويسحقهم إن لم يستجيبوا، وقلنا لهم خذوا هذه الشرعة بعزم على تطبيقها فما أنزل عليكم هو السبيل لحصول النجوى، ثم إنه بعد هذا الميثاق الذي أذعنوا إليه وصحب قبولهم له من الآيات ما جعلهم يستسلمون ويعاهدون على العمل به، ثم إنهم بعد كل ذلك نقضوا ما التزموا به، ثم خاطبهم بقوله: ولولا فضل الله عليكم يشمول رحمته لكم وإسعافكم بعصوه لكنتم من الخاسرين خسرانا أبدىا.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَقْنَا لَهُمْ كُفْرًا يَوْمَهُمُ الْمُنْتَهَى
فَخَلَقْنَاهَا نَكَلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَقَهَا إِلَّا لَعْنَةً لِّلْمُتَكِبِينَ

بيان معنى الآيات:

اعتدوا: جاوزوا الحق بمخالفة ما أمروا به.

السبت: اليوم التالي ليوم الجمعة.

المتكبين: هؤلاء حفيزين.

النكال: العقاب الشديد الرادع للحثي وغيره.

ما بين يديها: ما قرنها.

ما خلقتها: ما سبقها.

موعظة: ما يرهب به للتحذير من الوقوع في الشر.

بيان المعنى الإجمالي:

حرم الله على قرية من قرى بني إسرائيل أن يعملوا يوم السبت فاحتالوا بأن نصبوا مصائد للأسماك يوم الجمعة ويجمعون ما يحصل فيها يوم الأحد، فعذبهم الله بمسخهم قردة إما في خلقهم وإما في مدركهم، فكان عقابهم تنكيلا بهم لما صدر منهم في الحال ولما سبق، وموعظة للمتقين حتى لا يحتالوا على حدود الله.

بيان المعنى العام:

65-66. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا... مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ.

أمر الله أهل قرية من قرى بني إسرائيل على قبحر الأحمر أن يخصصوا يوم السبت لعبادة الله ولا يعملون فيه، وأن يأمن فيها كل الأحياء، فلا يحل لهم الصيد

في البر ولا في البحر. ولا حظوا أن الأسماك تظهر بكثرة في هذا اليوم، فاحتالوا لصيدها يوم السبت بأن نصبوا مصائد لها يوم الجمعة، ثم يجمعون ما يحصل فيها يوم الأحد. ويأتى الأمر التكرينى من الله الذى لمرة: **(إِنَّمَا فَلَا لِلشَّيْءِ كَسَنٌ فَيَكْمُونَ)** ففسخهم الله قردة، فهم كثير من المفسرين أن الله حول خلقهم إلى خلقه القردة، ويرى آخرون أن الله سلبهم قوة التفكير التى يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، جزاء من جنس العمل، إذ هم يكرههم صرفوا ذكاءهم للاحتيال على ما يريد الله تحقيقه منهم ليتمكنوا من تحصيل ما يرغبون فيه. ولرجح هذا التخرىج استنادا إلى نظيره في قوله تعالى في الآية السابقة من سورة البقرة: **(يَخَادِعُونَ اللَّهَ بِهِمْ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)** فكل الله بهم جزء ما قاموا به، وكالوا بذلك عزة للمفتين حتى لا يفعلوا فيما وقع فيه أهل هذه القرية.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ لَأُمَرُّكُمْ أَرَأَيْتُمْ إِن تَقُولُوا بَقْرَةٌ قَالُوا ائْتِجِدْهُ مَرُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَاءٌ بَيْنَ ذَلِكَ قَالُوا مَا تُوْمَرُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْبَعْ لَوْثُهَا فَتَنُورُ الشَّظِيرَاتِ ﴿٢٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِذْ أَتَتْهُ شَظِيَةٌ عَلَيْهِمَا وَأَنبَأَ أَنَّ اللَّهَ مُهْتَدُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْمِدُ الْحَرَّةَ مُسَلَّمَةٌ لَا بَيْنَ يَدَيْهَا قَالُوا اتَّعِزَّ بِهَا بِنَحْوِ الَّذِي قَوْلُهَا وَمَا كَادُوا بِفَعَلُونَ ﴿٢٩﴾

بيان معنى الآيات

مرؤا: المخبرية مع الاستخفاف.

لا فارض ولا بكر: ليست كبيرة سقطت أسنانها، ولا هي صغيرة.

عواء: متوسط بين الكبير والصغير.

صفراء فلقع لونها: صفراء شديدة الصفرة.

تحرر التكرين: تدخل السرور على من ينظر إليها شأن النظر إلى الجميل من كل شيء.

تشابه البقر علينا: وجدنا ما وصفت لنا في أكثر من بقرة ولم تبين لنا البقرة المقصودة التي كلنا بنبحها.

لا ذلول: لم تستخدم لا في حرث الأرض ولا في سفنها.

مسيئة لا شية فيها: مريمة من العيوب نعية لا علامة فيها.

بيان المعنى الإجمالي:

يوصل البيان القرآني عرض قصص موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، تضمنت هذه القصة: أن الله أوحى إلى موسى أن يأمُر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة. والأوامر الإلهية تقتضي أن يسرع المأمور بالطاعة بتفويض ما طلب منه إظهاراً للعبودية له سبحانه. ولكن بني إسرائيل كُتِلِفَهم في الثوران والمماطلة والبحث عما يمكنهم من الانقلاص من المطالب، ولجئوا بغيرهم بوقاحة فقالوا له: أتهزأ بنا وتسخر منا؟ فأجابهم عليه السلام واعتاد، أن الاستهزاء بالشيء والإخبار عن الله بما لم يأمر به لا يليق بالأنبياء. فقالوا له: اطلب من ربك فإن بيننا ما هي صفاتها؟ فراجع ربه فأعلمه أنها بقرة بسط لاهي متقدمة في السن حتى سقطت أسنانها ولا هي صغيرة لم تكتمل، وعرض أن يستحيوا عودوا السؤال: اطلب من ربك أن يبين لنا ما لو أنها؟ فأجابهم: إنها بقرة صفراء خالصة الصفرة لونها عجيب يسر الناظر إليه. ولم يسرعوا بالاستجابة فقالوا: اطلب من ربك أن يبين لنا بيتاً أقم لصفتها؟ فأجابهم إنها بقرة كريمة عدا مالكها، لم تدخل الخدمة ولم تحرك الأرض ولم تسق الحرث، صقازها واضح لا عيب فيها، ولا علامة خاصة على ظاهرها. عندها توفروا عن الأسئلة وقالوا: الآن وضح ما طلب منا، فيحشوا عن البقرة للجامعة للصفات المذكورة وفجئوها، وحرمهم الله التيسير في القيام بالمطلوب لعمليتهم وتباطؤهم.

بيان المعنى العام:

67-71. وإذ قال موسى لقومه إن الله بأمركم... وما كادوا يفعلون.

هذه قصة مما لاقاه سيدنا موسى عليه السلام من تعنت بني إسرائيل وسوء انبيهم، تشمل القصة المتبادر التالية:

أولاً: لوحي الله إلى سيدنا موسى أن يأمُر بني إسرائيل بذبح بقرة. والأوامر الإلهية لا خيار للمأمورين في الاستجابة بما أمروا به. ولكن بني إسرائيل عومض أن يبادروا إلى الطاعة فذبحوا بقرة من البقر ويظهرون بذلك الطاعة، قبلوا الأمر بسوء الأكب. وقام موسى عليه السلام أنه يسخر منهم ويمتهزئ بهم، **(فقالوا أكنفنا هزواً)** ويثيراً موسى من هذه التهمة ويمتهزئ بالله منها، فإن السخرية بالشيء من فعل لجاهلين بالعواقب، الذين لا يفكرون أنهم مسؤولون. ومن أعظم المنكر أن يبعد الأنبياء عليهم السلام إلى الاستهزاء أو الإخبار عن الله بما لم يبلغهم بواسطة الوحي.

ثانياً: وقد قرأوا أسوء أدبهم مع نبيهم رجعوا فطلبوا أن يبين لهم ما هي صفات هذه البقرة؟ يتلقى موسى الوحي المبين: فبين لهم أن عليهم أن يذبحوا بقرة لم تهرم فتفتد أسنانها ولا هي صغيرة لم تكتمل فوائها، بل هي وسط تشيطة ومثل من يريد التعرف على الدفية أن يبحث أولاً عما يدل على سننها، ولكن عليهم أن يسارعوا بالاستجابة.

ثالثاً: شأن بني إسرائيل أنهم يتكبرون في أداء الحق، ويماطلون ما لم يكن لهم أن يماطلوا، ويخفون طبيعتهم هذه بالظهور بمظهر الطميطع الرافض في أداء ما هو مطالب به، فبرروا في هذا المشهد بوقاحتهم يسألون موسى أن يدعو ربه، ومن سوء أدبهم لم يقولوا ربنا كأنهم يثرون من العبودية لجلاله، فمسألوا أن يبين لهم ما هو لونها؟ ويضيق عليهم بأن البقرة المأمور بذبحها: بقرة صفراء واضحة الصفرة لا يخالط لونها ما بكسر نقاءه، على خلاف عادة الصفرة في البقر، إذ يخالط صفرتها حمرة، وهي لذلك تسر من ينظر إليها وتدخل على نفسه الواجة.

رابعاً: لم يسرعوا بالاستجابة فساءلوا وبنص طريقة الفجة، ادع ربك أن يبين لنا شيئاً من صفاتها معتبرين بأن البقر للجمع للأوصاف السابقة لم تتميز منها واحدة عن بقية جنس البقر. أتى قوحي لمبيناً موسى: إنها بقرة كريمة عند أهلها لم يذلوها لا لحرب الأرض ولا للثقى، بل بقيت على نضارتها وجمالها، وهي سليمة من العيوب، ولا يظهر عليها علامة خاصة.

خامساً: بعد هذا البيان المعروف بالبقرة تبعاً لمواصله الأسئلة منهم، أعلنوا بأن موسى عليه السلام قد بلغ في البيان كماله وبه ظهر الحق الذي طلب منهم، فوجدوا البقرة المعينة بتلك الأوصاف ويحومها، وكان تقديم الأمر شاقاً عليهم، فكفوا يمحرون عن تحقيقه، لأنهم في أول الأمر لم يسرعوا لكفاهم تبع أي بقرة، وروي بسند غير قوي: أن النبي ﷺ قال (لو اعترضوا أثنى بقرة فذبحوها لكفتمهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم).

الموعظة من هذه القصة

على المكلف أن يسارع بالاستجابة بتتبع ما أمر به ربه، وعلى العالم أن يبحث عما يلازم في الحكم ليكون موجهاً لمعرفة المقصود من الحكم لينفي عليه غيره، لما الأوصاف غير المؤثرة فالطاية بها ولتوقف عندها لا يغيب توسعاً في الاستنباط، ولا عمقاً في الفهم والتعليل. فكون البقرة مثلاً صفراء أو لي لون كانت، وكونها صغيرة أو كبيرة، وكونها علامة أو غير علامة، كل ذلك مما لا يؤثر في طاعة لما أمر به

وَإِذْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاتَرَكْتُمْ أَنفُسَ اللَّهِ فَنَفَخَ فِيهَا مِنِّي رُوحًا فَأَمَاتَ اللَّهُ مَرْيَمَ وَحَدَّثَ بِهَا مَن يَشَاءُ لِيُخْرِجَ عَلَيْهَا آيَاتٍ لِّعَلَّاسِيَّاءَ الْبَقَرَةِ يَعْقِلُونَ ﴿١٢٩﴾

بيان معنى الآيات:

لعمري شخص: إنسان.

قوله: فَاتَرَكْتُمْ أَنفُسَ اللَّهِ فَنَفَخَ فِيهَا مِنِّي رُوحًا. ويرمي بها غيره.

مخرج ما تكتنون: مظهر ما تخفونه من الحقيقة.

بيان المعنى الإجمالي:

وجد قاتل عي بني إسرائيل - قام أولياده يطالبون بنمسه وأكبر المتهمون. وكان ذلك في زمن نجدهم للبقرة، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب القاتل ببعض أجزاء البقرة، مضربه بها لحبي وأخبر بقائه. إن إحياء هذا القاتل دليل على أن الله قادر على إحياء الموتى. ولقد أظهر لكم يا بني إسرائيل مظاهر قدرته، وتحقق ما تحقق أمام أعينكم لعلمكم تحركون عقولكم وتستفيدون من القاتل في دلالات النبوة الصادقة.

بيان المعنى العام:

72-73. وَإِذْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَلَمَّا ظَهَرَ لَكُمُ الْحَقُّ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

لتصل بقصة ذبح البقرة جريمة قتل. ذلك أن يهوديا وجد مقتولا في محلة حتى من اليهود، فقمهم بنو عمه بأنهم قتلوه. وشيأ المتهمون من الجريمة ورموا بها بني العم لأن والد القاتل ثري والقاتل وحيث والديه وماله سيؤول إلى بني عمه. فوجود القاتل في محلة المتهمين ترجح برأى بني العم. وكون بني العم هم المستفيدين من الجريمة ليدعوا بالمال برجح برأى المتهمين فحين لا يستفيدون من الجريمة شيئا. فأوحى الله إلى موسى أنه أن يضربوا الميت ببعض من البقرة، مضربه بذلك ببعض فحبي، وأخبر أن قاتله هم بنو عمه. ولقد الله يظن بني إسرائيل لينالوا فيما تم، ليتبينوا أولا: يمر إحياء الله للموتى وبعثهم يوم القيامة ليجزوا عما فعلوه في حياتهم. وثانيا: كثره الله على إظهار آيات صدق رسوله موسى. فإني كما تقسم شكوا في صدق نبينهم لما لهم يذبح البقرة. وكل ذلك مما يحتم على المشاهدين لما تم أمام أعينهم أن يحركوا عقولهم، ويكتفوا عن الكجاج.

وتشير الآية: أن إحياء الميت بضربه ببعض من البقرة غير مرتبط بكون البقرة كبيرة أو صغيرة صنفاء أو سوداء، مكرمة أو مبتذلة، وهذا لتأمل يهدي إلى الإصرار بالمطاعة، وقصر السؤال والبحث عما يمكن أن يكون علة في الحكم أو

مظهرا لحكمة فيه. لأن ما عدا ذلك مضحية للوقت وتعويد للعقل على الاهتمام بالآخرة.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَهُمْ. مِنْ بَقَاةِ إِلَهِكَ لِهَيْئِ كَاتِلِحَجَارَةٍ أَوْ أَمَّا قَسْوَةُ وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَخْرُجُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

قَسَتْ: القسوة ضد اللين، والجسم القاسي يصعب التأثير فيه، وكذلك القلب القاسي لا يقبل الهداية، ولا يتحول عن الوضع الذي هو عليه.
خشية الله: الخوف منه.
ما الله بغافل: الله عالم لا يغيب عن علمه شيء.

بيان المعنى الإجمالي:

أبرزت هذه الآية قسوة قلوب بني إسرائيل رغم الآيات والأطراف التي تفضل الله بها عليهم، فقلوبهم صلبة جافة كقسوة الحجر الذي لا ينفذ إلى باطنه نور ولا ماء، بل إن قلوبهم أشد صلابة من الحجارة، إذ إن بعض الحجر يتفجر منه الأنهار للجارية، وبعضها يشق فيخرج منه الماء، وبعضها إذا توجه إليه الأمر الإلهي تحرك وتحول ونزل إلى المكان الذي أمره الله أن يستقر فيه. وهذا بني إسرائيل بأن الله مطلع الاطلاع الكامل على ما تعمل به قلوبهم وتتعلق به ألسنتهم وما يحيكونه من مكر.

بيان المعنى العام:

74- ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَهُمْ. مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

توجه الخطاب لبني إسرائيل مؤيما لهم أنهم بعد ما أراهم الله من آياته وتلطف بهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، بعد كل ذلك تقام عنادهم مما تبعه قسوة قلوبهم قسوة شديدة، فهي صلبة كصلابة الحجارة التي لا ينفذ إلى باطنها شعاع من النور، ولا لين من الرواء. وأكد الله وهو العليم بتلك القلوب المتحجرة أنها أشد قسوة من الحجارة، إذ إن بعض الحجارة يتفجر منه الأنهار ضجري دافقة بالمياه للفرجة، وبعضها يشق فيخرج الماء من ثقبه، ومن الحجارة ما يتوجه إليه الأمر التكويني بالتحول من مكانه فيخضع ويطلع ويستقر في المكان الذي حدد له. لقد قسست قلوب بني إسرائيل فلمستع لتمردهم وتمايلهم على معصية الله، إن وضعهم وضع من يظن أن الله غير

مطلع عليه يحصى كل ما صنع وما لمس به ومكر. فختمت الآية بإعلان أن الله الذي لهم لا يخفى عنه شيء.

• أَفَتَعْلَمُونَ أَنَّ يَوْمَئِذٍ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ خَرُفُوا،
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

أَفَتَعْلَمُونَ: الطمع نقيب حصول شيء محبوب يرافق الرجاء، وضده اليأس.
خَرُفُوا: يخرجون به عن المراد منه بالتبديل أو التحويل لطلبهم للمقصود من الكلام.

بيان المعنى الإجمالي:

لا تقرقوا إيمان يهود فقد طبعوا على مصالمة الحق. إذ كان فريق منهم يبلغ
أسماعهم ما أوحى الله به، ثم يعملون على تحريفه عن قصد.

بيان المعنى العام:

75- أَفَتَعْلَمُونَ أَنَّ يَوْمَئِذٍ لَكُمْ بِهِمْ يَعْلَمُونَ.

إن ما قصه الله بلسان الوحي القرآني يجعل انتظار إيمان بني إسرائيل أمراً مستبعداً
لا يقع. ذلك لأن تربيته التي نشأوا عليها، طبعتهم على العراوغة، فقد كان فريق
من علمائهم يسمعون كلام الله المنزل على موسى أو المنزل على محمد، وهم
يعرفون جيداً ما يقصد إليه، وما يرمى إليه من خير، ومع ذلك يكتون عقولهم
ليحرفوه فيخرجوه عن ظاهره، ويفسروا معناه والمراد منه.

وَإِذَا قَالُوا بُنَيْنَا وَمَا نَحْنُ بِعَبِيدَ اللَّهِ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ كَالْوَادِ وَحَدِّمْ لَا يَسْمَعُ مَا يُنْقَلُونَ بِهِ إِلَّا مَنْ حَضَرَ
مَعَهُمْ.

فتح الله عليكم: بما بينه لكم في التوراة.

إِيحاجوكم به: ليكون حجة للمسلمين عليكم يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي:

بعض اليهود رفضوا الخول في الإسلام، وبعضهم أظهروا اتفاقاً ففهم آمنوا بمرمول الله وما أنزل عليه، فلام كفارون منهم المنافقين في خلوتهم لأنهم في ظنهم قد سريوا معلومات تورائية تكون حجة عليهم يوم القيامة، ورموهم بالبلية وضعف العقل. والله عليم لا يخفى عليه شيء.

بيان المعنى العام:

75-77. وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَومًا يعلنون.

توضح الآية سلوك المنافقين من اليهود الذين إذا كانوا في المصاحف الإسلامية كانوا يظهرهم أنهم آمنوا وتركوا اليهودية وراءهم. فهذا وجههم مع المسلمين وجه كذاب، والمنافق لا يكون إلا كاذباً جباناً. ووضع هؤلاء المنافقين مع اليهود عندما لا يحضر أحد غير يهودي، وضعهم أنهم يؤثيرون من رؤساء يهود فيقرعونهم لأنهم أخبروا المسلمين ببعض الحقائق الواردة في التوراة، طمأن منهم أن تلك المعلومات احتسوا بها فاطلاع المسلمين عليها لا بد أن تكون من فئات السنة للمنافقين الذين أظهروا الإسلام. ويؤيدونهم بأنهم باختيار المسلمين عن الحقائق المشتقة في التوراة سجدوا المسلمون حجة عليهم يوم القيامة لأنهم ما كانوا ليعلموا ذلك، لو أن المنافقين الذين يخاطبونهم تحفظوا وراقبوا ما ينطقون به، ويبالغ رؤساء يهود في تفريع للمنافقين، بأن ما فعلوه يدل على غيبتهم وضعف عقولهم، لأن المسلمين سيبحثون على اليهود يوم القيامة بما علموه منهم.

كل ذلك كان من قصد عقيدة اليهود بظنهم أن الله لا يعلم حقائق الأمور وتخفى عليه داخل نفوسهم وما نخسثهم به نفوسهم الخبيثة. فعلم الله علم شامل لا ينتظر إخبار اليهود حتى يعلم الحقيقة.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَتْلُمُونَ. الْكِتَابَ إِلَّا أَنَا زَانٌ هَ إِلَّا تَتْلُون رَبِّ نَزَّلَ لِلَّذِينَ
يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَنبِيَاءِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَشَرُّ مَا كُنَّا قَلِيلًا
نَزَّلَ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أُتِيهِمْ يَقُولُ لَهُمْ مَا يَكُونُونَ

بيان معنى الألفاظ:

الأمي: من لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

الكتاب: التوراة.

الأماني: جمع أمنية وأولى ما تحمل عليه: أنهم لا يعلمون مقاصد التوراة ومفاهيمها الحقيقية. وما ترمي إليه، بل كل ما عتدهم خليط غير محقق شئ ما يتمناه الإنسان مما لم يحصل بعد.

الويل: للفظ يدل على الشر والهلاك.

بيان المعنى الإجمالي:

من اليهود طائفة تزيت بزى العارفين بالتوراة، والحال أنهم جهلة لا يعرفون ولا يكتبون ولا يعرفون كتابهم وإنما يحملون ظنونا لا أسس لها من الصفة. ومنهم من يدعي العلم ولكن لا أصل عنده يمتدحه فيما ينشئ، بل هو يوثق ظنونه وأوهامه ثم يفترى على الله للكلب ويقول: إن ما كتبه هو كلام الله. وتوعذ الله هؤلاء بسبب ما كتبوا، وبسبب ما ربحوه من كتبهم على الله من الرثاسة وحطام الدنيا.

بيان المعنى العام:

78-79، ومنهم أميون... ويل لهم مما يكسبون.

فضح الله اليهود وكشف حقيقتهم التي ستروها بمظاهر راقية كاذبة. فبعضهم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، جاهل ليس له حظ من العلم. وهم على جهلهم هذا يخيّلون للناس أنهم على حظ من المعرفة، وعلى ميراث من الكتاب. ويكشف الله حقيقتهم أنهم لا يعرفون من الحق شيئا وإنما عصرت لهمجتهم مجموعة من الأماني، كإعلانهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحببوا، وأن الله لا يمتنهم، فصرح القرآن بأن أمانيهم هذه يبيت على ظنون كاذبة وأوهام خادعة. ومنهم من لواقع عن مستوى الأمية فهو يقرأ ويكتب. ولكن ما ذا يكتب وما ذا يشيع في الناس؟ إنهم يسودون كتابات من نسج خيالهم، ويبلغ بهم تكفر أنهم يسميون ما كتبوه بأدبيات متقنين أنه نتاج أوهامهم، يسمونه إلى الله، فيجمعون إلى ضلالهم، للعمل على إضلال الآخرين. فحق عليهم الويل والعذاب بسبب ما كتبوه من أباطيل وبسبب الدافع لهم على ذلك، من حب الرثاسة والظهور بمظهر الحالمين لوحى الله فيكتبون به مقاما اجتماعيا وما يتبعه من حطام الدنيا.

وَقَالُوا لَنْ نَمُوتَ أَلَا نَحْيَا مُتَدَوِّدَةً قُلْ أَتُحَدِّثُكُمْ عَنْدَ اللَّهِ عَهْدًا قُلْ غَلَبَ اللَّهُ عَهْدًا أَتَعْلَمُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ بَلْ مِنْ نَسَبٍ سَبْقَةٍ وَأَخْلَطْتُ بِهِمْ خِلَافَةً فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾

بيان معنى الآيات:

من النار: احترقهم بها لوصول لهدايا إليهم.
 أيما معذرة: أيما قليلة بحسب شأن الشيء القليل.
 تخذت عذ أن عهدا: هل عنكم وعد مؤكد من الله ؟

بيان المعنى الإجمالي

مما أشاعه اليهود أن الله لا يعطيهم إلا أيما قليلة، فرد عليهم القرآن بأنهم كانوا في دعواهم لأن الله لم يعدم بذلك، ووبخهم بنسجتهم لسرا إلى الله بدون علم. ورد عليهم بأن من معى لارتكاب الميقات حتى لحظت به خطاياهم من كل جانب وأطبقت عليه، فإن هؤلاء هم الذين يصحبهم عذاب النار. هم على خلاف وضع المؤمنين الذين عملوا صالحا يرضى الله، الذين سيخلون في نعيم الجنة.

بيان المعنى العام:**80- وقالوا لن نؤمننك الا ان تاتينا بآيات.**

من الفرائد اليهود وضلائلهم التي وشيعونها ويروجون لها، أن الله لا يؤاخذهم بما يقرهون من أقام وما يصنون به في الأرض، وما يعتقدون به على أسس الناس وأعراضهم، وذلك لأن الله في دعواهم، كتب أن يمنهم فقط بمقدار الأيام التي عبدوا فيها لمجمل، أو يوما عن كل ألف سنة من عمر الكون. وهذا لفراء وفق على سنة الله ونكران لعلة الكامل الذي يليق بجلاله. فرد الله عليهم وأسقط دعواهم ونفى المؤمنين إلى كتبهم، لأن ما يدعونه لا يستند لمنه يثبت لهم ما يدعون. إن هذا لا يتحقق إلا إذا وعد الله بذلك، وهم كاذبون فالله لم يعدهم، والله لا يخلف وعده. والله سبحانه بسط ميزان العدل، تجري أحكامه على البشر جميعا، وهو اللائق بجلاله وكماله، فدعوى التمييز بين البشر وتفضيل جنس على آخر وقبيلة على غيرها هو قول على الله بخير علم.

81- بل من مكسبه خالدين.

ويصرح القرآن بما يقتضيه ميزان العدل الإلهي، فينفي دعاء يهود، وأن من معى إلى الخطيئة بنصيدها راضيا بها محبا لها حتى توقع في دلائها، وأصاط به الشر من كل جانب، وليس له منفذ لنور ينقذ منه الخير والاستقامة إلى روحه، فهؤلاء هم الذين كتب الله عليهم أنهم ملازمون لعذاب جهنم لا يجدون عنها حولا.

82- والذين آمنوا وعملوا الصالحات، خالدين.

ومما يؤكد ذلك أن الله كتب لمن خالف منهج الكفر اليهودي، فأمّن بالله وأيد إيمانه بصالح العمل، أن الله كتب له الجنة خالدا فيها لا يخرج منها فضلا من الله ونعمة.

وَأَذِّنْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَهُ الْجَنَّةَ خَالِدًا فِيهَا لَا يُخْرَجُ مِنْهَا فُضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً.

وَأَذِّنْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَهُ الْجَنَّةَ خَالِدًا فِيهَا لَا يُخْرَجُ مِنْهَا فُضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً.

وَأَذِّنْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَهُ الْجَنَّةَ خَالِدًا فِيهَا لَا يُخْرَجُ مِنْهَا فُضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً.

بيان معنى الألفاظ

الميثاق: الوعد المؤكد.

توليتهم: نقصتم ما التزمتم به.

معرضون: تاركون فسادا.

بيان المعنى الإجمالي

من الوقائع التي سجلها القرآن: أن الله أخذ على بني إسرائيل الوعد الميثاق بأن يفرّدوا بالعبادة، وأن يكرّموا والديهم، ومن تجمعهم بهم صلة القرابة، ومن يعاملونهم من المستضعفين كاليتامى والمساكين، وأن يحتفظوا فيما يجري على ألسنتهم فلا يجهرون بالسوء من القول، وأن يقيموا الصلاة بأدائها على الفضل للوجود، وأن يؤدوا ما لوجب الله عليهم من مساعدة بالموالمة للمخرب، وفي لوجه البر، وبعد أن عذوا بالالتزام بكل هذه الأمور، وأن يؤدوا بها أخلاقهم، نكث للعهد فريق من الماضين وكثير ممن جاء بعدهم.

بيان المعنى العام

83- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ سَوَاقِعُ مَعْرُوضٍ.

أبرز القرآن الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل والعهد الحقيقي الذي التزموا بتطبيقه هم وذريتهم من بعدهم، يتضمن هذا العهد حسيما صرح به هذه الآية: العقيدة بأن يفرّدوا الله بالعبادة ولا يشركوا به شيئا. أن يحسنوا معاشرة والديهم، وكذلك ذوي القرابة ممن تجمعهم بهم أصرة نسب أو الصهر، وأن يراعوا حقوق اليتامى ويطلقوا بهم وكذلك بالمساكين أهل الحاجة، وأن يراقبوا ألسنتهم ويبتعدوا عن الإذابة بالسوء من القول، فيصنوا الخطيئ، وأن يجسدوا تذكروهم وصلاتهم بالله فتتقن لأرواحهم بالصلاة وتصفو من الشح باليد من أموالهم بواسطة لزكاة حسيما كانوا مأمورين به في شريعتهم. هذا هو الميثاق الذي أخذ الله عليهم، والذي ضمن لهم مساعدة الدنيا والآخرة. أعرض عنه معظمهم ولم يحافظ عليه إلا قلة منهم، وهم في عهد الرّمالة، الذين آمنوا بميثاق محمد ﷺ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَقُولُونَ دِمَائِكُمْ وَلَا تَقْرِحُونَ أَنْفُسَكُمْ مَنْ دَنَسَكُمْ ثُمَّ أَقْرَضَكُمْ وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْنَا أَنْفُسَكُمْ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا بَرِيئًا مِنْكُمْ مَنْ دَنَسَهُمْ نَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْبُدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَنْتُمْ مَنَافِعُ الْكَتِبِ وَتَكْفُرُونَ بِغَضَبٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جُزَاءٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُؤَمِّدُ الْبَاقِينَ يُرَدُّونَ إِنْ أَشَدَّ الْعَذَابُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا مَا يَحْضُرُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معنى الألفاظ

للمسلك: أصل معنى المسلك المصيب والمراد به القتل.

تظاهرون عليهم: تتعاونون ضدهم، بغير الحق.

الأسرى: جمع أسير وهو الموثوق في الحرب من الأعداء.

نقابوهم: يكتلون المال لإخراجهم من الأسر.

الغزى: قتل.

بيان المعنى الإجمالي

يذكر الله بني إسرائيل بما أخذ الله عليهم من موثيق وعهود ونكسهم في هذه الآية بالعهود الأثمة: أن لا يقتل اليهودي أخاه، أن لا يؤذيه بالاستحواذ على منزله، أو المكر به ليخرجه منه، ويقم عليهم حجة بأنهم يقرون بذلك ويشهدون به فهم لم ينسوا هذا الميثاق. ولكن سلوكهم على خلاف ما يقرون به فقد تنازعوا واقتتلوا فسطا بعضهم على بعض بعد موسى الله وفي المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها. وشنع عليهم موبخا لهم على انحرفهم بتناقضهم. إذ هم بعد القتل والأسر يبدلون الأموال لقاء الأسرى باعتبار أن التوراة تفرض عليهم ذلك. فشاركوا في قتل بعضهم ونمسكوا بالإسهام في بذل الفدية لإطلاق الأسرى، فجازاهم الله عن سوء فعلهم ذلًا في الدنيا وعذابا في الآخرة. وقد خسروا لأنهم باعوا نعيم الآخرة الباقية بحظوظ دنيوية فانية.

بيان المعنى العام

84-85، وإذ أخذنا ميثاقكم...تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان.

يذكر الله بني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهود ومواثيق لم يحترموها، ومضوا في نقضها مع أنها تحفظ لهم كياناتهم وتحميمهم من الضعف والفتلاشي وتجلب رضا الله والفوز في الدارين. أخذ عليهم عهداً أن لا يقتل اليهودي أخاه، وأن يحمي حياته ولا يعين عليه عدواً، معتبراً أن من يستهين بحياة أخيه فكأنما استهين بحياته. ولذا قال تعالى: لا تسفكون دماءكم. وقد تكرر في التوراة هذا العهد. كما أخذ عليهم المواثيق أن يحموا إخوانهم ولا يخرجوهم من ديارهم بالمكر أو بالظلمة مع الأعداء. فلهذا حضر من رعى موسى الخ ماضين مع الزمن يقر بهما بنو إسرائيل خلفاً عن سلف حتى في عهد الرسالة المحمدية ويتجهون بهما. ومع ذلك فقد مضوا في عهود ميثقة، كما نكروا لقولنا وكما تنكره أسفار التوراة التاريخية، على محاربة بعضهم بعضاً، واستمر ذلك في حرب قبائل المدينة المنورة قبل الهجرة فتحالفت قبيلتنا قريظة والنضير اليهوديتين مع الأوس والنخزات قبيلة بني قينقاع اليهودية مع الخزرج. وكان كل حليف يقتل مع حليفه من كان يهودياً أو غير يهودي. ويستولي الفريق المنتصر على مكاسب المغلوب، فعملوا ما أخذ عليهم من العهود التي كانت حاضرة في أذهانهم يشهدون بأنهم ملزمون بها. وكان ذلك في حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات. فهم قد عملوا ما أخذ عليهم من عهود ومواثيق، ومع ذلك فإنهم لما انتهت الحرب جمعوا الأموال لفداء الأسرى، تمسكوا بما تأمروهم به التوراة، فوبخهم القرآن على تنقضهم والعمل ببعض ما جاء في التوراة والرض لبعض الآخر، وأعلن توبيخهم على صلتهم الذي تل على غباء في التصرف وقلة فقه، ذلك أنهم تأمروا على قتل بعضهم بعضاً واستباحة ثمارهم وديارهم، ثم هم يدفعون الأموال لاطلاق أسراهم عملاً بالتوراة، فعلاً عملوا بها وكفوا أيدهم عن دماء إخوانهم وديارهم.

وعف القرآن على موقف يهود من المواثيق التي أخذت عليهم بإقرار جزاء سوء أعمالهم في الدنيا والآخرة. إذ سلبت عليهم المنة والهنون في الدنيا والنكال في الآخرة بأشد العذاب الذي لا يوصف ولا يبلغ الخيال تحديد مداه. ويهتدهم بأن مضيقهم على العمل ببعض ما نزل عليهم ومخالفة لبعض الآخر، وتحكيم هواهم فيما أنزل عليهم، يهتدهم بأن الله مطلع على حقائق عبثهم لا تخفى عليه خافية.

86- أولئك الذين اشتروا سولاً هم يفسدون.

ودخلون في قسم المعضوب عليهم الذين باعوا أخوتهم وما أعده الله فيهما من نعيم مقيم وكرامة ورضوان، بثمن بض من الحظوظ العاجلة في الدنيا ففسدوا الدنيا

والآخرة، فلا أمل لهم في تخفيف العذاب عليهم يوم القيامة ولا أمل لهم في نصر الله.

الحكمة:

تسجيل القرآن على بني إسرائيل بقضاهم للعهد وتعاونهم على التمسك به، وجزاؤهم على ذلك بضرورة الدارين: فيه تنبيه للمسلمين أن ينظروا في من الله في الكون وأن يحذروا أن يكون سلوكهم كمسلوك يهود فبدل بهم ما حل باليهود من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة، وفيه تحريض على الوحدة وترك التمسك بالزناح.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَلَّمْنَا مِنْ بَيْنِهِمُ الرُّسُلَ وَءَاتَيْنَا عِمْرَانَ الذِّكْرَ
الَّذِينَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ رَبُّهُمُ السَّامِعُ الْغَنِيُّ
أَشْكُرْتُمْ لِمَرْيَمَ إِذْ هَدَيْنَا سُلَيْمَانَ وَلَقَدْ جَاءَتْكُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّكُمْ
فَتُكْفَرُونَ ﴿١٣٠﴾

بيان معنى الآيات:

قلنا: أرسلنا رسلاً بعد موته.

عيسى: رسول الله لبني إسرائيل ولد سنة 620. قبل الهجرة.

النبينا: المعجزات النبوة الواضحة.

أينما: كونه.

روح القدس الروح المطهر يحتمل أن يكون الزوج الذي نفخ في عيسى وهو في بطن أمه، ويصح أن يكون معناه الملك جبريل عليه السلام.

استكبرتم: ظننتم أنفسكم أرفع من قول ما جاء به المرسلون.

ملا تهاووا أنفسكم: ما ترفضونه لأنه خلاف ما يميل إليه هواكم من التحلل من ضوابط الشريعة وحج الملذات الهابطة.

بيان المعنى الإجمالي:

استحضر القرآن من جديد قصة موسى عليه السلام لبني إسرائيل مؤيذا بالتوراة، ليواصل فضله عليهم بإرسال الرسل من بعده وأخبرهم عيسى قبل البعثة المحمدية، ونوه بعيسى بما أود به من المعجزات الواضحة التي أظهرها لهم، تبعاً لما قواه به من صفاته وجاهها أو بجبريل. ثم يوضح لبني إسرائيل أن العناد المستقر في تركيهم للنفس، فكلماء جاءهم رسول من عند الله قابلوا هدائشه بالرفض بسبب التكذيب أو الاعتداء بقتل الرسول المبعوث لإصلاحهم.

بيان المعنى العام:

87. ولقد آتينا موسى... وهريفاً نقتلون.

في هذه الآية نبيخ لبني إسرائيل وإبراهيم لآخراهم ورفضهم للحق، فهم يذكرون أنه لما جاءهم موسى بكتاب من عند الله يأخذ بعقولهم ولولهم إلى مستوى رفيع من الكمالات، قابلوه في حياته **قبي** بالعصيان والتحليل للتوصل من التكليف ونظام شريعة الله، وبمطالب مادية مبطنة، وتفرزهم الآية على أن هذا كان دينهم مع أنبياء الله الذين تولوا في بني إسرائيل يجننون لهم أمر دينهم، ويحكمون صلاتهم بالزمان الذي يعيشون فيه، وذلك من أكبر العلم إذ لم يهملهم الله لأنفسهم يتضاعف تخطيهم مع الزمن. ولكن عوض أن يشكروا نعمة ربهم عليهم واصلوا تعنتهم وأظهروا الترفع عن الانصياع لهديتهم.

وكان آخر رسول بعثه الله إليهم عيسى ابن مريم عليه السلام. وكانت معجزاته ظاهرة بينة متنوعة تتحدى المكابرين والمعتنين تحدياً لا يستطيعون مجاراته ولا إنكار تلك المعجزات لما تصفت به من الوضوح والظهور. إنها معجزات أيدته الله بها، وهيا لها بما تفتح في روحه من طهر وإشراق بسورت له إبراهيم مزبذاته تلك، كما أنه تأيد بالملك جبريل. وهو روح موجود غير مادي لا تتركه الحواس التي من طبعها أن لا تتبين إلا ما كان مجسماً، وروح عيسى وجبريل **قبي** كلاهما لا صلة له بالمادة، كلاهما قد بلغ من الصفاء والنقاء اتحاد الأعلى فتزده عن النقص الملازم للمادة. ولقد كان موقف بني إسرائيل من عيسى ومن تقدمه من الرسل الذين ظهرت المعجزات على أيديهم مصدقة لهم، كان موقفهم منهم الترفض لاعتقادهم أنهم أعظم من أن يتبعوا المرسلين، ووصل بهم هذا الاستعلاء، إلى تكذيبهم أو إلى الاعتداء على حياتهم بالقتل للتخلص منهم.

وَقَالُوا آلُونَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝

بيان معنى الانفاضة:

غلف جمع غلف، وهو ما وضع عليه حجاب (غلاف) يمنع من وصول ما في الخارج إليه.

لعنهم الله طردهم من رحمته وحرهم فضل طاقه.

بيان المعنى الإجمالي:

ولجأ اليهود النبي ﷺ لما دعاهم لما يحويهم أن على قلوبهم غلافاً، فلا يتفهم إليها شيء من كلامه ولا من دعوته. فرد الله عليهم: كلنوا سل أن سيبب إعراضهم هو

عنادهم، وجازاهم على فسادهم: أن لعنهم فطردهم من رحمته. ولذا فبين الإيمان لا يكاد يصدر منهم، ولا يؤمن منهم إلا نفر قليل.

بيان المعنى العام:

88- وقالوا قلوبنا غلفت، فقليل ما يؤمنون.

سجلت هذه الآية ما كان يواجه به يهود الدعوة المحمدية، تلكم الدعوة التي قامت على تحريك العقول وفتح القلوب للتأمل في مضامينها، المستجيبة للفطرة ولما يقتضيه العقل وينتسج له الضمير، ولجهوا رسول الله ﷺ وسلم بأن قلوبهم مغلفة بغلاف، فلا تنفذ معه أي كلمة من كلمته ولا يحرك فيهم ساكناً، فسواء أتوجه إليهم بالخطاب أم لم يتوجه، وسواء قلنا عليهم ما نزل عليه أم لم نلهم فقلوبهم عليها غلاف سميك. ورد الله عليهم بأنهم كتبوا في قلوبهم: إن على قلوبهم غلافاً به لم ينفذ نور الإسلام إلى قلوبهم، رد عليهم بأن الله لعنهم جزاء تمردهم على رسل الله بدءاً بـ موسى ووصولاً إلى محمد ﷺ، وطردهم من رحمته وحرهم من لطفه فطبع على تلك القلوب الزنفة، وهو الحجاب الذي به لم تكن قلوبهم للإسلام، ولذا فإنه لا يؤمن منهم إلا عدد قليل.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ يَقْتَتِلُونَهُمْ أَلَيْسَ أَنفُسُهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ نَحْمَأ أَن يُزِيلَ اللَّهُ مِن قُلُوبِهِم عَن مِّن بَشَاءٍ مِّنْ عِبَادِهِ قَبَاءٌ وَبَغْضٍ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُُّهِمٌ ﴿٨٩﴾

بيان معنى الآيات:

من عند الله: مصدر القرآن هو الله.
مصداقاً لما معهم: محقق لما ورد في التوراة من الحقائق الثابتة في العقيدة والأخلاق والمعاني التي لا سبيل إلى إدراكها إلا بالوحي.
يستلحقون: يطلبون الفتح أي النصر.
المهم: العظيم.

قيلوا: رجعوا بغضب مضاعف.

بيان المعنى الإجمالي.

كان اليهود كلما قاتلوا المشركين يدعون الله أن ينصرهم بملائتي الموعود المؤيد بوحيه. ولكنهم عندما جاءهم كتاب من الله على لسان رسوله الصالح تنكروا لما صدر عنهم قبل ذلك وكفروا به، فاستحقوا العقوبة والطرود من رحمة الله، وما كان رفضهم للإيمان إلا نتجا عن حسدهم لمن اختاره الله للرسالة من غير بني إسرائيل.

بيان المعنى العام:

89-90، ولما جاءهم كتابهم عذاب مهين.

هذا نص جامع لما ورد في الآيات السابقة موضح لمضامينها. نلك أن اليهود كلما دخلوا في حرب مع المشركين في المدينة المنورة هددوا أعداءهم بأن الله سيبيح لبيبا سينصر لهم ويتغلبون بتأييده على الكافرين. فهم حسب ما تلقوه من وعود الأنبياء وما ورد في التوراة يعلمون أن نبيا سيبعث ينتصر للمظلومين ويظهر الحق، وأنه مؤيد بكتاب من الله. ما هو موقف اليهود بعد ذلك مع رسول الله ﷺ؟

يسجل القرآن لهم عرفوا من الكتاب (التوراة) أنه يصدق ما يؤمنون به مما جاءت به التوراة من التوحيد والعقيدة الحق والغيب الذي لا سبيل لمعرفة إلا بالوحي، وكذلك القيم الأخلاقية السامية التي يرتفع بها مستوى الإنسان، وأخبار الماضين مما لا قبل للنبي ﷺ بمعرفة إلا من طريق الوحي. فلما قامت هذه الأدلة مجتمعة على صدقه كفروا به حسدا أن تخرج النبوة من بني إسرائيل. فاستحقوا بهذا الكفر أن تتسلط عليهم العقوبة والطرود من رحمة الله وأن يحرمهم الطاعة وفضله، وأن يذيقهم عذابا يهينهم ويكره كبريائهم. وكانت حصيلتهم أنهم رجعوا بغضب مضاعف. والغضب من الله معناه أن الله لا يمنحهم رحمته ولا تأييده. لقد اعترضوا على الإرادة الإلهية وعلى عدل الله وحكمته فلم يقلوا أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل، فجمعوا بين رفض الحق الذي أقامه به رسول الله. وبين الاعتراض على الله.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ قَالُوا لَوْ كُنَّا نُؤْمِنُ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَنَكْفُرُ بِهِ مَا لَنَا بِهِ شَأْنٌ ۚ وَلَوْ أَن كُنَّا نَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا نَكْفُرُ بِهِ لَأْتَيْنَاهُمُ الْآيَاتِ كَمَا آتَيْنَاهُمُ الْآيَاتِ لَأُكْفِرُوا وَلَئِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ إِلَّا فِي كِبَرٍ ۚ وَإِن يَدْعُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ مَّا يُوعَدُونَ فَلَا يَنْقُرُونَ بِهَا أَبَدًا ۚ اللَّهُ يَسْتَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا هُمْ فِيهَا كَاثِرُونَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ نُوحِي بِالْبَيِّنَاتِ فَذَرْنَاهُمْ لِمَا يَحْكُمُونَ ۚ وَإِن يَدْعُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ مَّا يُوعَدُونَ فَلَا يَنْقُرُونَ بِهَا أَبَدًا ۚ اللَّهُ يَسْتَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا هُمْ فِيهَا كَاثِرُونَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ نُوحِي بِالْبَيِّنَاتِ فَذَرْنَاهُمْ لِمَا يَحْكُمُونَ ۚ وَإِن يَدْعُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ مَّا يُوعَدُونَ فَلَا يَنْقُرُونَ بِهَا أَبَدًا ۚ اللَّهُ يَسْتَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا هُمْ فِيهَا كَاثِرُونَ ۚ

فَاتَّبِعْكُمْ بِغُورٍ وَأَتَّبِعُوا أَمْرًا وَبِغَاةٍ وَعَصِيَّةٍ وَأَشْرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمِجْلَ
بِكُفْرِهِمْ فَلَنْ يُفْعَلَ بِأَمْرِكُمْ فِيهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مُزَيَّبُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ إِنْ
كَانَتْ لَكُمْ الْدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥١﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْا بِذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

ما وراء: ما جاء بعده

لشربوا: اختلط بقلوبهم ومشاعرهم كما يمتزج الماء بما يثقل فيه.

خالصاً من دون الناس لا يظفر بتعليمها إلا لليهود.

بيان المعضن الإجمالى

تسجل هذه الآيات الدعاوى الباطلة التي كان اليهود يروجونها للتشكيك في الإسلام. وعلم الله نبيه كيف يتحصى شبهاتهم. فكانوا إذا دعوا إلى الإيمان قالوا: لا نؤمن إلا بالتوراة المنزلة علينا ونرفض كل ما جاء بعد ذلك مع أنه لا يتناقض بين هذا وذاك. وهم كانوا يقولون لأتباعهم فكلوا أنبياء التوراة وآخر من عملوا على قتله وهو منهم عيسى عليه السلام. وهم من ناحية أخرى لا تنكرون لما فرره موسى من الوحشية فعبثوا بالمجمل. ثم إن تحذيرهم من سمر التوحيد إلى عبادة عجل من ذهب قد افترق إلى قلوبهم واستولى على عقولهم ومشاغلهم فأصبحوا لا يهتمون إلا بالمال. فإيمانهم لذلك هو الفساد إيمان. كما يشعرون في إصرارهم أنهم شعب الله المختار الذين كتب لهم وحدهم نعيم الآخرة، ولو كانوا صانعين موقنين به لكانوا يحيون أن يموتوا ليفوزوا بالنعيم، ولكن اليهود هم لشدة قناس خوفا من الموت لفساد أعمالهم.

مِمَّا أَنْشَأَ الْفُصُولُ :

91 وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ

تكتشف هذه الآيات عن تحريف اليهود للتوراة التي كُتبتوا باتباعها ويحضر القرآن ثلاثتهم التي يخفون بها مكرهم. ويشمل ذلك الأمور التالية: أنهم عندما دعوا للإيمان بما هو حق منزل من عند الله رفضوا متعالمين بأنهم لا يؤمنون إلا بما أنزله الله عليهم وهم يكفرون بكل ما جاء بعده فتوقف التشريع الإلهي على التوراة بزعمهم، رغم أن ما أنزل على موسى وما جاء به محمد يتفقان في الأصول العامة وفي مبادئ التوحيد والأخلاق بصدق التالي ما جاء في الأول ويصحح بعض الأخطاء التي تسربت من تناول البشر للتوراة، ومن اختلاف الزمان وما يقتضيه من

تحويل في التشريع بما يناسب تطور البشرية. ثم يكشف القرآن عن كذبهم في دعواهم هذه، فيجلبهم أنهم لو كانوا فعلاً يؤمنون بالتوراة المنزلة على أنبياء بني إسرائيل فلماذا نجلوا فقتلوا بعض الأنبياء المكملين للتوراة ؟ هذا ما ينادي بكذبهم: أنهم يؤمنون فقط بالأنبياء التوراة.

92- ولقد جاءهم موسى -خالمون-

يعري القرآن كذبهم ودعواهم اجترال التوراة وموسى عليه السلام عليه السلام بالحجج الظاهرة والمعجلات المبررة والعقيدة الواضحة بالإيمان بالله الواحد الأحد. كان موقفهم من كل جهود نبينهم الصالح المصدق. أن عبدوا العجل بمجرد ما عاب عنهم فارتكبوا أكبر الظلم وهو الشك بآله. إن الشك لظلم عظيم.

93- وإذا أخذنا ميتاً تكبر... إن مكنته مؤمنين.

إنهم لما أخذ الله عليهم الميثاق الذي فصلته الأيكات السابقة ورفع فوقهم الطور لبذعوا وشاهدوا إلى الأمر جـ لا هزل، بما صحت تلك من أوامر جازمة أن يلتزموا بما أنزل عليهم وبصفة لا ترقى فيها عزائمهم، حرك أسماعهم وأيقظهم إلى الاستماع لما يورد عليهم من ربه ليمتثلوا، كل جوبتهم أن أخذوا بظاهر الذي لا يمكنهم إنكاره ففلقوا سمعاً، وفي نفس الوقت السدي صرحوا فيه بالسمع الموجب للأمثال أضرموا العصيان والمخافة.

استولت المادة عليهم، لقد نخل العجل ذهبي في تفكيرهم ومشاعرهم واستولى على قلوبهم، فعمر كل مجرى من مجاري تفكيرهم، نقدا الذهب الذي صيغ منه العجل الذي عبده يأخذ بقلوبهم فلا يلتفتون إلى المعاني القلبية ولا إلى المعاني الخلقية، وهمم الوحيد في الدنيا هو جمع المال. يقول الشاعر قحبيب جاء وحده رحمه الله

فهل بين الفود وقوم موسى *** معاندة توكلها للمهود

فلولاهم لما كانت نفود *** ولولاها لما كانت يهود

إذا جاء الحاص وجـ شرا *** لحبلاهم ولم يفسد الحديد

رموا بالأرض تحت الأم فلما *** فينزل عند رفته الوليد

ومع ذلك هم يدعون أنهم مؤمنون. قل لهم يا محمد: إن إيمانكم هو ألبح إيمان وأفسده لو كنتم مؤمنين، مما يرمي إلى أنهم لا يمكنون من الإيمان شيئاً.

94-95. قل إن مكنتكم الدار عليهم بالظالمين.

إنهم يبدرون الشك في مجتمع بلادهم المستمر مع الزمن أنهم شعب الله المختار المفضل. وأن الله لا ينجي يوم القيامة إلا بنى إسرائيل، يتجسسون بهذا ويكررونه في إسرائيل، فيلجئهم القرآن بأن يأمر النبي ﷺ أن يتحداهم إن كانوا صائقين في دعواهم لأن الله خصهم بالجنة من دون البشر. وأن ما ينتظروهم من نعيم هو أعظم مما أوتوه في الدنيا، يتحداهم بأن يتمنوا الموت ليظفروا بذلك النعيم. ومعلوم من طبائع يهود، في القديم والحديث، أنهم أشد الناس خوفا من الموت. فلو كان ما يقولونه بأنسنتهم معتقدا لهم ما وجبت فيهم هذا الإصرار على حب الحياة والحذر من الموت وشدة الخوف منه. وتختتم الآيات بإعادة تقرير أن الله لا يخفى عليه أمر الظالمين، ولما كان أمرهم مفضوحا معلوما علنه سبحانه فهو يهددهم بالعقوبة التي يقتضيها العدل الإلهي.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِم مِّنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّجٍ عَنِ الْعَذَابِ إِن يُمُتَّرَ ۚ وَاللَّهُ نَصِيرٌ لِّمَن يَخِفُّ ۚ

بيان معنى الألفاظ:

أحرص: أشد تعلقا.

يود: يحب.

يمتد: يبقى حيا.

مزعجه: مضطرب.

يمتد: عليم بعميق.

بيان المعنى الاحتمالي

إن قوة حرص اليهود على الحياة تتجاوز ما فطر عليه البشر من حب الحياة. فهم أشد حرصا حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر نجد اليهودي يحب أن يعيش ويمتد في الوجود ولو بلغ أوفى العمر وأحدث به الشغل وهل ينتفع بحياته ؟ فحياته لا تبعده من العذاب الجزاء المحتوم إن الله عليم بأفعالهم.

بيان المعنى العام

96- ولتجدنهم أحرص الناس سبيما يعملون.

هذه الآية تجسم حب اليهود للحياة. إليهم أشد الناس تعلقا بالحياة، فحبهم للحياة يتجاوز حتى حب المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا أمل لهم

في كرامة بعد الحياة للأدنيا. إنهم يحبون أن تستمر بهم الحياة، إنهم يريدون أن يبقوا أحياء ألف عام وإن كان هذا الأمد غير متوقع حصوله، وإن كانوا يعلمون أن الهرم يلحق كل إنسان فينقلب بعد القوة إلى حياة شقاء وعذاب، حياة أرذل العمر، ويلحقهم التهديد بأن الله عليم القلم لكل ما يصدر عنهم وبما يفعلونه

قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا حَتِيرَهُ فَإِنَّهُ قَوْلُهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُضِيًّا بِمَا يَنْتَهِ
يَدْعُو وَيَهْدِي وَيُفَرِّقُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ
وَحَتِيرِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾

بيان معنى الآيات:

عَدُوٌّ: مبغض.

حَتِيرُهُ: الملك الموكل بإبلاغ رحي الله.

قَالَهُ: فوالله الذي تقبل بها الوحي وتعيه.

مَا بَيْنَ يَدَيْهِ: ما سبقه.

يُفَرِّقُ: إخبار بخير حاصل لمن توجه له الخير.

مِكَائِيلُ: ملك من الملائكة المقربين.

عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ: يفعل بهم ما يفعل العدو بعنوه.

بيان المعنى الإجمالي:

قُلْ يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَبْغَضَ جِبْرِائِيلَ فَإِنَّهُ مَا أَبْغَضَهُ إِلَّا لِأَنَّهُ لِيُنْصَحَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِإِبْلَاغِهِ إِلَيْكَ حَتَّىٰ وَعَيْنُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ تَقْرِيلُ شَاهِدٍ بِصِدْقِ رِسَالَاتِ اللَّهِ جَمِيعَهَا، يَرْشِدُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُنْتَجِجِ فِي الْحَيَاتَيْنِ، وَيُطَمِّنُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بِأَنَّهُ سَيُجْزَىٰ خَيْرَ جَزَاءٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَمَنْ أَبْغَضَ جِبْرِائِيلَ فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ جِبْرِائِيلَ، وَأَبْغَضَ مِكَائِيلَ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَأَبْغَضَ مَلَائِكَتَهُ لِتَسْلُوِيهِمْ فِي الصِّفَاتِ وَالْعِبَادَةِ لِلَّهِ. وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنَّ يَجْزِيَهُ اللَّهُ مِنْ جَفْسٍ مَا عُلِقَ بِنَفْسِهِ وَلَا مَطْمَعٍ لَهُ فِي الْمَغْنَىٰ وَلَا فِي الرَّحْمَةِ.

بيان المعنى العام:

97-98. قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْعَالَمِينَ

بروح اليهود من الأكاذيب ما يليسونه ليلبس الحق مدعين أنه من علم الكتاب الذي اختصوا بعلمه فكان مما تشروه من زيف: إنهم لا يتبعون رسول الله، لأن الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وجبريل عدوهم لأنه الذي يأتي بالعذاب، فالوحي الله لنبيه

كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَرُّوا آمْنُوهُمْ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠١﴾

بيان معنى الآيات

المفسلون: جمع فاسق، وهو المتعبد الخارج عن الحدود التي حثها الله.

نيث: طرح العهد ولم يوف به.

الذين آمنوا الكذب: اليهود.

كتاب الله: القرآن.

وراء ظهرهم: متجاوزين عنه لا يلتفتون إليه.

تبعوا: عملوا بما تنكر للباطلين.

الشياطين: كفرة لجن أو خبثاء البشر المضللون.

مطمان: هو سليمان بن داود عليه السلام ولي ملك يهود سنة 14 ق م.

السحر: عمل نوع من الأشرار له تأثير سيء على القاييل لتمويههم وحيلهم

الماكرة، ويطلق على ما علم ظاهره وخفى سببه.

الفتنة: معانها قريب من الابتلاء، تطلق على الوضع الذي يكون فيه المقتن مدعوا

إلى التمييز بين موقفه من داعية الخير والشر مع قوة داعية الشر.

خلقي: نصيب وحظ.

بيان للمعنى الإجمالي.

أنزل الله الآيات البينات التي ترضى من ذاتها الإيمان بها توضوحها وصدقها وما

يكفر بها إلا الأشرار الخبثاء المتمردون على الحق، والآية تخص اليهود الذين

طبعوا على ذلك العهود، وهذا هو شأنهم إلى اليوم، فكما وجدوا أنفسهم ملزمين

بعهد متصل منه فريق منهم إسقاطا للعهد عن جسيمهم. وما ذلك إلا لضعف صلتهم

الإيمان، ولما جاءهم الحق بواسطة الرسول المصدق للتوراة من عند الله، أعرض

فريق من الذين أعطاهم الله التوراة، عن القرآن، مع أن ما جاء به القرآن يشهد

بصحته ما أنزل على موسى فكان صنيعهم هذا كصنيع الجاهلين، وعملوا بما تقول

الشياطين: إنه كان على عهد سليمان زاعمين أنه كفر. وكذبوا لأن ما تنكروه

الشياطين كفر. وسليمان دفع نبي معصوم، فالشياطين يعلمون الناس السحر

ويدعون أن الساحر له من القدرة ما يؤثر به، فهم قد كفروا بشيبتهم التأثير لغير

الله، كما يعلمهم الشياطين ما يدعون أنه أنزل على المملكين بلبل هاروت وماروت.

والشياطين لا يهيمهم إلا إغواء البشر وإضلالهم، وفرق بين ما يصنعه هاروت

وماروت وبين ما يهدف إليه الشياطين، ذلك أن الشياطين يعلمون الناس السحر

فقد إفساد عقيدتهم وإفساد روابطهم الاجتماعية، وإفساد الخلل على نواح كثيرة من حياتهم؛ بينما هاروت وماروت كانوا يعلمان الناس حقيقة السحر بالكشف عن خفاياه وعن توبيهات السحرة، ولذا كانوا عند الكشف عن أسرار السحر يحذرون الناس ويوقظونهم إلى أن الله معهما في ذلك العهد الذي امتدح في فيه فساد السحرة ليعلموا الناس حقيقة السحر، ويزيحا ما يتحقى وراءه السحرة من المكر، فيكون من تعلم منهما السحر ليرد كيد السحرة للحياة، ومن تعلم منهما قصد العمل به وإغواء الناس يقول به تعلمه تلك إلى الكفر، وهو معنى الفتنة. كما يقال: فتنة المال، فمن أساء المال حقوق الخالق غوى وهلك، ومن صرف المال في مرضاة الله سلم. ومع التحذير والتنبيه من الملوك على ما في السحر من فتنة، فإن كثيرا من المتقربين لتلك المعارف يصرفونها في التفريق بين الزوجين، ويحرق القرآن أن نفاذ السحر ليس من طبع السحر وحده، ولكن الله هو الذي يقدر حصول آثاره. ثم إن الذين تعلموا السحر للعمل به لا للتحصن من شرور السحرة يَكُون تعلمهم هذا يضرهم ولا ينفعهم، وقد جاء في التوراة: أنهى عن السحر، وعلم يهود بها أن كل من تعلم السحر ليس له نصيب يوم القيامة من فضل الله، فحقا أن من باع نفسه بالعمل بالسحر ارتكب أعظم حماقة وظلر يظهر الجاهل. إنه لو آمن اليهود بما أنزل على محمد ورسخت في نفوسهم خشية الله وتلبسوا بنفوسه لتحقق لهم الثواب للصلوات من الله، الثواب من الكريم الذي ليس لمقدر ثوبه جد.

بيان المعنى العام:

99-100. ولقد أنزلنا إليك آيات... لا يؤمنون.

تفتح هذه الآيات بتقرير حقيقة تشهد بها رب العالمين أنه هو الذي أنزل على قلب رسول الله آيات القرآن بالغة أعلى درجة من البيان خشيت الإيمان في القلوب، فما ينكرها إلا الفسقة الخيئة المتمدنون على شريعة الله، هذا يشير أولا إلى يهود المدينة الذين أنكروا ما جاء به محمد ﷺ. وكشف القرآن عن طبيعتهم اللبينة التي منها أنه كلما عاهدوا عهدا أعطوا موافقهم، أسرعت طائفة منهم لتفرض ما التزموا به، فيتحللون جميعا من عهودهم. وهذه طبيعة لازمة لليهود إلى اليوم. وعرفنا القرآن أن أكثرهم معاندون لا يدخل الإيمان قلوبهم.

101. ولما جاءهم رسول... لا يعلمون.

ثم أبرز ما يؤكد ذلك بأنه لما جاءهم رسول مبعوث من عند الله تشهد معجزاته بصنقه، ويشهد مضمون ما جاء به بصنقه أيضا. لأنه لا يختلف ما قرره من حقائق التوحيد والقيم، عما جاء في التوراة، ولجهوا القرآن بأن نبذ معرضا فريق

من اليهود الذين يدعون أنهم أهل كتاب، نبيذوا القرآن وتجاوزوه لا يلتفتون إليه ، شأنهم شأن الجاهل الذين لا يعلمون ما في القرآن من صدق وحق، فهم أسوأ حالا من الجاهلين، لأن الجاهلين ما عرفوا الحقيقة، أما اليهود فهم رفضوا ما يعلمون أنه الحق، وببريرهم أنهم لا يؤمنون إلا بالتوراة لا غير هم كلابون فيه.

102- 103، واتبعوا ما تنزل الشياطين... يعلمون.

أبرز القرآن كنهم يكن التوراة مخصوص بهم أن على اليهودي أن يرفض السحر ولا يأخذ به، واليهود مع ذلك قد اتبعوا وعملوا بما تنزل الشياطين على عهد سليمان، إذ يدعون أن سليمان ما بلغ ما بلغه من سلطان وسعة الملك إلا لأنه كان ساحرا أخضع بسحره البشر فبدلوا له. ورد الله عليهم أن سليمان من عباد الله المقربين أبعد الناس عن الكفر، إذ لو اعتد السحر لتثبيت ملكه وإكسائه ثوب للحق الوارد من الله لكان كفرا، وحاشا من هذا. والشياطين هم الذين كفروا بتعليم الناس السحر ونشره قصد لهم العلاقات الاجتماعية وبث الفتنة وتصليب الأفراد للمهينين لتقبل تأثيرهم والاستحواذ عليهم، ويعلمون ما لنزل على الملوك هاروت وماروت، والذي أنزل على هذين الملكين أنه لما شاع السحر في العالم واستولى به السحرة على عقول الناس وأرواحهم، وخيلوا لهم أن لهم قدرات يستطيعون بها أن يتحكموا في الكون ويبدلوا أموره حسب إرادتهم، وأصاب الناس منهم بلاء إذ كان لتمويهاتهم من القوة ومن ظاهرها التأثير ما خلخل الإيمان ووقن المقاومة الذاتية، فبعث الله هذين الملكين ليعلم الناس حقائق السحر ويكشفوا ما خفي منه . هذا الجانب الخفي هو الذي بواسطته حقق السحرة من الفساد ما حققوه، فكان الشياطين قد استفادوا من هذا التعليم الذي قاربه، أن الملوك عندما كانوا يعلمون الناس لتحصينهم من أضرار السحر، ينهون المتعلمين أن يتعلمهم هذا ليدرك الناس حقيقة السحر، وتصرفهم فيه هو من الفتنة . أي الخير الموثوق بكنهه، هو كالمال الذي هو في أصله نعمة ولكن الناس قد يتصرفون فيه تصرفا يثبت إيمانهم ويحقق مصالحهم، وقد يتصرفون فيه تصرفا يفسد الناس ويسلب على الناس والرفوة وما إلى ذلك من أنواع الشر . فالمال فتنة، وكذلك السحر، فالمال يذهب من يتعلم منها السحر أنه فتنة، فمن استعمله ليبتل عمل السحرة وينفذ إيمانه من اعتقاد أن للسحر قدرة مؤثرة في الدنيا بما يصورون له أن الله هو الخالق لكل شيء، كان تعلم السحر بالدمية له نعمة وخيرا، ومن تعلمه ليقصد به المعينة والكون ويلحق الضرر بغيره، فهو شر وفساد، فمن يستعمل السحر الذي يتعلمه منها لتخريب البيوت والتفريق بين الزوجين الذين جمع الله بينهما وقوى أصرة التقارب بينهما بعاطفة الود

والمحبة، ويمشاعر الرحمة والرفعية. وقد صرح القرآن بقتلهم في إفساد العلاقات الأسرية بالسحر لأنه معظم ما يشغل به السحرة. بعد أن سجل الله على يهود النحر لهم وكفرهم وعلمهم على نشر الفساد، صرح القرآن بالحقائق التالية: أن السحر لا تأثير ذاتي له، وأن الفاعل في الكون والمتصرف فيه هو الله وحده، ولا يستطيع السحرة أن يحضروا بسحرهم أحداً إلا إذا أريد الله أن يتفقد فيه ضرره، فالقدرة لله وحده والخلق له. أن ما يتعلمه الناس من السحر لا يحقق للمتعلم ولا للبشرية خيراً بل هو باب للضرر والشر والفساد. أن من باع نفسه وخوفه من الله للحصول على السحر والعمل به ليس له أي نصيب يوم القيامة مما أعد الله لعباده الصالحين. أن هذا الذي قاموا به من تعليم السحر وميلته هو لسوء ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان في نشاطه اللدنيوي. أن هؤلاء المعلمين والمبشرين للسحر لم يتركوا هذا الطريق السوء، وصفاً ليمانهم وحلت الخشية قلوبهم، تعرضوا للشواب العظيم الذي يتجاوز التصور. لأنه نواب من لا يجد ملكة حدود. ولكنهم جهلوا وعموا عن الحقيقة.

هل للسحر حقيقة؟

إن أغلب من يدعون معرفتهم بطلاسم السحر ويؤمنون بضعاف الشخصية واليائسين، والمتعلقين بالأوهام، بقدرتهم على تحقيق مطالبهم هم نجاة، يبتزون أموالهم، ويمدون لهم في الآمال الكاذبة. وقليل منهم قد استولى عليهم الشر وفساد العقيدة، وانفصلوا في باطنهم عن المجتمع الذي يعيشون فيه، وكانت لهم قوة عظيمة في الجانب اللامادي من حياتهم، قد يلقون إلى حد من توجاهت الإيذاء كما يتضرر المصمود من الحادث. ولكن على المؤمن أن يوفق أن السحر لا يترتب عليه لذاته ضرر إلا إذا قدر الله ذلك وجعل الساحر الخبيث وسيلة للضرر. هو كالميكروب والفيروس ينتشر في الكون ولا يضر إلا من أراد الله له أن يؤثر فيه. وليس من السحر في شيء ما يقوم به اليهوديون من حركات ترسوها وتكلموا فيها، تغلب العدايات التي ألغها الناس، وقد اتخذوا من تلك مورداً للرزق. يحضر عروصهم للترفيه كثير من الناس، وليست من السحر الذي تتحدث عنه الآية في شيء. ذلك أن هؤلاء اليهوديين لهم مؤسسة تجمعهم في مؤتمر سنوي يعرض المشاركون مهاراتهم وما وصلوا إليه ويتأيد بعضهم ببعض، وغلبتهم الترفيع لا الإضرار بالناس.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

راعنا: فعل أمر من راعاه أي رفق به.

انظرننا: من النظر في أمر غيره مراعاة لمصلحته.

بيان المعنى الإجمالي:

يعلم الله المؤمنين طريقة خطبهم لرسول الله ﷺ . فإذا كانوا في مجلسه وهو يبين لهم أحكام الدين وأسراره وأحوالهم بعق ما يعرض عليهم وما يقتضيه من التأمل فيه، أن يقولوا له: انظر إلينا، ولا يقولوا له: راعنا، لأن اليهود اتخذوا هذه الكلمة وسيلة مبينة لإذائه ﷺ .

بيان المعنى العام:

104- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا أَلِيمٌ.

عمل اليهود في مجتمع المدينة على إهداء رسول الله ﷺ، صحابته متنوع. فمعاً كانوا ينادون به أنهم نختبروا في خطاب النبي ﷺ كلمات مؤذية في باطنها تبعاً لقصدهم الخبيث وإن كانت في ظاهرها مقبولة، وعطائهم أن المؤمنين يخاطبون النبي ﷺ بهاء، ومن هذه الكلمات قولهم: راعنا، التي تفيد في أصل استعمالها لرفق بقا وأحساناً. ولكن وزن هذه الكلمة: راعنا هي أيضاً اسم فاعل من رعن فهو راعن وأرعن وهو الأملج في منطقهم. فكان اليهود يخاطبون النبي ﷺ وهم يقصدون سببه ويتسرون بأن خطابهم كخطاب صحابته، فطلع الله نبيه على ما تقطوي عليه ضمائرهم من خبث وقملع عليهم تعلمهم، فأمر المؤمنين أن يستبدلوا راعنا بالظننا، وقرن دعوتهم إلى أدب الخطاب بأمرهم أن يسمخوا الاستماع حتى تتفش في عقولهم وقلوبهم ما يخاطبهم به. وختم الآية بأن الكافرين والمقصود بهم اليهود، أعد الله لهم عذاباً أليماً جزاء فساد نياتهم ومخفهم.

مَا بَدَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي خَيْرٍ مِنْ
رَبِّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٥﴾ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

يود: يحب الحب المفضي إلى ثنى حصول المحبوب.

ونزل: يبلغ من اللوح المحفوظ شيئاً فشيئاً.

خير: النبوة وما صاحبها من فضل إلهي على المؤمنين.

بيان المعنى الإجمالي:

وعليكم الكافرون من اليهود والنصارى والمشركين، ويحسدونكم على ما آتاكم الله من الهداية، فلذلك تجدهم لا يحبون أن يحصل لكم خير ولا يقيمونه لكم. والخير بيد الله بهيه لمن يشاء، وفضل الله لا يحد ولا يدر فيه حد الجاحدين.

بيان المعنى العام:

105- ما يود الذين يكفروا...الفضل العظيم.

استحكم الحسد في قلوب الكفار من اليهود والنصارى والمشركين في العهد النبوي، وكلما تتابع الوحي ازدادوا غيظاً ونفقة تبعاً للشحنة العنيفة من الميئوس التي ألهمت كل معالي الإنسانية من نفوسهم المريضة. فهم يكرهون أن ينزل الله على المؤمنين بمحمد آياته البينات، وتشريعاته المحكمات، وحقائق الكون القعيدة والغريبة. مرضت نفوسهم فلا يسمون لكم أي خير ولا يحبون أن يصلحكم أي فضل من ربكم الذي علىكم وتتابع عليكم هدايته.

ويستخرج القرآن من تلك المواقف المريضه ويعلن الحقوقه التي غفلوا عنها: إن الفضل بيد الله يمكنه بحكمته من يشاء من عباده، فليس لبعضهم ولا لحبيهم أي تأثير ولا أثر. إن الله هو صاحب الفضل الذي لا تحده حدود ولا يبلغ مدها القصور القاصر الجليل.

• مَا تَسْأَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَهُوَ نَعْدٌ أُولَىٰ
فَقِيلَ لَهُ أَتُنَادِي رَبَّهُ قَوْلًا كَثِيرًا

آلکبیر میں ولایت ولا نصیم بنی

بيان معنى الألفاظ:

ما نسخ. النسخ إزالة شيء وإتيان شيء آخر مكانه.

لنعمها : مضارع نعمناها ، والإنشاء هو التناخير .

الولى: القريب العناصر.

بيان المعنى الإجمالي:

يقرر الله سبحانه له إذا أبطل حكما من الأحكام قضى لنزولها للعمل بها في الحدود الزمنية التي فيها مصلحة للعبد، أو أضر تنزيلها على تصرفه سبحانه بحكمته ومصلحة للناس رحمة بهم، وذلك بناء على ما ثبت في العقيدة من أن الله قادر القدرة المطلقة، التي من أثرها تحويل أوضاع الناس، ومن تعلم قدرته أنه يهديهم

إلى ما هو خير لهم في كل حال. وكما أحسن التقدير في ملكه في السماوات والأرض، فقدوته على ضبط ما يصلح للبشر لوالى، وأعطوا أنه لا يتصركم إلا الله العزيز منكم.

بيان المعنى العام.

106-107- ما تلتصق من التيسر وتلى ولا نصيب

تشكك يهود وفترتهم على التوبة لزراعة الحقل، وبث المخلطات في المجتمعات لخلقة وحنتهم، من الأمور التي تلقوا عليها خلفا عن سلف، فلمست منهم الدعوة الإسلامية منذ بداية نشأتها في العهد النوي وإلى اليوم ما قاست.

أنصف القرآن للتوراة، شأنه في بيان الحصف، وتحدث عنها باعتبارها كتابا حقا أنزل من عند الله على نبي إسرائيل كقوله تعالى: **(إنا أنزلنا التوراة فيها فسر ونسور بحكم بها التبيين)**¹ فقابل يهود المدينة هذا الإنصاف بالتمسك واتخذوا من ذلك

مطعنا في صدق رسول الله ﷺ، فزعموا أن محمدا يشهد بأن التوراة نور، ثم يدعي أنه لوحي إليه ما يرفع أحكامها ويلزم الناس بتركها ولتباعه، وما كان حقا يبقى حقا، لأن نسخ ما هو حق وإدلاله بغيره بنادي بأن الله قد ظهر له في زمن

أمر ثم بدله، فظهر له أمر آخر وعبروا عن هذا (بإبداء) وهو نقص لا يتصف به الله. وانتهوا من هذه المغالطة أن دعوى الرسول سيدنا محمد ﷺ أنه موحى له من عند الله بفضي إلى أنصاف الله بالتعبير ونقص الحقائق التي أثبتتها، فرد الله تشكيكهم

هذا، وكشف عن جهلهم وتعمصيتهم، بما وضحت هذه الآية: أن الله خلق الكون وأجرى خلقه على منق، ومن تلك المنق أن العالم وما بحويه من بشر وغيره، منطور متغير، غير ثابت، وهذا التغير يجري بغرة الخلاق العظيم الذي ينسق بين

الإنسان وظروفه المادية لأجيدة، كما ينسق بينه وبين لوضاعة الاجتماعية، بما يمكنه منه من تشريع يستجيب لتحولاته تلك، ويربى المجتمعات تربية الرقيق الذي يلفظ بها، فلا يحولها دفعة واحدة من وضع استحكم وتطور في عواصمها وفي

نمط حياتها، بل يأخذها برحسته حتى يطوعها إلى المقلب الرقيق الذي يريد أن تصل إليه لتحقق الخلاقة التي مكن منها الإنسان. فاليهود الذين أنزلهم فرعون، ثم نصرهم الله عليه بقيادة سيدنا موسى ﷺ أنزل الله عليهم التشريع الذي يصلح من شأنهم ويرعى تركيبتهم للنفسى وعلاقتهم التي نشأوا عليها وأصبحت لأصقة بمقولهم

ومشاعرهم. ومما يوضح ذلك ما سبق أن ذكر به القرآن من تركيبتهم للنفسى

للمادي. الهابط في سورة البقرة . أنهم قد أكرمهم الله ويصر لهم العيش بدون عناء وأجرى لهم رزقهم ورسول الله موسى معهم. سموا وقلوا: يا موسى إنا نشتاقنا إلى قلوبم واليصل واليقول، فلدخ لنا ربك بخرج لنا ذلك من الأرض. مع أن أرض سيناء أمامهم أرض صحراء قليلة جدباء لا تثبت هذه يقول. لذا كان تشريع للتوراة يعمل على تحويلهم والسمو بهم شيئا فشيئا. فلو ضاع يهود غير أوضاع الإنسانية. ولقوة عناهم شدد الله عليهم ليستقيموا. وقصة فيج البقرة ترويك أن نفسيته للمريضة المادية لا تلتين إلا بالشدّة. كما قال ابن عباس شددوا فشد الله عليهم. فبني الله المؤمنين أن لا يندفعوا بتضليل يهود. فإن الله إذا سخ شريرة بشرية أخرى، فإن ذلك مراعاة منه. وهو الرحيم الرؤوف بعباده، لتحقيق ما يصلح أمر البشر المتغير المتقلب حسب ظروفهم الاجتماعية وتطور أوضاعهم الاقتصادية والمعرفية. فقد تطورت البشرية من مستوى إلى مستوى حتى أصبحت قابلة لهداية تنظر إلى التركيب الإنساني والاجتماعي في قواعد عامة تحقق الخير والسعادة للإنسانية. وفي الأحكام التي تنصف بالثبات وعدم للتغير. كاللهي عن الجهالة في المعاملات أو للتغير، أو ضبط العبادات التي تحقق معنى العبودية والطاعة التي يرضاها الله من عباده، أو تحريم الزنا والمخافة، أو نسبة الأولاد إلى آبائهم وبحر ذلك، فلما بلغت البشرية هذا المستوى ختم الله رسالاته إلى البشرية برسالة الإسلام الصالحة لكل زمان ومكان.

وعلى هذا القياس جرى التشريع الإسلامي. فلم ينزل على رسول الله ﷺ دفعة واحدة، بل تتابع الوحي ثلاثة وعشرين عاما، رمى الجماعة الإسلامية شيئا فشيئا. بعض التشريعات سبق كتشريع الصلاة سجدة، وبعضها تأخر كتشريع الحج. وما تأخر تشريع إلا لأجل الله من هديه ما هو مساو في الثواب والصلاح لما تأخر تنزيله أو يكون لصالح بالجماعة في ذلك الوقت. حتى إذا تهيأوا لقبول التشريع المضمور، نزل جبريل على الرسول ﷺ بالوحي المبين. وكذلك في تثبيت ما يريد الله أن يحول عنه الجماعة بما أقوه وجرى عليه أمرهم. ويصحب قسره عليه دفعة واحدة، وقطع الأسباب الزلجطة بالوقع على ما فيه من سوء، مما جعل إنهم ذلك لا يشعرهم بفساده، كحرب الخمر الذي تتابع انتهى عنه في أحوال خاصة إلى أن انتهى إلى تحريمه تحريما قاطعا. فإله الملك للسموات والأرض، هو الذي يحولها من حال إلى حال ويحركها في مساراتها بقوته الحكيم، وهي في كل مقرر لها في الطرف التي هي فيه هو ما يتسم بقاءه وانتظامها، حتى إذا حولها كان ذلك مساويا في الفضل لوضعها الأول أو هو أفضل لانتظام الكون. وكما يرتبط

بقاء الكون بما يحويه من كواكب وسماوات ومجرات بلطف الله فكذلك أنت أيها الإنسان الضعيف لا تجد ولدا يرعاك ونصيرا ينصر ضعفك ويؤيدك إلا الله.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكَافِرَ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٥﴾ وَذَكِّرْهُمْ أَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَزِيدُونَكُمْ
مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مَنْ يَغْدِرْ مَا تَرَى لَهُمْ الْحَقُّ
فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ وَأَقِيمُوا
السَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ يُفْلِحْ فَعِنْدَ اللَّهِ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾

بيان معنى الألفاظ:

وَدَّ: أحب.

العلو: ترك العفوية.

الصلح: الإعراض عن المنتخب.

بصير: عليم.

بيان المعنى الإجمالي:

يحذر القرآن صحابة رسول الله من كثرة بساوك اليهود في علاقاتهم بموسى الله ، فقد كثروا من الأسئلة وبلغت بهم الوقاحة مثلا أن سألوا موسى أن يبرأوا الله رؤية واضحة، مما يدل على عدم استقرار الإيمان في نفوسهم. فحذر المسلمين من فرض الفروض والمسؤول عنها حتى لا يحل بهم ما حل بيهود. فإن من يبدل ليمانه ليلته في مناهات الكفر، ويتبع محصصا عن الأوامر، فقد ضل وسط الطريق المنجي. إن معظم لليهود يحبون ويتبنون أن تعودوا كفارا، لا محبة فيكم ولا رغبة في الخير لكم، ولكي قلوبهم امتلأت بالحسد ونفوسهم بالكبر، فهم يحسدونكم على ما فتح الله عليكم ويفترون من أن يدخلوا في دين الإسلام استكبرا عن أن يخضعوا للحق. فيرشد الله المؤمنين أن لا يسارعوا بقبولتهم على ما هو مضر في نفوسهم، وليتحلوا بما رباهم عليه الإسلام من علي الأخلاق بالقصو عنهم، بترك عقوبتهم وعدم لومهم على ما استبطنوه من الشر. وانتظروا لهذا المؤمنون نصير الله الذي وعدهم به من إظهار دينكم وخزي أعدائكم، فإنه لا يعجزه شيء ولكنه سبحانه يسير الأمور وفق حكمته التي تعجز العقول عن إدراك مسارها الخفي للبعد. ثم هداهم إلى ما يوفيههم في مواجهة حمد الحاسدين وبغض الكافرين، وذلك بالمداومة

على الصلاة التي تصقل أرواحهم وتقوي إيمانهم، وببذل الزكاة عن طواعية وحب للقيام بها الأمر الذي يدعم رابطة الأخوة، ويؤكد للهمة الجامعة بينهم.

بيان المعنى العام:

108 - لو تروى أن تماتوا سواء السبيل.

كان مجتمع المدينة قد احتلط فيه المسلمون بالمناقضين وباليهود، وقد كان اليهود يمدون المناقضين بشكالات ولقوبها إليهم لينتوها في صفوف المسلمين ويحركوا عقولهم حركة مضطربة لزعزعة الإيمان. وكثرتا يجزنونهم على التوجه بمنتابع الأسئلة لرمول الله ﷻ. وشأن السؤال أن يبقى في باطن السائل تدلعا حتى يستقر بالجواب المقنع، وتوالي مثل هذا الوضع، مما يهر الإيمان ويجعل صاحبه مترفيا لما يعلمه، فأرشدتهم الآية إلى أن يطروا الإشكالات التي تلقوها إليهم يهود أو يلقوها الشيطان في نفوسهم حتى يكون ثبات على ما استقر في نفوسهم من الإيمان واليقين هو وسط الطريق المؤدي بسالكه إلى النجاة، وأن لا يقعوا فيما وقعت فيه بنو إسرائيل من مواصلة الأسئلة حتى لطبق عليهم الكفر، وحل عليهم غضب الله.

109 - ود كثير من أهل الكتاب على كل شيء قدير.

وليه المؤمنين إلى أن كثيرا من اليهود يجهلون أن نسوا إلى الكفر. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت عقب وقعة حاصرها: أن حنيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ؓ عليهما نخبها إلى المدممة التي يتعلم فيه أبناء يهود النوراة (المنزاة) فقال لهم المعلمون: إنه لو كنتم على الحق ما أصابكم يوم أحد ما أصابكم، فأتواكم دينكم إلى ديننا فخر أهدى منكم. فثبتا على الإسلام ولم يؤثر كلام اليهود فيهما.

وكان عامة يهود يمتنون لو يعود المملعون إلى الشرك، حملهم على تلك حسدهم الذي تطور تبعا لما بفتح الله كل يوم من القلوب للإسلام، ولسرعة انتشاره بين قبائل العرب، ولتمسك أتباعه به تمسكا كثر به مقبما على حياتهم وعلى كل ما أوتوه من منافع الحياة الدنيا.

سما الإسلام بأخلاق المؤمنين، وتبعها ذلك لمرهم الله أن لا يعاجلوا بالمعصية حاسديهم وأن يصفحوا فلا يؤذيوهم، إن حسدهم لا بصيركم، فرجاكم في فضل الله ثابت، ووعد الله لكم بأن يظهركم على أعدائكم سيتحقق. والله الكامل الكمال المطلق لا يعاجل بالمعصية مع تمام قدرته. فمفركم من الكمال.

110- **واقموا الصلاة... بصير.**

ويرشد الله المؤمنين إلى ما يقوي عزائمهم ويثبتهم على المستوى الرقيع الذي تحولوا له بعد أن خلطت بشاشة الدين قلوبهم وغفلتهم، بأن يمسحوا ما بلغوه من كمالات بإقامة الصلاة على خير وجوها من خشوع لله ومواظبة عليها في أوقاتها، وهو معنى إقامتها، وأن يعملوا على تأكيد أصورة الأخوة الإيمانية، وتمكين المحاويع من المسلمين من حقهم في الزكاة على وجهه لا يظهر فيه المزكي ترفعا ولا منه، وهو معنى الإيتاء، أي فعل المرء، ما يفعله محبا له طائعا به.

ويثبت الله المؤمنين على الالتزام بهذين الركنتين بتكوين قاعدة تزرع الطمانينة والرجاء في قلوب للمؤمنين: إن الله يسجل عنده، التسجيل الذي لا يضيع منه شيء، ما يقدمه الإنسان في حياته الدنيا، ليجد جزاءه عند رب العالمين، الله الذي لا يفرغ عن علمه كبرية ولا صغيرة ولا تغفل حفظ الأفعال بالمعصاة. فالخير المجزي به هو ما صلح فيه الباطن والظاهر.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۚ قُلْ خَاتُوا يُرَفِّقَنَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٠﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١١﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَنَسْبُ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ مَثَرٍ ۚ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَنَسْبُ الْيَهُودَ عَلَىٰ مَثَرٍ ۚ هَٰذَا بِأَعْيُنِنَا ۖ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ بَلَدًا نُوَلِّهِمْ أَفَلَا تَحْكُمُ يَنْتَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٢﴾

بيان معنى الالتفات

برهان: دليل مقنع.

اسلم وجهه: خضع.

الذين لا يعلمون: مشركو العرب الذين لا يسئلون قولهم إلى كتاب.

بيان المعنى الإجمالي:

قال اليهود: إن يفوز بالجنة إلا اليهود وكذلك قالت النصاري الجنة للنصاري وحدهم. والجنة لا تقال بالألماني. وكل دعوى لا تستند إلى دليل باطلية ومرفوضة كذب مدعيا. لكن الحقيقة الصالحة التي يغلب العقل، هي أن من أطاع الله بكلية، وقرن لعقيدة بالعمل الصالح الحسن، هو الذي ضمن الله له أجره وطمانته،

قلا هو يخاف من آت ولا يحزن على ماض. وكما جازفوا في المال قال كل فريق: إن الفريق الآخر لا أساس له ولا حقيفة، مع أن اليهود يشهد كتابهم الذي يتلونه وهو بين أيديهم بصق المسيح والأنبياء وكذلك النصارى فإن كتابهم بمقرّب بالتوراة وبشر بمحمد. فكثروا يعتمد كل منهم رفض الدين الآخر لا يختلفون عن مشركي العرب الذين رفضوا الأديان الثلاثة. ويهتد بهم الله بأنه ميفضحهم، ويحكم عليهم جزاء ما تجنوا بتكذيبهم رسالات الله

بيان المعنى العام:

111-112. وقالوا لن ندخل الجنة سواهم بجنازات.

يظهر اليهود في المجتمع بأنهم أهل كتاب يعلمون مالا يعلمه غيرهم. فما يبثونه من أخبار يتميز بمصداقية في زعمهم، وكذلك النصارى فسجل القرآن من أساطيلهم: دعوى عريضة كاذبة من اليهود بادعائهم أن الجنة لهم وحدهم، ومن النصارى بأنهم يفوزون وحدهم بالجنة. ويرد الله دعوايهم هذه لأنها دعوى فارغة لا تستند إلى دليل يصدقها. ويبرز الحقيقة التي يفلبها العقل والمنطق: أن الفوز ليس بالألماني، ولكن الفوز لمن جمع بين امرين:

أولاً: إسلام الوجه لله، الذي مؤداه أنه أهمل مطعماً راضياً، بحقيقته ومشاعره مخلصاً بها جميعاً لله لا يشرك به أحداً.

وثانياً: لحسن في عمله وفي سلوكه وفي نشاطه في الكون وفي علاقته بخلق الله، يبغي أن يرتفع بسلوكه عن القيام بالواجب، إلى أدائه على أفضل الوجوه وأتمها وأحسنها. فيؤلا الذين اهتكوا قفلاً بالطعامينة الراضية. أجروهم أمانة مستودعة عند ربهم عند من لا تضيق لودائع عده، لا يحزنون على ما فات ولا يخافون من مخات المستقبل، كما قال تعالى أولئك لهم الأمن وهم مهتكون.

113. وقالت اليهود: فيما مكناوا فيه يختلفون.

ويضيف كل فريق أنه يزوري الفريق الآخر، فاليهود يقولون: إن دين النصارى ليس له أساس ولا يتضمن حقيقة مغفلة. والنصارى يزعمون ليس لليهود نفس ما رمى به اليهود النصرانية. وكل واحد منهما مجازف متكرر لما يقتضيه كتابه الذي يؤمن به، إذ أن التوراة تنص على أن الله سيبعث أنبياء أخذ موسى على بني إسرائيل العهد أن يتبعوا الحق الذي أنزل معهم. وكذلك النصارى قد نص الإنجيل على أن الله أنزل التوراة، وبشر بمحمد. إن اليهود والنصارى بمجازفتهم هذه، لا يختلفون عن مشركي العرب (الذين لا يحتمون) الذين رفضوا اليهودية والنصرانية والإسلام، وقلوا: ما أنزل على بشر من شيء. ولثلاثة اليهود والنصارى ومشركو

للمرء تشابهت أقوالهم، وتشابه مستخدمه الذي لا يخرج عن الرقض تبعاً للهوى، وإغماض البصيرة عن الحقائق الثابتة، وسيلاتي لقول الفصل في إثبات الحق ونقض دعواهم، عندما يوقعون وقد تجردوا من خيالاتهم وبين ضعفهم، ويصغر القول الحق من رب العالمين في يوم لا يملكون فيه شيئاً.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ تَسْبِيحَ اللَّهِ أَنْ يَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ، وَسَمِيَ فِي خَرَابِهَا أَرْثَافَكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا حَائِطِينَ. لَهُمْ فِي الدُّنْيَا جِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

بيان معنى الآيات:

الظلم: الاعتداء على حق الغير والتسلط عليه بغير رضاه.

الخزي: النذل والهوان.

بيان المعنى الإجمالي:

يقرر القرآن أن من أشد الظلم، من بلغ به عشوه أن منع رواد المساجد التي لا ملك عليها إلا الله، منهم من أن يذكروا الله ويطهروا لأرواحهم بالعبادة. ثم لم يكتف به بذلك بل عمل على تخريبها، إنهم طفوا وتحجروا مع الله لا بحق لهم أن يدخلوها (لا مستعمرين لعظمة رب تلك المساجد وقدرته خلتين من تسلط الظالم عليها، نوعهم القرآن بالخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة).

بيان المعنى العام:

114- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ سَوْلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٍ عَظِيمٍ.

ذكرت الآية السابقة أن المشركين تجاوزوا جراءة اليهود والنصارى فكذبوا جميع الرسل، ولذكروا الأدبانات كلها، وعطفت هذه الآية نوعاً آخر من فسادهم وسوء تصرفهم، إن المشركين يمكنون حول المسجد الحرام وفي الأماكن التي فضلها الله بأداء العبادة فيها كالتمسك بين الصفا والمروة، والمزلفة وعرقه، وهم لا يملكون شيئاً منها، وإنما هي أماكن للعبادة يملكها المعبود بحق الله رب العالمين، ولكن نسلطوا وتجردوا وظلموا فمنعوا المسلمين من عبادة الله في تلك الأماكن المقدسة، وحرمهم من التقرب فيها مخلصين الله فكأنوا بتسلطهم هذا ظالمين ظلموا شديداً، لأنهم لو كانوا يعقلون لعمرت قلوبهم الخشية والخوف، وما تجاوزوا حدود الأدب فيها فضلاً عن منع المؤمنين من العبادة فيها. يتوعددهم الله بأن جراتهم هذه وظلمهم سيلقون جزاءه ذلاً في الدنيا، وعذاباً شديداً مهما تخیل البشر شدته هو

أعظم من ذلك، لأن الله الذي سيطر عليهم وصفه بقضمة وهو لا يعظم لديه شيء، ولكنه أعظم مما يتخيله المتخيلون. أعاننا الله من مقلته وعذابه،

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ نَائِمَتَا لَوْلَا فَهْمُ رَبِّهِ إِنَّ اللَّهَ وَبَيْنَ عِلْمِهِ

بيان معنى الألفاظ:

المشرق والمغرب: الأرض كلها.

وجه الله: ذاته العلية.

بيان المعنى الإجمالي:

كل الأرض من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى جنوبه، ملك لله لا لأحد سواه. فإلى أي جهة وفي أي مكان قام الإنسان بعبادته فإله معه يعظم قصده ويقبل خالص عمله ويجزيه عنه. إن سعة ملك الله تشمل كل شيء، ولا تخفى عليه خافية.

بيان المعنى العام:

115 ولله المشرق والمغرب. إن الله واسع عليم.

لما منع مشركو مكة المسلمين من أداء عبادتهم في الأماكن التي فضلها الله وحرمهم من البيت العتيق والمسجد الحرام، وقد ألفوا تلك الأماكن المقدسة وأسموا بها في عباداتهم، طمأن المولى سبحانه المؤمنين، بأن سر العبادة هو في تتوجه الخاضعين لله، وتعلق القلب به والخضوع لحاكمه، وكل مكان يقوم فيه العابد بأداء العبادة مخلصاً لذلك المكان هو ملك لله يستوي ملكه تعالى في كل جزء من أجزاء الأرض من مشرقها أو مغربها، لأن قاعدة العبادة السليمة أن الله واسع ملكه كل شيء، فالأمكنة بالنسبة له تعالى متساوية، وهو المطلع على القلوب، فلا يخفى عليه سبحانه ما تكنه وأما تظهره.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ نَزَلَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ فَيَتَوَنَّنُ

بِئْسَ تَبَدُّلُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا نَفَخَ فِي سُوفِنَا فَتَحُولَ لَهُ نَكْرٌ يَكُونُ

بيان معنى الألفاظ:

مبجلته: تنزيهه له، أي أن اتخاذ الولد يناقض الألوهية فلا تتصور فيه.

الولد: يقال على الابن والبنات كقوله تعالى يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين.

النفث: الخضوع والانقياد.

بديع: المبدع هو المنشئ على غير مثل سابق.

بيان المعنى الإجمالي:

كشف القرآن عن فساد عقيدة غير المسلمين وعما يقولونه مما هو غير معقول، فمن ذلك إشاعتهم أن الله قد اتخذ ولاء، وهو يطل غير معقول لأن المالك لكل شيء الذي يتوجه إليه كل مخلوق بالخضوع والافتقاد، لا يتصور فيه أن يطلب الولد. ولدي إنشاء المجرات المسارة في الأبداء الفسيحة، والأرض على غير مثال سابق فيجلدها وتحقق بتعلق إرادته التي لا يستعصي عليها أي شيء.

بيان المعنى العام،

116-117، وقالوا اتخذ...ممكن فيمكن.

سجل القرآن على اليهود والنصارى والمشركين ما صدر عنهم من أقوال أشاعوها مما لا يقبله العقل ولا يفقه المنطق. قال اليهود عزيز بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال المشركون الملائكة بنات الله. وذلك من الجراءة على الله وقول عظيم فساد. فلذا عقبه بقوله سبحانه، أي هو منزّه عن هذا الذي لا يليق ولا يتصور ممن تصف بالأكوهية والخلق، تنزه أن يكون له ولد مما يتكلم مع حقيقة الأكوهية. ولقد اعتول إلى الأدلة المنزعة على إخصر طريق:

أولاً: للتجديد بقوله (سبحانه) ليرزا لشناعة هذا القول، لأن الرغبة في الولد ناشئة عن نقص في الولد، لأن الوالدين لما كل الفناء يلحقهما رغبا في الولد للبقاء في الفرع، ولأن الوالد يرغب في الولد ليستطاع عنده كبره وضعفه، والله منزّه عن ذلك

ثانياً: إن كل الكائنات العاقلة وغير العاقلة هي الأرض والسموات مملوكة له، وهي أيضاً خاضعة له يتصرف فيها تصرف المالك المطلق. كل له قانتون، وكلاهما مما ينفي الولدية، لأن الولد جزء من أبيه لا مملوك له، وشأن الولد أن تكون صلاته بولده صلة بر وقرب لا صلة خضوع وانقياد.

ثالثاً: إن الله أبدع خلق السموات فلم يسبق لها وجود ولا مثل، وأبدع خلق الحيوانات على غير مثال سابق، وأبدع خلق الإنسان كذلك. فكل كان هو مخلوق لله إنشاء مصوراً كما أرك بحكمته، وشأن الولد أن يكون نسخة من أبيه لا مختلفاً عنه اختلافاً جوهرياً.

رابعاً: قرب الله لعباده إنشاء الكون الذي ضلّت فيه عقول للبشر، وخطب فيه الفلاسفة ما خبطوا دون أن يصلوا إلى نتيجة يغلبها العقل. وذلك ببيان الفرق بين الخالق والمخلوق، فإذا كان عمل المخلوق متوقفاً على أسباب ومقدمات، فإن شأن الخالق أمر آخر، إنه إذا تعلقت إرادته بأحداث أي شيء ملوي أو روي فإن إرادته يتصل بها اتصالاً مباشراً لا يتجزأ. بنوع مقدمات ولا توقيف، ولا مولا أولية. لما كيف يتم ذلك فإن عقول البشر تنصرف عن تصور دون دعوى استحالة.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا نَكَّلْنَا اللَّهَ أَوْ تَأْيِيدَهُ، إِنَّهُ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِثَلْثِ قَوْلِهِمْ تَشْتَبِهَتْ قُلُوبُهُمْ فَذَرَيْنَا آلَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. (١١٠) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُنْزِلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١١)

بيان معنى الألفاظ:

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: للمشركون.

آيَةً: علامة على الصدق.

البشير: هو المخبر بأمر سار.

النذير: المخبر بأمر مخوف.

بيان المعنى الإجمالي:

قال المشركون إننا لا نؤمن إلا إذا كلمنا الله، أو نرى بأعيننا شيئاً يساهي بصحة ما نقول، فلا تعجب يا محمد من عنادهم فهي الطريقة التي سار عليها الكافرون قبلهم. فعقولهم وتكديدهم يشبه بعضهم بعضاً، ومب لزلزلاء عليك بين واضح لمن فتح بصيرته لقبول الهدى، وكن واثقاً لما أرسلناك مؤيذاً ملائمتها للحق، تبشر الصالحين وتندر الكفار والفاسقين. وإن ما أعدته للكفرة من عذاب الجحيم هو فوق الوصف.

بيان المعنى العام:

118. وقال الذين لا يعلمون... لقوم يوقنون.

كما سجل مقالات اليهود والنصارى سجل مقالة المشركين. أرادوا أن يقننوا بآيائهم في قلب رسول الله الحريص على هدايتهم، فقالوا له: إننا لا نؤمن بما جئت به إلا إذا كلمنا الله مباشرة، وسمعنا صوته يعرفنا بأن ما نقوله حق، أو أن تأييداً معجزة مادية نراها بأعيننا. كما ذكره القرآن في سورة الإمراء (وقلوا نحن لسؤمن لك حتى نلجأ لك من الأرض ونبيعاً أو نكفرك من جنس من نخيل وعنب فتلجس الأتجار خلأها تلجيراً أو تسقط السماء فما زعمت طيننا كمشاً أو تلتقي بساؤه والملائكة قبلاً)¹.

ثبت الله نبيه بأن ذلك هو شأن المعتدين مع المرسلين، فقد طلب اليهود من موسى أن يريهم الله جهرة، وأن يجعل لهم إلهاً كما للمشركين الهة، إلى غير ذلك مما قصه الله في القرآن. وكذلك الأمر مع عيسى عليه السلام، فقد سألوا أن تنزل عليهم مائدة من السماء. فعقولهم متشابهة كلما جاعتهم آية فترجوا آية أخرى، وفيما أنزل

¹ سورة الإمراء، الآيات 90-92.

الله من القرآن ما يقوم حجة على صدق رسول الله ﷺ، فمضمونه وطريقته وأسلوبه، وما أخبر عنه من المغيبات التي لا تتلئى للعقل البشري، ويكون كمال ما جاء فيه يشهد العقل بصحته ويؤكد، كل ذلك شواهد صدق لقوم فتحوا عقولهم لتقبل الحق .

110- إنا أرسلناك... ولا تحال عن أصحاب الجحيم .

يزيد الله سبحانه تنبيهاً لنيبه، فيخطبه مخاطبة مباشرة، (إنا لم أرسلناك) ضمير المتكلم ' إنا من الله، وضمير المخاطب الحاضر رسول الله 'أرسلناك' ومضمون الخطاب بالرسول ولخطاب به حتى أصبح شيئاً واحداً بالحق فهو الحق والحق معه، ويرفعه إلى المقام الذي أراده له فكل الخلائق مخاطبون من قبله ﷺ، من آمن ومن كفر (إشيرا للمؤمنين ولذمرا للكافرين) ثم يسليه عما يلقاه من رفض الكافرين لدعوته فيقول له: ولا تنال عن أصحاب الجحيم. هم أهون من أن تمسأ عليهم، وهوانهم يتجاوز الحد الذي يمال عنه لمعرفة.

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَذَا أَلَّهُ مَوُ
الَّذِي وَلَيْسَ أَتَيْتُ أَهْوَاءَهُمْ يَعْتَدُ الْإِنْسَانُ مَا لَكَ مِنْ أَلْهِ بْنِ وَلِي

وَلَا تَصْبِرْ

بيان معنى الانكسار

الملة: ما شرع الله لعباده على لسلس الأنبياء ولا تضاه إلا للنبي ﷺ الذي تمسند إليه فلا يقال ملة الله ولا ملة فلان ويقال ملة محمد وملة إبراهيم.

هو الله: ما يقدره الله للشخص من التوفيق.

الهُوى: رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل.

الولي: القريب للمؤيد.

النصير: المعين على رد الضرر.

بيان المعنى الإجمالي

أخبر الله نبيه بأن تعصب اليهود والنصارى حجب عنهم تبين صدق الرسول ﷺ ، وأنهم علقوا مهالكته على ترك دينه وتباعد ما هم عليه. قل لهم يا محمد: إن التوفيق من الله وحده، والهدى الحق الوحيد هو ما أنزله الله على. ثم يؤكد تأكيداً مبالغا فيه أن من اتبع ضلالاتهم النابعة من أهوائهم هو خاسر لأن الله لا يكون له مؤيدا ولا ينصره.

بيان المعنى العام،**120- ولن ترضى عنكم...ولا نصير-**

تعصت لليهود ليهوديتهم، وتعصت للنصارى لما هم عليه تعصبا حجب عنهم النظر في دلائل صئق الرسول وما في دين الإسلام من هداية تجمع بين البشر وتهديهم سواء السبيل، وبلغ بهم التعصب أن أعلن كل فريق أنه لا بهتان محمدا إلا إذا اتبع ملته وتخلي عن دينه. قل يا محمد بكامل الشجاعة والقوة:

إن هدى الله ورحمه هو الهدى الحق لا ما أقمت عليه من لو هام تركمت، وتلفقات اخترعتموها، وإني لا أملك هدايتكم لأن الأقطاف قلبي تحيط بالإسنان حتى يسلم في دنياه وآخرته هي من الله وحده. ويؤكد القرآن أن من فجع تلكم الأهواء المخترعة، والضلالات التي ألحقها بما أنزله الله على رسوله وحرقوا بها هداية الله، من اتبع ذلك فقد تخلى عن رباطه بالله الرابطة التي يتبعها تأكيد الله له وبصرته عند الشدائد، ومن تخلى عن تلك الرابطة هلك. وتوجه القرآن للرسول ﷺ فيه تحذير من الطمع في هدايتهم، فاسترضاهم طمعا في دخولهم للإسلام طمع فيما لا مطمع فيه، لشدة ما استقر في قلوبهم وعضولهم ومشاعرهم من حقد وبغض للإسلام.

الَّذِينَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِكَفَرٍ قَاتِلٍ فَذُرِّيَّتُكَ يَكْفُرُونَ بِهِ ۚ وَمَنْ كَفَرَ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

بيان معنى الألفاظ،

يتلونه حتى تلاوته: التلاوة المتأمله الواعية لمضامين المفروء،

بيان المعنى الإجمالي،

الذين مكنهم الله من التزويل الموحى به لرسوله، يقولون القرآن قراءة المستفهم الواعي لمقاصده، وهؤلاء هم المؤمنون به لأنه يأخذ بعضولهم وقلوبهم إلى الإيمان بك وبالمنزّل على قلبك.

ومن يكفر بالحق ويتبع هواه هو الخاسر الذي لا يجد من عمله شيئا.

بيان المعنى العام،**121 الذين اتبعواهم الكتاب...ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون-**

هذا هو شأن القرآن في الإنصاف، فلما ليرز تعصّب اليهود والنصارى في الآية السابقة، بين أن من يتلو التوراة من اليهود ومن يتلو الإنجيل من النصارى تلاوة متأمله متفهمة مدركة لمضامينه، متوقفا في كل ما ورد فيهما مما لا يقبله العقل

ولا يمكن أن يكون وحياً، هؤلاء القائلون الثلاثة الحقيقية الذين رفعوا حجاب التقليد وعسى التصيب، هؤلاء يؤمنون بالرسول وبالقرآن، وهم بذلك قد ربحوا في حياتهم الدنيا وربحوا هو الفوز عند الله والطمأنينة في الدنيا بأنهم على صراط مستقيم. ومن كفر فلوئك الذين كان عليهم بطلا لا يقفون منه أي نفع فم الخسرون.

يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا بَعْثَ إِلَيْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنِّي بَصَلُّكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ ﴿١٢٢﴾
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا سَفْعُهَا شِفَعَةٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

بيان معنى الآيات

اتكروا: ذكر استحضار للنعم.

اتقوا: اجعلوا لنفسكم وقاية من عذاب الله.

بيان المعنى الإجمالي.

يكرر القرآن دعوة اليهود أن يستحضروا ما أنعم الله عليهم وأنه فضلمهم على أهل زمانهم ببعث الأنبياء فيهم، وأنقذهم من ذل فرعون وغير ذلك من النعم، ثم أمرهم أن يحصوا أنفسهم من العذاب في يوم لا يتحمل أي فرد عن غيره شيئاً، ولا يقبل منه فداء لأنه لا يملك شيئاً في ذلك اليوم، ولا تقبله شفاعته لأنه لا يستطيع أي شخص في ذلك اليوم أن يقوم شفعاً، ولا يجد له نصيراً.

بيان المعنى العام.

122-123 يا بني إسرائيل سولاهم ينصرون.

بعد أن كشف القرآن في هذه السورة عن مكائد اليهود وعنادهم وحسدكم ومكرهم في الآيات السابقة أعاد دعوتهم ليقرع اسماعهم من جديد ليأسوا من أن الله سيفكر لهم لأنه فضلمهم على العالمين ببعث الأنبياء فيهم وما أنقذه عليهم من نعم كثيرة، فلكم ما جاء في مفتاح خطبهم أن الآخرة لمن اتقى والله لا ينجي الإنسان فيها إلا بعقيدته الصالحة وعمله العرضي.

• وَإِذْ أَنزَلْنَا إِلَهُهُ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَنشَأَهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْفَالُ غَضَبِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ خَلَفَ الْيَتِيمَ ثَمَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ إِذْ سَمِعَهُ بِأَن طَوْراً يَنْتَبِئُ لِلْمَلَائِكِينَ وَالْعَجَايِبِ وَالْوَكَيْعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا

لَدُنَّا قَائِمًا وَارِثًا أَهْلًا. مِنَ الشَّجَرِ مِنْ قَامَرٍ مِنْهُمْ سَائِدٌ وَالْأَخَرِ قَالَ وَمَنْ
كَفَرْنَا مَعَهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠٠﴾ وَإِذْ يُرَفِّعُ
إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٠١﴾
رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٢﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا فِيهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْنَا
آيَاتِكَ وَتَعْلِمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ بِرُحْمَتِكُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٣﴾

بيان معنى الألفاظ

الاهتلاء: اختلار المكلف في وقائه بما كلف به.

الكلمات: الكلام الموحى به لإبراهيم.

فانتمن: أتى بجميع ما أمر به دون أن يبطل.

الإسلام: القدوة الهادي.

الذرية: نسل الرجل وما تولد منه.

يتل: يحصل على الشيء وهنا العهد.

العهد: وعد الله.

الظالمون: مرتكبو الكبائر وأعظمها تشرك بالله.

البيت: يطلق بالقبلة على الكعبة.

مناية: مثابة مقصد يرجعون إليه.

مقام إبراهيم: يصح أن يكون المراد به الحجر الذي كان يملو عليه لما ارتفع ببناء

البيت (وهو الحجر الموضوع قبالة باب البيت الآن نعت فيه من الزجاج حفظاً

له) ويحتمل أن يكون مقامه البيت كله باعتبار أن إبراهيم كان يقوم عند البيت

يفرد الله فيه بالعبادة ويدعو الناس للتوحيد.

عهدنا: أوصينا وصية مؤكدة.

العالمين: جمع عاكف وهو المقبل الملازم على سبيل التعظيم.

البلد: المكان من الأرض المعروف حثوته، وغالباً ما يطلق على المأهول.

القواعد: جمع قاعدة وهي الأسس الذي يقوم عليه البناء.

الأمة: الجماعة العظيمة التي يجمعها ما له قيمته من نسب لودين أو زمان.

أولنا: من رأى بمعنى عرف أي عرفنا.

مناسكنا: جمع منسك ما نتعبد به، أولنا متعبداتنا.

الآثار جمع أية حجة دالة على صدق فنقل لها ثمة استعملت عليه من التبليغة والإعجاز في النظم، والسعة والصدق في المضمون.

بيان المعنى الإجمالي

كلف الله إبراهيم الله جملة من التكليف فأداهما على أفضل الوجوه وأتمها، جازاه ربه فقال له: إني جاعلك إماماً للناس يفتنون بك، فطلب إبراهيم من ربه أن تستمر الإمامة في ذريته، فأجابته ربه بما طلبت مع التأكيد أنه لا يبلغ تلك المرتبة ولا يستحقها من كان ظالماً، ومن المقرر عند العرب في وقت القصة صلة إبراهيم خليله بالكمية، فهو الله بهذا البيت، بأن جعل تعلق الناس به تعلقاً كبيراً، يخلف زواريه بعضهم بعضاً، ومن زاوية يكون عدد مغفرتهم متشوقاً إلى العوده إليه، وجعل سبحانه في قلوب الناس حرمة له تنقح بها الأمر لزواره والناصبين للعبادة فيه، وأمر سبحانه تبعاً لذلك أن يتخذوا من المعام الذي كان يعبد فيه إبراهيم ويدعو إلى الله، ومن الحجر الذي كان يرتفع عليه لبناء قبست، مكاناً يكون لتقرب فيه إلى الله بالصلاة أعظم توفيقاً. ولوصى إبراهيم وابنه أن يحرسا على إحدك الكعبة للعبادة بتطهيرها من كل ما يوذى العابد، ومن الأصنام المنافية للتوحيد، حتى يتوافر للمطالعين حول البيت والمقيمين فيه والعابدين للركعتين الساجدين يتسوق لهم ما يمكنهم من أداء العبادة لله على أفضل الوجوه وأتمها.

وبنوه القرآن بإبراهيم إذ توجه إلى الله داعياً في بقدر لهذا الممكن الأمن الذي تتحقق به العمارة، وأن ييسر لسكانه المؤمنين أسباب الرخاء فيورقهم من مختلف أنواع الثمار وأن كان في طبيعته مكوناً من جبال جرداء، ويقدس الله نبيه بأن رحمته تمنع المؤمن والكافر في الحياة الدنيا، أن متاع الكافر في الدنيا هو متاع محدود فإن، ثم يلحق الكافر إلى عذاب النار وبشر الصير.

كما بنوه بإبراهيم وهو يرفع الأمر التي تستند إليها حذرنا الكعبة مع ابنه إسماعيل بجمعه بين تنفيذ ما أمره الله به من بناء البيت، وبين الإتيان إلى وتقبل الله عملهما، والله لا يتقبل من الأعمال إلا ما نفذ بإخلاص على أفضل الوجوه وأتمها، فيعقب إبراهيم دعاءه بأنه سبحانه يعلم صفقهما في الإخلاص، كما يتقبل إلى ربه أن يجعلهما مسلمين له روحهما ومشاعرهما وأعمالهما، وأن يستمر هذا الإخلاص في قسم من ذريته، وأن يتفضل عليهم بمعرفة ما يرضيه من طرق العبادة، وأن يغفر للجميع غفلاتهم أو تقصيرهم، مفتاحين يدي دلالته لفتاعه بأن الله هو التواب الرحيم بعباده، ويختم إيتياله بأن يحق الله ما دعا به وذلك بأن يحدث في ذريته نبيا منهم يثبت كل ما جاء في إيتياله بأن يصحبه بكتاب معجز في بلاغته وفي

مضمونه يعلمهم الكتاب الذي يحمل قلوبهم من الحكمة ويزكي مداركهم وأفعالهم لتجري على صراط مستقيم. ويصرح برجائه في قبول دعاؤه بأنه يدعو ربه العزيز القادر الذي لا يعظم عليه أي شيء الموصوف بالحكمة البالغة.

بيان المعنى العام:

124- وإذا ابتلى إبراهيم ربه بالباقين.

وانكر ما حدث مما سألوه عليك: كلف الله إبراهيم بالقيام بمجموعة من التكاليف مضبوطة، هو مأمور أن يكملها على الوجه الذي أمر به، ومنهي أن يتدخل فيها ما لا يلائمها. ولما كان التكليف ظاهراً أن النتيجة تظهر بعد تنفيذ المطلوب، عبر القرآن عن هذا التكليف بالاختبار (الابتلاء) ولم يفصل القرآن ما كلف به إبراهيم، لأن ذلك لا يهم، إنما المهم هو أن يقتدي للبشر بأبي الأنبياء إبراهيم فيحرصوا على امتثال ما يطلب منهم خالقهم لئلا يؤولوا الجزاء والتكريم. ويظهر أن هذه التكاليف تقتضي بقطعة وجداً ونكاه في التنفيذ، لأن الله رتب على وفاء إبراهيم بما كلف به أن يجعله قوة للبشر جميعاً في كمال الطاعة وحسن الامتثال، فقال له إني جاعلك إماماً مقتدى به لجميع البشر. ويحرص إبراهيم لصفاء روحه وما طمع عليه من فضل، ولأن ذلك من الفطرة السليمة، أن يتكرم الله أيضاً على بعض ذريته بالإمامة، حتى لا تنقطع هذه الميزة، القيادة للخير من نسله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الإنس ينفع بعد موته بدعاء ولده له، فهي وشيجة بين الأصول والفروع ينتفع الآباء بصلاح ذرياتهم وتنفع الذرية بصلاح الآباء. ويجيب الله إبراهيم بأنه لا يحرم الصالحين من ذريته من هذه الترقية ويحببها عن الظالمين. وأعظم أنواع الظلم وأشدّه، الكفر بالله، ومن الظلم شعدي حدود الله بأركان الكتاب الكبير والحق على الناس، **إِنْ تَحْتَسِبُوا كَيْفًا مِنْ تَعْلَمُونَ مَا تَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ أَنْتُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ** (سورة البقرة: 255) وتقرر الآية حقيقة: هي أن الإمامة التي يكون صاحبها متبعا سواء أكان لتحمله لوصاية من الله أو لتحمله قيادة مجموعة بشرية في شؤون الحياة أو لقيامتهم في العبادة كإمامة الصلاة، أساس توليه تلكم القيادة: هم العدل والبعد عن الظلم. ونهدي الآية إلى مبادئ تنفع منها البشرية في حياتها الاجتماعية إن هي راعتها، فإسناد الولايات والمناصب لا بد أن تنتظمه تجربة تظهر كفءات وتيسر ما عند الشخص من قدرات، وصفاء نفسه وروحه ببعد عن الظلم والاحتياز للهوى.

125- وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً... المسجود.

ذكر إبراهيم الخليل في نفوس السامعين بناءً البيت الحرام. فيقول الله لرسوله وأفكر لتجد ما حيث ليكون حاضرا في تمن قلبك ما تعلقت العصور والأزمان، لنكر رفع إبراهيم أسس البيت الذي أمر ببنائه ليكون خلاصا لله لا ملك لأحد عليه، وقرن هذا التذكير بمزاي الكعبة وما حولها، إذ حصنها الله قبل قبضة بأنها المكان الذي يقصده الناس طائفة بعد طائفة كلما أُنست طائفة مناسكها خلقتها طائفة في نورة لا تقطع، ربها خالق الكون توثيقا ثابتا، وهي مثابة للناس يتعلق زقوها بحبه العودة إليها، وهذا ما يدركه كل من طاف بالبيت وأقام في مكة إقامة تطول أو تقصر، فإنه يجد في نفسه شوقا للعودة إليها بمجرد ما يفارها. وجعل لهم في هذا المقام لهذا يوم كان الأمن يكاد يكون مفقودا إذ وقر في قلوب العرب عدم التعدي لا على النفوس ولا على الأموال في جوار البيت. فإذا فارق الضعيف الحرم تعرض للاعتداء والتسلط عليه.

125- واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم

فري واتخذوا فعل ماضٍ إخبار عن اتخاذهم البيت وما حولها موضعا للصلاة الخالصة لله فيه، بما فقه الله في قلوبهم من الاعتداء إلى هذا الأمر، أو باعتبار أن إبراهيم أمر الناس باتخاذ البيت وما حوله مصلى، فاستجابوا واتخذوا. فري واتخذوا (فعل أمر) على أن القرآن أجمع في توبيهه بالبيت الأمر بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. على معنى وقفنا لهم اتخذوا. فاتخذوا.

وأوصى الله سبحانه إبراهيم وابنه إسماعيل وأكد تلكم الوصية المتضمنة بأن يتبنوا في قلوب الناس أمورا تتعلق بهذا البيت وما حوله: تطهير البيت من القاذورات والأجاس والأوساخ، فيكون للبيت وما حوله نظيفا مساعدا ومحبيبا لإقامة العبادة حوله فلا يتأذى العابدين بما يكرهه.

تطهير البيت من كل الأوثان ومظاهر الشرك، تهيئة جميع الظروف المادية والروحية للعاشرين حوله، إذ قد شرع الطواف حول البيت عبادة موعودة عند الله بمجرد ما تم بلأه. تيسير العبادة فيه لكي منها الركوع والسجود.

126- ولا قال إبراهيم رب اجعلني من الصالحين

لذكر ذلك المشهد، مشهد إبراهيم وهو متجه لربه بالدعاء ضارعا إليه أن يقدّر لهذا المكان الذي بنى فيه الكعبة: العمارة والسعة وطيب العيش فيدعو أن يتحقق فيه الأمن الذي يقوم على العدل والرخاء، وواصل إبراهيم دعاءه بأن يرزق ساكنيه من الثمرات المختلفة، إذ تلك الحرم بولا لا زرع فيه ولا سهول حوله وإنما هي

جبال صخرية سود. وبدون ما تقيته الأرض من خيراتها لا بقاء للإنسان ولا إقامة ولا هناء. فطلب إبراهيم أن يرزق أهله المؤمنين من ثمرات الأرض ما يقيم حياتهم فيه. فخصص دعاءه بالمؤمنين، إذ إن الكمال من البشر تصفو مداركهم صفاء يتجده أنه إذا نبهوا لأمر أجروا نظائره عليه. وإبراهيم قد سبق له أن دعا باستمرار الإمامة في ذريته دون تفصيل، ونُبه في الإمامة لا تكتب للطائفتين. ولذا خص الرزق بالمؤمنين، فلققه ربه أن مثله في الخليقة أن لا يقصر مرافق الحياة وأساليب الرزق على المؤمنين، بل رحمته وسعت خلقه مؤمنهم وكفارهم في الدنيا، وأن ما يصل إليه ما يستمتع به هو مناع قليل. باعتبار أن مناع الدنيا لمدة قليلة لا تزيد على أقصى تقدير عن عمر الإنسان المحدود، والغناء يلاحقه، وما يستمتع به زائل غير باق ينتهي الإحساس به سريعاً. فلا يفتر من يصل إليه ما هو محبوب من أمور الدنيا لمتاعها قليل، ومن لم يؤمن ملجأ لا مفر له من عذاب النار. ولا مصير أسوأ ولا أشنع ممن تكون خاتمة العذاب فيها مع ما يصحبها من خزي.

127- وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل -السميع العليم-

مشهد يسجل القرآن صورته لتبقى حية يتملأها البشر سائرة مع الدهر، بعد أن هبأ لها بتوحيه إبراهيم.

مشهد إبراهيم وهو يرفع البناء مثبناً على الأسس التي أقام عليها الكعبة ويملأ بها، يساعده ابنه إسماعيل تنفيذاً لموجي الله، ويتمتع العمل المادي في الشعور الروحي، فيجهر صوته داعياً: ربنا تقبل منا: مبرراً أن الجانب المادي من البناء ورفع جدران البيت لا قيمة له إلا إذا فعل الله منهما العمل، وهي مرتبة يتعلم منها المؤمنون أن ارتفاع العمل إلى المستوى الذي يرضى الله عنه فيقبله هو ما ينبغي أن يطلبه العابد بعبادته والتعامل بعمله. فإنه وإن كان إبراهيم الله، ولله بقدر ما طلبه الله منهما، وهما مستحضران في ما يقوم به ليعبر له أجروا في الدنيا، وأن ذلك المكان ما لمر الله بصارته بهذا البيت إلا لحكمة وعلمها، وأن الله سرفهما باختيارهما لتنفيذ أمره؛ ومع ذلك فقول العمل منهما لا يتحرك يقيناً لأنه في علم الله المكنون. ومن حكمة إبراهيم أن يصل بقوله إنك أنت السميع العليم، فهو سبحانه المتفرد بسماع دعائهما وإتيانهما، وهو المتفرد بطم بواجلتهما وما تقويما عليه من إخلاص يقرر به حضور صلتهما بالأمر حضوراً موصولاً واعين به أتم الوعي وأكمله.

128-129، ربنا واجعلنا -المتكلم-

ويصل عرض المشهد لمسينا إبراهيم متضرعا لربه مع ولده إسماعيل بالدعاء: ربنا قنر لنا الثبات على الاتقياء لك فلا تغفل عن حقنا، وقدر هذه الهداية لبعض ذريتنا. وإنما خص الدعاء بالهداية ببعض ذريتهما لعلهم أن من ذريتهما القومين والكافرين للضالين، ووصل ذلك بأن من عليهما بمعرفة الطريقة التي تكون عليهما العادة محقة للرضا والقبول، ويبدو في هذا المشهد وهو مدرك بأن الإنسان مهما بذل من جهد هو مقصر، إذ كل لحظة تمر بتغل فيها عسر استحضار جلال الله في النفس، تقصير من العباد في حق المعبود، فيدعو أن لا يؤاخذهما بما يصدر عنهما من تقصير، معتمدا على ما وصف الله به نفسه بأنه للتوابع الرحيم، ويختم دعاءه بإبتهاله أن يبعث في ذريته رسولا منهم؛ ويلهم في دعائه توصيف هذا الرسول زيادة على كونه منهم، أنه يكون مزيدا بنسب يتلو عليهم، يكون معجزا، يشولي هذا الرسول تعليمهم الكتاب المنزل عليه بتبليغه ثم بيانه، فتمتلى قلوبهم بالحكمة التي تعصمهم من الضلال في العقيدة وتردهم إلى الحق إذا غفلوا.

وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ بِلَاةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّهِ التَّائِبِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَوْصَىٰ بِإِبْرَاهِيمَ نَبِيًّا وَتَعْقُوبَ نَبِيًّا إِنَّ اللَّهَ ضَلَّطَ لَكُمْ الْبَاقِينَ فَلَا تُؤْمِنُونَ إِلَّا بِاللَّهِ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٧﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ يَا أَبَانَا إِنَّكَ إِبْرَاهِيمَ نَاسِتَ عَلَيْهِ وَأَسْحَقُ إِلَيْهَا وَجِدَا وَخَنَّا لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

بيان معنى الآيات:

رغب: رغب في الشيء إذا أحبه ورغب عنه إذا رفضه كما في الآية.

سلة نفسه: أهملها ولم يعطها وزنا.

استلماه: اختاره بالنبوة وجعله للناس إماما وباختياره لبناء بيته وتسلسل النبوة في ذريته.

أسلم: أسلم نفسك لي.

شهداء: جمع شهيد وهو الحاضر عند حدوث الأمر.

بيان المعنى الإجمالي:

هل يمكن أن يوجد من يعرض عن ملة إبراهيم إلا من أهمل نفسه ولم يعطها وزنا، إن إبراهيم قد اختاره بالنبوة وجعله للناس إماما وباختياره لبناء بيته وتسلسل النبوة في ذريته. واستجاب له فجعل النبوة ماثرة في ذريته إلى أن حتمها بمحمد ﷺ. وقت حقق القرآن أنه في الآخرة من عباد الله الصالحين المميزين، إن ما ناله كان جزاء

إسراعه لتنفيذ ما طلب منه فقد قال له ربه: أمام وجهك لى فأسرع إلى الامتجابه. ثم إنه حرص على بقاء هذه التولية في ذريته فوصى بها ذريته وكذلك حفيده يعقوب، مؤكداً على أن الله قد اختار لهم دين التوحيد فليثبتوا عليه إلى الموت. وكذبت يهود في دعواهم أنهم ملتزمون بوصية يعقوب فهم لم يشهدوا وصيته لئى ما كانت تختلف عن وصية إبراهيم وإسحق فإنه عندما حضرته الوفاة شدد على بنيه أن يلتزموا بعبادة الله الواحد الأحد.

بيان المعنى العام:

130-131، ومن يرض عن ملة إبراهيم أسلمت له رب العالمين.

تميز إبراهيم عليه السلام بإسراعه إلى الطاعة وتنفيذ الأمر الإلهي على خير الوجوه وأتمها إخلاصاً وإيجازاً باطنياً وظاهراً، فكان الله بما بلغه من وحى الله وبملوكه المظاهر قد سر للبشرية من بعده الطريقة التي يرضى الله عنها في العقيدة والسلوك واستقر هذا في ضمائر التابعين للديانات الباقية، فاليهود والنصارى يعترفون بأنهم على خطى إبراهيم والعرب كذلك، فالاستهزام الإكباري في محله هل يوجد من يعرض عن ملة إبراهيم؟ فيقدر الجواب لا يوجد إلا من أهمل نفسه ولم يعطها قيمتها، ذلك أن إبراهيم عليه السلام هو الرّجل المفضل من الله، الذي خلق الحلق وهو أعلم بهم، وقد حقق إبراهيم في حياته الدنيا مراتب من السمو والنباهة والفضل لم يبلغها أحد من أهل زمانه بجمعه بين وضوح العقيدة والإخلاص في العمل، والاجتهاد في تنفيذ ما أمر به من ربه، وحرص فإنه على تربية أسرته، فكان مثلاً للكمال التشريعي، فلا يتصور أن يوجد من يرفض منهجه ويضع طريقاً غير طريقه للرّشد، إلا من لا يحترم نفسه ولا يفكر في عزتها، ثم يزيد القرآن تأكيداً لمزيداً بالتخصيص على أن الله قد اختاره في الدنيا، وأنه يوم القيامة سيكون مكرماً مع عباده الصالحين، ثم يبرز ميزته الكبرى في الأمر أثناء من الله بأن يسم قلبه وروحه وحياته كلها، لا ينفقه عن ربه أي شئاً، فأسرع بالاستجابة وقال بلسان عقله ولسان حاله (أسلمت لرب العالمين) فاندمج في جوابه المستند الذي استند إليه والخليل الذي اعتمده وهو حصور الحقيقة الأولى بأنه مطمئن إلى أن الأمر هو رب العالمين الحقيق بل يسم كل فرد كل أمور إليه.

132-133، وأوصى بها إبراهيم مسمون.

ويجب للقرآن الموقف الإبراهيمي بتكثير أصحاب الديانات السماوية عند نزول هذه الآيات بالعهد الذي أخذ يعقوب على ذريته، هذا العهد الذي لم يحضره اليهود الذين ينتسبون إليه، أنه هو العظيم وحده بما جرى في ذلك المشهد، فقد سأل يعقوب نبيه

ما تعبدون من بعدي ؟ كان همه في آخر لحظة من حياته أن يطمئن على أن ما وقر في قلوبهم وأرواحهم وعقولهم هو التوحيد الخالص الذي كان عليه كما كان ورثة إياه إبراهيم وإسماعيل وإسحق، هو الله الواحد الأحد، ثم بإسلام الوجه له وحده في العقيدة والعبادة وجميع شؤون الحياة، وإذا استبان منهج إبراهيم الذي هو ما التزمه إسماعيل وإسحق ويعقوب، رد القرآن دعوى يهود: أنهم ملتزمون بوصية يعقوب **﴿١٢﴾** أن يثبتوا على دين يعقوب كما يتصورونه بعد ما ترككم على وصيته عبر القرون من لوهم وما لابسها من ضلالات، ولأن أن وصية يعقوب هي التوحيد الخالص وأنه في تلك اللحظة التي فارق فيها الدنيا، قد صرح ذريته أمامه بأنهم استلموا عقولهم وأرواحهم وأعمالهم لله الواحد.

بَلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ **﴿١٣﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارًا تَهْتَدُوا قُلْ بَلَا بَلَّةَ إِلَهِكُمْ خَيْرٌ مِمَّا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ **﴿١٤﴾** قُولُوا نَحْنُ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ وَمَا أَهْوَلُ إِلَهِكُمْ إِلَهِكُمْ إِلَهِكُمْ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أَوْنِي مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْنِي النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ **﴿١٥﴾** فَإِنْ زَعَمْتُمْ بِمِثْلِ مَا زَعَمْتُمْ بِهِمْ فَقَدْ أُوتُوا قَوْلَ اللَّهِ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ **﴿١٦﴾** سُبْحَنَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ **﴿١٧﴾** قُلْ اتَّخَذْتُمْ فِي اللَّهِ وَهُوَ زَيْنًا وَزَيْنًا لَنَا أَعْمَلًا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ **﴿١٨﴾** أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِلَهِهُمْ إِلَهِكُمْ وَإِسْمَاعِيلُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَشْفَقُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ شَيْءٍ شَهَادَةُ عِبْدِهِ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِمُنْجِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ **﴿١٩﴾** بَلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ **﴿٢٠﴾****

بيان معاني الألفاظ:

خَلَتْ: مضت.

زَيْنًا: هو وزن فعول بمعنى فاعل، والحنف أصله ميلان في الرجل يجعل صاحبه ينحرف في سيره عن المصالحين له في المشي، ولما عم الشرك والضلال في عهد

إبراهيم وخالف هو ٣٣ قومه جميعا ولا فرد بطريق غير طريقهم غير عن دينه بالحنيفية، وبأنه حنيف، ثم كثر استعمال حنيف في وصف الممنوح باتباعه طريقا غير طريق الصلال.

الأسباط: جمع سبط ابن الالين وهم اثنا عشر ولدا ليعقوب بن إسحق، كل واحد منهم أوحى إليه وكان نبيا. ومنهم تفرعت قبائل يهود.

بمثل ما أمنتكم به: الإيمان واحد فالمراد بمثل ما أمنتكم به إيمان مسلو لإيمانكم.

شفاق: مخالفة قوية شديدة.

صيفة: واحدة من الصيف.

بيان المعنى الإجمالي:

إن إبراهيم ومن آمن به قد مضوا في التاريخ لهم أجر ما وطنوا عليه أنفسهم وقاموا به من صالح الأعمال، وللحاضرين في زمن البعثة المحمدية جزاء أعمالهم. ولا ينتفع أحد بما قام به سلفه من خير، ولا يسل أحد عما قدم غيره، وإن كان من نسله، ففقر أن المسؤولية متعلقة بالفرد الفاعل.

وقال اليهود: كونا يهودا لتتحقق لكم الهداية والتمتامة في العقبة، وقال النصراني: كونوا نصارى لتحصلوا على الهداية، قلوا ذلك اعتقادا منهم أنهم ورثة الهدى الذي جاء به إبراهيم.

فل لهم يا محمد وليف ذلك كل من أتبع: إني على المنهج الإبراهيمي السر الفاض لكل التصورات التي كانت في زمنه والمعلن للوحدانية الخالصة. وبهذه الخاتمة **(وهذا كل من أمشركين)** رد القرآن على مشركي العرب الذين يدعون أنهم على دين إبراهيم. ثم فصل القرآن هذه الحنيفية، فالمرم أن يواجهوا تلكم الدعوات التي يروج لها أهل الكتاب ومشركو العرب، فيقولون: نحن مؤمنون بالله، ومؤمنون بشرائعه التي نزلت علينا وهي خاتمة للشرائع، ونسخة لكل ما خالفها، دون أن ينفي هذا الإيمان ما أنزل على إبراهيم وعلى ولديه إسماعيل وإسحق، وعلى حفوه يعقوب بن إسحاق وعلى أبناء يعقوب (الأسباط) وما أنزل على موسى وعيسى، وكل هداية جاءت من الله فتلقاها أنبياءه وبلغوها، فهي واحدة في أصولها. فلنحن للمسلمين: إيماننا بأن الحق واحد وهو كل ما جاء عن الله ونطقنا لنا متقاديون إليه. ثم يقوي القرآن ويثبت للمؤمنين بأنه لا يوجد إلا طريق واحد هو ما بينه رسول الله ﷺ واستقر في قلوب صحابته، فمن آمن بذلك فهو المهتدي ومن خالفه ضل وخسر. وهو خارج عن طريق الله. ويثبت الله نبيه بأن ما يديره الكفرة للكيد للدعوة وتسابيحهم على باطلهم، ونعصبهم ضد الإسلام، كل ذلك لا يفيدهم؛ ولأن الله ناصر دينه مبيرد

مكائدهم في تجوهم. فليتيق كل مؤمن أن الله ناصر للحق على الباطل، فإن ما تتطوي عليه بواطنهم، وما يتعلمون به في الحقاء، فإله يسمع سرهم وجهرهم، وهو العليم بما تتطوي عليه نفوسهم فيحبط ما يخططون له من شر وأذى. إن هذا الإيمان القماري فينا مع ما أوحى الله به لأتباعه، هو الصيغة التي صيغها الله بها فكانت ميراثنا التي أصبحت ظاهرة فينا. ولا يوجد سورة أرقى ولا أحسن ولا أجمل منها، ولئن القرآن حجة دامغة لرد لدعاعات وجدل الكفار لجماعة المسلمين، فهم يدعون أن الله هو إلههم فقط، فاليهود أنهم شعب الله المختار والنصارى على أن عيسى ابن الله وأنهم اتخذوا به فهم أقرب إليه، فكان الرد أن الله هو رب البشر جميعاً، وعزله عن خلقه هو نفي لكل الكمال الألهوية، فإبصار العقيدة يقتضي رد لدعائهم وإثبات أن الله تولى كل كائن خلقه وأحاطه بالاطلاق حتى بلغ ما بلغ. وإن عدله لكاماله يقتضي أن كل فرد مجزي بعمله، فلنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم. ثم يترقى في إيصال تصوراتهم بأل المؤمنين بالرسالة المحمدية يتميزون بالإخلاص الذي به تتفاوت الفئات.

ويواصل القرآن تسجيل ضلالات أهل الكتاب وما يروجونه من أباطيل ليدحضها، فمنها أن اليهود قالوا: إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأنباط كانوا على اليهودية، وقالت النصارى: بل كانوا على النصرانية. كل الرد حاسم أن الله قد أعلم المسلمين أنهم ما كانوا يهودا ولا نصارى وأنهم واهمون فيما يزعمون، والله هو العليم، وأشار إلى أن هذه الضلالات قد أقروهم عليها أجبرهم ورجسناهم، إن هؤلاء الأخبار والزعمان هم من أشد الناس ظُلماً لأتباعهم لأنهم لم يفكروا عليهم ما ترواكم عبر التاريخ حتى اطمأنت أنه العامة لوضاء لهم ولستكروا لحديثهم ونسألهم. ويهددهم للقرآن بأن الله لا يغفل شيء عن علمه، فسيجازيهم بسكونهم عن الحق حتى آمن بسكونهم هذا أتباعهم في ضلال.

بيان المعنى العام

134 تلكم أمم قد خلت سمعاً فكانوا بعملون

انطلقت هذه الآيات بين نفي إقرار حاصر من البداية إلى النهاية. هذا الإطار الذي يعبر حقيقة كبرى هي من الأسس التي بنى عليها رب العزة الإسلام، فبلغ بالإنسانية درجة الرشد. هي تأصيل أن كل فرد من لقود الجنس للبشري له شرف المسؤولية عن أعماله، لا ينتقم بصلاح أصوله ولا يتحمل جريمة ما اقترافوه. فأعلام المفتوح به: **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كنتم تعملون** - وخاتمته النهائية نص الآية. وما بين نفي الإطار تثبيت للمؤمنين

على الإيمان ومحاجة للمعاندين للكفرة. وإسقاط ما يستندون إليه مما يروجونه ويعملون على إقناع الناس به، فتهلأى ما بنوه بساطع الحجة وصادق البراهين، وثبتت القرآن المسلمين ولقنهم ما يسقطون به بهرج لأحبيهم.

135- وقالوا حكوتوا يهودا سوما سكان من المشركين.

أولاً: روج أهل الكتاب دعوى مبناها عند اليهود أن الله لما بعث موسى بالهدى وأيده بالمعجزات، فمن أراد نفسه النجاة والاطمئنان على أنه على الهدى فليلزم دين اليهودية، ومبناها عند النصارى: أن الله قد اصطفى عيسى. وأنه ابنه، ولا سبيل لسلامة العقيدة إلا لمن التزم بدينه واتبع ما جاء به. ويرد الله عليهما معاً، ويضمن إسقاط حجتهن اللوذ على مشركي العرب فيقول: إن الذي جاء به محمد وأمرنا باتباعه هو ملة أبينا إبراهيم التي ظهرت للعقيدة من كل لوثة شرك، فعال بالبشرية عن الطريق الذي كانت تسلك ونفى أرواحها من الشرك والوثنية، واتخذ طريقاً محلياً منحرفاً عما كان سائداً (حينئذ) ويتضمن هذا أن ما اعتقده اليهود من أنهم أبناء الله، ويقولهم لما يشرع اختارهم على أنه تشريع الله بنأى بهم عن الحقيقة التي أسسها إبراهيم والتي يدعون أنهم أتباعها الحقيقيون. وكذلك النصارى في تأليههم لعيسى وما قبلوه من رولسب الوثنية في عقائدهم ومبادئهم، كله مما يتنافى مع التوحيد قواضئ التي الذي كان عليه إبراهيم ويتضمن هذا، الرود على مشركي العرب أيضاً، الذين يدعون أنهم على دين إبراهيم مع شيوخ الوثنية فيهم. ويسقط حجج لليهود والنصارى والعرب بقوله تعالى: **وهما كان من المشركين**. وكلهم على نصيب من شرك ظاهر أو خفي.

136- قولوا آمنا بالله.. مستطوع.

ثانياً: يلحق الله المؤمنين، بأن يعلنوا في اعتزاز ووشوق كامل: أنهم يعتبرون طريق الهدى طريقاً واحداً لا اختلاف فيه، هو الخضوع لله وإسلام الوجه له. فكل ما جاء عن الله نؤمن به، وكل من اختاره الله لإبلاغ رسالته هو محل للتصديق والتقدير. فكما نحترم نبينا محمداً ﷺ نحترم جميع رسل الله، ونصلي ونسلم عليهم كإبراهيم وإسماعيل أبي العرب وإسحاق جد أسباط بني إسرائيل، ويعقوب (إسرائيل) وكل ما أنزل على قيسرية بولسطنهم نؤمن به على أن صلاح الإنسانية باتباعه، وقد أسلمنا وجوهنا وخصعنا لله، وارتبطت قلوبنا به سبحانه ونعلقنا أرواحنا بهداه.

137- هان امنوا بملك السميع العليم.

ثالثاً: بعد أن وضع القرآن مستوى الدين الإسلامي في هذه النظرة الشاملة لكل هدايات الله عبر القرون المتطاولة والأحزاب، أكد أن هذا هو طريق الهدى لا طريق غيره، وأن الطوائف الثلاث، يهود ونصارى وعرب، إن آمنوا بإيماننا بنسأوى مع ما تقرر في الآية السابقة فقد امتدوا، ولا يضرهم ما كانوا عليه من كفر. وإن أصرضوا فما ذلك إلا لإصرارهم على معاندة الرسالة الخاتمة فهم لا يغيثون إلا مخالفة للمسلمين. وقد تمكن التفائق منهم فلا رجاء في اعتدائهم ملائمت قلوبهم في غطاء مغل لا يتكلمون ولا يلبثون للحق.

رابعاً: عدت الطوائف الثلاث عزمها على التمسك بالإسلام، وتربص الدوائر به والامتنعاده للمألة وعون كل من يبغي بالجماعة سوءاً، فطمع الله نبيه بأن الله يحبط ما يحبونه من خطط مكررة وأنه حافظه وناصره، فبهما تخفوا في نصب مزاميرهم فانه يسمع ما يملكون به، ويعلم ما تتطوي عليه صدورهم، وسيحبط أعمالهم. وهذه السنة من سنن الله، أن الباطل لا يهزمه الحق، تعطى للمؤمنين في عصر الرسالة وما يلقي بعده قوة على العبادة وأمل في نصر الله ولينصرون الله من ينصر دينه ويلتزم بما شرعه.

138- صيغة الله. ونحن له عابدين.

خامساً: بهذه الصورة الجامعة من وحدة الإيمان بالحق، واحترام رسول الله، والتصديق والعمل بما شرعه، والوثوق بنصر الله، حلت السكينة قلوبهم، وأضاعت وجوههم أنوار الإيمان، وخلصت فعالهم وبوطانهم من الرزاء والتفائق والفساد، هذا لون جديد لون صبغ الله به المؤمنين فوجد صورتهم بهذه الملامح التي ذكرناها، فاختفى كل ما كان يخالف بينهم من أعراق والصب والولن وفقير وثراء. فهي الإنسانية الواحدة متجهة إلى رب واحد تحكمها قيم واحدة وتشريع واحد وإحسان يأخوه دينية جامعة. وهل يوجد في الكون واقعاً لو متخيلاً صورة أحمل أو أنقى وأكمل من هذه الصورة التي صبغ بها المولى سبحانه البشرية المؤمنة بهدية خاتم المرسلين.

139- هل أحتاجوننا... مخلصون.

مستمعاً: مخاطب القرآن رسول الله: من وواله كل المؤمنين أن يعلنوا في قوة واعتكاز، ولن ينكروا على الكافرين لأبائيل حجبهم. فليقولوا لهم: أحتاجوننا في حكمه الله من بعثة الرسل متتابعين، وتكررون هذا الذي هو عين الحكمة وتدعون لئلا الله لما بعث رسولا فقد قصر قهيدية على ما جاء به في عصره وما يتكود من

أعصار إلى ألد الأبدن. وهو لا يبعث برسول بعد رسولهم الذي يؤمنون به؟ فيعلمون أن يعلنوا أن الله ليس رب الإسرائيليين وحدهم ولا رب من يعتقد أن المسيح ابن لله ولكنه رب الناس جميعا. وهنا ما يقتضي أن يكون سبحانه حكيمه براعي تحول الأعصار والأزمان وتحولات البشرية المتلاحقة فيشرع لهم ما هو مناسب لأوضاعهم فهو رب اليهود راعي ظروفهم ومستواهم وما يصلحهم في عهد موسى وكذلك في عهد عيسى. وكذلك الآن هو رب البشرية راعي ما يصلحها ببعثة محمد ﷺ. وأن ميزة الإسلام هو الإخلاص لله في عيادته وفي قبول ما شرعه وأقرره من أمور العبادة أو المعاملات والعلاقات بين البشر.

140- ام يقولون إن إبراهيم هو ما الله بغافل عما تعملون.

سأبها: من المغالطات التي كان أهل الكتاب يروجونها، أن اليهود كانوا يقولون: إن إبراهيم كان يهوديا وكان النصارى يقولون: إنه كان نصرانيا، ما لهم بذلك من علم، بل هي مبالغات أملاها التعصب فأنشأوها ثم تناقلوها حتى وثقوا بها ومالأهم علماءهم من أخبار ورهبان بسكويتهم عن تصويب خطيئهم لستوروا الضمان بقاء الاستيلاء على عواطفهم وخضوعهم لهم.

يعلم القرآن، ويطلب من المؤمنين أن يعلموا: أن هذه المغالطة تنقض ما أثبتته الله من أن إبراهيم ومن عطف عليه ما كانوا يهودا ولا نصراني. وقد تكرر هذا أكثر من مرة في القرآن. فمن العناد والإصرار على الباطل أن يواصلوا إعلان ما قرر الله خلافه وأقام عليه الحجة كما سيأتي في قوله تعالى (وما كنا نزلنا القرآن إلا من بعدة أفلا تعلمون) ١. ويقرخ علماءهم بأنه بسكويتهم ومالأتهم للجهلة المتعصبين. يكونون من أشد الناس ظلمة فلعلما بكتبتهم ما عرفوا من الحق وإقرارهم لثبائهم على الضلال، ثم يبتدعهم بأنهم سيقولون جزاءهم حسا، لأن الله عادل ولا يغيب عن علمه شيء ولا تلحقه غلظة في لحظة من اللحظات فهو الحي القيوم.

141- تلكم أمم قد خلت سولا تسألون عما كانوا يعملون.

ويختم الإلزام بنقض الآية التي تبدأ بها، آية 134

• يقول السفهاء من الناس: ما بأنهم غرقتهم ألبي كانوا عليها قل لله الشرف والمغرب يسعى من يقا، إل صراط مستقيم ﴿١٤١﴾ وكذلك جعلتكم أمم وسطا

لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعَ الرُّسُولَ ۚ لَمَّا يَقُومِ لِمَن تَقْبَلُ عَلَى عِشْيَةِ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ لَكَوِيْنًا إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا إِنْ هُوَ إِلَّا اللَّهُ بِالنَّاسِ لَزُوْلًا ۚ رَحِيمٌ ۚ قَدْ تَرَى ظُلُمًا جَهَنَّمَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلَّى وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا تَكُنْ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَهُ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَيِّبٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝
وَلَيْنِ أَتَيْتُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَأَقُولَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ وَمَا أَنتَ بِمِنِّي قِبْلَتُهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِقَابِلٍ قِبْلَةً بَعْضٌ وَلَيْنِ أَتَيْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ لَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ بَيْنَهُمْ وَالْحَقِّ لَحُجًّا ۚ وَمَن يَعْلَمُونَ ۝ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۚ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ مَّا تُوَلُّوا فَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْرَاتِ إِنِّي مَا تَكُونُوا يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ وَمِنَ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَيِّبٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ وَمِنَ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ فَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا بَيْنَهُمَا لَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْا ۚ ذَٰلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ كَمَا أَتَيْنَا بِهَذَا الْكِتَابِ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ وَإِلَيْكُمْ نَرْجِعُ الشَّيْءَ وَإِلَيْكُمْ نُنزِلُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ۚ وَلَكُمْ فِي مَا نَكُونُوا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَادْكُرُوا أَدْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا إِلَى وَلَا تَكْفُرُونَ ۝

بيان معنى الألفاظ

السلطان: الجهة ضعاف القول.

ولاهم: صرفهم.

لعلهم: الوحة التي كانوا يتجهون إليها.

الصراط المستقيم: أقرب طريق يصل بوسطه مسلكه إلى غايته.
وسطا: خيارا.

ينقلب على عقبيه: يترك.

لكيبرة: شاقة على النفوس.

ليبضع: ليطلق آثار أسلحتكم.

وؤوف: رحيم الرحمة القوية التي يتبعها دفع المكروه وإزالة الضرر.

تقلب وجهك في السماء: تحويل نظرك في جهات السماء.

شطر المسجد الحرام: جهة المسجد الحرام، أو الكعبة باعتبار أنها وقعة في وسط المسجد الحرام (شطرا).

الأهواء: جمع هوى، وهو الحب الشديد الذي يحجب العقل عن النظر في العواقب.

الممترين: جمع متمر، وهو الشاك.

وجهة: ما يجعله الإنساق قصده الذي يتوجه إليه.

للحجة: ما يؤيد به المتكلم رأيه لا لزوم مخاطبه به.

الخشبة: خوف يقارنه تعظيم.

يرمكم: التزكية، تطهير النعم من الرذائل لتنتقل إلى ذيل الكمالات.

الحكمة: يعلمهم ما يصلح به العقل عن الضلال وعن التأثير بقلوبهم.

أنكروني: أنكروني بأنفسكم من الذكر، واستحضروا عظمتي وهو من الذكر.

بيان المعنى الإجمالي.

اتجه النبي ﷺ والمسلمون بعد الهجرة، لكثير من سعة، في صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم أمر الله أن يتحول يستقل الكعبة، فطعن المنافقون في هذا الأمر الإلهي، وروّجوا أنه لا يوجد أي مبرر لهذا التحول. رد القرآن عليهم بأن الله هو مالك الكون بجميع جهاته، وأنه يهدي إلى الطريق المستقيم الموصل إلى السلامة والنجاة، وهو الطريق الذي تكون غاية السائر فيه موحدة رب العالمين. فمن غيابه المنافقين الطاعينين يلبسهم بأن بعض الجهات أفضل من بعض، وقد شاء الله لهذه الأمة الهدى لذلك الطريق. ويصور القرآن بأن منزلة هذه الأمة عند الله منزلة سامية رفيعة فيقول: على هذا النحو من الكمال جعلناكم أمة أفضل من جميع الأمم، أنتم خيار، لأنني قد أعددتكم لتكونوا شهداء على الناس في هذه الدنيا ويسوم القيامة، ورسولكم شاهد لكم، ولبي تخيرت لكم القبلة التي تتجهون إليها في صلاتكم فمما شرعته لكم أولا من الاتجاه إلى بيت المقدس وما أمرتكم به من التحول إلى جهة الكعبة، فيه خير لكم بترويضكم على الطاعة، فيظهر من إسلام وجهه لله بالرضى بكل

ما يبلغه عن الله فيواصل مسيرة الإسلام، وينكشف المنطقون... إنه اختار كبير لا ينجح فيه إلا من هداه الله لطاعته. والله سبحانه يرأفقه ورحمته قبل ما مضى من صلاتكم متوجهين فيها إلى بيت المقدس كما يفيل صلاتكم إلى قلوبكم الجديدة.

هذا التوجه إلى الكعبة، كان قلبى لله لصفا روحه ينتظر ورود الأمر به. فكان يحول نظره في الفلق السماء ينتظر الوحي المؤكد لما سمعت أشواقه إليه، وعين الله تحوطه ورعايته متواصلة لنبية، فشره بأنه سيأمره بالاتجاه إلى قبلة تطمنن نعمه وما تعلقت به مشاعره. وصدر الأمر بأن يتوجه في صلاته إلى المسجد الحرام، كما صدر للمؤمنين في شتى بقاع الأرض أن ينجحوا إلى الكعبة في صلاتهم. ويثبت الله المؤمنين بأن استقبال الكعبة أمر يعلم صدقه علماء أهل الكتاب، وتشكيكهم هو من عملهم على تضليل المؤمنين، ويتهددهم الله بوعوده بأنهم لا يفلتون من قبضته فهو لا تخفى عليه خافية. وبحق القرآن عند أهل الكتاب بذلك لو حاولت تحريك عقولهم وقلوبهم بكل الأكلة على أن استقبال الكعبة، هو الحق، ما قبلوا ولا اتبعوا قبلتك (الكعبة) وقد ثبتك ربك فما أنت بتابع وجهتهم. إنهم قد اتزموا الخلاف والمكابرة، فشانهم منك في أمر القبلة هو كشانهم فيما بينهم، فلا للنصارى يأخذون بقيلة اليهود مع أنهم مأمورون بالقباع ما جاءت به التوراة، ولا اليهود يأخذون بما هو عند النصارى مع أن عيسى عليه السلام جاء متبعاً للتوراة. ثم يقول الله لنبية يتبنا لأهل الكتاب من العودة إلى استقبال بيت المقدس، بأن هذا التحول نهائى، ولو فرض كما يفرض المحال أن تتبع ما يدعوا إليه هوامهم الضال من استقبال بيت المقدس، فإنك تكون محشورا في رمزة الظالمين الذين تعدوا حدود الله وغيروا شرعه.

ويثبت الله المؤمنين بإظهار ما طبع عليه أهل الكتاب أنفسهم من العناد، وذلك بتأكيدهم، أنهم يعرفون معرفة بغوية كما يعرف الآباء أبناءهم، أن ما جأط من ربك هو الحق. وينصف الله أهل الكتاب بأن فريقاً منهم يكتسبون ما يعلمون ما يعلمون ولا يظهرونه، وأن فريقاً آخر أدرك صديق الرسول وأمن به وكان من المسلمين الأخيار، الحق الذي لكركم الله به هو منزل من ربك الذي تولاك بعقلته. فلا تكون من المعتبرين أي القساكين، والمقصود والله أعلم ليقاط المسلمين حتى لا تروج عليهم مكائد أهل الكتاب فيدخلهم الشك.

ثم يفرض القرآن حقيقة يدركها الناظرون وإن كانت قد تخفى: أن الناس مختلفون في مقاصدهم وبالتالي في اتجاهاتهم، فبعضهم يؤفق لقصد ما هو خير ومنهم من يحرم هذه الهداية فينتجه إلى الشر، ويرتب على هذه الحقيقة تحريض المؤمنين أن

يتسابقوا في إبراء الخيرات التي هي كثيرة وميسورة، وهي فطرة التي فطر الله الناس عليها، وبلغت القرآن نظر المؤمنين إلى حقيقة يغفل عنها كثير من الناس أيضاً، وهي مصام الأمان، هذه الحقيقة هي أن كل إنسان مسعود إلى ربه، وإتيه محملاً بما قدم من خير أو شر، إلى الله قلنا على كل شيء، إن تشريع تحويل القلبة لتشريع عام في جميع الأحوال والظروف، يستوي في ذلك المقيم والمساافر، فالواجب على المؤمن حينما كان أن يجتهد ليتوجه بصلاته إلى الكعبة، فإن هذا التوجه هو الحق الذي يرضى عنه المعبود الذي يعلم ما تقومون به من أعمال ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة. يعيد القرآن لسر الرسول بالتوجه إلى الكعبة للمشرفة عند الصلاة ليرغب عليه أن المؤمنين هم أيضاً مطالبون ببذل الجهد في كل مكان، في الحضر والسفر بالتوجه إلى القلبة في الصلاة. إن هذه العناية بأمر القلبة وإنزال هذا التشريع الواضح المؤكد يبطل ما يحتج به الكفرة لبعثوكم عن القلبة، فأمر الله ووضح، وإذا تحقق ورود الأمر من الله وأضحا بيننا، فكل ما يرد عليكم من حجج الكافرين لا قيمة له إذ هي مغالطات لا حجج. والذين تمكن الظلم من أنفسهم يتعديهم على أوامر الله وإنكار حقائق وحجبه، هم ضلعات مهزومون، فلا تقاومهم ولمضوا على الالتزام بما أمرتكم، ولحشوا التفریط فيه، أو عدم العناية بتحقيقه، فقد أردت أن أكمل عليكم نعمتي بهذا التشريع. إنه بذلك يرجى أن تغزوا بالهداية إلى ما يحقق قبول أعمالكم.

شبه القرآن نعمة الهداية بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة بالنعمة الكبرى التي من الله بها على المؤمنين ببعثه محمداً ﷺ، ففيها فيهم، يتلهم ما ينزله عليه ربه من الآيات البينات، ويسمى بهم مطهراً لهم من كل ما ينحرف بعقولهم وأرواحهم إلى مهادي الرذيلة والفساد، ويعلمهم الكتاب المنزل فيحفظون عنه لفظه، ويكشف لهم أسرارها، وما جاء به من تشريع هاد، ويعلمهم تعليمًا بجميعهم من الخطأ والصلال والوقوع في حبال الشبه، ويرشد القرار المؤمنين بعد تفصيل هذه النعم المتعجبة: أن عليهم أن يذكروا ربهم باليقظة لنعمة وكمال فصله، وأن يجروا عن تلك الاستلهم، وأن يشكروا شكر المعترف بالفضل الراغب في المزيد. وليحذروا أن يجحدوا نعمه، أو أن يغفلوا عنها، لو أن يستولي على عقولهم نواصلها فيمنعها لأنفسهم.

بيان المعنى العام:

142- حيث يقول الاستغفار... إلى صراحة مستقيم.

سجل القرآن مصابرة الرسول ﷺ والسائقين من المؤمنين، ومعاناتهم في المدينة المنورة من مكائد المنافقين الذين كان أغلبهم من اليهود أو من المشركين بهم. فقد

كانوا يترصدون ما يتتبع من وحى معيّن للإسلام عن بقية الأديان. وكلما نزل تشريع أمرعوا إلى التشكيك في صلاحه، أو إلى إحصاء أنه لم يأت بجديد. ومعظم المسلمين كانوا ممن رشح الإيمان في قلوبهم، وبعضهم دخل في الإسلام حديثاً. وهؤلاء ربما يروج عليهم مكر المنافقين. وقد حدث في السنة الثانية من الهجرة أمر عظيم هو المجتمع العدني هزة كبرى، ذلك أن النبي ﷺ أمره به بأن يتوجه بصلاته إلى الكعبة المشرفة، بعد أن كان يتجه إلى الشام إلى بيت المقدس، لين أقدام سليمان عليه السلام، وأين ولد السيد المسيح الخ. فكبر على أهل الكتاب هذا التحول بما يدل عليه من استقلال المسلمين عنهم استقلالاً تاماً. فأخذوا في نشر الأراجيف، وبدر الشكوك في صحة هذا التوجه. ولذا فضج القرآن ما يتطرق بهذا الأمر بتلخيص المؤمنين، والرد على الكافرين فقال تعالى: **سَيَقُولُ الْمَسْأَلَةُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** ؟ المسألة من الناس؟ المسألة من الناس؟ (ومن الناس من يقول أئماناً) وقوله **(ألا إنهم هم المسألة)**¹. حركوا المؤمنين لرفض تشريع استقبال الكعبة بإثارة السؤال التالي: ما الذي حدث حتى يترك المسلمون القبلة التي كانوا عليها؟ هو سؤال مبطن فيه أنهم ينكرون وجود أي مصلحة في ذلك، وبالتالي فهم يطعنون في صدق النبوة. وأعلن القرآن عن حقيقة أبرز غيابه هم فقال تعالى: **كُلٌّ بِمَا مُحَمَّدٌ**؛ ولوجب أيضاً بذلك المسلمون الرد هذا المعلن: **إِنْ الْحَيَاتُ جَمِيعُهَا شَرْقُهَا وَغَرْبُهَا مَمْلُوكَةٌ لِلَّهِ وَحْدَهُ**. وهو الذي يشرع ما يعلم فيه للمصلحة التي يرضى عنها للتقريب على ذلك، فيهديهم لها ليعوزوا برضوانه. وليس ذلك لأمر ذاتي وإنما بجعل إلهي.

143- وسكندركم جعلناكم أمة وسطاً - البرزخ رحيم

بقرن القرآن هداية المسلمين للتوجه إلى الكعبة: البيت الذي بناه إبراهيم بنوحى من ربه كما فصل ذلك في الآيات 125-128 من سورة البقرة. بقرن ذلك بإبراز عدلية أخرى خص بها أمة الإسلام نحتها لمة وسطاً، عزيزة. خياراً كواسطة المعتد لأفكر حاضرة فيه، في أخلاقها وموقفها من الكون والحياة والمخالف والموافق، وهي بعيدة عن التطرف والتفريط. فلا المسلمون موعظون في التشديد على أنفسهم، ولا التشريع الذي كانوا بتطبيقه عسير تطبيقه، وما جعل عليكم في الدين من حرج، كما أنها ليست متحيزة متراخية العزيمة تتشرب كل المؤثرات،

¹ سورة البقرة: آية 174

² سورة البقرة: آية 174

وتفقد ذلتها وخصائصها مع تقلبات الظروف والأحوال. جعل منها أمة لا تترك الدنيا وتعتبرها رحبا ولكمال في عدم الالتفات إليها، ولا تقبل عليها إقبالا يوهن الطاقات الروحية، وبالتالي تستولي عليها الملة ومباح الحياة الدنيا بل بعدم التقطع بين المادة والروح الذي حير كثيرا من قدامى قتم بينهما التكامل بالإسلام فكانت به أمة وسطا. إنهم بهذه المنزلة السامية قد تهيأوا ليكونوا شهداء على الناس بتبليغ الإسلام وتوضيح أحكامه ثم الشهادة عليهم تعالى لذلك بأنهم مؤمنون أو كفار. وكذلك يوم القيامة، هم يشهدون الزمى بالتبليغ يوم ينكر أقوالهم. أخرج البخاري بسنده إلى أبي سعيد الخدري رض عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يدعى نوح يوم القيامة يقول: لبيك ومعديك يارب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمنه: هل بلغكم؟ فيقولون: ما لنا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه، فيشهدون أنه قد بلغ. ويكون الرسول عليكم شهيدا. فذلك قوله **وكان ذلك جعناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على المرءات ويكون الرسول عليكم شهيدا** والوسط العدل¹. وإن ما شرعته لكم من الاتجاه قبل ذلك إلى بيت المقدس، ثم ما شرعته لكم من التحول إلى الكعبة فيه خبر لكم، بترويضكم على الطاعة، وتمحيص المؤمنين الممارعين للاختلال وقبول ما ينزل عليهم من ربهم، وكشف من في قلوبهم مرض الزايعين إلى الكفر بلأذى سبب. وينوء الله بإسراع المؤمنين بالاستجابة لأوامر الله، فيعلم أن ذلك ليس بالأمر الهين، إنه بعد التوجه إلى بيت المقدس لكثير من سنة ثم في لحظة يفتي الأمر بالتحول فبرز الطاعة الراضية، وقبول ما جاء عن الله، هو أمر يبتلي عن عمق الإيمان والخضوع للرحمن، حلول الهداية في القلوب وخلص الأرواح من قسوة قلب. والله قد كتب ثواب صلاواتكم التي توجهتم بها إلى بيت المقدس فلا بذهب جزاء أعمالكم. ويؤكد ذلك بأن الله رؤوف والرفقة الرحمة البليغة التي تختص بالمرضى عنهم وهو رحيم أيضا رحمته التي وسعت كل شيء.

144- قد نرى لقلب وجهك في السماء يعملون.

كان النبي ﷺ لصفاء روحه، وإشراقها للانع متبيننا بإحسان خاص إلى الله سينزل عليه أمره بالتحول إلى الكعبة، وكان يقب نظره في السماء لعل الوحي ميلاية قريبا بذلك. وفي اللحظة التي احتارها الله بحكمته، نزل عليه الأمر بأن يتوجه إلى الكعبة التي هي في وسط (شطر) المسجد الحرام. ويكرم الله بحملها بأن يتوجهوا شطر

المسجد الحرام في الحضر والمفر في صلاتهم. إن هذا التحول يعلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى صدقه. وأنه هو الحق المنزى من رب العالمين. ولكنهم يواصلون تضليلهم ومحاولة صد المؤمنين عن الإيمان. وخبثهم هذا مسجل عليهم تسجيلا لا يفلتون من عقابه.

145- وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ آتَيْنَا الْكِتَابَ إِذَا لَمْ يَرْغَبُوا فِيهِ

أولهم وطئوا أنفسهم على العناد ومقاومة الإسلام. لا تقع فيهم الحجج، ولا ينصاعون لوضح الأدلة. لو جمعت لهم كل الأدلة البينة، ما تبعوا قلبك. ويصرح بما يقتضى بأسهم من رجوع المسلمين إلى استقبال بيت المقدس (وَمَا كُنْتُمْ بِتِلْكَ أَعْيُنُكُمْ) وهذا شأن أهل الكتاب فيما بينهم فما اتبع اليهود قلعة النصارى ولا اتبع النصارى قلعة اليهود.

ويحذر الله المؤمنين من أن يروج عليهم ما يشكك به المدافعون، فإن أمر القلعة ليس أمرا مما يتسامح فيه أو يقلل الاجتهاد في المقصود منه، وعلى سبيل الفرض كما يفرض الحال. إن الرسول قد لو اتبع ما تنهت إليه عولطف أهل الكتاب بعد ما نزل عليه من العلم اليقيني فإنه يكون واحدا منهم مؤرؤ الظالمين. والمقصود والله أعلم شدة تحذير المؤمنين من التراخي في أمر القلعة.

146- الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ

ثم بين القرآن إدراك أهل الكتاب لأمر التوجه إلى الكعبة فأكد لهم يعرفون أحقية التوجه للكعبة معرفة بلغت من وضوح أنها معرفة تساوي معرفة الولدين أبياءهم. كما انصف في الحكم عليهم فإن نصياعهم إلى ما تقتضيه هذه المعرفة اليقينية كانوا فيه على قسمين: فريق وطئوا أنفسهم على كتمان ما يعرفون، وقسم أشركت نفسه للحق المولود على لسان رسول الله ﷺ فأعلن إيمانه وانضم إلى حزب المؤمنين.

147- الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُمْتَرِينَ

ويصدق القرآن تبعا لذلك بأن ما جاء به هو الحق فلا تجعل للشك على قلبك مسبيلا. وإن كان الخطاب للنبي ﷺ فإن المراد والله أعلم. هم لمنه حتى يحسوا بخاطر الشك.

148- وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَاهُ اسْتَغْنَى كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٍ

ويذكر القرآن بحقيقة من الحقائق التي قد يغفل عنها: أن الله لم يخلق البشر نمطا واحدا كما تنهت به المصانع للصماء، ولكنهم مختلفون. ومن قدرة الخلاق العظيم أن

مير بينهم فلا يوجد لسان نسخة كاملة من مطلق أو من جنسه فضلا عن غيره من الأجناس. فكل فرد له وجهة هو متجه إليها تبعاً لما اقتنع به واختاره، ويرشد الله المؤمنين أن يرغبوا حجب الغفلة فينتبهوا إلى المآلات وبخضاروا الطرق التي تسبلهم الخيرات التي لا مطلق بلوغها إلا برضا الله، إن الله يجمع البشر جميعاً من كان مقبلاً عليه فيزيده قرباً وكرامة ومن كثر معرضاً عنه فيسلط عليه عذابه ولا يفلت أي فرد من قبضة الله به القادر على كل شيء.

149-150، ومن حيث خرجت، وتعلمكم تهتدون.

ويزيد أمر التوجه للكعبة تأكيداً أيام النبي ﷺ وكذلك أمرته. أن يرغبوا هذا الاستقبال في صلواتهم بالحضر والسفر، هي قبلة تجمع من كان شرق الكعبة أو غربها أو شمالها أو جنوبها. إن ما يحتج به المنظرون وأهل الكتاب والمشركون هي حجج متخولة لا قيمة لها فليحكم أن تتأثروا بها. إن أمر الله في استقبال الكعبة واضح لا مجال فيه للتأويل، وإذا أمر الله فليس هناك إلا طاعة والتبليغ. فسلط كل ما يحتج به المشككون والمعاندون. لكن الظالمين قد تعدوا أقذارهم واعترضوا على الحق، وتعصوا، فلا يرعحكم نعالهم على الباطل. ولستكن تقنكم في الله الثقة التي تكسب قلوبكم القوة والثبات والشجاعة في الزاوي فلا تحلهم واخشعوا خشية توجب زيادة القرب مني بإمتثال لأوامري. فهذا هو المبيل الذي يتلبسون به ما يتحنون عنه، وهو الابتداء إلى الطريق الذي يرضيني. لقد أردت أن أتمم عليكم نعمتي. وتسام النعمة في الدنيا بما يحصل في نفس المؤمن من الحلمة والرضا وفي الآخرة بالفوز بالجنة.

151 كما أرسلنا فيكم رسولا، تعلمون.

ويطمئن القرائ المؤمنين بتذكيرهم بنعمة عظيمة أخرى ينظر بها منة عليهم بالتوجه إلى القبلة، هي أن الله بعث فيهم رسوله يعيش بين أظهرهم، ويرقب أحوالهم، ويجمع كلمتهم، ويبلغ عليهم ما ينزل الله عليه من آيات للقرآن، ويظهر نفوسهم من الشرك والفساد والزنيلة، ويسمو بها فتصل بالله نتائجها وهي مطهرة من الأناس فارقت الجانب الطيني المظلم وأشرقت بأشراق الحق. ويعلمكم الكتاب تعليماً يرفع ما لشكل عليكم وينهج لكم طريقة الإستقامة عليه ظاهراً وباطناً، ويعلمكم ما يحصل نفوسكم من الوقوع في الخطأ والضلال، أو أن تعمل فيكم لشبه الحيرة فتقودكم في مسارب الضلال والظلام. بها الحكمة التي ينزلها الله في القلوب فتصليها لها مسارب الحق وتحميها من الزيف. لها مستويات ما كانت تخاطر ببالكم قبل ذلك.

152- هاتذكروني أذكركم ولا تكفرون.

أثم الله علينا نعمته وأرسل فينا رسوله فأنقنا من الضلال وهذا إلى ما يرضيه علينا وإلى ما يقرئنا يوم القيامة. كما شروع لنا ما يصلح كل فرد في ذاته وفي علاقاته الاجتماعية وما يقيم الأمة على أصول تكسبها العزة، ونكر الله يكون بالإنسان أن يكون اللسان رطباً بالتسبيح والتعبد والتمجيد والصلاة على رسوله وتلاوة القرآن، ويكون الذكر بالقلب بامتصاص المؤمن في كل لحظة ومع كل فعل أن الله يرقبه ليحاسبه وهي البوصلة التي تجعل المؤمن ملتزماً بالصراط المستقيم طريق النجاة في الدنيا والأخرة. وليكن المؤمن شاكراً لنعم الله عليه للنعم التي تتابع ولا تحت. وليحترق كفرائها فيفسدها لنفسه ولتكتفه أو للظروف الموقفة فالأسباب لا نذكرها ولكن للمؤمن بوقن ويتذكر أنه سبحانه هو خالق الأسباب وهو الذي يجعل الأسباب لا يصحبها ما يعطل تأثيرها. قال تعالى: **﴿وإذ قلن ربكم لن نذكرنكم بآياتكم ولن نعلمن أن عذابكم شديد﴾**¹

ويرشد الله للمؤمنين بعد أن نصل لهم تقدم السابقة، فتنى تتابعتم عليهم بعض من الرحمن الرحيم، أن عليهم أن يذكروا نعم الله وينالوا فيها وأن تكون حاضرة في أذهانهم وقلوبهم وأرواحهم لا يغفلون عنها. إن تذكر نعم الله يفرغ في الثمر نعيم لا يدانيه نعيم آخر، قاية كلمة وأي نعيم أرقى من شعور الإنسان أن رب العزة قد اعتنى به فأكرمه ونعمه وأحبه حياً مؤكداً. والتذكر الشامل يساعد عليه الذكر للمسلماني. فقد حتم الإمام البخاري صحيحه بالحديث الذي رواه بسنده إلى أبي هريرة ع. أن رسول الله ﷺ قال: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقلتان في الميزان، سبحان الله، بحمده سبحانه الله العظيم² وجزاء هذا الذكر اللطيف واللماني صرح القرآن بجزائه بوعده الذي لا يخلف: أنه سيذكر الذاكرين، وذكره يتبعه مواصلة العناية بهم بما يواصل عليهم من لطفه ورضوانه. ومع الذكر يرشد المؤمنين إلى الشكر بصرف نعم الله فيما خلقت من أجله لا في المعصية ولا فيما يصاد للنعم، أو الغفلة عن فضل المنعم ﷻ فيستولي على العقول تواصل الخير فينسبوا النعم إلى مهارتهم ذكائهم، وحسن تخطيطهم للأمور. إن الكفر يتبعه زوال النعمة، والشكر يتبعه نموها وثوبها.

¹ سورة إبراهيم آية 7² فتح الباري ج 17 ص 426/427

*** للتوجه إلى القبلة نول تشريع تفصيلي في القرآن. وقد أشرنا إلى مقدار الاهتمام به. والتوجه إلى عين الكعبة لمن كان ممكناً من رؤيتها فرض تبطل الصلاة بالانحراف عنها، وبعض المصلين في المسجد الحرام قد يفتلون فيكون موقفهم إلى غير سمت الكعبة مما يترتب عليه بطلان صلاتهم. وأما من كان بعيداً عنها لا يتمكن من تحقق الاتجاه إلى عين الكعبة فالمطلوب منه الاجتهاد وما آداه إليه لجهده بكنهه في تحقق الامتثال.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا بِالْصَّلَاةِ إِتْقَانًا إِنَّ اللَّهَ بِالصَّيِّئِينَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَلَا تَقُولُوا إِنَّمَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَعْمَلُ بَلْ أَخْبَاءُ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٨﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّالِينَ ﴿٢٣٩﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿٢٤٠﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٤١﴾

بيان معنى الآيات

في سبيل الله: هي الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

لنبلونكم: لنتحكمكم.

الخوف: الخوف من مباغرة أعداء الإسلام وحربهم.

الجوع: الأصل أن يطلق على الجذب، ونوع فيه يوظف على الحاجة الشديدة للأكل.

ونقص من الأموال والأنفس والثمرات: ما يصيب هذه الثلاث أو بعضها، بما تتعرض له من المصائب، فنزيل بعضها.

صلوات: ضروب من التطهير والمغفرة والتكريم.

بيان المعنى الإجمالي

لداء للمؤمنين وإيقاظ لهم بملتهم مكلفون بمسألة إصلاح في نفوسهم وإصلاح للبشرية وإصلاح لكوكب الأرض وما يحويه. ولنجاحهم في هذه المهمة عليهم أن يستعينوا بالصبر وعدم العجلة وأن يعملوا على تقوية أنفسهم وتركيبها بالمحافظات على الصلاة. وذلك أن الله معين للصائرين. إن الإيمان لا يمنع من جريان سنن الكون على جميع البشر. فيختبرهم ربهم في صفتهم بما يلقونه في مسيرتهم من مصائب كالخوف من غير الأعداء ومكرهم، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات، بالحروب والفتوح ونحو ذلك. ويأمر الله نبيه أن يشر الصائرين الصبر الإيجابي، الذي يكون من آثاره أن يستشعر المصائب بأنه مملوك لله، وأنه يعود إلى

خالقه في المراء والضراء. إن الصابرين الذين يستشعرون هذه المعاني ويصبرون بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، تنصب عليهم من خزائن الفضل الإلهي تركيبة لنفوسهم وجبر لكبرهم، ورحمة تمنح جراحهم. وهم بذلك يستحقون شرف وصفهم من ربهم بأنهم الذين فازوا بقلدية لطريق الحق.

بيان للمعنى العام:

153- يا أيها الذين آمنوا استعينوا مع الصابرين.

ينادي القرآن المؤمنين نداه بوقفهم وبحرك عضولهم ليكونوا دقما مستشعرين مهمتهم في هذا الكون، إنها مهمة شرفهم الله بها، إنها مهمة الصلاح والطاعة لله وتكدي أولمراء. وهي مسيرة طويلة يلتقي صاحبها الصعاب والمعوقات. والإنسان ضعيف فيرشد الله المؤمنين أن عليهم أن يملأوا مد القوة بأمرين:

أولا: الصبر الإيجابي وهو غير صبر الانسلاخ والانتواء على الذات، بل هو العزيمة التي تضئف قدرات المعوقات ومضاء التبططات، فيعود المؤمن على خطته بالمرجعة ومد الثغرات التي كانت منها مدخل الضعف، وأن يصرف سنن الخلق في الفوز أو الهزيمة نصريفا يكون به فيما يستقبله أشد مضاء، أبلغ اقتدارا.

ثانيا: مع هذه الشحنة للعزيمة لتعضي في سبيلها غير والله، يقرن القرآن الصبر بتحريك القوة الروحية، بإداء الصلاة على وجهها حين يتصل المصلي بربه فيسمو على الكون كله ويجد نفسه في صلة مباشرة بخالق الكون وما يحويه، فيتمشى في قواه الروحية والعضلية مدد يستهل به الصعاب، ويفتح له المغالق، ويؤكد صموده وعزته. روى الإمام أحمد أنه « كل من أدا حربه (استد) أمر فزع إلى الصلاة. ويقر القرآن قاعدة من قواعد سنن الله في الخلق: أنه يؤيد الصابرين فيكون معهم مساعدا ومغويا. ويظهر اتصال الآية بما سبق من أمر القبلية بحث المؤمنين على الصبر على الحق الذي جاءهم من ربهم، ولي يوظفوا على الصلاة التي من أركانها استقبال للكمة. وأن الله مع المؤمنين سيظهر دين الإسلام وتخلق حول الكعبة دولر تحيط بكوكب الأرض في كل لحظة من لحظات الزمن.

154- ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله ولا يستعز ولا تشعرون.

ولما ذكر الصبر وما ينتظره الصابرون، ناسب أن يصرح القول بالمنزلة العليا من الصبر وهي صبر الجهاد، فمن يصبر على لمضي في الدب عن عزة الإسلام حتى يستشهد ويصبر على القتال حتى يظفر بإحدى الحصنتين فيلقى ربه ودماءه تشهد بصدقه لتكون كلمة الله هي العليا، إن هؤلاء الشهداء يثبت لقرآن خطأ من يظن أنهم بمفارقة الروح والجسد والقبضة من الطين قد ملأوا، بل هم يغمورون بحياء

روحية لا نستطيع نحن إدراك تعيمها. إن الشهيد قد سما عند ربه إلى منزلة كريمة، ومن كرمته أنه لا يضل ولا يصلي عليه، لأن الله ضمن بتركيبته له الطهارة والغفران.

155-156، وثيبتونكم إليه راجعون.

إن بعض المؤمنين يظنون أنهم بإيمانهم قد حققوا لأنفسهم وللممتلكاتهم حماية من كل الأضرار، وهذا خطأ كبير في التصور، فإن سنن الله في الخلق تجري على ما قدره لها سبحانه، فالله سبحانه يختبر صدق المؤمن ويمتحنه بما يسلط عليه من مكائده فيعرض للخوف من مباغثة الأعداء، ولتهديد بالاعتداء من الظلمة والجبرة والكفرة، وثاني سني الحجب التي تاكل كل ما تقدمها من خيرات، وقد لا يجد المؤمن ما يجيب نداء بطنه وقد خوت من الطعام، وقد تصيب الجوائح أمواله بالضياح أو للفساد أو للنقص، وكل نفس أو عزيز من الأصول والقروع معرض للموت. هذه سنن كونية تجري على البشر مؤمنهم وكافرهم على من يصير وعلى من يجزع. يمتحنون جميعاً فمن يفوز في الامتحان؟ يبشر الله الصابرين بأنهم هم الذين يفوزون في هذا الامتحان. والصابرون هم الذين إذا أصابتهم مصيبة لم تستول عليهم ففطلي إيمانهم أو عقولهم. بل يفزعون عند هول المصائب إلى ربهم فرعاً يجري في أرواحهم ثقة في الله واعتقاداً بأن ما ذهب ليس ملكاً لهم، بل إنهم وما يملكون الكل ملك لله، وأنه لا اعتراض على المالك عندما يقضي باستعادة ملكه متى أراد، فهو الله العزيز الحكيم، ما ظلم فيما فعله، ورحمته تبقى. هي الباب الفسيح الذي يفتح منه الرزاق إلى القلوب المكشوفة. إن هذا التذكر ثم للتصريح به (إنا لله وإنا إليه راجعون) يحبه ما وعد الله به أن الله يرحمهم ويذكهم ويجعل لهم من كربهم فرجاً ومخرجاً. ويفوزون بأنهم من القوم المهتدين للطريق المستقيم.

• **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِ اللَّهِ تَمَرٌ حَيْثُ النَّبِيُّ أَوْ عَتَمَرٌ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَرَهُمَا** وَمَنْ يَطَّوَرَهُمَا حَقًّا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٥﴾ **إِنَّ الَّذِينَ يَتَخُمَّوْنَ مَا أَتَوْا مِنَ النَّبِيِّ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ النَّذِيرِ ﴿٢٥٦﴾** **إِنَّ الَّذِينَ نَاقَبُوا بِهِنَّ نَاقَبُوا فِي الْكَيْدِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ النَّبِيُّونَ ﴿٢٥٧﴾** **إِنَّ الَّذِينَ نَاقَبُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلِيكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٥٨﴾** **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَنَاقَبُوا وَهُمْ كَفَّارُ أُولَئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ**

وَالْمَلَكُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ﴿٢٠٠﴾ خَلْقَيْنِ فِيمَا لَا تَحْقُقُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ

يُنْظَرُونَ ﴿٢٠١﴾

بيان معنى الألفاظ

الصفا: ربوة يبدأ منها الساعي أشواط السعي.

المروءة: ربوة ينتهي إليها الساعي في كل شوط.

شعائر الله: جمع شعيرة معلم على موضع لعبادة في الحج والعمرة.

حج: الحج أصله القصد، وغلب في قصد المؤمن البيت الحرام للقيام بالتمليك.

اعتمر: زل، وغلب في قصد البيت الحرام للقيام بالتمليك المخصوصة.

الجنات: الإثم.

يدلوف: يصل إلى الصفا ثم يتور فأصدا المروءة وهكذا.

تلوع: فعل طاعة، وتطلق بمعنى تبرع.

سلك عثيم: ينزل الثوب لمن صلحت نيته التي لا نخفى عليه.

يؤمنون: لا يخبرون بما ينبغي الإعلام به.

النبيات: ما أنزله الله من التشريع لوضح، وفصله من أمر العبيدة ومنها الإيمان بمحمد .

الكتاب: التوراة والإنجيل.

يتخهم: يبعدهم من الرحمة مع ذلأل.

اصلحوا: في أقوالهم وأفعالهم.

ينظرون: يؤخرون.

بيان المعنى الإجمالي:

شعر الأنصار بالخرج من المعنى بين الصفا والمروءة لأن الجاهلين يصيبوا على كل منهما صنما يتمسحون به، ففي الله هذا الخروج عن الساعين بينهما في الحج والعمرة، وغلبه بقاعدة عامة أن كل من تلوع بفعل الخير فلي الله يثيبه حسب قصده الذي لا يخفى عليه، وتوعد الله من يكتم ما أسر به من التعريف بأياته التي أنزلها بينة واضحة تهدي البشرية للخير. توعد بأنه حبيبه من رحمته ويثبه وبهينه. وهو بذلك يدعو للمسلمين فيتوجهون إلى الله بأن يلعمه، ويفتح الله باب الرجاء لمن ألتع عن الكتمان وقاب وأصلح ما قصده، فحشر ما يلعمه من الحق بأن الله يتوب عليه، من مظاهر الكمال الإلهي أن الله مع كثرة تجاوز البشر الحدود

ووقعهم في الخطيئة، فإنه يقبل توبة التائبين. فسمى لتوبه لذلك وهو الرحيم بعباده.

بيان المعنى العام:

158- إن الصفا والمروة شمسكرا حلیم.

في الآيات السابقة صور القرآن الهزة الكبرى التي حصلت عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وما ثبت به للمسلمين. وقد حدث أمر شبيه لذلك، فإن النبي ﷺ لما بين مناسك الحج والعمرة، التي منها تسعى بين الصفا والمروة، وجد بعض من المسلمين حرجا في القيام بهذا الركن. ذلك أنه قد نصب في الجاهلية على الصفا صنم هو إساف، ونصب على المروة صنم اسمه: نائلة، وكان الساعون يتمسكون بهما، ويعتقدون أن السعي هو إجلال لهما. فبينت هذه الآية أن الصفا والمروة من المواصل التي عينها الله ليؤمن المحرم فيما بينهما بعبادة السعي، وإذا فله لا حرج على الساعي بينهما بما تنصق بذلك في عرف الجاهلية الملحدة، إذ المؤمن يسعى بينهما باختيارهما من المواصل التي حددتها الله لأداء عبادة مخصوصة وخالصة لوحده. فهذا هو الزايط بين آيات تحويل القبلة. وهذه الآية، وإن كان وقت نزول هذه الآية قد تأخر عن وقت تحويل القبلة، فالجامع بينهما أن القرآن وطمق قلوب المؤمنين على قبول للتشريعات. ونفي للجناح معناه نفي الإثم الذي توهمه بعضهم باعتبار أن الإسلام هدم الشرك وما يتصل به، وما يحى طرئته في العبادة. فنق، أن نصب الأصنام والتمسك بها هو من الشرك المهزوم، وأن هذين المكانين قد شرع الله الطواف بهما سبعة أشواط للتوجه إليه بالعبادة، وهو من الأمور التي شرعها للتبشيرة ولا يعلم خصائصها إلا الله، والمظهر الأول في إصلاح البشر بذلك هو طاعة الله وتطبيق ما شرعه على النحو الذي شرعه. ثم أكد هذا المعنى بتقرير قاعدة عامة: أن من تطوع فقام بفعل خير، فلي الله يثيب صاحبه على حسن قصده وصلاحي فعله. إن رضا يشكر للصالحين أعمالهم بتحقيق الثوبة والجزاء عنها، ولا يخفى عنه ما يصدر عن أي لسان، لا عمله الظاهر ولا لونه الباطن وقصده.

159- إن الذين يحكمون ما أنزلنا سيولعهم اللامنون.

إن تشريع الله يجب أن يبلع ولا يكتم. كان التلويح عن الله مهمة الأنبياء والمرسلين، ثم هو مهمة العلماء، فإن الله لما فتح على بصرهم ووسر لهم تلقى العلم والتفقه فيه، فإن واجبهم أن يبلغوا ما يروى الله لهم من الهدى. والعالم بحرم عليه أن يكتم ما الناس في حاجة إلى معرفته من الحق في العقيدة ووحى الله. وكذلك ما وصل إليه

من التشريع الإلهي سواء لكان مستندا إلى دليل منصوص من الكتاب أو السنة لو كان حصيلة اجتهاده، وعلى العالم أن ينظر في مآلات اجتهاده وما يترتب عليها من صلاح أو فساد، وكتمان ما يفضي إلى مفسدة واجب، كما هو حال بعض الظلمة الذين يصرفون النص بما يهدم الإسلام أو يظلم العباد، فقد كان بعض الحكام يُعد لتحويل مسلمي بلده عن صوم شهر رمضان، فظن ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه خاطب الجيوش التي كانت معه قاصدة فتح مكة في رمضان وقال لهم: أفعلوا لتقوا على عدوكم، فأتخذ حجة لصرف المسلمين عن الصوم، وأمس جهاد الناس في الحياة لتحصيل أرزاقهم على جهاد الحرب وقطع مفاوز الصحراء. وكما بلغ الحسن البصري أن للحجاج طلب من لس بن ملك أن يحتجته بأشد عقوبة عاقب بها للنبي ﷺ محنته بحديث المرزبيين، فقال الحسن: ودعت له لم يحتجته، لما عرف به للحجاج من الإمراع إلى سبك الدماء، والمسلم إذا انفرد بمعرفة تشريع فالواجب عليه عيبا أن يبين ما يعلمه لطلابه، وإن تعدد العلماء بذلك فهو واجب عليهم وجوبا كفاييا، من قام به أجر، ولو لم يقم أحد منهم لمسا جميعا، وأشنع أنواع الكتمان ما فعله أحبار يهود وعلماء النصارى من كتمان ما سطر في كتبهم من أن عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن يصروه، وجزاء الكتمان مبرح به في الآية: هو أن الله يطردهم من رحمته، ويخزيهم، ويظهر ظلمهم وهوانهم. كما يلعنهم الناس لأنهم ظلموهم بكتماهم ما يطمون، فعلموا بكتماهم ذلك على بقائهم في الصلاة.

160- إلا الذين تابوا أوفاء لوعدهم

وشأن القرآن أن يعرف يوما بسعة الرحمة الإلهية، وأن الله يحب من آمنين أن يعودوا إلى الخير والهدى، وأن يفلتوا عن فسادهم، فيبشر الذين يتوبون ويظهرون ما عرفوه من الحق ومن الأدلة البينة عليه، بأنه يتوب عليهم ويظهر ما علق بهم من فاقة الكتمان فالذين تاب الله عليهم وقيل توبتهم لا يحصون عدا وهو أرحم الراحمين لا تضيق رحمته بكثرة التائبين ولا بجيوش المستغيبين.

161-162: إن الذين كفروا ماتوا وهم كافرون

وكما استحق الفسقة من كتم العلم من أهل الكتاب وضلال اتباعه من أهل ديناته، فكذلك صرح القرآن بلمنة الكافرين المشركين الذين أشركوا بالله وما أتوا على كفرهم، وبما أن الشرك أعظم أنواع الظلم، وأخسر ما يمكن أن ينحدر إليه الإنسان عرفنا الله بأن اللعنة تحل عليهم من الله يثب ومن الملائكة ومن الناس الذين

بيان المعنى الإجمالي:

حطاب للمؤمنين بجد ما يجب أن تكون عليه العقيدة الصحيحة، فيقرر أن الله واحد لا مثل له ولا شبيه ولا مشارك، وأنه واحد لا يتصور مركبا من أجزاء، وكل من نسبت إليه الألوهية، غير الله، هو إله زائف يظلم ليس له من الألوهية أي معنى ولا صلة له بها بأي سبب. هو الرحمن بعينه العظيمة لرحمة تقوم الدلائل على تفرده بالخلق من كتاب الكون: في النظم والإبداع الذي قام عليه خلق السماوات والأرض. وفي التكامل والتواصل بينها. وفيما يشاهد كل يوم من تعاقب الليل والنهار، بخلف هذا ذلك، ويخلف ذلك هذا، في نظام مضبوط بحساب هو أرق حساب. وفيما أدى له الإنسان من تدخير البحر للتواصل بين الأقطار بواسطة السفن التي تحمل ما يبيع للناس، وبها يتم التبادل التجاري. وفي الأمطار التي تنزل من السماء فتضئ مياهها الحياة في الأرض الفاحشة الميتة فتحيي، وتخرج من صنوف الخيرات للناس والحيوان غذاء ومناخا. وفي حركات الرياح في اتجاهات مختلفة، الرياح التي تصفي الجو وتلتج زهور الثمر، ويرتبط بحركتها تلك، نتائج جد مفيدة للحياة. وفي المحيط للخاصة للتدوير في وضعه في الجو، بين السماء والأرض، ومسيره ونزول المياه منه. كل هذه الصفحات من كتاب الكون تهديك إلى أنه لو لم يكن الله وحدا لما عرفت على هذا النظام المحكم الذي تجري قوانينه على طريقة واحدة يكشف العقل البشري عن بعضها كلما تقدم في ميادين سير الحياة والتمتع في نواحيها. ومع هذه الأدلة الماطعة فإن بعض الناس تعصى بحسانهم عنها ويرفعون بهواهم الهمة يحرمهم ويفسدهم، كما يحب المؤمنون ربهم، في الظاهر، وإن كان حب للمؤمنين لله المستند للأدلة البهيمية والمبنى على النظر العقلي لا يدلني حب الكافرين لأربابهم الذين تخذوهم إلهة من دون الله.

ويعرض للفراس مشهد هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك، الظالمين نعم عبودهم، الظالمين لمن أنى بعدهم ظلمهم، كأنك يا محمد تراه رأي العين يوم القيامة وكذلك كل من يصح منه الرؤية، ما ذا ترى؟ تراهم حين يرون حول العذاب الذي يحيط بهم وينحسرون إليه دفعا، وقد قدسوا النصير والمعين، وبرزت قوة الله القوة الكاملة التي لا يشركه أحد فيها، حين تذوب صلات القربى والاتصال، حين يتفرا للمعبود من دور الله من عبودهم وحين تفر الأصنام ممن عبدها، يوم يجد المشرك نفسه وحيدا ذهبت القوى التي كان يَحْتَمِلُ إليه لها تتصره وتؤيده، وتزقت كل الصلات بينهم، في ذلك اليوم تنقر قلوب المشركين من الصورة ويقولون: يا ليت لنا أن نعود إلى الحياة الدنيا، نعلن لهؤلاء الأرباب لنا كنا مخطئين في

تعذيبهم ، وأهلهم ليسوا أهلاً للعبدية ولا صلة لنا بهم، هي حشرة تفرز إلى عذابهم الجسدي عذابهم النفسي، ولا ينفذهم إعلان توبيخهم ونقصاتهم عن الهتهم، فهم مقيمون في العذاب إقامة بغمة لا تنقطع.

بيان المعنى العام:

163: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

تعلن هذه الآية العقيدة الإسلامية ونسحة وضوحاً تليها، وسوف يتكرر في القرآن التأكيد على هذا الأساس الذي يقوم عليه بنام الدين الإسلامي كله، هذه الحقيقة هي اعتقاد أن الله واحد، هو واحد في ذاته وفي صفاته، فلا يشاركه أحد في ذاته ولا في صفاته، هو واحد ليس مركباً من أجزاء، هو واحد في الخلق فلا خالق غير الله هو واحد في ملكه للكون وما يحويه فلا يملك أحد معه شيئاً، هو واحد في تشريعه فلا تشريع إلا لله، ومن عظمته وكماله أنه المتصف بالرحمة الكاملة التي وسعت كل شيء، كما سبق بيليه في سورة الفاتحة.

164: إِن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وِمَعْقُولٍ.

ثم يهدي القرآن إلى ما يزيد هذه العقيدة تمكناً في العقول والقلوب، فيدعو إلى النظر في كتاب الكون، هذا الكون الفسيح الذي تتكرر علينا مشاهدته، التكرار الذي قد يجعلنا لا نأمل الحكمة فيه، وقد تعطلت هذه التركة ، ولتوالى على مداركنا، فتحجبنا عن النظر لأمرنا القوي التي تحكمه، بهز القرآن عقولنا هذا يحرك الانتباه لما هو أمام أنظارنا، فيعرض علينا في هذه الآية مشاهد من هذا الكون العجيب، ويكرر لفت أنظارنا فيما سيأتي من آيات القرآن، للتسلع ما جاء في هذه الآيات: إن السماء التي نعلو أي موقع نسير فيه، نراها بأبصارنا في كل لحظة نرفع فيها رؤوسنا، والسموات الأخرى (المجرات) التي وصل الحقل بمقايعة الفوولين للمحكمة إلى وجودها ، والتي نضعف حواسنا عن رؤيتها، وإن الأرض التي أمسكنا الله فيها، نسير في أرجائها ونفتن من هنا، ونتمسك مما تخرجه، والتي تتحرك بسرعة مضبوطة بيقظة لا تريد ولا تنقص عما قدر لها، التأمل في ذلك كله يثير أسئلة: من خلقهما من أي شيء ؟ ثم ذلك ؟ ما هي الفوولين المودعة في هذا الخلق الذي كشف العلم قديماً وحديثاً أنه لا أثر في ذلك للصدفه العمياء ؟ ما يجري في السماء المحيطة بنا وفي السموات الأخرى ؟ ما تحملته هذه الأرض في بطونها، وما هي أسرار قبلتها وزلازلها، وبابها وبحارها، وما هي العلاقة بين السماء والأرض، ولتر هذه العلاقة على حياة الإنسان والحيوان والنبات ؟ وما يقرب علينا الليل والنهار، يأتي الليل فيظلم ظلاماً مطبقاً أجزاء من الأرض، ويعقبه النهار بخلفه ويضيء ما

كان مظلماً، وفي كل من الليل والنهار حكمة تستمر بها الحياة، وكل ذلك بصيوان لا يختلف، تصرح القلوب بوقت طلوع الشمس ووقت مغيبها، وبعدد ساعات ودقائق وثون، كل ليلة وكل نهار من العام، السفن تجري على سطح الماء وتمخر البحار والمحيطات، محملة بما ينفع الناس من غذاء ومعائن ومصنوعات، هدى الله الإنسان لصنعها، ثم أعنه على تطويرها بمراعاة القوانين المضبوطة من الخلق العليم الحكيم. فما هي هذه القوانين؟ التفاعل الذي يحدث بين الأرض اليابسة والبحار المتلاطمة، وحرارة الشمس، والرياح المختلفة الاتجاهات والقوة، فتشأ السحب المحملة بالرطوبة التي تتجمع وتنزل مياهها عذبة من السماء، فتستجيب الأرض للفاضة بما ينزل عليها من رحمة، وتحول من مساحات جرداء أو ذليلة إلى خضرة ونبهة، وتنمى في عروق الأشجار والنبات فإذا هي للغذاء والزهور وصلاح الهواء. وكما تجري الحياة في الشجر والنبات، فكذلك تجري الحياة في الحيوانات المختلفة التي تعب على وجه البسيطة، فتولد وتتمو، إن هذا الارتباط العجيب بين هذه الظواهر يثيرنا للفران ويوقظنا حتى لا نمر عليه عافلين.

ظاهرة الرياح، الهواء المحيط بالأرض، في حركته المختلفة بين القوة والضعف وبين مختلف الاتجاهات، يجب أن نتعمق في هذه الظاهرة، لنعرف العوامل التي تؤثر في هذا الهواء لطيف الذي لا يكاد الإنسان يحس به، كيف يتحرك حركته المختلفة في انفاعها واتجاهاتها، وما ينشأ عن ذلك في الأرض والحياة بصفة عامة؟

ظاهرة السحب التي لم ترتفع في طبقات الجو ارتفاعاً يعطل نزول الغيث منها، ولم تنخفض فتلامس سطح الأرض مما نصعب معه حياة الناس، وسخرت معلقة في مسارها بين السماء والأرض بمقدار يتحقق معه توفر القوانين لتحولها إلى مطر. وإنما تمر على لراض عطش فلا تنزل منها قطرة، وتفيض من خيراتها على مناطق أخرى فتحببها؟

في هذه الظواهر مجتمعة، ومنفردة، ما ينلدي بلسان حاله، لأصحاب القبول الراجحة التي تتجاوز الظواهر إلى الحقائق، أنه لا يقل أن تكون نتيجة الصدفة العمياء. فيؤكد بالنظر فيها أنه لا يمكن أن يتصور حصولها ولا استمرارها على هذا النحو من الدقة والضبط إلا بتقدير وترتيب من العلم المحيط علمه بكل دقيقة وكبيرة وصغيرة. فهي دليل شاهد على وجود الله، كما تقوم أيضاً شاهداً على وحدانية خالقها، إذ لو تعددت الآلهة ما فرد كل إله بخلق واحدة منها، لما تحقق الأجسام فيما بينها في البناء العجيب للكون، فلتظلمها فيم بينها دليل قاطع على

أن خلقها واحد أعطى بحكمته القوانين لكل واحدة منها، ثم التماسق فيما بينهما بما حصل منه للتكامل والنظام والاستمرار. منح الله كل إنسان عقلا يفكر به، كلما حركه للتأمل اكتشفت له جوانب هامة قد يكون خفاؤها بسيطا وقد يكون عميقا، ولكنها جميعها قابلة للاكتشاف والتبين، وكلها تتلبد بأن الله هو الذي خلفها. ومع ذلك فإن بعض الناس يفضضون بصائرهم ويقمعون ومضات عقولهم فحبسوها عن التفكير، ويتبعون تبعال ذلك في مناهات تصد فطرتهم فضضل عقولهم وتتحرف عولطهم، فيتخذون من الوهم ما يرفع بعض المخلوقات من الأصنام إلى مرتبة العبادة فيخضعون لها، ويتحرون فعل ما يرضيها، ويحبونها كما يحب المؤمنون ربهم، فيتعبون لها ويعطون لولاء لها، ولكنه حب قاصر ومهتز إذا ما قورن بحب المؤمنين لله فحيهم لذاته العلية حب متواصل يطلو على كل ما يعسر قلوبهم من مشاعر. وإنك لتجد المؤمن يسذل في سبيل مرضاته تعالى كل عزيز حتى نفسه التي بين جنبيه.

165 ومن الناس من يتخذ أشربة المذاب

عجيب هو أمر فريق من الناس تقوم لفئة التوحيد أمام أبصارهم وبصائرهم تتأديهم إلى الإيمان، ولكنهم يعرضون عما تقتضيه ويتصرفون فيشذون من خيالاتهم ألهة مساوية لله في ألوهيته، ثم يتضمخ خيالهم فيعتقدون بألوهاتهم ويخلصون لها كل شيء حقيقي ويحبونها كما يحب المؤمنون الله رب العالمين، واحترس القرآن من هذا التشبيه ليحدد أن حبهام هذا لا يرقى لحب المؤمنين لله. فالمؤمن مع ربه في المراء والصراء لا يفصل عنه استجاب لدعائه عاجلا أو لأجل الاستجابة تبعاً لعلمه وفضله، بينما هؤلاء المشركون يقطعون صلتهم بأنهم إذا اكتشفوا عجزها. ولا كشفت الآية عن مخالفتهم باختلافهم ألهة من دون الله فأنها واصلت تهديدهم بما سيلقونه يوم القيامة. فقال تعالى: ولو شئى... يعززون يوم القيامة فإنك لو ترى الذين ظلموا يأسرهم وهم يزعمون على لئذ ما يكون من الخوف والياس لو تراهم وهم يائسون نادمون على ما حصل منهم حين يرون أبصارهم أن القوة العظيمة تفرد بها الله وإن ألهم لا تغني عنهم شيئا، وإن مظاهر العذاب التي يوقنون لي الله أهدأ لهم. أنها على درجة من القوة وقسوة فوق متصوراتهم.

166-167: لا تبرا الذين اتبعوا وما هم بخارجين من النار

استحضر القرآن مشهد هؤلاء الذين اتفقوا من دون الله لئلا يخلصوا لهم، ظفقت نظر كل من يمكن منه الرؤية إلى الصورة التي يكونون عليها يوم القيامة كأنهم

يشاهدونها اليوم، وأي صورة! صورة الظالمين بعبادة الأنداد الذين ظلموا معبوديهم الصالحين كما عبد عيسى عليه السلام وعبد بعض الصالحين يتخيل أنهم آلهة بعد موتهم، ونصب أصنام مثله لهم. كما ظلموا من تتبع أهواءهم وخيالاتهم من الدهماء فأصلوهم، صورة ضعفهم وتخطيهم وقد تحقوا مصيرهم، ورأوا رأي العين ما هم قائمون عليه من العذاب، فخلت عزائمهم وتبدد ما كانوا يعتزون به، وأن ما ترهسه قوة تهاوى، ولما القوة المؤثرة قد تعرد بها الله تعالى جميعها، وليس لأحد من تلك الأنداد ما يغني عني في قليل ولا كثير. هي صورة يذهب فيها التصور كل مذهب من مظاهر للذل والهزيمة والخسوف. وتتواصل الصورة ببرزة حالة أخرى لصيقة بالحالة الأولى: أن الرزق لا يأتي كلث تجمع العينين والمعبودين قد انهارت وتبددت كما ينقطع الحبل الذي شد به المرتقى نفسه ليحميه من السقوط، فينقطع قطعاً صغيراً، ويهوي المعتمد عليه ليهطم. عندما يتبرا للمعبودون من الذين عدوهم، ويكروهم، وينوب ما كان بينهم من صلات، وترفع في هذا المشهد أصوات المخذولين من الأتباع الذين كانوا يلجئون بمعبودهم خاضعين، ترتفع أصواتهم معللين لمذنبهم: أن يعودوا إلى الحياة ليواجهوا الذين كانوا يعبدونهم، بأنهم لا قيمة لهم ولا يستحقون أن يخضعوا لهم ولا أن يكون بينهم وبينهم أي صلة، على هذا النحو من الحية والأنم النفس والعذاب، يظهر الله تعالى بكمال قدرته وعذله، أعمالهم لهم، أحزاناً تصحبها هزيمة على ما فات، وينتهي المشهد بأن النار محيطه بهم من كل جانب، ملبقة عليهم، لا يجدون منفذا للخروج منها.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ فِي الْأَرْضِ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَفِي جُودِهَا عَلَمٌ لَكُمْ عَذَابُ مُبِينٍ ﴿٢٠٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَوْفَى إِلَهُكُمْ قَالُوا بَلْ سَمِعْنَا الْقَلِيلَ مِنْ قَبْلِهِ قَالُوا سَمِعْنَا قُلُوبُنَا وَلَكِنْ لَمْ نَحْمَدُكَ بِالْغَيْرِ وَنَحْمَدُكَ الْيَوْمَ وَنُحْمَدُكَ الْيَوْمَ ﴿٢٠١﴾ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ فَقَدْ خَالَفَ مَا خَلَقَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَفِي جُودِهَا عَلَمٌ لَكُمْ عَذَابُ مُبِينٍ ﴿٢٠٢﴾

بيان معنى الأنداد

الطلب: ما يستلذه الإنسان.

خطوات: جمع خطوة وهي المسافة التي بين قدمي الماشي، وهي هنا بمعنى الممالك التي يدور إليها الشيطان ويقرها في نفوس أتباعه.

مبين: مظهر العداوة.

للتعيق. الصباح والغتم لوجرها.

بيان المعنى الإجمالي:

الآيات التي سبقت هذه الآيات افقت الأنظار إلى بدیع فصيح الإلهي وما قدره فالحكمة وما أجرى في هذا الكون من منافع للبشرية، وعرفت المشركين كاشفة عن غباء من اتخذ من دون الله أربابا لخلصوا لهم، وهدتهم بما سينتهي إليه أمرهم. ثم أشار في هذه الآيات إلى تحذيرات نافع من إغرائهم عن عبادة الله، ذلك أنهم توهموا تحريم بعض الأشياء بدون مبرر. فتدافع خلقا موقظا لهم فاتحا لهم مظاهر كرمه وفصله، ناهيا أن يكون ما يبيع الناس محروبا عليهم، فقال تعالى بما يفيد الإذن والعتب على من تجاوز: كلوا مما هو موجود على هذه الأرض بما أحلته لكم، وكل حلال هو طيب. ولقطعه إلى أن الشيطان يهدى لكم طريق الضلال بوسوسته. فلا تتبعوا ما يزينه بمكره الخفي في نفوسكم إن الشيطان عدو لكم ظاهر للعداوة. تأملوا فيما يزينه لكم فلا تجدون فيما يوسوس به وإياكم بفعله إلا ما يضر وما هو فيج. ثم يبرز القول، على طريقته، متبع الانحراف في التفكير للكافرين وعقيدتهم، مملوكة، هذه الآفة هي للتقليد الأعمى المقترن بالانصب، وإغلاق المناقذ على العقل والتفكير. حجنتهم لهم يتبعون ما كفى عليه أبائهم، والمحب لهم يتبعونهم، وإن كفى هؤلاء الأباء لا حظ لهم من التفكير ولا عقل لهم. ومن فقد العقل فقد أهلىة. ثم ضرب القرآن مثلا بحسب حاجتهم ليقرب تصورهما تقريبا عاما، ففرق بين صورة الكافرين، وإيات الله تكلى عليهم، ومسلو الله % يبين لهم الحق، ومشاهد الكون تلفت الأنظار وتؤكد صدق الإسلام، وهم لا يلتقون لذلك بالآ ولا ينتقمون، قرن صورته تلك بصورة راعي القطيع الذي يدعو قطيعه لما للشرب أو الأكل أو الاجتماع، بأصوات لا يدرك الخنم منها إلا أصواتا، لا يتكلمون من حقيقتها ولا مثلها إلا كونها أصواتا. ولما كانت الدلائل التي عرضت في القرآن وكتاب الكون. لما كانت من قوة الوضوح باستنادها إلى الفطرة، ومن الصدق باستنادها إلى شاهد البصيرة والعقل، فالذي حرم الكافرين من الانتفاع بها، هو ما اختاروه لأنفسهم يسكنونهم عن الحق مكروا الأبكم، وبما أصموا أذنيهم حتى لا ينفذ صوت الحق إلى أسماعهم، وبأغصان أعينهم فلا تنتقل مشاهد الكون إلى قلوبهم، هم صم بكم عي. والعقل المكتسب يمو ويكتسب فعاليتيه مما يرد عليه من الحواس. ولذا فإن فاقد الحواس لا يكون له العقل المكتسب، فهم لا يعقلون.

بيان المعنى العام:

168-169، يا أيها الناس كلوا مما لا تعلمون.

في الآيات السابقة تم عرض بعض المظاهر الذلّة على تفرد الله بالوجود الواجب وتفرده بالخلق والتقلّيد بما يلفت الأنظار إلى إنراك الأسرار وراء ذلك ليتهدي الناظر، إلى الإيمان اليقيني عن تحجّر واحتجاج. وسجل أن بعض الناس لم ينتفعوا بذلك ومضوا على كفرهم تقليداً لأبائهم وطعنا لوجه الفكر أن يتفدّ أنواره لإنراك الأسرار وما وراءها، ختم على أنظارهم التقليد لمن كان قبلهم، ترسب من فساد عقيدتهم أن تصموا ما في الكون الذي يملكه رب العالمين إلى حلال وحرام، فحرموا على أنفسهم بعض ما منحه الله لعباده بناء على أوامره، فبإلزامهم لقرآن عارضاً عليهم فضل الله على البشرية، أن الله أحلّ لخلقهم ما أودعه في هذه الأرض، وفي كائنات الآية نصت على الأكل، على ذلك بالنظر إلى أن الغذاء هو أول ما يعنى به الإنسان في حياته ولذلك خصص بالتفصيل عليه، فبينت الآية أن الله خلق ما في هذه الأرض ليتنفع به الإنسان مما كان حلالاً مستطاعه لنفسه المزملة على طهرتها، وحذر البشرية من الشيطان الذي يعمل بوسوسته فيبيع المولطف ويزين لها الفساد، والعبث بالثوابت فيخلخل نظام التفكير البشري، فيبيع ذلك القوضى في تقبّل الذين يتأثرون بوسوسته وتضليلاته فيحرّمون ما أن الله فيه، ويحرمون على ما هو شرّ للإنسان في حرامه وعقوبته، وذلك لأنّه انتصب في الحياة الدنيا عدواً للإنسان، نجاحه في إغوائه حكى فيغير ما أمر الله به ونهى عنه، ويخيل لمن يغويه أنه بذلك على طريق الهدى، حتى يخسر دنياه وآخره.

170 وإذا قيل لهم اتبعوا ما يقولون شيئا ولا يهتمون.

ينور سؤال: ما الذي يزيغ بالإنسان حتى يتبع طريق الشيطان وينم عن الحق الذي جاء واضحا بينا على لسان محمد ﷺ جرثومة الفساد الأولى هي التقليد الأعمى، فانه اعطى للإنسان العقل ليفكر به وهذا العقل متى اعتمد واتبع ما يقتضيه به هو نور وصمام آمن، ولكن الضياع والهلاك عندما يعطل الإنسان العقل ويقعده ويبعده عن التفكير وتقدير الحق، ويحكم العادات وما ورثه عن الآباء ويتعصب لذلك. يعينه التعصب لما كان عليه أبلاؤه ولو كانت عقولهم مسخفة ضعيفة وبالتالي هم عاجزون عن تبين الحق وطريق الهدى إليه.

171 ومثل الذين كفروا كمثل الذي لا يقلون.

يجمع القرآن سورة الكافرين الذين رسم مظاهر عنادهم وغياثهم وتعصبهم فيمثل موقفهم من دعوة الرسول ﷺ بالزاعى الذي يدعو غمّه للأكل أو لشرب أو بتأديها لتجنب الشاردة إلى القطيع، لا يدرك القطيع من الزاعى إلا لصوتا تحرك سمعه لا

يفهم تلقائى معانيها ولا مضامينها، إن القصور ليس من ناحية الداعي الرسول ولا في آيات كتاب الكون، ولكن الخلل جاء من أن الكافرين أخرموا أنفسهم عن النطق بالحق، وأصموا أذانهم عما أنزله الله من آيات بينات، وأغصوا أبصارهم عن النظر في كتاب تكون البينع وما تنطبق به مواضع خلق المحكم من دلائل الألوهية والوحدانية، فغطوا عقولهم باعتبار أن العقل ينمو بالرصيد الذي يستقبله من الحواس، فغطوا الحواس تطويل للعقل.

بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٣١﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنكَرَ وَالْمَعْصِيَةَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْيُنُ النَّاسِ وَمَا لَهُمْ فِي الْغَيْبِ شَيْءٌ فَمَن أَشْطَرُ مِمَّنْ بَاغَ وَلَا عَادِيَ فَلَا أَلَمَ عَلَيْهِ إِنَّا أَنَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

المعينة: ما ذهبت حياته من غير تكسية.

أهل لغز الله: ما ذكر عليه عند الذبح غير اسم الله.

غير باغ ولا عادي: غير مجاوز الحد ولا متعد.

بيان المعنى الإجمالى:

دعا الله المؤمنين ببرزأ منته عليهم بإنه لهم أن يأكلوا الطيبات لئلا أحلها لهم، ولأن يعرفوا ذلك بالتوجه بالشكر لله على ما أنعم عليهم، لشكر الذي هو مقتضى الإيمان. ولما كان الحلال هو الكثير فصر البيان على المحرمات القليلة وهي: ما مات من الحيوانات بغير تكسية، ولحم، وكل أجزاء الخنزير، وما نكر عليه عند الذبح غير اسم الله، ثم إن منهج الشريعة الإسلامية هي التكليف لئلا يرتفع الحرج عند الضرورة. فالجائع الذي يخشى على نفسه الموت يرتفع عنه إثم تناول هذه المحرمات لينقي على حياته، فالأخذ بهذه الرخصة لا إثم عليه إذا كان يتأمله للمحرم بمقدار الضرورة مستشعرا فضل الله عليه، وذلك لأن الله غفور للسيئات رحيم بعباده.

بيان المعنى العام:

172- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

ينادي القرآن المؤمنين نداه يرتب عليه فارقا آخر بين المؤمنين والكافرين، فإذا كانت الآية السابقة لما لأن فيها للكافرين بأن يأكلوا الحلال الطيب ليرتب على تلك أن لا ينساقوا فيما يزونه لهم للشيطان من التحليل والتحريم، فإن المؤمنين معصومون بفضل إيمانهم من هذا الاتحراف، ولذا فإن تخصيصهم بالإذن في الأكل

من خيرات الأرض. عَقَّبَ بِتَذْكِرِهِمْ أَنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ، وَلَنْ لَا يَنْفَلُوا عَنْ رِبْطِ الْقَنَمِ بِنِعْمَتِهَا. وَتِلْكَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الْوَاضِحَ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مُتَصِلًا بِرَبِّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شُؤُونِ حَيَاتِهِ، مِمَّا يَسْمُو بِالْأَعْمَالِ الْعَابِدَةِ إِلَى مَرْثَةِ الْعِبَادَةِ، وَعَلَى هَذَا فَالْمُسْلِمُ عِنْدَمَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ لِنِعْمِ الْمُنْعَمِ شَاكِرًا يَصِيرُ أَكْلُهُ عِبَادَةً مُأْجُورًا عَلَيْهِ.

173- إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ-إِنَّ اللَّهَ مُخَوِّرٌ رَحِيمٌ.

وَلَمَّا أَمَرُوا بِأَكْلِ الْحَلَالِ لَقَدْ فَتَنَى الْقَنَمَ بَيْنَ مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي لَهَا اللَّهُ ٢ وَلَمَّا كَانَ الْحَلَالُ هُوَ الْأَصْلُ وَأَنَّهُ مُنْتَشِرٌ فِي الطَّيَبَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَلَمَّا كَانَ الْحَرَامُ مَفْصُورًا عَلَى مَا عَثَرَهُ فَشَارَعَ الْحَكِيمُ حَبِيبًا، وَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لِلْحَلَالِ، عِنْدَ سَبْحَانِهِ لِلْمَحْرُمَاتِ لِيَفْهَمُ أَنْ مَا سِوَاهَا مُلْتَوَّنٌ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِهِ. وَلَوْلَ أَنْوَاعِ الْإِنْتِفَاعِ هُوَ الْأَكْلُ. فَعِنْدَ هَذِهِ لِلْمَحْرُمَاتِ الَّتِي هِيَ:

أ- الْمَيْتَةُ: وَهِيَ كُلُّ حَيَوَانٍ مَاتَ مِنْ دُونِ تَذْكِيَةٍ. وَالتَّذْكِيَةُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْحَيَوَانَاتِ، فَالْحَيَوَانَاتُ قَدِيرَةُ الْأَهْلِيَّةِ كَالْبُغَرِ وَالْغَنَمِ وَالْإِبِلِ وَالطَّيُورِ لِلدَّاجِلَةِ فَكَذَلِكَ بِالنَّحْلِ أَوْ الْعَفْرِ لِلْإِبِلِ، مَعَ تَسْمِيَةِ اللَّهِ، وَمَا لَا يَنْفَعُ فِي قَبْضَةِ الْإِنْسَانِ كَالْخِزَالِ وَالطَّيُورِ فَكَذَلِكَ بِرَبِّهَا بِمَا تَقَلُّ بِهِ مَعَ التَّسْمِيَةِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي لَا تَمْلِكُ لَهَا كَالْحَيَوَانَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ بِمَا يَزُفُّ حَيَاتَهَا مَعَ التَّسْمِيَةِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي طَرِيقَةِ تَذْكِيَةِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ لِجَلِّهَا. وَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَّقِيَ فِي ذِكْرِهَا وَيَرْاجِعَ الْعَالَمَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِيَعْلَمَ عَلَى حَالٍ مَا يَأْكُلُهُ.

ب- الدَّمُ: قَنَمُ الْخَارِجِ مِنَ الْحَيَوَانِ عِنْدَ نَجَسِهِ نَجَسٌ وَعَلَى الْمُؤْمَرِ أَنْ يَفْضَلَ مَكْنَنَ الدَّمِ بِمَا يَزِيلُ أَثَرَهُ الدَّمِ. وَكَذَلِكَ نَمُ الْجَوَارِحِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، بِمِثْلِهَا شَأْنُ الْمَجْرُوحِ أَوْ حَيَوَانًا.

ج- لَحْمُ الْخَنَزِيرِ: الْخَنَزِيرُ بِحَرَمِ أَكْلِ أَيِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَالِهِ، لَا فَرْقَ بَيْنَ اللَّحْمِ وَالْفُجْجِ وَالْحَلْدِ وَالْغَضَارِيفِ وَالْعِظَامِ، وَغَيْرِ الْقُرْآنِ بِاللَّحْمِ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَيَوَانِ لَا لِقَصْرِ التَّحْرِيمِ عَلَيْهِ.

د- مَا أَهْلُ لُغَةِ اللَّهِ بِهِ: هُوَ كُلُّ مَا ذَكَرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ، يَسْتَوِي فِي تِلْكَ مَا كَانَ يَدِيحُهُ الْجَاهِلُونَ بِاسْمِ أَصْنَافِهِمْ، وَمَا يَنْفَعُهُ بَعْضُ الْجِيلَةِ بِاسْمِ مَنْ يَنْظُرُونَ أَنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، أَوْ هَذِهِ الْمَحْرُومَةُ تَحْضِقُ هَذَا مِنْ أَهْدَافِ تَرْبِيَةِ الْإِسْلَامِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي تَعُودُ الْبَشَرِيَّةُ لِلْخَيْرِ، وَيُثَبِّتُ بِهِمْ غَيْرَهُمْ، فَيُعَدُّهُمْ تَحْبِثَهُمْ عَنِ الْخَبَائِثِ وَالْمُسْتَفْزَاتِ، وَيُطَبِّعُ بِذَلِكَ نَفْسَهُمْ بِالْعَزَّةِ وَبِحَمِيَّتِهِمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الرَّدَائِلِ. وَلَدَا فُلَانِ الْإِنْسَانِ فِي حَالٍ لِلضَّرُورَةِ الْقَصْوَى الَّتِي يَجِدُ فِيهَا وَضْعَهُ أَنَّهُ لَا خِيَارَ لَهُ

إما أن يتغذى بالمحرم أو يموت من الجوع. فهنا يقوم علملان: عامل نفسي داخلي هو رفضه لهذه المحرمات ونفرتَه منها، وعامل جسماني، حيثه معرضة للموت بعدم الأكل. ففي هذا المقام سلمت روحه ومشاعره وضغفه الجسماني يزول بأكل المحرم، فلنزل له الشارح الحكيم في الأكل، وحدد له بأن يكون غير ظالم بأكلمه، وغير متعبد بالضرورة لنفي الجأته للأكل. وحد بالضرورة تقدر عند مالك بالتزود من الميتة إذا طر عدم وجود ما يأكله في المستقبل ففي هذه الحالة يجوز له أن يتزود حتى إذا وجد الحلال طرجه وحرم عليه أكلمه، ونقل عن الحنفية والشافعية أن الشيع من العدول وللشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ملحظ نكي فقد أوضح أن قوله تعالى: (غير باغ ولا عاك) هو تفسير لحد الضرورة أي في المضطر هو الذي يصل به حد الإحساس بالجوع إلى مستوى يحمله على ظلم غيره أو الاعتداء عليه. على معنى أن الآية، ردت لقطع كل تعل للظلم والعدوان في المجتمع. ثم إن الله طمأن قلبه وهو يهتر قطعاً عند أكلمه لما حرمه الإسلام عليه، بأن الله غفور رحيم بعباده.

إِنْ الَّذِينَ يَخْتُمُونَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا ضَلَالَةً بِأَلْفِهِمْ وَأَلْعَازِبَ بِالتَّغْيِيرِ ﴿٢١﴾ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ تَرَكُوا كِتَابَ اللَّهِ وَالْحَقَّ وَإِنَّ الَّذِينَ أَحْقَقُوا فِي الْكِتَابِ لَهُمْ شِقَاقٌ يَوْمَئِذٍ ﴿٢٣﴾

بيان معنى الألفاظ

يختُمون: يخفون،

لا يكلمهم الله: تيسر عن غضب الله عليهم.

يزكِّيهم: لا ينشئ عليهم.

شِقَاقٍ: خلاف.

بعده: كبير.

بيان المعنى الإجمالي

يتوعد القرآن الذين يخفون أحكامها وأيات ما أنزله الله في كتبه، ويفعلون ذلك مقابل ما يأخذونه من الرشا التي لا تساوي شيئاً له قيمته في مقابل ما أحصوه، يتوعدهم بأن ما فيضوه سيكون ناراً هتاك لحسابهم، وأنه سيطل غصيه عليهم يوم القيامة

يهملهم ولا يكلهم بولاه ميعذبهم عذابا كبيرا. إن هذا الجزاء هو جزاء عدل، لأنهم بكتماهم ما أنزل الله قد أخذوا الحق والهدى الذي بإخلافه يحمل الباطل والضلال. وبإخلافه باعوا ما كتبه الله من التكريم والمغفرة للعلماء الذين ينشرون ما استحفظوا عليه من العلم، باعوه وفاته في النهاية العذاب في الآخرة وانقلابهم إلى أئمة للضلال. وختمت الآية بصورة تهكمية تعجبية من طول صبرهم على عذاب النار. إن ما عرض في الآيتين هو العدل للكمال لأن الله نزل الكتاب يحمل الحق، فالبين اختلافوا فيه، والحق لا يقبل الاختلاف، هم قد ابتعدوا عن منهج الكتاب وذهبوا في طريق يختلف عن طريق الله لاختلاف كبيراً. فحق عليهم وعيد الله.

بيان المعنى العام:

174-175، إِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ... هُمْ أَصْبَرُهُمْ عَلَى النَّارِ.

الأمانة التي حملها العلماء في جميع القديسات، والتي بها كان لهم المقام الرفيع عند الله، هي بيان ما أنزله الله وتبليغه للناس ورد تشبه التي تعرض للناس. ولذا فإن خيانة الأمين لما أوتى من عليه أمر فظيع مستكر. فإذا فسد العالم فالحق ما أنزله الله وباع الثقة والأمانة غير وبدل، مقبل ثمر من مباح الدنيا سواء أكان مالا أو جاهاً، أو استمرار المواطن الحكام أو الجماهير، فإن جرمه عظيم، هو قد لخل عند الميزان ولقلب القيم رأساً على عقب، توعده الله بأن ما استمتع به في العاجل هو في العاقبة نار تمزق لحشاءه وتقطع أوصاله، ويغضب من الله، وهو يستقوت ولا يفتك ويسأل المغفرة فيضيق تومسه ولا سمع، ويفقد مركبة العلماء الذين يحطون عند ربهم بالثناء عليهم، فالكتم المرتشي لا يتقى عليه في ذلك الموقف، وجزاء عذاب أليم معنوي وجسمي. هؤلاء الكاتمون المرتشون قد باعوا ما ورثهم الله من كتابه، وما كفوا به من شر ما عرفوه، باعوا ذلك الهدى فأخفوه، وباعوا المغفرة التي وعد الله بها العلماء، باعوا ذلك وقبضوا ثمناً زهيداً قليلاً. هذه الصفة من نتائجها أن الحق لما خفي ظهرت مكانه الضلالة، وغطي على الأكباح الحق الذي كنموه بالباطل الذي أنلهموه، فكان جزاؤهم ناراً يتقلبون في حرها، وتختتم الآية بتعبير تهكمي فيتعجب من صبرهم على عذاب النار.

176 دَلِمَكَ إِنْ أَلَيْكَ اللَّهُ تَزَلُّوا بِالْحَقِّ... اخْتَلَفُوا فِي الْمَكْتَابِ... ضَلَالٍ بَعِيدٍ.

كل ما جاء في الآيتين السابقتين هو العدل الذي لا تنسفي فيه وإنما هو الجزاء للوافق: لأن الله أنزل الكتاب مقترناً بالحق ليظهره وليجري الحياة عليه، فالكاتمون قد انحرفوا وأخذوا طريقاً مختلفاً لاختلاف كبيراً يبتعد عن الهدى كلما أوغل السائر فيه بسبب كتمان علماء الموء.

• لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجْهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآتَى السَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
وَأَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ إِذَا عَنَدُوا وَالصَّيْرِينَ فِي الْبُلْغَاءِ وَالضَّرَاءِ
وَحِينَ النَّاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

بيان معنى الألفاظ

البر: كلمة جامعة تشمل سعة الإحسان وجملة من لزاع الخير.

قيل: المكان الذي يقبلك.

الرقاب: جمع رقية ومعناها هنا الرقيق العبد.

البلاء: الفقر.

الضراء: شدة الحال على الإنسان ويقابلها الثراء.

الناس: القتال والحرب.

بيان المعنى الإجمالي

نفث الآية أن يكون الخير كله محصوراً في الاتجاه إلى جهة من الجهات إلى
المشرق أو إلى المغرب، ولكن جماع الخير في هذه المجموعة التي تبين ملهجا
متكاملا لطريق الهدى التي تشمل: الإيمان فجزم بوجود الله وبصفاته العلية -
الإيمان بأن كل إنسان سيقى جزاءه يوم القيامة - الإيمان بأن الله خلق ملائكة لا
يعصون الله ما لمهم ويفعلون ما يؤمرون - الإيمان بالنبيين الذين بعثهم الله بوجه
إصلاح البشر وهديتهم إلى طريق الحق الذي يرضاه - من تظهر قلبه من الشح
فسمح بالمال الذي يحبه، فمال منه نوا قرينه، واليتامى، والفقر، والبعيد عن
بلده ومركز موته، والمحتاجون الذين يسألون العون، والأرغاء ليتحرروا من أسر
العبودية - من أقام الصلاة ركن الدين العملى الأول، وأدى زكاة أمواله طائعا
بها، وأوفى بعهده إيفاء يامنه به من عاهده ويستثيقه، ومن نزع من قلبه الخوف
فثبت عند نزول الضر به ولم يظهر التشكي من الأكم الذي يصيبه، ولم يجين عند
الحرب، انظر إلى هؤلاء في صفوفهم بما جمعوه، فهم الصادقون، قد تتوجوا بصفة
التقوى الكاملة.

بيان المعنى العام:

177- ليس البر أن تولوا وجوهكم... هم المتقون.

كان للتحول عن التوجه من بيت المقدس إلى المسجد الحرام (الكعبة المشرفة) بعد أكثر من سنة قد اتخذ منه المنصفون مغزاً للتشكيك في صدق الرسول ﷺ ، كما بيناه في الآيات السابقة من هذه السورة . وما أظنهم قصروا في الترويج لهذا المطعن حسب تصورهم . وقد فضحتهم الآيات السابقة وكشفت عن سوء بخلتهم وعن تبذيرهم وتحويلهم لكتبهم وإخفاء كثير مما استحقوا عليه ، مما أثار حفيظهم فواصلوا طعنهم في تحويل القبلة ، بتأكيدهم أن الخير كله في التوجه إلى بيت المقدس . فقطعت هذه الآية تمويهاتهم بتفصيل هذه القيمة الكبرى التي هي (البر) جماع الخير والإحسان . فكانت هذه الآية قاطعة لمطاعهم مفررة للتقييم التي بنى عليها الحير والصلاح عند الله . نفت الآية أولاً كل ما عملوا على الترويج له ، ببيان أن البر ليس محصوراً في التوجه إلى جهة معينة كما يدعون ، ولتثبت عقاب تلك أصول البر مفصلة في ثلاث وحددت كبرى :

الوحدة الأولى: الإيمان: الإيمان بالله بها ، احداً متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن النقص - والإيمان بأن الله سيبحث الخلق كلها يوم القياس لا يفلت من جراه ذلك اليوم أحد - والإيمان بملائكته أكرام إجمالاً على أنهم مخلوقات مكرمة لا يعضون الله ما أمرهم ويقولون ما يؤمرون ، وتقبيلاً فيما أخبرنا الله عنه من خصائص لبعضهم - والإيمان بأن الله وثق وحيه في كتاب بلغها الرسل لأكولهم - والإيمان بأن الله بعث النبيين يهدون البشر إلى صراط الله الذي يرضاه ، وأنهم منزّهون عن للنقص التي توجب الريبة فيهم .

الوحدة الثانية: المال والمجتمع: لبار هو المطهر نفسه من الشح بالمال ، الذي عزم في نفوس البشر حبه ، فآه طلعنا غير اسف ، ويدل منه لذوي قرابته نفوساً تمالك الروابط بين أعضاء أسرته بر عمق حب بعضهم لبعض - ورق قلبه للينامي الذين فتنوا العائل الذي كان يعنى بهم فنظر إليهم وأكرمهم - والساكين الذين همم للفقر كبرياءهم - ونال من فصله من اغتراب عن موطنه ونفذ ماله - والسائلون المعروف فصدقهم وأعانهم دون التقرب على أحقية احتياجاتهم - وأعان الأرقاء على ذيل حريتهم وخروجهم من ذل العبودية إلى كرامة الحرية .

الوحدة الثالثة: العزكي نفسه بالنسبي في مراتب الكمال الذي يساعد عليه: إقامة الصلاة الركن العملي الأول في الإسلام ، وكفك إبراكاً لمرتبة الصلاة في السمو بالنفس أن المصلي يتأخي ربه - وإيتاء الزكاة وإخراجها طاعة بها نفسه راغباً في قبولها من الله بلا منة - ومراعاة الرابطة الاجتماعي ، بالمحافظة على العهد الذي وثق به التزامه نحو الطرف الآخر ، فيأمن كل فرد على قوفاء بالالتزامات كلها

أخذ الذبابة بذل القصاص هو تخفيف من الله على القتل ورحمة بهم. وإذا رضى أولياء القتل بالدية، أو طالبوا بالقصاص فلحكم بقتل لا تراجع فيه، وليس لهم بعد القصاص أن يعتدوا على أهل القاتل ولا أن يعتدوا على القاتل بعد أخذ الدية. إن تشريع القصاص فيه حفظ حياة الجماعة الإسلامية لأن من يدور بخلفه الانتقام بالقتل إذا علم أنه لا مقر له من القصاص وأنه لا مطمع له في البقاء حياً بعد إزهاق روح خصمه، فإنه مع تصور ذلك، ينكف عن القتل، فتسلم حياة المقتول وحياة القاتل معاً. ويحرك القرآن قوتين حاميتين من الإقدام على القتل: قوة العقل البشري الذي يوازن بين إبتغاء غلله وبين غريزة حسب الحياة التي طبيع عليها للشر. وعامل تقوى الله الذي هو من مقتضيات الإيمان.

بيان المعنى العام:

178- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَتْلُ بِمَا ضَرَبْتُمُ

حددت الآية السابقة آية لبر الملاحم الأساسية للمسلم بما يصور الصلاح الفردي لأنواع هذا الدين. واعتقت هذه الآية ركيز عظيم من الصلاح الاجتماعي وهو حفظ الحياة. إن الركن الأول في بقاء المجتمع هو احترام حياة الإنسانية وتحقق الأمن على بقائها. هانت حياة الآخر عند العرب قبل البعثة المحمدية، فكان من لو قد غيظه يقتل خصمه، وكانت القبيلة تغير على الأخرى لتملك نساءها ولتستحوذ على أموالها، ويقتل في هذه الفارقات كثير من الناس. فلما جاء الإسلام حمى حياة البشر وشوع القصاص، فمن يقتل غيره عمداً عتواناً يكون أوليه حق المداينة بقتله، كما كان من عرف الجاهلية أن قيمة الحياة متكافئة، فإذا كان القاتل ممن له مكانة اجتماعية رفيعة، أو كانت قبيلته تزدى نفوذها أضر من قبيلة القاتل فإنه لا يضعها أن يقتل القاتل. روي أن رجلاً من قبيلة غنى قتل شلمر بن زهير فقال زهير من يقتل قبيلة غنى يسل ما تريد في قتل شلمر؟ فقال: إحتو ثلاث لا يرصيني غيرهن، فقال: ما هن؟ قال: تحبون شلمر، أو تملكون ناري من نحوم السماء، أو تدعون غنياً بأسرها فاقتلها، ثم لا أرى نبي أخذت عوضاً. فقرر الإسلام أن المسلمين تتكافأ بمواظبه، بمعنى أن قيمة الحياة واحدة، وأخذ في التفصيل لتمكين تلك القاعدة بنصام الموضوع، فكل رجل هو كفاء لأي رجل في قيمة الحياة وكذلك كل امرأة هي مساوية لأي امرأة مسلمة كانت زوجة الملك أو ابنه أو بنت راعي الغنم أو الفقير المعتم. وكذلك كل رقيق هو مساو لأي رقيق وإن اختلفت قيمهم في السوق، ولما كان قوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ) يقتضى بظاهره أنه لا بد من قتل القاتل نعت بعبارة الآية (فَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا) هذا الظاهر وبيئت أن ولي

القتيل مخير بين أن يطلب بالقصاص، أو أن يطلب أخذ دية القاتل ويعفو عن القصاص. وهذا التخيير أكملته الآية بما يلي: أن تكون مطابقة ولي الدم بحقه مطالية ليس فيها غلظة ولا إغاث، حتى لا يظهر أنه يرغب في التشفيع. ثم إنه إذا رضي بالدية فلا يتجاوز ذلك إلى قتل قاتله بعد أن رضي بأخذ الدية. وعلى المعفو عنه أن لا يتكأ في دفع ما عليه من الدية أو يماطل ويرأوخ، وينبه القران أولياء القاتل والقاتل، بينهم جميعا أن تشريع قبول الدية مع العفو هو تخفيف من الله ورحمة بالناس، هذه الرحمة التي بتشريعه تمري في قلوب الناس لتمثل من للنفس الغلظة وحب الانتقام. وختمت الآية ببيان أمرين :

الأول: رفع ما يمكن أن يستقر في الذهن: أن الرجل يقتل بالرجل لا بالمرأة والعكس، وأن الحر لا يقتل بالعبد، فقال تعالى: ولكم في القصاص حياة فأراد بهذا أن القتل العمد العدوان يوجب حق المطابقة بالقصاص سواء أتاوى القاتل والمعتول في الجنس (الذكورة والأوثة) والحرية أو اختلافهما. فكل قاتل عمدا عدولاً غير محرم للقصاص منه إذا لم يعف ولي القاتل.

179- ولكم في القصاص...لعلمكم تتقون.

الثاني: تعليل تشريع القصاص بما يتبع هذا التعليل من قوة الاقتناع به والدعوة له من جميع المؤمنين. فبين سبحانه أنه إذا رشح في نفوس البشر أن كل من تعدى على غيره بالقتل مبقص منه، ولا يتم بإلقاء حيا بعد قتل غريمه، وليس للقاضي أن يجتهد في هذا لو أن يخفف من العقوبة، فإذا علم أن رقبته ستقطع حتماً، ففي معظم الأحوال يقوم في يخلعه داعي حب الحياة، وغريزة حب البقاء، فلا يقدم على القتل، وبهذا تسلم حياة من كان معرضاً للاعتداء عليه، وحياة من كان عازماً على القتل، فحفظ أصل للحياة في المجتمع. وحركت الآية الناظرين فيها إلى أن ما قررته يستجيب له كل من له عقل، إذ لا يرضى أي إنسان أن يكون فعله قاضياً بجنونه وبفقدان عقله. وبأن تقوى الله التي هي شارة الإيمان تقتضي حرص كل إنسان على حياة الآخرين.

كَيْفَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ثُمَّ بَدَأْ بِتِلْكَ آيَةٍ لِّلَّذِينَ
يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ عَلَيْنَا مَوْلَانَا فَاصْلَحْ بَيْنَهُمْ
فَلَا إِثْرَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٨١﴾

بيان معنى الألفاظ:

حُتِرَ أَمْرُ الْمَوْتِ: ظهور قرب الموت يَتَبَيَّنُ العلامات التي يعقبها الموت.

خَيْرُ: المال.

ثَوْبِيَّة: ما يعيد بتفديده بعد الموت.

بَدَلُهُ: التعبير بنقص أو إبطال.

بِالْمَعْرُوفِ: ما تقبله النفوس ولا ترفضه وهو ما تسم بالعدل.

جَنَاحًا: الجنب الميل عن العدل بدون قصد الأثية.

بيان المعنى الإجمالي:

قررت الآية أن على كل من تبين له قرب أجله أن يوصي فيما ميخلفه من أموال. وإن هذه الوصية ينتفع بها القوادس والأقرب، ولم تحدد الآية نصيب كل نوع من الموصى لهم، ولو كلفه للموصى بأن يراعي أن تكون وصيته مشمة بالعدل، فلا يرى الموصون لهم فيها حيفاً ولا يمتزج عليها فئاس حسيماً استقر في نفوسهم من العدل في مثل هذا، والإيصاء مؤكداً باعتباره حقاً على كل من يخشى الله ولا يكفر المؤمنين إلا متقياً، وتحذر الآية من تغيير وصية الموصي العادلة ممن شهد عليها أو قام بتنفيذها، وأنه يتحمل إثم التبدل، والله مطلع على الحقيقة لا يخفى عليه شيء قبله سبحانه قد سمع ما لوصى به الموصي، وهو عليم بحقائق الأمور وخاصة في الطريقة التي نفلت بها الوصية. وقررت الآية أيضاً أن من توقع من الموصي ميلاً عن العدل بدون قصد إضراره أو علم منه للحيف وقصد الإضرار بالتوزيع العادل عن العدل أو الحرمان لبعض المتساوين، فقام بإصلاح ما جاز فيه للموصي بالتأثير عليه ليعود إلى العدل، أو إصلاح ما فعل بعد موته، قصد أن لا تكون الوصية سبباً في الفرقة والعداوة، فعمله مرضى عند الله لأن الله يخبر للعائد إلى الخير ما سبق وهو للرحيم بمياده فهو بشرع لهم ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام:**180 - كَتَبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ**

اعتنت الآية السابقة بحفظ الحياة، وقررت هذه الآية بعض أحكام المال الذي هو دعامته الحياة، وخصت ما يتعلق بمال الإنسان إذا ظهرت لمآوات الموت وقرب أجل المالك، وذلك لوقوعها عقب قتل النفس.

وقد كان العرب يتحكمون في توزيع أموالهم بعد موتهم حسبما تمليه عليهم عواطفهم، الأمر الذي جعل الارتباط العائلي مهتراً. فقررت هذه الآية في بداية التشريع أن تخرج المسلمين من الفوضى التي كانوا يتصرفون بها في أموالهم بعد موتهم، ويأمنهم لتشريع المعيرات الذي تنزلهم عن التصرف في قسمة أموالهم

وتولاه الله بعقله لأنه هو مالك العقل حقيقة. فكان موقع هذه الآية في التشريع بين الحرية الفوضوية في توزيع الثروات، حرمة قسري أهله ويعطي ماله للأباعد ولا يدخل بينهم أن خصهم بجانب من أمواله، وبين التشريع الدقيق الذي أعطى لكل وارث حقه. ولذا فإن مقتضى هذه الآية لم يبق العمل بها بعد أن نزلت الآية المحددة لتصيب كل وارث من تركته للميت. تنبذ الآية أن الله لوجب على من كان له مال وظهر من وضعه الصحيح أنه قد سرب لجله، أن عليه أن يوصي في ماله فيوزع، ويخص كلا من والديه ومن أقاربه بتصيب من التركة، وأن يراعي في توزيعه ماله عليهم بعد موته، أن لا يكون فيه حيف كبير يرفضه الموصي لهم ويعترض عليه المجتمع. وأثارت الآية ما استقر في قلوب المؤمنين من التقوى التي يصحبها دوما تنفيذ الأمر على أعلى عدل وجه وألمه.

181 - فمن يذله بعد ما سمع جميع ما يقرأ.

وشدّد الآية على الخفيين يتولون تنفيذ الوصية، لن عليهم أن يحترموا وصية الموصي وأن ينفذوها كما أوصى. وأن من يعل الوصية يتحمل إثم التبديل وإثم الحرف الذي ترتب على كذبه. والله قد سمع ما أشهد به الموصي على وصيته، وهو عليم بحقيقة طريقة تنفيذها لا يخفى عليه تغيير المنفذ وتبيله. وفي ذلك تهديد لمن يخون الموصي فيغير وصيته.

182 **ہمن خاں... غفور رحیم۔**

ويحاتب هذا التهديد لمن يتدل ، تخرض الآية الوجه الآخر ، وهي صورة العنفة للفاضل للنفي ، الذي ظن أن الموصي حاد عن العدل ولم يعتدل ميزان التوزيع عنده فضل بعض المتملكين أو حرهم إما بقصد الإضرار الموجود للإثم أو مع عدم قصد الإضرار لسوء تقديره ، فقام بإصلاح الوضع بأن نقعه قبل موته بالرجوع إلى العدل ، أو قام بالإصلاح بعد موته ، فإنه إذا كان التخييل بقصد إقامة العدل العامور به في الوصية ، فلا يخش من التهديد المساق فإنه لا يسمعه ، والله غفور للعوصي إذا رجع ، وحج بعاده فلا يواخذ من عمل على إقامة العدل .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ عُذْرٌ ۖ إِنَّمَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ نَجَسٌ مُّبِينٌ أَن يَصُومُوا ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَمَا عَلَيْهِمُ صِيَامٌ ۚ فَمَن أَصَامَ خَيْرٌ لِّهٖ وَأَن يَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ

عكفون: جمع عاكف وهو من تطوع بالبقاء في المسجد بنية التقرب يوما وليلة على أقل تقدير مع الصوم.

حنوة الله: التحولز التي لا يحل نعيمها كالحذ بين الشيتين إذا تجاوزا دخل في غيره. فإذا تجاوز الحلال دخل في الحرام.

بيان المعنى الإجمالي:

نادى القرآن المؤمنين ليكثر فيهم داعي الاستجابة لما فرض عليهم، والآية بينت أن الله فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه على الأمم السالفة، باعتباره طريقا يدل به الصائم رضى الله ونيمة للتحلي بالتقوى، والصيام في الإسلام ليس شاقا إذ الواجب لا يتجاوز أياما معبودات، وشأن العبد أن يعد القليل، وأن من كان مريضا مرضا يشق معه الصوم فله أن يفطر ويقضى الأيام التي أفطر فيها، وكذلك المسافر يجوز له أن يفطر أيام سفره ويقضى. كما خفف أيضا على الشين يطيقون الصوم لكن بجهد ومشفة كأصحاب الصنائع الشاقة والهرم وكبار السن أن يفطروا ويضعوا عن كل يوم محتاجا مسلما، ومن تطوع بزيادة على الحد الأدنى في الإطعام أو أطعم وصام فقد فتم خيرا وما فتمه من خير لا يضيق لمسجد ثوابه عند الله. وأكد على القيام بفريضة الصيام على الصحيح القادر بأن في ذلك خيرا عظيما، وذكر للمسافر أيضا بأن الصوم للفضل إذا كان لا يجد مشقة زائدة في الصيام، وكذلك للمريض الذي لا يبلغ به المرض حد الخطر في الصيام، فكل هؤلاء الصوم خير لهم من الفطر ثم القضاء وليس الصوم واجب عليهم في تلك الحال. ونوه الله بالصيام فأخبر سبحانه أنه خير له الشهر الذي أكرم فيه للبشرية بلالاز للقرآن فيه، للقرآن الذي يهدي الناس للحق. وبما جاء فيه يقترب للحق عن الباطل ولا يبقى لنس، وأكد الأمر بصيامه لمن علم بدخوله أو كمال حاضرا غير ممرض، بعد ما ربط معتاد، بفرض الصيام في مثل الشهر الذي ابتدأ فيه إنزال القرآن، وذكر بأن ترخيصه للمريض والمسافر في الفطر هو جوي على ما تقتضيه به من أنه لا يريد أن يشق على البشر وإنما يريد أن ييسر عليهم. هذا التيسير الذي يساعد على القيام بصوم كامل أيام الشهر بقضاء ما فات إذا تيسر الأداء في شهر رمضان. وهذا ما يثير في نفس المؤمن شعورا بعظمة الخالق سبحانه، فهو المطلع عليهم بأحوال عباد يوفق بهم، مما يقتضي أن يعظموه تعظيما يعبرون عنه بكلمة **الله أكبر** لثناء صيامهم وعند قلم العبادة في نهاية الشهر. وإذا عمرت النفس بذكر الله واستحضار عظمته. فطابق لسان العبد وجوارحه بالشكر للخالق العظيم المتفضل، وتوجه الخطاب لمحمد ﷺ في هذا الحو من الصلة بين الخالق

والعالمون فيقول الله لنبيه: إذا ملكك عبادي على فأخبرهم بأمرين: الأول أني قريب منهم بما يدل عليه القرب من اطلاع ورعاية وتشريف، والثاني أني أعلم لهم قراء لكرمي فأننا الله العظيم لجيب دعوة الداعي إذا لبثت بمسؤول مطالبه. فليكن هذا حاضرا في أذهانهم وليجتهدوا في إجابتي لما أسأرتهم به ومنه للدعاء، فهذا هو الذي يحقق لهم الهداية والاستقامة. ثم بين القرآن بعض أحكام الصوم، فصرح بأن الزوج قد أحل الله له في ليالي الصوم أن يستمتع بزوجته، إذ الرابطة الزوجية قوية كالكل واحد منهم ليس له الآخر. والله مطلع على ما يجري في نفوسكم فمن كان يغالب غريزته وتغلبه في ليالي شهر رمضان، ويظن أنه أثم لأن غلبته شهوته في الليل، أعلنت الآية بأن الله قد تحب عليه ولا يؤاخذ به، صرح بالتصريح الذي ينفي كل احتمال: أن الصوم يجعل له أن يجتمع زوجته ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر. وتصرح الآية بأن الأولى أن لا يمنع الزنا من الاتصال الجنسي ليالي شهر رمضان حتى يتضاعف نسيء الأمة. وحذرت الآية وقت الصوم بأنه ما بين طلوع الفجر الصلوات **(فحظ الأبييض من الخطب الأموية)** وبين غروب الشمس. وكان من سنة رسول الله ﷺ أنه يلزم المسجد في العشر الأخير من رمضان، ولما كان الصيام يباح له في الليل الأكل والجماع، نهت الآية أن المعتكف يحرم عليه أن يجامع زوجته، وهو معتكف في المسجد، وحذرت الآية بتبنيه المؤمنين أن ما عرضته آيات الصيام هي حدود لا يجوز تجاوزها. أثبت الشهر بوجوب صيام ونهال الصيام يمنع فيه الإشباع الجنسي والأكل والشرب والمعتكف يمنع من فريضة زوجته حتى في الليل، وعلى هذا التعمد من البيان يجري بيان الله للدلالة أحكامه مما ينفي التيسر، لأنه سبحانه يريد أن يستقر التقوى في قلوبهم.

بيان المعنى العام.

183. يا أيها الذين آمنوا - لعلمكم تتقون.

نص: هذه الآيات من سورة البقرة. المؤمنين ليومئذ صيام شهر رمضان أحد أركان الإسلام الخمسة، وحثهم على أدائه بالمعروف للآية: أولا: بدلتهم بوصف الإيمان **(يا أيها الذين آمنوا)** على أن الاستجابة هي من مقتضيات الإيمان.

ثانيا: نصت على أن الصوم واجب مؤكد بما نزل عليه كلمة كتبت من توتق.

ثالثا: بياني أن الصيام طريق العبادة لله، فرضه سبحانه على الأمم السابقة، وإن كان مظهره في الدين الإسلامي يختلف عما طلب من غيرنا لأن التشريع بلغ قمته في هذا الدين.

رابعاً: أن الصيام يؤثر في القلب تقوى الله، تلك أن التركيب الإنساني من الروح والجسد، صلاحه في التوازن بين قوتي هاتين: فصيام رمضان يُعَدُّ من ضرورات القوى المادية في الإنسان، ويطوعها للفضيلة، وبذلك تعلمو تقوى الله في اختيارات الإنسان وسلوكه.

184- أياما معدودات تسين حنتم تعلمون.

خامساً: أن مدة فريضة الصيام لا مثقفة فيها كبيرة لأنها لأيام معدودات، ومُأَنَّ من يعدُّ أنه لا يحسب إلا القليل، وفعلاً فأيام الصيام يكاد المؤمنون صغولهم وكسارهم يعدونها ولا يخطئون فيها، ولا تجد هذا في أي شهر آخر من أشهر العام. سابعاً: أن تشريع الصوم راعى أحوال المؤمنين الخاصة، فمن كان مريضاً مرضاً يشق عليه الصيام فيه، ومن كان مسافراً فقد فتح له باب التخفيف بأن يفطر في أيام مرضه وسفره، ثم يقضى ما فاتّه بعد شفائه وبعد عودته إلى بلده.

سابعاً: من كان يطيق الصوم بمشقة كالمرأة الحامل، والمرضع التي يتأثر ولدها بنقصان لبنها، والكبير الذي لا يستطيع الصيام إلا بمشقة كبيرة، ومن كان عمله الذي يحصل منه على معيشته شاقاً يضيقه الصيام عن القيام به على وجهه، فإنه يجوز له أن يفطر ويضع مسكناً عن كل يوم للفطر فيه. ثم إنه على من يتمكن من الصيام بعد رمضان أن يقضى ما فاتّه. ولفتت الآية قلوب المكلفين بالصوم إلى أنهم إذا تلوّعوا بأن صاموا وأطعموا فهو خير مدخر لهم عند الله وكذلك سرّك على إطعام مسكين، لو تخير في الإطعام الأجدود والأفضل. ومن باب الإرشاد إلى الأكمل بيّنت الآية أن من تحمل المشقة الزائدة التي لا ينصر به وصلم مع الناس فالصيام خير له بما يدل عليه من كثرة الثواب.

185- شهر رمضان.. تشكروني

ثالثاً: أن الشهر الذي تخيره الله للصيام، له مزية خاصة، فهو الشهر الذي في مثله أنزل على رسول الله ﷺ القرآن لما كان في غار حراء، ومن المقرر أن المناسبات التي تفصل فيها الله على البشر بالخير الكثير يرجى أن يعظم فيها الثواب.

رابعاً: أنه لما يرجى من عظم ثواب طائفتين المنفصلتين لأوامر الله في مثل نزول شهر القرآن، تأكد الأمر لكل من كان حاضراً وقت نزول الشهر، وعلم به أن يصومه مستحضرًا تلك الظروف الفاصلة بين عهدين، عهد ضواغ الإنسان، وعهد انبثاق الهدى الذي فرق بين ظلام الشرك وأخواله وحداثة.

عاشراً: رغم الربط بين نزول القرآن وتشريع الصوم، فإن التخفيف ماض لمن كان معذوراً، دون أن ينقص من ثوابه، إذا هو لظُر وعوض ما فاتته بعد ذلك بمقدار ما قلته عدداً.

حادي عشر: أن التخفيف والرخصة التي شرعها سبحانه في الحدود التي بينها الآية تؤكد فريضة الصيام باعتبار أن الله يريد أن ييسر على المؤمنين أمر عيادته إذا كانوا معذورين، لا أن يتق عليهم. **(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ).**

ثاني عشر: لى هذا التخفيف لا يعني سر أخد برخصه الله من صيام عند الأيام التي أفطر فيها حتى يكمل عدة أيام للصيام التي قام بها المؤمنون. **(وَاتِمُوا الْعِدَّةَ).**

ثالث عشر: أن صيام رمضان يزكى النفس، ويصلح الروح، ويتعلق للمشارع والأسمه بالتكبير. والتكبير الجاري في الضمير، وقجاري على اللسان بكلمة ((الله أكبر)) يمثل فمة من التصور والفعل الإيماني. إن مؤدى التكبير أن المكبر يشهد على نفسه أنه يعتقد أن الله لا أكبر من كل ما يدخل في نطاق التصور فثبت له بذلك الوحداية وجميع صفات الكمال، ولذا كان مما سنده النبي ﷺ يوم العيد بعد إكمال الواجب، التكبير. يكبر الساعو للصلاة ويكبر الإمام في صلاة العيد سبع تكبيرات في الركعة الأولى ويكبر في الركعة الثانية خمساً ويخلل الخطبة بالتكبير **(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هُوَ عَالِمٌ)**

رابع عشر: أن الصيام يطوع للسان والجوارح للذكر، لشكر الذي يطلق من تقدير التماكر لنعم الله عليه التي يزيد إحساسه بها عندما يلاحظ لطائف الله بقلاده على مشاركة المؤمنين لييام بهذه الفريضة، وعندما يحرم نفسه من شهوات البطن والفرج بالصيام فتخرج من حلقه الركابة التي يغفل الإنسان معها عن تقدير قيمتها فيوقظه لحرمانه إلى تقديرها حق قدرها، وعندما ينظر فيما حلف الله به أو أمره في هذه العبادة من تيسير وصالح وعد، وعندما يشعر بلقائنه بالقرآن ارتباطاً الوثيق **(شَهْرٌ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ)**

186. وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي سَمِيعٌ عَلِيمٌ

تثير هذه الفيوض الإلهية التي لشونا إليها طاقة كبيرة في الشعور بنعم الله ولطفه، كل النص أصبحت متطلعة أكثر لمزيد تفصيل لمزلة المؤمن عند ربه إثر هذه التحليات التي هزته فتريقته من القرآن كلام رب العالمين وهنته إلى العبادة التي ارتضاها للتقرب منه عبر الشروع التي شرعها على لسان المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم. فقال تعالى: **(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَأَجِبْهُمْ)**، فوجه

الخطاب لرسوله وبلار بليراز الصلة بينه وبينهم (عبادي) وكان المفهوم الذي أرك تقريره: أنه قريب منهم، بما يفيد القرب من إعزاز لهم، ومن لطلاعه للكامل على أحوالهم فهو لا يتركهم للظروف تمل فيهم عملها، وفوق ذلك أنه يجيب دعاءهم لتفريج كربهم وتحقيق مطالبهم، قرينة منهم هو قرب غلبة لا قرب مكافى تعالى الله عن ذلك. ولذا فإن عليهم أن يجيبوا داعي الله بالإخلاص لعبادته وتطابق أولامره في ضوئه الإيمان، فعلى هذا النحو من الصلة بين الخالق للكرام والمخلوق المنفذ المؤمن، يفتح باب الرشد في الملوك وإصابة العابد الحق في مسيرته في الحياة. وفي تلك ما يتيه للمؤمن إلى التوجه بالدعاء إلى الله، وأنه مرجو الإجابة لشاء صيامه وعند إظهاره وعد ما يفعل على صيام اليوم التالي، أخرج ابن ماجه بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي يقول: قال رسول الله ﷺ: إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد. وكان عبد الله بن عمرو يدعو عند فطره: الله إني أسألك بجمعتك، التي وصحت كل شيء، أن تغفر لي¹

187 أحل لكسمة ليلة الصيام لعلمه بمقتون.

ثم نصت الآية على ضبط ما يحل للصائم، فينب أن الصيام تتسحب أحكامه ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس. وأنه يحل له فيما بينهما ما كلف نفسه عنه أثناء النهار تقرباً لله، وأن الله عليم بما جرى في نفوسكم مما تخرج منه بعضكم من الاتصال الجنسي في الليل. فنخرج الذي صحبه تدافع بين تلكم الرغبة وبين أداء الصيام على أنه لم يوجوه ونفاهما، ما علموا أنه يحل للصائم أن يجامع زوجته في الليل، وأن من سنن خلقه أن يؤتى الامتناع بين الزوجين فموة مثلها بأن كل واحد منهما لباس لصاحبه، بما يوحي به كلمة القلب من مستر ومن شدة قرب ومن حاجة، بل إن الإشباع الجنسي مرغ فيه رجاء كثير النسل (واينفوا ما كتب الله لكم) كما أحلت الآية الأكل والشرب كامل قليل إلى أن يظهر خيط الضوء الأول في الأفق مؤنثا بطلوع الفجر.

والإن بالمباشرة، التي كان تخرج منها في ليلة الصيام، لا يتجاوز ذلك إلا أن الاعتكاف، فإن الاعتكاف الذي هو نية الصائم العبادة بالترام لبقاء في المسجد لمدة أقلها أربع وعشرون ساعة، لا يحل فيها الامتناع بالزوجة، وتخدم الآية بالتأكيد على أن ما شرعه الله في الصيام هي حدود، والخروج عن الحد يوقع في الإثم فعلى للمؤمن أن يكون بظنا بقطة تامة فلا يقرب من تلكم الحدود حتى لا ينزلق إلى

المحرم، وعلى هذا النحو من التبيان لذي فصلته آيات الصوم يجري بيان الله لأياته للناس جميعاً. لتحل، تبعاً للوضوح وتحريك العقول والمشاعر، للتقوى صمام الأمان، في الحاضر والمآل.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ وَابْتَغُوا فِيهَا إِلَىٰ أَفْئَامٍ لَا تَأْكُلُوهَا ذَرَبًا قَلِيلًا قَرِيبًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِآِلَافٍ ۚ وَأَن تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٨﴾

بيان معنى الألفاظ

لا تأكلوا: أخذ المال مع قصد عدم إرجاعه لصاحبه.

الابْتَغُوا: نفوس رضاء صاحبه.

تأكلوها: تكفوها.

بيان المعنى الإجمالي:

نهى صريح واضح مجسم يحرم أن يستولي أي فرد على مال غيره بغير وصاه، كما نهت الآية عن الرüşوة التي يتوكل بها الرأشي لتزوير ما أحده بحكم الحاكم الذي هو في الحقيقة ما كان ليحكم له لولا الرüşوة، فهو من أكل الأموال بالباطل، وشجع على المتسلطين على أموال غيرهم بأنهم يعلمون أنهم ظالمون.

بيان المعنى العام:

188 - وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ سِلَعَمُونَ.

فيما سبق من سورة البقرة أقر الله للناس قابلية أن يأكلوا الحلال الطيب مما تنتجه الأرض، وحذرهم من ابتاع طريق الشيطان. وفي الآية السابقة حذرهم من الاقتراب من الحدود التي حددها حتى لا يقعوا في الحرمان، وحيد للناس للمال وتملكه غريزة قوية، قد تسوغ للقوي سلطانه، أو بعكزه، أن يستولي على مال غيره ظلماً بدون وجه شرعي، ويتخلله في مكاسبه فلا يظهر له أثر يعيظه عن مثله، كأنه يهضمه في معدته فلا يتفطن له. فأصابت هذه الآية التحذير الشديد من أكل المال بالباطل، كما نهام أن يتوكلوا إلى أكل المال بالباطل بواسطة الرüşوة، ويكون حكم الحاكم مبرراً ظاهرياً، مع أن الرأشي يعلم أنه باطل وظالم. وهي شذاعة أبرزتها الآية توجب النظرة منها لمن كان مستقيم ففطيرة. وسيلتي في القرآن مزيد تحليل وتعمير من أكل المال بالباطل الظاهر منه كالمقصود والمسرقة، والختي كالزنا وبيع الحر ونحو ذلك.

• يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَيَّامِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاسِيَةُ النَّاسِ وَالْحَجِّ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا، وَلَكِنْ الْبِرُّ مِنَ الْغَيْرِ ۚ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٤٣﴾

بيان معنى الاكفاة:

الاهلة: جمع هلال وهو القمر في الأيام الثلاثة الأولى من شهر.

المواسيت: جمع ميفات وهو الوقت.

البر: كما تقدم هو جماع الخير.

بيان المعنى الإجمالي

سأل بعضهم النبي ﷺ عن حكمة تحول القمر إلى هلال، فالأصل أن الحكمة من ذلك، أن يتمكن الناس من ضبط لوقاتهم، ومن ضبط وقت الحج، كان أهل الجاهلية إذا أحرموا بالحج أو العمرة امتنعوا من دخول بيوتهم من أبوابها، اعتقاداً منهم أن من كمال فعل الخير بعد الإحرام أن لا يدخل المحرم بيته من الباب، فبين الله زيف هذا الاعتقاد وأنه لا صلة له بالخير، وأن الخير في تقوى الله، ولا حرج في دخول المحرم من الباب، وأمرهم بالتقوى سبيل الفلاح.

بيان المعنى العام:

189- هــاـلـوـنـكـ عـنـ الـأـهـلـةـ: تـعـلـكـ تـفـلـحـونـ.

سجل القرآن سبعة أسئلة توجه بها الصحابة إلى رسول الله ﷺ في سورة البقرة، وردت في الآيات التالية: 189 - 215 - 217 - 219 - 220 - 222.

السؤال الأول في هذه الآية: سأل بعضهم النبي ﷺ عن الحكمة التي أظهر الله بها منزلة الهلال في مسيرة القمر، فأجابهم ﷺ بهذه الآية أن الحكمة من ذلك هي ضبط الأوقات، ذلك أن الأيام تتوالى لا يختلف يوم عن غيره، فكانت الحكمة أن يضبط ما مضى من الأيام وما هم ملتزمون به في المستقبل بوضع الهلال فتعلم الأشهر، والحساب الشمسي حسب تقريزي لا يصلح أن يكون معياراً لجميع البشر، بينما وضع الهلال هو متروك حتى من جميع الناس، وكما هو ضابط لأوقات الناس هو أيضاً ضابط لوقت أداء فريضة الحج التي يجتمع فيها الملائمون على صعيد عرفة في يوم واحد هو التاسع من ظهور هلال شهر ذي الحجة.

وعقب القرآن هذا البيان بتحقيق الحق في أمر آخر من أمور الحج، ذلك أن العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون أن من فعل الخير قتلهم مطالبون بها بعد إحرامهم أن لا يدخلوا بيوتهم من أبوابها بباب إحرامهم، ومن اضطر لدخول بيته فإن كان مبتلياً

صعد إلى السقف ثم نزل أو أضحى ثقباً في السقف منه يخل ويخرج، وإن كان من سكان الخيام نخل من خلف الخيام. وهي عقيدة بطالة لا صلة لها بالخير. فوضع القرآن هذا الوهم وصرح أنه ليس من فعل الخير في شيء دخول البيوت من ظهورها، وإن البر والخير هو في تقوى الله. التقوى التي هي سبيل الفلاح، فمن تلقى الله حق ثقافته فإنه يرجو أن يكون ناجحاً في حياته لدنياً والأخرى.

وَقِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُوكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا بِهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ
(٢٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ إِنْ قَتَلْتُمْهُمْ
فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ فَإِنْ أَشْتَبَ فَإِنَّ اللَّهَ نَفَرٌ رَحِيمٌ ۖ وَقِيلُوهُمْ
خَيْرٌ لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَتَكُونَ لِلدِّينِ بِرًا إِنْ أَصْحَابُ الْأَعْدَاءِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ۖ
الْأَشْهُمُ الْحَرَامُ بِالْأَشْهِمِ الْحَرَامِ وَالْحَرُمَةُ بِصَامِرٍ فَمَنْ أَغْنَىٰ عَنْكُمْ فَاغْنُوا عَلَيْهِ
بِمِثْلِ مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۖ وَأَمِيتُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۖ

بيان معنى الألفاظ

سبيل الله: الطريق الموصل إلى مرضاته. ومعظم وروده في القرآن للجهاد في نصرته الإسلام.

الاعتداء: مجاوزة الحد.

تقتلونهم: حيث تمكنكم منهم ظفركم بهم، أو أدركتموهم.

الفتنة: التسلط بوسائل القهر لإخضاع المتسلط عليه.

الحرمات: حرمة النفس، وحرمة المكان (المسجد الحرام) وحرمة الزمان (الأشهر الحرم).

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الله المؤمنين أن يقتلوا أعداء الذين يقتلونهم أو يستعدون لقتالهم، وذلك تحت راية نصرته للدين وحرمة الاعتقاد، لا تسلطاً على الآخرين ولا رغبة في مكاسبهم وخيراتهم، وأن لا يتجاوزوا الحدود بالاعتداء على العدو بأكثر مما يردعه. إن الله لا يساعد المعتدين ولا يقرتهم منه. ولا تترددوا في قتلهم حيث أدركتموهم إذا كانوا يحذون لقتلكم أو يقتلونكم فعلاً، ولا تخرجوا من إخراجهم من مكة التي أخرجوكم منها، إن ما صنع معكم لمشركون هو لئلا فظاعة من قتالهم

وقتلهم، لأهم عملوا على إرغامكم على الكفر بشئى أنواع القسطنط المادي، والتعذيب، وهو (الفتنة) وإرغام الإنسان بالقهر ليقترع معتقده، أشد من القتل، وأكثرت الآية على حرمة المسجد الحرام، وهذه الحرمة إن انتهكها المشركون فقاتلوكم فيه فلا تترددوا في قتلهم فيه. وهو الجزاء للعدل للكافرين الذين اعتدوا على حرمة المسجد الحرام. واعلموا أنهم إن كفوا عن تجاوزاتهم واحترسوا حرمتهم فكفوا عنهم. وإعلام عام للبشرية جميعا أن الله غفور رحيم بعباده حتى من كان على الشرك ثم آمن فإلى توبته من كفره يخفر بها له ما تقدم له من كفر. ويرجو رحمة الله، ويثبت الآية الأمد الذي ينتهي فيه القتل؛ وهو أن تضمن الحرية في العقيدة ولا يتسلط على أي أحد لإرغامه على تحويل دينه، وأنهم إن انتهوا عن سلوكهم في محاربة الناس في عقائدهم فلا تسلطوا إلا على من بقي على ظلمه يعمل على تحويل الناس عن الإيمان. إن ذلك من أشد أنواع الظلم، وقد يحدث أن يتسلط المشركون على المؤمنين بقتل أو الإعدام له في الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتل، ضرا بالمسلمين، فحاربهم ولا بأس عليكم فبفسهم الذين انتهكوا حرمة الأشهر، فأنتم بقتلكم إياهم تعملون على حصة تلكم الأشهر. وكونوا في جميع أحوالكم معترضين لخشية الله ولقاء عصبه وعذبه، وهذا المستحضر هو قوة عظمية لكم، لأن الله صابر ومؤيد للمؤمنين، وحرمت الأيأت في ختلها على الإنفاق في سبيل الله فكان الأمر واضحا أن يستعدوا الاستعداد الكامل، وأن يبذلوا المال الذي منحهم ربهم، ليكون وضع المسلمين في مستوى يردع أعداءهم عن التفكير في تسلط عليهم، فإن التخصير في الإعدام لا يكون إلا بغلبة عن المال الذي يترتب عنه ضياع المال والنفوس والعزة، وهو التهلكة.

قاعدة عامة: أمر المؤمنين أن يتجاوزوا أداء الواجب إلى إرادة السمو في كل ما يصدر منهم إلى درجة الإحسان، فإن الله يحب المحسنين، ينصرهم، ويتأيدهم، ويكتب لهم العزة في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام

190 - وقاتلوا في سبيل الله المعتدين

يذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآيات هي التي أنزل الله بواسطتها للمؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم وأن يقاتلوا المشركين. وهذا الآن أحاطه القرآن بجملة من القواعد والأحكام التي تخرج بالمؤمنين عما لفته العرب في حروبهم. أولا: أن القتال يجب أن يقوم به المؤمنون لتحقيق غاية مادية لاحظ لأنفسهم فيه، فلا قتل ملون فيه للاستيلاء على أموال الآخرين ولا على ممتلكاتهم، ولا على ما

تجوية أرضهم من ثرواتهم، ولا أفرهم واستعبادهم والتحكم في مصائرهم، ولا للتظاهر بالقوة والبطش، وللتكليف الشاحقة للقيم الإنسانية للحصول على مرتبة أعلى في الجيش ونحو ذلك.

ثانياً: أن لا يكون القتل ميذرة، ولكن يقتلون من قتلهم فعلاً أو أخذوا في الاستعداد للإغارة على بلاد الإسلام ونزويهم.

ثالثاً: أن يكونوا في قتالهم منضبطين، فلا يعتدون على الأعداء بقتل من لا يقتل من الأطفال والشيوخ، أو الإكساد في الأرض بقتل حيوانات تقتلها من أصحابها، أو حرق المزارع وقلع الأشجار ونحو ذلك من أنواع القسك في الأرض، رابعاً: أن يكونوا دوماً ذاكريين لهم يفتدون فلتكثير الإلهي بالاعتداء، إن الله لا يحب المعتدين سواء أكلن الاعتداء في الحرب أم في السلم.

181-193. ونقتلهم حيث شئتموهم... كذلك جزاء الكافرين.

خامساً: أن لا يفهموا من الإلهي عن الاعتداء للثأر بتتبع الأعداء ومعاملتهم بالمثل، بل هم مأمورون بتتبع الأعداء أينما كانوا حتى لا ينقلسوا عليهم **(وَلَقَتْلُوهُمْ)** حيث **(شئتموهم)**. ولأن لا يتحرجوا من إخراجهم من مكة، فإن المشركين سبقوا في هذا الأمر. إذ صيغوا على المسلمين حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم. بل إن ما صنعه المشركون كان قسماً، إذ هم تملطوا على المؤمنين ليقتلهم على الكفر ويردوا عن الإسلام، بالتعذيب المادي وبالحرمان النفسية، لفتنة أشد من القتل الذي تنتهي به الحياة. إذ الفتنة تعذيب متواصل، وقهر لا يرد، وتحويل الشر من نور الإيمان إلى ظلام الكفر.

سادساً: أن الإنان بقتل الكفار لا يبيح تحليل ما حرمه الله وقرره من أن يكون مكاناً آمناً لا قتال فيه، وهو المسجد الحرام من تلحيز بناء سيدنا إبراهيم له. **(وَإِذَا جَاءَ الْبَيْتَ مَثَالَةً لِّلْكَافِرِينَ وَلَئِنَّمَا لَكُم مِّنَ الْبَيْتِ مَثَلَةٌ لِّلْكَافِرِينَ وَلَئِنَّمَا لَكُم مِّنَ الْبَيْتِ مَثَلَةٌ لِّلْكَافِرِينَ)** لكن إذا اعتدى الكفار على حرمة المسجد الحرام فقتلوك فيه أو قتلوا بعضكم، فلا تتحرجوا من القتل فيه بل عليكم أن تقتلوه فيه حتى تضعوا للمسجد الحرام حرمة.

وكذلك القتل في الأشهر الحرام (أي القعدة ودي الحجة ومحرم ورجب) فلا تتحرجوا من قتالهم إذا قتلوك فيها، فقتل المشركين هو انتهاك للحرمة التي حرمها الله، وقاتلكم هو ضمحل للحرمة. وهكذا يكون جزاء الكافرين أن لا ينقلسوا من جرائمهم بدون عقاب.

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ فَخَلِّجْ أَشْهُرَهُمْ نَعْلُومَتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِمْ لَخَلِّجْ فَلَا زُنَادَ وَلَا دُفُوفَ. وَلَا جِدَالَ فِي الْخَلِّجِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَرَارٍ حَقَّ الزَّادِ الثَّقَوِيَّ وَأَتَقَوُّوا بِأَوَّلِ الْأَنْبَسِ ۝ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَرْبَقُوا فَعَلًا مَنْ رُبِّكُمْ إِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَضَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِقِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِذَا أَقَضْتُمْ مِنْكُمْ أَنْ تَقْرُوا اللَّهَ كَذِكْرًا فَإِنَّهُ أَهْلٌ أَنْ تَنْسُوا ۝ فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ زَيْنًا أَيْنَا فِي كَذِبَاتٍ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۝ وَبَيْنَهُمْ مَنْ يَقُولُ زَيْنًا أَيْنَا فِي الْكُذِبَاتِ حَسَنَةً فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقَدْ عَذَابَ النَّارِ ۝ أُولَئِكَ لَهُمْ عِصْمٌ بِمَا صَبَّوْا وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْجَاسِقِينَ ۝ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي سَوْتَيْنِ فَلَا إِنْتِمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِنْتِمَ عَلَيْهِ لِمَنْ آتَى وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكَ إِلَهُهُ تُحْشَرُونَ ۝

بيان معنى الألفاظ

أَتَمُّوا: الإتمام الإتيان بالشئ كاملاً، لو إكمال ما نقص منه.

أَحْصَرْتُمْ: منعتم.

الْمُسْتَبْسِر: ما كان الإتيان به لا مشقة فيه لأنه سهل.

الْهَدْي: الحيوان المقرب بذيبحه لله في الحج.

مَحَلُّهُ: مكان حلوله وهو مكة لو منى.

الْفَصْل: الذبيحة المقصود بها التبعيد.

الْأَمْن: ضد الخوف، السلامة مما يخاف منه.

حَاضِرُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ: المقيمون في مكة وما حولها داخل الحرم.

فَرَضَ الْحَجَّ: نواه وعزم على فعله.

الرَّقْعُ: الكلام اللغو، والكلام الفاحش، قضاء الشهوة الجنسية.

الْجِدَالَ: الخصام، والمفاوضة الكلامية على سبيل المنازعة والمغالبة.

الْفَرُود: إعداد للمسافر ما يقتلته في سفره.

الأكبية: جمع لب وهو العقل الرائد، ويطلق على الفخلف من كل شيء.

ابتغاء الفضل: للتجارة، والفضل: المال.

الأكبية: الخروج بسرعة.

عرفة: عرفة وعرفات: المنبسط من الأرض الذي يجتمع فيه الحجاج يوم التاسع من شهر ذي الحجة، والوقوف به جزء من الليل هو أعظم أركان الحج.

المشعر الحرام: مزدلفة، وهي من الحرم.

الخلقي: النصيب من الخير.

بيان المعنى الإجمالي:

الحج ركن من أركان الإسلام، والصورة سنة مؤكدة، وعلى المحرم أن يخلص عمله له، وأن يتمه إذا شرع فيه وأن يؤديه كاملاً كما بينه القرآن ووضحته السنة. وإذا منع للعدو، أو المرض، أو العجز، المحرم من إتمام ما شرع فيه (وهو المراك بالمحصر) فيتحلل بعد أن يذبح هديه أو ينحره، وما يجب على المتحلل المحصر تفصيله في كتب الفقه. الهدي هو ما يتجه المحرم من الغنم أو من البقر أو من الإبل، ولا يتكلف المحصر إلا ما هو في طريقه من حرج، من كان مريضاً أو محتاجاً إلى خلق رأسه وهو محرم، فالواجب عليه إذا خلق أن يقدمه قتيلاً، والفدية: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين أو نبح تسك من القسم أو البقر أو الإبل. المتمتع وهو الذي يقوم بعمره في أشهر الحج، وهو من غير أهل مكة، ثم يتحلل منها ويحرم بحجة عن نفسه في عامه ذلك دون أن يعود إلى بلده، فهذا هو المتمتع، وعليه أن يقدم هدنيا بذبح بعكة أو بمعنى على تفصيل مذكور في كتب الفقه، من كان من غير أهل الحرم وتمتع ولم يجد هدنياً لما لقرره أو قدان ما يجزئ فالواجب عليه أن يصوم عشرة أيام: ثلاثة منها في الحج، وسبعة إذا رجع إلى بلده، وحركت الآية ما في قلوب المؤمنين من صلتهم بالله ليكونوا يقبلين إلى ما يرضيه حتى يحضنوا أنفسهم من غضبه وعقابه، فلي الله شديد العقاب لمن لمعن في ضلاله وبعد عن طريق الحق. بصفت الآية على أن الحج وقته محدّد، وهو سؤال وذو القعدة وذو الحجة. واختلاف الفقهاء في اعتبار ذي الحجة كله من لشهر الحج أو الأيام التسعة الأولى منه أو العشرة أو الثلاثة عشر. وهذه الأشهر هي من الأشهر الحرم، تتأكد حرمتها على من أحرم بالحج، فعليه أن يحفظ لسانه من كلام الفاحش والباطل واللفظ، وعليه أن يحفظ جوارحه ولسانه من الأكلام، وعليه أن لا يتعرض في مخالطته للناس إلى الجدال المحرك للنزاع. وعد الله من لقرمه بهديته وفعل الخير، وذلك كادافه لمناسك الحج على الوجه الأكمل كما أرشدت إليه الآية، وحفظ

لسمانه وجوارحه، أنه يثبت عنده ما قام به من الخير ويثيبه عليه. ونكر المؤمنين بأن يمشوا زلدهم الذي يجدونه في سفرته فكبرى- الموت -الزك الذي ينفعهم في الحياة البقية، وهذا الزك هو تقوى الله هي الزك الذي لا يقضى. والزك الذي لا يقوم غيره مقامه عندما يفصل عنه كل عزيز كان متصلا به. أن من له عقل صائب ذكي، يدرك أن عليه أن يكون دوما على صلة بربه بما يقترن بذلك من الاستقامة والعمل بما يرضيه، وأعلم المؤمنين أن عقد صفقات تجارية لا يتساقى مع أداء مناسك الحج أو العمرة. ووجد بين جميع المؤمنين في الحج بأن الواجب عليهم أن يقفوا بعرفات وأن يتوجهوا منها إلى المشرق فحرم الذي هو المزدلفة، وأن يذكروا الله في هذا المكان، وأمرهم بذكره نكر الاعتراف بفصل هديته التي هي أعز وأكرم ما يحصل عليه المؤمن في حياته. فبأنكم إن نظرتهم في وضعكم قبلها تجدون أنفسكم تتهين ضالين عن الطريق للمؤمن لكم في الدنيا والآخرة. كما ذكرهم بأن عليهم بعد قضاء مناسك الحج أن لا يظفوا عن ذكر الله، هذا الذكر الذي يصور عن حب كما يذكر أحدكم أباه، فمن فطره البشر فهم لذا نكروا أباءهم نكروهم بما يعبر عن حبه وعن التقوية بكمالاتهم، بل المعلوم منهم أن يكون ذكر الله ثم ولكل من ذكرهم أباءهم. ولما كان نكر الله ينتهي بالذكر لسؤال ربه حاجاته، فسمت الآية المسائل إلى قسمين:

- قسم هم في الدنيا ففصر دعاه على نيل حظوظ الدنيا وغفل عن الآخرة، فلا يكون له بغلته عنها أي حظ.
- وقسم المؤمنين الصالحين الذين يتوجهون إلى ربهم أن يوتيهم من فضله في الدنيا الخيرات الطيبة السالمة من النكد، وفي الآخرة ما وعدهم من الفضل الذي لا يشوبه نقص ولا شمول بالحرمات، وأن يجعل لهم بذار الكرامة فيدخلون الجنة مع السابقين الذين لا يعذبون بالنار.

وختمت آيات الحج بأمرهم أن يذكروا الله ولا يظفوا عنه في أيام منى، وهي الأيام المحدودات: الثلاثة التالية ليوم العاشر من ذي الحجة، وقررت الآية أن من أقام معنى يوم الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة ونفّر بعد رمي جمار اليوم الثاني فلا إثم عليه بالتعجل، ومن تأخر فلم يخرج من منى إلا بعد رمي للجمار في اليوم الثالث فلا إثم عليه. ولستولاهما تعبير عن التخيير. وتلك لمن كان دليل اختياره التقوى. وقاعدة عامة يذكر بها القرآن دائما هي، أن على المؤمن أن يكون مستحضرا تقوى الله بصفة دائمة، ومستحضرا أنه سيحضر مع الناس بين يديه.

بيان المعنى العام:

136- واتموا الحج والعمرة بأمر الله

الحج عبادة بقيت منه صورة عند العرب من شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام. فاهتمت آيات الحج بإقامة أمور مما تحرفوا فيه عن شريعة إبراهيم. ومن ذلك أولاً: التوجه لله وحده في الحج والعمرة. تلك لأن العرب قاموا أصناماً في الكعبة وعلى أصفاء والمروة، فكان التوجيه الأول للمؤمنين أن يجعلوا حجهم وعبادتهم خالصة لله، وعلى هذا كان الذكر الذي يصحب الحاج والمعتمر مع إحرامه: لبنيك اللهم لبنيك، لبنيك لا شريك لك لبنيك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. ثانياً: أن تؤدي مناسكها خاصة كما يبيها رسول الله ﷺ الذي قال: خفوا عني مناسككم.

ثالثاً: أن على من شرع في عمل من أعمالهما أن يتمه ويبلغ به غايته. ولا ينقطع عنه حتى يتمه، وهذا ما أرشد إليه قوله تعالى: واتموا الحج والعمرة لله، ويمر على من شرع في أداء الحج أو العمرة ومنعه من عذر أو مرض أو عجز (وهو المحصر) أن يقدم هدنياً من النعم أو الفجر أو الإبل، ويقتضى على إحرامه حتى يذبح الهدي أو يحرر.

كما يبر الله على المحرم الذي أصابه ما يحتم عليه حلق رأسه أن يحلق رأسه ويفتدي. والفتية إطعام ستة مساكين لكل واحد منهم نصف صاع، أو صيام ثلاثة أيام، أو ذبح هدي.

رابعاً: حلت هذا التفسير شرع للمؤمنين من غير أهل الحرم (حاضروا المسجد الحرام) إذا قصدوا أداء فريضة الحج أن يقوموا بالحج والعمرة في سفر أو واحدة، وفي أشهر الحج، وذلك على خلاف ما كان يعتقد للمشركون أن العمرة لا تكون في أشهر الحج. والطريقة في ذلك أن يحرم بالعمرة، ثم يتحلل منها ويحرم بالحج بعد ذلك (وهو التمتع) ويقدم المتمتع هدنياً فمن لم يستطع للفقر أو لعدم وجود ما يهديه، فرخص له سبحانه أن يصوم عشرة أيام، ثلاثة في الحج وسبعة عند رجوعه إلى بلده. ونصت الآية على عشرة أيام لئلا يتوهم أنه يصوم سبعة أيام إذا لم يصم الثلاثة.

أخيراً الآية ما أمر به المؤمنون دوماً من تقوى الله حتى تصبحهم في جميع أعمال الحج والعمرة. من تاحييين: أداء المناسك كما شئوعها، والحذر من المعاصي، فلا يتكل على ما فتحه الله له من فضل فيزهلون ويتراضى عزيته، فليكن المؤمن دوماً على حذر فإن الله شديد العقاب.

197- الحج أشهر معلومات لا أيام

خلفهما: ضبط المؤمنين وقت الحج في شهر شوال وذي القعدة وذو الحجة، وهل جميع شهر ذي الحجة أو للثلاثة الأيام الأولى منه أو العشر أو الاثني عشر؟ خلاف بين المفسرين في التحديد.

سالمًا: أن من عزم على الحج فأحرم فليكن متضبطًا في سلوكه، فالمحرم عليه أن يكون حذرًا من الكلام الفاضل ومن الخروج عما حده الله بارتكاب المنهيات وأن يتجنب الحصاد والجدال المفضي للنزاع. ويعد الله من التزم بآدابه وطبق شرعه بأنه سيجزيه عما قدمه من خير، جزاءً وتقياً فلا يضيع من عمله شيء، لأن الله عليم بحقيقة ما يعمل كل فرد في حياته. ولذا فإن على المؤمن أن يستعد للحياة الآخرة، فهو في حياته الدنيا على مفر ليتحول من الدار الفانية إلى الدار الباقية، وزاده في سفرته هو التقوى. ولذا تصرح الآية بدعوة رب العزة لمن كان له عقل راجح لكي لا يلتزم سبيل التقوى.

198- ليس عليكم جناح أن تبتغوا...عن قبله لمن القتالين.

سالمًا: لجلال القربان ما كان يتخرج منه المشركون من التجارة في أيام الحج. فخص النص ببيتة أن يؤموا بصعدات يجنسون منها أربابها (أن تبتغوا أنفساً من ربكم)

ثالثًا: كان بعض المشركين يقفون بعرفة، وكل الحفص وهم (قريش ومن نخل معهم من كنانة وخزاعة) يقفون بالمعشر الحرام تلويلاً منهم بأنهم لما كانوا أهل الحرم فهم لا يتجاوزونه في مناسكهم. فسموت هذه الأئمة بين جميع الحجاج بأن يقفوا بعرفات وينفخوا منها إلى المعشر الحرام، وهو المزدلفة. وفي المعشر الحرام يؤلّون ذكر الله بتجديده وتكثيره وتحميده. ومنته على خلف توجب عليهم أن يذكروه بما من عليهم من الاهتداء إلى ما ينفعهم في دنياهم ومعادهم، وقد كانوا قبل أن تبلغهم هداية ربهم يشركون بقية الأوثان في ملوك مسالك الضلال والضياغ.

199- ثم أفيضوا...عن الله حضور رحيم.

تسابعًا: كان المشركون بمجرد ما ينفخون من المعشر الحرام إلى منى ينطلقون من الانضباط. وإذا هو التنازع والتشبيب بالنساء ومجالس اللهو، فأرشد الله المؤمنين أن يوالوا ذكره لذكرا صافرا عن حب خالص وإكبار كما يذكر المرء إياه. إنه من فطرة البشر أن يذكروا آباءهم ذكرا منيعًا عن حب، معبرا عن تقدير بالغ،

يرتلحون لهذا الذكر وينشطون له، بل طلب منهم أن يكون ذكركم لله أكمل وأنتم من ذكركم أباءهم، فإله أعز من أنفسهم وأبائهم.

200- هذا قضيتكم منكم كما لكم وما له في الآخرة من خلاق.

عاشروا: كلان المشركون إذا توجهوا بالدعاء بعد أدائهم لمناسك الحج يسألون حظوظا من الدنيا، ومتاعا من الحياة العاجلة، فكان قضيتهم همهم على ذلك موجبا لحرماتهم من الكرامة يوم القيامة فلا نصيب لهم منها.

201- ومنهم من يقول: عذاب النار.

ونوه بالمؤمنين الذين، يعامل ما رسخه هذا الدين في عقولهم وقلوبهم، من التزواج بين الدنيا والآخرة، يسألون ربهم من خيرات الدنيا وثواب الآخرة، ويدعونه أن يكونوا مع السابقين للجنة، بمغفرة وفضل تون أن تمسهم النار، فساخبر القرآن لهم معيرون بأن نصيبهم مما اكتسبوه من صلاح وتقوى يجزيهم به ربهم ولا يظيل حسابهم، تلك أن من نوقش الحساب غنّب.

202-203. أولئك لهم نصيب عحشرون.

علاي عشر: في هذا الجو من التأكيد على تولد الذكر يزيد القرآن تخصيصا لأمسا أجمله في قوله: كنكركم أباءكم أو أشد ذكرا، وذلك يبين رمن الذكر في الأيام المعصودات التي هي أيام منى يوم الحادي عشر والثاني عشر وثالث عشر من ذي الحجة. ثم رخص الحاج أن يقتصر على اليوم الحادي عشر والثاني عشر يرمون في كل يوم الجمار ثم ينتهي باليوم الثاني عشر كل أعمال الحج، كما يمكن لمن أراد الإقامة بمنى يوم ثالث عشر أن يواصل.

ونصت الآية أولا: على أن من تعجل فقد عمل بالترخصة فلا إثم عليه بالتعجل، نفيا لما يتوهم أن التعجل، وإن كان لا يبطل الحج، فإن فيه نقصا عن التمام قد يائث به المتعجل.

ونصت ثانيا: أن من أقام منى اليوم الثالث عشر ولم يتعجل لا إثم عليه أيضا إذا كانت إقامته بمنى، وهو ملتزم فيها تقوى الله وأداب أيام منى. ونفي الإثم لدفع ما يتوهم أن من لم يأخذ بالترخصة، معرض عن التفسير الذي تكرم الله به على الحاج. فأكدت الآية بهذا التفسير على الصورتين أن الحاج مخير بين التعجل وعدمه، وأنه لا مزية لأحدهما على الآخر.

ثاني عشر: تتوج آيات الحج بلزم ما كان له دخل في تصور المشركين، ونسك بالوصية الجامعة التي على الحاج أن يكون حريصا على مراعاتها بعد أن طهر

نفسه بأداء الركن الخامس من أركان الإسلام، تقوى الله، التقوى التي يكون بها المتقي مستحضراً أن الحياة الدنيا قصيرة وأن للناس جميعاً سيحشرون بين يدي رب العالمين، لا يتخلف منهم أحد في الحشد الجالس الذي يطيعهم صورة منه ما كانوا عليه عند أداء المناسك.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَوْءَدُ الْحَصَاةِ ۚ وَإِذَا تَوَلَّى سَفَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ آبِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ هَامُوا آتَوْا فِي السَّلَمِ سَكَاةً وَلَا تُكْرَهُوا خُطُوبَ السُّوْطَيْنِ ۚ إِنَّهُ لَحَكْمٌ عَذُوبٌ ﴿٢٠٨﴾ لَئِنْ زُلْزِلَ مِمَّا بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَاسُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

بيان معنى الألفاظ:

من الناس: بعض الناس.

بعض: بعض عندك.

يشهد الله: يقول الله يعلم أن ما قوله حق.

اللذ: شديد الخصام.

الحَرْث: شق الأرض للزراعة وسمى الزرع حرثاً وكذلك ما يغمس من الشجر.

النَّسْل: ما خرج متتابعاً كنتاج الحيوانات.

الفساد: إتلاف ما هو ذائع نفعا محضاً لو راجحاً.

لُفِقَتْهُ الْعِزَّةُ: استولت عليه العزة بسبب تكبره.

فحسبه: يكفيه جزاء.

المهاد: ما يبيت من الفراش.

يشري: يبيع نفسه.

المسلم: يطلق على الإيمان وعلى السلام.

كُلُّهُ: جميعاً.

زُلْزِلَ: أصل الزلزال اهتزاز لوزن، والمولود في الآية عدم الثبات فانزلتم واتبعتم الشيطان.

بيان المعنى الإجمالي:

لا تغتر أيها المؤمن بكل ما سمعته. ذلك لأن بعض الناس يبطن الشر والخبث، ومع ذلك يعطيك من طرف لسانه حلاوة، ويعمل على تزيينك بقوله: الله يشهد أن بطنني لا يختلف عن ظاهري. وهو في الحقيقة يقلب الحقائق ضدك الخصومة. ويفضح أمره إذا ابتعد عنك لو تمكن من السلطة، فإنه في الحلقة الأولى يظهر ما فعلوى عليه من فساد وإفساد، وفي الحلقة الثانية يفسد يظلمه في الأرض بما يصحب الظلم من أخواف فينكمش الناس عن الإنتاج، ويتراجع العمران، وتقتصر الأرض نيعا لذلك عن إبراز خيراتها، ولا يتشجع العمال فينشط الاقتصاد، ويذهب الأمل فيحس الناس ليومهم بلا مخططات يتتبع إنجازها في المستقبل. والله لا يحب من يتسبب في الإفساد. وهذا المصنف من الناس مطبوع على الكبر، فإذا توجه له من ينصحه ويذكره بأن عليه أن يخشى حساب الله فينتفي غضبه، شممخ بأنفه وتكبر. ويكتفيه جزاء أن الله سيهيئه بإخلاقه جهنم التي تكون له فراشا، وما أسوأ من قرئش. ومن الناس من يباع نفسه لله ابتغاء مرضاته وطمعاً في الفوز برضوانه، وليلام من ملك هذا المنهج كل خير، فإن الله رؤوف بعباده المؤمنين. وبناء على ذلك يصدر النداء لجميع البشر أن يدخلوا جميعاً في الإسلام عقيدة وتطبيقاً لشرائعه، وأن يتجنبوا المسالك التي يدعو إليها الشيطان، فذكروا أن الشيطان هو عدوكم، عدوته واضحة بيّنة. ولتعلم من نبع نداء الشيطان وتحتدر إلى الرذيلة واركنب إثماً، بعد ما تبين له طريق الهدى، ليعلم أنه لم يضر إلا نفسه، فإن الله في عزته وحكمته لا تنفعه الطاعة ولا تنضره المعصية.

بيان المعنى العام

204. ومن الناس من يعجبك قوله: هو هو ألد الخصام.

في آيات الحج ذكر القرآن أن بعض الناس قصروا مهمهم على الحياة الدنيا: (أناساً في الدنيا وما لهم لى الأخرة من خلاق) وهم الكافرون. وبعض الناس، وهم المؤمنون يتوجهون إلى ربهم لأن لا يحرمهم من فضله فس النارين (أناساً في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة). وذكر في هذه الآية نمطاً آخر من أناس وهو الذي يظهر الإيمان، ويتكلم في الإسلام وعن المسلمين ما يسر للسمتع له، وهو يبطن خلاف ما يقول، فصلت الآية ملامح هذا النمط من الناس حتى يحذره المسلمون ولا تروج عليهم حيله ومحاولاته الاتسار في الجماعة الإسلامية.

أول ملامحه: أنه يفر المستمع له بالتتوييه بالإسلام، ويرتز مزاياده، وخصت الآية الامتسان لآقواله في الدنيا، لأنه ميفضح يوم القيامة ويظهر نفاقه ويلقى جزاءه مهانة في جهنم.

ثاني ملامحه: أنه يشهد الله على أن نفسه عوت بحسب الله ورسوله والمؤمنين.

ثالثها: أنه إلى عرضت خصومة تجده شيئاً جذا في الخصام يقلب الحجاج ويعتمد للجواب البعيدة ليدعم بها باطله.

رابعها: أنه إذا تصرف عك، ولتبد، ومكنته الفرصة، تجده متحركا حريصا على إفساد الأرض، لا يتقي موضه النفس وما لتأكله من حقد وبغض للناس إلا الإفساد بإهلاك ما به قوالم حياة الناس كالتزروع والثمار والأشجار والحيوان والدور. ومن ذلك في عصرنا أسلحة الحمار لتسامل كالأسلحة الذرية والجرثومية والحارقة والصوريخ الماحقة لكل ما يقوم أساسها.

قاعدة: (إلا الله لا يحب الفساد) فالمنس خسر رضا الله عنه، ومن سخط عنه لا يفلت من عقوبته.

205-206 ، ولذا تولى سوليشن المهاد.

خامسها: أنه متكبر لا يخضع للحق، فلذا وعظله واعظ، استولى عليه تكبره واعتزله بما صدر عنه من إثم وذنبة وظلم واستبداد، وأسم أدنيه عن الحق، والظلم المتعالي المقصد للمعتر بما يصحبه من إثم، يفعه لذلك كبره وظلمه أنه قوي مفكر، لا يفلت من منزلة الهوان يوم القيامة في جهنم، وجهنم هي أسوأ فرائس بهيا يجمع بين العذاب الذي يتجاوز الوصف، والإذلال الذي لا حد له. وقد تجتمع هذه الصفات وقد يظهر بعضها، والعاقبة واحدة.

207- ومن الناس من يشري سؤاله رؤوف بالعباد.

شأن القرآن أنه ينكر الشيء، وقسيمه استوفى كل شأن من شؤون الحياة. إنه بجانب النمط الأول المقصد بتألق نمط آخر: وهو الذي يبيع نفسه، لنفسه التي هي أعلى ما يملكه الإنسان، يبيعها ويملكها نصرة دين الله ولتثناء رضوانه هذا الرضا الذي لا يناله الإنسان إلا إذا كان ملتزم القويم عسده مرتباً على أن طاعة الله وتحقيق ما ينصر دينه وينفع عباده أولى لوليائه. يشر الله هذا النمط بأنه رؤوف بهم فيسر عليهم أمرهم ويرحمهم ويعينهم، ولا يكلهم إلى نفوسهم فهم في رعاية الله ورحمته.

208- يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلمة إنه نعم عهد مبين.

نداء من الله للمؤمنين كي يستيقظوا للاعتكاف لما يأمرهم به، ويتعدوا عما سينهاهم عنه: أمرهم أن يلتزموا للثبات على العقيدة الإسلامية وطاعة لأمر الله، إذا أمر بالسلم بالإسلام، وأن يلتزموا بالسلم بينهم بما تقتضيه أخوة الإيمان ورفقة الدين الحق التي استلقت من النفوس ما توجب فيها من آثار العداوات التي كانت مستحكمة بين القبائل العربية وحولتها إلى تناصر ووحدة. وهذا الأمر يشمل كل مسلم وهو معنى (كافة). ونهاهم عن فباع ما يدعو إليه الشيطان، وما يرسمه من طرق الضلال والفساد. وحذرهم من تلبسه ليكونوا بظلمين دائما إلى أنه عدو واضح العداوة، لا يغريهم إلا بما يعقبه خسرانهم.

209. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

ولقد التحذير بأن من تراخت بظلمته فإلحاق متبعا للشيطان، فليكن حاضرا في علمكم دائما: أن الله عزيز لا يغلب ولا تعرض لركبته ولا تحدد قدرته، حكيم محكم للأمر، بما يترتب على هذين الوصفين، أن من أبع خطوات الشيطان بعد التحذير، وبعد أن بلغت بينات الحق غايته معرض للعقوبة التي لا ظلم فيها .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى

اللَّهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

بيان معاني الألفاظ

يَنْظُرُونَ: ينتظرون.

الظُّلَلُ: جمع ظلة: ما يستر ويحجب ما فوقه.

الْغَمَامُ: أرق السحاب والصفاء.

الْقَضَاءُ: الفراغ من الأمر وإتمامه.

بيان المعنى الإجمالي

بعد أن جاءت الآية لينة على صدق الرسول ﷺ ، فالتفكر عن التدخل في الدين لا عذر فيه، إلا أن ينتظروا بإيمانهم أن يشهدوا الله في ظلال من السحاب بخصائهم مباشرة مع الملائكة تعالى الله عن ذلك. وقد قضى الأمر وتقرر الحكم، وسوف يعود الجميع إلى ربهم، وينفرد سبحانه بالمسلطان ظاهره وباطنه ولا يملك أحد منهم شيئا (والأمر يومئذ لله).

بيان المعنى العام

210. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّوَابِرُ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ.

ذكرت الآية السابقة أن الأئمة البيعة قولصة قد عرست على الناس (من بعد ما جاءكم البينة)، ولا عذر لمن يتكأ ويسوف ولا يبادر بالاستجابة. إن شواهد صدق الرسول ﷺ قد قضت على كل ما يوجب التردد ونفت الحيرة، فما الذي ينتظرونه ليدخلوا في دين الله؟ هل ينتظرون أن ينكشف عنهم الحجاب فينظروا بأبصارهم الذات العلية وقد جاءهم في كل من تقام؟ هذا أمر قد سجله الله على الكافرين المعاندين المستكبرين في سورة الفرقان: **وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لقائنا كبراً**، وإذا وصلوا إلى هذا الحد من العناد وعظ قروح وفسد التفكير، فقد قضى الأمر وصدر القرار العام لشمس الذي لا مثوبة فيه، فكل الخلائق يصور أمرها إلى الله. وقد قضى الله على كل نفس جزاءها جزاء وفقاً.

سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَامْرَئٌ مَثُولًا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ نَارُوتَ بْنَ نَحُشَ إِثْرَافِيلَ إِذْ يُلَاقِيهِمْ فِي الْوَادِئِ الْعَاقِبِ ۖ قَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا صَدُوقَكُمْ ۖ فَمِثْرَ الْيَوْمَ عَاقِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَبْغُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عَلَى اللَّهِ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا حَكِيمًا

بيان معنى الألفاظ:

سَلَّ: أمر من سأل.

كم: اسم للمعد الميمهم يستعمل بها.

الآية البينة: المعجزة والدليل الواضح.

يهيئ: يجعل شيئاً عرضاً عن آخر.

نعمه الله: الأيات البينة للهداية للحق المزيلة للشك.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الرّمول أن يتوجه بالسؤال لليهود الذين كانوا حاضرين في المدينة عند نزول الآية: كم يسر الله لهم من الآيات البينة. التي هي نعم توجب قطعاً بينة والثبات، ولكن بني إسرائيل بطوا تلك نعم بعدم تقديرها حق كبرها واستمروا على مواصلة الطغيان وعدم الرضا بها. واستحق بنو إسرائيل، كما يستحق كل من لم يعرف حق نعم الله عليه، العقوبة من الله الذي لا يفلت من أرك عاقبته من تسليط ما يستحقه عليه. إن مباحج الحياة الدنيا وما كساه الله بها من جمال وحسن، هو المدخل الذي ينفذ منه الشيطان إلى قلوب الكافرين، حتى يصل بهم الأمر إلى اعتبار تلك

للمباح هي الحياة ولا قيمة وراءها ومن كل حظها منها ضعيفا ينظرون إليه بلذراء على أنه نازل في المقام الاجتماعي. وعلى هذا كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين. وعمر الدنيا قصير ف هؤلاء الصالحون من المؤمنين سيروغ الله مقامهم يوم القيامة. وبذل للكافرين. وعطاء الله للصالحين عطاء واسع لا تحده حدود.

بيان المعنى العام:

211- صل دنى إسرائيل-إله شديد العقاب

أمر النبي نذ أن يسأل اليهود عما مكنته الله منه من الآيات البينات، وما أظهره لهم موسى عليه السلام من المعجزات القافية لكل ريب في صنفه، وقد قص القرآن في غير ما آية أن اليهود كلما اتهم الله آية قبلوها سافراحي المعكر والمستحيل، طلبوا بعد ما يسر الله لهم في أرض الله، لمن والسلوى، طلبوا الثوم والبصل والبقول، وطلبوا مرة أخرى أن يروا الله جهره، وطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها كعبدة الأصنام (قلوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) والآيات بزيها الله عباده ليعي عن قلوبهم الصورة، ويبعد من قلوبهم الشك، وهي بذلك من أكبر المنعم، فطالبوها بما يدل على عبادهم وقسوة قلوبهم، وطلبوا ما ينبغي أن يصدر عنهم، بعد إيمانهم بإلهاء، من طاعة وملوك طريق الهداية الواضح، بدلووا ذلك بتلك المطالب المتلاحقة، سليطة بنت سليطة. ويصدر الحكم للعمل كفائدة في معاملة العصاة من هذا النوع بأن الله شديد العقاب لا يملك الجاني منه. وترتبط الآية بقوله تعالى في الآية السابقة، (فإن أنتم من بعد ما جاءته البينات فاستمروا لا الله عزهم حكيم) والتذكير بما سلط على بني إسرائيل بعد إرضاهم عن الانتكاس من الآيات البينات.

212- زين للذين كفروا جورق من يشاء بقبر حساب.

لقد زين الله الحياة الدنيا زينة رغب عليها اختيار البشر، فاما الذين كفروا فقد أخرجهم الحياة الدنيا بما أودع فيها من حس وجمال يستهوي النفس فيستولي عليها ولا يترك فيها متخلا لتلق نور الإيمان وجمال العبادة، والشيطان يركب ما في الحياة من زينة ليحصر نظر من ينعه على ذلك الوجه الحسن من القوة ومختلف أنواع الشهوات والاستكثار بغير حق. إلى أن يصل إلى احتفال الفواحى الروحانية والسلوكية، فتبذل القيم ويمتدح للنساع ضعفا والفقير خسية، والصديق بلاهة، واللفة قد حسامية بالجمال. فيلغظ الظلام على قلوبهم وأرواحهم ويرفضون ما اتهم الله من الآيات، بل يتجاوزون بصلفهم ذلك إلى احتفال صفاء المؤمنين والسخرية منهم. إن للمعاق الذي استولى عليهم ونفخ للشيطان به في مشاعرهم فهبطت. هو متاع زائل، يدرك المثل أن جميع متع الحياة الدنيا لا تتجاوز لحظة

ظهورها وتغنى عنها. لما ما أعده الله لعباده المتقين في الآخرة فطبيعته تختلف عن طبيعة منافع الحياة الدنيا، إذ تتزولج فيه المنفعة الروحية والعقلية والجسدية بصفة تسمى عن كل تصور. ومن الكرامة لهم وفنكال يكافون، شعورهم بمنزلة المتقين التي تلوهم **(توقهم)** ومثلان بين عاقبة للكافرين الجدين يلتقون جزاءهم من المهانة والحرمان واليهون، وبين عاقبة للمتقين الذين يعطي الله سبحانه أقدارهم، فيرفعهم إلى منزل الكرامة والراضون والقرب. وتعب الأوبة عن ذلك تغييراً يذهب فيه للتصور ما شاء بقوله **(من غير حساب)** إذ ما يحسب هو المحدود أما ما تجاوز الحد والحد فخلاصته أنه لا يحسب. وتربط الآية بقوله تعالى **(واؤه. زوف بالعقاب)** ومنزلة المتقين من رافعه. وبقوله تعالى **(والتضر الأمد وإله انه ترجب الأمور)** فهذه هي صورة من صور رجوع الأمر إليه.

كَانَ الثَّامِنُ أَنَّهُ وَجَدَ أَنَّ النَّجْدَ مُبْغِضِينَ وَمُتَبَرِّئِينَ وَأَوَّلَ مَقَامٍ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخْخِمْ بَيْنَ النَّاسِ لِيَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا يَنْتَهُمُ فَبَدَّى اللَّهُ آلِهَةَ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِرُؤُوسِهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ مُبْصِرَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

الامة: اسم للجماعة التي يجمعها موطن أو دين أو لغة.

ولادة: أمها واحد في الدين.

پہنت: ارسل النبیکم بشریعتہ.

النبي: من أوحى الله إليه فإن لم ير بتبليغ الوحي والقيام على مقتضاه فهو الرَّمُول.

مبشرين: من البشارة وهي الإعلام بخير (الوعد).

منفرون: من النذرة، وهي التحذير من شر (الوعيد).

وقرأ بينهم: ظلما وحسدا.

والله : بالتعظيم :

١٠٢- بيان المعنى الإجمالي:

مضت البشرية زماناً، يعلمه الله، مومنة بالله على الخطوة السليمة، ثم برز الخلاف بينهم في العقيدة واختلط الحق بالباطل، واستمرت الأضغاح على هذا النحو، بين الإيمان والضلال، ومن رحمة الله بعباده أنه كلما اختلط الأمر وعميت الحقيقة يبعث رسولا، طريقة المرسلين لهم بينصور الحق ويزيلون الشبه وما داخل العقول

والعوائد من ضلالات، يفتنون الطائفتين بالنجاة والفسوز ويحذرون العصاة المنحرفين وينذرونهم إن لم يرتدعوا يذلب الله. وأنزل على كل رسول كتاباً يكون لمرجع لتبين الأحكام الذي يرضاه الله، ثم إن الناس بعد ما جمعهم الرسول والكتاب الذي أوحى إليه ويلغوه، يعودون بعد ذلك إلى الاختلاف في فهم الكتاب وفيما تضمنه من الحق الجامع للكلمة، وما كان هذا الاختلاف إلا لعمل الصد وتجاوز الحق إلى الهوى. واستمر هذا الخلاف قمتين إلى أن ظهر في التكون المؤمنون بمحمد ﷺ الذين ميزهم بهديتهم نوحه الحق الذي لا يلتبس كما للذين على الأمم السابقة فاختلفوا، وذلك فضل الله خص به أمة محمد، يؤتي سبحانه فضله من يشاء.

بيان المعنى العام.

213- كان الناس أمة واحدة سمعوا رسولهم.

(ومن الناس من يعجبك ...) ¹ والآية (يا أيها الذين آمنوا لمثلوا في العلم) ² والآية (إله بني إسرائيل...) ³ تلكم الآيات كشف فيها القرآن مواقف بعض الناس في العقيدة والسلوك. وكشف في هذه الآية عن حاله البشرية عامة من بداية الخلق إلى القمعة للمحمدية. فمضمون الآية من الغيب، ذكر القرآن أن الناس كانت تجمعهم عقيدة واحدة، تبعاً لقلة عددهم، وسلامة فطرتهم، وفربهم من التزيئة الصالحة التي قام عليها آدم وزوجه، ثم اختلفوا بما يركبه الوهم من صور في العقيدة والعبادة وما يزينه الشيطان من ضلالات، وهذه الصور الوهمية والشيطانية من طبيعتها أن لا يتفق البشر على قبولها، ولما اختلفوا بسببها اخلاقاً يذهب يوحدتهم ويبعدهم عن ربهم. ويتكرر هذا الأمر في مسيرة الخليقة، وتدرك الله البشر بإرسال الأنبياء، فكما أمد أمر البشر في حقبة من الأحقاب، وانطمس الحق وشاعت الضلالات يبعث رسولا يدعو إلى الحق ويبين المنهج الصحيح في العقيدة والعبادة ويمد من قريحه ويشره بسلامة الحاضر والمآل، ويحذر المخالف الوكمن للدعوة وينذره بمسوء المصير. وإن أمر البشر لعجب، يأتي الرسول ويبين ويترك في القوم الذين بُعث فيهم كتاباً من عند الله، مما جل فيه الحق والمنهج الزائد فيفرضون في الاحتفاظ بنص ما تلقوه من الوحي، ويضيفون إليه من أهولهم ما يطمس نوره ويوهن تأثيره، وذلك من أشد الظلم إذ اعتكوا على كلمة الله فقوي الاختلاف بينهم،

¹ سورة البقرة، آية 213

² سورة البقرة، آية 208

³ سورة البقرة، آية 211

واشكك التعصب بين طوائفهم، وكلما أوجسوا في طريقهم ذلك تأكدت للفرقة وازدادوا بعدا عن الحق. وبعث الله محمدا ﷺ ليعود بجميع أهل الديانات السائدة عند البعثة، يعود بهم إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم. فقد اختلف اليهود في التقديس والتقرب من بعض الصالحين منهم، ونسبوا لأنبيائهم منكر نسط من مقامهم واختلفوا في مصيرهم يوم القيامة، وكذلك النصارى اختلفوا في ماهية المسيح الله وفي ميلاده وفي ضبط ما شرعه لهم إثن من ربه، فهدى الله المسلمين بفضل ما بينه محمد ﷺ إلى الحق الذي غاب عنهم، فكانوا الآخرين زمناء المفسمين في إدراك الحق بتيسير من الله عز وجل. وهذه المزية هي فضل من الله عز وجل، والله يخصص من يشاء بالهداية إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، الواضح للمهيمن على جميع الشرائع السابقة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ
الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا نَعَمْ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا
إِنْ نَصْرُ اللَّهِ فَرِيبٌ ۝

بيان معنى الألفاظ:

مثل الذين خلوا من قبلكم: شبيه ما حصل للأمم السابقة قبلكم.

الباساء: الفقر وما يصيب الإنسان في ماله.

الضراء: شدة الحال على الإنسان ويقابلها السراء.

وزلزلوا: للزلزلة حركة عنيفة.

بيان المعنى الإجمالي:

لنظنون أن كفوزوا بدخول الجنة دون أن تتعرضوا لما يختبر به صدق إيمانكم في ظروف وأحوال فيها شدة، على سنة الله في الأمم التي سبقكم، فقد ابتلوا في أموالهم وأبدانهم وعقولهم من الضيق ما عاثوا، حتى يجأروا إلى ربهم يسألونه أن يجعل ينصرهم عند اشتداد الأمر وضيق الصدر والخوف من الغناء العظام، وييسر الله المؤمنين بأن الله سييسرهم ولن ساعة الفرج، والخروج من الضيق وتيسير للفقر، قريبة وليست بعيدة.

بيان المعنى العام:

214 أَمْ حَسِبْتُمْ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ

كانت منة الله على أمة محمد في ختام الآية السابقة منة عظمى خصهم بها (فهدى الله الذين آمنوا إلى ما اختلفوا فيه من الحق يثبت الله بهدي من يشاء إلى

صراط مستقيم وبينه القرآن المسلمين إلى أن الكرامة التي خصوا بها تدعوهم إلى اليقظة والصبر ومغالبة الصعاب، وتحدي مؤامرات وإغاليات الكافرين، ينبههم إلى أن ذلك هو سنة الله في الذين مضوا من الأمم، فقد ابتلوا في أحسامهم وفي أموالهم، ووقعوا في الشدائد، فتوا الطمانينة فكفوا في رجة تتبعها رجة، حتى يقول رسولهم والمؤمنون معه عند قوة الكرب وإطباق الشدائد إطباقاً بحيث لا يظهر في ظلام النفق بصير من نور يبيئ عن المخرج من الوضيق، يقولون: متى يأتي نصر الله؟ بعد أن عرض على أتباع الرسول سيدنا محمد ﷺ هذه الصورة للمجاهدة الشديدة، يخرجهم من غزو إلياس ويعجل القرآن ببشارتهم: إن نصر الله قريب منهم. فمهما اشتد بأس الكافرين، ورغم ما دبروه، ونفذوه من استيلاء على الأموال وتعذيب وإخراج من الديار ومفارقة للأهل والموطن، فإنه بصبرهم واعتمادهم على ربهم وتوكلهم في الحق الذي هم عليه، يأتي قريباً نصر الله، وما النصر إلا من عند.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْمَسْكِينِ وَالسَّابِقِينَ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

بيان معنى الأنفاق.

التفسير: المال.

ابن السبيل: المسافر الغريب.

بيان المعنى الإجمالي:

هذا هو السؤال الثاني في سورة البقرة: ما أنفق المسلمون النبي ﷺ من الخيرات؟ هم أولى بالإنفاق عليهم الإنفاق الذي حض عليه. كان الجواب أن أحق الناس بذلك الولدان والأقرب واليتامى والفقراء المحتاجون، والمسافر الغريب. وختم الآية بأن الله لا يخفى عليه ما تفلونه من خير، فهو يجزيكم عن صالح ما تقدموه.

بيان المعنى العام:

215- وما أنفقوا من خير، الله به عليم.

غرف العرب بكرمهم، وبفخرهم بتبذير المال، ودعاهم الرسول ﷺ أن ينفقوا من أموالهم ما يقوي لومة الشاخي بين الجماعة الإسلامية، ولن إنفاقهم سيلفون جزاءه عند الله متى التزموا بمنهج الإسلام في الإنفاق. ولذا طلبوا منه ﷺ أن يبين لهم لوجه الإنفاق التي ترفعهم من رضوان ربهم. مسجل القرآن السؤال. ومسجل الإجابة التي جاء بها الوحي، فافتتحه بقل، حتى يكون أبلغ في الدعوة إلى الإسراع بتنفيذه.

عنت الآية خمسة أنواع من المقامين عند الإنفاق، إذا تلمت فيهم تقتنع بأن ملحظ مراعاة نفوية أصرة الترابط الاجتماعي واضحة. وهم على ثلاثة أقسام:

• القسم الأول: الأسرة: للوالدين والأقرب.

• القسم الثاني: ذوو الحاجة في المجتمع، فمسكين الذين لا يجدون ما يكفيهم من مقومات الحياة الكريمة.

• القسم الثالث: رابطة الإيمان بين المقوم في بلده والغريب السارد، الذي قد يكون بسبب بعده عن بلده في ضيق، فهو جدير بأن يعلن، وإن كان غنياً في بلده. ثم أرجعت المؤمنين إلى ما استقر في نفوسهم من التربية العالية التي رباهم عليها النبي ﷺ، فنكرهم بأن الله يعلم ولا يفوته أي عمل خير يقوم به المؤمن، وفي ذلك إشارة إلى أنه يتولى جزاءه، وإن عمل الخير لوسع مما عد في الآية.

كُيِّبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَلْمُتُونَ ﴿١٥٧﴾
عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ
وَالْمُنْجِمِ الْحَرَامِ وَالْحَرَجِ أَهْلِيهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْقِتَالُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا
يُزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى تَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَزِدِدْ مِنْكُمْ
عَنْ دِيَارِهِمْ فَبِمَا قَاتَلْتُمْ مِنْهُمْ أَغْنَاهُمْ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنْ الَّذِينَ قَاتَلْتُمْ وَتَلَاوَنُوا الَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَنَّبُوكُمُوهَا سَبِيلَ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ أَعْلَمُ ﴿١٥٩﴾

بيان معنى الألفاظ

للقتال: الجهاد بالحرب.

كره لكم: تكرهونه.

الشهر الحرام: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

قتال فيه كبير: إثمه كبير.

أهله: المستوطنون بمكة.

الفتنة: التسلط بالظلم لإكراه المظلوم على التخلي عما يؤمن به.

يردوكم عن دياركم: يرجعونكم إلى الكفر بعد الإسلام.

حببت أعمالهم: ذهبت آثارها.

بيان المعنى الإجمالي:

خاطب الله المؤمنين بأن الله لوجب عليهم القتال وخوض الحرب دفاعاً عن الدين، والله يعلم أن النفوس تكره الحرب لما فيها من تعرض للمخاطر وتشغل عن الأهل وعن الأعمال التي كان يقوم بها المحارب، ولكن للتسريع السدي يحصن الأمة ويحميها لا يتبع رغبات الناس وميولهم فصرحت الآية بأن ما فرضه الله على المؤمنين فيه الخير لهم، والقيء محجوب عنهم، فقد يكون ما يحور حصوله فيه ضرهم، وقد يكون ما يكرهونه الآن فيه الخير في المستقبل لهم، فالله منفرد بعلم الغيب، واليؤمن لا يعلمون من الغيب شيئاً. سئل الرسول ﷺ عن حكم القتل في شهر الحرام، فأوحى الله لبيبه ما يجيب به وأمره أن يقول لهم: إن إثم القتال فيه إثم كبير، ولكن منع من شرح الله صدورهم للإيمان، وإجباره على الكفر بالله، والحيولة بين المعظمين للمسجد الحرام وبينه، وإخراج المهاجرين: أهل مكة من ديارهم، هذه المظالم والتمنيات التي قام بها كفار مكة، أعظم إثمًا وأشد نكارة من القتال في شهر الحرام. وأيضاً فإن التسلط بالقهر والظلم والذكية بالمؤمنين ليرتكبوا عن الإسلام أكثر إثمًا وفتح من القتل في شهر الحرام. ونسب الله المؤمنين إلى الكافرين يستمدون لمحاربة المسلمين وجبرهم على التخلي عن إيمانهم وإن كان ذلك مستبعداً، فليحذروهم، وليعلموا أن من يرتد عن الإسلام سيحرم من جزاء ما قام به من صالح الأعمال قبل ارتداده، فيذهب كل ما قدمه سدى، ويفقد في ضربة واحدة جميع المزايا الخاصة بجماعة المسلمين في الحياة الدنيا كالتقاصر، ورعاية بيت المال، والدفع في مغاير المسلمين، والتورث إلى آخره. وكذلك يلقي نفس المصير في الآخرة فيحبط ثواب جميع ما قام به من صالح الأعمال. ويؤثر القرآن عقب ذلك بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل نصره الإسلام، بأن الله ينزل في قلوبهم الحكمة، فهم في جميع ظروف العسر واليسر على رجاء في رحمة الله. ويتأكد رجالهم بإيمانهم أن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة.

بيان المعنى العام:

216 كتب عليكم القتال. ولكنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

يحرك الله للمؤمنين ليستيقظوا، وليستعدوا عزفهم على الامتنال لما يأمروهم به باعتبار أنه من مقتضيات الإيمان. أخبرهم بأن الله لوجب عليهم الجهاد (القتال) والله يعلم أن خوض غمار الحروب شديد على الإنسان لا يجبه، أما يمكن أن يتعرض له المقاتل من مخاطر الموت أو الجراح، ولا تشغله به عن نشاطه الاقتصادي،

ويعدّ عن أهله وتركه لهم، والإيمان بطبيعته يكره ذلك، ويدعو القرآن المؤمنين إلى تجاوز النظرة العجلى، القصيرة على الحاضر القريب، بحكم أن البشر محبّون عن معرفة الغيب، ذلك أن ما سيحدث في المستقبل ليس كما يتوقعه البشر في حاضريهم، فكم رغبوا في أمر فكانت عاقبته هلاكاً وخساراً، وكم كرهوا أمراً حمل الله فيه خيراً كثيراً يظهره في إيانته. بحق هذا أن الله هو المتفرد بعلم الغيب وأن الناس لا يعلمون من الغيب شيئاً، في الآيات 190/194 السابقة في هذه السورة يبين بعض أحكام القتال زماناً ومكاناً. وهذه الآية وقد نفّثت إلى الغيب البعيد وحركت المؤمنين بأنه فرض عليهم ممن يعلم عواقب الأمور فلا تردّد في القيام به.

217- وما أولئك عن الشهر الحرام - خالدون.

وفي هذه الآية سجل القرآن الموقل الثالث في سورة البقرة. مثل رمول الله عن حكم القتال في الشهر الحرام، وقد فكر أنها نزلت في مربة سينفا عبد الله بن جحش الذي تعرض لاقالة قتل منها نخصاً ولسر لثنين آخرين في آخر يوم من شهر جمادى الثانية، فكان ذلك اليوم هو أول يوم من رجب الشهر الحرام، فخشى الكفار سألوا عن القتل في الشهر الحرام وأن ما وقع يؤن أن محمداً قد نقض حرمة الأشهر الحرم. نزل القرآن على قلب رسول الله في أمر أنه بأن يجيبهم بالوحي المنزل: إن القتال في الشهر الحرام إثمه كبير لمن قصد انتهك حرمة، ولكن 1- صد الناس ومنعهم من قباغ سبيل الله وطريقه الذي يرضاه لعباده. 2- وكفر الكافرين بالله. 3- ومنع القاصدين للمسجد الحرام من الطواف بالبيت واداء المناسك. 4- وإخراج أهل المسجد الحرام (سكان مكة) منه قسراً والاستيلاء على ديارهم وأموالهم، وهذا ما قام به المشركون المعترضون على خطأ عبد الله بن جحش في معرفة أول الشهر. إن هذه الأفكار هي أعظم إثماً وأشدّ شناعة عند الله. وفوق ذلك ما صنعه المشركون بالمسلمين من تدبير أنواع القتل والفقر وتقيدها، ليخرجوا المسلمين من الإسلام الذين ارتضوه، وهو ما عبر عنه بالنقطة أشدّ إيلاها وأبلغ لدى من القتل، فمواصلة التعذيب والسخرية أشدّ إيلاها ولما من القتل. ويؤكد العزم على المضي في الاستعداد للقتال والقيام به عند الحاجة بأن المشركين مصممون على مواصلة التسلط عليكم وشن الحروب على دياركم، لا يشفي غليلهم منكم إلا شيء واحد (هو أن ترتدوا عن دينكم وتوأسوا بظهوركم للإسلام) ويعدّ أن يبلغوا ما عزموا عليه.

إن لم يرتد عن الإسلام فطبع جدا، فمن يرتد عن الإسلام ويظلم قلبه بحجاب الكفر حتى يدركه الموت، يضر الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يخرج من الجماعة، فتقطع جميع أسبابه التي كانت تصل بينه وبين المؤمنين في أسرته وفي المجتمع، في التعامل وفي العبادة، وليس له حظ في بيت مال المسلمين ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، إلى آخر خصائص المسلم في المجتمع الإسلامي. وحظه لئلا من ذلك في الآخرة، فصالواته وصنقاته وما قام به من صالح الأعمال لا يبقى منها أثر في ميزانه عند حسابه، وجزاؤه العدل أن يقتل بالنار وتقرن به فلا ينفك أحدهما عن الآخر (الصعب قتل) وهو خالد فيها إلى أبد الأبد.

218- إن الذين آمنوا... وآله غفور رحيم.

وبنوه القرآن بعد أن وصف فظاعة مال المرتدين، يعود بالمؤمنين الذين توالى منهم مشاهد الفضل والثبات، الذين تركوا أموالهم وديارهم فهاجروا من مكة إلى المدينة تقديمًا لإيمانهم على كل شيء من حظوظ النفس في الدنيا، وقاموا بالاستعداد والذود عن سلامة الجماعة الإسلامية بجهادهم وخروجهم لحرب أعداء الإسلام، إن هؤلاء قد رزقهم الله نعمة عزيزة، هو أن ليس لأحد أن يدخل قلوبهم فهم في حالتي العسر واليسر يرجون رحمة الله التي رعت كل شيء، ذلك أن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة.

• سَمِعْتُمْكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ يَوْمَنَا إِنْ كُنْ كَثِيرًا وَمَنْفَعٍ لِلنَّاسِ وَإِنْ كُنْ أَكْثَرًا نَفْعُهُمَا نَسْتَغْفِرُكَ مَاذَا يُعْبِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُعْتَدِينَ ﴿٢١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِخَبَرٍ فَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَنَسْتَغْفِرُكَ عَنْ الْيَتَامَى قُلْ إِنْ صَلَاحٌ مِنْكُمْ خَيْرٌ وَإِنْ فَاسَادٌ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَمْوَالِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

بيان معنى الآيات

الخمر: عصير العنب المختمر الذي يحجب عقل شاربها .

الميمر: قمار كال لعب للجاهلية.

الآية: معصية الله بفعل سيء لا يرضى عنه الله.

الطو: ما زاد عن الحاجة من المال ولا يرهق المعطي.

ثقت المشقة.

بيان المعنى الإجمالي

سجل القرآن سؤال المؤمنين لمينذا محمد ﷺ عن امرين كلنا شاعتين عند عرب الجاهلية، سألوها عن حكم شرب الخمر، وعن حكم لعب الميسر فأوحى الله لنبيه قرآنا يتلى: أن في الخمر والميسر إيما كبيراء هذا الإثم يطبو على ما فريهما من بعض المنافع. وسألو أيضا عما ينفون، فبين لهم أن ما هم مكلفون به هو أن يكون الاتفاق بما لا يجهدهم ولا يتعل عليهم ونبيهم إلى أن فيما أجبوا به ما يدعوهم إلى التأمل فيه ليدركوا أن فيه السلامة والنجاح لكل فرد منهم ولمجتبئهم، والقور بالارتشول يوم القيامة. وسألو عن الطريقة التي يتعاملون بها مع الياسمي فأجابهم، قل: أناية بإصلاح لمرهم التربوية والبدنية والعالية خير من إهمالهم وتركهم وشأنهم. والذي ينبغي أن تستحضروه عند مخاطبتكم لهم في كفالتهم أو القيام على أموالهم لو عقد رابطة الزواج معهم ونحو ذلك من أنواع المخالطة، أن تستحضروا أنهم إخولكم، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحس لأخيه ما يحس لنفسه. ويوقظهم القرآن إلى أن المظاهر قد تكون زائفة وقد تكون حقيقية، والذي يرافقكم ولا يخفى عليه الواقع ولا حقائق الأمور هو الله عالم الغيب والشهادة، ويذكرهم بهذه النعمة التي أحل لهم بها مخالطة الوثني في حدود الإصلاح، فلم يوقعهم في مشقة البعد عن الصفاء من كوثانهم وأهلبيهم. فهو التعزيز الذي لا يرد أمره ردا، وهو الحكيم الذي يجري لمر التشريع على مقتضى الحكمة دون إيجاب عليه.

بيان المعنى العام:

مجل هذا المقطع السؤال الرابع والخامس والستين التي سألوها عنها رسول الله ﷺ والتي نولى القرآن الإجابة عنها مفتتحا بكلمة: قل.

219- وسألوستد عن الخمر... فلعنكم لتفكروا

السؤال الرابع: سألوها عن حكم شرب الخمر وعن الميسر معا. وهاتئنا بالأكية للمباينة أن الله نوه فيها بالأمميين وفتح لهم باب الرجاء وذكرهم فيها بأنه (خفور رحيم) مما يشعر بأن تعاليم الإسلام أثرت في أرواحهم وغزلهم فلكسبتها صفاء جعلهم يحدون إلى ما ألفوه باللفظ والتساول، وإذا اهتز ما اعتادوه وتحببوا في الأمر فزوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه ليبين لهم ما فيه صلاح لمرهم في الدنيا والآخرة. قرن بين الخمر والميسر الذي هو نوع من القمار الذي كان من مستنعات مجالسهم الخمرية على ما سيأتي بيانه. أما الخمر فهو شراب يحتوي على نسبة

من الكحول من شأنه أن يدفع شاربيه إلى متابعة احتياجاته إلى أن يؤثر فيه نشوة تصل إلى فقدان سيطرته العقلي على تصرفاته. ولا فرق بين أن يكون من عصير العنب المخمر أو من غيره. ويختلف المسكر عن المخدر، فالمسكر يُكوّن في شاربيه لتداعا، والمخدر يؤمن متعاطيه ويتركه في أحلام وتصورات خيالية تؤهميه بأنه في نعيم. وقد كانت الخمر من أحب الأشياء للعرب في جاهليتهم، نكاد نكون أكبر متعش لهم ينغمسون بشربها في حياة اللهو، فهاجوا بها لما طبعوا عليه من شجاعة وكرم، والخمر تعينهم على ذلك. ما كان الجانب العقلي الشامل يستهويهم في حياتهم المومسومة بالعاطفة المشبوبة. وفي مجالسهم الخمرية التي اجادوا وصفها في أشعارهم. كانوا يقرنون شرب الخمر بأكل اللحم المشوي، وإذا لم يحضرهم اشتروا جزورا (من الإبل) بثمن مؤجل ثم استهوا عليه، ليدفع ثمنه الخاسر. وطريقة ذلك: أنهم يعدّون عشرة قِداد (والقِدَح سهم صغير ليس في رأسه منقح) يضعون علامة على كل واحد من السبعة ويتركون الثلاثة لباقيّة غفلة، ثم يجلس أحد المقامرّين بجانب من يوكل إليه إجابة السهام في خريطة وإخراجها واحدا بعد واحد، يسمى كل واحد عند إخراج القِدَح، فإذا خرج السهم المكتوب عليه فتحرّز صاحبه إلى جهة ثم يخرج قِدَح آخر فثالث وهكذا، والذين يخرج لهم السهم الغفل ينحلمون ثمن الجزور. وثنيلاء الرّاجحون لا يأكلون من لحم الجزور ولا يأخذون منه شيئا بل يعطونه نكرما للفقراء واليتامى والمحاويج. ثم أطلق لفظ الميسر على كل قمار. وما كان من القمار على رهان فهو محرم إجماعا وما كان بدون رهان كالشطرنج وللعب بالورق ونحو ذلك فما حمل على المحرم فهو محرم إجماعا كالاشتغال به إذا أدى إلى الغفلة عن الصلاة واستغراق الوقت في اللعب وترك التكسب والقيام على العيال والتعصيب والخصام. وما لم يحمل على محرم لمعظم المذاهب النية على تحريمه.

ولما الخمر فهو حرام. ومُنكّر حرمة مسكر مُنكّر لما علم من الدين بالضرورة. وتختلف الفقهاء في النص للمحرم لشرب الخمر فرأى بعضهم أن الآية المحرمة لشرب الخمر هي قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأصنام والأوثان جبر من عمل الشيطان فاجتنبوه) فمكّد نفخوز كما يرمي الشيطان أن يقع بينكم العدوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصنم شر لكم انه دعين الصلاة فهل أنتم متنبهون)٤.

والذي يترجح عندي أن هذه الآية مفيدة للتحريم لما جاء فيها بأن في الخمر إثما كبيرا ولا يقل أن ينصر على مقارنة الإثم الكبير عقابه على شيء حلال. إذ الحلال لا يفارقه إثم. خاصة إذا وصف الإثم بكونه كبيرا أي شديدا. ونصبت الآية على أن فيها منافع للنفس. وهذا نال الحياة الدنيا بختلاط فيها الخير بالشر، والصالح بالفساد، وما غلبت مفاسده حرم وما غلبت مصالحه أذن فيه. ففي الخمر منافع لمن بعدهما ويتاجر فيها وقد ندرت بعض للتأثير الحسن على الصحة. ولكن مضارها للجسمية أقوى على الكبد وعلى القلب والشرابين كما كشف عنه علم الطب. وهي تعطل العقل الذي به شرف الإنسان وكلف وكرم. وفيها كبد للعمال. وتثير المدواة، وتذهب للحياء، ونحوه فتزله شاربها بالقيم والأخلاق. ولما الميسر. القمار فيه من المنافع أن القبلاء كانوا يملكون الأيتام والمحبوبين ومن يلم بساحنتهم من الضيوف، من لحم الجزور. ولما الإثم فهو ما يؤفقه من المدواة والغيضاء. وللتلبي عما كلف به الإنسان من عمارة للكون، وعمر القيام بما فرض عليه من التكالييف. من الاستيلاء على ملى الخاسر بالقبائل.

السؤال الخامس: سألوا: ماذا ينفقون؟ عتب السؤال عن الخمر والميسر والجواب عنه سنذكر هذا السؤال. والمناسبة أن للمعاصيين كانوا يتمتعون من المجالس الخمرية ومما ينجح فيها. فحضر بعد تحريم الخمر والميسر سؤالهم عما ينفقون. كما أن الإسلام سما بتكثيرهم، وفتح لهم منافع من المملوك ما كانوا يفكرون فيها. الأمر الذي جعلهم على التوقف والسؤال ليدركوا الحق والكمال. وأجابهم أن عليهم أن ينفقوا بطريقة لا تشق عليهم ولا تحملهم عنا تقيلا بقلوبهم عما هداهم إليه من منازل الكرامة والفضل. ذلك أن الإنسان إذا حمل ما يشق عليه فإن عوامل الرقوض لما يشق على النفس. فتتهي به إلى ترك ما يتقل. فله مصلحة أن تكون النفقة غير مقطوعة. وللتقليل للذات خير من الكثير المنقطع. وعلى هذا النحو من البيان تولى القرآن الأخذ بقول المؤمنين إلى مستويات رفيعة من الشطر والتدبير. فذكر ما إلى الخمر والميسر من مصالح ومفاسد ومضار ومنافع. وتخصيص الإنفاق بما تجود به النفس دون مشقة. كل ذلك يمكن المؤمنين من التكبر في صلاحهم في الدارين.

220- في الدلائل والأشعة: إن الله عزيز حكيم.

السؤال السادس: سألوا عن علاقتهم. وعن الطريقة السليمة في تعاملهم مع الوثنامي. قد يكون صلة الآية بما سبقها ما أشردا إليه من أن الوثنامي كانوا يحصلون على نصيب من اللحم في الميسر، فيم حضرون في أدهان السائلين عن الخمر والميسر. وقد يكون ما ذكر من الإنفاق يؤثر في النفس علاقة المؤمن بقرينه الوثني.

وكان التعرض لليتم، بسبب الحروب والمرض، يصيب كثيرا من الأطفال، مما يجعل مشكلتهم تدعو إلى البحث عن الطريق لحلها حسب ما يرضي الله. وكان الجواب قرأنا يتلى:

أولاً: أنهم مأمورون ببيع المال اليتامي كل ما يصلح لأموالهم، لإصلاح نفوسهم بحسن القيام عليهم في تربيتهم، وإصلاح لهم بأعزازهم، وإصلاح لهم في أموالهم بتكميلها وحفظها لهم، وإصلاح في زواجهم فلا يرغب عنهم ليتيمهم، ولا يرغب فيهم للاستيلاء على أموالهم. ونهت الآية إلى أن ننظر في شؤون اليتامي بما يحقق ما هو أصلح لهم، هو خير من التوقف والتورع باعتزال مباشرة تلك الأمور، وذلك لما يروجوه الناصح لهم من المثوبة .

ثانياً: أنهم إذا تجاوزوا هذه المرحلة إلى مرحلة أشد اتصالاً بفعالطوهم في أموالهم بشركة أو مصاهرة في تزويج اليتيم أو التبني، أو استأجروهم للعمل أو كانوا أجراء في أرزاقهم، أو اختلطوا بهم في أكلهم وشربهم، فالضابط الذي يجب مراعاته هو أن لا ينفلوا عن العلاقة التي عرسها الإسلام وأكد عليها علاقة الأخوة الإيمانية ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ثالثاً: ذكر القرآن بحقيقة هي من مقومات الإيمان حتى لا يففل عنها من يتعامل مع اليتامي، وهي شمول علم الله وإطلاعه سبحانه على حقائق الأمور، فإله سبحانه لا يخفي عليه ما يبطنه للتعامل مع اليتيم، فالمظاهر لا تخفي الحقيقة عنه، فهو يعلم من قصد إلى إيصال الإصلاح لليتم ومن قصد التسلط عليه مقدماً حطوطه. فإله سبحانه يعلم المقصد من الإصلاح.

رابعاً: ذكر المؤمنين بأن عليهم أن يشكروا نعمة الله عليهم فيما شرعه لهم في مخالطة اليتامي، فهذا التشريع حق لليتامي صلاح أموالهم والحفاظ على شخصيتهم وأموالهم، ويسر على أعضاء أسرهم الكبار أن يخالطوهم ولا يعزلوهم، فهو التشريع من العزيز الذي لا يرد أمره ولا يعرض عليه وإن عزته هي عزة الحكيم الذي لا يصدر عنه إلا ما هو خير للبشرية.

وَلَا تَكْبَحُوا الْمَشْرُكَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَنَّا نَوْمًا حَتَّى بِنُشْرِكَ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ
وَلَا تَكْبَحُوا الْمَشْرُكَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِنَعْنِ نَوْمًا حَتَّى بِنُشْرِكَ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ
أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

بيان معاني الألفاظ

العبد: الذكر المملوك غير الحر.

الامة: الأنثى المملوكة غير الحرة.

يقينه: بطلته وتقديره.

بيان المعنى الإجمالي

نهى الله المؤمنين عن الزواج بالأنثى المشركة، فإذا أمست حل للمؤمن أن يتزوج بها، وذلك لبعدها بينهما في تصور الوجود والقيم المبنية على ذلك، مفضلاً الزواج من أمة مملوكة، منزلياً الاجتماعية نزلة لرفقها، على الزواج من المشركة الحرة ولو كانت جامعة لصفات ترشّب فيها كالجمال والثراء والجاء، وكذلك نهى عن تزوج المسلمة من مشرك، وإن العبد المملوك المسلم خير من المشرك الحر ولو كان على حظ من الجمال والثراء والجاء. ذلك أن فاسد العقيدة يثأر إلى ما يتلاقى مع عقيدته من الفعل والأخلاق فينفي نفوذ إلى الدار، فهو بذلك ينقض مناقضة كاملة ما يدعو إليه المولى سبحانه ويهدي إليه، الذي هو الصراط المستقيم الذي يقود إلى الجنة، ويعرض به المؤمن إلى غفران ذنوبه بسيرة الله وقضاه، وناحية أخرى هي أن ما يدعو إليه بين وأصبح لا غشرب فيه ولا ظلام، مفتوح للتفكر فيه ينسجم مع الفطرة ومع مقتضيات العقل والوجد.

بيان المعنى العام

221- ولا تتكفوا العثرات، يتكفرون.

لما تعرضت الآية السابقة إلى الوصية بمخالطة الناس وعدم عزلهم، وكان بعض الناس قد يحتفلون في دينهم، فحاسب أن يفصل القول في الزواج مع اختلاف الدين. فبين الأحكام والعقل:

لولا: نهى أن يتزوج المسلم مشركة تدعو مع الله إليها لخير لو علمانية لا تؤمن بالله الواحد الأحد. والامة المملوكة المؤمنة وإن كثرت ففقدت لحرمتها فإن الاقتصار بها لفصل في الحاضر والعاقبة من حرية المشركة وإن توفر فيها ما يدعو إلى الإعجاب بها كالجمال والجمال والجاء، وكذلك العكس فلا تزوج المسلمة من مشرك ولو أعجبت بجماله أو بجماله أو بجماله الاجتماعي. وإن العبد المسلم المملوك لافقد لحرية خير من المشرك.

التعليل: إن الله قدر أن يحصل بالزواج لمزاج وود وقبول كل طرف للتأثر بالطرف الآخر. فمن لا يخصص الله بالوحدة ويشارك به أهله أخرى أو العلماني الذي ينفي وجود الله تكون تصورات ونظراته للوجود وعلاقته بالكون وبالناس

جارية على خلاف المؤمن بالله، الأمر الذي ينتهي بالمشافق والاختلاف بين الزوجين، ويكون الأثر سينا جدا، مع التضاد بين المؤمنين، على سلامة نفسية الزوجة وسلوكهم وبالتالي نجاحهم في الحياة.

ثالثا: خطر الزواج بالمشرقة والزواج بالممترك على العقيدة يوم القيامة، فلك أن الممترك حسب تصوراته وتأثيره يحمل قريته على سلوك لا يتنزه فيه أبدا مرضاة الله ولا يعطي لأوامره ونواهيه أي أثر على اختياراته وأصله، الأمر الذي ينتهي بالقرين إلى الانحراف ويؤدي في النهاية إلى عذاب النار.

رابعا: إن الله بما لطف به من إرسال الرسل وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، ييسر بذلك على الناس أن يفوزوا بالجنة ولن يحصلوا على مغفرته ورضوانه بلألفته سبحانه.

خامسا: إن ما نهى الله عنه أو أمر به لو أرشد إليه، جاز على طريقة واحدة من الموضوع والبيان، يتنجم مع الفطرة التي خلق الله الناس عليها، ويبعد بهم عن الغموض، لتفتح عقولهم للتأمل وبالتالي لتتغير في النظام الفكري الشامل للوجود والتشريع.

ملاحظة أولى: نصت الآية على أنه يحرم على المؤمنة أن تتزوج بمشرك. وكذلك يحرم عليها أن تتزوج بكتابي.

أما المؤمن فقد نصت الآية عليه أنه يحرم عليه أن يتزوج بمشرقة. أما تزوجه بكتابية فحلال. وربما يسأل سائل لماذا لم يحرم على المؤمن الزواج بكتابية نظير حكم المؤمنة؟ والجواب عن ذلك يتبين بإيداء الفرق بينهما. فلك أن الرجل إذا تزوج الكتابية فإنه يحترم دينها والنبى الذي تتبعه، أما الكتابي فهو على خلاف ذلك لا يحترم دينها ولا النبى الذي تتبعه وينفى في اعتقده أن يكون رسولا. فمس البداية يكون مفوم من مفومات الحياة الزوجية مستغما. ثانيا أن الزوج يستطيع أن ينهى عقد الزواج إذا بدر من زوجته الكتابية ما تقصد به في نفيه أو عسخر منه، أما المسلمة لو تزوجت بكتابي وعسخر من دينها أو قدح فيه فإنها لا تستطيع أن تنهى عقد زواجها به، وتكون مجبرة على تحمل الإهانة.

ملاحظة ثانية: الكتابية التي يحل للزوج بها ليست التي ولدت في بلد بعض سكانه كاليون. فعدد غير قليل من الجيل التالي ممن كان على دين التمسارى أو دين اليهودية خلع إيمانهم وانضم إلى صف العلماءين الرافضين للتدين. وهذا يجري حتى في البلاد الإسلامية فإذا كانت الأنثى التي ولدت في بلد من بلدان العالم الإسلامي ومن أسرة مسلمة ولكنها فطرت الإسلام وتكرت الأوهية فبسه لا يحل للمؤمن أن

يتزوج بها. وكذلك إذا كان الرأغب في الزواج من المؤمنة إذا كان قد رفض التدين بالإسلام فإنه يحرم على المسلمة أن تتزوج به ولو كان والداه مسلمين.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْرِضُوا عَنْهُ فَإِنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ فَإِنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْرِضُوا عَنْهُ فَإِنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ فَإِنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْرِضُوا عَنْهُ فَإِنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ فَإِنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ

بيان معنى الآيات

المحيض: دم الحيض أو زمانه أو مكانه.

الأذى: الضرر غير الفاحش.

اعرضوا: اتركوا مجامعتهم.

تأخروا: تأخروا عن.

بيان المعنى الإجمالي:

سأل بعض الصحابة عن حكم الجماع زمن الحيض فأنزل الله على رسوله هذه الآية مجيبة عما سألوا عنه بأنه يترب عن مجامعة المرأة في الحيض ضرورة. وهو ما يوجب الامتناع عن المخالطة الزوجية حتى تطهر المرأة، فإذا انقطع الحيض حل للجماع الذي كان ممنوعاً، وتشير الآية إلى أن من لم يجز على ما بينته الآية ووقع في الإثم فشأن كل من تجاوز حدود ما أحل الله، وعليه أن يسرع إلى التوبة، إن الله يحب للتائبين كما يحب للمسلمين على طريق الهدى، واكتسبت الآية على أن المخالطة الزوجية هي الطريقة لعموم الجماعة الإسلامية كما تقدمت خبرات الأرض بحرثها وزرعها، فأحل الله أن يتم الاتصال بين الزوج وزوجته على أي وجه يتم به الاستمتاع الذي يرجى منه حصول النسل، وتكرهم بأن عليهم أن يقدموا الخير الذي يجدون ثوابه يوم القيامة، ولي يكونوا نوماً مراعيين ما يقدم منزلة الهوان عند الله الذي هم أنلون إليه وسيلفون جزاءهم منه، ويخضع للتوصيات والأحكام بطلبه تعالى من نبيه لي يبين المؤمنين بفضل الله ورعايته

بيان المعنى العام:

222 - وما أتواكم من المحيض، ويحب المتحيزين.

صلة الآية بما تقدمها هو أن الآية السابقة اعتدت بقضية من قضايا بناء الأسرة. وهذه الآية تجيب عن تساؤل عن بعض ما يتعلق بعلاقة الزوج بالمرأة.

وهذا هو السؤال السليم في مسورة البقرة. سلوا رسول الله ﷺ عن الحيض أي الحيض. وبما أن مجتمع المدينة المنورة يشمل قهملجرين والأنصار، واليهود، والنصارى، والمشركون، والذين علي نسب نفل أو تكثر، فمن الإشكالات التي حدثت والتي أخذت حسب الظاهر اهتماما ونقاشا، قضية علاقة الرجل بالمرأة وقت حيضها، وطرفان كانا متناقضين وبينهما موقب تقرب من هذا الطرف أو من الآخر، فاليهود لا تدخل الحائض البيت أيام حيضها، والنصارى لا يتخرجون من معاشره المرأة أيام حيضها والمشركون والذين هم علي عادات مختلفة يقرب بعضهم من اليهود ويقرب آخرون من النصارى لأنهم لا شريعة لهم جملة، وكذلك طريفة الاستمتاع غفلت فيها عادات مختلفة لوجبت أيضا تساؤلات، ونظروا إلى أن المؤمن حريص علي أن يكون سلوكه تحت راية الإسلام واحكامه في القابل والكثير والصغير والكبير، رجعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن حكم الإسلام. فكان الجواب متضمنا الآداب والأحكام التالية:

لولا: انه أن الحيض يتسبب في ضرر وإذابة للأسرة له يحصل نوع الأذى الذي يحصل لأمرين: أحدهما أنه مثوك بالقطرة لما في دم الحيض من عفونة ورائحة كريهة، وثانيهما أنه من إعجاز القرآن أن لا يحصر الأذى في الجنود التي تلغها علم المنزل عليهم الوحي وقت نزوله، بل ينكره علما ليكشف العلم عن أنواع من الضرر يشعلها العلم الإلهي ويقتصر إبداع علم البشر عن جميعها في تلك الظروف. وبهذا التنبيه في البداية لما في جماع الرجل لمرأته أيام حيضها من الضرر يكون القرآن قد أعد للمؤمنين أقول ما يأتيهم من ربهم معللا يستجيبون له بداعي الإيمان وبادعية العطرة.

ثانيا الحكم: تحريم الجماع أيام الحيض. وهذا أمر مجمع عليه. لما الاستمتاع بالملاحة فقد اختلف الفقهاء في حدود ذلك، والذي يشرج عندي أن لا يفرق للفرج ولكل منهما أن ينبغي من قربته ما أحل الله له فيما مواء.

ثالثا: ضربت الآية حدا لحمل الجماع، **(ولا ترموهن ضرر يظهرن فإذا نظرهن فتوهن)** والذي عليه جمهور الفقهاء أن الرجل لا يجمع لمرأته إلا شرطين (1) أن ينبغي نزول دم الحيض (2) أن تظهر - يظهره فصل بالماء الرفع للحديث وللإفارة - ويرى بعضهم أنه يكفي بفصل المرأة فرجها -

رابعا: أن الله للرجل أن يجمع لمرأته بعد تطهرها في الموضع الذي أحل الله له فيه ذلك. فكلما - من - معنى - في - نظير قوله تعالى: إذا وددي للصلاة من يوم الجمعة، أي في يوم الجمعة.

223- كماؤمكم حرث لكمه ويؤشر المؤمنين.

خامساً: أكد حكم الإتن في مجامعة الرجل امرأته بقوله تعالى (كماؤمكم حرث لكم) -الحرث في القرآن لطلق على القدر المشترك بين العمل الذي يبغى منه صاحبه الإنتاج - فحرث الأرض زرعها بعد تهيتها للتنتج، وحرث الآخرة العمل للمصالح الذي ينتج ثوبها. قال تعالى: من كان يريد حرث الآخرة نزله به في حرثه. وحرث الدنيا ما ينتج للإنسان مما يبغى الحصول عليه في الدنيا دون نظر إلى الآخرة قال تعالى: ومن كان يريد حرث الدنيا فله منها وما لا في الآخرة من نصيب¹. والقصد الأول في الزواج هو تحقيق ما أراده الله من استخلاف الإنسان في الأرض، هذا الاستخلاف الذي لا يتم إلا إذا بقي النوع الإنساني بالتكاسل الذي سببه الوصال الجنسي. فبعد عن ذلك بقوله تعالى (حرث لكم) وصرح بأن الكيفية التي يتم بها الجماع مأثرون فيها في جميع الأوقات التي لم يحرمها الله كحالة الصوم وحالة الاعتكاف. وفي كل مكان لا يحرم فيه الجماع كالمساجد.

سادساً: عقب ما بينه من أحكام ولاد بالتحويه الذي يعتني به القرآن دائماً، وهو إحياء مركة الله واستحضار أن أي عمل يقوم به المؤمن في الحياة يربطه بربه، فعلى هذا تذكره الآية بأن الله يحب المؤمن المستحضر دوماً صلته بربه الاستحضار الذي يترتب عليه أنه إن حصلت منه غفلة أو تجاوز يعود سريعاً إلى ربه ليجد في ساحة القرب هذه المغفرة والمحبة، كما يجدها الذي لم يغفل ولم يذنب. وفي هذه الغفلة إشارة إلى أن من لم يلتزم قبل نزول الآية بما قرأه وبمجرد ما سمعها ألقع عن كل ما يخالفها هو معنا بأن الله يحبه.

سابعاً: حرص المؤمنين أن يكونوا دائماً مستحدين ليوم القيامة استعداداً بجمعهم بحرصون على إعداد زادهم للسفرة الكبرى التي سيلقون فيها ربهم، وينبغي أن يصل هذا الشعور إلى درجة اليقين الذي لا يدخله شك ولا ارتياب. ومذا سيكون حالهم يوم اللقاء؟ عجل القرآن بالبشارة لمرأ نبيه لأن ينشولى يلاعهم هذه البشارة. (ويؤشر المؤمنين)

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفِغْرِ بَلْ يَمُنُكُمْ وَلَكِنْ يُوَاحِدُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَلْمِزُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

¹ سورة الشورى آية 204² سورة الشورى آية 20

بيان معنى الألفاظ:

ولا تجتوا الله: ولا تجعلوا اسم الله.

عرجة: معروضة، أو قوة.

تبروا: البر جماع الخير.

لا يؤاخذكم: لا يعاقبكم.

ثقتوا: الكلام المخطأ الذي لا يعتد به.

كميت قلوبكم: غفتم عليه النية.

حليم: للحليم الذي يقبل العذر.

بيان المعنى الإجمالي:

نهى الله المؤمنين أن يحلفوا بالله لتكون يمينهم نعمة للامتناع من فعل الخير ومعا برضى الله. وهذا قصد الخفي الذي لا يدركه الناس هو على حد سواء مع النطق، فالله سميع لما يقولون، عليم بنياتكم، ثم بينت الآية حكم اليمين بعد الحلف، فذكرت أن الله لا يؤاخذ الحالف ولا يلزمه كفارة في يمين اللغو. وهي اليمين التي تجري على لسان الناس دون أن يقصدوا القسم ولا الالتزام، كقول أحدهم: والله إن هذا لأمر عجيب. ولكنه يؤخذ ما عقد عليه الحالف نية القصد في المستقبل، وبما أن الناس قد تنقلت ألسنتهم بالأيمان دون قصد إلى التهلون بالقسم، ثم يقعون في الحرج في المستقبل ختم الآية بأن الله غفور رحيم.

بيان المعنى العام:**224- ولا تجعلوا الله عرضة لذنوبكم يا أيها الذين آمنوا**

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: **وَاتَّقُوا اللَّهَ** واتقوا الله واعظوا لكم ما كنتم **ويشهد المؤمنون** فجمعت وصايا المؤمنين ندع لليقظة والاستعداد وملازمة التقوى، مما هي البشارة للمطلقة العامة. ومما يخرج المؤمن أن يكون قد حلف مينا على عدم فعل أمر صالح ثم يجد نفسه بين الوفاء بقسمه وبين الاستجابة لدعوة القرآن: **(وَلَا تَقْسِمُوا بِاللَّهِ...)** فارتبطت هذه الآية بمسألتها. والوجه الأول في فهم الآية أنها نهت المؤمن أن يحلف على ترك ما هو خير، من أنواع البر ومن التقوى ومن الإصلاح بين الناس، ثم يجعل يمينه نعمة للامتناع. كما تحتمل الآية أن يكون النهي عن جعل اسم الله والحلف به جازيا على ألسنتكم بكثرة، مما يترتب عنه أن تسبقوا الحلف به على ترك الصالحات **(البر والتقوى والإصلاح بين الناس)** وختمت الآية بل الله لا يفتب عنه شيء مما تتلفظون به لأنه سميع، كما

يعلم قصدكم وما تحركت به مشاعركم اليطئنة وأنتم تحلفون لأنه موصف بالعلم غيب .

225- لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كلفتموه yourselves

وثنى القرآن ببيان ما يتروتب على الحلف بسانه فحصل للحكم على التمسك باليمين التي ينطق بها الحالف غير قاصد للحلف ولا التكذيب. كمن يظن شيئاً ويقرر إخباره بالقسم ثم يتبين أن الواقع على خلاف ما يظن (كان يرى شخصاً قاتماً من بعيد فيسوق إلى القسم أنه فلان) ثم يظهر أنه شخص آخر. ومثله ما يجري على الألسنة دون قصد للحلف نحو: لا والله، بلى والله، أي الله يؤاخذ الحالف على ما قصده ونواه عند الحلف. واختلف الفقهاء في المقصود بالمؤاخذة:

فعلد الإمام مالك أن المؤاخذة قد تكون بالإثم في الآخرة وقد تكون بالكفارة في الدنيا ومن ترك التكفير أثم. فمن حلف يمينا عموماً يعتقد عند حلفه أنه كاذب فهذه يمين مؤاخذ صاحبها يوم القيامة، ولا كفارة عليه في الدنيا. وكذلك من أقرمه القضاء لرد دعوى خصمه أن يحلف فحلف يمينا هو فيها كاذب وهي اليمين (المصبورة).

ولما اليمين التي تكون المؤاخذة فيها بالكفارة فهي اليمين على ترك فعل شيء ثم لا يفعله.

وعند الشافعية اليمين التي يؤاخذ حالفها بالكفارة هي يمين الغموس، واليمين على شيء يظنه ثم يتبين خلافه، واليمين المتعلقة على الفعل لو عدم الفعل.

وعند أبي حنيفة: يمين الغموس فيها الإثم ولا كفارة لها، واليمين المتصودة مواء أقيمت على الظن فلم يصدق، لو كانت معلقة، لوجب فيها للكفارة.

وختمت الآية بأن الله يغفر لعباده لأيمانهم، والتذكير بهذه صفة ليسرعو إلى الالتزام بما تقتضيه الآية في الأيمان وأن يحفظوا السنن من الحلف.

والصفة الثلثية هي لفعل ما يمكن أن يعلق بالحلف من أن يفسد الجراءة على الحالف بالله أمر عظيم قد يرفع إلى القياس، بأن الله متعسف بالحلم الذي هو العفو وقبول عذر المفسرين.

لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ أَتُنَادُونَ رَبَّنَا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾
وَأَنْ غَرَّمُوا عَلَاقَتِمْ فَلَنْ تُغْنِيَهُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئاً ۚ عَلَيْهِ ۝

بيان معنى الألفاظ:

يؤلون: الإيلاء هو حلف الزوج على ترك مجامعة زوجته أربعة أشهر فكثر.

تربص: انتظر.

الزوا: رجعوا إلى مباشرة الحياة الزوجية لتطبيقه.

بيان المعنى الإجمالي:

من حلف على عدم وطء زوجته أربعة أشهر (هو مؤل) ويمينه هذه هي (الإيلاء). والإيلاء حرام لأنه يضرب بالزوجة. وقمولي مخير بين أن يعود إلى جماع زوجته وبين أن يطلقها.

بيان المعنى العام:

226-227. للذين يؤلون من نسائهم... فإن الله سميع عليم.

من أنواع اليمين التي كانت شائعة في المجتمع العربي أن الزوج قد يريد الإضرار بزوجته فيحلف أن لا يجامعها السنة والمشتين، ويبقيها معلقة لا تعيش العيشة الزوجية ولا هي حرة تتزوج زوجا آخر فعنها، فكان مما هدى إليه الإسلام رفع هذه العظلمة في الرابطة الزوجية. فينبغي أن حكد الإيلاء الحرمة إذا كان لغرض الإضرار بالزوجة. وأبطل هذا القسطنطظم بإيقاف الزوج بعد تمام الأشهر الأربعة، فيجبره القاضي، أو يعود هو من نفسه إلى مجامعة زوجته. وما سبق منه من يمين أكد بها عزمه لا تكون مانعا من الإصلاح بينهما ورفع الظلم والتخلي بالتقوى، فإن الله يغفر ما سبق له من اليمين بإخراج للكلالة. وإن لى فعلية أن يطلق، والله يسمع ما تدين به زوجته عنه، عليم بما صدر منه. وإن أبى فالحكم للزوجة العادية أثناء عدتها فله ذلك لأن الطلقة طلاق رجعية. وعند أبى حنيفة أنه يبلوغ تمام الأربعة الأشهر تبين منه بدون رفع إلى القاضي.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَن يَأْتِيَهُنَّ لِحَاقُ طُرُقٍ وَلَا جُنْدٌ لَهُنَّ أَنْ يَحْكُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَحْكُمْنَ أَجْلًا مَعْدُومًا وَإِنْ عَزَمُوا بِإِغْلَابِكُمْ فَلَيْسَ بِهِنَّ مَثَلٌ وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٠﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَيْثُ تَبَيَّنَ رُجُوعُهَا وَلَا جُنَاحُ عَلَيْهِمَا أَنْ يُتَرَاجَعَا إِنْ طَلَّقَا أَنْ يَفْعِمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ أَسْمَاءُ الْقَوْمِ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَقْنَ أَجِلَهُنَّ قَامِسِكُمْ هُنَّ مَعْرُوبٌ أَوْ مَرْحُومٌ مَعْرُوبٌ وَلَا تَبْسُكُوهُنَّ فِي طُرُقِكُمْ وَأُذْكُرُوا تَعْتَادُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا نِسَاءَ اللَّهِ هُرُوكًا وَأَذْكُرُوا يَمَسَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكُمْ مِنْ آيَاتٍ إِلَّا لِيُحْكِمَ أَعْيُنَكُمْ بِهَا وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٢٢٢﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَقْنَ أَجِلَهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَءَوْهُنَّ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوبِ ذَلِكَ يُوعَدُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَرْسَلْنَا لَكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَعَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٣﴾

بيان معنى الآيات:

بترصن: ينتظرن.

أزواء: جمع فرد، يطلق على الطهر وعلى الحيض.

بعولتهن: البعولة جمع بعل والمراد به أزواجهن.

تسريح: حسم صلة الزوجية.

حدود الله: أحكامه الفاصلة بين الحلال والحرام، هي كالفواصل بين أملاك الناس.

الضرار: المبالغة في الضرر.

العصل: منع المرأة من الزواج.

أزكى: أكثر خيرا.

بيان المعنى الإجمالي:

لما ذكر في الآيتين السابقتين أن الإيلاء قد ينتهي إلى طلاق بينت هذه الآيات الخمس أدب الطلاق وأحكامه، فذكرت: لا يحل للمرأة إذا طلقها زوجها أن تتزوج غيره إلا بعد أن تدخل في الحيضة الثالثة بعد الطلاق. ويحرم عليها أن تكتن من أسر زوجها، فتلحق خلاف الواقع، مما يؤثر في تمكينا من التزوج. ولتتق الله فإن التخليط في هذا أمره عظيم عند الله، فهي مسؤولة عن قول الحنفية بمقتضى إيمانها بالله الذي أمرها، وبمقتضى إيمانها باليوم الآخر الذي ستحاسب فيه. وفي مدة الانتظار هذه يحق للزوج أن يراجع زوجته إن أراد إصلاح هذا البيت الذي تهدم بالطلاق. وتقرر الآية قاعدة عظيمة في بناء المجتمع والأسر: هي أن المرأة

من الحقوق مثل ما عليها من الحقوق، فإساقيتها كاملة ودورها في بناء الأسر والمجتمع دور أساسي. ويمكن الله للرجل، في مسيرة الأسرة، من قيادتها لما فيه خيرها وهي للفرجة. والله الذي نظم شؤون الحياة الأسرية عزيز لا يغلب، حكيم لا يلمر إلا بما فيه خير. ويمكن للزوج أن يطلق زوجته مرة أولى ومرة ثانية على أن تبني العلاقة على قاعدة: هي أن الزوج إما أن يمسك زوجته ويمضي على حياته الزوجية بالأمر المعروف الذي يتسجم مع الفطرة: من تقديرها والإنفاق عليها ومشاركتها في أمور الأسرة، وإما أن يفرقا مع الإحسان في هذا الفراق بما أوجبه الله على الزوج لمطلقته في العدة، ومن عند يسألها بالحديث السوء عنها أو عن أهلها، فكما هو مطلب بالإحسان في حال الزواج هو مطلب به في حال المفارقة. ويحرم على الزوج أن يضطر زوجته لمطلب فراقه بإذيتها حتى تقدي نفسها بشيء من المال الذي أخذته منه صدقا أو هدية. ولكن إذا تهمت الزوجة المقام معه، بما يترتب على التفض من التمييز في حقوق الزوجية، وإثارة المشاكل التي تقلب حياة البيت جحما لا يطاق، فإنه لا بُد من على الزوج في أخذه ما يتفق عليه من المال لينهي العلاقة الزوجية بينهما.

إن ما قرره الآية حدود حينما الله في الفراق، فلا حل لأحد من الزوجين أن يتعداها فلا يظلم الزوج زوجته حتى تقدي منه، ولا تظلم الزوجة زوجها لتضطره إلى طلاقها. ولعلم كل مؤمن ومؤمنة أن مكر أحدهما بالآخر لينفذ أغراضه ظلم، وكفى بالإحسان إثمًا وتحذيرا أن يعلن الله أنه ظلم.

إذا طلق الزوج زوجته بعد الطلق الثانية لمطلقها للمرة الثالثة فإنها تحرم عليه بمجرد تلفظ بالطلاق، ولا يحل أن يعود إلى حياته الزوجية إلا إذا خرجت من عندها ثم تزوجت رجلا آخر ثم يطلقها الزوج فتلقى ثم تخرج من عندها منه، فإذا تحقق ذلك، كان له أن يتزوجها من جديد بعد جديد مستوف للشروط والأركان إذا كانا قد تأثبا بهذه التجربة. وأثرت فيهما تأثيرا يطر معه لهما سبعين في المستقبل حياة زوجية حسبا لقرته الشريعة الإسلامية، يسكن فيها كل منهما إلى قرينه. إن هذه الأحكام هي كالحود في الأملاك لا يتجاوز الحد إلا ظلم. وقد بين الله الحدود التي لا يجوز تجاوزها، ليحذر من يعلم أن الله خلق بأن يطاع وحقيق بأن يحذر الإنسان موقفه بين يديه يوم القيامة.

وصية أخرى لمن يطلق زوجته: لهما ما دامت في عندها، من الملقاة الأولى أو الثانية، أن له أن يرجعها إذا كان قد تأثر بطلاقها تأثرا يبنى معها الحياة الزوجية في المستقبل على المعروف دون اضطراب مع الوفاء للميثاق الغليظ كما له أن يترك

مبيلها لتتزوج بزوج آخر إن أرادت. ولكم أن يتسلط الرجل على المرأة تسلطا ظالما فيه تصف بغيرها وإهانتها لو اجترأ بها، إنه من يتسلط على امرأة تسلطا فيه تعد على حقوقها وكرامتها، قد ظلم نفسه بتعريضها لسخط الله وعابه، وحذار، ليها المؤمنون أن تستخفوا بما أنزل الله عليكم شأن المستهزئين الكافرين، وأمرهم لن يكونوا مستحشرين فلما نعم الله عليهم، ومن أجلها ما أنزل الله عليهم في كتابه وما ثق به عقولهم بحكمة الوحي. وجماع الخير هو تقوى الله، تقوى من هو موثق مستحضر أن الله لا يخفى عليه خافية. ونهى الرجل عن أمر آخر. وهو أن لا يبيع الرجل من هي تحت نظره من الرجوع إلى زوجها إذا خرجت من القعدة إذا رضى بالعودة إلى حيثها للزوجية على الأصول التي جرى بها العرف ولا ينكرها المجتمع. كل ما سبق من الأحكام والأداب أنزل ليتخط به قومون الذين يؤمنون بالله فيطيعون أوامره ويخشون حسابه يوم القامة فلا يقدمون على معصيته. وبالألزام بأحكامه تنمو فيهم الكمالات الإسلامية فيترفعون عن دواعي الشر والانتقام والظلم، ويتطهرون من الحقد والبغض، ويطوع نفوسهم لقبول أحكامه بتكبرهم بالحقيقة العظمى: هي أن علم الإنسان قاصر وقريب، والله هو العليم بال حاضر والمال، فاتباع أوامره وهديته يحققون النجاح في الدارين.

بيان المعنى العام:

228 والمعلقات بتريعتن...عزيز حكيم.

أعطى القرآن في هذه الآيات بيان الأحكام في حالة تصدع الأمر بالطلاق. بعد أن بين في الآيتين السابقتين تصدع العلاقة بالإيلاء، إن غلب الإسلام بيناء المجتمع على أصول النظام والعدل والامنحابة للقطرة مبنية في القواعد والأحكام التفصيلية في القرآن والسنة النبوية، والأمر في حجر الأساس في قيناء الاجتماعي. أهم القرآن بإبطال ما جرى عليه أمر الجاهلية في كثير من الأمور في شأن الأسرة، ولماح الطريقة التي يرضاها في إبطال ما كان متعارفا عند العرب قبل الإسلام. يتوصح ذلك في مناجاة الآيات الخمس أعلاه، ويشرحها فيما يلي:

229-الطلاق مرتان... فاولئك هم الخالمون.

المسألة الأولى:

لن الزوج إذا فارق زوجته بطلاقها، فإن مستتبعات الحياة الزوجية المفصومة بالطلاق لا تنتهي بمجرد الطلاق فتحرر المرأة من العقد الأول كلى شينا لم يكن، بل يجب عليها، إن كانت ممن حيض، أن تبقى منتظرة بلوغ الأمد الذي حددته الله، وهو لن تتوالى عليها بعد طلاقها ثلاثة أشهر برؤيتها لعدم الموقن ببداية الحيضة

الثالثة، عند الإمام مالك، وبالإنتهاء من الحيضة الثالثة عند أبي حنيفة، وقبل ذلك للزوج أن يراجعها، وبعده يمكنها أن تتزوج ممر قرضاء. ولا يرتجعها زوجها المطلق إلا برضاها. وهذا الأمد مراعى فيه جانب الزوج وجانب المرأة، فالمرأة إذا حاضت بعد طهرها الأول تبين أنها غير حامل ولم يبق لزوجها المطلق أي حق عليها. ولما طهرت الثاني والثالث فهو تكوم للزوج عليه بتحمل في وضعه فيعود إلى زوجته. وفي هذا الأمد يفكر القرآن للمرأة بأن عليها أن تكون صالحة فيما هي مؤتمنة عليه **(ولا جمل لمن أن يكتم ما خفي أن في رحمهم)** فيحرم عليها أن تكتم الحقيقة لتعجل في انتهاء العدة أو تكتم لحمل الذي أحست به فتدعي أنها قد دخلت في الحيضة الثالثة. شددت الآية على المؤمنات لئلا تكون صلاتهن في أسر العدة، وربطت ذلك: أولاً بالإيمان بالله باعتباره أمر مركب من الله، ولأن دين الإسلام قد لهم نشره على الأصول الخمسة التي منها حفظ النفس. وثانياً على الإيمان باليوم الآخر لثقل مصيرها فتخشى العقاب إن هي كتمت. والمطلقة ما دامت في العدة من الطلاق الرجعي لمطلقها أن يراجعها. وتدعوهم الآية للمراجعة وتحثهم عليها باعتبار أن من شأن المسلم أن يسارع إلى الإصلاح.

•• صرحنا الآية بقاعدة لها شأنها في إصلاح أحوال المجتمع (هي إعلان حقوق المرأة من خلق المرأة والرجل) بمناسلة الدعوة إلى الإصلاح. ذلك أن قاعدة البناء الاجتماعي هي الأسرة التي تقوم على عنصرين أساسيين **(الزوج والزوجة)** وكانت حقوق الزوج مصونة عرفاً وتطبيقاً. وكانت مصلحة الزوجة مهضومة إلا إذا كان لها في قلب زوجها من الخطوة ما يرفعها إلى مقام الشريك المؤثر في شؤون الأسرة. ولكن ليس هذا هو القاعدة في الاعتبار. فقررت الآية مذلية بأن المرأة لها من الحقوق ما للرجل من الحقوق. فإذا أكرمها فليس ذلك على مسيل تنازل الزوج، بل على أساس أن الله جعلها عنصرين لكل منهما حقوق مرعية. هذه الحقوق تميز متساوية مع دور كل منهما في هذا البناء على أساس التكامل بينهما، فلا يصدر من أحدهما نحو الآخر ما ينكر ويرفض شروعا أو عرفاً. مما قصلت الشريعة الإسلامية أحكامه وبينت حدود وبيضاء أصحاب العقول المسلمة من الانحياز والتعصب. ولا يذهب نظر إلى أن المرأة مسؤولة للرجل في كل شيء، فبين قهرها وجعلها تابعة مهيئة للرجل وحرمانها من التصرف في مالها، ومن نصيبها من الميراث ومن أجره عملها، وبين جعلها مسؤولة للرجل في كل شيء حتى في الميراث الذي قسمه الله قسمة عاقلة. وفي إيجاب إنفاقها على زوجها، وفي القيام على الأسرة بصفة مسؤولة للرجل، مما يتبعه، عند الاختلاف اهتزاز بناء

الأسرة، وضياح الأولاد بين قطبين. بين هذا وذلك جاء المنهج الإسلامي أن للرجال عليهن درجة هي درجة القوامه التي لا تصف فيها ولكنها تحفظ التوازن في العائلة وتسم الأمور بالحكمة والعدل. وختمت الآية بلى الله عزير لا يعترض عليه لتثبيت هذه العدالة بين الجنسين التي ربما يلف منها بعض الرجال بما رسخ فيهم من عادة التسلط على الإناث، وعزته سبحانه مفرونة بالحكمة. فهو يشرع ما يصلح شؤون العباد ويضمن مصالحهم جميعا.

المسألة الثالثة:

230- فإن طلقها فلا تحل له ما نكحها بعدهم.

من أنواع النصف. التي جرى عليها الأمر في كثير من الأحوال، أن الرجل يطلق زوجته، وعندما يقرب أمد انتهاء عدتها يراجعها لا يقصد معاشرتها ولكن يقصد أن يعيد طلائها، وهكذا، فكما قارب أمد خروجها من عدة راجعها ثم يطلقها، فلا هي زوجة ولا هي مطلقة، يفعل ذلك بعض الرجال نكاحاً في زواجهم، فشرع الله للزوج له يحل له أن يطلق زوجته المرة الأولى، ويطلقها للمرة الثانية، فإذا طلقها مرة ثالثة حرم عليه أن يراجعها ولا يحل له العقد عليها من جديد إلا إذا تزوجت ودخل بها زوجها الثاني، ثم طلقها وخرجت من عدة طلائها من الزوج الثاني. كما سيفصل في بيان معنى الآية التالية. ويعبر القبول أن الزوج في علاقته بمطلقة بين أمرين: إما أن ينفي على العلاقة الزوجية على للصفة التي قبلها عوف الناس في الحالة والمعاملة، وبين أن يوافقها. وعليه أن يحسن إليها بالمنعة، على ما سيجيء في قوله تعالى (ومنهم من على الموسع أعثره وعلى المقتر أعثره) وأن لا يضارها بعد الطلاق كنشر مساوئها لو مساوي عائلتها بالحق أو بالباطل.

المسألة الثالثة:

أخذ العوض من الزوجة إذا رغبت في فك عصمتها. الأصل أن الزوج ليس له أن يأخذ في مقابل الطلاق أي شيء من العوض، سواء أكلن مساوياً لما بذله لها في صدقها أو قل أو كثر. ولكن تعرض حالات ضيقتها القربى يمزج يعرض بتصور بصور كثيرة، هذا الأصل للجمع هو أن يغلب على الظن، حسماً ظهر من التجربة بينهما، أن بقاء العلاقة الزوجية بينهما ستؤدي إلى خصام متواصل وليذاء متبادل، ومكر كل منهما بالآخر، مما يستوجب أن يطغى الهوى وحجب السيطرة والأنانية، مما يخشى معه تبعاً لذلك أن لا يراعي ما حثه الإسلام من حسن المعاشرة ومراقبة

الله وإقامة العدل. وفي معظم الأحوال يظهر هذا الانحراف إذا رغبت الزوجة عن زوجها، وأسباب التحول النفسي كثيرة، ففي هذه الحالة غير الطبيعية يجوز أن يتفقا على التفريق على أن تدفع المرأة لزوجها شيئاً من المال ويعبر عن هذا [بالخلع] ولكن إن كان الزوج هو الذي أذى الزوجة وأساء معاملتها لتخضع منه فإن المال الذي يأخذه منها مال حرام.

المسألة الرابعة:

إن كثيراً مما يتعلق بتطبيق الأحكام التي بينتها الآيات السابقة قد يدخله الهوى ونزغات الشيطان فتتفع لحد الزوجين لو كليهما إلى تغليب الهوى فيترأى عن الحدود التي بينها الله، تحذر المترأى من مجاوزة الأحكام الإلهية والتعدي عليها باختراق الحدود التي منع من تجاوزها، ويدخل لمتهاونون بالأحكام السابقة تحت قاعدة عامة وهي: أن من يتعدى حدود الله يطمع بحكم لا يستطيع منه انفكاك، هو حكم الله عليه بأنه ظالم، بما يتبع الظلم من المسألة والعقاب.

المسألة الخامسة:

صرح القرآن بأن الزوج إذا طلقها الأولى وراجعها، ثم ثلثية وراجعها، ثم تلفظ بالطلاق للمرة الثالثة، فإنه يحرم العقد عليها بعد ذلك، وتعد، ولها أن تتزوج بغيره. لكن إذا طلقت بعد زواجها الأخير، بعد الدخول بها، وبعد الاتصال الجنسي بينهما فإنه إذا خرجت من عتقها بعد هذا الطلاق فلزوجها الأول أن يعقد عليها برضاها عفا جديداً، وميثاق الزوجية ميثاق غليظ، لذلك نهت الآية على أن يستأنف زواج جديد مع زوجها الأول بعد خروجها من عدة طلاقها من الزوج الثاني ينبغي أن يحتاط فيه الطرفان فلا يقدم عليه إلا إذا طلقاً طناً غالباً أن تجربة الانفصال التي بلغت ذلك الحد قد ثرت فيهما ولهما سيقمان حياتهما الزوجية فيما مستقبل، على احترام ما حثه الله في العلاقات الزوجية من مودة ورحمة واحترام وعدل. تلزم الحدود التي نولى الله بيئاتها في كتابه للقوم الذين يطمعون ما في حدود الله من مصلحة لهم في العاجل والأجل. ويطمعون ما يترتب على تجاوزها من حصر.

تتبعه:

الطلاق الثلاث، حسب منطوق الآية، هو الطلاق الذي يوقعه الزوج للمرة الأولى ثم يعود إلى التزوج بها ثانية ثم يطلقها بعد الزواج الثاني ثم يعود إليها ويتراجعان ثم يطلقها طلاقاً ثالثاً. ولما أطلق الزوج زوجته بلفظ الثلاث بل أن يقول لها: أنت طالق ثلاثاً، فطلاقه هذا يعتبر طلاقاً واحدة. المطلقة للمرة الثالثة لا يجوز أن يعقد عليها

زوجها الأول إلا إذا دخل بها الثاني وجامعها، ولم يكن قاصدا تحليلها للزوج الأول. فمن الله المحلل والمحلل له. ولتحليل على أحكام الله لا يقرب الأحكام ولا يحل للحرمان.

231- وإذا طلقتم النساء فبلغن سأن الله بكل شيء عليه.

المسألة السادسة:

جاء في أثناء الآية 229 أن الزوج مخير أثناء العدة بين أن يبقى على الزايلة بينه وبين مطلقته، وبين أن يرحها ويقسم ما بينهما (إماماً بمروءة أو تسريحاً بإحسان) وهذه القيمة الخلفية توجبت فعالية فترية إليها سره ثانية في هذه الآية لمقابقتها فسوت بين الإبقاء على علاقة الزوجية بزوجة إلى زوجها، وبين قسم العلاقة بينهما ونهايت كل واحد في حال سيئله تحت راية المعروف الذي لا ينكر ولا يعتز عليه، لقوله بالقبول العام في المجتمع، وخص الأحوال المناقضة للمعروف فهي عنها، فقال: ولا تمسكون ضرراً لاعتقوا، هو التمسك في التسلط على المرأة بإمساكها رهينة بينت فزوجية مع حرمانها من حقوقها وكرامتها. فإمساكها قصد التعدي عليها وهذا قيمتها الإنسانية تكب تنظيم، وفصل يعود على فاعله بالوبال، فقد حقت الآية له ظلم لنفسه، وهو أمر قد يخفى فتعين توضيحه. إنه إذا قصد الرجل التعدي على حقوق زوجته والأضرار بها، فإن الحياة في البيت تضطرب وتصبح العلاقة كراهية وتكثر ضرر من المكرو وللناكبة لا يسلم منها لا الزوج ولا الزوجة ولا الأولاد. كما يتعرض للعقاب الأخروي. وأكدت الآية على تطبيق ما جاء من تشريع عند انفصال الزوجية مجتمعت بين النهي والأمر، نهى أن يبلغ الإنسان بمحالفته لأحكام الطلاق أنه يعتبر مستهزئاً بما أنزله الله من آيات بينات، الذي هو إمارة فائق. ولهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، فذكر النعمة هو العمل بها، وهذه النعمة تظهر في الوضع الذي كانوا عليه قبل الزمالة، وضع الجاهلية، فذكر النعمة يقتضي العمل بما أنزله الله عليهم من القرآن وما أنزله من الحكمة. وأعطاه إعلاناً عاماً أن علم الله محيط بكل صغيرة وكبيرة فالعبرة بالحفظ لا بالمظاهر.

المسألة السابعة:

232- وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن وأنتن لا تعلمون.

لما جاء في الآية السابقة أن التسريح يجب أن يتم بالمعروف مع الإحسان، كان من لوازم ذلك أن تمكن المرأة من حقها في الزواج، الذي منه أن تعود لزوجها

الأول. وكانت الأئمة الجاهلية تقف حاجزا دون عودة المطلقة إلى زوجها. فنهت الأولياء أن يمنحوا المرأة من الرجوع إلى زوجها ، إذا حصل منهما التراضي على استئناف الحياة الزوجية على الوجه الذي يصحبه الرضا ولا يعقبه ما ينكر. وأطلقها القرآن موعظة وربطها بالإيمان بالله واليوم الآخر حثا على الأخذ بهذه الموعظة، ثم أيد العمل بذلك. بلن عودة الزوجة إلى زوجها هو أكثر خيرا ولفضل عائدة على الأسرة، ولم شملها ورتق الفتق الحاصل واستمرار التآلف الذي يتجاوز المرأة إلى أهلها، وهو أظهر لتخليص العلاقة من روليب الإحن بالفراق. وينبهم إلى أن الذي أرشدهم لذلك هو الله الذي يعلم عواقب الأمور التي يجهلها الناس. فالخير كل الخير في اتباع ما أرشد إليه.

• وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُرْعِيَ الرُّضَاعَةَ وَعَلَى الْوَالِدَةِ إِذْ يُرْضَعُ وَكُسُوتُهُنَّ بِالْعُرُوبِ لَا تَكُلُّنَّ نَفْسَ إِلَّا وَسْعَهَا لَا تَضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا بَفِصَالٍ عَنْ فَرَاضٍ بَيْنَهُمَا تَشَاوُرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُنْضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا عَلَّمْتُمْ مَا نَهَيْتُم بِالْعُرُوبِ وَأَنْتُمْ أَلْفُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

بيان معنى الألفاظ

الحوال: العام.

رُضِعْنَ: نفقة الفتوت.

الكسوة: اللباس.

لا تكلن: لا تؤمن نفس بما فيه مشقة.

إلا وسعها: إلا بما تطيقه.

لا تضار: لا يلحق الضرر بها.

الفصال: الفطام.

بيان المعنى الإجمالي:

من الحقائق التي قررها القرآن وأقرها ودعا إليها أن منتهى أمد رضاع الصغير عامان، وبهما ينتهي ما شرع من أحكام مرتبطة بالفرضاع. وما دامت الأم ترضع ولدها فإن الأب ملزم بالإتفاق عليها في غذائها وكسوتها سواء أكلت في العصمة لم مطلقة. ومقدار النفقة والكسوة يرجع في تقديرهما إلى العرف الذي لا ينكر، وهو

مختلف باختلاف لحول المنفق والمنفق عليها. ولا يقبل أن تقتصر الأم بولدها ولا أن تقتصر للولد بولده. وإذا مات الأب فإن هذه المعاملة للنسي لو سمت بها الآية من عدم الإضرار بالأم مستمرة ومرعية. وإذا رعت الولدان في فطام الصغير قبل الأم بلن اتفاقا على الفطام أو أفتع أحدهما الآخر به، فلهما ذلك ما لم يتعرض حياة الصغير لو سلامة نموه إلى الخطر. والوالدين أن يسلموا الرضيع إلى مرضعة تتولى إرضاعه والقيام على شؤونه في تلك المدة، والوالد مطالب بأن يسلم للمرضعة ما اتفقا عليه من الأجر على الوجه الجاري في عرف الناس ولا يكرهه.

هذه علاقة ثلاثية بين الزوج وقائد والزوجة والولدة والمولود الرضيع، لو علاقة رباعية بين تلك الأطراف وطرف رابع هو الممرضع المستأجرة، وكل علاقة يمكن أن يجري تنفيذها على الوجه الصالح ويمكن تنفيذها بتلاعب طرف من الأطراف وإظهار وجه صالح مخالف للباطن. فإذا ختمت الآية بالدعوة إلى تقوى الله، وأن يكون كل مكلف على ذكر من لم الله لا يغيب عن علمه شيء يستوي في علمه الظواهر والباطن.

بيان المعنى العام :

233- والوالدان يرضعن..كما يعملون بصير.

يتواصل البيان القرآني لتوضيح بعض ما يتعلق بالأسرة. فحدثت الآيات السابقة عن الإيلاء والطلاق، ومضمون هذه الآية ما ينشأ عن الزواج من نسل فينبعث الأمور التالية:

لولا: أن أمم الرضاع. الذي بني عليه أحكام عدة، هو عاملان كاملان، ومبائلي حكم للتفسير عن هذا الأم في آخر الآية. ومطلوب من الأم أن ترضع ولدها وجوبا إذا كان الولد لا يقبل أن يرضع غير لبن أمه. وهي مدعوة لتحباء إلى إرضاعه إن لم ينسب الرضاع فيها. وحدث الآية الأم على الإرضاع بالتعبير عنها بالولدة لما تأثيره علاقة الولادة من الحدو والعطف على المولود. وقد لودع الله في لبن الأم من العناصر ما ينمو به الرضيع نموا صالحا، ويكون فيه مناعة تكون له ذخرا في باقي أيام حياته، وهذا يشمل الأم في حالتها قبل العلاقة الزوجية والطلاق.

ثانيا: أن على الأب أن يتفق على الأم المرضعة لولدها ما يلزمها لتفقيتها التفضية الصالحة، وأن يتولى إكساءها. ووقع التفسير على الإتفاق بما يشمل حالة قيام الزوجية لأن الممرضع يتوسع قسى تفقيتها بما يضمن لإرلر للبين السلام التفضية رضيعها. وكذلك الكسوة بما ينطليه لاحتضن الرضيع من النظافة وعسل الثياب وتغييرها. وهذه التفضة الزوجية على الوالد يرجع فيها إلى العرف المعبول من الرأي

العام ولا ينكر في العادة، ليست نفقة قولد قنري كنففة الفقير للمعدم، ولا النفقة على ذات المكنة العالية في المجتمع كالنفقة على الوضعية.

ثالثاً: قررت الآية قاعدة تشمل الإنفاق وتعدده إلى بقية الوجبات على الناس: لا **يكنف ابنه نكر إلا وسعها**: لا يطالب الإنسان بما يتجاوز ما تتحمله طاقته البدنية أو المالية أو النفسية، فبالنسبة للإنفاق لا يكلف قولد نفقة ترفهه وتتعدى إمكاناته المالية، ولا تكلف الأم بالإرضاع إذا كان ذلك مما يمكن أن يسبب لها مضاعفات سيئة. ولا تضر الأم بولدها انتقاماً من زوجها إذا كانت مطلقة فتمتنع من إرضاعه مثلاً ولا يضر قولد بولده بنزعه من أمه انتقاماً منها أو لتفكير عليها في نفقة بما يجعل لبنها قليلاً أو فقيراً من مكوناته الغذائية.

رابعاً: وعلى الورث مثل ذلك، اختلف فيه المفسرون اختلافاً كبيراً في المراد بالورث، والمثلية، ومعك اسم الإشارة، فالذين حملوا الورث على أنه ورث المولود له، اختلفوا في بيان المثلية، فمنهم من حملها على النفقة والكسوة، ثم اختلفوا هل يجب ذلك في ملى الورث على قنر الأنصباء، أو يجب على من هو أقرب، أو يحمل على من جمع بين القرابة والزحم ولا عبرة بالقرابة وحدها، ومنهم من حملها على عدم المضارة، ومنهم من حمل الورث على ورث الصبي لأمهات، ومنهم من رأى أن حكم الآية منسوخ، وهذه محامل قد أقام كل ناظر في الآية معنى الآية على ما ترجع عنده بأئلة ظنية لا تقطع الخلاف، والذي نرجح عندي، بعد النظر، أن مودى الآية: على الورث أن يعامل المولود لها معاملة صنة بدون تعسف، فقد كن من عادات العرب في الجاهلية أن المتوفى بحكم كبير ورثته في زوجته، وكثيراً ما كانوا ينفقونها حتى من الزواج، فهذا يقتضبط الشأن جسمه القرآن بدعوة الورث أن لا بصر بالولادة التي يثبت زوجهما وهي تحضن وليدها الذي هو فرع من الميت.

خامساً: ذكرت الآية أن منتهى لد الرضاعة عامان للذين يرغبون في أن تبلغ الرضاعة غلية مداها، فإذا رغب الوالد في إطعام الصبي قبل تلك الأمد وتحقق الرضا من الطرفين وتشاروا بأن طرحةا مقترح الإطعام على بساط المدرس وتبين لهما بعد تقليب للنظر والتأمل في المعطيات فوقمية أن إطعام الصبي لا يضره، وأنه يستطيع أن ينمو نمواً صالحاً مع الإطعام والتغذي بغير لبن الأم، فما بقوراته تبعاً للمصلحة لا يلزم عليهما فيه ولا مواخذة.

سائماً: رخص القرآن للروحى أن يطلب قولد مرضعه تتولى القيام على الصبي إلى حين قطامه. وهذه كانت عادة عند العرب طلباً لنمو الصبي في وسط ينمو

فيه بعيدا عن غفوات المدن ويأخذ فيه فصاحة البدو، وسلامة لغتهم، وثأيتهم لما يقصونه بوضوح. وهذه التربية الطبيعية هي التي نوه بها أبو الطيب المتنبّي لما قال

حسن الحضارة مجلوب بطورية *** وفي البدوة حسن غير مجلوب

وأجر المرضعة في مال الوالد فلذلك فيد الجواز بتسليم المولود له ما يدفعه بطريقة ليس فيها إبطاء ولا مشاحة ينكرها العرف، لما يمكن أن يترتب على ذلك من ضرر بالرضيع إذا تجاوز الوالد حدود المعاملة الطبية مع المرضعة.

سأبعا: هذه أحكام تتضمن علاقات متعددة قولها المولود له، والوالدة، وقد تصانف إليهما الممرضعة. تنصب على الرضيع الضعيف الذي، مما يستلزم به مستقبله، ونحاحه أو فضله، طريقة القيام عليه في أمد الرضاع. إن تنفيذ تلك الأحكام مع هذا التداخل في العلاقات واختلاف الصورة التنفيذية لها، وإمكان إبرازها بظواهر مقبول وبإلمام سيء أو القيام بها على الوجه المرضي الصالح، كل ذلك كان داعيا لتذكيرهم بتقوى الله المحصنة عن التجاوز والفتش في المعاملة. ولينذكروا أن سلوكهم معلوم عند الله بوجهه الظاهر وبما استند إليه من مقاصد خفية لا تغيب عن علمه سبحانه.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّيْنَ أَنْتَهُنَّ أَشْهَرُ مِنْكُمْ وَغَيْرُهُنَّ أَكْثَرُ
بَلْغَرَضُهَا لَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ الْمُتَرَضَّيْنَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ لِمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِلْعَانِ النَّسَاءِ أَوْ أَكْتَفْتُمْ فِي
أَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ اللَّهُ أَنْتُمْ مَسْذُورُونَ، لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَوَاعِدُوهُنَّ بِرْءٍ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا
مَعْرُوفًا وَلَا تَفْرَحُوا بِفِدَايِ الْبَيْتِ حَتَّى يَتْلَى الْكِتَابُ أَجَلُهُ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَخَدَرُوا، تَتَذَكَّرُونَ ۚ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ
مُطَلَّعَةَ النَّسَاءِ مَا لَمْ يَمْسُسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا عَنْهُنَّ فَرِيضَةً وَيَتَعَمَّوْهُنَّ عَلَى الْوَمِيعِ قَدْرَهُ
وَعَلَى الْمُغْيَرِ قَدْرَهُ مَتَاءً بِالْمَعْرُوفِ - مَا عَلَى الْخَسِيِّينَ ۚ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَمْسُسُوهُنَّ وَلَمْ تَفَرَّضُوا عَنْهُنَّ فَرِيضَةً يَبْطُلُ مَا فَرَضَ إِلَّا أَنْ يَخْفُوا أَوْ
يَخْفُوا الَّذِي يَبْطُلُ عَقْدُ الْبَيْتِ ۚ وَإِنْ تَعَفَّوْا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَعَسَوْا الْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝

بيان معنى الألفاظ

يَكُونُونَ: يموتون

بَلَنَ لِبُئْسَ: كملت عندهم.

بِالْمَعْرُوفِ: ما أُنْزِلَ فيه للشرع.

خَيْرٌ: اسم فاعل من خبر إذا علم تفاصيل الشيء .

التعويض: كلام يفصد منه صاحبه معنى آخر غير المعنى الظاهر.

لَتَكُنَّكُمْ: أخفيتكم.

السرا: ما قابل للجهر.

السنة: ما يعطيه المطلق لمطلقة.

الموسم: من كان له فضل من المال.

المقتول: المقل، القليل المال.

بيان المعنى الإجمالي

يبين الآية عدة المرأة التي تُوفى زوجها وهي غير حامل، أن عليها أن تنتظر أربعة أشهر وعشر ليال، وأنه بقتاء هذا الأجل تحل للأزواج، ولا حرج ولا لوم على أهل الزوج ولا على المرأة المعتدة إذا غابت زواجها بعد تلك المدة أو توفيت. ما دامت نراعي ما أُنْزِلَ فيه للشرع (بالمعروف) والله لا يظلم من علمه شيء. فليعلم المعتدة أن الله يرقبها، ومن أحكام العدة: أن المعتدة لا تزوج ولا تُخلب ولا تعد أي رجل بالزواج. وقد أباح القرآن التعويض بما يكفه الخائب في نفسه من رغبته في الزواج من المعتدة بعد خروجها من العدة، والتعويض كلام غير صريح بفهم منه فصد المتكلم وأكن بطريقة غير صريحة مكشوفة، كقول الرجل للمعتدة: ههنا امرئ نرضين عنه وتزوجيه، ولكن لا يحل أن يصل بالكلام إلى التصريح والتواعد بالزواج بعد العدة، ويحرم عقد الزواج على المرأة قبل انتهاء أجل عدتها، حفاظاً لسلامة النسب إذ لعلها أن تكون حاملاً في أول فترات الحمل، ويحذر القرآن من التصرع في الاقتران بالمعتدة قبل بلوغها ذلك الأجل. فإنه عليم بما يجري في ضمائر البشر فليحذر المؤمن أن يسر ما روره في نفسه في الوقت الذي لا يحل له ذلك. ومع ذلك فإن الله غفور لما جرى في القلب وغاية ما صحبه هو التوبيخ والإشارة ولم يصحبه التصريح وتلك بما لتصف سبحانه من الحلم. وللعقد على امرأة أن يطلقها قبل أن يدخل بها. ومن طلق زوجته قبل الدخول فعليه أن يرسل إليها هدية يختلف مقدارها تبعاً ليسر الزوج وعسره، يطلب بها خاظرها، وهذا مما يقتضي أن تكون طريقة الإرسال وفنوع ما يرسله

جارية على المعروف الذي لا ينكر، ويذهب بما علق في نفوسهم من رجة الفراق فيطفيئ شيئا مما يمكن أن يتولد من الكراهية والنفرة. وإذا طلق العاقد زوجته قبل أن يدخل بها، وقد تم تعيين مقدار المصداق عند العقد، فلواحب عليه أن يستغفر لها نصف المصداق المقرر. وللزوجة إذا كانت مالكة لمر نفسها وطلّقت قبل الدخول أن تتناول عن نصف المصداق الذي وجب لها بالعقد، وللزوج أن يستغفر لها المصداق كاملا. ويشر القرآن داعية القوي المركزية في قلوب المؤمنين، هذه الداعية التي تقرب كل واحد من الزوجين من التسامح وتباعد بهما عن المشاحة. وهو ما مهد للنهي عن الغفلة عن خلق الفضل. والله بصير بما يقممه الإنسان من صالح المواقف.

بيان المعنى العام.

234. وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَحْكُمُ... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

إن انفصال عقد الزوجية قد يكون بالطلاق وقد يكون بالموت. وقد فصلت الآيات السابقة ما يترتب على الطلاق. وفي هذه الآية (234) بيّنت الآية ما يترتب على وفاة الزوج:

أولا: يجب على المتوفى عنها زوجها غير الحامل أن تمتنع عن الزواج وأن لا تتزين وأن تلتزم بنيتها أربعة أشهر وعشر ليال ولا تخرج من بيت الزوجية في الليل. وإذا تمت المعة هذا الأمد فلا جناح أي لا إثم ولا لوم على أهلها ولا عليها. إذا فارقت حالة الإحلال، بالتزني والطيب وعند الزواج حسب المعروف مما لقنه الشريعة من الأحكام والآداب. وقد كان من عادة العرب أن تمكث المتوفى عنها زوجها سنة لا تمس ماء ولا تتنظف ولا تتزين ولا تزوج. وكانوا يرون ذلك من الوفاء الذي يتعين على الزوجة أن تفعله. وعلى الأهل مراقبة تنفيذ ذلك. فحد الإسلام ذلك بأربعة أشهر وعشر ليال حفاظا على الأنساب، لإلغائه أن تكون الزوجة قد غفلت من زوجها قبل وفاته. ولا يتحرك الجنين (إلا بعد أربعة أشهر، وأضيفت لها عشر ليال لما قد يكون عليه وضع بعض الأجنة من الضعف. فإذا مضت هذه المدة ولم يتحرك في بطنها جنين تحققت برأءة رحمها من الحمل. فلا مانع من أن تتزوج بزواج آخر يعفها. وختمت الآية بلى الله خير بما يصلح أمر المجتمع ولامر الأفراد.

235. وَلَا تَحْزَنْمُوا عَقْدَ تَسَانِ اللَّهِ غَيْرَ حَلِيمٍ

ثانيا: قد تكون المتوفى عنها زوجها جلمعة لصفات تتسفر بها الرغبة في الزواج منها، والنفوس من شأنها الإمراع إلى الظفر بسلامة إذا جمعت الخصال والمزايا

التي يقتر الرجل مساقته في الاقتران بها، وهذا أمر يعلمه الله، يعلم ما يتروءد في خيال الراغب من تذكر المعتدة وحضورها في ذهنه، والغريزة الجنسية من أقوى الغرائز، ومن ناحية أخرى فإن ما أصله الإسلام من الحفاظ على الأنساب يقيني بتحتم مراعاته وعدم التهور به، ولذا رخص للراغب أن يستكم بما لا يسئل صراحة على عرض نفسه على المعتدة ليتزوج بها، ولكن يشير إشارات غير مباشرة، لا تدل على التزام طرف نحو للطرف الآخر. أما المواعدة من الطرفين فحرام ولو كلفت سرا لا ينشوه هو ولا تنشره هي. ولعل في ذلك أن المعتدة إذا صادف الخاطب من نفسها هوى وهو راغب فقد يتعجلان عقد النكاح قبل أمد.

ثالثاً: أكدت الآية على الامتناع من العزم على تنفيذ عقد الزواج بالمعتدة قبل تبين براءة رحمها من الحمل، وحذر الرجل والمرأة أن تتقلب عليهما دواعي الاستعجال فيقبلان الحقيقة الممنوعة التي لا تغيب عن علم الله، وهو تهديد بإزالة عقابه وتقريع بأن مخالفة ما شرعه عصا صريحة من فضل وحلم لما أباح لهما التفريض.

236- لا جناح عليكم حقا على المحسنين.

رابعاً: أعلم المؤمنين أنه لا إثم على الزوج إذا طلق زوجته بعد أن عقد عليها وقبل أن يدخل بها. والطلاق قبل الشغل لا يخلو: إما أن يكون قد عين لها مقرر الصداق ونوعه، أو تم العقد مع السكوت عن الصداق. فإذا طلقها قبل تسمية الصداق، فظاهر الآية أنها لا تستحق شيئاً من الصداق، والمطلوب من المطلق أن يبعث لها ما يكرمها به ويمثل شيئاً مما حصل في نفسها من الطلاق، الملقب بـ (المنعة) وقد اختلف الفقهاء في حكم المنعة، الحالة هذه، هل هي واجبة اعتماداً على صيغة الأمر (ومتعوهن) أو مواعف فيها على سبيل السدب اعتماداً على تخصيص الأمر بالمحسنيين. ولو كانت واجبة على الجميع لما خص المحسنين بالذكر؟ ثم إن المنعة، سواء قلنا بوجوبها أو بأنها مندوبة، يربطها القران أولاً بحال الزوج من عمر ويمر، وربطها ثانياً بالمعروف الذي يراعي وضع المرأة اجتماعياً فلا يبعث بما لا يليق بها، أو يكون فيه استخفاف بمنزلتها، إذ شريع المنعة لجبر ما حصل في نفس المطلقة من ألم وما تسبب فيه الطلاق من سوء، فإنه من المعروف أن الظنون تذهب مذاهب شتى في تعليل الفرق. وعمل المؤمن على رأب الصدع من لبب الإسلام (ولا تسوا الفضل بينكم)

237- وإن طلقتموهن، بما لم تلون بهن.

خامساً: إذا طلق الزوج قبل الدخول وكان قد عين لها مقدار صدقها ونوعه ، فالواجب عليه أن يعكها من نصف المصدق الذي سماه لها. ثم إن المطلقة إذا كانت مالكة لأمرها رشيدة فإن لها أن تسامح مطلقها في نصف المصدق الواجب لها. وكذلك للأب في ابنته البكر أن يعفو عن نصف المصدق. وفيه بعض المجتهدين على أن الزوج يعفو بأكمل المصدق. وفي هذا الاحتساب بعد لأن الإكمال ليس عفواً إلا على منحل.

وحزرت الآية أروحية المؤمن في طلاق وفي غيره. وكذلك المطلقة ووليها بأن العفو يقرب الإنسان من الاتصاف بالقوى، لما يفرض في نفس العاقل من التسامح وبعده عن التعصب في المعاملة بالحق. والمؤمن الكامل لا يكون إلا مسحاً وأحياً في نفوسهم صفة يرغب في الاتصاف بها كل سوي في خلقه وأبيه، بأن جعل التسامحة والعفو من الفضل. ومن يتشدد في حقه بكون بمثابة الناسي لهذا الخلق. وأكد سبحانه أنه لا يغيب عنه شيء من أعمال البشر. فهو سبحانه يرى ذلك منا ويجزي به.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ خَبِيرَةً ۚ فَإِنْ فَتِنَا فَرَجُلًا أَوْ تَرَجَّلَانَا فَذَا أَمْنٌ بَادَأْتُمْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

(٢٢٣)

بيان معنى الألفاظ

حافظوا على الصلاة: كونوا بظن لأدائها في أوقاتها المفروضة.

الصلاة الوسطى: مؤتة الأوسط والمركب منه منكر في توضيح النص.

فائمين: القلوب الخضوع والخشوع.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الله المؤمنين: أن يكونوا بظن لما فُرضهم به من أداء الصلوات . فلا تلهيهم مشاغل الحياة عن أدائها في أوقاتها، وخص الصلاة الوسطى صلاة المسيح، بعزبه من العقابة، وأن يودوا صلواتهم فائمين لله خاشعين. ويمنر لمن كان في ظرف شديد كالخوف في الحرب، أو من عدو أو من أي متسلط يهدد . أن يصلي على الحالة التي يمكنه معها أداء صلاته في وقتها المحدد قفماً أو ركعاً. وأنه إذا عاد الأمن صلى قائماً خاشعاً، ذاكرة ربه تكرر التذكير على ما تقتضيه عليه من معرفة، ما كان ليحصل عليها لو لا العقوبة الإلهية بالوحي المنزل على رسوله .

بيان المعنى العام:

238- حافظوا على الصلوات فائتين.

لقرآن كتاب هداية شاملة للإنسان تساعد مواهبه وقراء الروحية والعقلية وتعني بمشاكله الحياتية في الدنيا ومصيره يوم القيامة. فكان نظم وتربيته ومنهجه في التأثير مُصطبغاً بهذه الخاصية الشاملة. فهو لا يواصل بيان حكم من أحكام التعامل مثلاً إلا ويقرنه بالدعوة إلى تقوى الله أو التضامن الاجتماعي ونحو ذلك. وبعد أن تتلعب للبيان القرآني لبعض مشاكل الأسرة وشرح أحكامها، توجهت غايته إلى الركن العملي الذي يفتح للإنسان مسالك المحافظة على حدود الله وتطبيق أولممه برغبة وعن لفتاح فتضمنت دعوته:

لولا: التأكيد والتذكير بما ألزمهم به من أداء الصلوات في أوقاتها، وخص من بين الصلوات المفروضة الصلاة الوسطى. وحسب النص القرآني المركب من الأمر بالمحافظة، والتأكيد عليها بصفة خاصة، وما يحتمله معنى الوسطى من ماصدقات، اختلف العلماء تبعاً لذلك في تحديدها. فحملها بعضهم على صلاة الصبح لتوسطها بين الليل والنهار. وحملها آخرون على صلاة الظهر التي يأتي وقتها وللناس يواصلون أشغالهم فوقتها معروض للذهول عنها وهو وسط النهار. وقيل: هي صلاة العصر. باعتبار أن أول صلاة في اليوم هي صلاة الصبح، فتكون العصر الصلاة الوسطى. وبعضهم جعلها المغرب لما كانت أول صلاة فرضت هي صلاة الظهر، فتكون المغرب هي الصلاة الوسطى. وبعضهم رأى أنها صلاة العشاء لما ورد أنها ثقل صلاة على المنافقين. وقد يترجح أنها صلاة الصبح للتتويه بها في قوله تعالى (وَأَرَادَ الْفَجْرَ إِنَّ قُرْآنَ النَّجْمِ كَانَ مَشْهُوداً)¹ ولكون وقتها يجيء والناس نيام. وقد نوه القرآن بالذي يتجلى عن مصجعه لعبادة ربه فقال تعالى: (تَتَجَهَّى وَهُمْ عَنِ الْمَضْجِعِ)². ومن حافظ على جميع صلواته بهذا فإنه حافظ على الصلاة الوسطى قطعاً.

ثانيها: أن يؤدوا صلواتهم من قيام مع الخضوع لله فلا كلام ولا حركه تلهي التوجه الكامل لله.

239- هَٰؤُلَاءِ نَحْمَدُكُمْ مَا تَمَّ نَحْمَدُكُمْ لَعَلَّكُمْ.

ثالثاً: الصلاة، كما أفاده قوله تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)³ يجب على المؤمن أن لا يفعل عنها حتى في أخرج الأوقات، ومن رحمته ما شرعه من تيسير أداء الصلاة في ساعات الحوج الكبير. فمرخص للمؤمن إذا كان في

¹ سورة الإسراء آية 87

² السجدة آية 16

³ سورة النساء 103

وضع يخاف فيه على نفسه كحال الحرب، أو وجود عدو كاشح غير بعيد عنه، أو وجود سبع أو سيل داهم ونحو ذلك، أن يصلي كيفما يشاء له وفقاً أو ركبا مع خشوع تام أو أقل ما ينطبق عليه الخشوع. وتستمر الرخصة إلى أن يعود إلى حال الطمأنينة. فشملت الرخصة أداء الصلاة مع أقل ما ينطلق عليه الخشوع لاستثناء من إيجاب القنوت، ومع الركوب والرهبة من الوضع المخرج لاستثناء من القيام والقنوت معاً.

رابعاً: إن هذه الرخصة تقدر بغيرها فإذا ذهب الخوف وجب على المؤمن أن يؤدي صلاته على الوجه الكامل الذي هدانا الله إليه، بواسطة بيان رموله في قولنا وعملاً، على تلك الصفة التي ما كان للبشر أن يعلموها لو لا تعليم الله لهم إيماناً.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَمْسُكُوا بِالزَّوْجِ وَصِيتُهُمْ أَمْرًا إِلَىٰ أَنْ يُخْرَجَ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنَّ خُرُوجَهُمْ غَيْرُ بَاطِلٍ عَلَيْهِمْ فِي مَا تَمَلَّكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَقْرُوفٍ ۚ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٥٠﴾

بيان معنى الآية

الذين يتوفون: الذين يفارقون حالة الموت.

غير إخراج: ليس للأولياء إخراجها.

بيان المعنى الإجمالي:

دعت الآية كل متزوج عند ما يقترب من وفاة أن يوصي أزواجه بأن تتمتع بالسكنى مدة عام من تاريخ وفاته. وهذه الوصية تعطيلها حقاً ولا تعرض عليها واجباً، فإذا فرغت الخروج من السكنى الذي أوصى به الزوج قبل السنة فقد أسقطت حقها، ولا إثم ولا لوم لا على الورثة ولا عليها في ذلك، إذا لم تتعد ما هو معروف شرعاً من بقائها إلى تمام المدة ومن امتناعها من الزينة في أمد المدة.

بيان المعنى العام:

240 والذين يتوفون منكم .. عزيز حكيم

ذهب معظم المفسرين إلى أن هذه الآية كان معمولاً بها إلى أن نزل ما ينسخها ويبطل العمل بها. والناسخ أية الميراث التي أعطيت للزوجة المتوفى عنها حظها من الميراث. ولا وصية لوارث. كما بطلت لظهورها سنة بالآية السابقة (بقرينة) بالنسبة لـ **أربعة أشهر وعشراً** فكل متوفى عنها زوجها تستحق نصيبها من الميراث وتستحق أيضاً النفقة والسكنى في أيام عدتها. وبعد أيام عدتها لا يبقى لها حق زائد عما قرر لها من نصيبها من الميراث. وذهب فريق آخر إلى أن العمل ببقائه

الآية، على معنى أن الزوج عند إحصائه بقرب وقتها يوصى لزوجته أن ينفق عليها وتُسكن في بيتها مدة عام من تاريخ وفاته، على معنى أن المتوفى عنها يجب عليها أن تبقى لربعة أشهر وعشرا تتمتع بالسكنى والنفقة، وإذا أوصى لها زوجها بما زاد على ذلك إلى تمام العام من وفاته فذلك لها أن تأبى نفقة في بيت الزوجية وتتمتع بالنفقة، ولها أن تسقط ما متعها به زوجها ولا تؤم عليها ولا أتم ما دلت ملتزمة بما هو معروف من الأحكام والآداب الشرعية، وكذلك الورثة لا تؤم عليهم إذا هي فضلت إسقاط حقها فيما أوصى به الميت.

وَالْمُطَلَّاتُ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقٌّ عَلَى الْمُتَعَمِّتِ ۖ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

فَإِنْ تَبَيَّنَ لَكُمْ تَعْتَلُونَ ۚ

بَيَانُ مَعْنَى الْأَلْفَاظِ

المرتب: دلائل الشرعية.

بَيَانُ الْمَعْنَى الْجَمْعِيَّةِ:

لكل المطلقات المتعة وتمكين من ذلك حق على من كان متقيا لله، وعلى هذا النحو من البيان ينزل الله على عباده للتطبيقات ليتأملوا بمقوله ما جاءهم من الوحي.

بَيَانُ الْمَعْنَى الْعَامِ:

241-242. وَالْمُطَلَّاتُ مَتَاعٌ... تَعْتَلُونَ

بين القرآن حكم تمتع المطلقة قبل الدخول، ودعت هذه الآية إلى تمتع المطلقة بصفة عامة.

وحكم تمتع المطلقات بصفة عامة هو كحكم المطلقة قبل الدخول المبين في معنى الآية السابقة، وكذلك التعليل.

ولا يستثنى من المطلقات إلا المخلعة، وهي للزوجة التي تكره للمعام مع زوجها وتبذل له مالا ليطلقها يستعاض، فهذه لا تستحق متعة، نفس التعبير القرآني في وصفه الزوج المتمتع، بالإحصاء في الآية السابقة ويستقوى في هذه الآية، وهما وصفان متكاملان لا يوجب اختلافهما اختلاف حكم، وحركت الآية عقول الناظرين فيها من المؤمنين للتأمل حتى يدركوا في وضوح نعمة الله عليهم بما بينه من أحكام وآداب تقيم المجتمع على أفضل فوجوه وأكملها فتحاميا.

• أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا شَاكِرِينَ ﴿٢٠٥﴾ وَتَقَبَّلُوا فِي مِثْلِهِ نَارُ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَجَافَى عَنِ الْمَصْبُوحِ ﴿٢٠٦﴾

بيان معنى الألفاظ

الوف: جمع لف.

حذر الموت: خوفا من الموت.

بيان المعنى الإجمالي:

استحضر في نفسك، يا محمد، وكل من تتلوه هذه الآية، هذا المشهد العجيب: مشهد قوم كانوا وفري العدد، بلغ عددهم الآلاف، تركوا ديارهم وخرجوا منها لما استولى عليهم الحوف من الموت.

فأماهم الله زمنا، ثم رد عليهم إدراكهم، وتلك الألفاظ وتلك الفضل من الله يسعف به عباده وما من فرد في الدنيا إلا هو محبوس بكنوع من الفضل الإلهي في كل زمن وفي كل حال. ولكن الناس في غلة قتلهم منهم من يشكر ليايدي الله عليه.

بيان المعنى العام:

243-244، ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم

هذه طريقة من طرق التبيين والإيضاح للمعاني ليستحضر ذهنه ويحرك قواه للاستحضار، على أن ما سيذكر بعد هذه الصيغة (ألم تر) مثير للعجب موجب للاعجاب، أما هي هذه الصورة العجيبة ؟ هذه الصورة تتمثل في أن قوما كانوا في ديارهم، مما يشعر بالاستقرار في الديار من سكونية ومنعة، وبينما هم على هذه الحالة تب الخوف في قلوبهم، لم يفصل القرآن أسباب خوفهم، أمم العدو، أم هو المرض والوباء، أم هو التسلط الظالم، أم غير ذلك؟ كما ليهمت الآية طريقة انتشار الخوف من وضعهم شيء شاهدوم، أم لرأيت تشوئتها الأقس قارتجت بها القلوب أم غير ذلك ؟ سجلت الآية لهم خرجوا من ديارهم ولهم القرآن وجههم التي انصرفوا إليها، كما سجلت الآية أن ما حصل في قلوبهم صارت فكوا به وفروا هو خوفهم من الموت. تراءى لهم الموت ففروا منه .

وإذا بالموت الذي حاقوا منه يفترسهم بكلمة واحدة من الذي يقول للشيء كن فيكون، فيبدو المشهد بعد ذلك الاضطراب ساكنا، هل ملأوا حنيفة، أو الموت موت مجازي لا حقيقي، على معنى دهاب الفزع يلحمهم . أو صبحوا فكانت صورتهم صورة آلاف الجثث لا حرك بها، نون أن تغادر أرواحهم لجسادهم ؟ نص الآية

يحمل كل هذه الوجوه. والآية تسجل أن الله أعاد لهم قوى الإدراك بعد ما حل بهم فأحسوا بفضل الله، الفضل الذي ينال منه كل فرد من البشر حظه، ولكن غفلة معظم البشر وتغلفهم بالحياة العاجلة، يحجبهم تلك عن واجب الشكر. في ذلكم الإيهام ما يوحي بحالة الفزع التي هم عليها. بما يصور التسلم للآلة صورة من الاضطراب والجري اللاهث والتلفت والهلوع، وتوسم ملامح من الجبن والتعلق بالحياة. حتى القرآن ذكر اسمائهم وقبائلهم والأمة التي يقتسبون إليها، والإجابات عن الأسئلة التي أثارها. كما لم يفصل كيفية ما حل بهم من الموت والإحياء ليكون مردها على هذا النحو مقتضرا على ما به العبارة للمؤمنين الذين نزل عليهم القرآن، كي يحصنوا أنفسهم بالشجاعة وثبتت. وليعلموا أن الخوف من الموت لا يؤثر في إبعاد الموت **(كل من الموت الذي تكبرون منه فكمه ملائكم)**^١ وهو معنى أكدته القرآن وثقت الأنظار إليه في آيات عدة. ويكون هذا المشهد بجميع ما ورد فيه مهينا للآية التالية التي يمد بها القرآن الأمة لتحمل أعباء الدفاع عن الدين. فجاء الأمر بالتفاني في سبيل نصره الدين، بالثبات والشجاعة وعصم الخوف. وهو الطريق الموصّل إلى مرضاة الله. وهو طريق يرهّأه الله فلا تقع فيه حركة من الحركات. قلت أو جئت، ضعفت أو عظمت، إلا سجلها الله تسجيلا مر لا يثيب عن سمعه شيء، وما يثيره المجاهدون من تكبير وما يخططونه من خطط وما يجري في عزماتهم فإن الله به عليم. وذلك وعد كريم بالثبوت يتيقن المؤمنون حصوله يوفى العلم لا الظن.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَنُضْفِئَهُ لَهُ أَضْعَافًا عَشِيرًا ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ۚ إِلَيْهِ تُجْزَوْنَ ۝

بيان معنى الألفاظ

القرض: إعطاء شيء مع قصد أن يعود مثله لمعطيه.

حسنا: نظيف فيه النية.

يُجْزَوْنَ: ينولى قبض القروض.

يَبْسُطُ: يصاعف القواب.

بيان المعنى لإجمالي

يحث الله سبحانه على أن يقدم المؤمن ويتنازل عن بعض ما يملك بقصد أن يجده ثوابه عند الله مضاعفاً. وأشار للتعبير إلى تحقق مضاعفة الثواب بأن الله هو الذي يتولى فضل ما قدم. ويبسط الجزاء بما يتناسب مع فضله وكرمه، ولتم الإشارة بأنسه منخر عنه يوم القيامة لأن جميع الخلائق تعود إليه فتلقى عنده جزاءها.

بيان المعنى العام

45. من ذا الذي... واليه ترجعون.

أمر الله المؤمنين بأن يقتلوا في سبيله، بما يدعو إليه القتال من تجهيز للجيش وبذل للنفس، فحرض على ذلك وعلى كل بذل، بما تضمنته هذه الآية. والمبال مال الله وهو للغنى الغنى المطلق، ولكنه ربي بالإسلام للبشر تربية تسئل من نفوسهم خسيمة الشح، فحرضهم على السباحة بأن جعلهم في صمورة المفرضين له. والمفرض هو الذي تسمح نفسه بإعطاء شيء مما يملكه، ليفضه مع قصد أن يعود إليه مثله أو مثاليه.

ثم قررنا قاعدة: أن كل من يقدم قرصاً عن قصد حسن بلا رياء ولا طمع خبيث فإن الله سبحانه يتولى فضله وكرمه قبول ما قدمه، مما يترتب عليه بوعده مؤكد منه، أنه مضاعف له ثوابه أضاعفاً كثيرة. وهل هذا التضخيم هو بما يليق به المفروض يوم القيامة أو هو شامل لذلك ولتيسيره لتوافل فضله في الدنيا ؟ إطلاق الآية برجع إرادة الثوابين، والله متصف بأنه القابض للفروض الحسنة تشريفاً للمفرضين، ويبسط الجزاء للذهب النفس في تصور الجزاء كل مذهب، إذ هو ممن وسع ملكه كل شيء ولا ينقص من ملكه شيء، وهو الموصوف بالكرم. والحقيقة أن كل الناس سيعودون إلى الله، وتذكيرهم بهذه الحقيقة هي ختام الآية ليقيموا أنه لا يضيع لهم شيء مما قدموه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ مَرْجُومًا مِّنْهُمْ إِذْ قَالُوا لَتَيْنِ رَّهْمًا أَتَعْتُ لَنَا مَلَكًا قَبِيلًا فِي سَهْلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَيْهِ تَفْتَنُونَ أَلَّا تُقْبِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقْبِلَ فِي سَهْلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنَ دِينِنَا أَتَيْنَاهَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٢٢٢ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ

بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسَمِ وَأَنَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٠﴾
 وَقَالَ لَهُمْ فِيهِمْ نُوحٌ ۖ إِنَّهُ نَصَحَ ۖ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْكَيْفُوتُ بِهِ ۖ فَكُنُوا مِنْ رُسُلِكُمْ
 وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ ۖ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْكَفَّيَّةُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لِّكُلِّ ۖ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٢١﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
 مُبْتَلِيكُمْ ۖ فَمَنْ شَرِبَ مِنَّا فَالْكَافِرُ ۖ وَمَن لَّمْ يَمْسَسْهُ فَاِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ
 غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنَّا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
 قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ ۖ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا
 اللَّهَ كَمَ مَوْجِهُ قَلِيلًا ۖ عَلَيْهِمْ ثِقَةٌ ۖ كَجِذْرَةٍ إِذْ يُنَادِيهِمُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٢٢﴾ وَلَمَّا
 بَرَزُوا لِجَالُوتَ ۖ وَجُنُودِهِ ۖ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا صَبْرًا ۖ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ۖ وَانصُرْنَا عَلَى
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢٣﴾ فَهَزَمُوهُمْ إِذِ الْيَمِينِ ۖ وَاللَّهُ قَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ ۖ وَآتَاهُ اللَّهُ
 الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ۖ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
 لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ۚ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
 تَقُودُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَلَئِكَ لَمِنَ الْمُتَرَجِّلِينَ ﴿٢٢٥﴾

بيان معنى الآيات

الملا: الجماعة الذين أمرهم واحد.

هل عسيتم: لمos.

اصطفاه: اختاره.

التيوت: صندوق مستطيل حفظ فيه ما بقي من الألواح التي تلقاها موسى.

مكينة: الإطمئنان.

لاية: معجزة ظاهرة.

فصل بالجنود: ابتعد بالجنود.

من لم يمسسه: من لم ينفقه.

غرفة: ما تأخذه كف اليد من الماء.

ملاكوا الله: الموت في سبيل الله.

فلة: الجماعة من الناس.

يُخَيِّرُ اللَّهُ تَعْلِيمَهُ وَعِلْمَهُ.

فَرَحُّ عَلَيْنَا: أَرْزَقْنَا صَبْرًا يَمُوتُ قُلُوبُنَا وَعُقُولُنَا وَمَشَاعِرُنَا.

ثَبَّتْ لِقَادِمَتَنَا: أَخَذَنَا عَلَى الثَّبَاتِ وَعَدِمَ لِلْقَوْلِ.

يَمَانُ الْعَمَلِ الْإِجْمَالِي:

إِثْرُهُ لِلتَّكْمُلِ، ثُمَّ الْإِخْتِيَارُ هِيَا وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَافِيلَ فِي هَضْبَةٍ مِنْ تَارِيخِهِمْ. تَوَالَّتِ
الْهَرَامُ عَلَى بَنِي إِسْرَافِيلَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَنْ شَارَ فِي نَعْمَتِهِمْ رَفَضُ
الْوَقْعِ وَهَزَنُهم نَحْوَهُ يَعْتَقِبُهُمْ عَلَى مَطَالِمَةِ نَبِيِّهِمْ لِيُخْتَارَ لَهُمْ مَلِكٌ بِزُورِهِ عَلَيْهِمْ
وَيَتَوَلَّى قِيَادَتَهُمْ لِيَأْخُذُوا بِثَارَتِهِمْ مِمَّنْ تَحْكُمُوا فِيهِمْ وَأَقْلَسُوهُمْ. وَفَإِنَّ كَانَ نَبِيِّهِمْ مَدْرُكًا
لِلْهَوَى الَّذِي اسْتَوَلَى عَلَى عَرَفَتِهِمْ، فَصَلَّاهُمْ لِعَلَّكَ إِذَا فَرَضَ طَعْنُكَ الْقَتْلَ تَتَأَخَّرُونَ
عَنْهُ ؟ أَكُنُوا أَنْهَمْ عَزَمُوا أَمْرَهُمْ فَلَمَّا رَاصَلُوا إِلَيْهِ بِخَفْعِهِمْ نَفَعَتْ كُوبًا لِلتَّكْمُلِ فَعَلَلُوا:
قَدْ نَمَّ قَهْرُنَا فَأَخْرَجْنَا عَدُوَّنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَسْرَ أَسَانِدَنَا. وَيُظْهِرُ بَعْدَ ذَلِكَ حَسَنُ الْهَرَامَةِ
نَبِيِّهِمْ فِيهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ تَرَجَّعُوا، وَلَمْ يَشْفِ إِلَّا عَدَدٌ ضَائِلٌ مِنْهُمْ.
وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ وَصَفِ الْقَظْمِ الَّذِي كَانَ مَعْلُومًا لَهُ مِنْ قَبْلُ. قَالَ النَّبِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ
لِلْبَقِيَّةِ الَّتِي أَظْهَرَتْ الثَّبَاتَ عَلَى خُصُوصِ الْقَتْلِ نَحْنُ وَرِيشَةُ مَلِكٍ يَدِيرُ أُمُورَهُمْ
وَيَقُودُهُمْ إِلَى النُّصْرَةِ، قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنْ أَلَّهِ مَدَّ اخْتَارَ لَكُمْ مَلِكًا مِيرَةً عَلَيْكُمْ، هُوَ
طَالُوتُ. نَحْبُوا مِنْ هَذَا الْإِخْتِيَارِ وَقَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا هَذَا الرَّحْلُ عَلَى مَكَانَتِهِ
الْإِجْتِمَاعِيَّةِ الْمُوقِفَةِ، وَفِينَا مِنْ هُوَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ فِي نَعْمَتِهِمْ بِنِي إِسْرَافِيلَ مِنْهُ، ثُمَّ تَوَلَّوْا
بِلَهُ مَعَ مَنْزِلِهِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ الْفَائِزَةِ هُوَ الْفَقِيرُ، سَمِنَ لَوْهَ نَبِيِّهِمْ جَهْلُهُمْ، وَثَبَّتَ لَطَالُوتُ
ثَلَاثَ خُصَالٍ لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ:

أ - أَنْ اخْتِيَارَهُ كَانَ مِنْ أَلَلِهِ الَّذِي يَعْلَمُ الْمَصْلَحَ مِنَ الْمَفْضَلِ.

ب - أَنَّهُ أَكْوَى مِنْهُمْ بِخَفَا لَطُولِ قَائِمَةٍ يَمَّا يَجْعَلُ الْعَمَلُ يَرْهَبُهُ لِنَدْرِهِ.

ج - أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ إِنْ أَلَّهِ هُوَ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَفِيهِ يَعْلَى هُوَ مَلِكُهُ لِمَنْ
يَشَاءُ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَأَلَّهُ وَلَسَّ فَضْلُهُ، يَعْلَمُ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْوِلَايَةِ، ثُمَّ زَادَهُمْ
يَعْرِضُ أَيْةَ نَحْضِهِمْ إِلَيْهِ رَقَابَتِهِمْ هِيَ أَنْ تَأْخُذَ الْعَمَلُ، الَّذِي يَحُلُّ مَعَهُ الْأَمْنُ
وَالْمَكِينَةُ وَالطَّمَأْنِينَةُ فِي قُلُوبِهِمْ وَيَنْهَبُ بِهِ الْفَرْعَ وَالْخُصُوفَ، يَمَّا لَوَدَّعَ فِيهِ مِنْ أَشْيَاءَ
نَفْسِهِ مِمَّا تَرَكَهُ آلُ مُوسَى وَالْهَارُونَ هَذَا التَّأْيِيدَ الَّذِي ضَامَّ مِنْهُمْ وَكَانَ مَا
أَصَابَهُمْ مِنْ تَهْزِئَاتٍ مَتَّاعِيَّةٍ مَدَّ حَصَلَ بَعْدَ ضَرْبِهَا حَرَّ لِيَدِيهِمْ، سَيِّئَاتِهِمْ تَحْمِلُهُ
لِلْمَلَانِكَةِ وَيَسْتَلِمُهُ طَالُوتُ. حَضَعَ بَنُو إِسْرَافِيلَ لَمْ يَرَوْا الْآيَةَ وَمَسَارُوا وَرَاءَ مَلِكِهِمْ
طَالُوتَ، فَلَمَّا لَبَّاهُمْ لَخِيرَهُمْ بِأَنَّ أَلَّهِ سَيِّئَاتِهِمْ وَيَخْتَبِرُ جُلُودَهُمْ، ذَلِكَ لَهُمْ سَيَمُرُونَ
عَلَى نَهْرٍ صَافٍ، مِلَادُهُ يَلُودُ، وَلَمَّا أَلَّهِ لَمْ يَبِجْ لِيَمَّ لِيُيَسِّقُوا مَعَهُ، وَلَمَّا مَنَ شَرِبَ مِنْهُ

طرد من جماعة النبي. ومن لم يشرب منه إلا مقدار غرفة بيده يطفى بها لهب كبده إلى الماء. ينح في الامتحان، وهو من جماعته. فلما مروا على النهر انكب معظمهم على النهر يشربون، وقد يكون يهم عضش ففوتوا، ولم يطبق التحذير إلا جماعة قليلة، هم الذين كانوا مؤميين حقا فواصلوا معه المصرة إلى العدو. واستشعر الذين بقوا معه عظم ما هم قادمون عليه ودب الخوف في قلوبهم، فقالوا: لن طاعتنا تقصر عن مواجهة جالوت قائد الأعداء وحيوسه الجرارة، وبقيت بقية صالحة في الجيش من الذين يظنون أن الله قد يكرمهم بالتهلة فقالوا: كثيرا ما غلبت جماعة قليلة جماعة أكثر منها عددا وعدة سابق على الله وتمكينه. والله يريد للمؤمنين ولا يتركهم لغوسهم. ولما اتقى الجمعان أخلصوا في الانهال إلى الله داعين ربهم: يا الله ثبتنا عند اللقاء، حبيب لنا الجهاد، ونصرب بتأييدك على القوم الكافرين. وتكشف المعركة الفاصلة عن انهزام الأعداء رغم كثرتهم وقوتهم، وعن انتصار كامل للمؤمنين. وبرز في الجيش داود فقتل جالوت قائد جيش العدو. ومن الله على هذا الفتي الشجاع فتاة الله بما بذل في مدافعه الأعداء، أن جعل ذلك مهينا له ليصبح ملكا. وجمع له مع الملك الحكمة في تسيير لسور من هم إلى نظره. ونعى علمه. ومناكبنا قصيل ما رزق الله لداود عليه السلام. ويختم هذا التسجيل للحوادث المتسلسلة ببطل سنة الله في الخلق: أنه الله، ركب في الإنسان قوة تدفعه إلى تأمين نفسه ورد ظلم من يريد أن يهضم حقوقه المدنية والعموية. وأنه لولا هذا التركيب المتحكم الذي بني عليه خلق الإنسان لفسدت الأرض ومز طوبها، تلك إذا كان الظالم يستبد باتباع شهواته ويستأصل من لا خضع لمطامعه، فإن النهاية هي ذهاب ما كان به تكامل هذا الكون فينتهي لكون ولكن فضل الله عظيم. ما أنزلنا عليك يا محمد، من دلائل التصرف المتحكم في الكون، تثبت قلبك وتزيد إيماننا وتؤكد لك أنك من زمرة المرسلين الذين اختصهم الله دائما بمعرفته الحق. الذي لا يلغفه الباطل.

بيان المعنى العام.

246- البقرة الآية 246: عليه السلام بالظالمين

صورتان متقابلتان سجلهما القرآن:

الصورة الأولى صحت في الآية (243) تمثل جماعة استولى عليهم الخوف من الموت فخرجوا من مآمنهم وتلقوا حرا منه، فسلط الله عليهم ما كانوا يخشونه ثم أحياهم ليحيروا.

الصورة الثنائية؛ هو ما جاء في هذه الآيات من آية (246) إلى آية (251) لتلتصق تسلسل الأحداث وما نخللها من عبر، لو ما سنكتشف عنه أثناء هذا التتبع الممتع.

التسجيل الأول: يدعو الله نبيه وكل مؤمن أن يستحضر من خلال ما قصه القرآن علينا في هذه الآيات الصورة المتحركة المليئة بالفتنات والمعاجزات، جمع من الإسرائيليين كانوا يسكنون في مكان واحد، ويرتبطون بروابط الإقامة والجنس، الزمن التاريخي بعد مضي زمن على وفاة موسى عليه السلام وأخيه هارون، قد تسلط عليهم من استبداد أعدائهم وقهرهم، ما أثار في نفوسهم الحمية، فأخذت نواحي الانقراض تدب، محرقة لهم لرفع الظلم والرجاء ما ذهب من عزتهم. ويشير ذلك إلى سنة من سنن الله في الخليقة: أن الظلم ينتهي بتحريك المظلوم في النهاية ليرفع عن نفسه الظلم والاحتقار، بما يتبع ذلك من فقد للأمن وثورة تدفع الذين كانوا تحت سلطان الاستبداد ليسترجعوا كرامتهم المسلوقة وحقوقهم المنصوبة ونعمير القلوب باليقين وحب الانتقام. ولذلك توجهوا إلى نبيهم أن يساعدهم على اختيار ملك عليهم، يجمع أمرهم. ويعدّ لهم الخطط التي يصلون بها إلى تحقيق نجاحهم ويقاؤون تحت لوائه في سبيل الله لا طمعاً في مقام ولا تسلطاً ظالماً على البشر، وسنة ثانية يشير إليها هذا المقطع: أن حلجبه البشر إلى من وجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم وينسق بين إمكانياتهم هو أمر ضروري للبشر، فقيام الدولة أول خطوة في العمران للبشري المنظم.

التسجيل الثاني: أن نبيهم لم يكن وثاقاً من أن نفوسهم قد بلغت هذا المستوى من إياء الضيم والاستعداد للقتال والموت في سبيل ذلك. فقال لهم: لعلكم إن فرض عليكم القتال، بما يقتضيه من تضحيات وشجاعة، أن لا تقتلوا وتحييوا. فكان جوابهم حازماً جازوا بأن الأمر بلغ بهم أن لا خيار لهم، فكل ما يكون أن يبعث الجبن في النفوس قد ذهب، فلموقع قد استولى عليها عدوهم بعد أن أخرجهم منها، وأبدلهم في أسره بذلهم وممتلكاتهم.

التسجيل الثالث: يظهر ما كان خفياً مما أودعه نبيهم الذي ما كفى رده عليهم فيقول لهم **(هل نصيبكم لتسألوا)** ولكن ليحذروهم من الضعف والوهن. ويفهم من تتابع المشهد أن نبيهم قد سأل من الله أن يسألهم في القتال. فلما تلقى الإنذار وبلغه إليهم بأن الله قد فرض عليهم القتال، وعلموا أن الأمر جد تولى القسم الأعظم منهم وحيوا. ويبرز في المشهد علم الله الذي لا تخفاه خافية، فهو عليهم بهذه الكثرة الموزومة الظالمة، ظالمة لنفسها يرضاهم بالذل، وظالمة للجماعة التي استجابت، لأن قهرهم يزعزع شيئاً مما من صمود الصامدين،

ويختل الفئة التي صعدت على القتال تكس مع بقية العلاء. وفي هذا المقطع من الحكمة أن على القيادة ألا تتخددع بالدفاعات الدعواء. وفيها تحريض للمؤمنين أن يستعدوا لقتال المكين الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم.

247- وقال لهم نبيهم: واسع عليهم.

التسجول الرابع: بقي النبي في هذه القلة التي عذبت العزم وعاهدت على العضي إلى القتال. وما بقي إلا أن يعلن النبي اسم الملك القائد ولما تلقى من الله اسم من عبته سبحانه لهذه المهمة. قال لهم: **إِنَّ اللَّهَ فَدَ اخْتَارَ لَكُمْ طَلُوتَ مَلِكًا**. وهنا تلقى النبي من بني إسرائيل رفضاً ومشاكل. لم يعجبهم ما اختاره الله، وأعلنوا بكامل الوفاحة رفضهم لهذا الاختيار، وأخذوا يناقشون أمر الله وصرحوا بأن طالوت ليس من ذوي المكانة الممتازة في المجتمع، وأنه مع ذلك غير. وبصير النبي على هذا الصلف وبيّن لهم ما فاتهم إدراكه، وهو يتمثل في الأمور الآتية:

(1) أن الله عليهم هو الذي اصطفاه على قومه وقدمه عليهم ومعنى هذا أن الظواهر تكذب على محك التجربة، والله يعلم مآلات الأمور علمه بحاضرها.

(2) اختار طالوت لهذه المهمة لأنه جمع بين، قوة الجسم التي يتحمل بها مشاق السفر ومدومة القتال، ومواصلة البقطة، والمهابة في عيون الأعداء، وحرص شخصيته على الجند الذين يسيرون تحت لوائه، وبين ما رزقه الله من نكباء وطفنة فكان أعلمهم بغنن القتال وأقدرهم على القيادة بحكمة ويصر مما يمكنه من الاختيارات الموفقة.

(3) أن الملك الحقيقي للكون ولبنى إسرائيل هو الله، ولا يتعرض عليه في تصرفه في ملكه فهو يعطي من ملكه ما يشاء لمن يشاء. وهو القادر الذي لا تحد قدرته حدود، وهو العالم الذي يسوي في علمه ما كان والحاضر والماثل.

248- وقال لهم نبيهم: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

(4) أن الله قد يسر لطلوت أن يستأيم بالتأبوت الذي أضاعوه تحمله الملائكة بطريقه لم يفصلها القرآن (وهو صلتوق جمع فيه بعض الأنواع التي أخذها موسى وبقايا ما تحطم منها) وفي هذا التأبوت أسرار عظيمة، فكان قبل أن يضيع منهم ينصرون كلما رفعوه، وقحل أمرهم ومردوا بعده.

(5) نبيهم إلى الربط بين رجوع التأبوت وتعليك طالوت عليهم بأن مجيئه قصد به أن يكون آية دالة على أن الله هو الذي اختار لهم طالوت ملكاً. وأن اعتماد هذه الآية علامة على الإيمان.

249- فلما فصل سمع الصائرين.

التسجيل الخامس: يفهم من السياق أن البقرة القليلة من المعتقين بالقتال، الذين انفكوا للملك طالوت، قد توحشوا تحت إمرته وأعدوا للقتال عدته وسار الجيش فاصدا منزلة الذين ماموهم فحسبوا وهولوا. فإدام في طريقهم طالوت: إن الله سيختبركم بالنهر الذي سترون عليه، هو نهر يجري مازد عذبا زلالا، وأن ما بكم من شربة الماء يدفعكم إلى الشرب منه، فليسكن من تشربوا من مائه إلا أن يأخذ لحكم بيده ما ييل به جفاف حنجرتة، واعلموا أن من شرب منه فذلك هو للتطوعة ببني وبيته، ومن ذاقه على الوصف الذي وصفت لكم فهو مني يمسير معي للقتال. سمع الجيش ما أعلمه به طالوت. ولكن عندما وصلوا إلى النهر لكسب معظمهم عليه يرثي مبالغا من مائه. وبذلك تقلص جيش طالوت إلى عدد قليل من الناس هم الذين لم يشربوا، أو الذين لم يجاوزوا ما أخذوه عرفه بأيديهم. وفي هذا المنقطع ما يقرر قاعدة من قواعد القيادة: أن يترب الجيش الذي معه على الطاعة. الطاعة التي لا تفتر معها، القائد وأمر والجند يطيع.

250- ولما يروا الجالوت...والصردا على القوم الكافرين.

التسجيل السادس: يفهم مما طواه السياق أن الأخبار قد لعنتهم تحيد أن العدو قد أعد عدته وأمر على جيوشه الجوزة فقتلار هيبا هو جملوت. ويضطرب جيش طالوت لما تراسي إليه من الأخبار، ويتقسم إلى قسمين: قسم: المعادلة عدده هي بين الكثرة والقلّة، ولا قوة إلا للقوة العالوية، وبناء على ذلك يصرحون بأنهم لا طاقة لهم بجالوت وجنوده.

قسم: يُخذل في المعادلة فأيد الله وهم الذين يرقبون أن يفوروا بأشهادة **إيتقنمون لهم ماتوا الله** فيردون على المتبطلين الخائفين بقولهم: إله قد تكرر في التاريخ أن جماعة قليلة تمتد لتتصرت وهزمت من هم أكثر منها عندما بتأييد من الله والله يؤيد الصائرين. فعلم الصبر والإيملى وقوة العزيمة واسترخاض الحياة هو المحقق للنصر.

251- فهزمهم على المائمين.

التسجيل السابع: سار طالوت بمن بقي معه إلى لقاء جالوت وجنوده. ولما التقى الجيشان أيد جيش طالوت نفسه بالانتهال إلى الله، أن يؤمّن نفوسهم على الصبر على القتال وأن يستل منها دواعي الخوف، وأن يثبتهم فلا يتسرب ضطط القرار إلى قلوبهم، وأن يجعل ضرباتهم مؤهنة للعدو، وأن يهيبهم نصره على القوم

المعتزبين بكفرهم، ودللت المبركة واكتشفت عن هزيمة الكافرين هزيمة نكراء وبرز من بين المعتزلين شاب ما كانت بطولته معروفة من قبل، قتل جالوت وحز رأسه، هذا الفتى هو داود الذي بلغ بنو إسرائيل تحت إمرته بعد ذلك أوج عزهم لما ملك عليهم، وأثاب الله الحكم والنبوة وفتح على بصيرته ففلق أهل زمانه علما ومعرفة.

252- تلخص آيات التمسك بالمسليين

وتختتم التسجيلات بتقرير حفيظة: هي سنة الله في خلقه التي أجرى عليها أمر الكون، وقد يكرر التمسك بها غافلين: أن الله قد فطر الناس على أن ينفع بعضهم بعضا، على أن لا تكون الحياة لتفني حياة سلطنة رقيقة، بل حياة مضطربة يتصارع فيها الخير والفضيلة والعدل من ناحية، والركنلة، والظلم والشر من ناحية أخرى، وهذا الصراع هو طبيعة الخلق الإلهي الذي أراد أن يكون الإنسان خليفة في أرض الله يملئ خيراتها، يبين لنا ذلك أن الناس قد ركبت فيهم غرائز هي التي تدفعهم لعمارة الأرض ظولا غريزة حب البقاء، وغريزة حب التملك، وغريزة الأنثية، وغريزة الجنس لولا هذه الغرائز ما جاهد الإنسان في الحياة وما نعى شيئا من خيراتها، ولكن مقتضا بما عنده في يومه راغبا عبر هذا السعي الدؤوب المشعب، والحرص على توفير أكثر ما يستطيع توفيره من منافع الدنيا، هذه الغرائز قد تقوى عند بعضهم قوة تتجه نارة نحو الخير، ونارة نحو الشر، فيتغلب حب الاستئثار والأنثية عندهم على حقوق الآخرين، وينشئ تكم الغرائز يقف فريق آخر يدافع عن مكنساته، ويأخذ على يد المستبد الظالم، وبهذا التدافع يرتقي العالم في إصدارات ومثل التغلب والاستيلاء على الخيرات بمتنوع طرق الحق من ناحية، وبوسائل الشر والظلم من ناحية أخرى، وتكون بظنة الإنسان مصاحبة له، فمن فضل الله على الإنسان أن مكنه حير لمخلقه، بما أودع فيه من قوى، من النجاح في مهمة الاستحلاف التي يعضي فيها إلى الأبد للمعشر في علمه سبحانه، فكان في ذلك فضله واصحا على العالمين مؤمنهم وكافرهم مسلحهم ومسلحهم، وأكثر من هذا، أن التدافع لم يقتصر على جنس الإنسان بل شمل كل الكائنات وتنبعت من هذا التدافع سنة أخرى من سنن الخلق: سنة التطور نحو الأفضل والبقاء للأصلح، وهذه الحقائق التي لا علم للناس بها قبل رسول الوحي يقول الله: إنه يتوها على قلب رسوله مصاحبة للحق الذي لا ريب فيه كشفا عن خفايا تقوم منافية بآل محمدا ﷺ أحد رسل الله، علمه كما علمهم، وعلم ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما.

• تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَزَجَّ بَعْضَهُمْ فِي رُحْنِ
وَمَائِدَنَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الْيَتِيمَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا
الَّذِينَ مِنْ بَنِيهِمْ مِنْ بَعْدِهِ مَا جَاءَهُمُ الْيَتِيمَ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَبُيِّنَ مِنْ ءَامِنٍ
وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

البيئات: المعجزات الواضحة.

روح القدس: جبريل عليه السلام.

القدس: الطهر النزهة.

بيان المعنى الإجمالي:

أشارت الآية إلى موكب المرسلين وهم يتتابعون عبر الزمن لبيان هداية الله. وهم
ليسوا على مرتبة سواء فبعضهم أفضل من بعض. وصرحنا الآية بسبب التفضيل،
فضل موسى بأن الله أبلغه كلامه بنون واسطة جبريل، واختص عيسى بأن مكثه
من معجزات ظاهرة مصونة وأيده بجبريل، وما كان في رسالاتهم ما يوجب
القتال. ولكن التخصيص يعني البصائر فتخفى الحقائق البينة، فوقع الاختلاف بسبب
هؤلاء المتعصبين فكان منهم الكافرون، ولجا المتبصرون فآمنوا، ولو شاء الله لن
يمنعهم من الاعتقال لفعل، ولكن الله يتصرف حسب حكمته التي إدراك جميع
أسرارها فوق طاقة العقول فيفعل سبحانه ما يريد.

بيان المعنى العام:

253 - تِلْكَ الرُّسُلُ...يفعل ما يريد.

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى (وَأَنَّ لَكُمْ لِمَنْ تَرَاهُمْ فِي السُّبُلِ مِن الرُّسُلِ) فأشارت إلى هذا الموكب من
رسل الله وميزهم كذلك تشاهدكم فيها التالي لقوله (تِلْكَ الرُّسُلُ) وتقرر حقيقة: هي
أنهم وإن اختلفوا في تحمل شرف الرسالة فإنهم ليسوا على مرتبة سواء، فإشارة التي
تخير رسله من بين خلقه (الله أعلم حيث يجعل رسالته)^١ فاضل بينهم، وخص
بعضهم بمزايا تعود إلى النجاح في المهمة التي لوكلت إليه لولا، وتعود إلى أنواع
الغلبة التي خصه بها، فموسى عليه السلام قد خصه بأن أعطاه قدرة جعلته يحس
إحسانا خاصا فهم مراد الله من كلامه له بكل مدركه في لحظة مناداته بجانب
جبل الطور. وعيسى (عليه السلام) جعل صلته بجبريل صلة إبتدات من الساعة التي حملت

به أنه ونفخه فيها إلى أن توفاه الله ورفعهم. ووسطة العقد بينهما في الذكر محمد ﷺ الذي أشار له بقوله: ورفع بعضهم درجات. تبدو هذه المنزلة الرقيقة في بعثته إلى القلتين وختم الرسالة به وفي بقاء القرآن سليما من كل تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان، تتواصل هدايته عبر القرون لا يتقهض في ذاته ولا يلتبه ما ينفضه. ويقاه معجزاته ناطقة بصدقه سائرة مع البشرية في امتداد عمرها. وكل معجزات الرسل الآخرين أصبحت بعدهم في دائرة لسماع بها، وخرجت من الإدراك المباشر بما له من قوة. ثم إن تسليح الرسل ثارت بينهم الفتن وقامت الحروب وقتلوا. وهذا الذي وقع لم يتعلق الإرادة الإلهية بمنعهم منه، ولم يرد الله أن يستل من يؤمنهم دواعي التعصب ويقرهم قسرا على التأمل في البيئات التي من شأنها أن تنتشر السلام، وتجمع الكلمة، وتوحد الصف. وتقضي على الباطل. بعد أن جمعهم رسلهم على كلمة الله، ثار بينهم بعد ذلك خلاف، لخلاف الذي هو نابع من الهوى والتعصب، وعدم تحكم ما هو بين أيديهم من الآيات للبيئات. ووصل بهم النزاع إلى حد غير مقبول ولا مقبول. فكفر بعضهم وهم الذين أجهلوا في التأويل والخروج عما تقتضيه كلمة الله. وبقي شيعن مؤمنا. ثم تطور اختلافهم إلى القتال وإزهاق الأرواح. ولو شاء الله أن يصدهم بقوته عن القتال لفعل، ولكن الله يفعل في هذا المنكر ما تعلقت به إرادته. وإرادته سبحانه هي البيان وإرسال الرسل. ثم ترك الحرية للناس يسبغون في الحياة ميسر المعقول عن أعماله. إذ لو منعهم من تجاوز هداية المرسلين، ولخضع المبطلين من المبعدين في التأويل إلى الصالحين المتمسكين بالبيئات، وغر أيديهم، لانتهى التكليف الذي ينسب عليه الله أمر الحياة الدنيا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَبِيعُوا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بِيَوْمٍ لَا يَبِيعُ بِهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ. الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٤﴾

بيان معنى الألفاظ

الخلَّة: الصداقة التي يتقوى بها الصديق لتحقيق مراده.

الشفاعة: الوساطة في طلب النفع أو دفع الضرر.

بيان المعنى الإجمالي:

دعت الآية المؤمنين لبذل المال الذي تفضل به الله عليهم ورزقهم إياه، لأنه هو الذي سخر الأسباب ولزال العلوق لكسب ما كسبوا. وحثهم على التعجيل بذلك قبل أن يدرهم يوم القيامة، اليوم الذي لا يحصل فيه أي كسب ولو على أقل شيء.

ينفعه، لأن سبيل الكسب إما متخلّة مال بمال ولا يبيع في ذلك اليوم، وإما عطية من صديق ولا صديق يملك شيئاً يعطيه، وإما بشقاعة يتدخل بها الشافع ليبيّل المشفوع فيه ما يرفع عنه العاخذ أو يقويه على نيل مبتغاه، ولا شافع في ذلك اليوم إلا من لأن له الرحمن في حدود ما أنن له فيه. وقد انحصر الظلم في القوم لكافرين.

بيان المعنى العام:

254- يا أيها الذين آمنوا...والكافرون هم الظالمون.

نداء من الله للمؤمنين يستحثهم على الإنفاق، ويدعوهم إلى عمل ما يمكن أن يعلق بالنفس من أوثق قشع، ومرض حب المال حياً ينسى الموت حقيقة يُفكر بها القرآن في أسلوبه المعجز هي أن المال يوزق منه الله ما شاء لمن شاء، فكل مولود يولد عرياناً لم يملك نفسه شيئاً، ثم يأتيه ما كتبه الله له من رزق ولو عوكة فقدّر المحتوم عن الكسب لما حصل أي شيء من المال الذي بين يديه، فحواسه وسلامته للبيضة، وما رزقه من نكاه وفطنة، زيادة عن الظروف الموقية، كل ذلك من الله بعجز الإنسان عن تحقيق أي شيء من ذلك ويجمع هذه الأمور وغيرها قوله تعالى (**مما رزقناكم**) فإلك ملكه، ونوفّق الإنسان لكسب شيء منه هو ينسخيره تعالى. وإذا كان الملك لله، فالإنسان مسخلف به، مسؤول عن تصرفه، فيكون الإنفاق الذي دعا إليه للمؤمنين هو الإنفاق المشروع الذي يرضاه مالك الملك، وخاصيته أن يجد المنفق إنفاقه يسري معه في الحياة الدنيا ويواصل مسيرته ليلفاه يوم القيامة ثواباً وكرامة، ويدخل في ذلك دخلاً أولياً الإنفاق في سبيل الله، فترشد الآية بما ألمت إليه الآية السابقة من الإقتال بين أهل الحق وأهل الباطل، وبين الضالين من الكفار والراشدين من المؤمنين. (**ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما لفقتوا**) وتكرّر الآية تلكم لخاصية الداعية لتحيين الإقبال على الإنفاق قبل أن تضع الفرصة، فكل إنسان سيعرض على ربه يوم القيامة في يوم لا ينفع مال بشيء يد نفسه إذ لا يملك شيئاً نعم به صفقة البيع (**الملك يومئذ**)¹ ولا يجد شيئاً يخل به لعلاقته به قليلاً ولا كثيراً، ولا يجد شافعاً يشفع له في تصديره لو يئله أي مكرمة، لأن الكفر باه هو أعظم لنوع الظلم، فكأنه يحدد فضل الله عليه ويعصيه وينكر تصرفه في الكون ويسلط على أهل الإيمان، ويظلم الناس بلامد سلوكه وفيرط لنفيته، وصق الله: (**والكافرون هم الظالمون**).

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

القيوم: القائم على كل أمر بما يجب له.

لا تأخذه: لا نستولي عليه.

سنة: بدء النعاس.

القوم: ما يذهب معه بقطة الذهن ليستريح.

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم: يشمل علمه الماضي من أحوالهم والمستقبل منها

كرسيه: تصرفه بعلمه.

لا يؤوده: لا يثقله فيحمله.

بيان المعنى الإجمالي:

هذه الآية تتميز باسمها الخاص: آية الكرسي. وروي أنها فسطاط القرآن وفصلات جملها ما يُعرف للمؤمن بالخالق العظيم. فافتتحت باسم الجلالة (الله) وهو الاسم الذي اختص به لا يشاركه غيره فيه، وأول تعريف له: أنه هو المنفرد بالألوهية لا يشاركه أحد في ذلك فإبطال التصريح بذلك كل عقائد الشرك، وكل من ادعى الألوهية لو أسندت إليه هو كذب وزيف. والثاني: أنه حي لا يموت ولا يغلَى. والثالث: أنه قائم على الكون يمكن كل كائن بما يحفظ وجوده وبما يوصله إليه مما كتبه له .

والرابع: أنه لا نستولي عليه غيرة شيق الاستغراق في النوم ؛ لا يستغرق في النوم. والخامس: أن السماوات وما حوته والأرض وما فيها مملوكة له لا يتصور أن يشاركه في ملكه أحد.

والسابع: أنه لا يمكن أن يتقدم أي شئ من ذاته ليشفع عنده وهو رد لما يزعمه بعض عبدة الأوثان أن الهنم تشفع لهم عند الله. لكن من يألئ الله له في الشفاعة نكرما له فإنما ذلك بآفته.

والسابع: أن علمه شامل لواقع الحياة لجميع المخلوقات في كل لحظة حاضرة، وفيما سبقها من اللحظات إلى أبعد الأمد الماضية. وكذلك فيما يستقبل من الأزمان علما واحدا لا اختلاف فيه ولا يفتيق عن علمه شيء.

الثامن: أن علمه لا يقف على تلك الثبات إذ علمه مستحضر عام شامل ولما علم بحججه فلما هو في حدود ما يشهده له.

والثامن: أن كرميه ومسح الكائنات الموجودة في السموات وفي الأرض، ومنزله ذلك بيلاء في المعنى العام.

والتاسع: أن قيامه على الكون وتصرفه فيه تصرف للرعاية، لا يتكلم ولا يتعبد فيه فهو مطاوع له بما جيل عليه من الطاعة السريعة لما يغيره ويأمره به.

والعاشر: أنه هو العلي الذي سما في مقامه فلا تلبس العقول تصور علاه، وكل ما خطر بالبال من المسمو والكمال فانه أكمل. والحادي عشر: انه الموصوف بالمعظمة البالغة.

بيان المعنى العام.

255 الله لا إله إلا هو العلي العظيم.

لُقبت هذه الآية بأية الكرسي، والكرسي لم يذكر في القرآن إلا في هذه الآية. روى الحاكم بسنده إلى رسول الله ﷺ أنها: سيدة أي قرآن. ووصفت بأنها سلطان القرآن (والسلطان مجتمع أهل المدينة حول الجامع) وبفضلها كثرة والتوبة بها وخاصة منها مبنوثة في كتب التفسير. هذه الآية عرقت المؤمن بالمعينة الصحيحة في ذات الله سبحانه. جمعت أحد عشر وصفا له تميزه بالألوهية الكاملة المنفردة. أجزت تلك الصفات على العلم المفرد الذي لا يشركه في التسمية به أحد وهو أعرف بالمعارف {الله}

الوصف الأول: أنه هو المنفرد بالألوهية. فكل معبود سواه باطل وريف. ولشد ما يقصد العقول أن تقول بتقدير عبادة فقد للتأثير محدث كان، وبذلك تنرد الإسلام بأنه دين التوحيد الخالص.

الوصف الثاني: الحي. وحياته سبحانه حياة لائيه لا بدايه لها أنيه لا نهيه لها، تبي عن الكمال الذي يفارقه العلم والتأثير.

الوصف الثالث: القيوم. صفة مبالغه تثبت أن الله قائم على كل كلين من بدايه وجوده إلى فناءه وزواله بعطيه خصامه ويتصرف فيه في كل لحظة من

لحظات وجوده فيطور في المسار الذي رتب له تحت علمته، فل تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)^١

الوصف الرابع: لا تأخذ سنة ولا نوم. من لوازم قنهاء الأنبياء المديبرين أنه يلحظهم الإعياء، ويمتولي عليهم النوم ليتجدد نشاطهم. وبينت الآية أن تصرفه سبحانه هو التصرف الذي يقول للنبي: كن فيكون، ليس ذلك بجهد مبذول. فتم تجميع هذا المعنى بالتصميم على أنه لا يمتلي عليه الإعياء فتصديه إغفاءة، أو يمتلي عليه النوم مما هو مشاهد في البشر من ضعفهم عن مواصلة العمل ومقاومة النوم. فالمسألة هي تلك الحلقة التي تسبق النوم المستغرق. وفي هذا رد لما اعتقده أرسطو ومن تبعه أن الله ترك العالم يعجز صلب قوانين واستغرق في ذاته.

الوصف الخامس: له ما في السموات وما في الأرض. ملك الكون كله سمائه وأرضه وما فيهما من ملائكة وجن وإنس وحيوان ونبات وجماد. لا يشاركه في هذا الملك أحد. فملك البشر مثلا ملك محدود الزمن، ملك نافع لا يستطيع المالك أن يحفظ ما ملكه على الوجه الذي يريد حتى في حدود ذلك الزمن. وهذه الجملة تبرز ارتباط أية الكرسي بما سفها في قوله تعالى (قللوا ما رزقكم)

الوصف السادس: له لا يتجرأ أحد. فيتقدم للشفاعة في غيره، مما يتسبب عن شفاعته من تكليل للمشروع، أو رفع ما استعفه من غوبة. وفي هذا نفى لما يزعمه أهل الأوثان أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله. وليس معنى هذا أنه لا تقع شفاعة أصلا فقد استثنت الآية صورة من الشفاعة مقبولة وهي: أن يلقن الله لمن يشاء تكريما، لا إلالا من الشفع على أنه مقدم ذلكا لذلك.

الوصف السابع: أنه يعلم ما تقدم من أعمال كل فرد وما هو حاصل في الحال وما سيحصل منه في المستقبل. ولما كان علمه سبحانه على هذا المستوى فإن تفصيله هذا يؤكد نفي الشفاعة، لأن شأن الشافع أن يتكلم في المشفوع النوعي الإيجابي ويسر النواحي السلبية.

الوصف الثامن: أن علمه يشمل الجزئيات والكميات، وما يتبها له كل فرد من تطورات وتغيرات تصل به إلى نهايته. وعلمه سبحانه لا يقاس به أي علم يحصل للبشر، لأن البشر لا يحيطون بالمعلوم إحاطة كاملة لا للنهاية محجوبة عنهم، والعاية مجهولة لهم وما سيلفون فيها مجهول، والمستقبل بصفة عامة لا يفضي بها سيكون عليه.

الوصف التاسع: ومع كرميه السموات والأرض، ظاهر هذه الجملة أن الله له كرمي، وأن كرميه أوسع من السموات والأرض. واللفظ يحتمل أن يكون المراد مدلولاً لا نعلم عنه إلا أنه يطلق عليه لفظ الكرمي. ويختلف اختلافاً كاملاً عن الكرمي المادي. فهو من متعلقات الذات الإلهية التي تنصرف مداركنا عن الإحاطة بها. كما يحتمل اللفظ أن يكون المرد منه معنى غير حقيقي مما شاع استعماله في اللغة العربية من التعبير عن السلطان بالكرمي. لومن إطلاق الكرمي على العلم. وعلى هذا يكون المعنى: وسع علمه أو وسع سلطانه.

الوصف العاشر: أن تصريف هذا الكون أقرب منه والبعيد. والمدرَك منه بالأبصار والمدرَك بالأفلاك القائمة على وجوده ولكن لبعده نصعب الأبصار والآلات الآن عن تحديده، مما تفرأ لبعادها بالسنوت الضمنية. إن تصريف أحوال كل جزء صغير أو عظيم من هذا الكون للكبيرة، وتمكين كل من التطورات التي تحدث فيه واتصاله بغيره مع حفظ كيانه، يتم كل ذلك دون أن يتقل عليه مصوراً نقي الثقل ينفي لحداء المباشِر لحمل شيء ثَقِيل. وهو معنى لا يؤوده.

الوصف الحادي عشر: العلى، وعلاه سبحانه سمو محوي هو أرفع من أن يحيط به علم البشر. أو يتحصّر في مدارك الإنسان، أو تتأثر بأي شيء مما يجري في الكون. كل شيء ناله بالنسبة للذات الإلهية. فهو العلى الأعلى.

الوصف الثاني عشر: العظيم: وعظمته سبحانه لا تحد فكل ما خطر ببالك من الأمور العظيمة فإله أعظم من أن تقلص بعظمته أو تخرج عن سلطانه.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ مَنْ يَتَكَلَّمْ بِالظُّلُمِ ۖتِ وَيُؤْمِرْ ۚ بِٱللَّهِ
فَقَدْ شَتَّتَ ۚ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۚ لَا أَفْخَاطَ ۚ هَآءِ ٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ

بيان معنى الألفاظ:

الإكراه: قهر الإنسان على فعل ما يكرهه.

الدين: الإسلام.

تبين: تميز.

الرشد: الهدى.

الغي: الضلال في المعتقد.

الافخاط: المغش من دوس الله.

استمك: تمسك.

العروة الوثقى: أصله الحلقة يمسك منها للشد.

بيان المعنى الإجمالي :

نفت الآية أن يكون اتباع الدين مستندا إلى الضغط على الشخص أو إرهابه ليؤمن. فقد وضحت مقومات الإسلام وأركانه، وتميز الهدى في العقيدة، ولم يبق مدخل لأي شائبة من ثوابت الضلال. وحسب الآية بعد تلك بالنتيجة: أن من يكفر بكل ما عبث من دور الله فهو آمن في مله، كمن تمسك بعروة قوية شديدة الاتصال بأصلها لا يخشى تحللها ولا انقطاعها. والله لا يخفى عليه ما يجري في بواطن العباد وظواهرهم. يسمع أقوالهم ويتكشف له بواطنهم.

بيان المعنى العام

256 لا إكراه في الدين... جميع عليه.

ثبين من تفاصيل أية الكرسي العقيدة التي نعلم عليها صروح الإيمان. لقد وضحت مفهوم الأروبة من الوجدانية إلى المعلمة التي لا بدئها أي شيء، وهذا التصور لا يمكن أن يبلغ درجة العقيدة بالإكراه والضغط والتعذيب. تلك أن الإكراه قد يحصل به الإذعان والاستسلام الظاهري. لما العقيدة التي مقرها الباطن والضمير فلا تستقر استوار التبات والطمأنينة إلا إذا حصلت بناء على الاقتناع المستند إلى الوضوح الكامل، وهو معنى قوله تعالى: قد تبين الرشد من الغي. فتميز طريق الهدى تميزا لا يلتبس بطريق الضلال. ووصلت الآية لمرکز هذا التمييز بأن من يكفر بأي معبود كان سوى الله ولا ينتهي به إلى رفض الإيمان عامة بل يؤمن بالله وحده (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله) هو الذي جاء وصرفت الآية مثالا له بأن الإنسان في مسيرته في الحياة الدنيا كمثل شخص تتكافئه الأصوات، فيلقى إليه جبل شديد الفتل في طرفه حلقة لا تفلح عن أصلها ولا تتحل. فيتصك بها لتكتب له السلامة في النهاية. هذه العروة الوثقى هي العقيدة الصحيحة بعد أن وضحت. وتتوج الآية بأن الله لا يخفى عليه شيء من أمور النور فهو سميع لما يجري على المستهم عليم بما تحويه غولهم، ضماؤهم، وهو ما يشير إلى تأكيد أن من آمن مكرها لا يعتبر مسلما.

تنبيه: يعترض كثير من الحاقدين على الإسلام، ويروجون إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وهذه الآية تعد ما دعووه. إذ أن هذه الآية من الآيات الأصلية للمحكمة فلا يوجد في التاريخ دليل واحد على أن فردا أو لمة أجبروا على الدخول في الإسلام. بل أن هذه الآية تمثل أصلا من أصول النظام الاجتماعي: أن الحرية هي أساس بناء المجتمعات في كل ما يتصل بحياتهم الاجتماعية من دين وتملك وحكم وبناء الأمر إلى آخره. وما يقدم كحجة على ما يدعون من الحروب

التي قام بها المسلمون، هو تضليل وتزييف للحقيقة. ذلك أن الإسلام قام على الحرية. فمن يمنع البشر من حريتهم بقتل حتى يتخلى عن ظلمه وجبروته ويترك للناس حريتهم في المعتقد، فالقتل لحماية الحرية لا لقتلها.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

بيان معنى الكلمات:

ولي: الحليف الذي ينصر حليفه.

الظلمات: الشبهات.

النور: الإيمان.

خالدون: البقاء المستمر.

بيان المعنى الإجمالي:

الله في عظمته وجلاله هو الذي يثبت المؤمنين ويرعاهم، فيخرجهم من ظلمات الشك ويوضح عنهم الشبهات. والذين كفروا سددهم الطواغيت، فتى لا أصل لها ولا حقيقة إلا الوهم المضل الذي يرى منهم إلى اتباعهم فأضلهم وحجبهم عن الإيمان. وحق عليهم سوء العاقبة بخلودهم في النار.

بيان المعنى العام:

257 الله ولي الذين آمنوا هم فيها خالدون.

في الآية السابقة تقرير ببقاء وألوه المؤمنين بسبب إيمانهم، وهذه الآية أضافت إلى وضعهم الأول تقريراً آخر هو أن الله تكفل بإعتاقهم ليواصلوا مسيرتهم متمسكين بإيمانهم. وأنه لمطلب عزيز. ذلك أن شاك الإنسان في حياته أنه معرض لوساوس الشيطان وتلبيس الفجوة وحديث النفس، فتميل متفرقة ومجموعة على الإحاطة به وتضليله. والله قد تكفل بأنه يقوِّل المؤمنين فيخرجهم من حائل للشيطان ووساوسه فيثبتهم على الصراط المستقيم في نور الإيمان الواضح الملمس. وفي المقابل فإن الذين كفروا يتشرب عقولهم شبهات ولابليل المضللين من الإنس والجن فيخرجونهم من دائرة الإيمان، ليلف ظلام الحيرة والشك على مداركهم. متحيرون في تصور مبدئهم ومصيرهم وما ينتظرهم. ويكشف القرآن عما يسألون عنه ولا يجدون له جواباً، فيعلن أنهم سيقرون إلى مصيرهم السذي هو لسوا مصير: الخلود الدائم في نار جهنم.

أَلَمْ تَر إِلَى الْآبِي حَاجٍ إِبْرَاهِيمَ وَ زَيْدَ أَنْ يَأْتِيَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَنبِيَا. وَلَمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ
بِالْشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ

بيان معنى الألفاظ

حاج: خاضع بالتأطيل.

بهت: عجز عن المعارضة.

بيان المعنى الإجمالي

دعت الآية كل مؤمن ليحيي هذا المشهد ويتأمل فيه. أثبت إبراهيم عليه السلام
للملك أن الله هو وحده الذي يتصرف في الكائنات فيحيي من أرك ويُميت من
يشاء. فرد عليه الملك معاندا وقال: أنا أيضا أحيي من أعز عنه وأنفذ الموت
فيمن أريد قتله. فقال له إبراهيم: إن الله يتصرف في الكون كله فهو الذي يطلع
الشمس من المشرق. فأتت بها من المغرب. فاقطعت حجة الملك. وهكذا يكون
الظلم حجابا فلا يصل الكافر إلى الاهتداء إلى الحق.

بيان المعنى العام

258- أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ

ورد في آية الكرسي أن الله حي، وورد في الآية التي تليها أن الله يفتح على بصائر
المؤمنين فيزيح عنهم الشبهات على عكس الكافرين. فمكن القرآن تلكم المعاني
بما ورد في هذه الآية التي خاضع فيها الملك المتفطرس إبراهيم عليه السلام
إبراهيم عليه السلام على الملك العفيدة التي أرسل بها ليهدي الناس إليها. وقال له: إن
الله هو المتفرد بالإحياء والإماتة، فيحيي من يشاء ويميت من يشاء. ولكن الملك
بفطرسه وزهوه بنفوده أجاب بأن ما عرضه إبراهيم ليس من خصائص ربه
وحده، وأنه هو الملك يتصرف في حياة الناس كما يشاء. فينفذ الموت فيمن تعلق
لرأته بقتله ويبقي حياة من عفا عنه. فحوله إبراهيم لفظ حمص واستكباره، لا
بقراءته لورده ولكن ليربط بين الخلق والكون مما لا يستطيع أحد أن يثبت لنفسه أي
تأثير فيه. هي الحقيقة المشاهدة المتكررة وقال له: إن الله يطلع الشمس كل يوم من
المشرق، فإن كنت إليها فالطلع الشمس من المغرب. فأحمه وظهر عجزه.

وهكذا فالآيات الكونية يهدي الله بها المؤمنين فينبشون، ويحصرم الكافرين بما يسئله
كافر على بصائرهم فلا يبتكون بها.

الحكمة: في لفت نظر المؤمنين لهذه المحاجة دليل على أن إقامة الحجة على ما
يعتقده المؤمنون أنه الحق، منهج إلهي جرى عليه المرسلون.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى مَرْجٍ وَقَفَىٰ عَلَيْهِ غَرَابَتُهُ قَالَ إِنِّي آنَسْتُ مِنْهُ أَنَّهُ اللَّهُ هَذَا
مَوْتُهُ وَإِنَّا اللَّهُ يَأْتِيهِ عَامٌ ثُمَّ يَنْتَعِلُهُ قَالَ كَمْ لَيْسَتْ قَبْلَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ لَيْسَتْ
يَوْمًا قَالَ بَلْ لَيْسَتْ بِأَمَةٍ قَدْ نَظَرْتُ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ تَنْسَهُ وَأَنْتَ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلَتَجْجَلَكَ فَإِنَّ النَّاسَ لَنَاظِرُونَ وَأَنْتَ إِلَىٰ الْبُخَارَىٰ كَيْفَ تَكْثُرُنَّ ثُمَّ
تَكْشُرُنَّ لَحْمًا فَلَمَّا تَوَسَّوْا لَكَ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠٥﴾

بيان معنى الألفاظ

خلوية على غروبها: ساقطة على منقها.

لم يمتنه. لم يتغير.

نشرها: نحبها.

بيان المعنى الإجمالي:

ولقة ثانية تؤكد أن الله هو الحي المتصرف بالحياة والموت، لفت القرآن إليها
الأنظار ليشتملها المؤمنون في نفوسهم.

تمثل الواقعة: أن رجلاً كان مسافراً على حمار ومعه طعامه، ومر في طريقه
على قرية فرأى منظرًا مفرعاً، خربت القرية خراباً غليظاً، انتلب أسفلها على
أعلاها، وقد دخل الليل قلبه من هول الخراب فقال: بعيد جداً أن يحيي الله هذه
القرية بعد هذا الخراب العميق، فأماته الله مئة عام، ثم رد عليه قوته على الحركة
، وجاءه السؤال من الله الخالق: كم لَيْسَتْ في هذا المكان فقال: بقيت يوماً، ثم رجع
نفسه ليكون دقيقاً، فقال: بل بقيت بعضاً من يوم، وعرفه الله بالحقيقة أنه مضى
على مكانه في ذلك المكان مئة عام، ثم حرك نظره لما حوله ليرى عجائب قدرة
الله، الطعام الذي كان معه والذي مرَّ شأنه أن يسرع إليه الفساد بقي سالماً، وأن
حماره الذي يستطيع أن يسرع في أرض الله بما يبقى على حياته لمدا طويلاً قد
أصبح عظماً تحرة، فلما ثبتت له الحقيقة بالمقارنة نطق لسانه بقوله: **أَعْلَمُ** أن الله
على كل شيء قدير.

بيان المعنى العام

259- أو حالذي مر على قريته- قديم.

هذا هو المشهد الثاني الذي يؤكد بقصته ما أثبتته آية الكرسي لله من الحياة وما أكتته الآية التالية من أن الله ولي الذين آمنوا.

يمثل المشهد ما يلي:

الخطوة الأولى: رجل يسير على حماره ومعه طعامه وهو يتأمل فيما حوله تأمل المعبر النقيظ النظور. ويتكئف له منظرو مفزع: قرية كانت عامرة بأهلها قد أصبحت خراباً. فقلب لقلها على أعلامها. سقطت سقفوها ثم اتبعتها الجدران. وأصبحت مينة لا حركة فيها. وعصر المشهد على قلبه فإذا هو يائس يستبعد أن تعود القرية إلى الحياة يوماً.

الخطوة الثانية: أن هذا المسافر لم يخلو القرية بل بقي في موقعه، وإذا هو يلتحق بالقرية ويموت كما مات من فيها، ويبقى على حاله تلك لا يتحرك مائة عام.

الخطوة الثالثة: يعيش الله بعد موته، والقرآن لم يفصل هل في الله أبقاه جنة بدون روح أو له سبحانه قد سلبه ليقظة فكانت قواه تعمل في هود؟ المهم أنه بقي مائة سنة لا ينمر بما حوله، ثم في لحظة عادت له حواسه. ولول ما طرق سمعه السؤال التالي من نفسه: كم لبثت في هذا المكل؟ ويسوع هو بالإجابة، فيقول: لبثت يوماً، ثم يراجع نفسه بعد أن تلقى آخر زمن كل له فيه وعي، فوجد أنه قد مرت عليه فترة لا تصل إلى اليوم فقال: بل مكثت بعض يوم.

الخطوة الرابعة: الكشف عن الحقيقة المعجزة، بسمع القول الحق: لم تلبث يوماً أو بعض يوم بل لبثت مائة عام كاملة. وليرى دهشة بلمله أن يتأمل في طعامه الذي كان يجالسه قبل أن يموت، فيجد سالماً لم يثر فيه الزمن، ويؤمر أن ينظر إلى حماره الذي كان يمكن له أن يرعى في أرض الله بما يطيل حياته إلى لده، فيجده عظيماً نخرة مرفقة وكأته وهو يغرك عينيه ليتثبت فيما جرى حوله، فإذا عظام الحمار تقرب من بعضها ويكسوها اللحم والجلد ويقف حماره بجانبه كما تركه. مرت الأعليجيب الثالثة في لحظة: تفتته أنه بقي مائة عام، يقاه الطعام الذي من شأنه أن يسرع إليه الفساد بفلاؤه سالماً لم يتغيره عظام الحمار تكوى اللحم والجلد ويقف الحمار كما كان. ليست أخيراً، لكنها حقائق محسوسة أدركها ببصوه وتحركت أمام ناظره. عر عن إعجابه وعر شكره لفضل الله عليه الذي كشف عن قلبه للشكوك التي خامرت وقليل الذي استولى عليه فقال: أعلم يقيناً أن الله على كل شيء قدير. وبهذا ارتبطت هذه الآية بقوله تعالى (والله ولي الذين آمنوا)

يخرجهم من الظلمات إلى النور) وبإية الكرسي التي وصفت الله بالحياة فقامت كدليل على ذلك لأن فقد الحياة لا يتصور منه أن يعطيها.

وَلَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَاكَ نَفْعٌ كَثِيرٌ وَأَقَمْتَ فِيهِ ذِكْرًا لِّمَا كُنْتَ تُكْفِرُ بِهِ أَلَا تُفَكِّرُ فِي مَا تُكْفِرُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَٰكِن لِّيُفَكِّرَ آلِهَتِي إِنَّهُمْ أَكْثَرُ ظُلْمًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ جَعَلَنَّاكَ آلِهَةً مِّمَّنْ جَعَلْنَاكَ لَدُنَّ آلِهَتِنَا آلِهَةً غَيْرَ مُبِينٍ ٢٥

بيان معنى الآيات:

صرح الله: قريبن منك قريبا بعرفك بهن معرفة واضحة.

بيان المعنى الإجمالي:

خفي على إبراهيم كيف سر الحياة فطلب من الله أن يريه كيف تسري الحياة في الكائن لينحول من حالة الموت إلى حالة الحياة. أجابه الله: اسم تسمي هذا السؤال لست مؤمنا؟ قال إبراهيم: أمئت يا ربي، ولكن أريد أن سمعني بما ينضم به علم المصاهدة إلى علم السليل ليطلع قلبي. إن سر طبع الخلق أن تكسر عقولهم القسارات.

قال الله: خذ أربعة طيور قطعها أجزاء ثم اخلطها وقسمها إلى أربعة أقسام ثم اجعل على كل جبل من الجبال التي حولك جزءا منها ثم مرها بالقدم إليك فأتيتك معيا. واعلم يا إبراهيم أن الله لا يعجزه شيء، هو كامل الحكمة في تصوفه وتقديره.

بيان المعنى العام:

260 وَلَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ -مُعْزِزٌ حَكِيمٌ-

حدث ثالث ينضم إلى المشبهين السابقين يزيد توضيحا لمضمونها، تلك أن إبراهيم عليه السلام توجه إلى ربه سائلا له أن يريه الكيفية التي تسري بها الحياة في الكائن. فمضموون السؤال أن يعرض على بصره الصورة التي يتم عليها إحياء الشيء. أجابه الله عن سؤاله بإلقاء سؤال عليه، فقال له: ألم يسبق لك أنك أمئت بي وبندوتي على كل شيء ومنها الإحياء؟ أجاب إبراهيم بلى فماته لا يعثره شك ولا ريب، ولكنه يريد أن يجمع بين علم المعينة الحسني وبين ما هو حاصل عنده من العلم التجريدي النظري، لتكون المعينة البصرية دقيقة لما يجول في النفس من طلب للكيفية. فأمره أن يقوم بالتجربة الشافية: أن يأخذ طيوراً أربعة يقابل في لون كل واحد منها وفي شكله وفي خصائصه، مما يعطى للتجربة تصويراً لثم. إذ الطيور لا بد أن تكون مختلفة للصورة والشكل واللون. ثم يتولى ذبحها ثم

تقطيعها، ثم يخلط القطع، ثم يقسم المخلوط إلى أربعة أقسام، فكل قسم لأشك أنه يحوي أجزاء من كل طائر من الطيور الأربعة، ثم يضع كل قسم من الأقسام الأربعة على جبل فتباعد الأجزاء، ثم يدعو الطيور لتلقيه. فعلم إبراهيم ما أمر به، ودعا الطيور فجاءته تمشي على رجليها، غير طائفة، وفي مجيئها ماشية غير طائفة ما أعطى للتجربة قوة، إذ تمكن من التملك فيها بما أثبت له عيالا أنهما الطيور التي سبق له أن قطعها. وتختتم الآية بالتأكيد على حقيقة هي التي امتدت إليها للتجربة: هي أن الله لا يغيث شيئا، يفعل ما يريد فعله ويبرزه بحكمته التي لا يفوتها شيء من الدقة. والحياة لا تنقضي إلا من القادر المطلق الحكيم الذي لا يفوته من الحياة. وهذه الحادثة توضح بجلاء ارتباط الآية بالثبات أن الله حي، وبإبراز صورة من عنايته بالمؤمنين بما ينتظم ويزيح عنهم الشبه (الله ولي المؤمنين).

مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ خَيْبٍ أُكْنِثَ سَبْعَ مَسَابِلَ فِي كُلِّ مَسْبَلَةٍ مِائَةٌ خَيْرٌ وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَبِعَ عَلَيْهِمْ إِلَهِ الْكَذِبِ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَنْتَرُونَ مَا أَنْفَقُوا شَاءَ وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا كَوْلٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾

بيان معنى الآية

المن: تكدير المنق للمعنى عليه بما أعطاه.
الأذى: يشمل المن وغيره مما يحقر به المعلى له.

بيان المعنى الإجمالي

ضرب الله مثلا يجسم ثواب المنفقين في سبيل الله، مثل أجر المنفق في سبيل الله الذي أخلص في عطائه لا يبغي منه محمدة عاجله ولا ينجح بما أعطاه ولا يؤدي من فضل عليه بالاستعلاء، مثل ما يحصل عليه من ثواب كالزرايع الذي رمى في أرض طيبة حبة واحدة فيبورك فيها وتعت ولخرجت سبع مسابيل في كل مسبلة مائة حبة، والمعطى هو الله فهو يضاعف لمن يشاء تبعاً لما قارن للعمل الصالح من إخلاص. والله واسع ملكه لا ينقص ما يثيب به من ملكه شيء، وهو عليم بنيات وأحوال المنفقين.

بيان المعنى العام

261- مثل الذين -والله واسع عليهم.

تكرر في سورة البقرة التحريض على الإنفاق وتصفية النفوس من داء الشح، ففي تريف المؤمنين أول السورة (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وفي الآية السابقة 195 (وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) وفي الآية 254 (بِمَا لِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخَذُوا مِنْ ثَوَابِهِمْ...) والصورة واحدة فأكدت هذه الآية قيمة الإنفاق ببيان ثوابه والأدب الذي يتحتم أن يصحبه: جاءت الآية بمثل يجسم مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله، والأصل أن الإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق في الجهاد، فتركت بين الزارع الذي يرمي حبة في أرض مباركة طيبة قد توفر لزراعته جميع أسباب النماء والصلاح فسماه الغيث وحماد الله من الألفاظ فأخرجت الحبة مسبح سنابل في كل منبلة مائة حبة، بما يعطى للمنفق ثوابا يصل إلى سبعمائة ضعف. ولا تجب لهما المؤمنين فإن الله يضاعف الثواب لمن يشاء. وفيه إشارة إلى أن الأعمال تضاعف ثوابها بمقدار ما يصحبها من الإخلاص، والله المعطي لا ينقص من ملكه شيء ومع ملكه السموات والأرض. وهو عليم لا يخفى عنه شيء مما تطوف عليه نفس المعطي من كثر حب الذات وطلب الثواب من البشر، أو من صفاء في القصد وأصول التقوى.

262- الَّذِينَ يَتَّقُونَ—وَلَهُمْ يَحْزَنُونَ.

ثم حددت الآية أن الأدب الكامل في الإنفاق أن لا يتبع المنفق ما أعطاه بالتذكير به دائما ومجانبة المعطي له بما أعطاه، وأن لا يسوّي بصدقته، والإيذاء مراتب: من الاستكبار والنظرة المتعالية في الكلام الذي فيه نعد على كرامة المنفق عليه. وقد يكون مردا وقد يكون شعبا أو مجموعة من البشر. فلو تبيح مثلا قائد الجيش بأنه لو لا بطولاته ونكاؤه ما كن للجيش أن ينتصر، فإنه يتجحجح هذا أبطال ثواب ما حققه من نصر. فالإنفاق عمل خير، والممن والأذى شر يسلط على الخير فيحققه. وطما الله المنفقين بأن أجرهم مضمون حفظه، لا يتضيع منه شيء. لأن الله هو الذي تكفل بذلك، وبشر المنفقين ببشارة عظيمة لهم لا يخافون من المستقبل، وما يخبله يوم القيامة، فقد كتب الله لهم الأمن في تلك اليوم، ومسررتهم لهم لا يحزنون على ما فات لأن ما عند الله خير ولبقى مما تنفوه.

• قَوْلٌ مَقْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى^١ وَاللَّهُ غَفِيرٌ خَلِيمٌ ﴿٢٦٢﴾ بَنَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا سَدَقَتِكُمْ إِلَى الْمَنِّ وَالْأَذَى كَأَلْبَدَىٰ مُغَيَّرَ مَالَهُ. إِنَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ سَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَاتٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

لَتَرْكَبُنَّ ضُلَّالًا لَا يَعْقِلُونَ عَلَى شَيْءٍ. بِمَا كُفِرُوا "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" ﴿٢٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

قول معروف: المعقول في العرف العام.

مفردة: التجاوز عن الإمامة.

رئاء الناس: إظهار العمل للناس للتفاخر به.

صلوان: حجر كبير أملس.

وابل: الكثير القوي من المطر.

صلفا: الأملس للصلب الذي لا شيء عليه.

بيان المعنى الإجمالي:

موازنة بين قول الكلمة الطيبة في مواجهة المائل، وتجاوز عما يصحب سؤاله من سوء أدب وتطاول، وبين الصدقة التي يتبعها لأذى للمائل، فحكم الله سبحانه بأن الكلمة الطيبة ربما عطف عليها خير من الصدقة التي تليها الحاجة المادية وتكسر نفس الفقير، والله وهو الكامل الغني يغو عن السيئات عفا لا يتبعه يوم ولا حظ من قيمة المعفو عنه.

ثم لفت الآية عن الصدقة التي يفع بعدها ألتمن على المتفق عليه أو إنافسه، ونفرت من ذلك بتبنييه بالكفر الذي خلا قلبه من الإيمان بالله واليوم والآخر ففصر همه على الحياة الدنياه، فهو لسوء باطنه لا يتصدق إلا ليحقق ما يرغب فيه من التطاول على من يعطيهم، وظهور بمظهر الكمل الأمخياء.

ثم نفرت ثانية من هذا السلوك بضرب مثل يمر عر عقبة للصدقة التي يصحبها لمن والتطاول، بالحجارة للمساء المغطاة بتراب خفيف يسفر فيها الزوارع، حتى إذا نزل الغيث الغزير ذهب بالقرب وما تحويه وبروز وجه الحجارة عاليا، لا يقدر الكافرون على الانتفاع بشيء مما بنوا فيه جهنم. وبهذا يكون الكفر حجابا يمنع من بلوغ آثار الهداية الإلهية.

بيان المعنى العام:

263 قول معروف ومفردة: والله غني حليم.

فصلت الآية السابقة أمر الاتفاق في سبيل الله وحرضت عليه، والإسلام كما يحرض المؤمنين على الاتفاق في سبيل الله يريهم:

أولا: على بذل العون للفراء والمساكين بالتصدق عليهم.

وثقها: على أن يكون هذا الإتفاق جاريا على طريقة لا تؤذي المتصديق عليه، ولا تدنس بها كرامة من اضطرت له الحاجة إلى السؤال. وقد جمعت الآية الأمور الثلاثة التالية:

أولاً: أن المؤمن إذا كان لا يملك ما يجيب به لسائل فيبائسره بكلمة طيبة: (يمر الله لك الخير، يؤمضي أن وضعي لا يسمح لي بمونك ونحو ذلك) وإن الكلمة الطيبة التي لا تجرح كرامة السائل خير من أن يتصدق عليه ثم يتبع صدقته بالمن والتكبر بها، أو بالإذية القولية أو الفعلية. وقد يلجأ السائل في الطلب ويخرج المسؤل أو يتجاوز حدود الأدب في خطابه، فيدفع القرار إلى التكبر والعفو. وينها القرآن إلى أن الله هو الغني عن عياده وكل الخلق تسلكه وكثير منهم قد أساءوا في حياتهم وتجاوزوا حدوده وهو سبحانه يحطم عنهم ولا يقابل معاصيهم وتجاوزاتهم بالحرم.

264- يا أيها الذين آمنوا لا تبغوا أموالكم الكافرين.

ثانياً: أن يرعى في طريقة تصدقه الأدب، فلا يصحب صدقته ولا يتبعها بالهن على المحتاج والطلول عليه والتذكير بفعله، ولا يلذذه بالقول أو بالفعل، وليعلم من لم يرع ذلك أنه لا يطمع في ثواب ما أنفعه، وفيه حرم نفسه من الجزاء الذي شأنه أن يخلقه الله عليه في الدنيا، وأن يكون مثمرا يوم القيامة. ثم مثل الله خسران المتصدق الذي لم يثلب بأدب الإسلام في الصدقة بأن مثله كمثل الكافر الذي ينفق أمواله طلباً للرياء والشهرة والتذكر، لا حباً في الخير ولا شعوراً بالتضامن الإسلامي، خلا قلبه من نور الإيمان بالله فهو لا يرجو ثواب عمله يوم القيامة، وقرب ما ذلك بأن خسره له مثلاً، ممن يصحب صدقته بسائل والأذى ولا يرعى لب البذل، إن مثله كمثل حجارة صلبة ملساء عطى ظاهرها طبقة خفيفة من التراب يثر فيها الزرع حينه منتظراً بركته ونضاعه، وينزل المطر عزيزاً يذهب بالتراب وما يحويه ويبرز الحجر أصم عارياً لئلا يظهر في المثل مظهر المنفقين مع الله والأذى بصوره العجزة للجانين الياهمين الأسفين، لا يفكرون على الانتفاع بشيء مما بثقوا فيه جهدهم. والكفر يضرب بحجابه على أهله فلا ينفذ إلى عيولهم وضمائرهم وقلوبهم لئلا يهدية فهم في ظلامهم محرومون.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْغِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أَبْيَغَاءَ رِزْقَاتِ اللَّهِ وَشِبَعًا مِّنْ أُنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ
 جُنَّةٍ رَزَقَ أَصَابَهَا زَائِلٌ فَكَانَتْ أَكْثَلُهَا صَعْدَتٌ فَإِنْ لَّمْ يُجِبْهَا زَائِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

أبغاه: طلبا لمرضاة الله.

ثبينا: تمكنا من أنفسهم.

الجنة: مكان كثير الشجر.

بربوة: مكنى مرتفع من الأرض.

أكل: ما يؤكل.

زائل: المطر الكثير.

طل: المطر القليل.

بيان المعنى الإجمالي:

واصل القرآن تمثيل أحوال المنفقين بما يجسمها للمشاهدين. فضرب مثلا للذين
 ينفون أموالهم طلبا منهم أن يصلوا إلى رضا الله وتمكنوا لأنفسهم من التغلب على
 دواعي الشح ليترسخ حب السباحة في قلوبهم، مثلهم جنة في مكان خصيب
 مرتفع قليلا رويت بفيض غزير، فتضاعف إنتاجها وكثرت خيراتها، أو سقطت
 بمطر فيه كفاية، فلم يحرم صاحبها من ثباتها. فالمتصق ينال ثواب ما قدم من
 خير بتضاعف تبعاً لإخلاصه. والله مطلع على أحوال نفوسكم فلا يخفى عليه من
 حقيقتها شيء.

بيان المعنى العام:

265- ومثل الذين ينفقون أموالهم بما يعملون بصير.

هذا هو الوجه الثاني للمنفقين، فإذا كانت الآية السابقة جسدت حال المنفقين الذين
 لم يتأدبوا بلحب الله، فإن هذه الآية اعتكس حال المنفقين الذين قاموا بما قاموا به
 طلبا للفرح برضوان الله. ونضم بهذه الآية الإنفاق في سبيل الله المذكور في الآية
 السابقة (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله...) إلى الإنفاق في مختلف وجوه
 الخير التي يرضى الله عنها. وبرزت هذه الوجوه الثيرة للذين امتثلت أرواحهم
 بأثوار الإيمان فمحضوا ما يقيمونه من إحسان في وجوه البر ليثابروا رضى الله
 عنهم، وليمكنوا أنفسهم من الثبات على العطاء ويقتلعوا جذور الشح والقرود في
 علاقتهم بالأموال. مثلهم القرآن بجنة ذات أشجار مثمرة طاب مكنتها، وكانت تربتها

غنية ثرية في مكان مرتفع، ونزلت عليها الأمطار الغزيرة فروت لرحمتها وجرى في كفاتها وشارها ما ضاعف إنتاجها، لو نزل بها مطر كاف أقل من ذلك، فلم يحرم صاحبها من إنتاجها، وهكذا يختلف حال المتقين الصالحين فيما يقرر لهم من مثوبة بين الثواب المضاعف، وبين ما هو دون ذلك تبعاً لوضع المتفق من الإخلاص الكامل، أو ما خالطه غيره على وجه لا يتفسي الإخلاص. والله يعلم ما تتلوي عليه النفس عند قيامها بما قامت به ولحرقته، فالظواهر لا تخفي تحت عطائها للحقيقة الكاملة في الضمائر.

أَيُّودُ أَخَذَكُمْ أَنْ تَكَوَّرَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ تَجِيلِ وَأَعْيَابِ تَجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَسَافُ الْبُكْرِ وَهُوَ زَيْتُونٌ مَعْقَدٌ فَأَصَابَهَا رِجْسٌ مِنْ رَبِّهَا فَفَاحَتْ كَذَلِكَ يَقْتَرِنُ اللَّهُ لِكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا أَنْ تَذَكَّرَ ﴿٢٠٥﴾

بيان معنى الأساف:

أيود: ليحب

الإعصار: ربح شديدة تلع الأشجار.

فيه ثمر: مع حرارة شديدة.

بيان المعنى الإجمالي:

إن الذي ينفق ماله رياء للناس منه كمثل صاحب الجنة أي أوج عطائها جمعت بين للخيل والأعاب وصنوف الأشجار المثمرة، رؤيا مضمون بما يتخللها من أنوار جارية، وقد شاخ صاحبها وكبرت منه، وذريته غير قادرين على الكسب لصغر أو فصور، فحالته تمثل الاحتياج الشديد لإنتاج تلك الجنة، وهي لحظه تعصف ربح سموم حارة تقتلع الأشجار وتحرق الأوراق والثمار، فتقضي على أماله، كذلك يكون المرابي بصدقته يوم القيامة ذهب ما قدم هباء ولا ينتفع بشيء منه في اليوم الذي يكون أشد ما يكون احتياجاً، والله يبين للناس الحقائق التي بالتفكير فيها تسلم للمؤمن عاقبتها.

بيان المعنى العام:

266. أيود اخذكم... تتفكرون.

فتتحت الآية سؤال: ليحب أي واحد منكم لن يحصل له ما عرضته الآية؟ وهو كما تقول لشخص: اتصّب لن يذهب بصرك؟ وذلك لحث السامع على الانتباه والتفكير. ما هو المثل الذي ضرب به القرآن في صورة المرابي؟ مثل اثنين يراؤون

بالصدقات يرسل له جنة اصطفت فيها النخيل والأعناب وتتوالت فيها الأشجار المثمرة وهي في أوج عطائها، تتخللها الأنهار الجارية فلا يخشى عليها صاحبها عطشا، تملأ القلب وتبهج العين، وقد كبرت منه ولزكه الهرم، ومع ذلك هو يقول ذرية ضعفا لا يفرون على الكسب، فكل أماله معلقة بهذه الجنة. وكل اعتماده هو وأسرته على ما تنتج من خيرات. وفي لحظة تصصف رياح عاتية كأعنف ما يكون قوة، حارة تشوي ما تلمسه وتحرقه، ويكتشف المنظر عن أشجار مقلوعة وأغصان وتار محترقة، وأمال ضائعة ويألم مقيم. لا يستطيع أن يعيد غراسها لكبره ولا ذريته يخلفونه لضعفهم. فمثل هذا العجز الذي ذهبت أماله كمثل المنفق رثاء، لفق وسعى حتى إذا جاء يوم الحساب، بين يدي رب الأرباب، وجد ما قدمه هباء منثورا، لا ينفع منه بشيء. وهو مثل يضربه الله للناس ليتفكروا فيه ويأخذوا منه العبرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا كَانَتْ وَبِمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَمَنَّوْا الْخَيْرَ مِنْهُ تُحِبُّونَ وَلَسْتُ غَافِلِينَ إِلَّا أَنْ تَقْبِضُوا يَوْمَ تَأْتُوا اللَّهَ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٠٢﴾ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَقْرَ وَأَنْ تَرْكِبُوا بِالْفَخْشَاءِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٣﴾ مَقَرَّةٌ بَيْنَهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ الْحُكْمَةِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحُكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْآلِ الْكَثِيرِ ﴿١٠٥﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ أَوْ أَنْذَرْتُمْ مِنْ شَيْءٍ نَزَّلَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٠٦﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ إِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ أَعْيُنُكُمْ وَتُكْفِرُ عَنْكُمْ مِنْ مِثْلَيْهَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠٧﴾ لَنْ يَنْفَعَكَ هَذِهِ وَلَيْسَ اللَّهُ بِدَى مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُخْفُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُخْفِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا أَيْتَانِ وَجْهَ اللَّهِ وَمَا تُخْفُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أَخْبِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ شَرْكًَا فِي الْأَرْضِ حَيْثُ الْجَاهِلُ أَغْنَيْنَا عَنْ التَّقْصُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَمْنِهِمْ لَا يَسْتَلُونَ الْكَافَّةَ وَالْخَافَةَ وَمَا تُخْفُوا مِنْ خَيْرٍ نَزَّلَ اللَّهُ بِهِ عِلْمَهُ ﴿١٠٩﴾

الَّذِينَ يُسْقُونَ أَمْوَالَهُم بِالزَّلِيلِ وَالنَّهَارِ بَرًّا، غَلَاظَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢١٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

الطيبات: أفضل الأموال.

ما أخرجنا لكم من الأرض: الزروع والثمار.

ولا ييمموا: ولا يفتعلوا.

الخبث: الشيء كالحرام والمستنفر وهو عكس الطيب.

تغمضوا: تتساهلوا في أخذه مع أنه مكروه لغرض ما.

الغفشاء: اسم لفعل شديد سوء، أو قول كذلك.

واسع: واسع الفضل لا يحد فضله.

الحكمة: الحكم الصادق الذي لا شبهة فيه، وهي بالعلم الثابت والعمل به.

أولو الألباب: أصحاب الأقول الصحيحة.

تقرئهم: التزمهم من قرب.

تنبوا: نظهروا صدقتكم.

فحصا في: فالصنفة المظهرة حسنة لا ينقص الإظهار من قيمتها.

وكفرا: يمحوا.

ابتغاه وجه الله: إخلاصاً له.

يوقه: شجونه كاملاً غير ناقص.

أحضروا: حبسوا.

ضربا في الأرض: الانتقال في الأرض قصد التجارة.

التلف: التفرقه عن السوا.

سيمامهم: علامة للحاجة تعرف بهم.

الإحاح: الإحاح في المسألة.

بيان المعنى الإجمالي:

تتضمن هذه الآيات الثمانية ما يلي:

﴿٢١٤﴾ أمر الله المؤمنين أن ينفقوا من المال الطيب الجيد ومما تخرجه الأرض من خيرات مما يرغب الإنسان فيه لجودته ومن الحلال، ولا يتصدق بوديء ماله الذي لا يقبله في تعاملاته إلا مع نوع من التسامح لغرض من الأغراض. وليذكروا أن

الله سبحانه وتعالى عن البشر فالإتفاق هو لمصلحتهم، ولأن الله محمود على جميع الأحوال.

ثم نبههم إلى أن الشئ بالمال هو من الشيطان الذي يوسوس فيوقع في نفس البشر الخوف من الفقر ليصكبوا أموالهم ومن ناحية أخرى يفتح لهم شهية ارتكاب الرذائل، ففرقوا بين منهج الشيطان هذا، وبين منهج الله الذي يدعوكم لواسع رحمته وغفرانه ويدعكم من فضله ما يفتح الأبواب، وهو منجز ما يعدكم لأن مسعة ملكه لا ينقص منها شيء. وهو عليم بما يجري في ضميركم.

ثم يختلف البشر في قدرتهم على بلوغ الحقيقة والعمل بها، فمن رزق نغذاً في بصيرته لا يخدع بالظواهر عن إترك الحقائق، فقد أوتى الحكمة، ومن ظفر بالحكمة فقد ظفر بالخير كله، وأصحاب العقول الكاملة هم الذين ينفذون إلى حقائق الوجود.

ثم يشر المؤمنين بأنهم كلما نفقوا نفقة ولجئوا لطوعاً، لو أقرموا فعل خبير فوفوا به، فإن الله لا يعيب عن علمه شيء من ذلك ويجزي فاعله، بغفران ذنوبه، ومن شج بالواجب عليه لو لم تسمح نفسه بمساعدة المحالويج لأول عوبة، هي أنه لا يجد في ساعة الحرج والضيق معينا ولا بصيرا ويكون مكروها من الناس.

ثم كل من بذل ماله المعروف ولجأ كان لو تطوعاً، وأظهر صدقته فعمله هذا عمل صالح يثاب عليه، وأفضل منه أن يخفي صدقته ويوصلها للفقراء دون أن يعلم أحد بما صنعه، ويجزي بحسب سينته. والله لا يخفي عليه شيء من أفعالكم، فأخلصوا له في البذل.

ثم الله وحده هو الذي يتصرف في الهداية فيؤتيها من يشاء ويحرم منها من يشاء، وقد كلف الرسول ﷺ بإبلاغ شريعة ربه وكذلك العلماء من بعده ولم يكلف أبداً منهم أن يتحقق فعلاً هادياً من يدعو له.

ثم كل ما تتفوقه من خير فإن فائدة اللغة تعود إليكم، وحده في المجتمع، ونشراً للحب بينكم، واقتلاعاً للصد، والبغضاء. ونفستكم للصالحات هي التي تقدمونها طلباً لرضاء الله، والله يحاسب حساب الجزاء والكرامة فيوفي كل منفق بثواب ما أنفقه، ولا ينقص منه شيء.

ثم تأكيد للتخريض على الإتفاق وخامسة للفقراء الذين وقفوا أنفسهم على الجهاد لإعلاء كلمة الله، الذين لا يستطيعون أن يتفلقوا في أرض الله لتسمية أموالهم بالتحارة، وعزة نفوسهم تحمل أحوال بحالهم يظنهم أغنياء من تغفهم عن المسألة،

ولكن المثل في العلامات ينتبه لقرهم مع أنهم لا يدور فيدهم السؤال ولا يلحون.

ثم تأكيد على أن ما ينقذه المؤمن سيلقى جزاءه، لأن الله عليم بما لنفسه وهو قد وعد بالجزاء ووعد لا يخلف.

ثم عمت الآية مؤكدة أن كل منفق يلقي جزاءه، تنفق بالليل أو بالنهار، كان إنفاقه سرا أو ظاهرا علانية، جزاء منخر عند ربهم الذي نولاهم بالهداية، وفضله عليهم موصول، فهم قد آمنوا في مستقبلهم فلا بصيهم مكروه يسوء التولية، وكثب الله لهم أطاعه عند التداند فإنه وآبهم، ولا هم يحزنون على ما فات منهم لمظلم الرعاية التي سيلقونها.

بيان المعنى العام:

267- يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من الله غني حميد.

واصل القرآن في هذه الآيات الثمانية بسط ما يتعلق بالإتفاق فاعتنى بما يلي:
أولاً: حث المؤمن على تخير المال الذي تنفق منه، فأمره أن ينفق من المال الذي يسعى في التحصيل عليه بالطرق الحلال المال الطيب المرغوب فيه، لينفق من الذهب والفضة ومن الأعمال ومن الزروع والثمار فتنى لخرجها الله من الأرض ومكن منها الإنسان. ونهاه أن يقصد إلى المال الرديء والمرغوب عنه والمال الحرام لينفق منه، فإن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً، وكيف يجرى الإنسان على تقديم المال الذي لا يرضى أن يدخله في ملكه إلا مع نوع من التساهل وعدم التوضا، ولا قبله وإنما يقبله مع رفضه لما يظن أنه لا أمر وراء قوله له وحط من قيمته. فكيف يرفض ثوب الطوبى لنفسه ولا يرميه لها ويقبضه الله الغني الحميد، إن في تقديم الرديء المحتاج في تلك هذه النفسية المحتاج لإذلال له، فإذا كان قد سبب خلته بما أعطاه من ماله رديء، فإنه قد اعتدى عليه باعتقاره، واعلموا أن الله غني عن صدفكم محمود على جميع الأحوال.

268- الشيطان يعدكم سوءاً وسامع عليم.

ثانياً: لفظ المؤمنين ليتبينوا فلا يخذعوا، فهما طريقان: طريق الله وطريق الشيطان. عليهم أن يميزوا بينهما، للشيطان يلقي بوسوسته في قلوبكم ويصور لكم أن الاتفاق بفؤدكم إلى الخصاصة والفقر فيترككم منه، ويمسأ بولادكم بالخوف من المستقبل على أنكم إذا صرتم ما في أيديكم اليوم ذهب عنكم، ولا نجدونه عند الحاجة، ومن ناحية أخرى هو يزيى لكم كل شيء فيطمع على ما يطمعكم فقلب موازين الخير والشر عندكم ويضلكم. وكل من شح بملكه يدفعه الشيطان

إلى الفحشاء وطرق الرذيلة فينقلب شحها بدلا دون حساب في الرذيلة ومستمتع
الشهوات. تنبهوا فإن طريق الله سبحانه يفتح قلوبكم على الأمل فيصغفها مما يمكن
أن يخالطها من ظلام المعصية فتشرح للمستقبل بما أعده الله من فضل. والله
واسع الفضل، عليم بما تقطون عليه صدوركم فيجزىكم.

269- يوتي الحكمة-الأنياب

يختلف البشر في قدراتهم العقلية فمنهم من يفهم عند الظواهر لا يتجاوزها ويفتقر
بها، ومنهم من ينفذ إلى حقائق الأشياء ولا تغيب عن بصيرته عواقب الأمور، وهذا
هو الحكيم الذي رزقه الله الحكمة. ويتفضل سبحانه على من يشاء من عباده فيمكنه
من الحكمة التي تصحح مداركه، ويبعد بها ضلالات الشهوة عن أحكامه، فتطرد
من التأثير على اختياراته، فينرجح عنده الصواب والخير على ما سواههما. ويقرر
القرآن قاعدة في نجاح البشر: أن من لزم في حياته التأمل وانطلق فكره فاندرك
حقائق الأشياء فاستقامت مداركه، وتغلب على نزوات الشهوة ومساوئ الشيطان،
فتوجهت ميوله تبعاً لذلك لما هو خير وأسلم عقيدة، فإن حفظه في هذه الدنيا للحفظ
العظيم، وما يحصل عليه من الخير لا تحد حدوده. وإنه لا يصل إلى الارتواء من
الحكمة وإبراز حقائق الأشياء بدون غلط وطموع مساوكة لمقتضيات الحكمة، إلا
أصحاب العقول الصافية النقية.

270- وما اتفقته من نفقة-المنار

ثالثاً: أن من الحكمة أن يستحضر المنطق أن الله لا يخفي عليه أي نفقة كانت
صغيرة أو كبيرة، سواء ألقيا في سبيل الله أو تصدق بها، أو أي التزلم منه بفعل
الخير، وهو النذر، سواء أربطه بأسر أم لم يربطه، على أن تقترون به المراجعة
التامة لكل ما أرشد الله إليه وبينه في الإنفاق. ثم إن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر
فحرموا المستحقين ما فرضه الله لهم في أموال الأغنياء، وظلموا أنفسهم فحرموها
من الكمال الخلقى ولو نوهها بذاه الشح، لا يجدون نصيراً بوم القيلامة ويفقدون
التصير في الدنيا، إنه قد بنيت النفوس على حب من يحسن إليها، فمن يشح بماله
ولا تلبس نفسه لمساعدة المحتاجين لا يجني من ذلك إلا بغض الناس له والتخلي عنه
عند الأزمات، ولا يجد نصيراً ولا معيناً بل يكثر التملتون به.

271- إن تيدوا الصدقات-والله بما تعملون خبير

رابعاً: تبين من الآية السابقة 263: **إيا لها ففمن آمنوا لا تظلموا أنفسكم**
بالمع والآخر أثر لارتداء في إحباط ثواب الإنفاق، فيذهب المال ويحرم أجر ما

انفعه. وقد يتسامح المؤمن عن النعمة إذا أظهرها للمتصدق بخير فصدق الإذلال على المنفق عليهم، ولا حيا في الظهور، قول يظهرها بحبط أجرها سواء أكان الإنفاق من الواجب كالزكاة، أم من المتطوع به كالصدقات ؟ تقرر الآية أن الصدقة التي أظهرها صاحبها ولم يصحبها رياء هي أمر طيب، يندلوا وإظهارها لا يؤثر سلبا على نيل المتصدق رضا الله وثواب ما لفق. ولكن الصدقة التي أخفاها المتصدق وأوصلها إلى الفقير، والإيتاء هو إيصال الشيء بلطف يثني معه فكسرت نفس المعطى، ولا يعلم بها إلا الله، إن ذلك هو أكثر ثوبا وأعظم أجرا وهي سبب للعفو عن السيئات.

272- فيم عبيك هذا همد تخلصون.

خاتما: ما نظمته لفران في النيل الواجب والمندوب، وموقف الناس من هذا النظام بين متنع له وبين راض. ولأن ذلك في بناء المجتمع الإسلامي، جعل النبي ﷺ يحزن لعدم اعتدائه الناس جميعا لأخذ بهذا النظام، فأعلمه الله وأعلم أيضا كل داعية للخير من علماء الأمة، أنه لم يكلف أحدا منهم أن يعمل للناس بما يدعونهم إليه من الخير والصلاح، إذ أن مهمتهم بيان الحق ودفع الشبه، ولما الاعتداء بذلك فليس موكولا لهم، ذلك أن الله وحده هو الذي بيده الهداية، فييسر الأسباب لمن أراد له الخير، ويحزم منها من كذب له الحرمان، دون أن يجبر الضال على الضلال أو يلجئه إليه، ولا أن يجبر المتهدي على الهدية.

مادام: حوصلت الآية 272 (وما تملوا من خير فلا تأثمكم...) أثر الإتيان في بناء الفرد، ففرت أن قبل يعود بالصلاح على المنفق أولا، لأنه يمثل، بمواصلة العمل به، داء الشح من نفسه، ولأنه يسمو في توجهات الكمال النفسي، ولأنه يؤكد حب الناس له وسعيهم لعونه، وتحوله من النظر الغريب القاصر إلى امتداد بصيرته إلى جزائه يوم القيامة بإيجال عنصر هام يتقون بالإتفاق وهو فص المأعة لله. وتؤكد الآية في ختمتها تحقق الجزاء كاملا غير منقوص، بأن الله تكفل بإعطاء المنفق وفاء ما يناله ولا ينقص منه شيء.

273- للفقراء صديع عليكم.

سليما واصل قوله تعالى (للفقراء فدين...) التمهيد على إنشاء الصدقات الفقراء من هذا النوع الخاص: وهم الذين أحاطت بهم ظروف قاهرة منعتهم من السعي في طلب الرزق، من الذين حصوا أنفسهم للجهد، إعلاء كلمة الله والدفاع عن الأمة، من الذين عوقبتهم جراحات القتال فمحزوا عن التفتل في طلب الرزق، ومن

الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم فعجزوا عن تدبير متطلبات الحياة كالمهاجرين الأولين من مكة إلى المدينة والملاجئين في كثير من مناطق الحروب. وهم على قدر كبير من عزة النفس. يتورعون عن سؤال الناس. بل إن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء بسبب تنزههم عن التعرض للمسألة يترفعون عن مد أيديهم للسؤال فضلاً عن أن يطلبوا في الطلب، ولكن الحاجة التي هم عليها لا يستطيعون معها أن يخفوا حالهم من الخصاصة، فعلاقتها تدل على وضعهم لمن يتأمل في أحوالهم. وهو حث للمؤمنين على أن يسعوا للتعرف على هذا النوع العزيز من الناس فيستعينهم ويمدون لهم يد العون. ويؤكد القرآن على الجزاء المترقب لأن الله لا يخفي عنه ما تقومون به من خير، فهو يعلمه. وعلمه الذي لا يغيب به عنه كبيرة ولا صغيرة ولا باطن، يفتح باب الأمل في رضوانه.

274- الَّذِينَ يَنْفَقُونَ - وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ-

ثم لكد هذا المعنى بأن الذين يتولون إنفاق أموالهم في جميع الأزمان لا يختلف الليل عن النهار، وفي كل الصور من السر الذي لا يعلمه أحد إلا الله ومن العلانية، لهم أجرهم ثابت عند من لا تضعف الودائع عنده. يضمن لهم أنه يؤمنهم، فهم مطمئنون إلى حسن العاقبة في الآخرة وإلى العون والممدد الإلهي في الدنيا. ولا هم يحزنون عما فات من أموالهم لأنهم وآخرون من لها مضاعف لهم عند ربهم ونحصيلهم في حياتهم.

الَّذِينَ يَصْكُلُونَ الزَّيْئَ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا التَّيْبَعُ بِثُلِّ الزَّيْئِ وَأَخْلَىٰ اللَّهُ التَّيْبَعُ وَحَرَّمَ الزَّيْئَ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعُهَا فَلَهُ مَا سَلَدَ آمَنُ وَإِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُ غَاثِ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٤﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الزَّيْئَ وَتُفْسَدُ الصَّدَقَاتُ وَاللَّهُ لَا يَجْعَلُ كُلَّ قَوْمٍ ائِمَّةً ﴿٢٧٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الزَّيْئِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبَسِّرْهُ لَنَسَكَّنَّ زُجُجًا مِنْ أَمْوَالِكُمْ لَا تَنْقَلِبُوهَا وَلَا تَنْقَلِبُوهَا ﴿٢٧٨﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو

نَسْفَةً فَنَطِقَةً إِلَى مَيْمَنَةٍ وَأَنْ نَسْفَعُ فَأَحْزَنُ كَفَرٌ كُفِّرُوا وَاتَّقُوا ۖ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

بيان معنى الألفاظ

وَيَاكُلُونَ الرِّبَا: يستعدون على ما يدره عليهم الربا.

يَتَقَبَّطُ: يهزهز ما عتبا.

الْمَسْ: من الجن، الجنون.

مَوْعِظَةٌ: النصيح ببيان العواقب.

مُتْلَفٌ: مضى وقت.

يَمْحَقُ: يذهب فلا يبقى له أثر.

يَرِي: يرمى.

لَاذْنُوا: اعلما حتى لا يباغتكم ما سيحصل.

وَرُؤُوسَ أَمْوَالِكُمْ: أصول أموالكم.

عَصْرَةٌ: العجز عن الوفاء بالدين.

النَّظَرَةُ: التأخير.

مُوسِرَةٌ: اليسر بوجود المال.

تَوَفَّى: أوفى فلانا حقه أعطاه إياه ثلما.

بيان المعنى الإجمالي

الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الرِّبَا بشراة يقتولون قسولون فهم مضطربون كشأن الذي يحركه الشيطان حركة عنيفة من مس الجن. هذا جزاء تلبسهم بقولهم: إن الربا والبيع لا اختلاف بينهما، فلما كان البيع حلالاً فكذلك الربا. وهذه التصوية باطلة، لأن الله المختص بالتصرف في ملكه أهل البيع وحرم الربا. وليس لأحد أن يغير أحكامه. إن من تأمل في أمر ربه وأطاعه حذرا من سوء العقبة، وناب فأنقذ عن التعامل بالربا فإن رحمة الله تشملته. ولا يؤخذ بما سبق أن أخذه من مال الربا الحرام. وأما من عاد إلى التعامل بالربا بعد أن بلغه حكم الله فيه فإن مصيره إلى عذاب النار يوم القيامة لا يفارقها ولا تتفرقه. ويهدد القرآن المتهاككين على الربا بأن الله قدر تقديره النافذ أنه سيذهب بما تحصل عليه المرابي من أموال. وفي المقابل فقدر أن يرمي أموال المتصدقين ويبارك لهم فيها فيعوضهم أكثر مما أنفقوه. والطاعة تقضي بصاحبها إلى الغرب من الله، والكفر وما يزينه لصاحبه من المعاصي وارتكاب الآثام يفضي ذلك إلى إبعاد صاحبها عن منازل القرب والكرامة والحرمان

من التوفيق والأطراف التي تعين على فعل الخير. ويقابل في الذين آمنوا والتزموا في حياتهم فعل الخير وأدوا صلواتهم في أوقاتها على أتم الوجوه، وبذلوا عن طواعية زكاة أموالهم، إن أجروها ثلث لا يضيع شيء من جزاء صالح أعمالهم، ويثبت الله الأمن في قلوبهم فلا يحل فيها الخوف من المستقبل ولا الحزن والأسف على ما مضى. ثم يوفق الله المؤمنين، مؤكدا للتعزام بقوى الله بما يصحب التقوى من تكف عن متابعة التعامل بالربا الذي يتناقض مع الإيمان. ثم نوهت الآية الذين يواصلون التعامل بالربا بالحرب التي يلحق الله بتسلطها عليهم، وبتكليف الرسول بإبلاغ أمره بحاربته. قررت الآية أن من تاب من المتعاملين بالربا حفظه لي يفيض أصل المال الذي يملكه دون زيادة، والزيادة تطلب من المرابي، كما أن من تاب يستحق أصل ماله كاملا بدون مطالبة. إذ السهم من أصل المال لو المماثلة ظلم لمن كان مرابيا. وإلا أكان للمدين معسرا لا مال له يوفي منه دينه فعلى الدائن أن يؤخره حتى يتيسر حاله. وإن يتكرر الدائن للمعسر هيفيه من دينه، خير. والفضل في تمكين الفرد بين الجماعة وما يتبع ذلك من الثواب.

وختمت آيات الربا بوعد يشمل جميع الناس كي يصوبوا أنفسهم في اليوم الذي يعودون فيه لمرض حسابهم عند الله، مجردين مما كانوا يقولون به في حياتهم الدنيا. هو يوم القيامة، الذي ستجد فيه كل نفس حواءها كاملا عما قيمت، حكما عادلا لا يظلم فيه أحد.

بيان المعنى العام

275- الذين يأخذون الربا...أسباب الثأر هه فيها خالدون.

اعتنت الآيات السابقة بتوضيح ما يتعلق بالإحسان والصفات مما فصلنا القول فيه خلال بيان المعنى العام. ويقابل أولئك الصالحين الذين سميت أنفسهم فأشركوا إخوانهم فيما اتاهم الله من فضله، يقابل هؤلاء قوم استولوا عليهم الجشع وحسب المال فقطعت الأسباب التي تربطهم بأعضاء المجتمع الذي يعيشون فيه، كل منهم الاستحواذ على المال بجميع الطرق، فبرزت الآية صورتهم المشوهة بأخذهم للربا في شراة بالغة، وهم عتيف، بمن بكل الربا ككلا. ثم زادت تشويها وتغبرا من وضعهم ومالهم، بأنهم كلما أرادوا القيام كانوا كالصروع الذي هزه الشيطان هذا عتيفا فاضطربت حركاته، يسقط كلما حاول أن يتقدم. يمكن أن تنهم الآية على أنها تقدم صورة لأكلة الربا في الدنيا، هذه البلية العظمى التي عمت البشر في عصرنا هذا، فاضطربت أحواله العامة وللخاصة، تنوالت الأزمات الاقتصادية فهز العالم كله هذا عتيفا، وتضطرب مسيرة أعظم القوى الاقتصادية، ويبدو المستقبل غامضا

رهيبا، ولا تجد الجولب عند أحد. ووضع الأكراد ليس أسلم من الوضع العام. ضنط للمريون على عامة الناس ضلبيهم أمنهم واستقراهم، وقشت الأمراض النفسية. تلاحظ بوضوح أنه كلما كانت مظاهر الرقاه الاقتصادي أقوى كلما تضاعف القلق النفسي والحيرة في تلك المجتمعات، وتضاعف عند الممتحرين بعد أن خلق ضنط المرابين الأمل الذي يعطي للحياة معنى وقيمة. كما يمكن أن تكون الآية تقدم تصويرا لوضعهم الأخروي. فالمعنى لهم عندما يبعثون يوم القيامة يخرجون من قبورهم مضطرب حركاتهم في غير تناسق كلما قاموا سقطوا، وهكذا يسبرون في المحسر إلى المصير الذي ينتظروهم. وجمع المرابين أعمالهم عن تبين الحقيقة واختلط عليهم الأمر حتى صرحوا بأنه لا فرق بين البيع والزبا. سببتهم التي ألمست عقولهم، أنه كما يحصل البائع من صفته ربحا رضى المشتري يبله، فذلك المرابي يستفيد من صفته الزيادة التي رضى بدفعها المقترض أو الطالب للتأخير. ويأتي الجولب حارما حارما ربا فضائلهم: إن الله الذي هو مالك الكون، أحل البيع وحرم الزبا. وهذا دليل عام يجب أن نخضع له الرقاب ونقبله المعول والأرواح بالإذعان، وتسير العمليات الاقتصادية في مختلف صورها داخل الحدود التي حددها مالك المال ومالك صاحب المال. وهذا ما يقتضيه منطق العقل. ومن ناحية أخرى فإن ما يحصل عليه المرابي من الزيادة يختلف اختلافا جنونيا عما يحصل عليه بالتجارة

أولا: صفات البيع معرض فيها المشتري للربح والخسارة، بينما المرابي رابح دائما، والمقترض خاسر دائما للزيادة، فلتنقى العقل بين نوعي الصفقتين.

ثانيا: في صفقة البيع يحصل المشتري على السلعة التي يرغب في امتلاكها، إما للاستهلاك الشخصي أو ليتاجر بها. أما المال الذي يقرضه أو الذي يملكه المرابي مدة مقابل الزيادة، فإن الطرف الضعيف تقتطع منه زيادة ربا لا في سلعة وإنما في بقاء المال عنده ربا. والمال ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة، فترتيب الزيادة على ذلك قلب للأوضاع، وتصبح للوسيلة غاية.

ثالثا: إن التأمل في ما يحصل للطرفين يعطينا النتيجة التالية: أن المرابي تزداد ثروته بقاء، لأن جميع الصفقات التي يقددها ربحه مضمون فيها. وفي المقابل فإن الساعين لتحقيق المكسب بالفلاحة أو الصناعة أو التجارة، معرضون للربح أو للخسارة. ومن البدهي أن من تكون صفته تضمن له الربح دائما هو الذي يجمع في النهاية أكبر قدر من الثروة، فتحصر الأموال من حاصل الإنتاج إلى جيوب المرابين.

ولمعا: إن نشاط التجار والفلاحين وأصحاب المصانع والعاملين بالفكر لو بالساعد يضيف للثروة الإنسانية إضافات تبرز لكل واحد ما يحصل عليه، وتدفقه لمزيد من البذل والعطاء. أما المربي فإنه لا يضيف للثروة شيئا ولا يكسدها إلا لاصطيد العاملين، فيكبلهم بشروطه الثقيلة التي تضمن له الاستفادة قبل رأس المال. وإذا تبين الحق من الباطل، ولطف الله بعباده فتفتح بصائرهم وارتفع قلوبهم بما أنزله من وحي ووضعت النصيحة بالإبتعاد عن الرثاء فمن اعتز قلبه لما أنزل من تحريم الرثاء وقطع وثائق له ما تم قبضه قبل أن ينزل الحكم النهائي ولا يتم عليه فيما سبق له أن أكله من الرثاء. والتهديد لمن كانت عزيمته غير صالحة فعاد إلى التعامل بالرثاء، تهديد بالخلود في النار.

276- يمعق الله... كسار لهم.

يتهدد القران المرابين، الجاهلين بما يكون عليه الحال في المستقبل، العنيدعين إلى جمع أكثر ما يمكنهم جمعه من مال لتدخلوا الحوادث الزمن وتقلبات الأيام، ويهددهم بأن الله سيمحق الرثاء ويحو ما جمعه منه، وسوف يذهب الرثاء بالفائض والأصل معا، فلا يجنون منه شيئا عند الحاجة. وفي المقابل فإنه سيبارك للمستحقين، ويضع لهم أبواب الرزق، ويخلف عليهم ما فعموه من عون. وهذه سنة من سنن الله في الكون، جرى أمره أنه لا يكرم الكافرين الملوئين بالآثام، وهو معنى نفى الحب من الله لهم.

277- إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات... ولاهه يحزنون.

ثم تحيي الآيات التربوية التي غرسها فقران في قلوب المؤمنين ومشاعرهم حتى تكون ناصعة في الضمائر تثير القبول وتحمي من الانزلاق، فمسجل الصورة للنية للمعط الرقيق من البشر في خطوطها الكبرى التي يفرغ عنها كل خير:

(1) الإيمان

(2) الالتزام بمقتضيته في الملوك بالقيام بصلاح العمل الذي يرضى عنه الله باطنيا وظاهرا -

(3) أداء الصلاة على الوجه الكامل المحرك للضمير الذي يطوع الفرد لعمل الصالحات ويظهر منه آثار الخشوع في فترة المناجاة -

(4) والطوع عن رضى بوصول حقوق الفقراء في مل الولجيتين.

ثم تظهر الآية النتيجة في إطار رفيع يبرز: أن ما فعموه مسجل لا يضيع من جرائه وأجره شيء مضمون عند من تولاهم بهديته وعنايته (عنه ربههم) وقوى ذلك أنهم يجتوبون الأمن والطمأنينة في نفوسهم، هم ولحقون من فورهم فلا يخلون

حدث مفاجئ في المستقبل، ولا هم يندمون على ما مضى ولا يحزنون على ما فات.

278- يا أيها الذين آمنوا... إن كنتم مؤمنين.

ثم تتوجه العناية القرآنية بالمؤمنين ليحصنهم من قرناء المارد المفسد للبشرية، هذا المارد الخبيث الذي يلف بمظاهر براقته تغري به، فالتزوات الكبرى هي بين يدي كمشة من المرابين، والحياة للعامة هي مظهرها النابضة من ذلكم الوفر المائي، والحصول عليه بغير تعب ولا جهد تنفع الشهوات لتتمرد على نداء العقل والضمير، فيوظف القرآن المؤمنين بهذا النداء القاذف إلى أعماق النفس المحرك لمشاعرها: اتقوا الله، تقوى الله هي الحصن الذي إليه تلجؤون، عودوا إلى الفطرة التي فطركم الله عليها، طهروا لمواكم من رجس الزنا، واتركوا ما بقي منه. وإذا كان لا يحل لكم أن تأخذوا ما بقي لكم من العقود الزنيوية فمن باب أولى أن لا تتسبوا عقودا تشمل على هذا الخبيث، استيقظوا إلى أن التعامل بالربا يهز الإيمان ويبرر المرابي في صورة فقد الإيمان.

279- فإن لم تفعلوا... ولا تظلموا.

معصية الربا معصية عظيمة، والمتلوث بالربا معرض لحوب من الله ومن رسوله. أعلم الله بذلك المرابين. حمل معظم المفسرين الآية على السبب الذي نزلت فيه: ذلك أن قبيلة ثقيف يطلعت كفت لها يثون على فريش، أهل مكة، فاستولوا لدحولهم في الإسلام أن ما عليهم من الربا مطروح وما لهم على أهل مكة من ربا ثابت غير ماقط. واجتهد رسول الله ﷺ. وكان من ربه أن نخول قبيلة ثقيف فيه قوة للإسلام، وأنه لم يبح لهم الاستمرار على التعامل بالربا ولكن قبل منهم أن ما تم عقده قبل الصلح يمضي إلى نهايته، ولكن تحريم الربا هو من التوبة في الإسلام. ولما استصل هذا الورم الخبيث لا مجال فيه للجهاد، ولا يمكن قبوله بأي وجه من الوجوه فصبرت الفتنة لو طالعت. فجاء الحكم لفواصل من الله: إن الصلح مع الربا مقوض. روي له لما نزلت الآية فالت ثقيف: لا يدي لنا بحوب لله ورسوله (أي لا قدرة لنا على محاربة الله ورسوله) فطاعوا بالانكشاف عن الربا وطرح ما لهم من الربا. وطوي ملف الربا.

ويمكن أن يحمل الأمر على ما قدره سبحانه من هلاك للبشر الذين يتعاملون بالربا، فالحراب التي أكلت الأخضر واليابس. والتي لا تكاد تطفئ من مكان حتى تشتعل في مكان آخر، وظلم القاصي والمستبذل المفتسر. والاستحوا على حقوق

الشعوب، والفقراء، وذهاب الطمأنينة من حياة الناس رغم ما تكلم من متشوع الخيرات والبركات في أسواق المال التي لا تهدأ قليلا حتى تعود إلى الظهور بوجه كالح وعنف أكبر، لا يترك كل ذلك، مع التعمق في الأسباب والمؤثرات، عن فعل جرثومة الربا، هي حرب الله على الربا وعلى المروجين له.

280- وَإِنْ كَانَ ذُو عَصْرٍ... تَعْلَمُونَ.

ويقدم القرآن الوصفة التي يعالج بها الفساد الذي استشرى في التعامل والفسوة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي فيبينها فيما يلي :

الأول: التوبة بالعزم الموكد على ترك الربا، وقرعش لهذه الخطيئة والاشتمالز منها.

الثاني: الاقتصاد على أخذ الربوي رأس ماله الذي ديفت عليه المعاملة، ويتنازل عن كل زيادة في مقابل الزمن، هذه الزيادة التي هي ظلم وأخذ للمال بالباطل، ومن ناحية أخرى فإذا كان القرآن حرم ظلم الربوي بأخذ الزيادة فكذلك حرم على المدين أن يظلم الربوي بالمماطلة بعد طرح الفائدة.

الثالث: أن يعامل الدائن المتين معاملة إنسانية عند حلول أجل الدين، فهو مطالب، على سبيل التوجوب، أو على سبيل التنبأ أن يؤخر المدين إذا كان وقت حلول الدين لا يملك ما يفضي به دينه.

رابعاً: أن الكمال في التحلي بالقيم الإنسانية للرفيعة: أن يعفو الدائن عن المدين إذا كان مصراً وأن يتصدق عليه بما هو في نعمته من الدين. ويتحقق أجر الصدقة وإن كان حين تمكنه من المال لم يؤد التصدق عليه.

281 واتقوا يوماً ترجعون لا يظلمون.

وجماخ الخير، والمنهج الواعظ، والحسن للإنسان في معاملته كلها، أن يكون مستحضراً دوماً لتقوى الله، ولي يؤخر الجراء في اليوم الذي يعود فيه إلى ربه بلا مال ولا أهل ولا حياء كل الناس يصيرون إلى ربهم ويرجعون إلى حكمه العدل الفاذ، وتستوفي كل نفس حساب ما قدمت لا ينقص شيء مما قمته في حياتها، ثم إنه لا يبخس أي فرد في ثواب أعماله، لأن الله هو الحكم العدل الذي لا يظلم أحداً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكُنْ بِكُمْ كِتَابٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبُهُ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ وَلْيَكُنْ

وَلْيَمْلِكِ الْإِذَى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ. وَلَا يَتَخَسَّرْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الْإِذَى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَعِيهَا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلَهُ بِالْعَدْلِ وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ ذَوَاتِهِمَا فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ تَرَضُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْفُرُوا صَبِيرًا أَوْ كَاهِنًا إِلَى أَهْلِيهِمْ ذَلِكَكُمْ أَنْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْرَبُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَجَرَّةٍ حَاضِرَةٍ يُدِيرُونَهَا يَتَخَفُّ عَلَيْكُمْ قَلِيلٌ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَعَلَّوْا فَإِنَّهُ نَسُوا بَعْضُكُمْ أَنْتُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ اللَّهُ يُضَارُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمٌ ﴿٢٨٠﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى ضَرْبٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الْإِذَى الْإِذَى أَوْ تَمِنَ أَمْنَتُهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُبُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَخْشَ فَرَقَهَا فَلِلَّهِ الْيَمُّ الْقَلِيلُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨١﴾

بيان معنى الألفاظ

مسمى: معين.

العدل: الحق.

لومل: إلقاء كلام ليكتب مطابق لما سمع.

يتخسر: يفتر، لا يخفى شيئاً ويتركب عليه نفس.

الشفية: مختل العقل.

الضعيف: الصغير.

الذي لا يستطيع أن يمل: الذي لا يستطيع أن يمل لكم ونحوه.

أن تضل: أن تنسى.

ولا تضاموا: لا تملوا.

الصغير والكبير: الجليل والخير.

لست: أشد عدلاً.

بيان المعنى الإجمالي

حاجة النفس للاستدانة حاجة عامة، وحرص الإسلام على أن يحتاط الدائن والمدين احتياطاً ينفي احتمال وقوع النزاع أمر أسس في بناء العلاقات، فهذه الآية إلى

الطريق الأرشد في هذا المقام. نادى للمؤمنين أن يؤمنوا بالدين بوثيقة مكتوبة يتحدد فيها المقدار والأجل. ولما كتبت الذي طلب منه فكثيرة أن يستجيب ويقوم بكتابة الدين مراعيًا الحق فلا يظلم المدان ولا المدين، ونهت الآية للكتّاب عن الامتناع من الكتابة، كتابة تبين الحق مراعيًا ما تحصل الله على الكتّاب لما علمه طريقة توثيقه. وأكثت الأمر بالكتابة **(فليكتب)**. وبينت الآية الطريقة المثلى في كتابة الدين: أن الذي يتولى الإملاء **على كتّاب** موثق هو المدين، وحركت خوف الله في قلبه عند الإملاء فلا ينقص شيئًا من حقوق المدان. وإذا كان المدين غير قادر على الضبط إما لخفة عقله، أو صغره، أو عجز في حواسه، فإن وليه هو الذي يطلب منه أن يقوم بصيط ما على منظوره فيملئه على الكتّاب مراعيًا الصديق والحق، وطلبت الآية أن تؤكد وثيقة الدين بالإشهاد، واشترطت في الإشهاد أن يكون باثنين فأكثر تكرين مسلمين، أو رجل وامرأتين، وأن يكون اليهود من الامتناع بدرجة يرضى الخصم بشهادتهم ولا يرفضهم الفاضل، وعالفت الآية مقابلة شهادة الرجل بشهادة امرأتين، بالحرص على حفظ الحقوق، إذ للمرأة في معظم المجتمعات القيمة لا تحضر صفات المقود، فقصرت ثقافتها في باب المعاملات عن الرجل، وتبعًا لذلك قد يعرض لها انسيان لبعض ما جاء في العقد من صواب فطلب أن تتقوى بثانية لتتولى كل منهما مساعدة الأخرى في ضبط ما يمكن أن تنساه صاحبته، فكل واحدة منهما مذكّرة **(بكر الكاف)** ومذكّرة **(يفتح الكاف)**. ونهت الآية من يطلب منه جعل الشهادة أو أدائها، أن يمتنع من القيام بهذه المهمة حفظًا للحقوق. كما نهت المتعاملين عن التهاون بكتابة الدين بعمال المال والكسل، سواء أكان الدين حقيرًا أو جليلًا، وعطيهم أن يضبطوا الأجل، وعينت الآية بتأكيد هذا النظام الذي تعرضت له الآية بتعديله بأنه أقرب لتحقيق العدل، وأعون على إقامة الشهادة، وأقرب إلى نفس الزبنة والشك، واستثنى من ذلك، رغم التأكيد، التجارة التي تدور حاضرة، أي لا يبر فيها، أن نتم الصفقة بدون كتابة لما في كتابتها من الحرج. ثم كتبت الآية الأمر بالإشهاد ليرتب عليه أن الشاهد ومثله كاتب وثيقة الدين يؤدين خدمة للمجتمع هي إقامة العدل. فلا يقبل أن يتسبب قسماهما بهذه المهمة أن يلحق بهما أي ضرر كان، كما أن عليهما أن يحرسا على عدم الإضرار بأحد طرفي العقد. وحذرت الآية من عدم تطبيق هذا التشريع في نظامه المتكامل، بأن ذلك يلوّث المتخلى عنه بالفسق والخروج عن منهج الإسلام. وحثهم على تقوى الله، وتكررت بأن الله هو الذي تولى تعليمهم فأخرجهم من البدأة والجهل. والله سبحانه هو التعليم الذي يشمل علمه ما يتوقعه

الإنسان وما لا يتوقعه. ثم تعرضت الآية لصورة أخرى يمكن أن يتعرض لها المتعاملان، وهي أن يكونا متعاملين ولا يوجد كتاب ولا عهد. فالطريقة لتفادي الخصام في المستقبل والطمأنينة للمتعاملين هي أن يأخذ الدائن من مدينه رهنا تؤتقه بحقه، ويعيده إلى صاحبه عند ختام الدين. وصورة أخرى أن يكون بين المتعاملين من الخطة والاطمئنان ما يوقع توقع أي إشكال في المستقبل، كالصديق مع صديقه الملاطف، والوالد مع ولده، ففي هذه الحالة يذكرهما القرآن بأنه لا يجب عليهما، والحالة تلك، أن يشهدا أو يكتبا وثيقة الدين، أو أن يقبض الدائن رهنا، وكل طرف مأمور بأن يسلم للطرف الآخر ما التزم به، واتممه عليه. وبهذا الآية في الخصام عن كتمان الشاهد لشهادته، لما يتسبب عنه من مسيأ الحقوق، وحذرت من هذه المعصية باعتبار أنها تلوث قلب التكم، الذي لا يخلص من العقاب. لأن الله لا يخفى عليه خافية.

بيان للعن العام

282- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْكُمْ

حذرت الآيات السابقة من إفة الربا وكشفت عن مساوئه، والربا مرتبط بالدين في معظم أحواله. فكان من حكمة القرآن أن عمن أنهى عن الربا بفك الارتباط المتوهم بين الربا والدين.

أطلق على هذه الآية: اسم آية الدين، وهي أطول آية في القرآن. تقوم على المفومات التالية:

الأول: تشريع الدين باعتباره حاجة لا يستغنى عنها المجتمع. إذ تتحقق به موانع الولد برفض المحتاج الذي ينتظر حصول المال في المستقبل. وهو وسيلة لترويج التجارة لمن يملك القس، فلا يحرم من تملك ما يرغب في اقتنائه لنفسه أو لعائلته، دون إرجاء ذلك إلى التفصيل الفعلي على الثمن.

الثاني: توفر الصفات التي تيسر اعتماد الدين مع الطمأنينة دون خوف بتفصيل أنواع الوثوق.

الثالث: مراعاة ما يضمن نفي الخصام في المستقبل.

الرابع: مراعاة العدل والحق في جميع المراحل. وذلك بما منفصله فيما يلي: لئلا الله للمؤمنين أنه شرع لهم قدين ولم يحرم عليهم، ورتب سبحانه ما يكون به هذا التعامل محققا لمصلحه الأفراد والأمة، وذلك بتطبيق تشريع الدين واحترام المبادئ التي تضمنتها الآية والتي فصلها فيما يلي:

أولاً: لأن الإسلام لا يمنع التكليف، ولا يحرم من كل في ضلالة مائية في يعمر نمته بالتزام قضاء ما للزم به، من قرص أو من ثمن سلعة، في المستقبل. سواء كان ذلك لقضاء ما ربه الشخصية والعائلية، أو لتأجير ويستثمر. وأكسبت السنة النبوية على المدين أن يعزم عند عقد الدين على الوفاء بالتزلمه.

أخرج الإمام أحمد بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من دلت للناس بدين يعلم الله منه أنه حريص على أدائه كان معه من الله نور وحفظ قالت: ولنا خمس ذلك العون، وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده إلى أبي قتادة أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم: أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجل فقال: يا رسول الله، أوليت إن قتلت في سبيل الله كفر على خطيائي؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم! إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير متبر، ثم قال رسول الله ﷺ: كيف قلت؟ قال: أوليت إن قتلت في سبيل الله تكفر على خطيائي؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم! وأنت صابر محتسب مقبل غير متبر. **فالتقوا بقر التدين ولا يفر منه** ولي ذلك. فافتتحت الآية بقوله **إذا تدانتم بدين**، فالتقوا بقر التدين ولا يفر منه ويسجل له ظاهرة محقة ومكررة في التعامل بين البشر.

ثانياً: أن على المتعاملين بدين أن يضبطوا الأهل الذي يكون عنده وفاء المدين بدينه فقال: **إلى أجل مسمى**. يكاد يكون لوضوحه ونقته حاملاً لاسم يتميز به. وذلك انفاً للاختلاف وما ينشأ عنه من خصام.

ثالثاً: أن يسجلوا الدين بالكتابة في وثيقة تكون المرجع بين الطرفين والحجة التي يتم العود إليها ضل تسالي. **فالتدونه** - وهذه صيغة أمر يمكن أن تحمل على الاستصحاب، ويمكن أن تحمل على الوجوب. وحملها على الوجوب أولى. وذلك لما في الإلزام بالكتابة من قطع أسباب الخصام قطعاً تاماً، ولأنه إذا كان واجباً فإنه لا يتخرج الدائن من التملك بكتابة الدين لأنه طاعة لواجب. وقد اعتقت الآية غاية بالغة بوثيقة الدين لتؤدي وظروفها في التوثيق أداء جيداً. وهذا ما يحق العناية بالتوجيه الإلهي المتضمن ما يلي:

أ: أن يتولى الكتابة شخص ثالث إذا كنا جاهلين بالكتابة أو كان أحدهما لا وحسنها. وحرك القرآن عمل الإيمان الذي ينطوي عليه للكتابة، الإيمان الداعي

للصدق والأمانة. وكون الكُتُب طُرُقًا ثَلَاثًا عند جِهَل أحدهما أمر للكتابة، هو لدفع الرِّبَاة عندما يتولى أحد طرفي العقد الكتابة ويكون للطرف الآخر جاهلاً، لما يمكن أن يُحْتَلَّ الجاهل به نفسه أن الطرف الآخر يسجل ما هو لأصلح له.

ب: أن يراعي الكُتُب العدل فلا ينحاز لطرف يوثق له حقوقه، ولا يعتنى بالآخر متساهلاً في توثيق حقوقه، فضلاً عن التكليس والتبديل.

ج: نهت الآية من كل قسرة على توثيق حق عن الامتناع من القيام بأمر للتسجيل. وهل الامتناع محرم أو مكروه، أو ينظر هل تعين القيام به لتفريده بالقدرة على التوثيق فيجب مع التعين وينتجب مع عدم التعين؟ اختلف الفقهاء في ذلك، ولما كان في الحياة المدنية في معظم قطاعات الأرض، تعين الحكومات من يقوم بهذه المهمة إلى النهي بنصرف لهم خلصة، فيحرم على من نهى لذلك بإذن من الحكومات أن لا يستجيب عندما يطلب منه.

د: أن يتذكر الكُتُب أن الله تفصل عليه أمر له أمر التعلم فلا يمتنع من التوثيق، وليتذكر أيضاً أن الله علمه الحق لا القابل فيلجأ عند كتابة الوثيقة أن يظلم أحد المتداعين. **ولا يلي كتب أن يكتب كما علمه الله.**

هـ: إن الذي يتولى إملاء من الوثيقة هو المدين الطرف الأضعف، ومن حكمة ذلك أنه لو أوكلت مهمة الإملاء للثقل ورك في الحقوق الواقعة إليه، فقد يظلم المدين للثقل خوفاً من إلغاء العقد الذي هو في حاجه إليه. وهذا ما هو مثقف عندما يعلّي المدين.

و: تذكر الآية العملي (المدين) بأن عليه أن يستحضر في نفسه عند الإملاء ما تقرضه التقوى من الصدق والابتعاد عن التحليل. وإن لا يفتن الدائن في صغير ولا كبير، وإن لا يستعمل العبارات الموهمة أو القابلة للتأويل.

ز: احتاط التشريع الوضع الذي يكون فيه المدين مستقراً أو مسعياً العقل أو به عامة توقعه عن الإقصاح، فقرر أن من يتولى أمره في الحياة هو المقدم في الإملاء، مراعي الحق فلا يحصر من حقوق المدين ولا قدائن شيئاً قل أو كثر.

رابعها: أن يضموا إلى وثيقة الدين على الصيغة المذكورة الشهادة على اثنين. وطلب الشهادة كما يدل عليه **(واستشهدوا)** يحتمل الوجوب أو الاستحباب، وبينت الآية خصائص هذه الشهادة لتكون مادية للعرض من إلتئتها فمن ذلك:

أ- التعدد: رجلان، لأن التعدد يؤكد الثقة بصدق الشهادة ويثني الرزية فيها.

ب - الإسلام: ذلك لأن ما يحمله المسلم في قلبه من خشية الله وعقافته وحده يقوم منادياً باطنياً بالترام الحق. ولما معظم غير المسلمين فجبه لا يظلم إلى صدقهم

عندما يتعلق الأمر بنفع للمسلمين. وكون بعضهم قد ينصف للمسلمين لا يطعن فيما قرره، لأن الأحكام تنبى على الغالب، والإذلية المنصبة على ديار الإسلام قدما وحديثا شاهد صدق على ذلك.

ج: التمييز على المعتدين: بجعل شهادة رجل وامرأتين مساوية لشهادة رجلين. وبرر التشريع تسوية الرجل بالمرأتين، بأن الذي كان يجري عليه الأمر في المجتمعات في زمن قريب: أن الأنثى لا تحضر مجالس المعاملات فكيف تقاتلها في هذه الناحية محدودة. وهو ما يجعل احتمال تعرضها لتسويل بعض خصائص عقود المدينة أمر وارد. فشهادة لثنتين تتولى كل واحدة منهما تذكير الأخرى ما يمكن أن يفوتها ضبطه هيئتهما. فكل واحدة منهما مذكورة (بالكسر) ومذكورة (بالتفتيح) ويتحقق بذلك الحفاظ على الحقوق.

د: على صاحب الحق أن يتخير لتحمل الشهادة من يكون جامعاً للصفات التي تجعل القاضي يقبل شهادته، ولا يرفضها، وكذلك للذين يرضاهم ولا يطعن في ثقة صاحبها. وهو معنى قوله تعالى: **معن ترضون من الشهداء**.

هـ: تحميل المجتمع مسؤولية المساعدة على ضبط الحقوق لتحمل الشهادة وأدائها. وحكم الامتناع عن تحمل الشهادة حرام إذا تعينت، وبمبدأ حكم أدائها إذا تعينت ولم يحصل ضرر للشاهد. ومع تقدم المجتمعات لتسليحت التنظيمات لتحمل الشهادة وأدائها إلى قوم مخصوصين، فلا يتوجه الطلب على غيرهم إلا في الحالات النادرة عندما لا يمكن إتيانها من المنتسب لذلك.

خاصة: حرضت الآية من جديد على توثيق الدين بالكتابة، وخاصة الأجل الذي يجب فيه أدلاؤه، وظلت تلك بأنه هو الطريق المحقق للعدل الذي ألزم الله عباده وجعله مقصدا من مقاصد التشريع، ولأن الكتابة أيضا تساعد على إقامة الشهادة، والكتابة تفي الرقيب والشكوك في المستقبل.

مابعدا: من التمييز الذي راعاه القرآن في نظامه المذكور سابقا، أنه إذا كان التعامل بالتجارة الحاضرة التسي يتداولها التجار بينهم، وفي توثيق كل صفقة حرج، أنه لا يتم عند ترك التوثيق والإشهاد.

سابعاً: شرعت الآية الإشهاد عند التكوين، والترخيص في عدم الإشهاد إذا كان العقد تجارة حاضرة. وشرع هذا المقطع من الآية **(وأنشهدوا إذا تسامعتم)** الدعوة إلى الإشهاد على البيع في غير التجارة كييع الدور والأرضين.

التحصين للتشريع

حَصَّنَ القرآنَ هذا التشريعَ بمزاكاة أمرين يفضي عندهم توجُّههما إلى ضياع التنظيم الإلهي الذي سبق تحليله:

أولهما: الحرص الكامل أن يعامل الكُتُبُ وقشوريت معاملته طيبة تنفي أن يلحقهما أي نوع من أنواع الضرر. فأبرزت الآية أن قتهاونَ حقوقهما فسوق وإثم عظيم. ذلك أن التراضي في حصلتهما يفضي إلى امتناع الصالحين للشهادة والكتابة من القيام بهذه المهمة النبيلة خوفا من الضرر، فتضيع الحقوق.

ثانيهما: فنور الهادي للاستقامة على الطريق، والتطبيق للصالح في الظاهر والباطن للتشريع، وذلك بالتقوى التي هي يقظة الضمير والعقل معا، يقظة تجعل المكلف يتحكم في هواه ويبتذل جهده لتطبيق شرع الله. وبمس الله على هذه الأمة بأنه تولى تعليمها ما يصلح أمرها في الدنيا والأخرة، وهو التعليم الذي لا يشوبه نقص ولا عرج، لأنه تعليم الله الذي يعلم بواطن الأمور وظواهرها وحاضرها ومآلاتها القريبة والبعيدة. **وَقُلُوا لِلَّهِ وَلِلْغَنِيِّ وَالْغَنِيَّةِ عَلِيمٌ**.

تعرضت خاتمة هذه الآية **وَلِلْغَنِيِّ وَالْغَنِيَّةِ عَلِيمٌ** لهداية الأمة في حالات قد تعرض لبعض أفرادها أو في بعض أحوالها. فلكمكتف التعليم في ضبط الحقوق وعلى ما يوجب الخصام في المستقبل. وذلك بما يلي:

أولاً: إذا وقع التكليف في السفر ولم يتمكن المتدين من الكتابة والإشهاد، فإن ترك الأمر كذلك قد يصحبه إما الإعراض عن العقد، وإما أن تذهب طمأنينة الدين بأحاديث النفس، فالت الآية على الحل الذي يفعله التشريع الإسلامي ويتمثل ذلك في: أن يقدم الدين رضا للدائن، لقلي فيه أن لا تبعث قيمة كثيراً عن قيمة الدين، يراضيان عليه ويضمنان الدائن بأن له مرحماً يعود إليه لاستخلاص حقه عند عجز الدين عن الوفاء. أن يكون هذا الرهن مقبوضاً. فإذا وعد الدين بتقديم الرهن ولم يقدمه للنفس إلى أن فسر الدين، فإن الدائن لا يستقل بالرهن الموعود به ويعتبر كواحد من الغرماء يستحق حصته في المحاصة. أن الرهن كما يجوز في السفر فكذلك لا مانع منه في الحضر.

ثانياً: إن كل ما سبق من الكتابة والإشهاد والرهن وتفاصيل ذلك، شرعه الله لنفي الخصام حتى تنفي وحدة الأمة مريجة. ولذا فإنه إذا كان الارتباط والصلوات محكمة بين المتعاملين، بصفة ربما تزعزع لو تحتم طلب الدائن بالكتاب أو الإشهاد لو الرهن، لأن كلا منهما يضمن الآخر ولا يخشى منه إنكاراً وهذا حال الولد مع أبيه مثلاً أو الزوج مع زوجته، أو الصديق للملاطفة شديد الارتباط بقي حال تحقق

اثتمان كل طرف للآخر يفسط ما كان مطلوباً من مختلف أنواع التوثيق. ويأمر الله أمراً جازماً من لثمة العمل معه أن يؤدي الأمانة التي ترتبت في ثمة كاملة، وليستحضر في قلبه تقوى الله حتى لا يوسوس الشيطان في نفسه أن دأبه ليس له عليه حجة، فيجد الحق كله لو بعضه. وفي الجمع بين لسم الجلالة (لَيْتَقَى اللَّهُ) وبين كلمة (وَبِهِ) ما بقى في النفس للمهابة ويذكرها بفضل الله عليه إذ نولاه بعنايته حتى بلغ ما بلغه. وتختتم الآية بقوصية الجمع التي تعتبر ركناً في كل ما سجلته الآيات السابقة وهي الشهادة، هذه الشهادة التي لا يظهر أثرها إلا إذا كان الشاهد مستعداً يوماً لأدائها ومساعدة من يطلب منه أدائها ليصل بها إلى حقه. وتقرر الآية أن من يكتم الشهادة ويمتنع عن أدائها عندما يطلب منه، أن العصيان والإثم قد تأصلا فيه ونكنا منه ونفذا إلى قلبه، وفي ذلك لشد التحذير من كتمان الشهادة. ولا يتعلل الكاتم أي علة قبل الله مطلع على الحقائق لا يفوته علم أي شيء يقع في الوجود.

لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُ
تُخَابِتْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَنْفَعُ لِمَنْ يُشَاءُ وَيُعَذِّبُ لِمَنْ يُشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿٢٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ

تبدوا: تظهروا.

يخابيتكم: يجازكم، ويؤاخذكم.

سبحنا: رضينا وقبلنا.

بيان المعنى الإجمالي،

تقرر الآية أن ما حوته السموات والأرض ملك لله، وخاصية الملك هي تصرف الملك بما يملكه. ولما كان الإنسان هو المستخلف والمكلف، ينسب القرآن على هذه الحقيقة، أن الإنسان محاسب عما يجري في نفسه. أداه لم أخفاه، لأن الله لا يغيب عن علمه شيء، كتم الإنسان ما في نفسه لو لظهره. ورتب على هذا العلم المحيط حقيقة هي نتيجة للحقيقة الأولى، وهي أنه لما كان الله هو العليم المتفرد بالملك، فمن توابع ذلك أنه يفعل ما يشاء في ملكه، فيغفر لمن تعلقت إرادته بمحو ذنوبه، ويسلط عقوبته على الأثم الذي لم يقترن أن يدخله في عفوه ورحمته. وتختتم الآية بما ثبت ما عرضته، وهي الحقيقة الثابتة: أن الله عليم بكل شيء.

بيان المعنى العام:

284-ثُمَّ مَا هِيَ السَّمَاوَاتُ... فَتَجِبْ

هذا الآية تنويع لما انتظم في الآيات السابقة من التشريع والمعقودة والمساواة، فتقرر قاعدة لها أثرها الكبير في توجيه المؤمن وإحياء رغبته لمولاه، بتبيين ذلك معاً ورد فيها:

أولاً: تذكر بالحقيقة الكبرى: كل ما تحويه السماوات والأرض ملك لله. وهذه الحقيقة قد يضل الإنسان عن بعض مضامينها، كما يغفل عن مقتضيات تلك المضامين، يعلم الإنسان بأنه لم يخل في تصرفه إلا شيء قليل من هذا الكون، ولكن قد تحصل الغفلة عن حقيقة بما تحجبه الظلمة، فيضل مثلاً أنه مالك متصرف في بعض الأشياء، ولعل ذلك أجزاء بنف المادية، فضلاً عن عالمه النفسي الذي يتحكم في إداعته أو إخفائه.

ثانياً: إن من مقتضيات تلك الحقيقة أن الإنسان لا يملك ذلك فضلاً عن أجزاء الكون الخارجى، لما يجري في باطنه يشق له هو الوحيد العالم به، وأنه قادر على إخفائه أو إظهاره، وأن هذه القدرة تعطيه استقلالية تامة لا يحاسبه أحد عليها، فضلاً عنك لشخص أو بفنك له، وتتركك على هذا الحب أو البغض، وما تخططه في باطنك للتفكير، والخطوات الأولى التي تهيئها لذلك، أنت مخفى جداً إذا ظننت أن كل ذلك محبوب ما دلم في نفسك، فإنه من مقتضيات الملك الحقيقي لله أن كل ما يجري في باطنك هو مكتوف عند الله يعلم تفاصيله ولا يغيب عنه شيء منه.

ثم إن ما ستره الله عما حدث به نفسك وما أعدته وما نفذت به، يكشف لك أنك ما تملك من أمرك شيئاً، ويبقى على ذلك أنه سيحكمك، وتقرر الآية أنه حميد الكريم المتكفل الرؤوف بعباده الملك المقدر الحكيم. مقتضى ملكه وحكمته أنه يغفر ذنوب من نفلت إرادته بتكريمه والعفو عن ذنوبه، ويسلط العفوية على من لم يحد عن الطريق المستقيم ولم يسمعه ربه، ولا يعجزه سبحانه كبير ولا صغير ولا حاكم ولا محكوم ولا رئيس ولا مروض. كلهم ضائعاً تنفذ فيهم القدرة، قدرة من لا يخرج شيء عن الطوع لإرادته.

تحقيق مسؤولية الإنسان

المرتبة الأولى: ما يجري في النفس من الخواطر، وما يلقيه الشيطان في باطن الإنسان، وما يحدث به الإنسان نفسه من ولادات وهو لا يستطيع أن يكون حامياً من ورودها، ثم يطردها ويستيقظ، فهذه لا مؤاخذه عليها قطعاً ولا إثم وإن كانت دخلت تحت دائرة القضاء والقدر.

المرتبة الثانية: أن يبلغ تلك الموارث الذهنية إلى مرتبة الاستقلال والعزم دون أن تترب عليها أفعال خارجية، وهذا كالكفر والحسد. وهذه يؤاخذ عليها الإنسان ويحاسب عليها، وإن لم يصدر منه فعل يحقق الكفر أو الحسد في الخارج.

المرتبة الثالثة: أن يكون العزم قد خرج من دائرة الباطن إلى التنفيذ الخارجي وحل بين الشخص وتنفيذ ما عزم عليه حائل لا تدخل له فيه، وهذا ما يختلف في المواقف به.

المرتبة الرابعة: أن يعزم ثم يستيقظ ليمانه قبل التنفيذ ولا ينقض ما عزم عليه، وهذا لا يؤاخذ بما حدثته نفسه ولا بالخطوات التي قام بها للتنفيذ ما لم يكن فيها ضرر. وهو على رجاء أن يذاب عن إقلاعه عن الشر.

وَأَمَّا الرُّسُولُ فَمَا أَرْسَلَ إِلَهُ مِنْ رُسُلٍ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٣٠﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا مُسَاهِلِينَ أَوْ خَطَاكُنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا أَثَرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الْأَوَّلِينَ رَبَّنَا لَا تُخَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْمَوْلِيْنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

بيان معنى الألفاظ:

لا تفرق: يؤمن بهم جميعاً بلا فرق.

سمعنا: قبلنا ورضينا.

للمسح: الطاقة.

لا تؤاخذنا: لا تعاقبنا.

الإصر: الأمر الغليظ الصعب.

بيان المعنى الإجمالي:

تسجيل للصورة الكاملة للإيمان تتمثل في إيمان الرسول مينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وفي إيمان الذين استجابوا لدعوته، الذين أقاموا عقيدتهم على ما نزل عليه من الله. يتمثل ذلك في الإيمان بالله وملائكته وجميع الكتب المنزلة منه وبرسوله الذين يعثهم لإدائية الأمم السالطين، وصرحوا بأنهم يعتقدون أن رمل الله جميعاً تتبع رسالاتهم من منبع صدق واحد، فهم يؤمنون بهم جميعاً. ثم

تطلفت ألسنتهم بالتعبير عما استقر في قلوبهم فأعربوا عن عزمهم على الطاعة، وسألوا ربهم أن يغير لهم غير الله الذي يجنون نعمته يوم يحضرون إليه وقد تركوا كل شيء وراءهم: يوم القيامة. ثم إن الله، في عظيم رحمته، لم يكلف البشر ما لا يطيقون القيام به إلا بمشفة كثيرة، وقرر في سلق حكمته أن كل فرد مسؤول عما فعله وقدمه من خير أو شر. وعلم المؤمنين أن يتوجهوا إليه بهذا الأتيان المتضمن:

- (1) ربنا لا تعاقبنا إن نصينا القيام بما أقرمتنا به
- (2) ربنا لا تعاقبنا إن أخطأنا بفعل ما لم نترعه لنا بدون قصد للعصيان.
- (3) ربنا لا نكلفنا ما هو فوق طاقتنا.
- (4) ربنا لا نحملنا الأمر الثقيل الصعب على الفخو الذي حملته لبني إسرائيل.
- (5) ربنا أشعر لنا خطايانا.
- (6) ربنا أرحمنا برحمتك الواسعة.
- (7) ربنا أنت ولينا فلنصرنا على القوم الكافرين الذين يتربصون بنا.

بيان المعنى العام:

285- أمن الرسول... واليهك المصين

حقيقة معالجة القرآن: **إن** محمدا الرسول ﷺ أمر إيماناً تاماً واضعاً يربيه، ونجح في مهمته فشاركه المؤمنون أيضاً الذين استجابوا لدعوته، هو الإيمان الشامل بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا الإيمان هو تفصيل لما ألتفتت به سورة البقرة - **بقرتون يقفون** - ومن خصائص إيمان هذه الأمة العنود بها:

أولاً: نصرهم بما استقر في قلوبهم: فهم يؤمنون بجميع الرسل ولا ينكرون رسالة أي منهم. يعتبرونهم كلهم رسل الله قد جازوا بالحقيقة، ولن الحقيقة لا تختلف لأن الحق واحد. وهذا ما لا نجده عند أتباع أي دين من الأديان. فاليهود يذكرون نبوة عيسى ونبوة محمد، والقساري ينكرون نبوة محمد. وكثير من الأنبياء الذين قص الله علينا أخبارهم ينكرون نبوتهم. فدعواهم للتسلح دعوى كاذبة عتيا، وكاذبة سلوكيا. يشتم حرباً على الإسلام حرباً مما يخلق وحاً منها حتى يظهر وجه جديد.

ثانياً: إعلانهم بما استقر في قلوبهم من أن إيمانهم تجاوز العقيدة الجاهلية إلى الالتزام بمقتضيات الإيمان، ولأن عزمهم على الطاعة نكل ما جاء من ربهم عزم مؤكد، ويسألون ربهم أن يغير لهم ويخلصهم من رزية عفوهم في المصير إليه وحده يوم القيامة.

286. لا يحكف الله نفساً إلا وسعها... فالنصرنا على القوم الكافرين.

ثم إن الآية التي اختتمت بها سورة البقرة تتضمن:

أولاً: إعلاناً من رب الفكون أنه رحيم بعباده فلا يكلف أي فرد من أفراد البشر (إلا ما هو قادر على القيام به، أي إن قدراته الفكرية والمادية تمكنه من تنفيذ التكليف الإلهية.

ثانياً: أنه بعد التكليف بما يطيق الإنسان فعله، يعلن أن كل فرد مجزي بما قدمه له ثواب ما كسب من أفعال الخير، ويحمل وحده عقاب ما اكتسبه من الشرور. وهذا يعني ما تكفيه يهود أنهم غير محاسبين على شرورهم التي يسوقون بها، وكذلك ما يعتقد النصراني من أن الإيمان بتعذيب المسيح يكفر مئذات المؤمنين بذلك.

ثالثاً: ترتبط خاتمة سورة البقرة بخاتمة سورة الفاتحة. فسورة الفاتحة حتمت بدعاء علمه رب العزة للمؤمنين **(اهدنا الصراط المستقيم)** وتختتم سورة البقرة بهذا الانتهاء الذي هدى إليه لمة محمد ﷺ المنصر لأمور أساسية للنجاة:

أ: ربنا لا تعاقبنا إن نمينا أو أخطأنا. والإيمان لضعفه معرض للميمان، ومعرض للوقوع في الخطأ. ولأن الفعل الخطأ وقع والواقع لا يرفع. ولأن النسيان أيضاً وقع ولا يرفع. فينتقل المؤمن لربه أن يقبله يوم القيامة في مستوى السدين لم يخطئوا وصاحبهم البقرة فلم يصد منهم نسيان.

ب: ربنا لا نجعلنا يهود أو تكليف ثقيل علينا صعباً تفيدها. يستحضرون ما قصه الله علينا في كتابه عن بني إسرائيل، كنصرة البقرة، وتكليفهم بقتل أنفسهم وتحريم الحياة المدنية عليهم تائبين في الصحراء...

ج: ربنا لا تكلفنا بما لا نستطيع أن نفهم به مما يتجاوز طاقتنا.

د: يرتقي المؤمن وهو منجى بكليته إلى الله يسأله سؤال المعترف بالحاجة إلى اللطف فيما يكلفه به فيرتقي إلى التصريح بضعف المعترف بالتقصير والقصور، فيمد أكف الضراعة أن يعفو عنه، أن يبر عليه بالمعفرة التي لا تبقى للمعصية لئلا وإلى فيوض الرحمة الواسعة أن تشمله فكل مكرمة هي من رحمة الله وكل نعيم هو منها. ويتوج الانتهاء الذي علمنا الله إياه في خاتمة هذه السورة، بإبراز الارتباط بين الرب سبحانه وبين الداعي المؤمن، فإذا هو لربنا العبد بمسؤوله، العبد الذي لا يملك شيئاً، والمولى الذي يشرف العبد بعبوديته فيسأله ما يتجاوز به مطلب الفرد، وما أكثر ما يتجاوز ذلك إلى ما هو أعز عليه من كل شيء، هو أن ينصر الله لمة محمد على الكافرين حتى تكون كلمة الله هي العليا. روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد أنه قال: قال النبي ﷺ: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه¹.

¹ فتح الباري ج 1 - ص 431

سورة آل عمران

نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بالعينة الثانية لسورة البقرة، عند أياتها مائتا آية. فحسب عدد الأي هي في المرتبة الثالثة - سورة البقرة - سورة الأعراف - سورة آل عمران وهي السورة الثالثة حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول الثامنة والأربعون. أشهر أسمائها (سورة آل عمران) للتكويه السوراء فيها بال عمران وهم: - عمران - والد - مريم وزوجه - ولختها زوج - زكريا - ويحيى - عليهم السلام.

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ تَوَكَّلْ عَلَى الْكَتَابِ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزِلُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِن قَبْلِ هَٰذَا بُدِئَ السَّمَاءُ وَانزَلَ الْفُرْقَانُ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

معنى الكلمات:

الحي: الحياة للثقة به التي يفارنها التصرف في تكون بالحكمة.

القيوم: المتصرف في كل كثر بما يحفظ له كيانه حال وجوده.

الكتاب: القرآن.

لما بين يديه: لما جاء قبله من كتب والمصحف.

التوراة: الكتاب الذي أنزل على سيناء موسى عليه السلام.

الإنجيل: الكتاب الذي أنزل على سيناء عيسى عليه السلام.

الفرقان: الفارق بين الحق والباطل.

المنتقم: المبالغ في العقوبة.

بيان المعنى الإجمالي:

فتتحت هذه السورة كما فتحت سورة البقرة بالحروف الثلاثة (ألف - لام - مي) ولتتبع بذكر اسم الجلالة (الله) لتجري عليه الصفات المميزة له. فهو الحي،

وهو العنبر لكل شأن من شؤون الموجودات. ومن ذلك أنه نزل على قلب سيدنا محمد، فكتاب (القرآن) يسير في جملة وتفاصيله مع الحق ويمسح بالحق معه، فهما متلازمان. وهو لذلك بصدق ما جاء من الكتب السابقة التي منها التوراة للكتاب الذي نزل على موسى عليه والإصحاح للكتاب الذي نزل على عيسى عليه، ثم خص القرآن بمزية هي أنه يفرق بين الحق والباطل. حذر الكافرين بهذه الأدلة الواضحة بأنهم سيعتقون بسبب رفضهم لما أنزله الله أشد العذاب. والله عزيز لا يغلبه شيء، وهو شديد العقاب لمن تعرض لسخطه. ومن مظاهر عموم تصرفه وكونه القائم على الكون ما قد يغفل عنه كثير من الناس: فإله هو وحده الذي تولى خلق الإنسان في رحم أمه على تقدير منه على الصورة والكيفية التي يريد لها سبحانه، لا إله يتصرف هذا التصرف غيره. إنه العزيز الذي يجري مقاديره على أساس الحكمة البالغة.

بيان المعنى العام

1- الم -

فتحت هذه السورة كما فتحت سورة البقرة بالحروف الثلاثة التي تقرأ مفصولة عن بعضها، وقد قلنا الوائي الذي يرجح في بيان المقصود منها.

2- الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

بلى هذه الأحرف ليرتد له الجلالة (الله) ليجري عليه فيما يلي ما يميزه سبحانه بالألوهية الحق التي لا يشاركه فيها أحد. وقد اعتنى القرآن وأكد في حديث المناسبات ما يتميز به الله من الصفات والكمالات التي لا يشاركه فيها أحد ليرز بصفة حلية للتصور الإسلامي لله. وفي كل مناسبة يختار القرآن ما يتناسب مع المعاني الثابتة ويتبين ذلك: أولاً - وصف الله بأنه حي الحياة الكاملة التي تليق به سبحانه، بما يفيد أن غير الحي لا يصلح أن يكون حياً. وفي مدارد لعقيدة عبدة الأوثان الذين يعتقدون ما لا حياة فيه، وللعقيدة النصارى الذين يعتقدون عيسى عليه السلام مع توريثهم أنه عذب ومات.

ثانياً القيوم: الذي يتصرف في كل كبيرة وصغيرة لي هذا الكون من الالهة إلى أعظم الذرات. فيثبت وصف القيوم أن كل ما يجري على المخلوقات جميعها هو بإرادته وتخييره وقدره. وفي ذلك ما ينبغي نفياً قطعاً عقيدة النصارى أيضاً الذين يزعمون أن عيسى إله، وهو لم يستطع، حسب عقيدتهم، وما هو مثبت في كتبهم، أن يمنع نفسه من عذاب أعدائه. كما ينبغي هذا الوصف ما يعتقد بعض الفلاسفة من أن الله خلق للكون وأعطاه قوانينه، ثم تركه يجري على تلك المسن.

3-4: نزل عليك الكتاب بالحق... ذو القعدة.

ثالثًا: من قبامه على التكون أنه نزل على سيدنا محمد ﷺ القرآن الذي يهدي البشرية إلى ما بصم لها بقامعه السالمة في الدنيا والأخرة، وربطه بالحق ربطًا لا يخل. فكون القرآن منزلًا من عند الله، يقوم شاهد صدقه، أنه مهما اختلفت الظروف والأحوال، فبذلك تجده مقارنًا للحق وتجد الحق متوفا له لا يتصلان.

رابعًا: مصداقًا لما بسين يديه، الحق واحد لا يختلف، والباطل له صور كثيرة وأشكال مختلفة. ولما كان القرآن منزلًا من عند الله فإنه بالضرورة يصدق ما جاء في الكتب السابقة التي أنزلها الله على رسله. ومعنى ذلك أنه يشهد لما جاء في تلك الكتب التي سبقته من صحيح العقيدة.

خامسًا: ولأن التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس. والله لا يعتنى بخلافه لتقويم أمرهم. فأنزل كتبه على رسله بمنها. للتوراة المنزلة على موسى ﷺ والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام. وقد سبقت القرآن كالمهدة له.

سادسًا: ولأن القرآن. وميز القرآن على جميع الكتب السابقة بأنه هو الحكم فيما يعتقد اتباع تلك الديانات التي اختلط عليها الأمر بما أدخلوه من تحريف في كتبهم، لاختلاف بين شاطئ الذي تغذ إلى كثير من التصورات المعقيدة عند اليهود والنصارى، وبين الحق الذي هو أصل تلك الكتب، ميز الله به القرآن بوصفه بالقرآن. ما يقتضيه العقل أن يفضل للناس على هذا الدين ولأن يخلصوا التصيب والعناد. وينتق القرآن من يغفل هذه الأدلة الواضحة المعقولة بالرفض، يلذره بأنهم بحرصور. أنفسهم لعذاب الله الشديد. إن الله عزيز لا يغلبه شيء عقابه قوي بالغ.

5-4: إن الله لا يخفى عليه... الأنبياء

رابعًا: تنبأت الآية على الله الخفي بكل ما يحويه هذا التكون في ظواهر الأرض وباطنها، وفي السماوات بما تشمله من كواكب ومجرات، لا يخفى عليه شيء منها مهما دق، ويوقظ الإنسان لاعتزال ليتأمل في هذه الظاهرة التي تجري على كل إنسان وتتحكم في مصيره وهو قد لا يلقى لها بالًا؛ فإنه هو وحده الذي يقدر لكل إنسان وهو لقيحة، في رحم أمه. جميع خصلصه التي تكون عليها صورته في المستقبل. شكل كل جزء من أجزائه، حفظه من الفناء، لكون بشرته، لكون عينيته، مدار قوته، فصاحة لسانه، وكل ما تصور من المميزات لكل فرد التي جعلت كل إنسان في هذه الدنيا صورة فريدة ليس لها مثيل. إن هذا التصرف يقوم شاهدًا على

إن الله يقرر بالعزة لكل شيء هو طوع أمره وإرادته، وإن مسا يصدر عنه يمثل الحكمة الكاملة فهو العزيز الحكيم.

هُوَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مِنهُ: آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ، ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦٦﴾ رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٦٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

المحكمات: واضحة الدلالة.

أم الكتاب: الأصل الذي يرجع إليه.

المتشابهات: الآيات التي في دلالتها على المفصود خفاء.

القلوب: للعقول.

زيف: ميل عن الحق والصواب.

ابتهاء: قصد.

بيان المعنى الإجمالي:

تناهت الآيات محددة للعقيدة الإسلامية في الذات الإلهية. فالله هو الذي أوحى لدينه وأنزل عليه القرآن. هذا القرآن الذي أولاه الله أن يكون آياته على صنفين: صنف واضح الدلالة لا خفاء فيه، وهذا هو معظم القرآن وإليه المرجع في فهم نصوصه، وصنف يحتمل أكثر من وجه لا رجحان لواحد منها، وهو المتشابه.

وكشفت الآية عن موقف الناظرين في متشابه القرآن فصنفتهم إلى صنفين: صنف الراسخين في العلم وصنف الذين فسدت عقولهم. وتوجهت العناية لفضح الصنف الثاني أولاً لرداه لخطورهم فكشفت عن ملامحهم: عقولهم غير مستقيمة، يتفكرون عن الآيات المتشابهة لا لفهمها وإدراك محملها المعقولة، ولكن ليقتلوا الناس عن دينهم صارفين تلك الآيات إلى ما يزعزع الإيمان ويذرع الشك، أو ليؤولوا الآية على المحمل الذي يوافق أهواءهم. مع أنهم لا قدرة لهم على التأويل الصحيح الجامع لأطراف القرآن. والعلم الكامل لتحقيق لجميع الآيات المتشابهة في القرآن هو الله وحده. والمؤمنون الذين اختلطوا بالقرآن حتى حصلت لهم بذلك مدارك مستقيمة

فيه، موقفهم من الآيات المتشابهة أنهم يقدمون مقنعة بين يدي نظيرهم هي: أن القرآن كله حق من عند الله، ثم يبنون على هذه المقنعة تسليط الضوء على التشابه بالعودة إلى الآيات المحكمات يستلهمون منها ما يرجحون به بعض الأوجه، أو ما يفرض عليهم التوقف. انتهى الله عليهم بوصفهم بأنهم أصحاب الحقول الراجحة. ويعلم الله لمة الإسلام، بقيادة نبيها عليه الصلاة والسلام، أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء التالي: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا غولنا فأطلقك حتى تثبت على الطريق الذي ميزنا فيه، وهب لنا من لدنك رحمة: لينتهي أن يقرن ثباتهم على الحق بأن يحولهم برحمته التي وسعت كل شيء، مما يتعلق بالمعاد والمعادلة، وبالمطالب الجسمية، وبالنفوح الروحية، وكلها من عند الله. ربنا إليك جامع الناس ليوم لا رب فيه إن الله لا يخلف الميعاد: علمهم أن يتفكروا أنفسهم في ختام دعائهم باستحضار المال الذي يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى رحمة ربه يوم القيامة المحقق محسبه.

بيان المعنى العام

7- هو الذي أنزل... الألفاظ

تواصلت غاية القرآن بتحديد خصائص الذات الإلهية في التصور الإسلامي الحق. هزنى من تقرير أن الله هو المؤثر في كل إنسان من بداية تكوينه في رحم أمه، ترقى إلى إثبات أن الله هو وحده الذي أوحى للأنبياء، فأُنزل عليه آيات القرآن. والقرآن كلامه وهو أعلم بما أنزل، فكشف عن بعض خصائص القرآن في هذه الآية، وذكر أن آيات القرآن حقائق: آيات محكمات وهي التي كان التعبير فيها كاشفا عن المقصود منها، فهي واضحة قذالة إما لأنه لا احتمال فيها أو لأن الاحتمالات المفروضة مرجوحة صيغة بطردوها وضوح بيان النص. وهذه الآيات هي معظم القرآن، وهي التي فيها المرجح في فهم كلامه سبحانه تشبيها لها بالأم في العلاقات البشرية.

آيات متشابهة: وهي التي تحدث أكثر من وجه، وبالزجج إلى الآيات الصريحة والنوفا والمقامد يوفق العلماء للفناء في علم القرآن إلى الكشف عن المراد منها، وبعضها يخفى مدلولها خفاء يحار للناظر المصنف في الكشف عن المراد، كالحروف المقطعة في أوائل السور وكقوله تعالى: **إِذْ بَارَأَ نَسْفَاقِهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ**¹.

والآيات المحكمات هي معظم ما جاء في القرآن، وإليها الممزع في التعرف على العقيدة والشريعة والملوك، ولا إشكال فيها.

أما الآيات المتشابهة فيتعلق بها أمران:

أولاً: بيان موقف الناس من الآيات المتشابهة.

ثانياً: إبراز حكمة وجود المتشابهة في القرآن.

موقف الناس من الآيات المتشابهة

تكفل القرآن ببيان موقف الناس من الآيات المتشابهة وقسمهم إلى صنفين:

أ: صنف فسدت عقولهم وانحرفوا عن الصراط المستقيم وحملهم بعضهم للقرآن وللور الذي جاء به، حملهم على إهمال الآيات المحكمة، واقتصر عن الآيات التي تحتمل أكثر من وجه (المتشابهات) لا يربطوا بينها وبين ما جاء في الآيات المحكمات، ولكن يشككوا الناس في القرآن وليفتوهم عن دينهم بتخويلهم لهم أن القرآن مناهات متناقض، أو ليصرفوا الكلام عن الاحتساب المتسق مع طريقة القرآن فيؤولونه بما يلائم قسدهم في الإنكار وإضلال الناس، وأحال فهم ليس لهم علم بطرق تأويل الكلام على ما استقر عليه الأمر في الأساليب العربية.

ب: صنف آخر ترمى بالقرآن وبأسانيبه وأرك لمرار العربية وتصاريه، للكلام، وتمتعت أنظاره في الكتاب العزيز فاستقام له من تلك وضوح في الرؤية يشكك بها كثيراً من القوم، ويفتح عليهم وتواء مغلق قد لا يتبين وجهها في بادي الرأي، وقامت في مداركهم حقيقة يفنية أولى: أن القرآن كلام الله كله حق وكله صدق، وأنه لا يمكن أن يوجد فيه تناقض أو اختلاف أو ما يناقض المعقول. وتبع ذلك أن القرآن وحدة كله من عند الله فكلاماً عزم للناسظر فيه اشتباه فالولجب العود إلى المحكمات. وقامت في عقولهم أيضاً حقيقة ثالثة، هي أن إدراك كل ما جاء في القرآن إجمالاً وتعميلاً وبلوغ اليقين هي قمر من كل آية من القرآن هو الله وحده، فهو الذي أنزل الكتاب وهو أعلم به. وبناء على ذلك فهم لا يجوزون على حمل آية من القرآن على معنى لم يهد إليه أسلوب القرآن في طريقته، أو بخلاف مقاصده أو يتأقن تأويله. روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أي سماء تظللني وأي أرض تقبلي إذا قلت في كتاب الله برأيي. وبهذا فإن علم المراد من كل آية من آيات القرآن قد اختص به الله سبحانه لا يشركه أحد في ذلك وهو ما يظهر من قوله تعالى: **وما يعلم تأويله إلا الله.**

ويشكى القرآن على هذا الصنف، بلتهم هم الذين تأملوا لإدراك ما مكنهم ربهم من فهمه ووقتها عند ذلك، فهم أصحاب العقول الراجحة التي لا تخطئ خبط عشواء. وثانياً: ليرى حكمة إسماعيل القرآن على المتشابه.

أولاً: إن القرآن أنزل بلسان عربي جرى على ذلكم قسطن وعلا في أسلوبه فكان معجزاً. ومن وجوه إعجازه تعبيره عن المعاني بطرق الحقيقة والمجاز على ما في المجاز من محامل عديدة، ومجالات صريحة تتسابق فيها الأذهان. فتختلف وجوه الاحتمال في بيانه، ويكون هذا الأسلوب لشدة تأثيره وأمتع للراصين في العلم، ومزلق يقصدها الذين في قلوبهم ريغ.

ثانياً: القرآن ليس كتاباً موقوف أثره على وقت نزوله، بل هو الحزق ومهادي للبشرية إلى يوم القيامة، فكانت صياغته صالحة لكل مستوى حضاري، فتجد المعنى قد لا يكون واضحاً في عصر أو يفهم على وجهه، حتى إذا تطورت معارف البشرية وجدت القرآن في طريقة تعبيره لا يتخلف عن الحقيقة ولا يفتن بها، فيرسل بعض التشابه والتفهم المعرفي للبشرية.

ثالثاً: إن القرآن قد اعتنى بما وراء الطبيعة، وبين ذلك بالكلام قد يسمو إليه إلى مستويات تكون معبرة عن الحقيقة، ولكن بلوح الأذهان لإدراك المعنى المفصود صعب تحققة للتفاوت الكبير بين لؤضاح اللغات وبين المفاهيم الماورائية.

9-8. وثمة لا تزعج... المعجزة.

يختم هذا التقرير بتقرير الرسول والمؤمنين أن يتوجهوا إلى ربهم بهذا الدعاء: ربنا لا تزعج قلوبنا بت إلا حديثاً، إنه بعد أن كشف عن موقف الذين لحرفوا فتبعوا المتشابهات قصد فئة الناس وإضلالهم وتصرفوا عن الأوثان النبيلات والهداية، وفي ذلك خسارة كبرى في الدارين، والمؤمنون على حذر من العاقبة التي لا يضمنها إلا عور من الله فيعلمهم بهذه الآية أن يتوجهوا إليه ليثبت قلوبهم على الهداية التي تقضل بها عليهم، ولو لا بضله وأطلقه ما اعتدوا أن يطلبوا من ربهم أن يشملهم برحمته التي وسعت كل شيء. فهذا الانطلاق الإلهية التي تمنعهم بالحماية في دينهم وعقولهم وأبدانهم، إن حبة الرحمة من الله هي أعظم حبة تحقق للإنسان السعادة. وهباته سبحانه لا تحصى.

9- ويختم الدعاء بالتوسل أن يكتب لهم حسن العاقبة، فيعبرون عن رغبتهم بأن الله سيثبت الفهم جميعهم في يوم، يقين قنومه لاشك فيه، إنه يوم وعد الله أن يجمع للناس فيه، ومبداً لا يخلف الميعاد.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابٌ هَٰذَا قِرْعُونٌ وَالَّذِينَ يَرِيقُونَ كَذِبًا يُكَذِّبُوا بَيِّنَاتٍ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

بيان معنى الألفاظ:

لَنْ تُغْنِيَ: لن تنفع.

وقود: ما يحترق في النار كالخشب.

كذاب: مثلهم كمثل.

أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ: سلط العقاب عليهم بسبب ذنوبهم.

بيان المعنى الإجمالي:

يقرر القرآن حقيقة: أن متاع الدنيا من أموال ولولاد لا تنفع أصحابها للكافرين، وأنهم سيكونون وقودا للنار تشتعل بأجسادهم. وأن الله سيياعثهم بنقمته وعذابه في الدنيا فيكون مثلهم في استنصالهم كمثل آل فرعون ومن معهم من المكذبين، سلط عليهم عقابه بسبب ذنوبهم، فليحذر المكثرون لقمة الله فإله سبحانه شديد العقاب.

بيان المعنى العام

10-11، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ

يعتز المؤمنون بصلاتهم يربهم، ويجتزون بذلك الطمأنينة، وتلهج لسميتهم بالشعاع إليه سبحانه لينبئهم كما جاء في الآية السابقة، وفي المقابل يعتز الذين كفروا بالله ورسوله بما لهم من لولاد وما جمعوه من أموال. وهو غرور منهم في كل ذلك لا يدفع عنهم شيئا من عذاب الله. وفي الآخرة تكون أجسادهم المادة التي تشتعل بها نار جهنم. وأما في الدنيا فإن مثلهم سيكون كمثل آل فرعون ومثل المكذبين بإيات الله البينات الدالة دلالة واضحة على صدق ما جازوا به من عند الله، ممن جرت عليهم سنة الله في تسلطه عقوبته الماحقة جزاء ما ارتكبوه من معاصي واقتربوه من ذنوب. والله شديد العقاب لا يفلت من عقابه أحد ممن قدر عقابهم في الدنيا.

فَلِلَّذِينَ كَفَرُوا مُسْتَغْلَبُونَ وَفُتِنُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُسَمَّرُونَ فِيهَا ﴿١٢﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ فَتَةً تَقِيلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ تَرَوْنَهُمْ يَتْلُوهُمْ زَاكِيَ الْقُرْآنِ وَاللَّهُ يَزِيدُ فِيْ ضَرْبِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِ الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

بيان معنى الاتفاق:

تحتضرون: الحشر الجمع والمروق.

ثمهم: أصله للفرش وجهن أسوأ فرش.

الغلة: الجماعة من الناس.

رأى العين: الرؤية بحاسة البصر.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الرسول أن يرهبهم وأن يظهر لهم قوته، فيوجههم إلى جيوش المسلمين ستؤزمهم، وأن يصيرهم بعد موتهم إلى جهنم وهي أسوأ مهلة. إن ما تحقق أمام أبصاركم في عقبة الجماعة المؤمنة التي تجاهد في سبيل نصره دين الله، وعاقبة الجماعة الكافرة، وما أحاط بالواقعة من ضلال أبصاركم وضل تدبيركم، فأخطأتم في عدة المغفلين المؤمنين، فهزموكم. إن الله يريد بقصره من يشاء. وفي ولاعة بدر هذه عدة لتتنبهوا أن صولات الكفر هي إلى الهزيم.

بيان المعنى العام:**12-13، قل للذين كفروا... الأبعد.**

أمر الله رسوله أن يسمع الكافرين ما يزلهم ويحل الوهن في عزائمهم. وأن يظهر لهم قوة المسلمين، لئلا أن يوجه الكافرين بالمال الخاسر الذي يترصد لهم: إن جيوشهم ستكسر ومنهم ثمر هزيمة، وأن مظاهر عزيمتهم في الدنيا ستحول إلى ذل وخيبة ولن عاقبتهم في الآخرة هي نار جهنم. ولا أسوأ وليد إيلام من أن تكون العقوبة بما مهدوه لأخوتهم: ذل الله الموقدة. هذا التهديد سينتقل لا محالة، وشاهد ما تم في غزوة بدر الكبرى. إن في هذه الغزوة لدليلاً طاهراً، جماعة مؤمنة خرجت تقال في سبيل نصره دين الله وإعلاء كلمته، وجماعة أخرى كافرة تقال ولا مبدأ لها ولا سند. وما عند الجماعة الكافرة من أسباب الغلبة، من العبد الكبير من المغفلين الأعداء، تحول إلى سبب للهزيمة، وضللتهم حولهم، وقنف في قلوبهم الخوف لما غفروا عند جيش المسلمين بضعف عددهم، وهم أمامهم ينظرون إليهم، ولكن لقد الله أبصارهم وانخدعوا بما رأوه بأعينهم. ولما اصطف الجيشان كانت الرغبة من قوة جيش المسلمين قد خلطت عزائمهم ووهنت قواهم. والله هو المنصرف فيؤيد بأسباب النصر من يشاء. لقد دخلت عوامل ما حبسها جيش الكافرين، وما حبسها أيضاً جيش المسلمين، ليكون في ذلك عبرة يؤيد المؤمنين وثقوا بأنهم على الحق وأن الله معهم.

ثَبَرَ لِلنَّاسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْغَنَى وَالْخَيْلَ الْمُسَوَّمَةَ وَالْعِزَّ وَالْحَرْثَ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ عِنْدَهُ خِزْيَانُ الْعَقَابِ ﴿٥﴾ • قُلْ أُوَفُّكُمْ بِمِثْلِ مَا رَزَقْتُمْ لَكُمْ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا
عِنْدَ رَبِّهِمْ خَيْرٌ لَّكَ يَخْتَارُونَ مِنَ الْعِلْمِ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَوْمَ الْوُجُوهِ مَنَظَرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ يُخَوِّضُ بِالْعِزَّةِ الَّذِينَ يَشَاءُ لِيُخَوِّضَ لَكُمْ لَكُمْ
لَقَافِرٌ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَإِنَّا كُنَّا لَآلِئِينَ بِالذِّكْرِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُفْقِرِينَ
وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ وَالْأَسْحَارَ ﴿٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

القناطر المقنطرة: الكميات الكبيرة من الذهب والفضة والنقود.

الخيول المسومة: المسببة في مرابعها.

مقاع: ما يستمتع به الإنسان مدة.

خزى العقاب: المرجع الحسن أي العقوبة الحسنة.

هل أؤتيلكم: هل أعطكم.

القاتنين: هم المودون للعبادة على أكمل الوجود.

الأسحار: جمع سحر وهو مدح الليل الأخير.

بيان المعنى الإجمالي:

فطر الإنسان على حب ما في مظهره جمال يفري به، مما تشبهه الأنفس وتتعلق
إليه، وحدث الآلة من ذلك شهوة الجنس: حب الرجل للمرأة والعكس، وإنجاب
الأولاد، وجمع الأعداد الكثيرة والأوزان الثقيلة من المعدنين النقيمين: الذهب
والفضة، والخيول النشيطة القوية المطلقة في مرابعها، والأنعام من البقر والغنم
والعز والإبل، والحرث في المزارع والحقول. يتعلق الناس بهذه الشهوات
بمقتضى فطرتهم، ويجنون فيها متعة، ويقر القرآن بذلك ولا يعكس النظرة، ولكنه
يوقف الناظر إلى أن الشهوات تزول سريعاً، وإن النعيم الذي أعده صالح عباده
عندما يرجعون إليه يسمو على تلكم الشهوات بتوابعه وحسنه. وتحول الأموات
بصدور الأمر الإلهي إلى رموله أن يخبرهم بتفاصيل ما هو خير من شيا
الدنيا، مما أعده الله للذين حلت التقوى في قلوبهم، جنات تتخلل الأنهار الجارية،
أزواج مطهرة من العيوب الجسمية والخلقية، وفوق ذلك يحمل عليهم رضوان من

الله، والله عليم بحقيقة عباده فلا يحل رضوانه على المرائين. ويتميز هؤلاء المرضي عنهم بأنهم هم الذين يخلصون في النوحه إلى الله، تعرب ألسنتهم عما استقر في قلوبهم من الإيمان ويذعنون ويهد بالمتفجرة لما قصروا فيه وأن يحرمهم من عذاب النار. هؤلاء الذين نوبت بهم الآيات هم الذي تصفوا بصفات الكمال: الصبر، والصدق، وحسن العبادة، والتصديق على المحن الجين، والتوجه إلى الله في ثلاث الليل الأخير بالاستغفار.

بيان المعنى العام:

14- زين للناس والله عنده حسن المآب،

هذه الآيات تكشف عن حقيقة التركيب الإنساني وصلة هذا التركيب بالحياة الدنيا، وذلك ليرتد على عرض تلك الحقيقة موعظة للمسلمين. لقد أكت افراؤ في حديثه عن خلق الإنسان أنه مركب من قوى: هي طبيعته التي يتميز بها عن الكائنات الأخرى. وإن القرآن لا يعمل على قمع تلك الفطرة ولكن يعمل على إعلالها. يقرر القرآن أن البشر فطروا على الفلوق بالشهوات، وهي قوى مؤثرة لديهم. يحتفون أنفسهم بها حيث المحب بما يحبه. عند القرآن منها: الشهوة الجنسية من تعلق الذكر بالأنثى والعكس. وما ترقى هذه الفريزة تعمل في توجيه سلوك الإنسان إلى مناح مختلفة، وشهوة إنجاب الأولاد، ويحسر القيت التعقيم بتدليس وظلام في أركانه، ويجد الأبوان في تسلطهما لوجودهما، وأما لها عند العجز. وشهوة شاك المال من الذهب والفضة والنقود، ويؤدك شراهة وفرحة كلما تكشف مخزونه وتضاعف ما تحويه خزائنه من قناطر المعنئين للفيمين: الذهب والفضة. حب الخيل المتعلقة في مراعيها وهي كلها نشاط وحيرة وجمال. وما ترقى الخيل إلى اليوم مرغوبا في اقتنائها لتعطي لفاظها فضلا عن مالها لتشراحا، وحب تملك الأعمام من الغنم والفر والجمال. وكذلك المزارع تمتلئ بها المحروقة بما تنتجه من ثمار وجوب ودهور التي تبهج النفس وتفر بها العيون، يفر القرآن بما لهذه الشهوات من حظ. ولا يقمع الفطرة، ولكن يدعو الإنسان بعد هذا المرض أن لا يجعل كل همه في هذه المباح والممنوع المحدودة لزمان فتأليه عن إدراك ما فيها من جوالب ماقية، وليعلم أن ما أعد الله عنده محفوظا للمصلحين من عباده مما سيلفونه في ما لهم، هو الأكمل والأفضل.

15- قل آللهم اكسرهم بالصلاة.

يواصل القرآن الموعظة، فيقول الله لنتيجه قل: وهو ما يولف المؤمن للاستماع والتفني، هل تريدون أن أعلمكم بما هو خير من تلكم الشهوات الفطرية؟ ويأتي

الجواب مفصلاً لما هو خير: جنات تتخللها الأنهار الجارية لا يكدر صفوها خوف الزوال، إذ يستقر في ساكنيتها الإحسان بالخلود، ولن ما رزقوه باق لهم لا يتحولون عنه ولا يلحقه فناء ولا فبول، أزواج مطهرة من العيوب الخلقية والخلقية، وما لكثير عيوب البشر في هذه الحياة مهما أوتوا من وسامة ورزقوا من جمال. إن تكلم للفنان لا تعلق بالمؤمنين والمؤمنات في الجنة، مما يجعل الأمن والتكامل بين الزوجين يبلغ غاية مدى التوافق والحب، يشوح هذا التعميم بطول رضا الله عنهم، ذلكم الرضا الذي أسنده القرآن لأسم الجلالة: **(رَضُوا مِنْ اللَّهِ)** الذي يعلم حقائق النفوس ومخائليها فلا ينال هذا الرضا إلا من طهرت نفسه وزكت حقاً.

16-17- الذين يقولون: -والاستغفرين بالأسجار-

يرسم القرآن ملامح عباد العتقين بإجراء هذه الأوصاف عليهم: الصابرين: تتفاوت قيم الناس بما أوتوه من فتوة على التحمل وعلى المداومة، وعلى الثقة بالنفس وعدم اللجوء عند المصائب والملمات، وبالصبر على الخير فلا تدلاره النعمة ولا تنسيه ضعفه وحاجته. الصافين: الثابتين على الحق قولا وعملا، فحين يطمئن إليهم الناس في تعاملاتهم، ويتشوق بهم.

القاتلين: الذين إذا رفعوا بين يدي ربهم للعبادة استحضروا جلال الموقف فاندفعت مشاعرهم وأرواحهم في المواجهة للمطهرة للنفس والمعلية لها إلى مقامات القرب. المنفقين: الذين يجودون بما آتاهم الله من فضل رزق على المحتاجين من إخوانهم المؤمنين مما يؤكد التحام المجتمع الإسلامي ورفقه.

المستغفرين بالأسجار: الذين يتركون مصالحهم في السنين الأخير من قليل، عندما تبدأ الحركة وتكون النفوس لشدة حساسية وألمح صفاء، ولتمسحاً، فيوجهون إلى ربهم طالبين مغفرته ورضحه وتجاوزة عما قصروا فيه، هؤلاء شهد الله لمنهجهم بالخيرية، ونوه بهم ليعمل المؤمنون على سلوك مسلكهم، والأخذ بطريقتهم.

شهد الله أنه لا إله إلا هو بالملكوت وأولوا العلم قايماً بالعبادة لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴿١٦﴾ إن الذين عبدوا الله الإسلام وما أحلفوا الأديت أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم. ومن كفر فبأنه الله ذلت الله صريح الحساب ﴿١٧﴾ فإن حاكوك فقل أعلمت بغيري أم أكلت. وقال للذين

أَوْثُوا الْكِتَابَ وَالْأَيْمَانَ أَنْتُمْ كُنْتُمْ قَدْ أَقْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكُمُ النَّبِيُّ وَآلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بيان معنى الآيات:

شهد الله: شهادة الله: إعلان للحقيقة بما قلم عليها من الله.

المصدق: العدل.

بغيا: تجاوزا للحق.

حاجوكم: جادلوك.

المتبينون: المتبركون.

بيان المعنى الإجمالي:

يعلن الله مفررا الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها دين الإسلام: (وحقيقة الله وتصرفه في الكون). وذلك بما نصب عليها من شواهد العقل والوحي والظنورة. ويعلنها أيضا الملائكة بما يبلغونه من وحي، وما يعبرون به عن إيمانهم، ويعلنها العلماء بما يقيمونه من حجج عليها. إنه العزيز الذي ينصاع كل موجود لإرادته، الحكيم في فعله، إن الذين الصحيح، بعد البعثة المحمدية، للمعتبر عند الله. هو الإسلام، وجميع الأديان ما كان من وضع للبشر لو من الأدیان المستندة إلى الرسل السابقين التي حرقها أشاعها لا يقبلها الله ولا تنجي أصحابها. وهذا التحريف الذي تفترون باختلاف أهل الكتاب، الاختلاف الذي تفرقت به أصحاب الحقائق السماوية في أديانهم وفي قبولهم لدين الإسلام، حصل بعد أن بلغهم العلم الصائق من الوحي الذي جاء به رسلهم. لقد كان اختلافهم وكفرهم بسبب ظلمهم وتجاوزهم واستكبارهم عن الإدعان للحق، هذهم الله بأنه سريع الحساب لا يحتاج لتعداد سيئاتهم تبعا لحدوثها فيجزئهم بعثه عن كفرهم. ويرشد الله نبيه عند لجأ الكافرين باستمرارهم على الحدال بأن يعلن: ٤٠ فلما لتوحيهاتهم، حقيقة يقطع عندها العدل: أسلمت علي وروحي وجسمي وكل ما أملك، فجعلته خاضعا لله راضيا بأحكامه، وكذلك للذين تبعوني فهم على هذا المبدأ يسبرون، وأمره أن يتابع الدعوة إلى الإسلام، فيدعو اليهود والنصارى ويسألهم هل أسلمتم وجوهكم لله فإن لم أسلم وجهه لله فقد اهتدى لدين الحق. وإن أعرضوا عن دعوتك فلا تحزن فلما كافت بإبلاغ ما أوحاه الله إليك وقد فعلت، والله لا يخفى عنه شيء من أمر العباد، فهو يعلم حرصك على التبليغ ويعلم غداهم وإصرارهم على الكفر بما يتبعه من جزاء.

بيان المعنى العام:

18- شهد المسلم الحكيم.

ترتبط هذه الآية بما فتحت به السورة (**إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**) فيؤكد مضمونها أن الله قد أودع في الكون وفي قلوب الخلق وفي القطرة السليمة ما ينلدي ويشهد بأن الله واحد لا شريك له . وما يثبت أنه أقام هذا الكون على سنن وأنظمة لا جور فيها ولا اختلال، رابطا الأسباب بمسبباتها والتفاح بمفدماتها، فهو العدل المطلق الساري في كل كبيرة وصغيرة . وذلك تبعاً لعزسه التي لا تغلب، فيصاع كل المخلوقات لتقديره الحكيم . وهذه الشهادة التي يطلق بها ما أودعه الله في الكون، يملها أيضاً ملائكته في تمجيدهم لذاته وفيما بلغوه من وحى وكلفوا به من مهام تحقق ذلك العدل والنظام . وكذلك من فتح الله على قلوبهم المعرفة والعلم الصحيح الذين يؤمنون في المجتمعات البشرية بالاحتجاج على ذلك .

19- إن الدين عند الله الحساب.

إن كل التصورات التي يبن بها البشر سواء استندت إلى أيمان سملوية حرفها الأتباع أو إلى مخترعات من وضع البشر كلها زائفة وباطلة . ولا دين يوصف بالمشق والحق . (لا دين واحد هو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ) إن السابقين من اصحاب الديانات قد اختلفوا: اختلفت يهود فيما بينهم في حقيقة العبادة، وفي تصور الله حل وعلا، وفي تشبيهه بخلقه، واختلفت نصارى بين مثبت النبوة وناف لها، وبين من ينقم على أنه مثل الله يفر ويحرم . وبين اليهود والنصارى فكانت اليهود: ليست للنصارى على شيء وقالت النصارى: ليست لليهود على شيء . واختلفوا في وصف الدعوة المحمدية، بقصرها على الأميين أو بتكديدها . إن هذا الاختلاف الذي بلغ الأسر العقيدة والعبادة حصل بعد أن جاءهم الحق على لسان وسلمهم وعلى لسان محمد ﷺ . وما كان الحامل لهم على هذا الاختلاف إلا اتباع ما عبرت به نفوسهم من الظلم وضيق الحق لتحقيق مكاسب دنيوية فكل ينفي الزمانة ويطلوع الحقيقة الإلهية للزواله . ويبتدع الله بأن حساب الله سريع أنه لا ريب فيه، وإلهم الدنيا تتسارع إلى نهايتها وبما أن علمه تعالى غير مجزأ ولا يتابع للزمان، إذ علمه واحد، فحسابه للظالمين سريع.

20- فإن حاجوكم بالعباد.

يتوجه القرآن إلى النبي مرشداً له، بعد لحاج الكافرين في عبادهم، فيقول له: إن واسلوا جدالك فواجههم بإعلان هذه الحقيقة الدائمة، قل: أسألت وجهي لله، أي:

قلبي وروحي وعقلي وبدني ومشاعري وكل ما أملك، طوعتها لحرب العالمين راضيا بأحكامه، وكذلك كل من اتبع الهدى الذي جئت به. وقيل أيضا مناديا باليهود والنصارى والأمين، وهم (المشركون من العرب والذاهريون منهم ومن يدعي أنه على دين إبراهيم) وعبر عنهم بالأمين لأنهم لا يرجعون إلى كتاب بلين أيديهم. ولأن من قرأ، قليل فيهم، قل لهم جميعا: هل استسلمت وخضعت لله؟ ويسألني الجواب من رب العزة: بلن من أسلم وجهه لله فوالله الأحدث الأحدث لم تصرف وحده في جميع الكائنات، فقد اعتدى ونجا. وإن وصلوا عندهم وأعرضوا عنه، فلا تضجر ولا تأس على مصيرهم، فإنما أنت مكلف ففقط ببلاغ وحسب. وقد فعلت. والله بصير بهيادهم علم بهم بما يشع العلم من تركب الثواب والمقاب حسبما قصوا.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِمَا هُمْ فِيهَا رَسُولَاتُ اللَّهِ أُولَئِكَ أَجْرُهُمْ عِندَ اللَّهِ شَرُّ أَلْفِ نَارٍ ۚ تَلْفِظُ مِنْ قُلُوبِهِمْ قَوْلًا نَافِرًا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ كَافِرَةٌ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ ۚ أُوتُوا نَصِيبًا مِمَّا كَسَبُوا ۚ يَدْخُلُونَ فِي الْكَيْفِ الَّذِي أَنْشَأَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ إِذْ رَأَوْا نَارًا ۖ أَوْ لَا أُنَامَا ۖ مَعْدُودَةً ۚ وَخَرُّوا فِي سُجَّدٍ مُبِينٍ ۚ وَنُفِثَ مِنْهُمْ ۚ وَكَفَىٰ (إِذَا جُمِعَتْهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ وَهُوَ لَا يُلْفَىٰ ۚ

بيان معنى الألفاظ

هبت أصواتهم: زول قلوبها لليلة في الدنيا والآخرة.

النصيب: القسط.

إلى كتاب الله: إلى التوراة أو القرآن.

ثم يقولون: يذكر منهم القفور والإعراض.

بيان المعنى الإجمالي:

ترسم هذه الآيات صورة شيعية لليهود، وتضحيهم فيهم بدعوى الإيمان من جهة ويكفرون بما تقتضيه الأدلة البيانية للصلاة عن الله، ويقتلون الأنبياء فقد قتلوا زكريا ويحيى ويزعمون أنهم قتلوا عيسى. وفي كتبهم اعتراف بجرائمهم على دماء الأنبياء والمصلحين ومن يدعوهم إلى القتل، ويسلم الله نبيه بلن يشرهم، وإله إشارة؟ هي العذاب الأليم. فهي بشارة استهزاء بهم. في ما يظنون أنها أعمال

صالحة تكون لهم عدة في دنياهم وأخرهم، قد حبا الله آثارها وثوابها فلا يجدون منها ما ينفعهم. ولا يجدون من ينصرهم. وحالة عجيبة أخرى لهم: لقد وصل إليهم جزء من التوراة يدعوهم أنهم يؤمنوا به، ولكن فريقاً منهم عندما بدعوا إلى تحكيم نصوص التوراة أو التماثل في القرآن المأخوذ مباشرة من لسان الرسول ﷺ، ينفرون معرضين. اعتمدوا ظاهراً على عقيدة موهومة: أنهم لا يؤمنون بالشرور الصادرة منهم لأن الله وعدهم أنه لا يعذبهم إلا ليلماً قليلة عقاب العدة التي عبد فيها آبائهم للعجل، وهذا من مغرياتهم وكانبيهم التي توقعته في الغرور. كيف يكون حالهم عندما يجمعهم الله يوم القيامة الذي هو حقيقة ثابتة لا شك فيها، هذا اليوم الذي تكال كل نفس جزاء ما كسبته في حياتها الحثيث، ومثولي الحساب الحكم العدل الذي لا يظلم ٢

بيان المعنى العام

22-21 من الذين يكفرون آيات الله من ذاكرين.

في الآيات السابقة سجل القرآن على اليهود والنصارى أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم الحق بسبب تغليبهم لحظوظهم الدنيوية من وجاهة ورياسة. وبشع القرآن على اليهود الذين انتهى بهم الضلال إلى: (1) الكفر بآيات الله فلم يدعوا إليها وتركوا العمل بها ترك الكافرين، ومع عليهم بصدقها فقدموا على تحريفها فاعتدوا على قدسها وضلوا الناس بذلك. (2) قتل الأنبياء ومع إقرارهم بنبوتهم بكون قتلهم من ألدح أنواع الظلم. قتلوا زكرياه وقتلوا ابنه يحيى عليهما السلام. ويدعون أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وقتلوا أشعياء. وإن كان القتل إنما تم من بعضهم إلا أنهم يقولهم لتكم الاعتداءات الطبيعية وعدم صبرهم لأكيابائهم، اشتروا بذلك في الجريمة وحسب القتل إلى حبيهم. (3) قتلهم الصالحين الذين يأمرون بالعدل، ويحتمسون لإقامة سلطانه. وما يزال اليهود إلى اليوم يخططون وينفذون لاعتقال كل من ينادي بالحق أو يقف ضد مكرهم وسلطتهم. فأرديهم ملطخة بدمائهم. كالنوق هانزموالد الأميين قدام للأمم المتقدمة، وعدد غير قليل من الفلسطينيين والمصريين من الطماة في الدول العربية. بأمر الله نبيه بأن يبنوهم: وأي بشارة! هو يستهزئ بهم بأن ما صنعوه يجزؤون عليه عذاباً بالغاً أقصى حدود الألم، ولما قاموا من أعمال، إن كانت في ظاهرها غير سيئة، قد تخرت ولم يبق لها أثر ولا ينتفعون بها لا في الدنيا ولا في الآخرة. وذلك هو الخسران المبين. وأن ما حزبوه من أحزاب ستفكك ولا يجدون لهم نصيراً.

23-آله ترو إلى الذين أوتوا ... وهم معرضون.

فضحا لفسادهم وإعلانا عن تناقضهم يحرك الناظرين إلى ما يأتي: إن اليهود الذين قد بلغهم قسم من التوراة، الكتاب الذي يؤمنون به، ويدعون أنهم يسيرون على هذا، هؤلاء عندما يوقنون في الحاجة ليرجعوا إلى ما بين أيديهم من الكتاب ليكون الحكم، أو يدعون إلى التأمل في القرآن وقد ظهرت أصلا صلبه، يكون موقف فريق منهم الإعراض عن كل ذلك والاستمرار على الضلال. وكشأن القرآن في الإنصاف، لم ينسب الإعراض إلى جميع اليهود، ولكنه سجل ذلك على الفريق المعاد، واليهودي الذي نلخع من العناد والمكابرة لا يتضرر من يهوديته.

24- ذلعت يانهم قائلوا: ما حكانوا بهتورون.

وقضح القرآن سبب رفضهم للحق وإعراضهم عما جاء به الوحي، إن مورد ذلك تعلقهم بأوهام وخيالات لا أساس لها، كرروا على أنفسهم كذبة فتهوا إلى تصديقها، فأخذوا يصرحون بهاء قائلوا: إن تمسنا النار ولا نعذب إلا لآثام معدودات بقدر المدة التي عد فيها أبناؤهم العجل، وما وراء ذلك لا يحاسبون على ما يفعلونه من شر ومن ظلم وفساد، وهذا الغرور الذي نلصق فيهم حتى أصبح جزءا من الذين عندهم، الذي بني على كذب وافتراء وخيالات باطلة.

25- فكيف إذا جمعناهم نيرة سره لا يخلصون.

سينتهي بهم إلى اليوم الذي تبينتهم فيه الحقيقة التي لا شك في حصولها، يوم يجمعهم الله فلا يفلت أي فرد منهم، يوم تجزى كل نفس الجزاء العادل بما كسبه في حياتها، لا ينفي عن الإنسان في ذلك اليوم لمسه ولا ما قطع به نفسه من أوهام وخيالات. وفي ذلك اليوم يظهر العدل الإلهي فلا يظلم ربك أحدا وتجزى كل نفس بما قدمت.

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ قُلِ الْمَلِكِ مَنْ شَاءَ وَخَرَجَ الْمَلِكِ مَنْ شَاءَ وَتَجَرَّ مَنْ شَاءَ، تَنْزِيلُ مَنْ شَاءَ بِتِلْكَ الْخَمَةِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ وَتُخْرِجُ الْمَمَاتِ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ شَاءَ بِفَضْلِ جَنَابِ ﴿٢٦﴾ لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْحَكِيمِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَهُ مِنَ اللَّهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ إِن تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُجَادُوا بِعِلْمَةِ اللَّهِ وَتَعْلَمُوا مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى

خَلَقَ مِنْ شَرِّهِ نَفْسًا ۖ يَوْمَ نَجِيءُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا
عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ مُوقَدًّا ۚ وَأَنْ يُنْفِتَهُ أَهْلُ الْبَيْتِ ۚ أَمَّا بَعْدُ ۚ وَنَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۚ وَاللَّهُ
رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ۚ فَلَا إِنْ كُنْتُمْ أَحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ فَلَا تَحِبُّوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۚ

بيان معنى الألفاظ

اللهم: يا الله.

الملك: التصرف بالكبر والقامة لحقوق ورعاية للمصالح.

تزرع: تزيل.

تولج: تدخل.

الركب: ما ينتفع به الإنسان.

لئس من الله في شيء: انقطعت صلته بالله.

تلقوا منهم: تجنبوا المكروه منهم.

بيان المعنى الإجمالي

قل: يا الله! أنت المتصرف في الكون وما يحويه تصرف في الدول والشعوب والقبائل والأمم، تمكن بعض خلقك من التصرف في جزء من ملكك، وتصرف من مكنه من ذلك متى تشاء، بيدك الخير كله، فلا يصل خير إلى أحد إلا من فضلك، إنه لا حد لقدرتك، في هذا الكون يتعاقب بتدبيرك الليل والنهار كل يوم، فيدب الظلمة دبيبا خفيا في النهار حتى يعم الكون ثم تسري خيوط النهار شيئا فشيئا في ظلمة الليل حتى ينشع ظلامه، وحياة وموت يجريان على الكائن، ويعقب الموت حياة وتعقب الموت الحياة، وما من حي إلا أنت وحدك الذي ترزقه من الهواء إلى المعادير المائية للعائقة للحصر، إن الإيمان الذي فصل يقتضي أن تكون رابطته أرقى رابطة جامعة، ولن الاختلاف فيه يوجب انقطعية، فالمؤمنون لا يرتبطون بالكافرين برابط الموالاة والتناصر، وصرححت الآية بوضع من لا يمثل فيواصل موالاة الكافرين، تاركا صلاته بالمؤمنين، أنه بعيد عن الله فأدفع صلته به، وقد يكون المؤمن في وضع خاص يخشى على نفسه وعلى إخوانه إذا لم يظهر بلسانه ما يحويه وبقي به نفسه فيستعمل الفتنة، وعليه مطمئن بالإيمان، إن المؤمن في هذا الوضع لا يتم عليه ولا يتأثر إيمانه بما رقى به نفسه مما لا يعتقد، وهذه

الحالة الاستثنائية بينه المؤمنين إلى خطورتها ويحذر من التلاعب بها، ويهدد من يرتخي إلى موالاته للكفار بأن تمصير في النهاية إليه سبحانه، يوم يعيشون وتظهر الحقيقة عارية فاضحة، ثم يأتي إعلان عام بكلمة **﴿إِنَّ﴾** يؤكد ما تضمنته الآية للسابقة: إن ما تتطوّل عليه مسنوركم سواء أظهرتموه لم أخفيتموه لا يخفى منه شيء عن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض. ولقاعدة اليقينية: **﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**. ويقرر هذا المعنى ليرفع صورة مبنية عليه، ذلك أن كل نفس ستجد ما علمته من خير مثلاً أمامها و ما افتقرته من شر حاضراً أمامها مجسماً تود أن لو تأخر حضوره إلى أمد بعيد، وهذه العصور، المقمنة قصد منها تحذير الناس وموعظتهم ببسط مصيرهم. والله يحذر للبشر من الوقوع في الهلاك رافة بهم، بعد ما حذر ووعظ بما نمر به القوم، اللهم على أعظم هدف فقال تعالى: **﴿إِنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي بَلَغَ بِكُمْ أَنْ يَكُونَ حَيْكَةُ اللَّهِ صَادِقًا وَلِي يَمْسَعَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ حَيْكُمَ لَهُ أَنْ يَحْبُكُمَ فَتَقْوِزُونَ بِالرُّضَا وَالطَّمَلَيْنَةِ وَسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ. الطَّرِيقَ الْمَوْصَلَ:﴾** هو اتباع رسول الله، فيكباعه بحكم الله ويمحو سينتكم، بتأكد هذا الوعد بأن الله غفور لذنوب عباده واسع للرحمة. ثم حث الآية على طاعة الله وطاعة رسوله، فهي مفتاح السعادة، ومن أعرض ونفر من اتباع ذلك فلا طمع له في كرامه الله وغفرانه ورحمته لأن الله لا يحب للكافرين الرافضين لزمانة الإسلام.

بيان المعنى العام

27-28: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَالِكَ سَيُفْهِرُ حَتَابِ .

إعلان في الكون، أمر أن يصوح به رسول الله ﷺ يقول: يا الله أُنْفِ الْمَالِكِ لِلْأَكْوَانِ تتصرف فيها بإرادتك وحكمتك، وجميع القارات والممالك والدول، والشعوب والقبائل، أنت وحكك المتصرف فيها، تأتي من خلقك ما شئت من ملكك لينصرف فيه، وليس إلا تصرفاً وقتياً تنزعه منه وتسلمه متى شئت، العباد جميعهم فناء لك، فمن عز منهم تفضل منك، ومن ذل منهم فإلقتك وعفاك سلب منه ما سلب. أنت الملك للخير لا يصل خير لكائن إلا ما قدرته، وإن كل ما يحدث في الكون لا يخرج عن إرادتك وحكمتك، وبما أن ما يناله الإنسان من خير أو لا يكاد يحصى وما يصيبه من مكروه وشر أمر قليل بالنسبة للخير الكثير، اكتفى بتكر الخير عن ذكر الشر وإن كان الجميع منه فهو الخالق لكل شيء. تؤكد وحدانيته هذا الإعلان أن قدرة الله هي المثرة في كل الموحودات كبيرها وصغيرها **﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** ويتولى هذا الإعلان بالتصغير عن إدراك المؤمن خضوع الأكوان للنظام الذي رتبته بحكمته، أنت ربنا الذي تدخل الليل في النهار فتأني ظلمة

رويدا رويدا حتى تمحو آخر شعاع من النهار، ولنت ربنا قذّي تحلل النهار في الليل فإذا خيوط النور تهتك أستار الظلام شيئا فشيئا حتى يعم الضياء، في حركة على ألق نظام. وكما يتقابل الليل والنهار بتقديرك، فكذلك في هذا الكون يتقابل الموت والحياة، وهما من أسرار خلفك، وإِنَّكَ بِعَظِيمِ قُدْرَتِكَ تَخْرُجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، فَالْأَرْضُ لِلْمَيِّتَةِ يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَاءُ فَإِذَا هِيَ تَخْرُجُ مِنَ الْأَسْوَاجِ لِلزَّرْعِ وَالنَّمْرِ وَالسَّوَابِ مَا لَا يَحْصُرُ. وكثير مما تخرجه يتحل في تركيب الإنسان وتتمو به الأجزاء الحية فيه. وتلك الأرض بعد أن أخذت زخرفها وأزيلت يعود ما كساها وما أخرج منها إلى تحلل وموت. بل أنت ليها الإنسان في كل لحظة تموت فيك خلايا وتتولد أخرى، كل ذلك بقدرتك وإرادتك وحكمك يا الله. إن ما على وجه الأرض من خيرات لا يحد ولكن لا يحصل أي فرد على شيء من تلكم الخيرات السوافة إلا بارتك، فأنت ربنا تَرْزُقُ مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ رِزْقًا وَفَرًّا يَجْلُوزُ الْإِحْصَاءَ وَالْعَدَّ. فلا ينظر الإنسان بما أوتيته من رزق الفضل في ذلك لله وحده.

28-29، لا يتخذ المؤمنون -والله على كل شيء قدير-

إن هذا الإعلان الذي كتف عن التصور الحق للكون يفضي من المثلين به له القبول بمضامينه أن يتألف بينهم جميع موحد، لا يقل أن يتحل فيه خبط غريب، ولا يقل خيط من خيوطه أن يلتحم بما هو غريب. تصدر الحكم فواجب الإعلان له ومراعاته: لا يتخذ المؤمنون الكفار أولياء يصرون ويفضي له بأسراره وبغضه على ما تقتضيه أخوة الإيمان، يقر به ويعد المؤمنين أمثاله، والحكم يتواصل بأن من خالف هذا الأمر وتولى للكافرين من دون المؤمنين لقد انفصل عن الله، وخلف إيمان الإيمان الذي دخل به، وبه اعتبر واحدا من الأمة الإسلامية، لقد ابتلى المسلمون بمن صنعوا ففهموا حظوظهم القويوة على مقتضيات الإيمان وخافوا الأمة والدين. ويقسم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله للمولين للكفار إلى ثمانية أقسام: (1) أن يكون باطن الشخص على موالات الكفار والميل لهم. وهؤلاء هم المنافقون، أشد أنواع الكفر ضررا وفسادا. (2) أن ينصروهم لغاية أو مودة في الوقت الذي يجاهرون فيه بمخالفة المسلمين، مع مقته لجنهم ومودة المسلمين. وهذا فيه من أعظم الذنوب ويضئ على نفسه أن يزلزل الكفر. (3) هي كالحالة الثانية لكن الكافرين لا يجاهرون بعدوتهم للمسلمين، وحكمها الحرمة أيضا. (4) موالات طائفة من الكفار للاستعانة بهم على طائفة من المسلمين. ومع الاتفاق على أنه ذنب عظيم إلا أنه قد اختلف فيه لظن بين تكفيره ومع الاستقامة، أو بدون استقامة، أو الاجتهاد في كل حالة تبع للضرر الحاصل من الاتصاف. (5) أن

يبتغي الكفار مواليتنا في الحرب على أعدائنا، وهذه مسألة اختلفت فيها الأنظار بين مجيز عند الحاجة، وبين محرم مطلقاً، ومجبر للاستعانة بأهل الكتاب دون الكفار. (6) أن يتخذ واحد من المسلمين ولعناً من الكفار ولياً له لكمالات فيه دون أن يترقب على ذلك إيضاراً بالمسلمين. ويرى الشيخ ابن عاشور أن ذلك جائز. وعندي أن هناك مقلدين: حرس المعاشرة وهذا ما أقره الإسلام ولئن فيه، والمعام الثاني أن يتخذ ولياً بما في الموالاة من التقاصر والود القلبي والتفريب في مختلف شؤون الحياة الخاصة والعامة، فهذا لا أرى له ملأون فيه، وذلك لمعوم قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. (7) حاملة للمعاملات الدنيوية في التجارات والعهود والمصالحات، وأحكنها مبسطة في كتب الفقه.

إظهار الموالاة لاتقاء الضر وهو ما فصلته الآية فيما يلي: إن التشريع الحكيم يراعي الظروف الاستثنائية التي قد يكون فيها المؤمن في وضع يخشى معه على نفسه أو لئنه من الكافرين. ولنه يتر أن يمسأعهم سألوا لا يرضأها، يتخذها نفية لحماية نفسه لو ماله في ذلكم للطرف فهذا الوضع معطو عن صأحيه. وترفع الآية علامات القزع حتى لا يتلاعب أحد بهذه الرخصة. فساله يحذرنا من موالاة الكفر باطناً والاعتذار عن ذلك ظاهراً فليأ الله لا سروج عليه معانير المتخاذلين. ويتواصل الإعلان: إن الله لا يتم علمه بواسطة حصة من الصولن. تعالى الله عن ذلك. فسواء ألقى الإنسان حقيقة ما يجري في نفسه لو أبدأها، فالأمر سواء بالنسبة لله، لا يتغير علمه ولا يزداد ولا ينقص. فعلمه شمل على مستوى واحد، ما حوته السموات جميعها والأرض وقدرته تعالى لا أحدها حدود لهم القادر على كل شيء.

30- يوم تجد كل نفس موالاه رؤوف بالمعاد.

وبعرض للفران صورة مجسمة للمصير. اليوم الذي تجد كل نفس قلعة أعمالها الخيرة حاضرة وصاة برفقة، وما عملت من سوء. ومتر حاضراً مكشوفاً، سود أن يتأخر ظهوره لملول ما يكون من الأملأ. إنه بهذا العرض يعظكم الله ويحذركم، وذلك لأنه رؤوف بعبأه لا يرضى لهم الكفر والخسرن. إن سر قوة هذا البناء المحكم هو حب الله. وحب الله الذي لا يتحقق الإسلام إلا به له علامة تشرق ببقوته. (أل إن شئتم نجور الله فآبهموس) أسأله الحرص على الاتكزأ بتطبيق ما يلنه وقره وبببه رسول الله ﷺ.

31- قل إن حكمتكم تحبون الله وألله غفور رحيم.

قَتَبْنَاهَا نَيْبَاتًا صَالِحَةً: لَنَشَاهَا بِإِثْنَاء صَالِحَةٍ.

رُزْقًا: ثَمَارًا فِي غَيْرِ فَمُؤْلَهَا

الْمَحْرَابِ: مَكَانٍ مَرْتَفِعٍ، يَخْصُصُ لِلْعِبَادَةِ.

الْحَصُورُ: الَّذِي لَا يَرِغَبُ فِي قَرْيَانِ النِّسَاءِ.

الْمُعْزَرُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا تَلِدُ.

قُرْمُزُ: الْإِشَارَةُ لِدَلَالَةِ سَوَاءِ أَكُنْتَ بِشَعْنَيْنِ يَتَوْنُ نَظْقُ لَوْ بَعِيرِهِمَا.

يَبَازُ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي:

اخْتَارَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ لِمَنْ جَعَلَهُ لِيَا لِلْيَسْرَةِ، وَاخْتَارَ نُوْحًا لِيَكُونَ أَوَّلَ رَسُولٍ، وَاخْتَارَ إِبْرَاهِيمَ وَآلِيَّهِ كَقُلِّ إِبْرَاهِيمَ لِيَا لِلْأَنْبِيَاءِ، وَاخْتَارَ آلَ عِمْرَانَ مَرْيَمَ وَعِيسَى. وَالْإِبْرَاهِيمَ وَالْأَمْرَانَ ذُرِّيَّةً مُتَّصِلَةً بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَمِنْ خَيْرِ آلِ عِمْرَانَ أُمْرَأَةُ عِمْرَانَ أَحْسَنُ بِالْحَمْلِ فَضُوْتُ أَنْ يَكُونَ حَمْلُهَا خَلَامًا لخدمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَلَمَّا مِنْهَا أَلَهُ نَكَرَ، فَلَمَّا وَضَعَتْ حَمْلَهَا بُحِرَ فَهُوَ لَثَمِي، وَسَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ تَكْمِلًا بِمَرْيَمَ أُخْتُ مُوسَى وَهَارُونَ، وَأَلَانَ وَلَدَ مَرْيَمَ سَمِيَّيَ وَالِدَ لَيْلَتِهَا، وَتَوَجَّهْتُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَحْفَظَهَا وَيَحْفَظَ ذُرِّيَّتَهَا مِنْ دُوسَمَةِ الشَّيْطَانِ. تَقَبَّلَ اللَّهُ دَعَاءَهَا، وَبَسَرَ لَهَا ذُرِّيَّةً صَالِحَةً فِي رِعَايَةِ صَالِحَةٍ، وَلَمَّا كَانِ عِمْرَانُ وَالِدُهَا فَدَمَانَتْ وَهِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهَا تَوَلَّى زَكَرِيَّا كَاهِنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَفَلَتْهَا، وَظَهَرَ لَهَا كَرَامَاتُهَا مِنْهَا لَمَّا كَانَتْ تَحْمِلُ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا فِي مَحْرَابِهَا وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا، وَسَأَلَهَا زَكَرِيَّا عَنْ مَصْدَرِ تِلْكَ لِلنَّمَارِ، فَكَانَ جَوَابُهَا: هِيَ مَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ، لِي اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا حَسَدَ لِفَضْلِهِ، وَفِي ذَلِكَ الْمَقَامِ تَوَجَّهَ زَكَرِيَّا دَعَاءَهُ أَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً، وَخَفِيَ لِبَهَائِهِ بِتَقْنَةِ قَرِيْبِهِ مِنْ رَبِّهِ الَّذِي يَسْمَعُ دَعَاءَهُمْ. وَلَمَّا تَجَلَّبَّ اللَّهُ لَهُ، فَجَاءَتْهُ الْبَشَارَةُ وَطَرَقَ سَمْعَهُ نَدَاءُ عَلَوِيٍّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلَاتِي فِي مَحْرَابِ مَرْيَمَ، إِنَّ اللَّهَ يَشْرُكُ بِوَلَدِ لِسْمِهِ بِحَبِيٍّ يَصْدُقُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ، وَمِمَّا فِي قَوْمِهِ، وَلَا يَهْتَمُّ بِرَبِّانِ لِلنَّمَارِ، يَأْتِي النَّبُوَّةَ، وَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَتَعَجَّبَ زَكَرِيَّا كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلِسَبَابِ الْإِثْبَابِ مَقْقُودَةً، فَهُوَ لَدَى هَرَمٍ وَلَمَرَّتْهُ عَاقَرُ لَا تَلِدُ. وَكَانَ الْجَوَابُ: لَا تَعَجَّبْ! كَهَذَا الْأَمْرُ يَحَقُّقُ اللَّهُ عَمَلَهُ، فَالْأَمْسِيَابُ الْعَلِيَّةُ لَثَمِي وَضَعَهَا اللَّهُ لَا يَحْفَظُ لِي تَمْنَعُهُ سُبْحَانَهُ مِنْ تَحْقِيقِ مَوْلَاهُ، وَطَلَبَ زَكَرِيَّا أَنْ يَقِيمَ لَهُ عَلَمَةً يَعْرِفُ بِهَا مَنِّي سَيَمٌ وَعَدَ اللَّهُ لَهُ، فَكَانَتْ الْآيَةُ مِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَعْجِزَ عَنْ قَنَاطِقِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَهُوَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ مَأْمُورٌ بِالِاتِّعَاشِ فِي الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ ثُمَّ فِي جَمِيعِ الْأَرْكَانَاتِ مِنَ الْعُنْفَى إِلَى الصَّبَاحِ.

بيان المعنى العام.

33-34، إن الله اصطفى من عبده وصفي عليهما.

توه الله ببعض المفضلين من البشر الذي أكرمهم سبحانه بكرامات هي من فضله،
ولسألو الله من فضله، فذكر أنه اختارهم لآل البشرية وأكرمهم بما تتسلل منه من
الأنبياء والصالحين وبمحمد ﷺ، واختار نوحاً لفتح ليكون أول من يتحمل الرسالة
لهداية العالمين، واصطفى آل إبراهيم عليه السلام بما تتسلل منه من الأنبياء
والزمن وخاتمهم محمد ﷺ، واختار آل عمران وألده مريم بما لجري على فئته من
كرامات سيفضلها القرآن، وهم ذرية متصلة الأئساب في مصائبهم، ويمثلون وحدة في
سلوكهم، وهذه الشهادة مؤكدة صحتها، تصورها من الله الذي لا يتوب عن موعده
ولا عن علمه شيء.

35-36، إذ قالت امرأة عمران: الشيطان الرجيم.

يبرز القرآن من بين هذه القصص الطويلة قصة بنصل أحدائها: نحن امرأة
عمران، كاهن بني إسرائيل، حمل في بطنها، فتوجه إلى ربها نائزاً ما في بطنها
لخدمة بيت المقدس، ويموت زوجها قبل ولادتها، فتكون العسمة الأولى، ثم يأتيها
المخاض، فإذا المولودة أنثى، والإنسان لا يتولين خدمة بيت المقدس وهي خدمة
ثالثة، وتوجه إلى ربها أسفاً فتسأله معجزة عن أحليسيها: رب إني وضعتها أنثى،
فهي قد صدقت إذ لم يتحقق لها أملها أن يكون مولودها ذكراً تهبه لخدمة بيت
المقدس، وكانها تعني نفسها ثم تتبين الحقيقة: إنها أنثى.

ويقطع حديث امرأة عمران، ويصروح القرآن بحقيقة هي من كلام الله: الله أعلم
بنفاسة هذا الذي وضعته، ثم يعود الحديث عن امرأة عمران الأسفة: وليس الذكر
كالأنثى. وتقبل وضعها، وتتخير لادتها اسم مريم، تيمناً بمريم ابنة عمران أخت
موسى وهارون عليهما السلام، وتلجأ إلى الله أن يتقبل هذه المولودة ول يحوطها
بمعايته، فيحميها وثروتها من وسوس الشيطان ونزعه.

37- فتقبّلها ربها... يرزق من يشاء بغير حساب.

بصرح القرآن بأن الله تقبل هذه المولودة بأحسن قبول، ولحاطها بالطفافه فتولاهما
بتيسير الظروف الملائمة لتنشأ على خير الوجوه ولكملها، فيسر لها أن يكون كائنها
القائم على تربيتهما للنبي زكرياء، ويلهم زكرياء أن يقيمها لخدمة بيت المقدس لتكون
لؤل أنثى تحظى بهذا الشرف، ويخصص لها مكاناً عالياً تعبد فيه ربها وهو

(المحارب) فالمحارب في شريعتهم مكان مرتفع معزول يصعد إليه مسلم ينفراد فيه الشخص بعبادة الله، كل زكرياء يرعاها ويتقنها في محرابها.

ولقد ما كانت دهمته عندما تكررت ملاحظته: أنه كلما دخل عليها محرابها وجد عندها رزقا: ثمارا جنية في غير ليلتها، ويسألها في دعته من أين أتيت بهذه الثمار في غير فصل نضجها؟ فتصرح بفكرامة لقلبها وتخبئ: هي من عند الله، وتصيف: إن الله يرزق من يشاء من عباده رزقا لا يحده، تنفتح روحه على المطام الإلهي ويقتل من اللذة التي لا تحدها حدود في فيوض خيراته، يتهلل إلى الله أن يرزقه ذرية طيبة سالحة ويعبر عن نفعه في الاستجابة بأنه يدعو من يسمع انبثالات أوليائه.

38-39: هاتك دعاء.. ولبيها من الصالحين.

ويقوم في محراب مكنولته مصليا، فيسمع نداء الملائكة بالبشارة تفعل الله بتفصيلها تفصيلا بضاعف به مسرته. (1) أن سيولد له ولد - (2) اسمه يحيى - (3) صدق هذا المولود بكلمة الله، ولم يبين قومك منها في ذلك الوقت، ولكنها نزل على أنه ولد صالح يبدل بتصدق كلمة الله، وسوف يظهر مما قصه القرآن أنه يبدل بتصدق (عيسى عليه السلام) - (4) أنه جامع لتسليم التركة بطبيعة الناس - (5) أنه لا يتعلق بالنساء ولا يرغب في الزواج - (6) أنه سيعطيه الله مرتبة النبوة - (7) أنه واحد من أسرة عباد الله الصالحين.

40-41: قال ربه -وسبح بالعشي والإبحار-

البشارة عجيبة جدا، حملت زكرياء أن يحقق فيها كيف تبرر الوجود مع أنه قد بلغ من الشيخوخة وأن امرأته زوجته الوحيدة، عاقر لا تتجب. وبأنه الجواب من ربه: كذلك الإنجاز الخارج عن العادة يفعل الله في ملكه ما يشاء، لا تعطل لولده عن النقاد المولد والأميب الظاهرة، ويتيقن زكرياء باستجابة دعائه ويطلب من الله أن ينصب له علامة تعرفه بلوقت الذي سيسعد فيه بهذه التركة. ويعرفه ربه بعلامة ستكون من ذلته لا من أمر خارج عنه، إنه عندما يحبس لسانه عن التلويح ثلاثة أيام متوالية، ولا يستطيع أن يتكلم بكلمة، ولا يتصل باللسان إلا عن طريق الإيماء والتمر لمراته. ويأمر ربه أن يبلغ في الفخر الذي هو واجب لشكره، وأن يصح ربه، يحتمل أن يكون التوسيع بما يدل على التنويه لذلك العلية، ويحتمل أن يكون مرادا به الصلاة في العشي والمصباح.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْزِنُهُمْ إِنْ اللَّهَ أَصْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَأَصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾ يَمْزِنُهُمُ الْغَنِيُّ لِرَبِّكَ وَأَسْمَى وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكِيَّاتِ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَسَ هَؤُلَاءِ أَفَلَسَ هَؤُلَاءِ أَفَلَسَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مُرْسَلِينَ ﴿١٠٢﴾ وَإِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠٣﴾ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . جِئِي فِي آيَاتِنَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْأَمْرِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٤﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَّلَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ فَيَكُونُ ﴿١٠٥﴾ وَتَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالْقُرْآنَ وَالْإِنجِيلَ ﴿١٠٦﴾ وَرَسُولًا إِنْ يَشَاءُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَدْ جَعَلْنَاكَ بَنَانًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْنَا إِذْ أَخْلَقَ لَكَ مِنْ الطِّينِ بَشَرَةً طَلَقَ فَأَنْفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَإِذْ يَنْشَأُ فِي الْأَكْمَامِ بِالْأَبْرَصِ وَأُنْشِئَ الْوَرْدَ وَإِذْ يَنْفُخُ فِيهِ وَأَنْتُمْ كَمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْرُونَ مِنْ بَيِّنَاتٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُوبِ وَالْأَجَلُ لَكُمْ بِغَضِ الَّذِي حَزَمَ عَلَيْكُمْ وَجَعَلْنَا بَنَانًا مِنْ رُوحِنَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ إِنْ اللَّهَ تَعَالَى وَرَبُّكُمْ فَاقْبَلُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

مُتَنَبِّهٌ

بيان معنى الالتفات.

الغنى: لازمي العبادة.

المسيح: الممسوح بدهن خاص.

الوجه: المقدم على أمثاله.

المهد: صندوق من خشب من دون غطاء يهد فيه الرثى الصبي.

الشكل: من دخل في عشرة الأربعين.

جلستكم بآية: أرسلت إليكم مؤيدا بطييل صدق.

أخلاقكم من الطين: أصور لكم من الطين.

الأكمة: الأعمى، أو الذي ولد أعمى.

البرص: من البرص، وهو مرض يصيب الجلد.

ما بين يدي: ما تقدم قبلي.

بيان المعنى الإجمالي:

اعتنت هذه الآيات بتفصيل أخبار مريم وابنها عيسى الفخ، وانفتحت بتوجه الملائكة لمريم قائلين: يا مريم إن الله قد اختارك مما يمكن للنفة في نفسها، وطهرتك من الأرجاس والآثام، واختارك مفضلاً لك على جميع النساء. يا مريم اشكري ربك على ما فاض عليك من نعم فواصل العبادة بإخلاص، وابسجي له، وركعي مع الناس. ويفصل القرآن بين أخبار مريم ليثبت صدق نبوة محمد ﷺ، فيثبت أن ما قصه علينا من أخبارها هو من غضب الذي أوحى له به مما كان مشاهداً لأخبارهم وهم يلقون الأكلام التي يكتبون بها لتوراة فيقرعوا بها لأهلها من هو أحق بكفالة مريم، والخبر العجيب التالي قول الملائكة لمريم: إن الله يقدر بك أنك ستحملين يولداً مفرداً بمرزاً؛ كلمة من الله - اسمه: المسيح عيسى ابن مريم - وجبهه في الدنيا والأخرة - من زمره المقربين عند الله - بكلمة ناس في سن صباه لتذكر في العهد - ويكلمهم بكلمة النبوة عندما يبلغ سن الكهولة - وهو في جميع أحواله من الصالحين، توجهت مريم إلى ربها ليكشف لها حيرتها، كيف تحمل ولم تضاع أي إنساناً ولقيها من الله ما ينتجها: كهذا الأمر العجيب بخلق الله مما يشاء بدون تقدم لمساب، إنه إذا قرأوا يلموه فيستجيب، ثم تواصل الآية تفصيل مزايا عيسى عليه السلام: يعلمه الكتابة فلا يكون أمياً سمعته للحكمة - يعلمه ما جاء في التوراة والإنجيل فلا يروج عليه أي تحريف - يرفعه إلى مقام الرسالة فيدعو بني إسرائيل - يدعوهم مظهراً لهم أنه مؤيد بآية من الله (معجزته) ويذكر لهم معجزاته التي منها: أنه يصور من الطين هبة طير ثم يفتح فيه فيكون طائراً بإذن الله - أنه يمد البصر لمن ولد أعمى أو لحقه العمى - ويبرئ من أصابه البرص - يرد الحياة لبعض الموتى - وكل ذلك بإذن الله - يعلمهم بما هو من أسرار ربوتهم من لكلهم وما يخبرونه، فتبها فكل ذلك دليل على مستقي أن كنتم من الذين حل الإيمان في قلوبكم، أنه يصدق كشوراة التي تعظمه ولا يبطلها - أنه يخفف عنهم بتحليل بعض ما حرم عليهم - وجماع القول: أن الله يري وهو ربكم فأفردوه بالعبادة، هذا الطريق الذي أدعوك إليه هو الطريق المستقيم الموصل إلى النجاة.

بيان المعنى العام:

لوه القرآن في الآيات السابقة بأن عمران فيمن نوه بهم. وعرضت هذه الآية وحده من آل عمران هي مريم وإنيها عيسى **عليه** . فلتنبع هذا العرض الشيق الممنع.

42-43-44 قالت الملائكة سمعنا أذناكمين.

يبدأ العرض بثناء صائغ من ملائكة الله موجه إلى مريم بعد أن بلغت سن الشباب وهي مقبلة على العبادة فتفتحت روحها لتلقي الفيوض الإلهية. لئلا تصبى له بكل قلبها: يا مريم إن الله اختارك فأودع فيك من الكمالات ما ميزك به وطهره من الأرجاس والآثام ومن كل ما يحط من كرامتك، واختارك من بين النساء جميعا. والله أعلم، هل هو يقصد تفضيلها على نساء عصرها أو على جميع النساء من بقات آدم إلى يوم القيامة. يا مريم، توجهي بقلبك وروحك ومشاعرك مخلصا إلى الله في عبادتك، تقربي له بالسجود، وتقربي إليه بالركوع مع الجماعة. وهي مزية لمريم إذ رخص لها أن تشرك مجالس العبادة مع الرجال **(سورة النساء)** ينقطع العرض لينتوجه الكلام إلى رسول الله ﷺ ليكون ما عرض وما سيعرض مؤكدا لرسالته.

44 ذلكت من أذياء سوما كنت لديهم إذ يختصمون.

ما عرضناه عليك هو من أخبار الغيب ما علمتها إلا بطريق الوحي من إلهك. إنك ما كنت مشاهدا لأخبار اليهود وهم يلقون أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة. إذ كان من عادة الأخبار لهم إذا اختلفوا في أمر. فتجأوا إلى قرعة، ويعتقدون أن الأقلام التي سميت بكتابة التوراة تعينهم على معرفة الحق ويذعنون لما تظهره. ولما ولدت مريم وكانت ابن كامنهم الأكبر صرنا نسلخوا لنيل شرف رعايتها والقيام على تربيته. ولولا الله أن يفوز بذلك ذبيبة زكرياء. ما كنت يا محمد حاضرا وهم يختصمون فيمن يفوز بكفالة مريم. ولكنه من علم الغيب، الذي علمك الله.

45-46، إذ قالت الملائكة سمعنا العالين.

يعرض القرآن، بعد هذا الفصل المؤكد لصديق النبي ﷺ، خطاب الملائكة لمريم فيعلمونها بأمر مشر العجب والاستغراب: يا مريم. إن الله يشركك أنك ستحملين بكلمة الله. ثم يجرون على هذه البشارة ميراثها: اسمه المميز له: المسيح عيسى ابن مريم. المسيح: يسح بالزيت على الطريقة التي مسح بها موسى أخاه هارون لما قبله الله أن يكون وزيرا له، وعليها يسح من يملك في بني إسرائيل. وجبه في

العنيا والآخره، ررق القبول والتغيم على الناس، محنوم فيهم، حيثما قبل بوجهه عظم وروعى، يجمع بين وجاهة الدنيا والآخره. يكلم الناس وهو ما زال في مهد الصبا (الصندوق من الخشب الذي يمد فيه للصبى فرشاه في بولكير صباه) كما يمكنهم عنما يبلغ قوة الكهولة فيدعوهم إلى الله ويبلغهم شريعته، هو من زمره عباد الله الصالحين الذين تولاهم الله بالهداية والرعاية.

47- حالات وہ آئی ہوگی لی غلام۔ یہ قول کہ سزا ہوگی۔

يبلغ العجب من مريم العلية ، وتنقطع عن ملائكة وتوجه إلى ربها كي يزِيل
حيونها؛ رب لم يكن لي ولد ، كيف يثبتي لي ابن أحمل واسم يصاحبني أي
إنسان، فانا ما زلت نكرأ كما نعلم، ويثبتي الجواب حاسما معلا من الله: كذلك الأمر
يتم نصبرقي، فانه إذا أراد إحداث شيء لا يتوقف على تسامع الأسياق والمسببات
والمتغيرات والنتائج، وإنما هو الطوع لإرادته، فإذا أمر وقيل لشيء: كن، يصاحب
لمره حدوث ما قدر وأراد، وقوله تعالى (كن) هو تمثيل للتقريب لأذهان البشر ،
والحقيقة انها الإرادة بعضها بدون تراخ حصول المراد.

48-51: ويعلمه الكتاب... هذا شرط مستلزم.

ثم ينتاب كلام الملائكة وهم يقولون بمزليا عيسى فثبته: إن الله سيعلمه للكتابة فلا يكون أنيا. يعلمه الحكمة فهو يترك يوما حقائق الأمور وعلما وغاياتها ومبانيها. يعلمه التوراة فلا يروج عليه تعريف المحرفين ولا تأويل الجاهلين فهو يفهمها كما قصد منزلها. يعلمه الإنجيل للكتاب الذي حصه به فلا يقوته شيء من مقاصده ومزالبه. أنه سيبلغ به شرف الرمالة فيرسله الله لئبني إسرائيل قومه. يمرض عليه الملائكة طريقته في الدعوة إلى الله وهو مزال في عهد البشارة به. وما يتأيد به من عند الله: إني أعمل من الطين صورة طير ثم أنفخ فيها نفكون، بإذن الله الخالق العظيم، طائرا حفا، إني أبرئ الأعمى الذي ولد فقدا للبعصر أو الذي عمي بعد ذلك، فيصبح بصيرا يرى رؤية سليمة بإذن الله.

أبرز الأبرص، وهو مرض جلدي، يبلغ مستويات مختلفة، كلى متشعرا فى ذلك
 للمعد، ويندو أنه كان عصيا على العلاج. فكلى عيسى عليه السلام إذا مسح
 الأبرص شفى بإذن الله. مكتفى ربي من رد الحياة على بعض الموتى بإنه.
 أستطيع أن أخبركم ببعض أسرار القيوت فكل لا يعلمها إلا ساجديها، فأنتم بما
 نلكون فيها، وأنتم كما تخرجون، كلى أعيث داخل البيت. وذلك بفضل ما يكسفه
 لى ربي.

والخلاصة: إن في كل ما ذكرته لكم ما يقوم دليلاً على تأكيد الله لي فلموا بما أرسلت به إليكم إن عمر قلوبكم نور الإيمان الهادي لقبول ما جاء من عند الله. يبين مركزه باللمسة لما سبقه من فتوراة المنزلة على موسى، فيقول: إن موقفي منها يتمثل في ناحيتين:

الناحية الأولى: لني أؤكد ما جاء في التوراة وأصدق به. الناحية الثانية: لني أحل لكم بعض المحرمات التي كان الله حرمها عليكم. فهو يقر أصل التوراة بقرأه لا ينفي أنه ينسخ بعض أحكامها تبعاً لما ينزله الله عليه. ويأمرهم أن يتقوا الله التقوى التي تحل في القلوب فتجعلها حريصة على اتباع ما يأتيها من ربه، ولا تظهر تقواهم إلا إذا طاعوه. وسيختم عيسى هذه إلقائه لبني إسرائيل بدعوته الثانية: إن الله ربي وربكم كلنا عبيده وكلنا خلقه، فأخلصوا عبادتكم له، هذا طريق مستقيم يصل بكم إلى الحقيقة وإلى السعادة.

• فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْ أَنْصَارِهِ إِلَى اللَّهِ قَالَ أَلَمْ أَفَكَّ الْخَوَارِثُوتُ
تَحَنُّ أَنْصَارُ اللَّهِ تَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٠٠﴾ زَيْدٌ تَامَنَّا بِمَا أَوْلَتْ
وَأَتَّبَعَ الرَّسُولُ فَأَصْحَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَنْكُرُوا وَمَنْكُرُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَمْرُ
الْمَنْكُورِ ﴿١٠٢﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ إِنِّي مُنَزِّلُكَ إِلَى مَطْفُورِكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فُوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِنَّ
مَرْجِعَكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٠٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
فَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَتُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَأَنَّهُ لَا يُجِبُ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ
نَقْلُهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ
هَادِمٍ خَلَقَهُ مِنْ نَارٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٠٧﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ
الْمُتَشَكِّينَ ﴿١٠٨﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَلْيُنَادِلْهُ نِدَاءُ
أُنْثَاءٍ تَرَىٰ أَهْنًا وَنُفْسًا وَهْنًا وَكُمًّا وَنَفْسًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ لَعَنَتُ اللَّهُ
عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْقَصَصِ الْحَقِّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ زَارَتْ
أَنَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١١١﴾

بيان معنى الألفاظ:

الحواريون: لقب لأنصار عيسى عليه السلام.

الشاهدين: الشاهدين للوحد بالصدق.

المكر: تدبير يقصد به إيقاع الضر بطرق خفية.

مطهرك من الذين كفروا: عاصمك من اليهود الكافرين بك فلا يمكنون من إهانتك.

مرحمة البعد للحساب:

العمائة: الدعاء بالهن.

بيان المعنى الإجمالي:

طوى القرآن مراحل حمل مريم بعيسى وولادته ونشأته وقد تحقق كل ما بشرت به أمه، وبدأ الله في نشر دعوته وعرض آياته المزيّدة. فقبل لليهود دعوته بالرفض وكفروا به، عندها دعا عيسى دعوة عامة من ينصروني على نشر ديس الله؟ فلجوع لإجابته الحواريون معلنين لهم قروا أن ينصروا ديس الله، وأن الإيمان قد تمكن من قلوبهم، وطلبوا من عيسى الله أن يشهد بسلامهم، وتوجهوا إلى الله بقولهم: ربنا إنا أسلمنا وجوهنا إليك فلكتبنا عندك من الشاهدين على ربك بالكتب.

أخذ اليهود بخلطون في خفاء وينصبون حيلهم للإضرار بعيسى، ويحرضون ولاية الأمر على قتله، وسعيهم هذا فاشل في النهاية لأن الله قدر حماية رسوله من مكرهم، ليس عيسى الله من إيمانهم، بل حتى من مهانتهم. وعندها أعلم الله عيسى الله بالقرار الحاسم للموقف المتضمن: (1) فثبت حياك في هذا الوسط - (2) في رافك إلي - (3) في حاميك من الكافرين فلا يستطيعون للبل من كرمك - (4) إن دعوتك سيكتب لها الظهور ففرت لمن يؤمن بك أن يكون أعلى وأرفع ممن يكر بك إلى يوم القيمة - (5) في سألظير صمذك وأصغر حكمي بينك وبين اثنين كنوك. وعرفه بهذا الحكم فقال: أما الذين كفروا بك فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة ولا يجئون نصيرا يخرجهم من العذاب، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيجزئهم بكل ما قنوا من صالح العمل. وحقق هذا الجزاء بأن الله لا يحب الظالمين. فيعاملهم معاملة عادلة بدون رحمة، ويعهم منه أنه يحب للمستظلمين فيعاملهم معاملة الرحمة والمهر والتكريم.

ويصرح القرآن بأهمية من التفاصيل الواردة في الآيات السابقة: ما تلوناه عليك يا محمد من الآيات شاهد على صدقك، فما كل لك أن تعلم تلك التفاصيل لولا أنا أوحينا إليك، وهو ذكر يوصل المؤمنين إلى الحكمة: ومن الحكمة كشف الغطاء عن السر الذي تاد فيه اليهود والنصارى وضلوا (ولاية عيسى من لم يسلو أب) حمل

اليهود على تكذيبه والإساءة إليه وإلى أمه والطعن في نسبه. وحمل النصراني على ادعاء أنه ابن لله. لمثل الآية أنه لا عجب في ذلك، فقبل عيسى يؤمن أصحاب الديانات كلهم، أن اسم أي البشر جميعا قد خلقه الله من تراب، لم يتوسط في إيجاده أم ولا أب، ولما تعلقق الإلادة بإيجاده صغر الإذن فوجد، بكلمة كما وجد عيسى بكلمة. فهذا الذي ببناء هو الحق فلا يدخل الشك نفسك. والمراد من ذلك التعويض بالنصراني. تمسك بما أوحيناه إليك، فهو الحقيقة لأنني لا شك فيها. وإذا أخذ العناد بعقول النصراني وواصلوا مجادلته بعد ما جاءك من الحق والعلم اليقيني فسادهم للمباهلة: فليدع كل منا من معه. ندعو أبناءنا وتدعون أبناءكم، ودعوا نساءنا وتدعون نساءكم، ونحضر نحن ونحضرهم لنتم، في مشهد نبتهل فيه إلى الله أن يصب لعنه على الكاذبين. إن ما أوحيناه إليك من مودتنا في أمر عيسى عليه السلام هو الفصل الحق الذي يسجل الواقع كما سمع حدوثه. يشهد لصحته أن لا إله إلا الله، والله لا يد أن يكون موصوفا بالعزة غالب لا يخلب، فاعتقاد النصراني أن المسيح إله وأن اليهود تسلطوا عليه وقتلوه ينقض عر مفقود، وهو حكم وحكمته توجب قدرته على إفساد خطط الكافرين ومكرهم. إن النصراني إذا تولوا ولم يقلوا للمباهلة فلا يتأثر في الله عليهم بالمفسدين، على معنى أنه سيجازيهم بما عزموا عليه من الفساد.

بيان للمعنى العام

52، فلما احسن عيسى منهم الكفر... واشهد بأننا مسلمون.

طوى القرآن التوضيح لفترة حمل مريم بعيسى وفرة صباه ومباهله. وكيف ابتدأ دعونه، وذلك لكتفاء بما تلقته مريم عليها السلام من تفصيل لا يمكن إلا أن تتحقق في دنيا الواقع، وقد تحققت. وتبدأ القصة من تسجيل عدا وتكذيب اليهود لعيسى، حتى أصبح كفرهم واضحا لص به إحصاء قويا وصل به إلى حد الإيلاس من اعتدائهم. كذبوا واستهزأوا به ورموه بكل مفكر، فنادى في المجتمع: من يصبرني لإبلاغ كلمة الله؟ وهذا شأن رسل الله لهم بحضرة الناس على تأكيد الحق وعلى نصرته ليكتب لهم منازل السابقين. أسوع الحواريون قضا عشر رجلا حسب الرواية للاستجابة لندائه، قالوا: نحن أنصار نبي الله، أمت بالله وبك رمولنا، فاشهد علينا أنا قد أسلمنا وجهنا لله ثم توجهوا إلى الله مبتليين متقربين إلى ذاته العلية (ربنا) بما يوحى به لفظ الرب من الاتصال والقرب، مسلمين.

أولا: أن الإيمان بما أنزلته على عيسى قد استقر في قلوبنا وغفلنا.

وثانيا: أننا لا نخرج عن منهج الذي يسطره عيسى تقبله بكل حب ورضا.

وثالثاً: أننا نطلب منك ربنا أن تثبتنا ثباتاً دائماً على ذلك حتى نكون من الشاهدين بصديق عيسى وصدق رسل الله جميعاً.

وتقابل الفريقان. الفريق الأول: عيسى ومعه قلة من الناس على رأسهم للحراريون، والفريق الثاني: اليهود بكهنتهم وتجارهم وفلاحيتهم ولتباعهم.

أخذ الفريق الثاني بخطط للمكر بعيسى، بحرضون قساسة عليه ليحملوا بيلاطس، لوالى على بيت المقدس، أن يأخذ القرار بقتله. على أنه مفسد مهيج للمجتمع مفرق للكلمة.

54- ومكروا ومكر الله والله خير الماكدين.

في مقابل مخططاتهم الخبيث يخبر الله أنه يكر بهد فوسف مخططاتهم ويحمي عيسى من مكائدهم (إله عندما يحيط مخططات الفاسدين يحصل بتلك الخير للناس).

55- إله قال الله يا عيسى- تختطفون.

أعد اليهود كل ما يمكنهم إعداده للقبض على عيسى ثم للقضاء عليه. ويخبر الله كلمته بأمر: (1) إني متوفيك (2) إني رافعك إلى (3) إني مظهر لك من الذين كفروا (4) إني فزت أن يكون المؤمنون بك طاهرين على الذين كفروا بك في الحياة الدنيا إلى يوم القيامة (5) وفوق هذا أفكم ستعودون إلى حكمي يوم القيامة لأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون (6) الكافرون أعذبهم عذاباً أليماً ولمفتهم فلا يجدون نصيراً (7) المؤمنون الذين عملوا الصالحات لا يضيع من صالح أعمالهم شيء، أوفهم أجورهم (8) إله لا يحب الظالمين فهو يفتهم ولا يصلهم شيء من واسع رحمته، ويفهم منه أنه يحب المقسطين فيدخلهم في رحمته التي وممت كل شيء. لننتج ما أوحى الله به إلى عيسى وهو ما حفظه فعلاً.

أولاً: (إني متوفيك): لظاهر من هذا التركيب إني منته حياتك بيدي وأحول بينك وبين اليهود فإن يصلوا إليك، يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن عيسى **عليه السلام** **توفيتي كنت أنت التركيب عليهم**¹. وكثير من الآيات القرآنية المراد من التوفيق هو إنهاء الحياة. وإنهاء حياته على تلك الطريقة محط تأكيد يهود.

ثانياً: رافعك إلى: لظاهر جملة على تكريمه بمنزلة رفيعة خاصة عند الله. ويبدو أن يكون معناه رفعه إلى السماء لخذاً من هذا النص. وذلك لأنه لا يغفل أن يطر أن الله في السماء وأنه رفعه إليه في السماء، لأن الله يتعالى عن المكان والأرض

والسما كلها أمكنة وأبعاد. وأخبر الله عن إبراهيم فقال: **(ورفعناه مكنا عليا)**¹ وقد صعد رواد الفضاء إلى القمر وهم يحثون لبلوغ ما هو أبعد من ذلك، ولا يوجب ذلك كرامة زائدة لهم في مقاماتهم الإنسانية.

ثالثا: مطهرك من الذين كفروا: من تسلط الكافرين كفروا. لأن تسلطهم عليه يجعل خبيثهم ورجسهم يصل إليه. مع ما صحبه من قصد الإهانة.

رابعا: جعل إلهي أن من آمن بك يا عيسى منصور غالب لمن كفر بك ما بقيت الدنيا. خامسا: وبعد ذلك فسعدون جميعا إلى الله الذي يحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، إذ التصير الديني لم يرضح اليهود للكافرين للإيمان بعيسى.

56-57، هاما الدين كفروا، الظالمين.

سادسا: نصريح بالحكم الذي سيصدره رب العزة يوم القيامة: أما الذين كفروا بك فساعذبهم عذابا شديدا بقوى فتصور.

سابعا: الذين آمنوا بك وقرنوا الإيمان بقباع ما حنت به فكاست أعمالهم سالحة، يجزيهم جزاء ولها لا يضيع من أجورهم شيء.

ثامنا: يتأكد الوعد والوعيد بإيراد الحقيقة الكتابية: إن الله لا يحب الظالمين. وهي تنبه للفظها أنه لا يتجاوز عن أي منكر من أعمالهم ولا يعلمون في رحمته. وفي المقابل فإن المقسطين الذين لا يتجاوزون حدود ما جاء به عيسى ويراعون في أعمالهم أن تكون على وفق هدايته يحبهم الله. ومن أحبه الله أعانه على الخير وضاعف حسنة وغفر ميثاقه.

58-60، ذلكم نكوه عايصكم، لا تحزن من الممشزين.

بعد أن سجل القرآن ما خاطب الله به عيسى، وقد بعثه، توجه الخطاب لمحمد ﷺ مظهرا له الغاية من سرد ما تم لعيسى فيقول الله للبيته: ما نكوه عليكم هو أوبة ومعجزة وتكر يحوي الحكمة ويبينها. وتتجلى تلك الحكمة في إسماء المسلمين بإدراك سر خلق عيسى من أم بدون أب، الذي حير البشرية التي لم تهتد بنور الإسلام وما يزال يحيرها. كفر به اليهود ورسوه وأمه بكل منكر مستبشرين خلق إسمان بدون أب. وحير النصارى فزعموا أن الذي يصدر للوجود بدون أب لابد أن يكون إلها أو إله. وتفرقوا في تلكم التصورات أحزابا ومذاهبا، وإلتي الحكم للفصل من القرآن: إن عيسى كلمة الله خلق بكلمة منه، وله نظير في تاريخ البشرية. فأهل الديانات جميعا يأمنون بأن أيا بشرية هو آدم وهو مخلوق من تراب بدون

أب ولا أم، وبكلمة الله (كن) فهذا هو الحق الذي فتحه لك ربك الذي تولّك، وإذا كان الخطاب لرسول الله فلا تكن من الشاكين، فإن المقصود به تهى النصارى عن التشكك في أمر عيسى بعد التوضيح والبيان الذي جاء به القرآن بالخبر الصادق الموحى به قرأنا شاهدا على أن هذه التقليل لا علم بها لرسول، وتقويم معلومات النصارى بمرور الحقائق كما نمت، مما يقبله العقل، ونقص دعوهم في إصرار أن عيسى إله.

61- فمن حاجك عليه لعلته الله على الكافرين.

إن وضع النصارى إذا كان هو مواصلة الجدل بالباطل فدعهم إلى المباحلة: تقدموا فلندع نحن لبناعدا ولتدعوا أنتم لبناكم وتدعوا نحن نساونا وتدعوا أنتم نساكم، ونحضر نحن وتحضرون لنتم في هذا الجمع فرهيب، ثم ننتهل جميعا إلى الله أن ينزل لعنته على الكافرين. ينكر كتاب السيرة أن نصارى نجران الذين قدموا على النبي ﷺ في المدينة وحاوروه في أمر عيسى وأنزل الله على رسوله ما يطمئنه ما اعتقدوه في عيسى ﷺ، واصلوا نساكم بظواهر أولوها على غير وجهها (كلمة الله - ليس له أب...) فدعاهم لرسول ﷺ للمباحلة ليقطع عنادهم. وامتنعوا من التقدم للمباحلة.

62-63، إن هذا هو القصص، سيالته مستجبة.

يؤكد في خاتمة العرض أن ما تلافاه الرسول من ربه هو القصص الحق الموافق للواقع والمنسجم مع قوتين عقل. فانه لا يكون إلا واحدا (ما من إله إلا الله) وأن الله لا يكون إلا عزيزا لا يفهر ولا يظلم ولا يزدى ويستحيل أن يلحقه أذى، فاعتقاد أن المسيح إله وأنه قتل وصلب بعد أن صاح صيحة عظيمة، كلام متناقض. وأى الله لا يكون إلا حكيما، وبعد من الحكمة، أن يسلم نفسه للتعذيب، ويهون الله على رسوله بأن يعرض المعاندين سيقظ عليهم، فإن الله عليهم بالمفسدين، وهو تهديد لهم بأنهم لا يفلتون من جزاء إسلامهم. ونظمين في الآن نفسه لرسول الله ﷺ.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا نُكْفِّرُوا عَنْكُمْ وَنُنَاجِيَ الَّذِينَ هُمْ يُحِبُّونَ فَتَوَلَّوْا أَنْتُمْ وَارْتَبِعُوا صُرُوفَكُمْ فَسَيُؤْتِكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ كَثِيرًا إِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ الْعَامِلِينَ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ

فِي مَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُخَافُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ خَافِيًّا سَلْبًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَشْرِكِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ أَوَّلَ الْكَاسِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَهَذَا الْآيَةُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

بيان معنى الألفاظ

تعلموا: أقبوا.

كلمة سواء: كلمة نتحد فيها جميعا.

لولى الناس: أقربهم منه وأخصهم به.

بيان المعنى الإجمالي:

دعوة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، بعرض قضية لا يمكن أن يقع فيها خلاف تستوي جميعا في الإذعان إليها: أن نفوس الله بالعبادة، ولا تثبت الأكومية لأحد سواء، ولا ترفع بعضنا إلى مقام الأكومية. فإن أعرضوا هاجلوا عليهم لأنكم مسلمون. ثم تند القرآن اعترضهم على المسلمين فيما يثبت للمسلمون لأنفسهم من أنهم على دين إبراهيم، وحاصل اعتراضهم أنه إذا كان الإسلام هو دين إبراهيم فقد زعم فيه فلسفم إذن على دين إبراهيم. وكل ثرد عليهم أنه لا علم لكس إلا ما جاء في التوراة والإنجيل وهما لم يتعرضا لدين إبراهيم بالتفصيل، وإذا كنتم لا تعرفون دين إبراهيم فمن أين لكم أن تحكموا على الإسلام بأنه زاد على دين إبراهيم؟ والتوراة والإنجيل متأخران على عهد إبراهيم فمن أين يثبتكم العلم بدين إبراهيم، ونحن نستند لكلام ربنا بما أثبتته أن الإسلام على ملة إبراهيم. ثم مخرج بالنتيجة التي لا تقبل منطقيا المجادلة فيها: أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا، فلم يرد لا في التوراة ولا في الإنجيل أن واحدا منهما جسد دين إبراهيم. وإذا نفى عن إبراهيم كونه يهوديا أو نصرانيا أثبت له أن عقيدته كانت قد اتخذت طريقا مختلفا عن جميع التصورات التي كانت في عصره، على عتيا جميعا وهو معنى **(حنيفا)** وأسلم وجهه ووجهه لله الواحد الأحد. ودعى مشركي مكة أنهم على دين إبراهيم كلام باطل لأن إبراهيم ما كان مشركا ولا صلة له بالمشركين. والنبى على ذلك أن لأرب الناس من إبراهيم:

أولا: هم الذين آمنوا به في ذلك العهد كلوط وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام ومن اتبع دينه قبل أن يدخله التشريف.

ثالثاً: هذا النبي الكريم محمد ﷺ الذي أحيا أصول الحنيفية بما أنزل عليه من ربه .
 ثالثاً: أمة محمد التي ضمن لها الله نفاذ دينها بفضل القرآن الكريم. ويجمع لكل عقد شرف أنهم أولياء الله والله وليهم.

بيان للمعنى العام:

64- قل يا أهل الكتاب فقولوا تشهدوا بأنا مسلمون.

على منهج القرآن للرفيق المحكم للعقل، يلمز الله نبيه أن يدعو أهل الكتاب إلى أن يقرؤا مع المؤمنين بالإسلام، في أمر يستوي فيه البشر جميعهم، يتمثل ذلك في القيم التالية:

أولاً: نتفق على أن نخص الله بالعبادة، فلا نعبد أحدا سواه، لا صنما، ولا بشرا حيا ولا ميتا، نتحرر من الخضوع لأية قوة كيفما كانت، نعتز بأننا لا نخضع ولا نركع لأحد سواه.

ثانياً: أن لا نشرك بربنا شيئا، فلا نجعل بيننا وبينه وسطة ولا حبرا ولا راهبا ولا رجلا ولا امرأة.

ثالثاً: أن تكون الشريعة التي نطبقها في حياتنا ونلتزم بها هي شريعته، فلا نشاط أحد علينا لولمنا بما يريد ويخضعنا لأحكامه.

هذا هو التحرر والعزة التي ندعوك إليها. وهذه دعوة فيها إحصاف يستوي به البشر جميعا، يقول الله بعد ذلك: لئن أعرضوا عنكم وواصلوا عنكم فسلوا عليهم: أنكم مسلمون وجوهكم لله الواحد الأحد.

65-66: يا أهل الكتاب والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ويعرض القرآن صورة أخرى من جدل أهل الكتاب، تلك أنهم ماقتوا الرسول ﷺ في دعواه أنه على دين إبراهيم وقالوا له: إن ما جئت به فيه زيادات على ما جاء به إبراهيم، ويلقن الله رسوله ما يرد به لجأهم . فيقرع أهل الكتاب بأنهم يجادلون في إبراهيم ويقارنون بين دينه وبين ما أتى به محمد، ومن أين لهم أن يعرفوا دين إبراهيم ؟ والتوراة والإنجيل الكتابان المرجعان لهما ما بينا شريعة إبراهيم، وما أنزلا إلا بعد إبراهيم بأزمان، وما جاء فيهما ما يكشف عن دين إبراهيم، فهل فقتكم عقولكم لتقولوا: دين إبراهيم مغاير لما جاء به محمد ؟ ها أنتم تقتسمتم في جدالكم مع الرسول ﷺ في شأن موسى أو عيسى على حسب ما استقر في ذهنكم مما علمكم أخباركم أو زيفكم، فكيف تحتاجون في إبراهيم وليس لكم به أي علم لا من علمكم ولا من كتبكم. وهنا يبدو الفارق بينكم وبين قسمة المسلمين حين الله أعلم

تنبه بالوحي الصادق منه وهو العظيم بدين إبراهيم بأن الإسلام متفق مع دين إبراهيم في عقيدته وأصوله.

67- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

الحقيقة التي بصرح بها القرآن في شأن إبراهيم هي: أن إبراهيم ما كان يهودياً، وما كان نصرانياً، وإن نفى عنه أي صلة باليهودية والنصرانية، أثبت له: أنه كان حنيفاً رافضاً لجميع صور التشديد التي كانت في عصره مثلاً عنها (وهو معنى الحنيف) أسلم وجهه وروحه وقلبه لله، وهو ليس من المشركين كما يدعي المشركون من العرب أنهم على دين إبراهيم.

68- إِنْ أُولَىٰ سَوَالِهِ لَتَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ.

وإن تبينت الحقيقة فإن أقرب الناس لإبراهيم.

ولولاهم الذين آمنوا به كسينا لوط وإبنه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام ومن تبعه وسار على هداه.

وثانياً: هذا النبي الذي لحيا سنة إبراهيم قزال الأصنام وحطم الأوثان، وأعاد مناسك الحج كما كانت في عهده، ونشر التوحيد الخالص. فنقى الحيلولة ملة إبراهيم من كل دخول منقصر لصفاتها، وكان لكتاب الله المنزل عليه الفضل في إحاطة الحقيقة بسياج يبقى على أصولها ما بقي الزمان.

ثالثاً: الذين آمنوا بمحمد، هذه الأمة التي تخبرها الله لتكون ساعدة على الحق الوارد عليها من ربها وعلى الحق الذي تلقاه رسل الله ومنهم إبراهيم عليه السلام، ويجمع الكل عقد شرف: أنهم أولياء الله والله وليهم، لا نسب ولا لأن واحداً بقل نفسه للتكفير ذنوبهم وإنما تمتصهم بدين التوحيد: الإيمان الخالص.

وَمَنْ ظَاهِرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَنْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْمُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَنَازِلُ الْكِتَابَ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٧٠﴾ يَنَازِلُ الْكِتَابَ لَكُمْ لَمْ تَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَالْبَيْتِ الَّذِي يُبْنَىٰ عَلَيْهِ تَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُخَافُوا سِتْرَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُوكُمْ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الْفَضْلَ يَبْدَأُ اللَّهُ نَزَائِهِ مِنْ بَشَاءٍ ۖ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۚ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾

بيان معنى الألفاظ

الطائفة: جماعة من اليهود.

وجه النهار: أول النهار.

بيان المعنى الإجمالي

ودت جماعة من اليهود أن يضلوا بعض المسلمين وأن يشككهم في الحق الذي أنزل عليهم. وهم عاجزون عن التأثير في المسلمين، فكافوا هم الضالين لرفضهم الدين الحق. وهم لنعصبيهم لا يشعرون أنهم ضالون. ثم وبخ اليهود لكفرهم بالمعجزات التي أبد الله بها نبيه، وبخاطبيهم: المحب أنكم تشهدون هذه الآيات تتوالى على أنظاركم! ثم وبخهم لخلطهم الحق بالباطل حتى ذهب الثقة بما بين أيديهم من الكتاب، وبخهم لكتمانهم لصا يعرفونه من الحق، وشذع على جماعة أخرى من اليهود علموا على المخلاة، ذلك أن بعضا من رؤساء يهود فالوا لبعض أتباعهم: اظهروا بخولكم في الإسلام في أول النهار، ثم أعلنوا كفركم في آخر النهار على أنكم جريتم الإسلام فوجنتم له لا حقيقة له. ثم خافوا أن يستقر الإسلام في قلوبهم فأخذوا عليهم أن يثبتوا على اليهودية ولا يتأثروها، ويرروا ذلك: أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، على أن التوراة لا تقبل للتسخير ولا يستطعون أن يحاجوكم عند ربكم، رد القرآن عليهم بصيغة نفى مكرهم: إن الهدي هدى الله، وقد حرمكم إياه، فأنتم في ضلالكم سكرون، وقد تخلل هذا الترك مقالتهم، إن حمدا اليهود حملهم على إنكار دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم، بأن الفضل يملكه الله ويتصرف فيه وحده، يؤتيه من يشاء، ويصرفه عمر لا يريد أن يتفضل عليه. وما ضل فيه اليهود أنهم لم يدركوا سعة فضل الله، هو يختص برحمته بعض خلقه لا عن ضيق في سعة فضله ورحمته، ولكن لحكمة، إنه صاحب الفضل الذي لا يحد.

بيان المعنى العام

69- ودت طائفتهم وما يشعرون-

لاقت الدعوة للمحمدية في المدينة صنوفا من مكر اليهود ومن دسائسهم، واستقر في نفوسهم المريبة هاجس، حمل طائفة منهم على نفي أن يصلوا إلى إضلال المؤمنين، بالتشكيك في صديق ما جاءهم به رسول الله ﷺ. ويعلق القرآن على هذه

الخواطر يألها لا تحقق غرضهم بل العكس هو الذي يحصل، ذلك أنه باستمراهم على التعصب ضد الإسلام ففهم ما أضلوا إلا أنفسهم وحرموها من الاهتداء بدين الحق.

70-71، يا أهل الكتاب لم تكفرون... ولنته نعلمون.

ويوبخهم القرآن منكرا عليهم كفرهم بما شاهدوه ورأوه رأي العين من المعجزات والأدلة البينة الواضحة على صدق الرسول. ويفضحهم القرآن بأن موقفهم من الإسلام لم يكن عن لشبهة أو حيرة وإنما نولد عن تمعد لكتمان الحق بل لخلط الحق بالباطل، بل لإكساء الحق ثوب الباطل وخلطه به حتى يضيع، وذلك عن قصد خبيث. وتبشّر الحق بالباطل يكون لشيء إذا صدر من أهل العلم.

72-73. وقالت طائفة... واسع عليهم.

مع استبطلهم لإخراج المسلمين من دينهم ومع إغفالهم للحق وكفرهم بالآيات الدينات، تبرز طائفة منهم مخادعة في مكر شديد، ما ذا صنعت هذه الطائفة الفاسدة؟ دعوا بعضا من اتباعهم الذين يطعمونهم أن يعلنوا إسلامهم في الصباح وبحضروا مجالس النبوة ويؤدوا صلاتهم مع المؤمنين حتى إذا أدير النهار في آخره، أعلنوا أنهم جريوا هذا الدين، فوجدوه لا ينطوي على صدق ولا بردي وظيفة الذين من العلمانية والوضوح. فعلنوا بذلك في الإسلام من الدخول على أنه لا يثبت على التجربة. وخشي رؤوس الكفر أن يثبت هؤلاء الماكرون الدخولون في الإسلام على هذا الدين. فشدوا عليهم أن يثبتوا على اليهودية ولا يؤمنوا ولا يصنفوا إلا من اتبع دين اليهودية. ولا يصنفوا أي أحد بدعي أنه أوتي مثل ما أوتي موسى من ربكم، ولا حجة لأحد طيكم عند ربكم. ويقطع القرآن بين أول وصاياهم لهذا الأتباع وبين آخرها بما ينطويها جميعها، فسبهم بنوها على وهمهم أن الله فضل بني إسرائيل وموسى على العالمين تفضيلا حصر الحق فيما جاء به، فقال تعالى: إلى عدى الله هو الهدى. فليس ما كتبه أنصارهم ولا ما توهموه من أن الهدى هو هدى موسى.

74 - ويختم برحمته... لو العظم العظيم.

ثم زاد هذا المعنى تأكيدا، في الفضل العظيم الذي لا يبلغ لإرثك سعته أحد، هو ملك الله يتصرف فيه كما يشاء ويختار يؤتيه من يشاء وتصل آثاره لمن تطلعت لإرادة الله أن تصل إليه. والله واسع فضله، ففصر فضله على موسى أو على بني إسرائيل هو وهم باطل، عقيدة وعقلا. منقصر لعدم محدودية فضله. وهو نظير

رحمته التي وسعت كل شيء فجعل رحمته قاصرة على بني إسرائيل هو باطل أيضا وسخف من الظن.

• وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِذَا تَأَمَّنْهُ بِعَمَلِهِ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ يَمَتُّهُمْ مَنْ إِذَا تَأَمَّنْهُ بِدِينِهِ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا نَسِيتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُ قَالُوا آمَنَّا بِالْأَمِينِ ضَبِلَ، يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ بَلَى مَنْ أَدَّى بَعْدِيهِ، وَأَتَى لِلَّهِ بِحُجَّةٍ تَمُتُهُ ﴿١٠٧﴾ إِذَا الَّذِينَ يَشْكُرُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَأَتَيْنَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٨﴾ وَإِذْ بَيْنَهُمْ لَفِرْقًا بِأُودٍ أَلْبَسْتُهُمْ بِالْكِتَابِ لِخَجْبَتِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيُكَلِّمُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٠٩﴾

بيان معنى الألفاظ

يؤده: يسلمه.

قائما: حريصا ومواظبا على مطالعته.

ليس علينا في الأمين: ليس علينا في كل حقوقيهم.

الأمين: العرب لأنهم لا يكتبون.

مجهل: مزاحمة.

خلق: نصيب.

بيان المعنى الإجمالي

عرضت الآية تنص على أن من أخلاق بعض اليهود أنهم لنساء، وأن بعضهم تأصلت فيهم الخيانة فلا يستطيع أخذ حقه منه إلا إذا تلعبت المطالبة، ويبررون خيانتهم بأن الله لا يأخذهم بسبب الاستحواذ على أموال العرب الأمين. ويكذبون على الله في وقاحة أنهم يعلمون بأنهم كانوا كافرين، والحق أن من أدى ما لو آمن عليه واتقى فإنه يكون مع الذين فازوا بمحبة الله من المؤمنين. ومن أخلاق اليهود أنهم يبيعون ما عاهدوا الله عليه من إظهار الأحكام المنزلة عليهم، يبيعون تلك حتى يثن قليل جزاؤهم أنه لا يصيب لهم من كرامة يوم القيامة ويحل عليهم غضبه ولا يغفر لهم ذنوبهم ويستحقون عذابا لئما. ومن أخلاق يهود أنهم يحاولون مغالطة المسلمين في قراءة نصوص التوراة فينطقون بها على وجه يحملها السامع غير

المنتهى على خلاف معناها الحقيقي ويظن أن تلك هو ما نزل في التوراة. وهو محرف غير ما نزل. ويصيفون إلى ذلك أنه يكتبون على الله. وكذبهم متعمد.

بيان المعنى العام

75-76. ومن أهل الكتاب. والله يحب المتقين.

عرضت الآية صورة من أخلاق اليهود اختلفوا فيها. ولنصفهم القرآن، فلم يعمم الفساد جميعهم، بعضهم أمين، إن لمناقته في قطار من المال أو أكثر لو أقل لدى لك حقا بدون مماثلة، ومنهم من شاخت فيه للخيانة فإذا علمته أو استودعته ولو ديناراً أعياء بالدوران والمماثلة، ولا نستطيع أخذ حقا منه إلا إذا واليت المطالبة وضقت عليه. ويبررون لكل أموال فتدس بالباطل، بل الله لا يؤاخذهم إذا استولوا على أموال العرب الأمين. ويسجل الله عليهم ذنبهم. ويزيد في التشنيع بأنهم يملكون الخفية، فيكونون قد جمعوا بين سفالة وثب الخيانة، وبين الجراء بتعمد لكذب على الله الذي لا تخفاء خفية.

77. إن الذين اشتروا سولهم عذاب أليم.

كذبوا على الله، خسروا آخرتهم لأن سلة الله الماضية: أن من لئى ما التزم به وحلف التقوى قلبه فإله يظفر بأخر مطلوب: أنه دخل في رصة الذين يحبهم الله، إن الله يحب المتقين، وبالمقابل فإن من يخور الأمانة ويقلب لحظ العاجل على تقوى الله فإنه يحل عليه غضب الله، ومخطئه. ومن لحواف اليهود عن الحق: أنهم يبيعون العهد الذي أخذ عليهم في التوراة، والانتزاعات التي يعقدونها مع الناس، بل حتى ما يوثقونه بالإيمان، يبيعون ذلك ويتكبرون له. مقابل ثمن قليل لا قيمة له بالنظر إلى شرف الإيمان وخشيته من الله. لذا سجل القرآن جزاء استخفافهم بذلك أنهم محرومون من أية كرامة ولا يصيب لهم مما أعده الله لعباده الصالحين، ولا يقف جزاؤهم على الحرمان بل إلى الله يحتقرهم فلا يكلمهم، ويزيد في مقنتهم فلا يعفر لهم ذلومهم (ولا يزكهم) ويحل عليهم غضبه فيكون مصيرهم بين المهانة والإهمال.

78. وإن منهم لفريقا. يقولون على الله الكذب. وهم يعلمون.

ومن مخازيهم أنهم تروىا قسنتهم وعلو عوا بطريقة تخيل للسامع الكلمة أنها نفيد معنى غير معناها، ويصنع شعاعا لذلك أن المنزول ما سمعه محرفاً بهذا اللفظ. ولا يفترون عند هذا الحد بل يعمدون للكذب على الله فيضمون له ما اختلقوه وهم يقصدون للتحريف والكذب.

تمهيد

تولى قضيح الحرافات بني إسرائيل وتمجيد مآلهم وخسرانهم. وعلى المسلمين أن يعلموا أنهم لا يتقدم فئسبهم للإسلام بالقول ومنقضة خدائته بالعمل والسلوك. إن كل ما ذكر عن اليهود يتبع المسلم أنه لا يشفع له إسلامه إذا سار على طريقة يهود. يكرر القرآن في صائق بيانه: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إن حسب الضلال للناس، أو العمل على نشر الضلال، والمكر والحيلة، وخيانة الأمانة ولو كان المؤمن غير مسلم، ومحاولة تبرير الخيانة، وتغيير مقاصد الإسلام وأحكامه طلباً للجاه أو المال، كل ذلك يغرب المسلم الذي ينحط إلى دركات ملوك اليهود، يقربه من اليهود بمقدار ما يبعده عن جماعة المسلمين.

مَا كَانَ ابْنُ آدَمَ إِذْ تُؤْتِيهِ اللَّهُ الْكَيْفَ وَالْجُودَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ فَالْكَفَرُ كُونُوا زُرِّيْعِي بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الْكَيْفَ وَيَوْمَا عَمْتُ فَذُرِّمُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّفْسِ وَالْوَالِدَيْنِ أَيْمَانُكُمْ بِالْكَفَرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا بَعَدَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاكْفُرُوا وَأَنَا تَعَكُّ مِنْ الْمُتَعَبِينَ ﴿١٠٢﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

ربانيين: منسوبين لله أي مخلصين له.

تذرمون للكتبة: تفرؤونه قراءة نظم وكثير.

الميثاق: العهد.

إصري: عهدي وميثاق.

بيان المعنى الإجمالي:

إن من أنزل الله عليه كتابه، وشرح صدره بحجود التنظير فعمر قلبه بالحكمة، وتخيره لمرئكة النبوة وهداية الخلق، لا يتصور منه أن يقول للناس: كونوا عباداً لي واتركوا عبادة الله. وهذا رد على النصاري الذين ادعوا أن عيسى الله أمرهم أن يعبدوه. إذ العبادة لا تقبل تعدد المعبود. إن ما يقتضيه من جمع تلكم المزايا أن يأمر الناس بأن يكونوا منتسبين إلى الله ربهم (ربانيين) يخلصون له وحده ولا

ويشركون به أحدا في عبادته، لأن ذلك هو المسجوع مع علمكم بالكتاب، وبما استنكم له دراسة منكم من مضامينه. وإلى سباق أمره أكد بفتح الكاف بالفتح الكامل يتقني أن يكون أمركم بأن تتخذوا العلائكة أو الأنبياء أرباباً من دون الله. إنه تلهف فهل يمكن أن يأمركم بما يوجب الكفر، مع اعتناقكم بأنه ربكم على الإسلام ؟ ثم استنصر القرآن العهد الذي أخذ الله على جميع الأنبياء منكم بأنه: هذا العهد المتضمن: أخذ الميثاق على النبيين أن يبلغوا ما أتاهم الله به من الكتاب والحكمة، ثم بعد ذلك أن يأخذوا على أنفسهم أنه إذا جاءهم رسول يصدق الأصول التي جاؤوا بها، وهو محمد ﷺ، أن عليهم أن يؤمنوا به وينصروه. ثم أكد عليهم هذا الميثاق فقال لهم: هل أنتم مفرون بذلك وهل أخذتم عهدي على وفاء بما ألتزمتم لكم وأمكم به. قالوا: أقرنا. قال تعالى: **فشهدوا بآياتك وأطعوا نبي ساجد عليهم**. وإن من تولى من الأمم التي شهدت عليها فأولئك هم أشد الناس فسقا.

بيان المعنى العام،

79-80. ما كان لبشر - بعد إذ ألتزم مسلمون.

بعد أن كشف القرآن عن صور من مكر اليهود وفساد دجلتهم وحاجتهم، في الآيات السابقة، وجه عقابته لمحااجة النصارى وإظهار إعراضهم عن العقل فيما يدعونونه ديناً لهم. فقال تعالى: **ما كان لبشر - بعد إذ ألتزم مسلمون.**

(لا يتصور ولا يفعل أن يكون واحد من البشر يتخير الله ويؤثره تقريباً بذل دلائله قاطعة على أنه صالح ظاهراً وباطناً والله هو العظيم بحال البشر في جميع أطوارهم. لا يتوقف علمه على ظهور حقيقة الإنسان بالممارسة للحياة - ثم يؤثفه ويمكنه من الكتاب المنسوب للذات الإلهية الحجة على الخلق، ويجري الحكمة على لسانه فيؤثر الناس على الإدراك الصحيح، ويؤثره النبوة التي يكون بهت مبلغاً لتشريع الله للخلق)، لا يتصور هيمن هذه صفة أن يقول للناس: كونوا عباداً لي، توجهوا إلي بالعبادة وتقربوا إلي من دون الله. ذلك أن العبودية لا تقبل الشراكة. فلما رعم النصارى أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يعبدوه، والعبادة لا تقبل الشراكة، فعزى ذلك أنه لم يرد بأن يكفروا بأفقه. فلا يفعل أن يكون رسولا داعياً لعبادة الله، ثم في الوقت نفسه داعياً للتصريف عن الله إلى ذاته، داعياً للكفر لمن أسلم على يديه. وإذ استحال عقلاً كما هو مستحيل وقعباً ما تمسكتم لعيسى من أنه أمركم أن تجعلوه أبناً معبوداً. فالحق أن عيسى دعاكم لتكونوا ربابيين بسبب ما أوتيتم من العلم من الكتاب الذي نعى عن الله فشركه، وبسبب ما تحصل في قلوبكم من دراسة الوحي دراسة متأنية فاحصمة. والقرآني كلمة مشتقة من الترتب على

صفة المبالغة- كما تقول لحياتي لعظيم للحية وشعراني لكثيف الشعر- ويراد به: المؤمن بالله الجامع بين العلم والوسع والحكمة. وكما لا يعقل أن يأمركم بما ذكرتم، فإنه يستحيل أيضا أن يأمركم بأن تتخذوا الملائكة والنبیین لربابا. تلك أنهم ادعوا أن عيسى لهم أن يتخذوا صورا خيالية للملائكة وللأنبياء، ولن يعظموا تلكم الصور تعظيما وصل بهم إلى التقرب إليها وسؤالها. إن التقرب بالسؤال والتفديس لغير الله كفر. وهل يمكن أن يأمركم بالكفر بعد أن حقق إسلامكم؟.

81-82. ولا تأخذوا الديناء من الناس

ويأتي بعد تلكم الأنواع من الحاجة وتبكيك لليهود والقساري، يأتي بعد ذلك الإعلان عن حقيقة يعلمها الله ولولا أن يظهرها على أنها فضلك لما سبق عرضه في الآيات. يذكر القرآن بالعهد الموثق الذي أخذ الله على جميع الأنبياء، أن يبلغوا ما أتاها الله من الكتاب الموحى به إليهم. وما أتاهم من الحكمة التي تستقيم بها عقول أتباعهم، هذا الميثاق مقترن بأمر هام فوق ذلك: هو أن يأخذوا على أتباعهم وعلى من يحمل اثنين عنهم ميثاقا وعهدا أنه إذا جاءهم رسول من صفاته أنه يصدق الأنبياء الذين جاؤوا قبله، فلا يرفض ما بينوه من غيدة ومبادئ علمية لصالح البشرية، أن عليهم وعلى أتباعهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه بصرا مؤزرا. وبعد أن طاع كل نبي بإعطائه هذا العهد والميثاق الموكد عليه وعلى من دعاهم، أحاط الله سبحانه هذا العهد بتأكيدات: قال الله تعالى: أقررتكم بهذا العهد إقرارا بنفي إنكاره في يوم من الأيام أو ظروف من الظروف كيضا كل ٢ هل أضخم على ذلك، الالتزام الموثق القوي العهد؟ أجابوا بقولهم: أقررتنا.

وهنا أراد الله أن يؤكد عهده تأكيدا بالغاميلنا عظيم من التوثيق فقال تعالى: لشعروا على أنفسكم بذلك، ولما الله العزيز الحكيم شاهد عليكم. هذا الميثاق أنه عندما يظهر محمد ﷺ ويشر الناس برسالاته لن يؤذوه وتصوروه، وتدافعوا عن الحق الذي جاء به. وأعلموا أن من لم يوف بهذا العهد ونكل فأولئك قد عظم جرمهم وهم الحقيقون بصفة الفسق.

أَقْرَأَ بِهِنِ الْآلِهَ وَإِنَّهُ أَشَدُّ نَزَرِي السَّمُومِ وَالْأَزْهَرِ مَلُومًا . كَرَّمَا
وَالْبِهَ رَحْمَتُكَ ۝ فَلَنْ نَأْتِيَ بِآلِكَ وَمَا أَرْبَ عَلَيْنَا وَمَا أَرْبَ عَلَى الرَّحْمَنِ
وَأَسْمِعِلْ رَاسِحِقْ وَنَعْفُوسَ وَالْأَسْبَابِ وَمَا أَرْبَ نُونِي وَغَيْمِي وَالنَّبِشُوتِ مِنْ

بيان المعنى العام:

83- اختير دين الله -والله ترجمون-

توبيخ لأهل الكتاب لرفضهم دين الله بعد تكفيرهم بما أخذ عليهم من عهود. فأي دين يطالبونه، وقد استسلم لله وفقد له من في السموات والأرض، فقد له بعضهم عن طواعية وحب في الحق وفقد له بعضهم بعد المعاناة واضطرته الألفة للإيمان له. ويفقد له الكافرون عندما يلتزم للموت. ولكل يرجع إليه ولا يخرج من قبضته ولا من مصيره الذي ألزمه إياه.

84- قل أمنا بالله سوهو في الآخرة من الخاسرين-

أمر النبي ﷺ أن يعلن:

لبي أمنت والذين معي. أمنا بما أنزله الله علينا من قرآن ومدى. وبما أنزله على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (ولذي إبراهيم) ويعقوب ولد إسحاق، والأسباط الإثني عشر من أولاد يعقوب، وما آتاه الله لموسى الفلاح من الرحي، وما آتاه لعيسى الفلاح من جميع أنبياء الله. لا نفرق بينهم، ولا نفرق أي واحد منهم. هم جميعاً على حق أكرمهم الله بالنبوة ونحن مسلمون لله. وقطعا لنجدى المكشوفين بصبرها فاعصية عامة: من يبتغ ديناً غير دين الإسلام الذي جاء به محمد. لن يقبل منه، ولا يضم لنفسه النجاة في الآخرة وإله لمن الخاسرين.

86- كيف يهدي الله قوماً -لا يهدي القوم الظالمين-

إنه يريد جداً أن يمكن الله من الفلاح قوماً كفروا، بعد أن آمنوا وشهدوا بصديق الرسول ولما جاء به هو الحق ووصالتهم الأيات النبوية، إن الله لا يمدد بالظلمة القوم الظالمين، فلا يهديهم إلى الحق.

87-89، أولئك جزاؤهم سبحانه الله غفور رحيم.

صروح القرآن بجزاء أولئك الذين رفضوا دين الله بعد أن آمنوا به نجزؤهم لعنة الله والملائكة والناس جميعاً، كما جاء في الآية (خاتمين في عذاب جهنم، لا يخلص عنهم العذاب ولا هم ينجون)¹، ليموتوا إلى الإيمان بالحق. وفي المقابل فلين رحمته الله تسعف من تأب من ضلاله وقرن توبته بصلاح العمل حتى يظهر صدق توبته. وذلك أن الله غفور رحيم.

90- إن الذين كفروا سواؤكم هم الضالون-

¹ سورة البقرة الآيات 160-161.

ويتفق القرآن فيقول : إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم تعمق ضلالهم ، وفرسح الكفر بهم وتأصل ، لا مطمع في نوبتهم فضلا عن تصور قبولها. وأولئك هم الذين انغمسوا في الضلال فأحاط بهم.

31- إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَالُوا. وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

أكدت الآية الأخيرة مضمونها، من ناحية أن من مات على الكفر لن يفيده شيء يمكن أن ينجيه من سوء العسير. هو يلقى من رحمة الله ومغفرته، بل لم يعمل على تقديم فدية لجبر نصر كفره تتمثل في ملء الأرض ذهباً، فليس يفيده ذلك، وهذا نوع من المبالغة لئلا ينسبهم ، لأن ملء الأرض ذهباً مستحيل بقدر كما يقدر المجال للدلالة بصفة مجسمة، على أن من مات على الكفر لا أمل له في عفو الله. أولئك قد حق فيهم القول: إن لهم عذاباً ألماً ولا يجدون نصيراً من متاع أو كفيل.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ



بيان معنى الألفاظ:

البر: كمال الخير.

لن الشيء: حصل عليه.

بيان المعنى الإجمالي:

تحريض للمؤمنين حتى يكون إيمانهم هدفا لهم إلى نيل مراتب الكمال في الخير الذي هو مسيرة متلاحقة إلى البر. ولن يحصلوا عليه إلا إذا طاعت نفوسهم ببذل ما هو عزيز عليهم. والله لا يخفي عليه شيء مما يعمل الإنسان.

بيان المعنى العام:

32- لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ إِلَّا بِالتَّوْقَاتِ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ.

لقد ختمت الآيات السابقة بتيسير اليهود والنصارى، المصممين على منال البر الدعوة للمحمدية، وكذلك من مات على كفره من رحمة الله. بشأن القرآن أنه يفرض التذلل بالمشاورة، وعرض صورة التلازم إلى أحط الشوكات، بصورة الصاعدين إلى المراتب السامية.

يرشد القرآن المؤمنين إلى الطريقة التي يصلون بها إلى نيل منزلة الأبرار فيقول: لن تصلوا إلى البر حتى تخطوا الطريق الطويلة المتتعبة في فعل الخير والبعد عن الشر. وللبير مقامه التي تل على أن حب الخير قد تأصل في أعماق النفس البشرية حتى أصبح نورا بضيء لها طريقها وقوة دفعة إلى النفس لتقبل طاعة

لقيام بما كان عسيرا شقيا. إنه ما نزل الروح تصقل شينا فشيننا بالطاعة حتى ينقلب ما كان منكرا لها محبوبا. فالعبادة في البحر مثلا تصبح للينة للنفس فتجد فيها راحة، (تتجلى جنوبيهم عن المضايح بضعون رهبة خوفا وطعما) والمال الذي من طبع للنفس فتح به تصبح النفس تقدم على بذله بغير ممانعة، ثم يسمو ذلك حتى يصبح الإنفاق لذة، فينفق النفس الذي يضمن به عداوة وحب لنفسك به. إنه إذا وصل الإنسان في تركية نعمه إلى هذا المقام، مذك منزل الأبرار. وما يفعله هو الخير. وبنيت الله المؤمنين على هذا السلوك بقوله: إن كل ما يقوم به الإيمان من خير فإن الله به عليم. والتذكير بأن الله به عليم، يعيد لمؤمن: أولا: أن الله يجزي الإنسان بما قدمه وثانيا: أن مراقب الإخلاص يطعمها الله ولا ينقص عليه.

• كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا نَحْنُ إِتْرَاهِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِتْرَاهِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فَلَا تَأْكُلُوا بِالْتَّوْرَةِ مَا كُنَّا نَأْكُلُهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَرَامٌ مِمَّا أَرْزَوْا عَنْهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ فَاتَّبِعُوا بِلَّةَ الْإِسْلَامِ خَيْرًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

بيان معنى الألفاظ

الافتراء: الكذب والاختلاق.

بيان المعنى الإجمالي:

ادعى اليهود أن التوراة حرمت أشياء أحلها الإسلام، وهم لا يرون للنسخ ما فهموا لتباعهم والسج أن ذلك دليل على عدم صدق القرآن - ناقضهم القرآن في دعواهم أن الله حرم في التوراة ما رجموا، تلك أن التحريم حسنة من يحقوب على نفسه والتوراة نزلت بعد، بأزمان. ولما كفى من شأنهم عند أجهلهم القرآن إلى أن يأتوا بالتوراة ليظهروا النص الذي يحتجون به وهو غير موجود، وبذلك يكونون قد كذبوا على الله واختلفوا أشياء من خيالهم بسبوا على الله. ركف لليهود وصدق الله، أن دعوة الإسلام تبعهم دائما فلم يروهم قاتلا، تبعوا مله إبراهيم حنيفا فإنه ما كان من المشركين.

بيان المعنى العام:

93- لكل الملعون... فاتكوها إن كنتم صادقين.

هذه الآيات ترد على اليهود افتراءاتهم التي يروجون لها ويبنون عليها نتائج باطلة كعقوباتها. عدوا أشياء محرمة عليهم نسبوا تحريمها إلى التوراة، وهي مما لأباحها الإسلام. وبنوا على ذلك أن الإسلام يخالف الحق فأورد عن الله في التوراة ولذا هو ليس من عند الله.

ابتدأ الرد عليهم بأن كل أنواع الأطعمة كانت حلالاً ليلبي يعقوب عليه السلام. وإنما الذي وقع أن يعقوب حرم على نفسه أشياء لما زهداً، ولما لوضع صهي خاص به امتنع معه عن بعض الأطعمة تبعاً لما وصف له لطباؤه. وهذا التحريم من يعقوب كان طبعاً قبل أن تنزل التوراة على موسى بقرون. فما ادعوه من أن التوراة هي التي حرمت كذب على التوراة، وخلق بين محرمات التوراة وما حرمه يعقوب على نفسه ومن ناحية أخرى لما نكروه من المحرمات فيه زيادة عما حرمه يعقوب. ولينظر القارئ كتابهم وافتراءهم، لمزهم أن يأتوا بالنص المثبت فيه ما ذكروه من المحرمات، ونحذاهم بقوله: **يَنْ كُتِمَ عَائِقِينَ.**

94- هَمَنْ اقْتَرَى... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

ثم ألزمهم بالنتيجة المنطقية على عجزهم عن الإتيان بنص يصدقهم فيما قالوا. هذه النتيجة الطبيعية التي لا تقبل نقاشاً ولا رداً هي: إن من اقترى على الله الكذب بعد الرجوع إلى التوراة التي اجتجتم بها فأولئك هم الظالمون أشد الظلم بكذبهم على الله. وتعين أن يكونوا هم الظالمين لما عجزوا عن الإتيان بنص من التوراة يثبت مقالتهم.

95- قُلْ صَدَقَ الْمَسِيحُ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَكْبَرِينَ.

يصرح القرآن بالحقيقة الثابتة أمراً الرسول أن يعلنها: **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ.** ويبيّن على ذلك أنهم مأمورون بلقاء ملة إبراهيم حقيقاً كما فصله القرآن، إبراهيم الذي ما كان مشركاً بالله. ومحمد هو المظهر للبيّانيات التي في دين إبراهيم.

إِنْ أَوَّلَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ لِلَّذِي بُدِّعَ فِيهِ يُبَدِّلُ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ هَاجَتْ يَتَبَسَّتْ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ. وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا. وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنْ أَشْطَطِ الْإِسْلَامِ سَبِيلًا. وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

بيان معنى الألفاظ

بِدِّعَ: مكة البلد، لو مكان البيت.

البركة: الزيادة والتماء - وتطلق على الدول والنبات.

ميان المعنى الإجمالي:

حقق القرآن أن أقدم بيت بني لحادة الله عبادة خلصة، هو البيت، الذي بناه إبراهيم عليه السلام بمكة. جعل الله البركة فيه باقية إلى الأبد، وفيه من الأسرار ما يعشق للشعور الديني للراقي. فيه آيات معجزة دالة على مرئياته، منها الحجر الذي قام عليه إبراهيم لبناء البيت، لأن له وبقيت آثار فعميه ظاهرة وكتب الله الأمن لسكانه. وأكرمه بأن جعله مقصدا لأداء الحج الذي فرضه وألزم به كل من استطاع أن يجد طريقا إليه. ومن رهس الإذعان لفريضة الحج ورفض ما ألزم الله به عباده فلم يضر إلا نفسه، لأن الله غني عن العالمين جميعا لا يتأثر بطاعتهم ولا عصيتهم.

ميان المعنى العام:

96. إن أول بيت وضع للناس للذي للهدين للعالمين.

يؤكد القرآن على الاتصال بين إبراهيم عليه السلام وشريعته، وبين محمد ﷺ والدين الذي بعث به لخدم رسالات الله للعالمين. ومن مظاهر هذا الترابط أن البيت الحرام، بناه إبراهيم عليه السلام، وأمر من ربه بلفه ياه جبريل عليه، وأعلمه على إنجازه إسماعيل عليه السلام، فاجتمع في هذا البيت أمر رب الأرباب بوسطة ملك الوحي جبريل والعامل فيه إبراهيم والمساعد له إسماعيل. وهو شرف للكعبة لم يشاركها فيه أي بيت آخر، وبجانب هذه المعاني ما حققه القرآن، بأن هذا البيت هو أقدم بيت بني لعبادة الله وحده، واستمر كذلك عبر الأحقاب والصور، حتى إنه في العصر للاحالي بقي مستقرا في نفوس العرب، على وثنية عند غير قليل منهم، أن للكعبة بيت الله، دونوا ذلك في شعائرهم، وطعموه عمليا في طوافهم حول الكعبة، وما قدم أحد على التشكيك في ذلك. حتى إنه لما قصص أبرهة الأشجور الحبشي للكعبة ليهدمها، كان جواب عبد المطلب: للبيت رب يحميه، وحماه الله فعلا. فاعتراض يهود على توجه المسلمين للكعبة، وادعواهم أن يبيت القعنين أولى بالتوجه إليه، غير صحيح ولا مستند إلى دليل يؤيد دعواهم، بل ما نكرو في مزاي الكعبة بجعلها حرة بأن تكون قبلة للتقرب إلى الله من جميع العالمين. وبكدة ومكة، هل هما شيء واحد، أو مكة مكان للبيت ومكة المدينة، أو العكس؟ اللغة لا تقضي أي واحد من هذه الاحتمالات. أضاف الله لمزية ميثقة على جميع اليبوت المنقضة للعبادة أمورا: أن الله بارك فيه. وضروب البركة كثيرة - 1 معنوية - 2 وعلنية :

فمن الأول: أن الصلاة في حرمه تعدل أكثر من ألف صلاة، وأن الأعمال الصالحة بتضاعف ثوابها، وإلى الجلوس حوله والنظر إليه ينمى الملاحظات الروحانية،

ويشرح القلب، ومنها أن الطواف حوله عبادة، زيادة عن كونه ركناً من أركان الحج والمعرة.

ومن الثاني: أن ماء زمزم فيه خير كثير لشربه، وهو ينور ولحده ومع تلك يستقي منها الناس في مكة والمدينة ويحمل الحجاج والمعتمر كميات تفل أو تكثر، وهو معين لا ينضب . ومع أن مكة في بلاد غير ذي زرع، فإن صنوف الخيرات التي ترد إليها تمل على البركة فيها. **فدى للعالمين:** ميزة أخرى لأن البيت هو القبلة التي لم تصاها الله ليؤتجه نحوها البشر عند صلاتهم.

وإذا كان الإسلام قد تمنح جميع الشرائع السابقة فإن فتوحه لبيت المقدس كان مما نسخ، ولم تبق قبلة يقبل الله الصلاة إليها إلا الكعبة لبيت الحرام.

97-فيه آيات بينات، للعالمين.

هذه الآيات كما يدل عليه لفظ الجمع هي كثيرة، وهي بينة لا يخلد فيها، فمن أوضح هذه الآيات أن الدخول للحرم بحث في روحه تسامياً، طهارة، زكاء، ويشعر شعوراً أقوى بصلاته مع إخوته المؤمنين في مشرق الأرض ومغاربها، وكل من زاره يزداد شوقه إلى العودة إليه، وفيه مقام إبراهيم الباقي أية أند للدهر على ما قاله: **بناهم من عبادة وعون.** ومنها أن لبيت يمكن غير ذي زرع، والمشاهد فيها وحيتها، أن الخيرات موفورة فيه.

مقام إبراهيم: يتفق أهل الأديان الثلاثة أن إبراهيم الله جميع الأنبياء هم تسله . وإبراهيم أقام في مكة وبنى البيت بأمر من ربه من ابنه إسماعيل . وكون إبراهيم أقام فيها وأقام أول بيت وضع للعباد بوحي من ربه، يدل على ما لهذا البيت من خصائص ميزها بها رب للعالمين . من خطه كان أمناً: آمن الله على قريش بأن الله آمنهم من خوف. وهذا الأمر قد تأكد بمجيء الإسلام، وأخذ الجاهلي بجدائنه إذا ارتكبها في الحرم. لولجأ إليه ليمجو من العقوبة مسئلة للفقهاء لنظار فيها.

إيجاب الحج: هذه الآية أصرح نص على وجوب أداء الحج للركن الخامس من أركان الإسلام. والركع أنها نزلت في السنة الثالثة للهجرة، وقيل: في أول سنة خمس بعد غزوة الخندق. وقيل في سنة تسع، والذي يهنا اليوم أن الحج ركبن من أركان الإسلام، وأنه إلى البيت الحرام وما حوله من المناسك التي حددها النبي ﷺ . كما قال في حجته: خنوا على مناسككم. وتلك مزية من مزايا البيت الحرام. وقد أكدت الآية للقيام بأداء هذا الركن على كل من يستطيع القيام به. وقوله تعالى: **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين،** وإن حمله بعضهم على التراخي عن أداء فريضة الحج حتى نفوت التراخي وذلك كفر. ولكن أعمال الأئمة جميعها يرجع

لن المتراخي كفر بنعمة الله، لو تراخيه يجعله قريباً من الكافرين فهو تغليظ على المتهاونين.

قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن دَامَتْ تَبْغُوتُكُمُ جُوعًا وَآثَمُ شَهَادَةٍ وَمَا اللَّهُ غَفُورٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ اسْمِعُوا فَرِيدًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم مِّنَ آمَنِكُمْ كَقَبِيعٍ وَّكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنَّهُ تَكُنَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَةُ اللَّهِ، فَيَكُمُ رِسُولُهُ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَأْتِ الْهُدَىٰ إِلَىٰ سَبِيلٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

تصدون: الصد الإعراض.

تبغوتها جوعاً: تطبور لها عدم الاستقامة.

يتصم بالله: رجأ إلى الله.

بيان المعنى الإجمالي:

إنكار على أهل الكتاب تصادهم على الكفر بآيات الله كالقرآن ومعجزاته ، وإنكار عليهم أن يرفضوا الإقرار بفضل الكمية. ويهددهم بأن الله عليم بما يعملون. ثم يتنبي بالإنكار عليهم لأهم مع معرفتهم للحق، يعملون على منع الناس من اتباع الطريق المستقيم الذي يرضاه الله من عباده ويريدون أن يسيروا في الطريق المموج مع أنهم يشهدون في بطنهم أن ما يضللونهم به هو غير سبيل الله. ويهددهم بأنه يعلم مكرهم بما يفيد مجازاتهم. يحذر الله المؤمنين من تلبيس أحيار اليهود والقسوسة، وأنهم إن اتوا لهم وأطاعوهم وقعوا في فخهم، ذلك أن غايتهم أن يخرجوكم من دينكم وأن تتحولوا إلى الكفر بعد أن هداهم الله للإيمان. يستتهم القرآن مستهماً يدل على استبعاد أن يؤثر فيهم تضليل بعض اليهود والنصارى، في الوقت الذي يسمعون فيه القرآن ويتلفون من نور النبوة مبثورة ما ينفي عنهم شبه المضللين.

بيان المعنى العام:

98- هل يا أهل الكتابية... والله شهيد على ما تعملون.

مجتمع المدينة مجتمع يشمل المؤمنين من الصحابة رضي الله عنهم، ويشمل المنافقين الذين يكونون للإسلام والمسلمين، ويشمل اليهود، ولقد عمل رسول الله ، بمجرد حلوله بالمدينة المنورة، على كتابة ميثاق بين طوائف اليهود، وبين

المسلمين، ضمن لكل فريق حقوقه وواجباته، ووفر فيه الأمن والأصول التي يتميز بواسطتها التعايش، ولكن اليهود دأبوا على مناولاة الإسلام والكيد للمسلمين، فكان القرآن ينزل موبخا لهم على عنادهم وعلى ما يديرونه من مكر. ويأمر نبيه بأن يخاطبهم مواجهًا لهم بكلمة، قل: وبخهم على رفضهم الإعلان للأيات البينات التي تنال على رسول الله ﷺ باسمعونها، وشاهدونها، ويهددهم بأن الله لا يخفى عليه عنادهم فهو شهيد عليهم لا يغيب عنه من أمرهم شيء سبحانه

99- قل يا أهل الكتاب لم تصدون... وما الله بخافل عما تعملون-

ويحاولون تضليل المؤمنين ليعرضوا عن دين الإسلام. تريدون منهم أن يسيروا على الطريقة التي تخالف الفطرة الطريفة المعوجة، والحال أنكم في بواطنكم تقرون وتوثقون بأن ما جاء به محمد حق. واعلموا أن الله لا يغفل عن سوء صنيعكم، فيجازيكم عنه.

100- 101. يا أيها الذين آمنوا... إلى سراط مستقيم.

في هذا الجواب المشحور بالمؤامرات، يخبر المؤمنين فيناديهم موقظًا: اعلموا أنكم إذا كنتم للفريق من اليهود المضال، فتهبوا أن غاية يهود هو أن يردوكم عن إيمانكم الذي شرح الله له صدوركم إلى الكفر. ويثبت الله المؤمنين بأنه يستبعد أن تتطلى عليهم مؤامرات يهود، لو تآثر فيهم، خلصة وأنه تتابعبت عليكم آيات القرآن المدركة للقلوب المجلية للأرواح، المحصنة للمقول من الزيف والأراجيف، وأنتم تنعمون بالاعتباس مباشرة من الأنوار النبوية، فرسول الله يعيش بين أظهركم. وتكون الخاتمة قاعدة من قواعد النجاة والتمسك: من يلجأ إلى الله ويتمسك به فقد حقق لنفسه السلامة، وبالتالي الفوز في هذه الدار ويوم القيامة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٠﴾
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ آبَاءَكُمْ وَآخَاءَكُمْ وَأَسْرَارَكُمْ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْهُمْ دُؤَىٰ فَكَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذَبَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠١﴾

بيان معاني الألفاظ

اعتصموا: اعتصم طلب ما يمنع ويحصى.

حبل الله: ما يقصون به من شرع الله.

شملًا حفرة: طرف حفرة.

بيان المعنى الإجمالي:

دعا الله المؤمنين أن يلزموا التقوى، فتقوى الصلابة التي يتطابق فيها الباطن والظاهر، التي يلقبها المؤمن حتى تكون قرينة أعماله وبولياده في جميع ظروفه وأحواله. وبهذه التقوى يتيسر الامتثال للأمر المولي (**وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**) فيكونون ملازمين لهذا الدين في كل لحظة من لحظات حياتهم، حتى يتحققوا بذلك أن يكونوا وقت طول أجلهم ثابتين على الإيمان، وتكررت الآية بنعمتين عظيمتين: الأولى: أنه حوّل حياتهم من عدوّة مستحكمة إلى توافق وود وتقاصر. والثانية: أنهم كفوا تريبين من الهلاك، فأنقذهم الله من ذلك في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام:

102- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا...إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

بعد أن حصص الله المؤمنين من نعمائهم اليهود بكشف مكرهم بالمؤمنين، توجهت العناية القرآنية لإكسابهم قوة يغالبون بها الصمباب ويتغلبون بها من اللجاج في نبياتهم وأخراهم، فأمرهم أن يصبحوا تقوى للكمال صلبة تختلط بنعماتهم ومغولهم، وتترز عليها أعمالهم، فيكون باطنهم وظاهرهم واحداً، يعيشون مع مراقبة الله في كل ما يصدر عنهم، ينفذ نجاج الإيمان إلى قلوبهم فيخلصون إلى بوابهم، ويتحكم مراقبتهم ش فيما يقومون عليه من شؤون الدنيا أو أمور الآخرة، في دواعي الإقدام وطريقة الإجازة وفي المحركات لكون الشبهوات ونوازع النفس والشيطان، وكوابح بقطة الصلة بالله عن قربان المعصية، بحضور أشعة الإيمان الموافقة، هذا معنى **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَتَّى يُفَاقَهُ**. وهذا ما فيه ابن مسعود ؓ من الآية لما قال: **لَنْ يَطَاعَ فَلَا يَعْصَى وَيَتَكَبَّرَ فَلَا يَكْفُرُ وَيُذَكَّرُ فَلَا يَنْصَحُ**.

وتقوى الله حق ثقته أمر يصحب الزوج حتى يصير جزءاً منها لا يفارقها ولا تفارقه. وصرح القرآن بهذه الصورة البليغة لما قال **(وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)** الذي مؤداه أن يكون المؤمن مع تقوى في كل لحظة من لحظات بقلته، حتى إذا جاءه أجله، كانت لحظة وفاته كبقية لحظات حياته، يمينا صليفاً

103- وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ.

وإلهام طريق نجاتهم بالتقوى، وجههم إلى ما يحفظ كيانههم، ويقدم لهم حامتهم التي بها يحفظون عزتهم ويرهنهم عنوهم فلا يطمع فيهم، ولا سبيل

لتحقيق ذلك بعد التلبس بالتقوى، إلا أن يقيموا رابطتهم الاجتماعية على التمسك بهديّة الله التي لا تريد مع الأيام إلا قوة وشدة.

يرتبط البشر فيما بينهم بمزاجات أنواع من الروابط: رباط الأسرة، ورباط القبيلة، ورباط المدينة والقطر، ورباط الجنس ورباط البرنامج المياسي. وهذه الروابط جميعها لا يلغزها القرآن، ولكنه يوقظ المؤمنين إلى أن فصر العلاقات البشرية على واحد منها أو حتى على مجموعها، هو تنكّر لجوهر الإنسان الذي يسمو عن تلكم الحدود الضيقة المصطنعة. فيلمر القرآن المؤمنين أن يكون رباطهم الجامع هو مجموع الهداية التي جاعتهم من عند الله. إنه رباط يسمو عن المصالح الطوقسية المتغاية لأنه ملتزم بالحق الذي لا يتغير، ويسمو عن القربى لأنه رباط يجتمع فيه الكل باعتبارهم مخلوقين للوحد الخلاق. جعلت الأية هذه الوحدة فجطت البشر كمن تلافقهم الأمواج في بحر هائل، فامتد لهم حبل من لحد به نجاة. تلكم البحر الهائل المتلاطم هو الحياة ودواعي الأهلية والمصالح العاجلة وحسب لتسلط وقوى الشيطان والشر، وتلكم الحبل المنجي الذي امتدت فروعه فوصلت إلى كل فرد فرد، هو دين الإسلام دين الله المنقذ للبشرية من غيها وضلالها وحيرتها. إنه لا ينفع لمس الحبل أو التقرب منه، ولكن لا ينجو إلا من تمسك به بقوة والتزمه التزاماً بصحبته في نشاطه وحياته. وهو حبل لا ينظر فيه لكل شخص على تفرد وإنما هو حبل يجمع المؤمنين كلهم، فالقوز بالبقاء يتحقق إذا أخذ الجميع به، وإذا تمسك به بعضهم وتركه بعضهم، لم يستطع الماسك وحده أن ينجو. إن التفرق عودة للمناقص المنهج الله كما بيناه.

ويتأكد هذا المبدأ الاجتماعي بتذكير الله للمؤمنين بحالة كانوا عليها، ومضت عليها حياتهم ربحاً من الزمن غير قليل، وما استطاعوا أن يخرجوا منها رغم ما بذله حكماؤهم وأولى الزاني فيهم. لقد استحكمت العداوة بين القبائل مكونات المجتمع العربي، يقتاتون وشبكت الحماة، وتستمر علاقة الحربية المتوترة أمداً يبلغ عشرات السنين. وما كانوا يستطيعون الصمود أمام غزو الأمم المحيطة بهم، وما كان يحسب لهم حساب في ميزان القوى المتجكمة في العالم، لتتككهم وقصر نظرهم. نعم عليهم بالإسلام، نعم عليهم إذ طوع قلوبهم لتلقي الوحي الذي ضيخ في أرواحهم ليثابروا بعد قوة، وحيا بعد كراهية وبغض، وترابطاً إنسانياً بعد طغيان الأهلية، ولزرة بعد الاستئثار. تجمعت برحمة الله تلكم المعاني فتكون منها تسبيح الأخوة الإيمانية، وما نزل تقوى هذه النعمة في قلوب المؤمنين عبر السنين والقرون، حتى أصبح المسلم في اندونيسيا بشراً برابط الأخوة مع المؤمن في

المقرب الأقصى، ويجمعون مثلاً في الحج فمن صفا إيمانه ينظر للمؤمنين كأنه قد ربوا في محض واحد وتعارفوا منذ الزمان.

ونعمة أخرى صورها القرآن بهذا التجسيم المربع ثم الممتع: جماعة للزقبت بهم لأقدامهم وهم على منحدر، وصلوا إلى نقطة هي حرف قاع بعيد قصره يلتهب ناراً، تلك السنة ليهب تحرقهم، ولا يستطيعون العودة إلى منطلقهم. ففي هذا الوضع الميؤوس منه، نلني الرحمة الإلهية فتقذهم من العذاب والهلاك الذي يترصدهم. هذا هو أمر الإسلام جاء للعرب وقد تهيأوا للانحلال الاجتماعي والنيوان وانحرفوا في عيانتهم فمصيبره العذاب والنكال. جاء الإسلام فأنقذهم من سوء المصير.

والنعمة التالية أنه على هذا النحو، تتوجه إليهم العناية الإلهية فتفتح بصائرهم وتفتح لهم الطريق المستقيم، وليس ذلك لإقامة الحجة عليهم ولكن رجاء أن يهتدوا وينقذوا أنفسهم من الضلال ويميروا في طريق الهدى.

وَلَتَكُنَّ مَتَكُم مَّذَكُورَ إِلَى لَعْنَةٍ . بِأَمْزُونَ بِالْعَرُوبِ وَيَتَّبِعُونَ غِيَابَكَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمْ بِالسُّبُوتِ وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ أَهِيَ رَحْمَةُ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ذَلِكَ يَوْمُ تَنْفَخُهَا غُلُوبًا بِالْحَقِّ وَمَا تَلَّا تَأْتِيهِمْ لَلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَفِي مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَإِنَّ اللَّهَ تُرْخِعُ الْأُمُورَ ﴿١٠٥﴾

بيان معنى الألفاظ

الأمّة: الجماعة.

المعروف: ما كان مقبولاً، تألفه العقول وينسجم مع الشرع.

المنكر: الباطل والفساد.

نقلوها: التلاوة حكاية كلام لإرادة تبليغه بلغظه.

بيان المعنى الإجمالي:

دعوة للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ وللمن يأتي بعدهم، أن تقوم جماعة منهم بالحفاظ على سياج المنهج الإسلامي في الحياة، يتولون تحريض البشر على الإيمان بما أمروا به على وجهه مشرّوح، ويوقظونهم حتى يمتنعوا عن الشر الذي

نہوا عنه. وهؤلاء هم الذين تحقق لهم النجاح. ونبهوا إلى الصورة للمعاكسة ليتقروا منها ويتعدوا عن التواخي في القيام بواجب تحصين الأمة من الانحلال في القيام بالواجبات، أو الانغماس في إيمان المذہبات، لأنه إذا تخللت الأمة واتصفت مع أمواتها، والأهواء لا يجمعها جامع، ولا تقوم على معايير ثابتة، فإنه تتفرق كلمتهم ويختلفون في غاياتهم، كما هو حال اليهود، إذ تفرقت كلمتهم وتسلطت عليهم الأمم شركتهم. وعالمهم يوم القيامة أشد نكابة، ولهم عذاب عظيم. سينوقون هذا العذاب يوم الجلاء الذي تبيض فيه وجوه المنافسين وتسود فيه وجوه المصفوتين المعذبين. أما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التشويق والتفريع: لكثرتم بعد إيمانكم ؟ ثم يهانون بالتوجه إليهم لن يسلط عليهم العذاب إلى أن يبلغ الإحسان به أقوى درجة من الإحسان. ولما الفريق الأول وهم الذين لبيضت وجوههم فيقالون جزاءهم رحمة من الله خالدين فيها. كل ما سبق مما أرفناه عليك من أيات القرآن نتلوها على قلبك لتثبتك بها ولتبلغها للناس بما شتمت عليه من بشارة وإنذار وتحقيق للجزاء، هذا الجزاء الذي هو العدل الإلهي. فأنه سبحانه لم يخلق البشر ليطعهم ولكن ليجزئهم بما عملوا. وتساعد ذلك أنه مالك السموات والأرض، فهو يرود صلاحهم لا يخال الضرر عليهم بظلمهم بل يجرهم بما قنموا.

بيان المعنى العام:

104-105. ولتكن منكم أمة يوقنوا عذاب عظيم.

تنبأت الآيات السابقة مؤسسة للأركان التي تقوم عليها الأمة الإسلامية لتؤدي نورها الفاعل في الحياة، وتوجب تلك التوجيهات والأوامر بدعوة هذه الأمة أن تكون أمة على هذا الدين في الحياة العملية. اسروا بأن يحولوا أنفسهم تحويلاً نخرج به منهم أمة لها مواصفات ومميزات تقوم بالثور المنوط بها في قيادة البشرية لتحقيق بها الفضيلة، وتجمع الرقيّة، وتزيد الخير وأمله وتباعد الشر وشياطينه. كما تقول لطالب علم: ليكن منك عالم الذي ينفع الإنسانية، كما يمكن أن يحمل المعنى على أنهم اسروا بأن يخصص منهم فريق للقيام بدور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والذي يترجح عندي هو الأول. لي الأمة التي تحمل رسالة الإسلام هي الأمة التي يكون في ضميرها العلم وفي شعور كل فرد من أفرادها، كراهية الشر ورفضه، وحب الخير والعون على مصلحته. وهؤلاء الذين سموا في أخلاقهم إلى هذا الحد هم الذين اختصوا بالفلاح والنجاح والفوز في الدنيا والآخرة.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبط. فأعلى المرتب هي للعلماء الذين تمكنوا في معرفة الشريعة، ولا يكاد يختلط عليهم في أمر واحد الخير والشر، وكذلك لأولياء الأمر القائلين على تنفيذ شرع الله في المجتمع الإسلامي وهؤلاء مكلفون بالقيام بهذا الواجب.

وبدون هذه المرتب العالية مرتبط دونها، وما من مسلم إلا وهو يدرك وجهة نظر الإسلام في أمور كثيرة وإن لم يبلغ درجة القسم السابق.

فهؤلاء في حدود ما يتفقونه، هم مأمورون بالدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر. حذ ذلك مثلا القيام بغريضة الصلاة يكاد حكمها لا يختلف في مستوى إبرائه أكبر علم عن العامي البسيط في مذكره الشرعية. وكذلك شرب الخمر فإدراك شره معلوم علما وبغيا لكل مسلم. فالأية تدعو الأمة إلى أن تكون بقطعة لما يتكشف للعلن من فضائلها، وتكون حامية الدعوة لو حامية الرخص فوبه، تجعل كل من تحدثه نفسه بالخروج عما أَرْضَتْهُ الأمة ومطابق بهذا الإجماع على تحريم الخمر، ورفض الشر.

107-106 يوم تبيض وجوههم وجوه فيها خالدون .

لنثبت المؤمنين على هذا المبدأ بجزءهم بأنهم، إن ما تراضوا عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن عقبتهم لا تختلف عن عقبة من قبلهم، الذين بلغت أيات الله البينة فتركوه وراء ظهورهم فاحسبت جملتهم، وصعدوا بترك المذكرات تتبع فيهم وباهل الحظ على الخير بينهم. وذلك لأن الاستقامة تكون للأمة رأيا واحدا ونهجا للسلوك لا يختلف شأن الحق الذي لا يكون إلا واحدا، أما الهوى والشهوات فهي مسالك عديدة، ومنعرجات في السلوك عن الاستقامة بعيدة. والتفرق يفصل إلى الاختلاف. والاختلاف الذي يمن لصاحبه في البعد عن الحق لهم عذاب عظيم. سيلقون هذا الجزء في اليوم الذي تقترب فيه ملائكة البشر على صنفين: صنف ليحسب وجوههم، وليس المراد بالبيض أن وجوههم أصبحت كالحرير وصحفات الورق النقية، ولكنه صفاء ونور وإتباع الرضا والفوز كما قال تعالى (تعرف في وجوههم نقرة قنعم)¹. ولما الفريق الثاني وهم الذين لم يصدقوا وجوههم، فكانت من الكروب والهموم، والحري والنفاء، والكتابة والبأس، كالحة لا تلمس فيها أي طيف من رضا أو نور.

109-108 تلك أيات الله لتوحيح الأمون.

تلك الآيات لتلوا على قلبك يا محمد مفروسة بالحق الذي لا يتخلف. إن ما جاء فيها من إنذار ووصف للعذاب مما سيحقق لحقه قطعاً بالكافرين، فما يريد الله أن يظلم أحداً من العالمين. فانه مالك السموات والأرض جميعها، يريد صلاحهم وإصلاحهم، وأعلمهم على اتباع الحق. ومسيحودون إليه ليجزئهم عما قدموا جزاء لا ظلم فيه.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْلَى الْكِتَابِ لَكُنَّ خَيْرًا إِنَّهُ يُنْتَهَى الْمُؤْمِنُونَ
وَكَثَرَتُهُمُ الْفَيِّقُونَ ﴿٢٠﴾ لَمْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ
أَلَا تَدَارِكُهُمْ لَا يَضُرُّوكُمْ شَيْئاً غَلِبَتْ عَلَيْهِمُ الْقُوَّةُ أَنْ مَا يُجَاهِلُ بَيْنَ اللَّهِ
وَالنَّاسِ وَاللَّهُ بِمُضْمَرٍ مِنْ اللَّهِ ضَرْباً عَلَيْهِ الْمُنْكَرَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِفَاتِنَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا مُتَكِبِينَ ﴿٢١﴾

بيان معنى الألفاظ:

لخرجت: الإخراج الإيجاد والإظهار.

يؤلّوكم الأهل: يغرون منهزمين.

تدركوكم: وجدوا على حال القمكن منهم.

بيان المعنى الإجمالي:

خطاب للصحابه الكرام، من الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم، أن هذه الجماعة التي حول محمد صلى الله عليه وسلم هي خير أمة وجدت في تاريخ البشرية.

مقومات هذه الخيرية تبدو في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإيمانهم إيماناً نقياً تصدر عنه جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة. وليقتض أهل الكتاب من غلبتهم بأنه يمكنهم أن يبلغوا مرتبة الصالحة بإعلانهم إيمانهم بصدق. ونصف القرآن أهل الكتاب بتحقيقه أن أهل الكتاب على قسمين: قليل منهم نضل في الإسلام، وكثيرهم تثبت بفسقه وفساده. ولا ينبغي لهذه الكثرة أن تخيفكم، فهم لا يقدرّون على الإضرار بكم، وغاية ما يصلكم منهم، بعض الإذنية الخفيفة التي لا تلوثر فيكم. وأنهم إذا ما هبوا أنفسهم للحرب فإن يبلغوا منكم مكرهم إذ يفرون منهزمين هزيمة لا قيام لهم بعدها. لقد أحاط الله بهم ليئماً وجدوا، لا يستطيعون الخروج منه إلا بأحدى طريقتين: أن يسلموا فيعتزوا بالإسلام، ولما أن يقدوا حلفاً مع قوة منيعة تحميهم بقوتها. كلن ملأهم أن غضب الله عليهم، ولهم لاقوا جزاءهم المقدم في

الدنيا فأحاط بهم الصغار والفقر المذل. وهو جزاء عدل بسبب عصيانهم الذي حطهم يكفرون بألف الله البينة. وبسبب اعتداءاتهم على الأنبياء بقتلهم.

بيان المعنى العام:

110- كنتم خير أمة أخرجت للناس

شهادة وأي شهادة من رب العالمين لهذه الأمة. تناولت أولاً صحيفة رسول الله ﷺ من أووه ونصروه، ومن الذين هاجروا معه أولئك الذين نوه بهم القرآن في أكثر من آية، وتتلعب الأحاديث الصحيحة مؤيدة لمضمون هذه الشهادة، إنه لا تبلغ أمة هذه المرتبة إلا إذا أخذت ملتزمة بمفومات الفلاح التي هي سنن الله في الاجتماع، ومنته في القور بالجنة والرضوان. لا يمكن لأمة من الأمم أن تحقق لنفسها الحياة الإنسانية الرقيقة، والحياة المدنية الرخية، والمناعة المحصلة لها، إلا إذا جمعت بين المفومات الثلاثة التي جمعها هذه الآية- (1) الأمر بالمعروف (2) النهي عن المنكر (3) الإيمان الحقيقي بالله. لتحول تحليل ذلك حتى يتبين لنا صديق القرآن تطبيقياً.

الأمر بالمعروف: عبارة عن التزام علم من كافة فروع الأمة على الاهتمام بتحقيق كل عمل خير للأمة. فهم يساعون على إنجاز، ويذكرون الغافل عنه، ويتضامون بتقديم كل واحد منهم ما يمكنه تقديمه. فالأمر بالمعروف يشمل ميدان الأخلاق على سعته ويشمل الميدان الاقتصادي بمختلف ضروب النشاط التي يمكن أن تنجح فيه، ويشمل الأسرة بالحفاظ على المفومات التي تحميها من التفتت والتسيب والانفلاق وقوي أصرة الوحدة بين أعضائها، ويمكن التحيل الجديد من ميراث الأمة ليحافظ عليه ويسير به إلى الأمام. ويشمل حملة الأمة بإقليم علمي من كل ثغرة في بناء جهازها الدفاعي، كل فرد يشعر بالمسؤولية لتكون حدود الأمة وقورها وتجهيزاتها العسكرية محصنة، وجنودها مدربين خير تكتيبي. ويشمل ميدان المعرفة في واسع ما فتحه الله للإنسان من حقول العلم فيكون هم كل فرد أن يعين على نشر المعرفة. فيساعد الجاد ويحرك المتقاعص. ويشعر الطلبة بأنهم على نظر اعتزل من الأمة. فالأمر بالمعروف يحول الفرد من قصر نظره على مصالحه، وخصوصية نفسه كما يقولون إلى الاهتمام بكل ما يعود على الأمة بالخير، حتى يكون الخير ظاهرة عامة معنياً بانتشارها وتثبيتها.

النهي عن المنكر: ليس النهي عن المنكر كما يصوره بعضهم نهى المكبر عن شرب الخمر، أو الكلاب عن الكتب. فهذا من النهي عن المنكر ولاشك، ولكن ليكون هذا المبدأ مقوماً لتكون الأمة خير أمة أخرجت للناس لا بد أن يفهم على

صورة أدق وأعمق وأوسع مدى. النهي عن المنكر حصول ملكة اجتماعية ترفض الشر وتتفزز من الرذيلة، وتعمل بعد ذلك على الحيلولة بين أهل الفساد من أن يكون لهم صوت مخرب وعمل مفسد. إنه شعور الضال في أمامه مداد من المجتمع يرفض لتخرفه ويمقت شره ولا يسكت عنه.

إن مقاييس الخير والشر كثيرا ما تكون مغيضة على الانحراف إذا استثمرت معاييرها من الإنسان وحده. ذلك أن الإنسان كثيرا ما تتداخل شهواته ورغباته وتحزبه في تقدير الخير والشر ففضله ضلالا بعيدا. خذ لذلك مثلا: أما لون ما أثبتته في هذه الفقرات - يوم عاشوراء من عام 1411 - ويمثل هذا اليوم لشكرى الأولى لبداية الهجوم على غرة. بالطلقات الأمريكية والقنابل المتطورة في تفكك بالبشر. تمزقت أجساد الأطفال والشيوخ والنساء وقشيب والكهول من مكان غرة وهي تحت الحصار. ومرت سنة وهي ما تزال تحت الحصار، بل يجري بشون توقف تشديد الحصار على السكان ليموتوا جوعا وعطشا ومرضا، لو يمدوا أيديهم للقبول وملائم الأمر ويستسلمون استسلام الذل الذي لا قيمة بعده. ومئات الآلاف من المفكرين ورجال الدين المسيحي واليهودي تمر أمامهم الأحداث، وهم بين الصمت المخزي. وبين التمريض الوحشي. وفئة قليلة صوتها يُنصت قبل بلوغه الشفاء وحركات محققة لا تستطيع أن تصلو البطل. وما ذلك إلا لأن قيم هؤلاء قيم منزعة من المصالح الشخصية لا من العدالة الزبانية. فكانت الصفة الثالثة لكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس هو إيمانها، وقبالتها لحق من شرع الله لها.

إن هذه الشهادة من الله سبحانه بخيرية هذه الأمة، وإن كانت قد تحققت في مجتمع الصحابة بالمدينة المنورة، فإنه لما كان تحقيقها نتيجة تجمع مفومات هي سنن الله في الخلق فإن ذلك مما يوقظ الأمة ورجال الإصلاح فيها أن يبيلوا هذه الأمة على هذه الوحدات الثلاث (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله). ولما توجه الخطاب أولا إلى الصحابة رضوان الله عليهم ونوه بهم للتبوية الذي سبزه به عن المجتمعات البشرية في جميع العصور، ولما كانت تلك القرينة قد بلغوها بأخذهم بمنن الله في الإصلاح، كرر نعوته إلى أهل الكتاب ليتحدوا مع الصحابة ويتمجوا في الأمة الإسلامية ويقرروا بالصحة ويحققوا الخير لأنفسهم، ولكن قليلا منهم اهتدوا. ولم يتمتع ما كانوا عليه، عندما انفتحت قلوبهم للإيمان، أن يعتبروا جزءا من خير أمة أخرجت للناس.

لنصف القرآن هذه لطيفة التي دخلت في الإسلام ولكن أغلب أهل الكتاب وخاصة من يهود المدينة شرفوا بالتناحلت التي حققها هذه الأمة، فكسبوا بين الحمد والعمل

على خداع أهل دينهم ومنعهم من الدخول في الإسلام، وترويج الإشاعات لفتنة الناس وبث بذور التفرقة فحق عليهم بذلك وصف الفاسق في مقابلة الذين آمنوا منهم .

111- لن يضروك الله .سبح لا ينصرون.

طمأن الله المؤمنين بأن ما يكر به اليهود في المدينة لا يصل إلى حد الإضرار بالأمة، غاية ما يبلغونه هو الإذابة، كقولهم لرسول الله ﷺ (راعنا) كما قدمنا بيانه في الآية (104) من سورة البقرة.

112 شريت عليه الذل والمسخة .هكلكوا يعتدون.

إن أخذهم بتلك الطرق الملتوية طبع لغوهم على الخسة فعمزوا عن المجاهدة، وأحاطت بهم الفلة، فلا يستطيعون التحول عنها ولا رفع المهانة التي انصفت بهم إلا بأحد لمرين:

الأمر الأول: أن يمزقوا نسج الذل الذي لقف عليهم وذلك بدخولهم في زمرة المؤمنين، وهو حيل الله فيرفع الله أقدارهم، ويعطي هممتهم بارتباطها بمنهج الإسلام في الحياة (**إِنَّ الْغُرَّةَ وَالرُّسُولَ لِلْمُؤْمِنِينَ**)¹.

الأمر الثاني: أن يدخلوا تحت رعاية قوة من غيرهم، وهو الحيل من الناس وهذا ما هو حاصل اليوم. لن عريضة إسرائيل وعجرتها . ما كان يمكن أن يحدث لولا القوى الصليبية المتكثلة ضد الإسلام والمسلمين التي نطقت بإسرائيل تحت حمايتها فاختفوا منها يدا ضاربة شائعة للمسلمين عن المضي فيما تقتضيه يغفلتهم. كان مال يهود أن يغضب الله عليهم، فقوا إليها المؤمنون لهم كلما خرجوا من نكبة إلا تحل بهم نكبة أخرى. لقد حلت عليهم المسكة فهم لا ثقة لهم بأنفسهم واعتمادهم على القوى الدولية الظالمة، والظلم حسب سنن الله في ككون إلى روي.

إن تاريخهم تاريخ أسود فقد عمدوا إلى ما أنزل عليهم من الهدى فحرفوه وكتبوا منه ما كتبوا، فكانوا سريعين للدخول في الكفر. ثم بهم تجردوا على أنبياء الله وقتلهم إيماناً في الاعتداء .

• **أَسْرَأَ مَوَاتٍ نَبِيٍّ أَمَّا الْكِتَابُ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَخَلَّوْنَ بِاللَّهِ تَآفَا، النَّبِيُّ وَهَمٌ يَسْجُدُونَ** . **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَأْتُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَّقُونَ عَنِ**

الْمُنْكَرِ وَفِي خَيْرٍ وَأُولَئِكَ مِن بَيْنِ يَدَيْنَا وَلَنَكْفِيَنَّهُمْ ۖ فَلَن كَفَرُوا وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُنْكَرِ ۚ إِذْ آلَايَتُكَ كُتِبُوا لَن نَقْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِن آلِهِ فَبَا ۖ وَأُولَئِكَ نَحْنُ الْآثَرُ ۚ هُمْ فِيهَا ۖ نَقْلُ مَا عَفَوْنَ فِي غَيْبِهِ ۚ أَلَدْنَا كَمَثَلِ رِيحٍ يَبِئَا مِثْرًا صَابَتْ حَرْمَةُ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَعْلَسَكُنَّ وَمَا ظَلَمُوهَا ۖ وَلَكِنَّ أَطْسِبَهَا يَقْلِبُون ۖ

بيان معنى الآيات

سواء: مماثل.

اناء: أوقات.

يسألون: يستكثرون مبالغين.

بيان المعنى الإجمالي.

أنصف القرآن أهل الكتاب، فلم يحشرهم في قلب واحد، بل نوه بطائفة منهم مسجلاً ما قاموا به من العمل الصالح، فنذكر أن منهم لمة مجتهدة في القيام بدينها، يتلون كتاب الله المنزل عليهم في أوقات الليل، ويمجدون لربهم، تحقق منهم الإيمان بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويشاهدون لفعل الخيرات، وبهذا كانوا محددين في عباد الله الصالحين، وكل ما فعله المؤمن من خير فليكن الله لا بحرمه جزاء فعله، وفي المقابل، فإن الذين كفروا بالله لن يفدهم شيئاً، عند الله، ما جمعه من أموال ولا ما رزقوه من أولاد، وذلك ما يعول عليه هذا الفريق، ليأمال يشتري الضمائر ويغدي نفسه، وبالأولاد يجد لتصوير المدافع، ولما فقدوا كل قوة واجهوا جزاء ما قدموه، فكان جزاؤهم لهم عنت بينهم وبين النار، صعبة تلازمهم ويلزمونها خالسين فيها. وإذا نتقى أن ينتفعوا بالأموال والأولاد، فهل ينتفعون بما قدموه من خير؟ كل كثير من الكفار، يطعمون الجائع ويغيثون الملهوف ويحسون الجوف، فحسم القرآن ليلهم من الانتفاع من ذلك، بأن أعمالهم الخيرة في ظاهرها، وضعهم فيها، كوضع قوم حوثوا أرضهم فلبت للزروع وظهرت الثمار فأصابها ريح فيها برد شديد يقتل كل حياة في النبات فأهلكت الزروع والثمار. ولتقلب أعمالهم وراء ظهرهم، لم يظلمهم الله في هذا الحزاء إنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله الذي مكنهم من تلكم النعم التي خيل لهم لها من عندهم.

بيان المعنى العام

113-114 ليسوا سواء من العمال الحيين

بعد أن شير القرآن بمكر اليهود وأعلن جزاءهم. علا لينتق منصفاً للصالحين منهم. فافتتح الآية بفاعدة علمية. ليس أهل الكتاب سواء، ليسوا كلهم جنودين بصرب قتل والمسكنة عليهم. إذ منهم طائفة اجتهدوا في تطبيق دينهم، وقاموا به خير قيام. لم يفتلموا عن تلاوة الكتاب للمنزل عليهم، وارتبطوا به يتكلمه في هدأة لليل، ويتأثرون بمواعظه ويخرون سجداً لربهم. صاحت عقبتهم فثبتوا على الإيمان بالله واليوم الآخر. وقاموا بواجبهم في إصلاح المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يسابقون لفعل الخير شأن المؤمنين الصالحين الذين يجدون لذتهم في القيام بالأعمال النافعة للمجتمع. وشهد الله لهم أنهم من عباده الصالحين، وفي ذلك إيماء إلى حسن الجراء والتكريم.

115 وما تفعلوا من خير - بالمستقين

ثم التفت القرآن للحاضرين من أهل الكتاب فوجه لهم بالخطاب، أن ما يعملونه من خير لن يضيع وأن تنهب آثاره، بل سيجدون جزاءه قبولا عند الله، وينسحب هذا الوعد على الماضين الذين وصفوا في صدر الآية. تلك أن الله يعلم علماً بالغ الدقة المستقين الذين صدقوا في نواياهم وكانوا دوماً مستحضرين لصلاتهم به سبحانه.

116 إن الذين كفروا لن تغني عنهم فيها خالدون

وفي المقابل نعرض القرآن للمشركين الذين استحبوا الكفر على الإيمان. ومضوا سارين في الإعراض عن الله. وشال الكافرين أنهم يتعلقون بقوة مادية يعملون عليها وحدها لما يمكن أن يصيبهم، فعلاً فالمشركون عولوا على أموالهم لتجزي عنهم، وعلى أولادهم الذين من شأنهم أن يسرعوا لاهصره أبائهم عند الشدائد ليدافعوا عنهم طناً منهم لغيراوتهم أن تكون الدنيا هي المقياس الوحيد في الفوز أو الخيبة. وطلع القرآن أمهم بأن أموالهم وأولادهم لا تنفعهم ولو بشيء قليل، إنهم بكفرهم قد كونوا بينهم وبين النار صخرة لغتهم وألقوا وهم خائفون فيها لا يبرحونها.

117 مثل ما ينفعون أنفسهم بظلمون

ولما كان بعض المشركين قاموا في حياتهم بأعمال صورتها صورة الأعمال الصالحة، فقد كانوا مثلاً بطعمون الجوع في زمن الشدة، وينشئون لمملوف، ويفرون الضيوف، ويقومون بوساطات تنزع الإح وتنتهي القتال بين القبائل فهل تغني عنهم هذه الأعمال؟ هل تغلب وضعهم السيء إلى ما هو أحسن؟

صورة هذه الأعمال صورة حسنة، ولكنها صورة خلوية مُتَبَتَّة لا قرار لها ولا ثبات، لأن العمل يكتسب صلاحه من إخلاص صاحبه لله. وهم لم يؤمنوا فكانت صورة عمل قوم حرثوا أرضهم ونما زرعها، واعتصموا بالأشجار فاستمرت، وقبل أن تبلغ التضرع وأوان القطاف تأتي ريح شديدة فيها برد يحرق للنبات والأعصان والثمار فأهلك الكل. وما ظلمهم الله إذ أحبط أعمالهم، لأنهم هم الذين قطعوا المطاء عن معطيهم فكانوا هم الظالمين وما ظلمهم الله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا جُلَاءَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾ هَٰؤُلَاءِ أَوْلَاؤُكُمْ يُخَيِّبُونَكُمْ وَلَا يَجُودُونَ بِالَّذِينَ كُفِرُوا إِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَمَّاوَا عَلَيَّكُمْ الْأَنْبَاءُ مِنَ الْقَمِيطِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِمَا يُعْطِيكُمُ إِنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ بَدَأَتِ الصُّدُورُ ﴿١٠٢﴾ إِنْ تَمْسِكُمْ خَشَاةَ تَنُوءِهِمْ وَإِنْ تَنصِبْكُمْ مَبَغَّةً تَهَرِّجُوا بِهَا وَإِنْ تَتَّبِعُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٣﴾

تَوْحِيدٌ

بيان معنى الألفاظ:

البطلة: صديق الرجل المختص به.

لا يألونكم خبالاً: لا يقصرون في السعي لما يكون به اختلال لأمرهم.

ودوا ما عنتهم: يحبون ما يدخل عليكم التعب الشديد.

العض: شد الشيء بالأسنان.

الغيط: غضب شديد بصحبه حب الانتقام.

إن تمسكم حسنة: إن يصيبكم أمر حسن.

بيان المعنى الإجمالي:

حذر القرآن في هذه الآيات المؤمنين من المنافقين الذين كانت لهم صلات باهل المدينة قبل الإسلام. فدعاهم إلى أن يتفطنوا فلا يواصلوا ما كان عليه أمرهم معهم من قبل، يوم كان الود بينهم محكما يطلعون على أسرهم ويفضون إليهم يدخلونهم ويتعاونون معهم تعاوناً شاملاً. لقد انقلبوا فهم اليوم يعملون جهدهم ولا يقصرون لتختل أموركم. يحبون أن نحل بكم المشقة والعسر. تبهوا في تلك لستهم ما يعرف بتفكيرهم وعقائدهم، وما تخفيه صدورهم مما لم يظهر في تلك

لستهم أعظم خطراً. ويؤكد على تنبيههم بقوله: قد بينا لكم الأدلة التي تكشفون بها ما وراء الطواهر، إن كان لكم عقل يميزكم بالحققة. فإذن القرآن بعد ذلك بين ناسية المؤمنين والمنافقين. فالمسلمون لا يكتسبون السخف لهم لحسن طواهرهم، وبينما المنافقون يظنون بغض المسلمين، والمسلمون يؤمنون بالكتب السماوية كلها عكس المنافقين، والمنافقون يخالطون المؤمنين، فإذا التقوا بالمؤمنين قالوا لهم: إنا مؤمنون وإذا ابتعدوا عبروا عن الشحنة الغضبية بغض أسلمهم. فظنوا بما حطوا من الغيظ، والله لا تخفى عليه خافية مما يجتهدون في إخفائه. أكل الحسد قلوبهم، فإذا أكرم الله على المسلمين بنعمة حزنوا، وإن يصيبهم أمر سيء يفرحوا. أصبروا أيها المؤمنون ولتبتوا، فإنه لا يضركم بغضهم ولا حادعهم، فتغلبوا على إغائيتهم بالصبر، والله سبحانه يعلم جزليات أعمالهم فلا يغيب عن علمه شيء، على معنى أنه سيجازيهم على الصغيرة والكبيرة من سوء أفعالهم.

بيان للعنى العام.

118-119: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الصلوات

كان مجتمع المدينة قبل مجيء الإسلام تتدخل فيه عناصر من اليهود ومن المشركين. فما أمر الله المدينة بالهجرة فتمول صلى الله عليه وسلم وصحابته المهاجرين والأنصار الذين دخلوا في دين الله من أهل المدينة أصبحت للتركيبة الاجتماعية تشمل المسلمين، وتشمل اليهود وتشمل المشركين، وتشمل فسما آخر له ظاهر كاذب وباطن محفى. وهم المنافقون الذين كشفت الآيات السابقة في أول سورة البقرة خطاهم (ومن الظلم من يقول أئنا مسلمون واليوم الآخر وما هم بمؤمنين). هؤلاء المنافقون هم أشد خطراً على المؤمنين من اليهود والمشركين. ولذلك اعتقت هذه الآيات بتحسين المؤمنين من مكرهم وخطاهم. دينهم ليستيقظوا ويكون لهم حس يعرفون به هؤلاء الذين يخادعونهم متخفين وراء طواهر منشوشة. حزنهم الآية من تقريب المنافقين تقريباً يمكنهم من الإطلاع على أمرهم، وخفايا حياتهم الخاصة، كما كانوا يقربونهم من قبل. إنهم اليوم يجتهدون ويحفظون وسعهم لتدخل أسوركم، إن ما يتلج صدورهم ويشغل عليهم السرور أن تقلب حياتكم إلى مشقة وعسر. تدبوا لطفلك كلامهم، فإني ما امتأكت به قلوبهم من بغض لكم ينفلت بسببه من لستهم ما ينسى عن دخيلتهم. ودخيلتهم أشد سوءاً وأبلغ حفا من فلئت لستهم. قد بينا بهذا لكم الآيات الدالة على نفاقهم، فتنبهوا حتى تكون عقولكم نهيككم وتكشف لكم حقيقة أمرهم فلا تتخدعون لمظاهريهم. ليستيقظوا فإنكم ماضون على طيب سريرة المؤمنين فأنتم تحبونهم،

من أهلك: بيت لأهلك.

تَبَوَّأَ: تَخَيَّرَ مَكَانًا يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْمَقَاتِلُونَ.

وَلِيَّهِمَا: مَتَوَلَّى أَمْرَهُمَا وَنَاصَرَهُمَا.

لَقَلَّةٌ: صَعَابٌ.

مِنْ قُوَرِهِمْ: الْمِبَالَةُ السَّرِيعَةُ.

مُصَوِّمٌ: الْحَامِلُ (لِسَعَةٍ) وَهِيَ الْعَلَامَةُ.

شَرِئَ: حَبَرَ بِوُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ.

مُطَرِّفًا: النَّاحِيَةَ الَّتِي هِيَ مُنْتَهَى الْمَكَانِ، وَيُسَكَّنُ لَنْ يَرُدَّ بِهَا رُؤُوسَ الْكُفَرِ.

وَكَيْتَهُمْ: بِصِيْبِهِمْ بِالْعَمِّ وَالْكَمْدِ.

بيان المعنى الإجمالي:

لنذكر ما تم في ذلك الصباح الذي خرجت فيه من بينك تختار للمجاهدين المواضع الأصالح للقتال. والله سميع لما يضطرب في نفوس أهل المدينة وفي نفوس القزاة من أهل مكة، عليم بقوايا الجميع. وألزم من ذلك ما همت به بنو سلمة وبنو حارثة من أهل المدينة من الانحياز (تركوا الجماعة ورجعوا) عن القتال، ثم عصمهم الله وحصوا تحت راية رسول الله ﷺ. ورغم الفارق بين عدد الكفار المهاجمين وعدد المسلمين فالمؤمنون يتقون بربهم ويؤكدون عليه. ذكر الله المؤمنين بالنصر الذي مكنتهم منه في غزوة بدر وهم ضعاف لقلة عددهم ونقص عدتهم، فاستمروا على الثبوت، وهذا النصر يحرككم لشكر ربكم على غلبته بكم. طمأن للنبي ﷺ الصحابة في تلك المعركة وقد كثرت في أعينهم جيوش العدو، فبلغهم الوحي الذي جاءه من ربه: أن يكفيكم للتغلب على أعدائكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة يقاتلون معكم لشدة إيمانهم بكم لا يعرض سبيلهم أحد؟ وأكد الجواب فقال: بل أي في ذلك كاف. ثم زادهم طمأنينة لما بلغهم أن مددا من الكفار مائتة للنصرة المهزومين منهم، فأكد للمؤمنين بأنهم لن يصيبوا على القتال وتكون الثبوت حية في قلوبهم يمددهم ربهم بخمسة آلاف من الملائكة مسويين بعلامة تعبيرا عن شجاعتهم. وما جعل الله هذا الإمداد إلا بشرى لكم لتطمئن به قلوبكم ويرزق ما حصل من القرية بكثرة الأعداء، وكوبهم من صناديد قريش المعروفين بقوة اليأس. وقروا فيما أنتم عليه من الحق فلن النصر لا يملك قوتكمين منه إلا الله وليس مرتبطا بالات القتال والعد فقط. فلي الله عزيز لا يطعب حكيه يجري أمور الحياة على حكمة قد تخفى على كثير من الناس. فلكم النصر الذي يحو به أطرافا من جيوش الأعداء لو بذلهم إذلالا يتمكن به العم والكم من قلوبهم،

فصحبهم الخيبة عند عودتهم لديارهم. وبعضهم سبغهم على يدهم بالهداية للتوبة والدخول في الإسلام. والبعض سبغهم جزاؤهم من عذاب الدنيا وخزي الآخرة لظلمهم. ويذكر القرآن بين هذه المسائل الأربعة، أن الله هو المتصرف بحكمته، فليس لك يا محمد من أمر عاقبتهم شيء. هو من تصرف الله وحده. ومن ناحية أخرى فإن الله هو مالك ما في السموات وما في الأرض. لا يسأل عما يفعل يفتر لمن يشاء ثوبه، ويعذب من يشاء بما تم. وما غفران الذنوب إلا بفضل منه، لأنه أرحم الراحمين.

بيان المعنى العام:

121- وَإِذْ نَادَوْا مِنْ أُنْطُسُكَا - وَآلِهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

سجلت هذه الآيات بعض ما جرى في غزوة أحد، التي تمت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، التي شارك فيها مشركو مكة وبعض ألقاهم. وأحد جبل غير بعيد عن المدينة المنورة على طريق المطار نزل لمشركون بمفرده. استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه واختلفوا، وكانت الكثرة مع الداعين إلى الخروج لمواجهة الأعداء، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم على رأيهم. بعد هذه المقدمة المختصرة من السيرة ننظر في الآيات نخرج للنبي ﷺ صلباً من نبئه وقت ليس ليبار الحرب إلى جبل أحد، ورتب بحكمته موقع كل قسم من الجيش، وتسير الآية إلى أنه كان يجري في كتيبة الإسلام أمور خفية، لم تخف عن سمع الله ولا عن علمه.

122- إِذْ هَمَّتْ ثَلَاثَتَانِ مِنْكُمْ - الْيَهُودُ كُلُّ الْمَوْءُودِ.

من ذلك أن عبد الله بن أبي بن مسعود رأى المنافقين رجع بثلاث الجيش قاتلاً؛ نحن لا نقاتل خارج المدينة - وهم بنو سلمة - وبنو حارثة أن يعاونوا ولا يواصلوا، ولكن الله تولاها بديانته وليفظها لإتراك الخطر الداهم فلم ينخزلوا وواصلوا مسيرتهما. ويعودون من مكالمهم أن الله أنزل فيهما: والله وليهما. وكفى بهذه الشهادة (والله وليهما) فخراً. ويقطع متابعة الأحداث للتذكير، وذلك مثل القرآن في عرضه للأحداث فأمرهم أن يصنفوا في توكلهم على الله.

123- وَتَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ - فَمَلِكُكُمْ تَشْكُرُونَ.

إن هذا التوكل الصالح كان سبب نصر فيما مضى، فنصر الذي حول وجه التاريخ. ويعود لتقوية نفوس المجاهدين في غزوة أحد بعد الانكسار الذي لحق بالمسلمين لما تحول بعض الجيش عن المنزل التي حدد لهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم البقاء فيها، فيذكر نصره لهم في غزوة بدر يوم كان جيش المسلمين قليل العدد لم يستعد كل الاستعداد لخصم المعركة. فالمعطيات الظاهرية تصفه بأنه جيش قليل لظلة عدده وغدده ولكن كل واحد منهم كان يحمل بين جنبيه نفساً معتزة بالله كأرفع ما يكون الاعتزاز، ولقعة به كاليلغ ما يكون الوشوق. وهذا ينقطع تسلسل السرد، ليأمرهم بالترلم القوة التي تحضق لهم الفجاء، وهي تقوى الله بحيث يكون الله حاضراً في قلوبهم وأرواحهم يحشون معه، وتلك ما يتبعه نصره المفضي بهم لشكر نعمته بالفوز والتكبر.

124- (إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ - بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ)

يعود القرآن لتأنيده سرد الأحداث، يذكرهم بما بلغهم النبي ﷺ مما تلقاه عن ربه بقوله: ألا يكفيكم النصر أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلون عليكم لا يعرض سبيلهم أحد؟ ويتولى الرسول الإجابة فيقول: بلى هذا العدد كافٍ لنحر الأعداء وتحقيق النصر.

125- بَلَىٰ إِنَّ لِلَّهِ أَنْتَصِرَ - صَوْرَتِهِ

يذكرهم بمن النصر فيقول: إن نصبروا على الجهاد وتلازموا تقوى الله فلا يهكم من الجهاد من مادي ولا نكر طيب، وإن تقوى العدو بمنه معجل في سيره لتعزيه بعد الانكسار. فلا تخشوا ذلك فإن ربكم يحكم بأن يمدكم في هذا الوضع الجديد بخمسة آلاف من الملائكة، يحمل كل واحد منهم علامة بطولته وقوته على الجهاد. وما يوضح هذا أن المجاهدين يبدد بعد أن حققوا انتصارهم الساحق على قريش بلخنتهم الألباء أن كرز بن جابر المحارب قد جيش الجيوش لنصرة المهرمين من قريش فخشى المسلمون من هذا العدد السريع وعظا جيش المسلمين ما يزال على حاله لم يلحق بهم أي مند من المدينة، فيشرهم بله لو وصل كرز وجيشه قبل الله سيدهم بخمسة آلاف من الملائكة. ولم يوصل كرز سيره وعاد بمن معه. فيكون القرآن قد بين أن الله ربط إمدادهم بخمسة آلاف بثلاثة أمور: صبرهم - تقواهم - وصول جيش كرز - فلما لم يصل هذا الجيش تحضق للمسلمين الأمن وعدم الخوف وشدة اللطف يريهم دون وصول الملائكة.

126- وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ الْفَزَ الْخَصِيْفَ

هذا الذي أخبرهم به رسول الله من الإمداد بثلاثة آلاف ثم بخمسة آلاف يحقق أمرين: البشري لكم بالنصر مما يشير إلى عناية الله بهم بإخلاق السور عليهم في تلك المواقف الحرجة. وليحصل في قلوبكم الطمأنينة بأنكم ستتصرون على

أعدائكم. ويعقب القرآن بالتذكير بقاعدة يريد أن تكون حاضرة في نفوس المؤمنين وهي: إن النصر لا يأتي إلا من عند الله. فهو سبحانه يثبت من يشاء وينصر من يشاء لأنه عزيز لا معقب لحكمه ولا معترض على قضائه ولا راد لأمره. وإزال نصره يجري على قانون الحكمة الذي يجري عليه تصرفه في الكون. يسلط موجبات الهزيمة على الكافرين ليمحو طرفاً منهم وهم الذين قدر أن يقتلهم القتل، لو سلط عليهم الكمد والقهم، يذوقون مرارة الهزيمة والأسى على من مات منهم ويعودون إلى أمليهم تصحبهم الخيبة والفلة والانسكار.

127. ليقتلن مكرفا... فينقلبوا خائبين.

عرف بييه ومن ورائه المؤمنين أن ما سيط على الكافرين هو جبار على حكمته وأن ما تحقق من نصر في بدر هو من إجراء الله الأمور على سبيل مقتدره، سواء ما ذكر في الآية من قبل، من قتل بعضهم أو كتبهم لو ما تلا ذلك.

128. ليس لك من الأمور شأنهم فلا تمزق.

قوله: **(يَسِّرْ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ نَسْجًا)** أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم بسبب ظلمهم. فقوله تعالى: **(يَسِّرْ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ نَسْجًا)** جملة معترضة بين المصور الأربع التي قدرها الله على الكافرين. قسم قتل وهو ما يشير إليه قوله تعالى **(أَلَمْ نَكُفِّرْ بَكَ ...)** وقسم ولي تجلله الخيبة والهزيمة لنار له قوله تعالى **(أَوْ يَكْبِتُهُمْ ...)** وقسم سيديهم ويتوب عليهم. كالذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح وقبله يشير إليه قوله **(أَوْ يَسُومُهُمْ عَلَيْهِمْ)** وقسم سيمسك عليهم عذابه في الدنيا والآخرة كالذين نفذ فيهم القتل وما أوتوا على كفرهم وإليه الإشارة بقوله تعالى **(أَوْ يَكْبِتُهُمْ ...)**

129- وثله ما في السماوات مستغفور رحيم.

يحقّ ذلك: لأن الله هو الذي يملك وحده ما في السموات وما في الأرض، لا يخرج عن مملكته ومملكته شيء، قلّ لو كثير، كثير لو صغُر. ويتصرف في ملكه هذا كما تقتضيه حكمته فيختر ذنوب من يشاء من عباده، وهو في ذلك رحيم عادل، ويعتدب من يشاء. وصيغة العدل والحيّة له في جميع الأحوال.

بَنَاتِهَا الَّذِينَ ؕ اَمْشُوا لَا تَاْخُلُوا الزَّيْطَ اَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝ وَاَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝

بيان معنى الألفاظ:

أعنت: هينت

فطاعة: عمل للمأمور على تحقيق مراد الأمر.

بيان المعنى الإجمالي:

نهي الله المؤمنين أن يفعلوا بالربا الذي ينفي عنه على مضاعفة لزيادة على رأس المال (الربا) كلما حل الأجل ولم يوف المدين بدينه. ولستكن تقوى الله مصاحبة لكم، تلك التقوى التي بها تحفظون الفلاح في الدنيا والآخرة. وكوّنوا وقلية لأنفسكم تحفظكم من دار جهنم، النار التي هيأها الله للكافرين، فهي عذاب ومهانة. وأعظم وقلية هي الطاعة التي تفتح أبواب الرحمة.

بيان المعنى العام:

130- يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم لتأكلوا.

نزلت هذه الآية عقب نزول الآيات التي سجلت بعض ما جرى في غزوة أحد وذكرنا بالتأنيد الحاصل في غزوة بدر. ولم يظهر لي وجه ارتباط معنوي بما سبقها، وما حلل به بعض المفسرين ربطها به لم يقين لي أنه يتناسب مع فصاحة القرآن، فيكون موضعها بأمر من رسول الله ﷺ أن يكون هذا مكلفاً من نظم الآية. حركت الآية مشاعر المؤمنين بما يقتضيه وصف الإيمان، أليتزموها بما جاء بعد اللذان من تشريع، باعتبار أنه من مقتضى الإيمان. مهام عن الاستحالة على الربا. وصورة صورة بشعة، يكون المرابي يمتنع ويرتد بصفة مستمرة، وما ذا يأكل؟ يأكل الربا أضاعفا مضاعفة، لما نشر الممنظير الذي يترتب على الربا فقد تعرضنا له في شرح الآيات (281/275) من سورة البقرة. وأما ما تميزت به هذه الآية فهو تصوير بشاعة أخذ الربا وقيام علاقات الواجبين والمحتاجين إلى السبيلة على الربا. ووصف الربا بكونه أضاعفا مضاعفاً، هو وصف كاشف لا وصف يرد منه التقييد حتى يكون حكم الربا جائزاً مع انتهاء العقد (أضاعفا مضاعفاً) وهذا هو وقع فيه بعض الذين يعملون على تبديل حكم الله، بقولهم: إن الربا إذا كان لا يبلغ أضاعفا مضاعفاً حلال. وبين سقوط هذا الفهم: هو أن الربا لا يكون عند العقد إلا أضاعفا مضاعفاً. لأن كلمة أضاعفا مضاعفاً ليست بالنسبة لرأس المال كما فهمه كثير من الشارحين للقرآن. ولكن الربا هو، أضاعفا مضاعفاً، ومن طبيعة عقد الربا أن بشرط المرابي على من يقرضه المال أن يسد له كل سنة فائداً، وكلما تأخر المدين تضاعف الربا. ولو تتبعنا أعمال البنوك الربوية في جميع أنحاء العالم فذلك تحد العقود مبنية على أن المدين يلتزم عند العقد بدفع

فلنقض متفق عليه في السنة ولو تأخر يوماً أو شهراً أو سنة أو سنتين أو أكثر من ذلك عن السداد، فإنه مطالب بزيادة حق المرفعي من قرئاً بنسبة الزمن الذي تأخر فيه، والعدل يحسب والقرئاً يتضاعف.

131- واتقوا النار- أعدت للكافرين.

أمرهم عقب نهيه عن أكل الربا، بأن يتقوا الله، الطريق الموصل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ومن التقوى أن يبتعدوا عن الربا، ولرشدهم إلى أن يكونوا حمية لأنفسهم من النار التي أعدها الله للكافرين، وفي وصف النار بأنها أعدت للكافرين ما يدل، أولاً، على أن المؤمنين بمخالطتهم للقرآن استقر في معارفهم حول هذه النار، وثانياً أنها النار التي أعدها الله للكافرين، وثالثاً في جعل ذلك تابعاً للنهي عن أكل الربا ما يشير إلى عظم ذنب كلفة الربا، فالنار هي نار الكافرين، والعياذ بالله، بما يصحبها من عذاب ومهانة.

132 وأطيعوا الله المسترحمون.

باب التقوى وباب النجاة من النار وبالتالي باب التعرض لأبواب الرحمة الإلهية هو طاعة الله ورسوله، بأن يجعل المؤمن أعماله ونواياه، وفق ما يريده الله من عباده.

سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾ الَّذِينَ احْبَقُوا فِي الْأَسْرَاءِ وَالْطَّرَافِ وَالْكُفَّالِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يَسْتَكْبِرُوا أَنفُسَهُمْ وَذَكَرُوا أَنَّهُم مُّشْرِكُونَ بِالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَلَهُمْ جَنَّاتُ عِلْيَيْنَ فِيهَا يُدْخَلُونَ مِنْ أُبْوَىٰ ذُرِّيَّتِهِمْ وَفِيهَا يُنْفَخُ الْخُيُومُ كَالْعِزَّةِ وَالْأَنْهَارِ ﴿١٣٥﴾ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

سارعوا: يبادروا.

الأسراء: والضراء: الفرج والحزن.

كظم الغيظ: إمسك الغيظ حتى لا يظهر لثوره.

الفاخشة: الفعلة المتجاوزة الحد في الفساد.

كظم النفس: فعل الذنب الكبير.

لم يصروا: الإصرار: الاستمرار ونفيه هو الإقلاع.

بيان المعنى الإجمالي:

دعوة تنبئ عن حب الله لهذه الأمة، مضمونها أن يترك كل مؤمن ومؤمنة إلى العمل بما يسعد به بمغفرة ربه لذنوبه، المغفرة التي بصحتها فننعم في الجنة، التي قرب الله سبحانه بالمعصيات للناس في دنياهم، بأن عرضها كمرض السموات والأرض جميعا، هياها الله جزاء للمعتقين. ومن هو أهل أن يوصف بأنه متق؟ هو الذي كان سلوكه في الدنيا يدل على تقوى طيبة محبة للخير ومبتعدة عن الشر. (ملاح هذا المقتضى: 1) أن مساعفته للأخوين تشمل حائتي الفرح والحزن (2) أن فوته على السجدة في أرجاءه تجعله لا يظهر عيظه ولا يبذل بالانتقام (3) أن سماحة نفسه لا تبقي للغضب والغيظ أثرا فهو يغفو عن تعدى عليه مع اقترابه على رد الفعل. ومن جمع هذه الصفات هو جدير بأن يذل أعظم جزاء بوجود المؤمن، وهو أن يكون محبوبا من الله موصوفا عنه بأنه من المحسنين.

هؤلاء المؤمنون بهم المحسنون، بجانبهم من لم يبلغ نوجتتهم ولكن فضل الله عليهم، وهم الذين إذا ارتكبوا فاحشة بقعة متجاوزة الحد في الفساد، لو ارتكبوا دنيا من الذنوب الكبائر، تنبته قلوبهم عن قرب لما تقتضيه العبودية من الطاعة وعدم تجاوز الحدود، فحصلت الدائمة في مشاعرهم، والإقلاع عن الخبث والعزم على عدم العودة، وطلبوا من الله أن يحو ما سجل في سجلهم. ولا يغفر الذنوب ويحويها إلا الله، هؤلاء جزاؤهم قبول ثوبتهم وغفران ذنوبهم، والشفعة في جنات تتخللها الأنهار، لا يخشون خروجهم منها، ولا انقطاع فضل الله عليهم إلى أبد الأبد. ونعم الأجر والثواب لجز العاملين بما يرضى رب العالمين.

بيان المعنى العام:

133 ساروا إلى مغفرة للمعتقين.

ختمت الآية السابقة دعوة المؤمنين للتبات على طاعة الله ورسوله. فعقبها بمرئادهم إلى أن يسرعوا ويبذلوا بالاستجابة لذلك، مما يترتب عليه، من فضل الله، مغفرة الذنوب، ومحو آثار الخطيئة، فتفتح لهم جنة لا يطعم سمعتها إلا الله. فلوله سبحانه عرضها السموات والأرض. تصوير لسعة أفقها حسب أوسع المقاييس عند البشر في الدنيا. ولكنها هي فوق ذلك. إذ لا يعدو أن يكون تقريبا لما لله للبشر في حياتهم الدنيا. وليس في البيان ما يفهم منه قياس سعة الجنة بالسموات والأرض. وقرن وصفها بهذه الاطلاق العزيمية الأملرات بأن الله أعدها بفضله وقهرته وكرمه للمعتقين. فلا نسل عن أنواع للكرامة والجمال والهاء مما حوته تلك الجنة.

134- الذين ينفقون - المحسنين.

من هم المنفقون الذين أعدت لهم هذه الجنة ؟ بينت الآية نوعين من هؤلاء الذين أعد الله لهم جناته دار كرامته.

ملامح النوع الأول:

(1) يحملون نفوساً محة بمشاوركة إخوانهم مما آفاه الله عليهم من أموال. أوجب منها كالزكاة والمنسوب، والقروض الحسنة، وتجهيز الجيوش والبنل في جميع القبائل التي يعتقدون أنها نوصي ربهم. يستوي حالة المسراء عندهم التي نلهم الإنسان بما هو فيه من فرح، عن الاستقلال بغيره حالة الضراء عندما يكون في كرب فلا تشغله همومه الخاصة عن التفضل.

(2) الذين يكظمون الغيظة فعندما يكسدي عليهم فيثور في الإنسان، حسد طبيعته التي خلق عليها من لواء الضيم، حسب الانقسام، تجد المتقين في هذا الوضع يتحكمون في عواطفهم وأرجاعهم فلا يسارعون إلى إفراغ جام غضبهم بما ينبع من تفرق ونزاع.

(3) صفة الكمال الثالثة المميزة لهذا النوع العالي من المتقين أنهم يعملون ما علق بنفوسهم من آثار تجاوز إخوانهم وتحتهم. لهم بفقون مع القدرة على أخذ حقوقهم والانصاف ممن ظلمهم ولا يجنون في صدورهم بقية من كراهية أو بغض.

135- والذين إذا هموا فاحشتموه يعلمون.

ملامح النوع الثاني:

المتبادر أنهم أقل درجة من النوع الأول • ملامحهم:

أنهم إذا ارتكبوا فعلاً قبيحاً فيه فساد كبير، أو ظلموا أنفسهم، ومعنى ظلمهم لأنفسهم أنهم لو كانوا أنفسهم بكبيرة من الكبائر، مثل نفس الإنسان تكون نية صافية سليمة ليس بينها وبين الاتصال بالله حجاب، حتى إذا غم عليها بعامل الشهوة أو وموسم الشيطان، ضعف شعاع تلكم الاتصال، وارتكبت الخطيئة الكبرى. فإنه يكون في هذه الحالة قد ظلم نفسه وحجبها بحجاب تغلغل عن ثواب بحق الله. ولكن هذا النوع بمجرد ما يلحرف عن الجادة تستيقظ روحه، ويحضر في عقله وقلبه صلته بالله وما تقتضيه من الوقوف عند حدوده، ويتحرك في داخله قوارع الندم على ما فرط، وهؤلاء بدل في قلوبهم الاستمزاز من الوضع الذي انحط بهم إلى ترك المعصية هينع هذا الحال العزم على عدم العودة إلى ما وقع فيه. وبذلك لن ربه قريب منه رحيم فيلتجئ إليه طلب المغفرة والصفح عما قُدم. وهو موافق تمام التيقن بأنه لا يضر الذنوب إلا هو سبحانه. لا كما يظن المشركون أن الهتهم

تتكفل لهم بمحو ذنوبهم ولا كما يظن النصارى أن عيسى عليه السلام قدم نفسه للتعذيب بالقتل ثم الصلب ليفتح لهم خطاياهم.

136- أولئك جزاؤهم مقفوت ساجد العالمين.

هؤلاء وإن كانوا حسب الظاهر دون المرتبة الأولى إلا أن فضل الله قد شملهم وبشرهم.

أولاً: بأن جزاءهم قبول توبتهم، ومظفرة صالحة من ربهم الرحيم بهم المغفرة المنجية من لوث المعاصي كأنها لم تصنر منهم معصية.

ثانياً: بأن لهم عند جئات تغلبها الأتهار، بما يلقي هذا المشهد في النفس من ضروب الجمال والنعرة والخضرة والزهور والألمس، ينعمون فيها بما أعطاهم ربهم، دون أن يكثر صغر نعيمهم خشية انقطاعها فهم خالدون، ولما كان الجزاء قد بلغ أبعد مداه ختمت الآية بالتبوية من الركب الكريم بذلكم الجزاء، بأنه نعم الجزاء للعاملين على بلوغ رضا الرحمن.

فَدَخَلْتُ مِنْ قَبْلِكُمْ سَنَ لَيْسُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا بِهِ كَذِبُ عَقِبَةِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٦﴾
هَذَا نَبَأٌ لِلنَّاسِ وَمَعْدَى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ إِنْ تَنْصَرِكُمْ فَرَّ لَقَدْ تَسَّ الْقَوْمَ مِنْ مِثْلِهِ نَكَلٌ
الْأَلَمُ فَدَاوِلُهُا بَيْنَ النَّاسِ وَلَعَلَّ اللَّهَ الَّذِي تَعْبُدُونَ أَنَّهُ يُخْذُ بِنَاصِيَتِكُمْ وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٩﴾ لِيُمْجِزَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحُوَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ
أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَنْفَكُمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا أَنْ تَكُنْ تَعْلَمُ الصَّابِرِينَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ
كُنْتُمْ تَمْتَلِكُونَ أَلَمْ يَنْقُذْكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقُولُوا لَا قُوَّةَ لَنَا بِزَيْمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

خَلْتُ: مضت وسبقت.

سَنَ: جمع سنة: الطريقة الطبيعية التي يجري عليها الأمر.

لَا تَهِنُوا: الزهن: شعور الشخص بأنه ضعيف لا قدرة له على الإنجاز.

يَمْسِكُمْ: يصيبكم.

الْفَرْجُ: الجرح والمقصود به في الآية خسارة معركة أحد.

مَحْضٌ: التمهيد: التيقن.

مَحَقٌ: المحق: لأذهب شيئاً فشيئاً.

بيان المعنى الإجمالي:

مضت أحوال الأمم السابقة على قوانين لا تتخلف في غاياتها ونتائجها، هسيروا في الأرض ليتكشف لكم تلك القوانين، ويتبين لكم الخسران الذي لحق بالمكشنيين في جميع الأعصار. هذا القرآن تكفل الله فيه ببيان الحقيقة للناس، وهو يهديهم إلى ما يوضح لهم الطريق الموصل للنجاح في الدارين، وهدايتهم ليست هداية ياردة، ولكنها هداية تؤثر في القلب والعقل والمشاعر فتفتح للخير، وهو الموعظة. لا يدخل الوهن إلى عزائمكم تهجنوا عن مغالبة الصعاب، ولا يدخل الحزن إلى قلوبكم فيستولي عليكم الاكتسار والكثافة. أيسروا بالنصر والظبية فليتم الضالون الأعلون، إن كنتم مؤمنين حقاً. لا يحرركم حسارة معركة أحد والجوع النفس الذي حصل لكم، فإن أعدائكم قد خسروا خسارة أعظم في واقعة بدر، وهذه سنة من سنن الحياة، إن الأيام لا تكون إيجابية دائماً لفريق من الناس وسلبية للأخرى، بل يتداول كل فريق للنصر والهزيمة، حسبما يجمعه من موجبات أحدهما.

كانت واقعة أحد مظلة بعل:

للعة الأولى: يبرز أن الأيام بول فلا يظن المؤمن أنه سيتنصر بولمائه إذا لم يصص على سنن الله في النصر والهزيمة.

للعة الثانية: يظهر في الوجود علم الإلهي كما حصل في الأزل.

للعة الثالثة: تكريم من قدر الله له الشهادة من الذين تمسوا بلوغ شرفها. ونصر في مقابلتهم على هوان على الكفار وخسارة عقابهم، لأن مؤدبى: (والله لا يحب الكافرين)، أنه بملأهم معاملة المنصص المهي.

العة الرابعة: تمييز المؤمنين بتركية أنفسهم، وأن ما لا يوه في عمروة أحد يتغيرهم من الشوائب التي علفت بهم لبعض تجاوراتهم. ومن قتل منهم لا ينقص من عدد المسلمين لأن الإسلام ينتشر وتتضاعف أعداد المؤمنين به.

للعة الخامسة: حق الكافرين الذين قتلوا، فإلأهم ضصف لهم لأنهم سائرزون إلى صصف وقلة. ثم أيقظهم إلى نقطة خفية هي أن غاية المؤمنين أن يفوروا بالجنة دار الكرمة، فأتى عليهم سؤالا: ملكم اضطررتم لما حصل لكم في واقعة أحد؟ انظنون أنكم شالون لجنة دون أن تقيموا الدليل على صدقكم في الجهاد، صبركم عند اللقاء؟

وتكرهم بحرصهم، عندما عرض عليهم الثبي: الأمور، حرصهم على الخروج للجهاد، وعدم التحصص بالمدينة، ورغبتهم في الموت في سبيل إعلاء كلمة الله، فإلأهم قد نب الوهن في نفوسكم والحزن على ما حصل في هذه الفزوة؟

بيان المعنى العام:

137- قد خلت... المكثبين.

النظام هو القاعدة التي بني عليها الكون، سواء في ذلك الجانب المادي أو الجانب الاجتماعي. وبناء على ذلك أقام ابن خلدون فلسفته على أن أصول العمران قواعد ثابتة تدير عليها البشرية والنتائج تابعة للمقدمات. وهذا ما أُرشد إليه قوله تعالى **(لقد خلت من قبلك سنن...)** ولقد لقرآن نظر المؤمنين إلى أن ما يحصل في العمران البشري من نجاح أو فشل، ليس نتيجة للصدفة، ولكن ذلك يتبع قواعد هي العمران. هي مسنن أجرى الله عليها لطوار المجتمعات، فخراب المجتمع أو نجاحه هو تابع لمسيرة في الكون من صلاح أو فساد، وهذه المسنن قد تكررت في الأمم السابقة.

يطلب القرآن من المؤمنين أن يحصلوا المعرفة من طرفها، التي منها التاريخ الذي لا يعطى لفصل مخزونه إلا بالسير في الأرض للاستطلاع المباشر على أحوال الأمم. ومن ذلك وضع الذين جاءهم الهداية والموعظة من الله فكفوا ورفضوا واصلوا حياتهم على ما علمه عليهم شهورهم، فكان عقبتهم الخراب والاحلال.

138- هذا، بيان للناس... وموعظة للمتقين.

تنبهوا أيها المؤمنون للنذر العظيم الذي جاءكم من ربكم، فقد جاءكم بيان شامل للناس جميعا، يجدون فيه على اختلاف ظروفهم ومستوياتهم الفكرية معالم طريق الخير، واضحة لا احتمال فيها، وليس هو النبل الذي لا يحرك إلا عقل الإنسان، ولكنه يؤثر في جميع قواه العقلية والشعورية فيحتضنه ليهتبه إلى ما يحقق سعادته. ثم هو يحرك قلبه ليوق مشاعره حتى تسرع إلى الاستجابة. إنه لا يوجد كلام يبلغ مبلغ القرآن في تأثيره في قوى الإنسان العقلية والملوكية والشعورية.

139- ولا تهنوا... سنن مكنتهم مؤمنين.

اعلموا أن قوتكم هي بهذا السنين والكتاب المبين، فإياكم أن يدخل الوهن في عزائمكم لما أصبتم به في معركة أحد، وإياكم أن يستولي عليكم الحزن والأسى، فتحصرون همكم فيما أصبتم به، ويتضخم ما حصل لكم فيشل لتفاعم للنشر ما استحققت عليه. ابشروا بالنصر والتأييد فإني الغالبون الأعلىون. وإياكم أن يدخل الشك قلوبكم، أي إيمانكم يؤكد لكم أن العقلية لكم.

140-141. إن يمسسكم جرح - يمسح الكافرين -

يُلطِّف القرآن على المسلمين ما أصابهم يوم أحد، بأن الله قد حقق لهم النصر المبين في غزوة بدر، ويقول لهم: إن أصابكم جرح يوم أحد فقد أصاب المشركين جرح مثله. وتذكير بما يدى به المقطع: إن الأيام لا تتغير على وتيرة واحدة فلمنتصر قد انهزم في جولة تالية، وبالعكس، وذلك حسب سنن الله في النصر والهزيمة. والبرز القرآن العال لما أصاب المؤمنين يوم أحد.

الأولى: لن يدرك المؤمنون أن النصر حسيما أفلاته الآية الأولى يتبع سنن الله في الكون، فلا يعتمدوا في المستقبل على أن تحقق معهم فقط بل لا بد من جمع موجبات الغلبة.

142- أم حسبتم - الصابرين -

الثانية: ليتظهر في الوجود ما سبق في علم الله. وهذا الذي ظهر هو تجل لما كان حاصلًا في علم الله في الأول. كما أنه لا يخالف في صفة العلم أن يكون علم الله بما وقع بعد مضي زمن عليه هو ذات العلم الأولي. علم الله لم يتغير قبل حدوث الحدث وعند حدوثه وبعد حدوثه، لأن علمه ليس متوقفا على بروز المعلوم للوجود.

143- ولقد كنتم تمنون - لقد رأيتموه واتمتم تظنون -

الثالثة: تكريم من كثر له الشهادة، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا في شوق للفرز بمعركة الشهادة في سبيل نصرة الإسلام بمصير على القتال حتى الفوز بإحدى الحسنين.

الرابعة: تمحيص المؤمنين بتركية نفوسهم، وتفتيتهم مما علق بها من التجاوزات التي وقعوا فيها في حياتهم. وبهذا التظهير يكونون في المستقبل أمضى عزيمة ولقدن على مباشرة الجهاد.

الخامسة: محق الكافرين، فإن من قتل منهم لا يعوض، لأن الإسلام يمتد ويكثر الداخلون فيه كل يوم، والمشركون إلى نصر حتى تنتهي لهم من جزيرة العرب.

وقد استوفى القرآن العال لما وقع في غزوة أحد، فانتقل إلى سؤال تذكير للمؤمنين بعد ما أصابهم من الحزن والكث فسلهم: تظنون أن تقوزوا بمطالبكم وغايتكم التي من أجلها حرصتم على ملاقة العدو خارج أمول المدينة، ليست الجنة هي غايتكم؟ وهل يبلغ أحد هذه المنزلة قبل أن يظهر صدق جهاده ومصيره على القتال؟ هذا هو مهر الجنة.

لقد كنتم قبل خروجكم للجهاد تمشون لقاء العدو بما يثرب عليه من الموت في سبيل
نصرة الدين فيها لستم قد رايتم الموت بصرع كثيرا منكم، فلماذا الجزع والكمذ ؟

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا عَلَى الْكَاذِبِينَ
وَمَنْ يَخْلُقْ عَلَى عِبَتَيْهِ لَنْ يَخْتارَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا وَتَنْجِزِي اللَّهِ الشَّاكِرِينَ
﴿١٠﴾ وَمَا كَانَ لِلنَّفْسِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَيْتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَتَنْجِزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١١﴾
وَكُلَّيْزٍ مِنْ ثَمَرٍ وَقِيلَ مَتَى يَبُوءُ كَيْدُهُ لَمَّا وَفَّوْا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ﴿١٢﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
أَغْنِزْنَا بِمَا دُفُنَا، امْتَرِزْنَا فِي أَمْرِنَا وَتَمِزْنَا أَفْدَانَا وَأَعْمُرْنَا عَلَى الْغُزْمِ الضَّعِيفِينَ
﴿١٣﴾ فَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّ ثَوَابَ الدُّنْيَا خَسِرَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾

بيان معنى الآيات

المحت: مضت.

بنقلب: يرجع إلى الكفر.

كلين: كثيرا ما.

الرس: المبع لشريعة الرب.

الإسراف: الإفراط وتجاوز الحد.

بيان المعنى الإجمالي.

يقرر القرآن حقيقة أساسية في العقيدة غفل عنها بعض المشركين في غزوة أحد.
هذه الحقيقة هي: أن محمدا رسول يجري عليه ما يجري على سائر رسل الله الذين
جاءوا قبله. وبعض الرسل قد تسلط عليه الكفار فقتلوه وبعضهم بلغ الأجل المقرر
له فمات، فليأكلن تمودوا إلى الكفر إن مات محمد أو قتل. ومن بعد إلى الكفر بعد
الإيمان فإن الله أعلى من أن ينضرب بكفر الكافرين.

وسيجزي بفضل من شكر ربه على الهداية التي أوتيتها فثبت عليها وقام بها
بقصصه شكر النعمة. لا تظنوا أن الموت يصيب البشر في غرضي بدون تقدير
سابق. فكل نفس تموت، إنما تستوفي أيامها وللحظرات التي قدر الله أن تبقى فيها
حية. اعلموا أن ذلك متون ومكتوب في كتاب حسب علم الله. ومن يجعل كل همه
في حياته أن يظل حظوظ الدنيا فإن الله يمكن هؤلاء من نتائج أعمالهم فيها. ومن

كان همه الأصلي أن ينال ثواب الآخرة يمكنه الله من ذلك. والجزاء الأخروي خاص بالشاكرين الذين لا يفتلون عن حق المنعم في جميع أعمالهم. وثبتهم بتذكيرهم بأن كثيرا من أتباع الأنبياء السابقين الملتزمين بما جاءهم من ربهم قد قتلوا مع أنبيائهم، وثبتوا لما استحر فيهم القتل، فكثرت عزائمهم ماضية لم يصيبها الخور والفرط، ولم يضعفوا عن مواصلة القتال ونصرة أنبيائهم، ولم يمتثلوا للعدو. ثم ظهر ثباتهم الباطني على أمتهم فتوجهوا إلى الله بالابتهال داعين: ربنا اغفر لنا ما فرط منا من ذنوب، وتجاوز عن تكبرنا التي وقعنا فيها. كل مهمهم أن يصروا دين الله الذي آمنوا به وسعدوا أن يلقوا في سبيل إقامته وعزته ما لقوا وتصروا على القوم الكافرين. والله الكريم وهو يرعى صفاته للمؤمنين عجل لهم بالإجابة، فمكثهم من الفتحة والفتنة في الدنيا، وفوق ذلك ثواب الآخرة الذي هو أحسن ثواب وأكمله. وفوق ذلك كله ألهم من المحسنين والله بحسب المحسنين ولا تعالى عن نال حب الله فهو المعيد.

بيان المعنى العام.

144- وما محمد إلا رسول بالمشاكركين.

هذه الآيات داخلة تحت القاعدة العامة السابقة: **قد خلت من قبلكم حنن**. هي من الله التي أجرى عليها حوادث الكون. فهي هي ميزان تؤيد العقول وتعضمها، فهي غزوة أحد أشاع المنافقون وبعض العامة أن محمدا قد مات، وإن لم يبق من أمر الإسلام شيء، بل بلغ الأمر ببعضهم أن دعا إلى طلب الدخول تحت حماية أبي سفيان.

فتزل هذه الآية حاسمة بين لوم المستضعفين، وتكريع المنافقين، وإبراز الحق الذي غفل عنه هؤلاء. ومرتبطة بعش الله التي خفيت عليهم.

إن محمدا لا يدعو أن يكون رمولا سببه رمل حملوا هداية الله للبشر. يجري عليه ما جرى عليهم، ومن سنة الله فيهم أن بعضهم قتل وبعضهم بلغ أجله الذي حدد له فمات. فما هذه القلة التي أصابتكم؟ تحتفلون كثيرا أن مات محمد لو قتل؟ ومن بعد إلى الكفر ويخلع ثوب الإيمان فخصاله على نفسه لا تتعدها، إن الله لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا بطاعتهم وتعالى أن يحضره كفر من كفر، وهو سبحانه بفصله سيحزي الشاكركين. ولشاكر هو الذي صرف النعمة فيما خلفت له، فالروح بالقرب من الله، والعمل للتأمل في خلق الله والانتفاع بما في هذا الكون من إمكانات، والقوى المادية لتصرف في وجوه الخير حسبما حده الله. وهذا التذكير والعتاب على ما وقع بعد نيل الكافرين من المؤمنين في غزوة أحد، فيه تحذير للمؤمنين أن

بمعوا في اضطراب إذا نوفي رسول الله ﷺ، ورغم ذلك فإنه قد وصل الأمر ببعض إلى الرجوع إلى الكفر بعد أن أعلن أن النبي ﷺ فاروق الحياة ومات فكللت حروب الردة، والبعض من الصحابة لم يفقد بموت رسول الله ﷺ وحكمته وثباته كلبى بكر ﷺ، فإنه بعد أن نخل على رسول الله ﷺ، وكشف عن وجهه الشريف وقبله، وكين له أنه قد فاروق الحياة، فلم خطيباً مفتحسا كلامه بهذه الآية، فسكن الناس وقبلوا الخير المفزع.

145- وما سكان أنفس أن تموت... الشاكركين.

يؤكد القرآن المعنى الذي بينته الآية السابقة فيقول: إن بقاء الإنسان حيا ليس بزيادة، وكذلك مفارقه للحياة فلا يفارق الحياة إلا بإذن الله، فحفظت بقاء كل فرد موثقة ومكتوبة في كتاب لا يزيد ولا ينقص ما كتب فيه وضبط.

وإذا كان من سنن الله في الحياة أن الأجل لا يزيد ولا ينقص، فإن البشر رغم ذلك يختلفون، فبعضهم يقصر نظره على هذه الحياة الدانية، ويسئل جهده للذيل من حظوظها، وبناء على من الله ذلك، فإنه ينال حظا من الدنيا، ومن الناس من يربط همه وغايته بالعز في الآخرة، فيعمل على ربط قلبه بالدنيا والآخرة ومن سخط الله أيضا أن من يفيق بشاكلة في الدنيا فيلزم بالآخرة ينال مازلة القصور في الآخرة، ويتأكد ذلك بأن الله يجزي الشاكركين، وقد حثنا مقتضى الشكر قريبا.

146- ساكنين من ذي... الصابرين.

إن الزلزال الذي قارن وأعقب غروة أحد كان زلزالا شديدا رأينا كيف عالج القرآن أثره. وما يزال يواصل اقتلاع تلك الأثر في ألسنة عديدة أخرى. ففي هذه الآية وما يتلوها يعرض القرآن من تاريخ الأمم الماضية ما يرفع به معنويات الجيش بعد تلك الواقعة. ويبين أن ما أصابهم هو سنة تكررت في تاريخ الأنبياء فعند غير قليل من الأنبياء السابقين قتل معهم في حروبهم مع الكافرين عند كثير من أصحابهم المخلصين الذين انتمى بهم لهدايته (الزبيريون) نسبة إلى الرب لشدة تعلقهم به. ولما استحوذ القتل في اتباع تلك الرسل وتطاولت قراوس وحصى وطيس المعارك بقي الأحياء منهم شاكين، عزهم قوة ناقدة لم يعرف الوهن إليها سبيلا. وما لحقهم ضعف في المقاومة ولا ارتعت ألبصير من الخوف، وما استسلموا للعدو بفعل فيهم ما يشاء. إن هذه العزائم النافذة، والسواعد القوية لم ترتخ في هول المعارك، بل وقت مع الرسل في عزة متحدة.

147- وما سكان قولهم... الصابرين.

إن رباطه جاشهم، وقوة إيمانهم، برزت على ألسنتهم إبتهالات، ودعاه إلى الله وكان أكبر همهم رضوان ربه عليهم: اللهم اغفر لنا ذنوبنا، فلهاجس الذي يبغيون أن يطعنوا من جانبهم عليه هو أن يصفح الله عنهم فيما تقدم لهم من تجاوزات وأن يحو زلاتهم الكبرى (إسرافنا في أمرنا) ولن يثبتهم الله عند اللقاء ثباتا يزلزل أعداءهم فيحقروا نصر دين الله ويهزموا الكافرين.

148- هاتاهم الله ثوابا للمحسين.

عجل الله بالاستجابة لابتهالاتهم ورعى ضررهم وحسن قصدهم، فجمع لهم بين مطالبهم الدنيوية فانتصروا وغنموا ولحسوا بعزة القلبية، وبين ثواب الآخرة وهو أكرم وأجل وأحق بأن يتنافس فيه المتنافسون. إنهم محسنون في جميع مواقفهم، فجازوا بحب الله لهم لأن الله يحب المحسنين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ اطَّعِمُوا الَّذِينَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَانْقَلِبُوا
خِيبِينَ ۖ يَوْمَ تَلْقَوُا اللَّهَ وَنُصِّبْكُمْ مِمَّا حَزَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَلَعَلَّ إِنَّمَا أَتَرَكُوا وَاللَّهُ مَا لَمْ نَحْزَلْ بِهِ شَاطِئًا ۚ وَمَا وَهُمْ لَكَ
بِشَيْءٍ ۚ وَالَّذِي يَدْعُونَ أَنَّهُم يُؤْتُونَكَ اللَّهُ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ
إِذَا فَعَلْتُ فَفَعَلْتُ ۚ وَالْأَمْرُ غَضَبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَا أُرِيدُ ۚ مَا تَجِبُونَ مِنِّي
مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَتِلْكَ مِمَّا يَنْتَابُونَ ۚ ثُمَّ مَنَعَكُمْ غَنِيمَ اللَّهِ وَلَقَدْ
غَفَا عَنْكُمْ ۚ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝

بيان معاني الألفاظ

الوعب: القزع من شدة خوف.

ماواهم: مصيبرهم ومفرهم.

مئوى: مقام.

صنق الوعد: تحقيفه.

يأثنه: يتيسره.

نحسونهم: تقتلونهم.

القتل: الوهن والإعياء.

النتزع: الاختلاف.

بيان المعنى الإجمالي:

نداء المؤمنين يحذرهم أن يسموا للكافرين الذين يعملون على التأثير عليهم بطرق خبيثة يغترون بها، قد تكون في ظاهرها عطا عليهم وحباً فيهم ولكنها في باطنها لا تهدف إلا إلى شيء واحد هو أن يكتسبوا تفكهم ليعودوا بكم إلى الكفر الذي كنتم عليه، وفي عونكم إلى الكفر خسارتكم الكبرى بإحباط أعمالكم إنهم لا يضررون لكم ودا ولا موالاة. إن الذي يتولى رعايةكم هو الله يسير بكم إلى النصر ولا تقدر من الله على نصركم. إن هذا النصر المؤكد يتحقق بما قرره الله من أنه سينزل الرعب في قلوب المشركين، تبعاً لقتلهم الثقة في معبوداتهم التي تشركوا بها والتي لا يقوم لهم دليل مثبت في لها من الأمر شيء. وبناء على اختيارهم للضلال فعاقيبتهم النار، وإن أسوأ مقام من كل مهين في دار جهنم يحترق بنارها. ثم عرض عليهم ما تم بصور متلاحقة يتكون من مجموعها شريط فيه عبرة وحلām وذكرى وبشارة: لقد حقق الله ما وعدكم به من النصر لولاء وذلك إذ تتبعتم الكفار تعملون، يتيسر من الله، السيف في رقابهم، ويقيم على هذه الحال حتى لحكم الأعياء، ثم اختلفتم: فلبثوا مرابطين حيث حشد لكم رسول الله ﷺ، لم تضاروا لملككم ملاباً للظيمة. ثم رجح أجليكم مخالفة أمر الرسول وعصيته، من بعد ما رأيتم ما تحبونه من نصر. ولفرقتم فرقتين: فرقة تريد أن نحمل على الغنائم التي نهيتكم بسرور الكافرين وتركهم أموالهم، وفرقة ثابتة على تطبيق أمر رسول الله ﷺ المؤدي إلى الفوز في الآخرة. نصرتم عن الكافرين بسبب خلافكم وعصيانكم عن متابعة الجهاد إلى تمام النصر ليتحقق فركم الأسلاء. ولطفاً من الله بعباده المؤمنين وبعد تتابع نومهم وتقربهم، يعلن الله بقضائه: أنه عفا عنهم ولا يلاخذهم بما صنعوا. إن الله يتابع فضله على المؤمنين.

بيان المعنى العام:

149- 150. يا أيها الذين آمنوا... خير الناصرين.

حدثت غزوة أحد مشاكل في المجتمع المدني. بعد النصر العظيم في غزوة بدر وما خلفه انتصارهم من قوة نفسية ووثوق بقوتهم جاء انكسارهم في غزوة أحد يخلخل الأوضاع ويحدث ثمرات لرد المشركون والمنافقون أن يدخلوا منها إلى الصف الإسلامي لينفذوا مخططاتهم الوهمية. والله مع المؤمنين سوفظهم وينبهم ويكشف لهم ما حفي عليهم من مكائد الكافرين والمنافقين.

لقد حاول بعض الكافرين أن يثبت الهزيمة في نفوس المؤمنين وإن يبلغ بذلك إلى التشكيك في مستقبل الإسلام. والإسلام بعد الهزيمة يكون متقبلاً لما كلى يرفضه

رفضاً قاطعاً عند الاتصال. هذه سنة الله في البشر. وعناية الله بأمة محمد أيقظتهم لما يدبره الكافرون لهم بما يظهرونه لهم من عطف يؤثّم ما كان عندهم من رفض لمقالاتهم نبههم إلى أن هؤلاء الذين ينتمون في صفوفهم ويظهرون لهم الود، لهم غاية واحدة، هي أن يخدروهم حتى يعيدوا إلى ما كانوا عليه من الكفر. وذلك هو الخسران المبين. إنهم حاقنوا عليكم وقد تولاكم الله فهديكم، وأعطاكم فنصركم فسي بدر وفي اللقاء الأول في أحد. وأعطاكم ريكتم الطمانينة والإحسان بالعزة والكرامة، هو مولاكم الذي يمر لكم بفضل دينه هذه المكتسبات العظيمة. تقوا بأنه سيصيركم أحر نصور وأتمه فإنه لا أحد ييسر لكم النصر غيره.

151 ستلقى هي قلوب الخالدين.

أبها المؤمنون إلى أن المتصرف في الكون. ساجد في قلوب الذين كفروا الزعج الذي يضصف قواهم ويهلهل عزائمهم. إن حصول ذلك أمر نافع من المقدمات التي هيأها الكفار ذلك لهم لئلا يتركوا بإله معبودات ضيقة لا يتقون في معاملتهم لهم مساهمة يقينية، لأن معطيات للتأثير مفقودة لديهم. ومع عدم تكييفهم وما يصحبه من انهزامهم فإن عاقبتهم بار جهنم يصلونها. ولا مقام أخير من جهنم.

152 ولقد صدقكم الله وعدد المؤمنين.

اذكروا أن الله وعدكم نصره. وحقق لكم ما وعدكم به. اذكروا ذلك المشهد في بداية المعركة، وميؤفكم تلاحقهم تقتلهم وهم فارون منكم ورياح الظفر تزيكم، استمر ذلك إلى أن شعرت بالإعياء وتنازعت مختلفين لقمضون على قتالهم إلى تمام النصر، أو تسرعون إلى القتال والأموال التي ترونها وقد تركها الكفار وأخذوا يفرون؟ ثم عصى قسم كبير منكم ما حده لكم رسول الله من الثبات في أماكنكم التي اتفتمكم عليها وهم الذين حركتهم الأموال المعرضة للغيبة، وحسب المال من طبيعة النفس البشرية، وثبت فريق آخر منكم وفيًا لتفويض أمر به رسول الله ﷺ، لا يجلبهم المال ولا قناعت كل مهمل في تولب الأثرة المرتبطة بالطاعة لرسول الله. وإذا تفرقت كلمة الجيش هذا لتفرق صرفكم عن الكافرين ليكون ذلك ابتلاء لكم واختباراً وإعداداً لما يستقبل من الأيام، بين الكفر والإيمان. إنه بعد ما وقع في هذه الغزوة وما أشار إليه قوله تعالى من لوم وتقريع (منكم من يريث النبيا) بعجل القرآن بأن ما وقع منهم من تقصير لم يزعزع إيمانهم ولا يحدس في

صدقهم، ويعجل لهم بالبشارة بأن الله قد عفا عنهم ما وقعوا فيه من تقصير. وهذا شأن المولى سبحانه، فضله على المؤمنين غير محدود.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْقَوْنَ عَلَيْهِمْ غِلًّا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَآذَوُكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ اللَّهُ الْفَرِيقَ الْكَمَا تَعَزَّوْنَ عَلَى مَا دَفَعَكُمْ وَلَا تَأْتِيكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَرَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا بَدَعُوا قَالُوا لَنْ نَدْعُوهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا لَخَائِفُونَ مَا لَا نُظَاهِرُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا لَخَائِفُونَ مَا لَا نُظَاهِرُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا لَخَائِفُونَ مَا لَا نُظَاهِرُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ رَبِّنَا

عَفْوٌ عَلَيْهِ ﴿٢١﴾

بيان معنى الألفاظ

تصعدون: من أصد في الأرض ذهب فيها. صعد في الجبل تسلق.

لا تأتوكم على أحد: لا يلتفت أحد لغيره ليرحمه.

أخوالكم: أقر الجيش.

أتبعكم: عاقبكم.

التعاض: نوم خفيف - مقعدة قنوم.

يرد: خرج.

مضاجعهم: جمع مضجع، وهو الموضع الذي قتل فيه المقتول.

ليست: ليختار.

الصدور: الضمائر.

ليخلص: ليخلص ما في قلوبكم من قتالكم.

بيان المعنى الإجمالي:

صُرف المجاهدون عن أصدانهم ففُتروا في الشعب والأودية، لا يهتم القار إلا بِنجاته، ولا يهتم من أمر أخيه شيء، وكان الرسول في يناديهم في آخر الجيش:

(إلى عبد الله من يكرهه الجنة) فكان جزاؤهم أن أضيق إلى الفم الذي أدخلوه على أنفسهم، بضيق الضائقة التي تسببوا إليها أضيق غم آخر بالقتل والجراح ولكية الهزيمة. عذبكم الله بذلك لتعلموا أن ما حل بكم هو بجنائيتكم، فقوموا أنفسكم، ولا تحزنوا. إن في هذه المصاححة بأسباب المصيبة ما يضعف الإحساس بها، شأن المصاب إذا علم أن مصيبتة نتيجة ما قدمت يداه هانت بعض الشيء، ولحذروا فإن الله يطعم خيفة ما تعملون. في هذا الوضع خروج ميز القرآن بين المؤمنين، وقد ابتلوا، وبين المنافقين. فلما المؤمنون فقد أنزل الله عليهم سنة من النوم، أعادت لهم قوت ثباتها والقلوب لثمتها، ولما المنافقون، فقد فصمهم القرآن مسحلاً ما انطوت عليه صدورهم من خيب وما كانوا يتهامون به، وقد ضاعف حساد دخیلتهم بهم.

يشرح القرآن ذلك، بأنهم، تبعاً لفساد عقبتهم في الله، أخذوا يظنون بالله ظنوا فاسدة. منها قولهم: إن خروجنا من المدينة ما كان بتدبيرنا، ياوحسون بذلك إلى خطأ الرسول. وبجيبهم القرآن: نعم ليس لكم من الأمر شيء، لأن الأمر وللتصرف كله بيد الله. ثم يوضحهم القرآن، ميزاً ما يخفونه من الفئاق الذي يتهايمون به بينهم ويعملون على ترويجه: لو كان لنا من أمر الدين والتدبير ما قتل من قتل منا هاهنا، وأجابه القرآن: قل لهم يا محمد: لو كنتم في بيوتكم لئن من قدر الله عليه القتل، لا ماض له من الخروج إلى مصرعه لوتحقق فيه ما قدر له. ثم يعود النص القرآني إلى المؤمنين يوصل ببلى عل ما كفى الله قدره: يريد الله أن يختبر ما انطوت عليه صدوركم من الثبات والطاعة، وليصرف بما أصابكم مما ثلثت به قلوبكم من بعض المعاصي والله عليم بما يجري في الصدور مما لا تدرك العين. ويبرر هذا المعنى بصيغة أبين فيقول: إن الذين تولوا وقرؤا في ذلكم للفناء، ما كل لهم أن يقوا فيما وقوا فيه لولا أن الشيطان قد أثر فيهم فزالهم عن الموقف الصواب، وذلك مرتبط بما قدمت أيديهم. ويجعل القرآن بيشارة للمؤمنين بعد لومهم الذي يكرر النفوس ويوجب لهم، يشرهم بأن الله قد عفا عما فعلوه، لذلك أن الله من صفاته الغفران والحكم.

بيان المعنى العام:

153- لا تصعدون... والله خبير بما تعملون.

يسجل القرآن بعض مشاهد غزوة أحد، لتكون حية في قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا لعل ما وقوا فيه. هذه الصورة تمثل المجاهدين الذين كانت رياح بولتر لتضر تهز مشاعرهم، وهم في مواقع حصينة مأمورون أن لا يفرقوها، وكانت

الغلام بارزة أمام أعينهم، وقد ألقى بها المشركون فراراً بأنفسهم. هؤلاء الذين أوكل إليهم حماية الجيش الإسلامي بالقياس في مواقعهم استهوتهم المغالمة المطروحة، فسلموا إليها وأخلوا المواقع الحصينة، فلفض عليها المشركون، وقد تعرضت ظهور المسلمين، فتحوّل النصر الأول إلى هزيمة. أصبح معظم للجيش فاراً لا يلوي على شيء، ثم كل فرد أن ينجو بنفسه. لا ينظر الفار إلى وضع أي أحد من إخوانه. وفي هذا المشهد يصدح صوت القائد، رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي في الناس: إلى عاد الله من بكر لله الجنة - فتجميع حوله صلى الله عليه وسلم والمخلصون الصالحون.

ويسجل القرآن حالة الفارين فيقول: إن الله حازمهم في الحلال. بل إن أضاف إلى غمهم مما فاتهم من نشوة بولوا الانتصار وفوات التقدم، أضاف إليهم غم آخر من الخوف والهزيمة ونسب الشائعات. واجههم القرآن ببيان الأسباب التي كانت من صنعهم، ليذهب عنهم الأسى على ما فاتهم، ويرفع عنهم الحزن العميق والكلفة ليستيقنوا من هول الصدمة. ذلك أن المصائب إذا نجفقت له ليس مظلوماً. وإن مصيبتهم إنما كانت نتيجة ما قام به من أخطاء، فإن يراكه هذا يخفف عنه من ثقل المصيبة وينفعه إلى إصلاح نفسه. والله عليم بما كان وما يكون فلا يخفى عنه شيء من أعمالكم ولا من نتائجها القريبة أو البعيدة.

154- ثم أنزل عليكم من بعد الفرج. بذات الصدور.

يسجل المشهد واقعا آخر، هو أن الجيش كل على قسمين:

القسم الأول: الذين كانوا حول رسول الله يثبتون رغم الكفة التي حصلت، تتوجه إليهم العناية الإلهية فتثبتهم وينزل عليهم في هذا الظرف العصيب ما يبرهن قلوبهم ليعود لها لتفاتها، ويقوي عزائمهم ليعود إليها مضارها، فيشاهم نعال خفيف وصفه الصحابي الجليل أبو طلحة الأنصاري قال: غشينا للنعال ونحن في مصالنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذته، وبسقط وأخذته. إن أخذ النعال للمجاهدين في هذا الظرف العصيب، ظاهرة خارجة عن المألوف، تبرز عظمة الله بهذه العصاة النقية التي كانت حول رسول الله ﷺ.

القسم الثاني: طائفة من الجيش. كان فهم ناعما من بولطتهم، من أنفسهم الفاسدة، ذهبت بهم هواجهم إلى أن تصوروا في ذات الله وفي تصرفه تصورات من رشح الجاهلية التي لم تنق منها نخلهم بعد. من ذلك أنهم يقولون: الأمر بغير

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُ الْمُتَوَكِّلِينَ ۚ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۚ إِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَا لِلَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۚ يَعْلَمْ اللَّهُ أَتَمَّ لِلْمُتَوَكِّلِينَ ۝

بيان معنى الألفاظ

الضرب في الأرض: للسفر.

غزى: جمع غاز.

الحسرة: شدة الأسف والحزن.

لنت لهم: كنت مصفحا عن جفاء الجفاء، ولسع الخلق.

لغاة: السوء الخلق، الجافي.

للتلصوا: لتقرؤا.

شكروهم: اعرض عليهم الأمر المهم للاستئذان يرادهم.

بيان المعنى الإجمالي:

كان مجتمع المدينة مختلطا، فيه المؤمنون وفيه الكافرون، وبعمل القرآن على تحصين المؤمنين حتى لا يتسرب إليهم تصورات الكافرين وعقائدهم، فمن ذلك قول الكافرين عن إخوانهم إذا سافروا ضلوا أو شربوا في الحرب فقتلوا: لو بقوا بيننا ما ماتوا ولا قتلوا. إن سوء عقيدتهم يضاعف أساهم وحزنهم ويطلع نفوسهم بالحصرة التي تصيبهم بالغم والإحباط. اعلموا أن الله هو الذي بيده وحده الحياة والموت، وهو العليم بما تفعلون. إنه إن قتلتم مجاهدين، لو متم ولستم تسعون في الأرض فما تحصلون عليه بعد ذلك من مغفرة مغفونة برحمة هو خير مما تجمعونه من متاع الدنيا. ودلو الآخرة خير. ولك هذا المعنى: إن متم أو قتلتم فإن مصيركم إلى الله الذي أعد لكم مغفورة ورحمته.

طبع رسول الله ﷺ على أكمل الأخلاق وأنبهها، ونضاف إلى ذلك أن الله أنزل عليه من رحمته ما جعله ليئا في تعامله. وبهذه الرحمة التي هي عطاء الله لفتيحه أحبه الناس والتفوا حوله. إذ لو كان فظا في تعامله جافي الطبع، لو فقدنا للرحمة قلمي القلب لما استطاع أن يكون منهم أمة موحدة. فحق بإمام محمد ما جمع الله فيك من كمالات خافية، فأعف عنهم، وطلب لهم من الله التجاوز عن سيئاتهم، وقربهم إليك واعرض عليهم الأمور الهامة لينبذوا آراءهم بكل حورية. فإذا تبين لك وجه السد بعد المشاورة، فلنذ إلى ما عزمت عليه بدون تردد، معتمدا على الله في تحقيق ما أنت قاصده. إن الله يحب المتوكلين عليه مما يؤكد قيمة التوكل أن الله إذا أراد نصركم فلا يستطيع أي قوة أن تغلبكم وتهزكم. وبالعكس فإذا أراد الله

هَذَا لَكُمْ فَلَا تَجِدُونَ نَصِيرًا بَعْدَهُ تَلْتَجِئُونَ إِلَيْهِ، وَصِلَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ نَجْعَلُهُمْ مُسْتَجِيبِينَ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ.

بيان المعنى العام:

156- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... بِصَبْرٍ.

غاية الله بهذه الأمة تبرز في وجوه عديده، منها أنه يريد أن يحصنهم مما يمكن أن يشرب إلى تصوراتهم من الكافرين الذين يفلمونهم الحياة بالمدينة، فنبههم حتى يكونوا يقظين لما يتحدث به الكافرون في جميع المجالس فلا يسأروهم في أقوالهم: إن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار، أو شاركوا في الفزرو قتلوا، إنهم لو بقوا في المدينة فلم يسأروا، ولم يشاركوا في الفزرو لم يموتوا ولم يقتلوا، إن تحرقهم على المصير الذي صاروا إليه، وتغلفهم بالحياة تغلفا تساهم الحقيقة التي تتكرر أمام أبصارهم من أن الموت لا مفر منه، ما استفادوا من ذلك إلا مضاعفة لأحزانهم، وتعميقا لحمراتهم. ليأكم أن تكونوا مثلهم فإن الله هو الذي يحيى ويميت، لا تستمر الحياة بحسب الإنسان لها ولا تنقطع بكرامته لها. والمهم أن تكونوا على نكر بأن الله يعلم حقائق أعمالكم ويجزيكم بها.

157-158، وَثَنَ قَتْلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... إِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ.

تأكدوا بأنه إن قتلتم في الجهاد، في سبيل إعلاء كلمة الله وبصر دينه، أو ضميرهم في أرض الله تبغون عمارتها وتحريك لمواقكم بالتجارب فحقكم الموت، فلا يحزن عليكم أهلكم فإن المعفرة التي نصل من الله إلى موتكم المعفورة برحمته الواسعة خير مما تجمعون من متاع الحياة الدنيا. فما يوفر لهم ربهم أفضل مما يمكن أن يحصلوا عليه لو استمرت بهم الحياة ولا لسف على نهب الحياة فالجميع سيحشرون ويصيرون إليه.

159- هَلُمَّا وَحَمَّةً مِنَ اللَّهِ... بِحَبِّ الْمُتَوَكِّلِينَ.

إن الهزات الكبيرة التي عاشها المسلمون أيام غزوة أحد، فإليها راسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه الكبير، وومع أحداثها بالدين، وقرب بين المسلمين في خلافهم وهزيمتهم وفروهم وغفر الله عليهم بالرحمة التي تتميز بأنها عطاء الله لذبيه خصه به وأودعه فيه (فيما رحمة من الله) مرت الأحداث والصف الإسلامي متماسك، إنه لو كان محمد جافي الطبع قاسيا صعب المزاج ولو كان لهذا للرحمة غليظ الإحساس، لتفرقت كلمتهم ولتعدوا منه، إلى العرب معروفون بكرة النفس وبالأفنة وإياء الضيم وحدة الإحساس، هي ذلك الخلق العظيم والرحمة واللين، حولهم إلى

مجتمع مدني رفيع متماسك في علاقته، تمكن الحب بين أعضائه حيا لا يقاس به علاقات العنصرية والأمره التي لم يوثقها الإيمان. فداوم يا محمد على هذا المسار النبيل وذلك بالغفر عنهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، ولتسلم لهم من الله المغفرة عن تصديقهم، حتى يشعروا بأنك نزعاهم الفضل رغبة ولكنهم لا تلتحقهم باللوم والتوبيخ. قريبهم منك وشركهم في تسيير أمور الجماعة، اعرض عليهم ما يهم أمر الأمة في السلم والحرب، حتى يشعر كل واحد بأنه يتحمل مسؤولية سلامتها ونجاحها. ائتم بهم حتى يعتبر كل واحد من أمتك نفسه أنه ليس فردا من قطيع يتبع بلا فهم ويجري بلا وعي للهدف والمصير.

إن أمر الله رسوله بأن يستشير أصحابه، ويعرض عليهم ما يهمهم ويطلب معهم ظواهر الأمر وخوافيه كل بصيغة **(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)** وهي صيغة أمر وهذه الصيغة، يذهب معظم العلماء القائلين بالنصوص الشرعية، إلى أنها تعيد الوجوب أينما وردت في كلام الشارع الحكيم. وبناء على ذلك فإن الاستشارة ليست أمرا اختياريا أو أمرا مفضلا بل هي أمر حتم ألجأها الله على نبيه وهي واجبة على أولى الأمر والمتحملين للمسؤوليات في الأمة الإسلامية على مر العصور. يقول ابن خزيمة من كبار المالكية: واجب على الخليفة المشاورة، فيشاورون الظماء فيما يشك من أمور الدين، ويشاورون وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ويشاورون وجوه الناس فيما يتعلق بمصالحهم، ويشاورون وجوه الكتاب والعمل والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعملها. ويقول ابن العربي في توجيه ذلك: الشورى ميسار العقل، وميسر الصواب، ورد الشيخ أبو بكر الرازي المعروف بالجهل على من يرى أن النبي أمر بالمشاورة تطبيقا لخطأ أصحابه فقال: لو كان معلوما أنهم إذا استعزوا جدهم في استبطان الصواب عما سئلوا عنه، ثم لم يعمل به لم يكن في ذلك تطبيق لنفوسهم ولا رفع لأكدارهم، بل فيه إحسانهم بالمشاورة. ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: والشورى مما جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة، ولذلك قرر الله تعالى خلق أصل البشر بالتشاور في شأنه، إذ قال للملائكة: **(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)** إذ قد غنى الله عن إعانة المخلوقات في الرأي، ولكن عرض على الملائكة مراده ليكون تشاور سنة في البشر ضرورة أنه مقرون بتكوينه. على مقاربة الشيء للشيء في أصل التكوين

يوجب إلفه وتعارفه. ثم يقول: وإمسا يلهمي للناس عنها حسب الاستبصار، وذكر أهمية سماع ما يخالف الهوى. وذلك من لحراف الطباع وليس من أصل قفطرة¹. وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يكتب لعماله بأمرهم بالتشاور ويتمثل لهم في كتبه بقول الشاعر:

خيل لي ليس الرأي في صر ولحد *** لنبرأ على بالذي تريان

إنه بعد تقليد الرأي، وظهور المعطيات المؤثرة في النجاح، والحوامل المساعدة على عدم الفشل عندما يختار الرأي، ويورق العقل لركش فيبحث للزينة على المصلى إلى هدفها، عند ذلك وقد جمعت بين صق قصورة، وبين الأسباب المؤثرة، فوثق عزيمتك على المعنى بالتوكل على الله، ليكون حصور قلبك وروحك مع الله يطمنك بأنه يزيح من مسلك الموقفات والمفاجات ويعينك بتأييده.

هذا معنى التوكل. فليس التوكل انخفاعا غيبا بلا تعمق في التفكير. ولا إهمالا للأسباب التي ربط الله بها النجاح والفشل وجعلها سنته فيهما. وثق أن من توكل على الله حق توكله لأن الله لا يخذله، لأنه يحبه، ومعنى الحب الإلهي التأييد والمعونة.

يؤكد القرآن على حقيقة التوكل في نفوس المؤمنين حتى لا يغلطوا عن تأثيرها، إنها قوة بالطينة تنفذ إلى الروح فإذا هي متفائلة راضية مستبشرة بعيدة عن التردد والخوف، وتنفذ إلى القوى القلبية فإذا هي تستمد من القوة الروحية قوة وصلابة لمصلى على المواصلات وتقدر على التحمل.

160- إن ينصركم الله... فليتكمل المؤمنون.

اعلموا أن توكلكم على الله هو الاستعداد إلى قدره الذي لا يغالى، فتوكلكم حق التوكل، لا التوكل المنحل، لن نخلوا. إنه من ينصروه الله فلا يتصور أن يوجد له غالب يهزمه. وهذه أفضل قوة تغلبون بها الصعاب. وبالمقابل فإنه إن لم تأخذوا بما يقتضيه التوكل الحق، وهيأتكم أنفسكم للهزيمة ولت تضابطوا بالرأي والأسباب، فإن الله يخذلكم فلا تجدون بعده ناصرًا. إنه على الله وحده يتوكل المؤمنون، فيأخذون بسنته ويتعلقون به تعلق الوثائق بموته.

وَمَا كَانَ لِغَيْرِهِ أَنْ يَقُولَ 'وَمَرَّ بَغْلًا' بَأْتِ بِمَا غُلُ بِنَوْمِ الْيَقِينَةِ ثُمَّ تَوَقَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٥﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا سَخَطُ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَنُ جَهَنَّمَ يُفْزَرُ اللَّهُ مُرِيدٌ هَاهُنَا رِجْزٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِرَاطِ بِنَا يَعْلَمُوتُ

بيان معنى الألفاظ

بغل: يأخذ شيئاً من غنمة الجيش بدون إذن.

بيان المعنى الإجمالي:

إنه من غير المتصور أن يخون أحد المعانم التي تحب ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله فيأخذ منها شيئاً دون إيقظه. وعقوبة الغشال في الآخرة: أن يفضحه على رؤوس الملأ فيحشر يوم القيامة وهو يحمل ما استولى عليه. ثم يسلط عليه الجزاء العادل الذي يستحقه. ثم يأتي سؤال قصده به ليقاطع المخاطبين للفرقة بين من يتكبر في مسيرة حياته رضوان الله، ومن حصل من تسلطه في حياته سخط الله وعصبيه، وماواه الذي يصير إليه جهنم ولا أسوأ من مصيره ذلك، والذين اتبعوا رضوان الله ليسوا على مرتبة سواء عند الله فالصالحون يسلفون في الخيرات، والله لا يخفى عليه دخالهم.

بيان المعنى العام:

161 وما كان ينبغي أن يقول: لا يظلمون.

من شرف بمصاحبة رسول الله ﷺ في ساحات الجهاد، ومن أحسن بما كان يدفع المعانين إلى الإقدام والتضحية بنفوسهم لا يجد أي عذر في خيانة رسول الله ﷺ ومعرفة شيء من العقاب التي حصلها الجزاء بجهادهم. فهي كبيرة من الكبائر صرحنا الآية بعقوبة صاحبها في الآخرة، وذلك بفضحه في مشهد يوم القيامة ظمنا بحشر وهو يحمل ما ظله دون أن يستطيع الإفلات منه ويطول وضعه على هذه الحال إلى أن يحسم أمره بجزائه على جريمته جزاء عدلاً، وفي كتب الفقه بيان عقوبة الغال.

162- أفمن اتبع رضوان الله فليس لمصير.

وفي المعادلة بين من سلكوا الجهاد ومن تسفل فخان واستولى في خفية على شيء من الغنائم يلحق القرآن كل فريق بالمجموعة الكبرى التي هي من شاكلته. ويوقف المخاطبين بعرض صورتين متقاربتين:

الصورة الأولى: صورة من يواصل مسيرته في حياته الدنيا يوماً فيوماً ولحظة ف لحظة، وهو حذر يتقي في كل أعماله رضوان الله.

الصورة المثالية: صورة من خرج يسعى، وينشط في حياته الدنيا: ليعود في خاتمة ذلك بسخط الله وغضبه منقطع عن فؤوس الهداية الإلهية، قلق برم بالحياة، ويستمر به ذلكم العناء، ليكون المرجع الذي يصير إليه، هو جهنم ولا أسوأ مصيراً منها، وهؤلاء مرتبة واحدة ومرتبة الهوان والعذاب.

163- هـ ترجيات عند الله. والله بصير بما يعملون.

لما اصحاب القسم الأول فرجلتهم ومررتهم في الجزاء متفاوتة تبعاً لما قاموا به من صالحات الأعمال ولما صحب أعمالهم من الإخلاص الذي هو محل تفاوت كبير بين البشر. والله لا يخفى عليه صغير ولا كبير ولا ظاهر ولا باطن فهو البصير بما يصدر عن العباد. وفي ذلك ما يحقق تكريمهم بمجاراتهم عما قدموه في دنياهم.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ حَرَجُهُمْ وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ الْكَافِرِينَ وَالْحَكُّ، وَإِنْ أَنْتُمْ مِنْ قِتْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُرِينَ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمْ أُصْهِبْكُمْ يُصْبِيَةً فَمَا أَصْبَحْتُمْ بِتَلَوَاتٍ لَكُمْ أَنْ هَذَا قَوْلُ مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصْبَحْتُمْ بِالتَّقْوَى الْحَقِيقَةِ فَيُؤْذِنُ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَبُوا وَقِيلَ لَهُمْ مَا تَلَوْتُمْ أَوْ أَدَّبْتُمْ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ لَأَكْبَهْتُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ نَزِيبٌ أَوْزَرُ مِنْهُمْ إِلَى إِيْمَانٍ يَقُولُونَ بِأَفْئُوهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا تَلَوْنَا قُلْ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبِ الَّذِينَ يُلَاقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحُوا بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَتَسْتَفْتِيهِمْ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْقِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَفْتِيهِمْ بَعْدَ مَنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَضَاهَا الْفَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالِ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

الْوَكِيلَ ﴿٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧﴾ وَاللَّهُ خَوْفُهُ عَظِيمٌ ﴿٨﴾ إِنَّكُمْ أَنْتَاطِلُونَ عُثُوفَ أُولَئِكَ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾

بيان معنى الألفاظ

من الله: لنعم الله.

يتقوا عليهم آياته: يقرأ عليهم آيات القرآن.

بزكيتهم: يطهر نفوسهم.

الاستبشار: حصول البشارة.

نعمة الله: صلاح الحال.

الفضل: الزيادة في النعمة.

حببنا الله: الله كافيها.

الوكيل: القائم بشؤون من وكله.

بيان المعنى الإجمالي:

تتلخص النعم على المؤمنين فضلا من الله، وأعظمها بعة سيدنا محمد ولحدا من العرب يجمعه بهم نسب ووطن ولغة. فريب منهم يتقوا عليهم آيات القرآن المنزل عليه، ويطهر نفوسهم من لوضار الشرك وأخلاق الجاهلية، ويشرح لهم ما في القرآن من هدى، ويعلمهم طريقة تلاوته، ويحرضهم على حفظه ويفتح عقولهم وبصائرهم على الحكم. ومثلان بين ما كانوا عليه من ضلال واضح، وبين ما هم عليه اليوم بعد أن خالطت ألوار الوحي قلوبهم.

ثم يواصل القرآن متابعة آثار غزوة أحد، وما يجري من حديث عنها في المجتمع المدني. فما تزال آثار المصيبة تحركهم للتأمل فيها، فكان من الأحاديث التي دلت في المجتمع: من أين للمشركين أن ينتموا علينا ؟ كان الجواب على شقين: شق مقدم أنكم قد أنتم من أعدائكم في غزوة بدر ضلوا ما أصابوا منكم في أحد. وشق رذ بعد السؤال: ما حصل لكم من هزيمة هو نتيجة أخطائكم التي أنتم مسؤولون عنها. إن الله على كل شيء قدير. وواصل الحديث عن آثار هذه الغزوة فقال: إن ما أصابكم يوم التقى جمع الرموس وجمع المشركين، لم يشأ الله أن يمنع منه، وهذه الهزيمة لها أثرها في صفاء المجتمع فقد ميز الله بين المنافقين والمؤمنين فظهر نفاق المنافقين عيانا. إن عبد الله بن أبي بن سلول لما أثار على بعض الجند حتى رجس ومعه ثلثه، وقال له عبد الله الأنصاري: فاقوا الله ولا

تتركوا نبيكم وقتلوا في سبيل الله لو اتفقوا عنا من بريدنا من العدو، كان جوابه: الذي نحن مقبلون عليه ليس هناك قتال، إن مفاليتهم تكشف عن سوء دخليستهم وأنهم في الحقيقة يتعدوا عن الإيمان وكانوا أقرب إلى الكفر. إن ما ينطقون به لأفكم، مخالف لما يعتقدونه مما قطوت عليه نفوسهم، لقد وضح لكم نفاقهم من قولهم: إن إخواننا لو اتبعوا رأينا ولم يخرجوا ما قتلوا. أحبهم يا محمد بما يكشف عن فساد تفكيرهم وبما يسقط شعبيهم: لمعوا الموت عن أنفسكم وحققوا لكم حياة لا تنتهي إن كنتم صائقي في أن موت إخوانكم ما كسب إلا بسبب القتال، ثم نوه القرآن بالشهداء الذين بذلوا أرواحهم في سبيل نصرته دبر الله، ونشر كلمته في العالمين إنهم وإن قتلوا وفارقوا الدنيا إلا أن الله ميزهم من سائر البشر بنعيم لأرواحهم لا يشاركهم فيه غيرهم، حقق الله لهم حياة كريمة عنده، يجري عليهم من رزقه ما يصل إلى حد الرضا ويجري للمرور في أرواحهم لما اتاهم الله من فضله كما يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين يؤمنون نصرته الدين، فيطلعهم الله على أحوالهم ولا يقطعهم عنهم، ويجسم وضعهم من النعيم: بأنهم في حالة لا يحزنون فيها على أمر مما مضى، ولا يخافون مما يحمله الغيب فرضاهم وطمأنينتهم تواصلت من الماضي إلى المستقبل.

يستبشرون بما أقاض الله عليهم من صلاح الحال ومضاعفة الخيرات. إن مما يضاعف سرورهم ويطمئنهم أن حصل لهم علم اليقين بأن إيمانهم قد بلغ حد الكمال فجري عليهم ما يجريه الله على المؤمنين، وقرر ثبات هذا الإيمان ووضوحه بأنهم استجابوا للنداء الرسول في الوقت الذي يذهل فيه الناس عادة إنه هو وقت هزيمتهم، وميزهم بذكر بعض ما يحقق ما سبق: أنهم من زمرة المحسنين المتقين الذين كتب لهم من الثواب والأجر ما يتجاوز الوصف إذ وصفه الله بأنه عظيم، نطاول المشركون بعد معركة أحد بأن همدوا المسلمين: أن الموعد للعلم القابل في بدر، ثم عملوا على لخلق مكيدة مع الموعد هي ترويح إشاعة: أنهم جمعوا جموعا كبيرة للقضاء على المسلمين قصد بث الرعب في جماعة الإسلام، فزادت هذه الشائعة المسلمين تصميما على الجهاد وخرجوا إلى بدر، وكبير أن شائعة المشركين هراء، فارتوا بين وضع المؤمنين ووضع المشركين، فالمشركون تبعوا لخواء أرواحهم يقتفئ الشيطان في قلوبهم الرعب، والمؤمنون الذين وثقوا ببريهم يعجز الشيطان عن تخويفهم، فواصلوا ما أنتم عليه ولا تخلصوا إلا الله، إن الخوف من الله صفة الإيمان.

بيان المعنى العام

164- لقد من الله على من آمن

يتابع القرآن، بأسلوبه المعجز، الحديث عن غزوة أحد هذه الغزوة التي هزت المسلمين هزة عنيفة وأصيبوا فيها بهزيمة هتوا فيها ما فقدوا من إخوانهم. ضد جراحهم ولسانهم وذلك:

أولاً: بذكرهم بالنعمة الكبرى التي لا تضاهيها نعمة، هيمنة الله عليهم التي حولت كل ما كانت تنجم به عقائدكم وأفكارهم وطريقهم في الحياة هي أن يعبث الله فيهم رمزاً ليس غريباً عنهم فيعسر عليهم الامتزاج به عريبي من مكة لحيوه وقترؤا كرم نفسه ونيل خلقه قبل بعثته. أخذ بقولهم وقلوبهم إلى ما نزل عليه من آيات كتاب الله المنزلة عليه، فأكثرت فيهم سموا في نفوسهم وإعلاء لأخلاقهم ومفاهيمهم، وعلمهم كيف ينتفعون بهذا الوحي المنزل؛ طريقة تلاوته وحفظه في صدورهم ليكون نورا لهم في مسالك الحياة وبين لهم ذلك أنهم يبلون بالطريقة العملية من سلوكه. وصقل عقولهم فأثريت الحكمة فإذا جاهلتيهم المسابقة التي كانت تحب إليهم مسالك الشهوة تحولت إلى تحكيم لأفضل الراشد في أرواحهم واختيارتهم (الحكمة).

165- أو ما أصابكم يومئذ ما أصابكم

ثانياً: أن هذه المصيبة التي أصابتكم بها والتي لأذهلتكم فتسائلتم كيف حصل ما حصل؟ قدم الجواب عن هذه الحيرة: فكم قد سبق لكم أن انتصروتم نصرًا عزيزاً في بدر هو في قيمته وأثره على المعركة بين الكفر والإيمان ضعف ما لاقيتم في أحد، ومن ناحية أخرى فإن ما أصابكم هو نتيجة لما كنتمتم فعدوكم إلى أنفسكم حاسبوها. وهكذا يربي القران المؤمنين على النقد الذاتي وعدم البحث عن التبرير الذي لا يقوم معوجاً ولا يصلح نفساً. نعم إن الله قادر على أن ينصركم رغم ما قمتم به من أخطاء، ولكن سنته في الكون جرت على الحكمة التي ربطت المسببات بأسبابها.

166- وما أصابكم يومئذ ما أصابكم

ثالثاً: إن ما أصابكم يوم التقى الجيشان، فلأن الله لم يقدر أن يتداركم بالطفاه، وليكون ما جرى مطهراً يميز بين المؤمنين وبين المنافقين فيفضح المنافقين بما صنو عنهم من قول وأفعال. فلن عبد الله بين يدي رسول رأس المنافقين لما صاحب جيش المسلمين عمل على خلقة أصاب بدعوتك لتابعه للعودة إلى المدينة.

فانخزل معه ثلث الجيش عود توجه إليه عبد بن عمر بن حوالم الأنصاري رضي الله عنه قائلًا: اتقوا الله ولا تتركوا بينكم وكونوا معه فيما لن تقتلوا معنا وإما لن تحموا ظهورنا ونسحقوا عن الحوزة. وتكثروا موكد الجيش في عيون الأعداء. سجل القرآن جواره المبرز لعق نفاقه: لا يكون اليوم قتال، ولو كنا نتيقن أنه مستحضر الحرب لاتبعناكم وما رجفنا. إن جوفهم هذا يدل على أنهم قد ابتعدوا عن الإسلام واقتربوا من الكفر. إذ لم يبق لهم من صلة به إلا دعواهم لنهم مسلمون. أكد هذا المعنى بقوله: يقولون بأفواههم كلاما لا صلة له بما يجري في بواطنهم. والله لا يخفي عليه ما يجري في بواطنهم من بعض للإسلام وعمل على إضعافه.

168: الَّذِينَ قَاتَلُوا لِإِخْوَانِهِمْ... إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ.

لم يقتصر بث الزمن في الصف الإسلامي قبل اللقاء بل تواصل ذلك حتى بعد المعركة. فقد أخذوا يشيرون بإظهار الكسف. وإلقاء من طرف حفي للرم على رسول الله وإيماء إلى أنهم أحرص على حياة المجاهدين منه فقالوا: لو أطفأنا هؤلاء الذين قتلوا ما خرجوا لهذه المعركة لبفوا أحياء بئسنا. ويرد الله عليهم بما يوضح شياهم وتوبيههم: إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أَنْ لَئِنْ لَمْ يَشَارِكْ فِي الْجِهَادِ وَاسْتِجَابَ لِنَصِيحَتِكُمْ لَا مَوْتَ، فاحموا أنفسكم من الموت، إِنْ الْمَوْتُ مِثْلِي عَلَى حَيَاتِكُمْ احسبتم أم كرهتم.

169-170: وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

رابعًا: نوهت الآية بالوضع الذي صار إليه الذين قاتلوا في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته، لا تظنوا أنه يجري عليهم ما يجري على غيرهم من الأموات، لقد ميزهم الله بخمس مزايا:

أ: أنهم أحياء عند ربهم لإهم يختلفون عن بقية الموتى، فلهم حياة خاصة زاد توضيحًا لها:

ب: أنه يجري عليهم من ربهم رزق لا يحصل عليه غيرهم، هو رزق لا صلة له بالوحي المادية، بل هو تكريم خاص بهم من القرب والتعظيم الروحي.

ج: أنهم في حالة من ذهاب جميع أنواع الحزن: استولى الفرح عليهم بما أغنى الله من فضله عليهم.

د: أنهم لم ينفصلوا عن الدنيا وعما يجري فيها فصلتهم بإخوانهم المواصلين للجهاد ينخل عليهم البشر بما يحققونه من انتصارات للإسلام. ومما يؤكد حرصهم

بما يعرفهم به ربهم من أخيارهم، أنهم ألقوا بأن إخوانهم آمنوا في مستقبلهم كما آمنوا في نتائج ما سبق لهم، فلا يلحقهم الحزن مما ذهب وانقضى.

172- الذين استجابوا لله... أجز عظيم

عظمت بشارتهم، وتأكد لديهم أنهم حققوا لكل ما بيغونه، وهو الإيمان، وذلك لأن جزاءهم ثابت تبعاً لكمال إيمانهم، نلوه لأن الله ثبت أجر المؤمنين فلا يضيع شيء مما عملوه من خير. هؤلاء المؤمنون الذين استجابوا للداء الرسول في أخرج الأوقات في الوقت الذي أصابهم فيه الجرح المؤلم جرح الهزيمة، الذي من العادة أن يذهل العصاب فيشغله همه عن كل شيء لقد لازمهم الإحسان في أعمالهم وفي إيمانهم، وكتب الله لمن جمع بين الإحسان والتقوى أن يناله أجر يتجاوز كل تصور، ولذا وصفه الله سبحانه بأنه عظيم.

173-174- الذين قال لهم الناس... والله ذو فضل عظيم

ومن توابع غزوة أحد التي سجلها القرآن آل المشركين وهم منسرفون، واعتنوا للمسلمين بالحرب في إثر السنة التالية، ثم بعثوا لهم عند اقتراب الموعد من يذكر لهم أن المشركين قد جمعوا جيوشاً كبيرة وأنهم سيهجمون هجمة ساحقة وكان قصدهم أن يزوعوا الخوف فيهم فلا يجازفون بالخروج للقتال فيشيعون في العرب لأن المسلمين صعدوا واستعوا عن اللقاء. ولكن مجرد ما بلغت هذه القشاعة حمى داعي النفاق عن الذين في قلوب المومنين واستحوذوا للخروج مطمئنين لهم وقنن من أن الله سيكفيهم أعداءهم وينصرهم وأنهم اعتمدوا عليه فهو المدير لأمرهم ويهديهم وبسلك بهم خير الطرق ولنجهت فهو وكيلهم، والله بقوته وعظمه لا يبلغ وكيل مبلغه في الهداية والنصرة، وخرجوا فعلاً. ولكن قريشاً خلفت ما وعبت ولم تخرج إلى بدر فرجع المؤمنون إلى المدينة، وسجلوا على المشركين ضيقهم وخوفهم رجوا وصحبهم ما كرمهم الله به من نعمة العاقبة، وتحقق عزة الإسلام، دون أن يحصل لهم مكروه.

175- إنما أهلكنا الذين يتخلفون عنكم مؤمنين

هذا فصل من أصول المعركة بين الكفر والإيمان تبرز الآية نتيجتها: أن الكفر يعتمد على الشيطان الذي يستطيع أن يؤثر في أصحاب القلوب الخلوية من الإيمان، فيغذب فيها الخوف. أما المؤمنون فهم لإيمانهم قد تحصنوا من تخويفات الشيطان بيقينهم الذي حجب قلوبهم عن مساومه بحجاب بمنزلة عن اختراقه، فلو لموا لبها المؤمنون على الامتداد إلى قوة الله القوة التي لا تقهر، وحصنوا بذلك أنفسهم

من الخوف، وخافوا من الله لا من غيره، فإن الخوف من غير الله يبعث الهروب والابتعاد عما يخافه الإنسان بينما الخوف من الله موداه زيادة لقرب منه إن الخوف من الله علامة الإيمان.

وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ فِي الْكَفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبَضُّوا اللَّهَ نَبْطًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ خَطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْكُرُوا الْكَفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَبَضُّوا اللَّهَ نَبْطًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾ وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا فِيهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ خَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ أَسْلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَكَايِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ بِمَا أَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ لِيُضِلَّهُمْ هُوَ خَيْرٌ أَمَّا بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَغُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَوْمَهُ

الْعَسْمُونَ وَالْأَرْبَعُونَ وَاللَّهُ يَوْمَهُ

بيان معنى الألفاظ

الحظ: النصيب من الشيء. لنافع.

لتقروا: استبدلوا.

نملئ لهم: نؤخرهم في الحياة.

سيطوفون: سيلبسونه أطواقا تحت أكتافهم وفوق صدورهم.

بيان المعنى الإجمالي:

حرص النبي ﷺ على اعتناء البشر حرصاً كبيراً، فكان يحزن لإعراض من لم يؤمن، فخطابه ربه مملوا له من إصرار الكافرين، فقال له: لا تحزن، إن كفرهم لا يؤثر فيما قرره الله من إظهار دينه، يريد الله أن يجزيهم عن تمردهم على الحق بحرماتهم فلا يكون لهم أي حظ من الكرمة يوم القيامة، بل لهم عذاب عظيم، إن الذين باعوا ما كان يمكنهم أن يحصلوا عليه من الإيمان بأعواء بالكفر لن يصلوا بعداهم هذا إلى التكاليف في دينه، وأكد أن الله أعد لهم عذاباً شديداً بالإسلام. لقد أخطأ الكافرون عندما ظنوا أن الله يؤخرهم ولا ينهي حياتهم بكرامات لهم وزيادة في الخير وما غفلوا عنه أن الله بحكمته قدر أن يعاملهم ولا يقضي عليهم في الحال، ليكون كل يوم تستمر فيه حياتهم تتضاعف أثمانهم، ويكونون مستحقين للعذاب المهيمن.

مع الإيلاء الجسدي العذاب النفسي بالهوان والإذلال . كان مجتمع المدينة مختلطاً، بعضه مؤمن، وبعضه كافر . وبعضه منافق فكما قدر سبحانه بحكمته أن يهمل الكافرين ليزدلووا إثماء، كذلك قدر بحكمته أن يلقى المؤمنون في غزوة أحد هزيمة ميزت المؤمن الصادق قطيب في سيرته وفي أعماله، من الكافر قسيء والمنافق الخبيث . ومن حكمته أيضاً أن حجب الغيب عنك ليحقق فيك لكون ما قدره، فيحصل من مباحثية الغيب للناس ظهور الصالحين وتكشاف المنافقين، إن هذا الغيب لا ينكشف منه شيء للناس ولكن الله يختار من عباده من يشاء لتحصل إيلاؤه هدايته فأمروا بالله وبهؤلاء الرسل الذين هم حملة وحية، فإن الذين آمنوا بهم وعملوا بما حازوا به لهم أجر عظيم في مقابلة القسم الأول الذين لهم عذاب عظيم.

بطل المنافقون أنهم بشبههم واستعاضهم من الإسهام في الإنفاق العام قد أحرروا أموالهم فكان اختيارهم هو الاختيار الأفضل. لقد ثقلوا أنهم قد انصرفوا عن الخير إلى الشر . ولما اختارهم مفسد بهم إلى أن لمواظبتهم ستكون طوعاً يختفون به ويحملون أفعاله.

ومن غيبتهم في الأموال التي شحوا بها سيفارقون الحياة ويتركونها وراءهم. إن الأرض والسماوات آتلة كلها إلى الله. والله عليم ببواطن الأمور .

بيان المعنى العام:

176- ولا يحزنكم الذين آمنوا وهم عذاب عظيم.

هذه الآية مرتبطة بعروة أحد، فإن الكفار بعد الكسار هم إخوانكم المسلمين في عروة بدر قد عادوا بعد غزوة أحد إلى التظاهر بكفرهم، يثيرون في المجتمع عموم التشكيك، فكانت مظاهرهم تلك وأعمالهم الخبيثة التي جسمتها الآية بصورة من يجري مسرعاً ظناً أن سيلغ غايته عاجلاً. وما غايتهم إلا هدم الإسلام، كان ذلك مما أحرر النبي صلى الله عليه وسلم، فحفظ ربه عليه الأمانة النفسية، وفناء عن الاعتداد بتلك المظاهر، ذلك أن الله ناصر دينه، ولن يستطيع الكفار أن يمنعوا الإسلام من الظهور والانتشار .

سيحقق الله ما أراده لهم تبعاً لفسادهم وإفسادهم: لهم يثبون بوجه القيامة محرومين من أي نصيب من الكرمة ولو قلَّ، بل لهم عذاب وصفه الله بأنه عظيم.

177- إن الذين أشكروا... لهم عذاب أليم.

إنهم قد باعوا ما كان يمكنهم الحصول عليه من الإيمان في مقابل الاستمرار على الكفر . صفقة خاسرة غنوها ولن تنتج لهم ولو شيئاً قليلاً، لأن الله لئلا ينهزم الكفر الذي يعملون على سيطرته . ولا يحصلون من ثمرهم ذلك إلا لعذاب الأليم.

178- ولا يحسبن الذين مهين.

خابت ظنون الكفار وفست فتلج ما حصي به . من أن الله لما مد لهم في الأجل وأملهم أن ذلك أمره نجاحهم وازدياد حظهم من الخير . إن وراء هذا الظاهر الذي خدعوا به حقيقة رهيبه ، هي أنه كلما تراخي بهم الأجل واستمروا في الحياة ، فأنه سيتضاعف تبعاً لذلك ما يحملونه من أثام ، وميلقون تبعاً لذلك عذاباً يتجاوز العذاب الجسمي إلى العذاب النفسي من المهلة والإذلال.

179- ما يحاك الله ليكنو المؤمنين... أجر عظيم.

لتكبير الله حكمه قد تخفى على الناس . لقد كان الكفار والمنافقون مضطحين في المجتمع المدني ، وكانوا يتخون فلا يظهرون ما تتطوى عليه سرائرهم من عداوة للإسلام ، وتعلقت إرادة الله أن لا يبقى مجتمع للمثنية على هذا الوضع ، وأنه سيميز بين من خبثت مبرورته وفست عقيته ، وبين من طابت نفسه وصالحت عقيته . فتحق ذلك بما تم في غزوة أحد ، وهذا أمر مخيب عنكم وما كان الله ليطلعكم على أسرار الغيب وما يريد لكم من خير . ولكنه سبحانه خير من عباده رسلاً يبلغونكم وحيه ، هذا الوحي الذي به نجاحكم في حياتكم الأولى والأخرة . فآمنوا بالله ورسله ، فإيه بالإيمان والتقوى المنشئة عن صتق العقيدة ، وحسن الفعل تتألون الأجر العظيم ، وهنا تم التقابل بين عقبة المؤمنين لهم أجر عظيم وعاقبة الكافرين لهم عذاب عظيم أليم مهين.

180- ولا يحسبن الذين يبطلون... خبيرون.

بهذه الغزوة ظهر نفاق المنافقين ، إذ نسحوا بأموالهم ، ولم يشاركوا المجتمع في تحمل نفقات المصالح العامة ، بخلوها بما اتاهم الله من فضله في الأموال التي بين أيديهم إنما حصلت لهم بفضل الله فهو الذي ساقها إليهم . إن جزاءهم على شحهم أن تلك الأموال ستكون أغلالاً في أضلعهم ، شهرة لهم في ذلك الموقف تتلاي ببنامة نفوسهم وتكون لقالة مادية لا يستطيعون نزاعها من رعايهم . ومن عمام لهم لو نظروا لتبين لهم أن كل من ملك مالا هو في النهاية يتركه وراءه ، وما جرى على الفرد يجري على الجنس كله ، فالنهاية أن كل ما في السموات والأرض سيتفرد الله سبحانه بملكه ، والله سبحانه خير بما تعملون ، يعلم نواياكم وغاياتكم التي تفحتم إلى ما علمتم ، والطريقة التي بها أنجزتم تلك الأعمال.

لَمَّا سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْكُفَرِ ۖ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ نَقِمٌ وَنَحْنُ عُصْبَانَا ۚ فَكُنْتُمْ مَا كُنْتُمْ
وَقُتِلْتُمْ الْأُمَمَاءُ وَفُتِحَ حَرْقٌ وَتُفَوَّنَ دُفُونُوا عَذَابَاتِ الْعَرِيقِ ۚ ذَلِكَ بِمَا كُفَرْتُمْ

أُتِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيَسِّرَ بظلام الغيب ﴿٥﴾ أَلَيْسَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا
 نُؤْمِنَ بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا خَرْنَانٍ نَأْكُلُهُ النَّارُ فَلَمَّا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي
 بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا: اللَّهُ فَكَلِّمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ
 كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
 الْعَذَابِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَجُوزَكُمْ يَوْمَ الْبَيْعَةِ فَمَنْ فُخِّرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ
 الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَزَنُ الدُّنْيَا إِلَّا سِتْرٌ لِقُرُورٍ ﴿٨﴾ لَتَبْلُؤُنَّ أَمْوَالَكُمْ
 وَأَنْفُسَكُمْ وَتَشْتَفَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
 أَشْرَكُوا أَذْيَمَ كَيْدًا إِنْ تَضْمَرُوا تَتَّقُوا لَئِنْ ذَلِكَ مِنْ عِزِّ الْأُمُورِ ﴿٩﴾

بيان معنى الآيات:

سكتكم ما قلوا: تثبته في صحتهم التي بها يحاسبون يوم القيامة.

نوقوا: الذوق مقصود به الإحساس.

الزبد: كتب الأنبياء.

المبور: المبين للحق.

فخزع: أبعده.

الغور: الخدع والتمنى بالباطل.

لنبلون: الابتلاء الاختبار لينكشف ما يقابل به المصاب مصيئته من الصبر أو
 الجزع.

عزم الأمور: إيماء الرأي وعدم التردد.

بيان المعنى الإجمالي:

من مكائد اليهود ترويح مغالطاتهم، قالوا: إن دعوة محمد للإنفاق في سبيل الله
 يعتبر فرضاً يجزي الله به أعماله، ومعنى ذلك أن الله فقير ونحن أغنياء. هدفهم
 بأن ما روجوه علمه الله وميجزهم عن وفاحتهم تلك جزاء محققاً. فقد وثق ما
 نظفوا به في كتاب أعمالهم الذي يصحبه يوم القيامة، مع ما ارتكبوه من الأثام
 العظيمة كقتل الأنبياء ظلماً وتمرداً ويقابل مغاللتهم قبالاً قول الحق من الله: نوقوا
 عذاب النار المحرقة، وذلك جزاء عتل هو نتيجة ما قدمت في حياتكم والله لا
 يظلمكم.

ومن الأبطال التي يروجونها للتشكيك قولهم: إن الله أخذ علينا عهداً وميثاقاً أن لا نصديق أي رسول إلا إذا نزلت ناز من السماء تحرق القريين. أجيبهم يا محمد بما يبرؤ كذبتهم وتعتهم: إن الله قد بعث فيكم أنبياء مؤيدين بالآيات الدالة على صدقهم وبما تزعمون، ولستم بهم ثم هلكتموهم فلماذا أئتمتم على قتلهم بعد إيمانكم بهم إن كنتم صالحين. فلا تحزن يا محمد إن تملاوا على عبادهم وتكثروا، فهذه سنة المستكبرين عن اتباع الحق، فقد كذبت رسل من قبلك فقدموا بين يدي دعوتهم الآيات البينة الواضحة على صفتهم، وجاءوا بالكتب المنزلة من عند الله وبالقنوراة.

وخلاصة الأمر أن كل من استعوت، وأنه بعد الموت سيأتي الحشر والحساب، وهو يوم ظهور نتائج الامتحان في الحياة الدنيا، فمن زحزح عن النار، فأثركه لطف ربه وابتعد عن النار وأدخل الجنة فقد نجا وحصل مبتغاه في الآخرة. وكل ما يستمتع به الإنسان في الحياة الدنيا هو متعة تفر وتخدع من تعلق بها.

ثبت الله المؤمنين بما يجب عليهم أن يكونوا عليه في مواجهة متنوعة للصعاب. أعلمهم أنهم يكثررون في أموالهم مثل ما استحوذ عليه مشركو مكة من أموال المهاجرين وما يستمرصون له من القتل والجرارح في الجهاد، ويسبقون اسماعكم أنواع كثيرة من الهجو ووقاحة الكافرين. فاصبروا على دينكم ولا تشغلكم سفاهتهم عما أنتم عليه من الهدى، فإن صبركم وثبتكم على سلوك ما يرصيه الله (التقوى) تقالون به ثواب أهل العزم لأن ذلك من عزم الأمور.

بيان المعنى العام:

181-182، لقد سمع الله... بظلام للعبيد.

أخذ اليهود يثبون بين الناس من أمن ومن لم يؤمن، ليلطيل وتمويهات تصمد من لم يؤمن وتزلزل بعض ضعاف الإيمان. فصاروا يهتفون: أن القرآن دعا للإتفاق في سبيل الله وخاصة بعد نكبة أحد واستعداد الرسول وجماعة الإيمان لبناء أنفسهم بناء جديداً يدفع صولة الكفر وما يقتضيه ذلك الوضع من مثل مخي التسليح ولغات الجهاد. فقالوا: إن الله يطلب من الناس أن يتنزلوا أموالهم باعتبار أن ما يقيمونه هو فرض بضائع الله مؤبته، وبنوا على ذلك أن الله فقير وإن المطلوب منهم أغنياء. ويعقب القرآن على ما قالوه فيحقق أن الله قد سجل جرائعهم على الله تسجيلاً لا يمحي، وليست هذه أول جرأة من اليهود، فإن آباءهم قد اعتدوا وقتلوا أنبياءهم ظلماً وعدواناً. ويوم القيامة يأخذ الله لجهنم كل تعديهم بإجرالهم يبارها مع تضاعف إحسانهم بالعذاب، ثم يخزيهم سبحانه بإعلانه أن ما انتهى إليه أمرهم هو جزاء ما قدموه لم يظلمهم إذ لا يتصور أن يظلم الله عبيده.

183- الذين قالوا... إن كنتم صادقين.

يتواصل فصح افتراءاتهم وكنجهم على الله، بادعائهم أن الله أخذ عليهم عهداً مؤكداً: أن لا يؤمنوا لمن يدعوه لا اتباع دينه إلا بشرط أن تنزل بار تحرق قربانه. نفى الله أن يكون قد وقع هذا وأنه أخذ العهد عليهم بالقتيل صدق الرسول ولربطابط الإيمان بهذه الدار. وذلك أن الله بعث لهم رسلاً بعد موسى عليه السلام فجاءوهم بالآيات البينة والأللة الظاهرة، وأمنوا بهم زمناً على معنى أنه قد جاءوكم بما قلتم، ولكنكم بعد كل ذلك قتلتموهم. فلم تجرئتم عليهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم هذه ؟

184- هذين كتابوك... والكتاب العظيم.

تأثر النبي ﷺ من تصميمهم على رفض دعوته وتشر الأباطيل والأكاذيب التي يزعمون أنها مستمدة من الوحي الذي نزل عليهم فوله ربهم واتسمه بسل تكسر له ما حصل لمن تقمه من المرسلين، فابهم قد كذبوا رغم ما تليت به دعوتهم من الأللة الواضحة البينة، ومن الكتب المنزلة ومن التوراة التي هو نور.

185- سأل نعمن ذاقت الموت... متاع الفرون.

يعقب القرآن على كل ما سبق من جرائعهم على الله وعلى رسله، والافتراءهم وادعائهم أنه قد عهد إليهم، وإصرارهم على تكذيب رسول الله والتكيد للإسلام يعقب بالتذكير بحقيقة عقل عنها قلنس. لو يذكرونها ويتفكرون فيها لاستقاموا هذه الحقيقة أن كل نفس لها أجلها الذي تنتهي إليه حسبما قدره الله لها، لا تسأخر عنه لحظة ولا تتقم. ثم تجد كل نفس جزاء ما قدمت. والناس فريقان في هذه النهاية: فريق السعداء وفريق الأشقياء الذين يفهم مصيرهم النهائي المنقضى لمصير السعداء. اعتقت الآية بالسعداء الذين ليتعدوا عن النار وأنظفوا الجنة دار للكرامة وهؤلاء قد فازوا ومجروا ونجوا من الأخطار. إنه النجاح الحقيقي إذ كل ما يستمتع به الإنسان في الحياة الدنيا هو نعيم زائف قليل خادع يمني الإنسان ويرخي له في الآمال.

186- لنهلون في أموالكم... فإن ذلك من صوم الأمون.

التفت للفرار بعد ذلك لتقوية عزيمة المؤمنين على المواصللة، فبين لهم أنه سيجري الاختيار في أموالهم كما حصل من اعتداء مشركي مكة على أموال المهاجرين التي تركوها وراءهم. وما يفنونه من أموال لتجهيز الجيوش وما تأكله الحرب من أموال بأسياب مختلفة. فبمقدار سماحة نفوسهم بمكاسبهم وعدم اضطرابهم لما

يلحقهم من ذهابها يكون نجاحهم في الامتحان، وسيمتحنون ايضا في نفوسهم بالقتل والجراح وانهم سيلقون من سقاية المشركين ما يؤذيهم بالسباب والقطعن في كرامتهم واعراضهم ، فاصبروا فإنه إن صبرتم على ذلكم الابتلاء فاعطوا لكم نرفعون إلى المستوى الإنساني الرفيع الذي هو من أشد الأمور واحسنها.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَعْنَتَهُ لِلْكَافِرِ وَلَا تَكْفُرُونَ، فَتَذَرُوهَ زَوَاةَ عُلُوبِهِمْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ لِقُرْآنٍ مَا يَشْتَرُونَ بِهَا لَا تُحْسِنُوا زُكُوفَ الْوَعْدِ بِنَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
وَيَقْرَأُونَ بِهَا أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْ تَحْكُمُوا بِهَا لَمْ يَفْعَلُوا وَلَا تَحْسِبُهُمْ بِمَقَارِفِ بْنِ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٣٣ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٤

شئى قدير ٣٤

بيان معنى الآيات:

لبنوه: التبذ: الطرح والإلقاء بمعنى عزم العمل به.

مفردة: منجاة.

بيان المعنى الإجمالى:

لأكر، يا محمد، وأعلن لى الله أخذ على بنى إسرائيل عهدا موقفا: أن يبينوا ما جاء في كتابهم، ولا يكتمون منه شيئا، فنقضوا العهد ولم يعملوا به، وباعوا الأمانة بثمن بخر، إن ما أخذوه إلى زوال قريب، شئ ما يحصل عليه الإنسان في الحياة ويعقبه جراء خيانة العهد يوم القيامة، إن ما حصل لهم هو أسوأ مقابل.

ويرفع القرآن بعد ذلك وهما من أوهام علماء يهود ومن المنافقين منهم ومن غيرهم، هذا الزعم هو أنهم استطاعوا أن يوهموا المسلمين بأنهم على حذر رفيع من الخير، وفرحوا بتسجيل ذلك الظاهر، وبنوا عليه أنهم ينتظرون من المؤمنين أن يمدحهم على ما فعلوا، إن تمويهاتهم لا تسدع عنهم ما يترصددهم من العذاب الأليم، إن الله هو المتقود بملك السموات والأرض لا يغيب عن علمه سبحانه أي حاشيت فيهما، ومن باب أولى اطلاعه على حقيقة ما يضمرون.

بيان المعنى العام:

187- وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ... فَيَكْفُرُ مَا يَشْتَرُونَ.

يؤكد القرآن أن الله أخذ بواسطة رسله على من آمن بهم أن يعلنوا ما أنزل عليهم ولا يحرفونه، وأن يبلغوه لمن يأتي بعدهم على النحو الذي سلطهم من ربه وأوصاه، وأن لا يعدلوا إلى تأويله تأويلا يخرج به عما قصده، وأن لا يحذفوا منه شيئا

يخفونه عنهم. وثق عليهم العهود بالوفاء وحذروهم عقبة تقضيها. ولكن شرامة اعقبهم. الذين كانوا في زمن بعثة محمد ﷺ على ما يستقيم في العاجل من رئاسة وما يتبعها من جمع الأموال ومن مبالاة المستبدلين من الحكام والظلام من المومنين أهدت مسيرتهم فتركوا تلكم التعليم والعهود التي عاهدوا عليها عند تلقبهم للعلم. وجعلوها خلفهم لا يتطلعون إليها. وما حصلوا عليه في مقابل الإرث النبوي. ثم زهيد في الحقيقة. لأنه مطلوب التركة من ناحية ومثل أخيه الخذلان والخسارة في الدارين من ناحية أخرى. فهو لسوا ثمن وأخسه وأبغضه.

وهذا هو شأن الذين تقصد أرواحهم من أصحاب المقاصد العلمية في كل زمان الذين يغلبون مصالحهم العاجلة فيحرفون فكلم عن مواضعه طمعا في الرئاسة أو المال السحت.

189/188- لا يحسبن الذين يفرحون... على عمل شيء قليل.

يرفع القرآن في هذه السورة بعضاً من الأوهام. اعتنى بإزالتها وبين زيفها. فهو الأول: حسبان الذين قتلوا في سبيله أمواتاً (ولا يحسبن الذين قتلوا أني مسبيل الله أمواتاً)¹. الوهم الثاني (ولا يحسبن الذين قتلوا أنما نفوسهم خيراً لأنفسهم)². الوهم الثالث (ولا يحسبن الذين يملكون وما آتاه الله من فضله هو خير لهم)³. الوهم الرابع (ولا يحسبن الذي يفرحون بما آتوا ويحسبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا)⁴.

هذا القسم الرابع: يمثل نمطاً من البشر يتجهون بما استطاعوا أن يفعلوا به غيرهم ويخدعهم. ويفرحون بتزوير خبثهم على أنه خير وصالح وينظفون أن يكال لهم التمتع على شئورهم التي غلبوها بظاهر من الخير والفضل الطيب. هذا النمط الماكر لا يختص بوقت نزول الآية، بل هو مدس في الجماعات بعش في فيها كما تعشش قطيفيات الضارة في الأجسام السليمة، تتخفى حتى لا يكاد المبتلى بها يشعر بها ثم تكث سمومها. ويدخل فيه دخولا أولياً من كانوا موجودين في عهد الرسالة. منهم المنظفون الذين كانوا يقدمون لرسول الله ﷺ المعاذير الكاذبة للتخلف عن الفرز ويمنهم ويمتلون أنهم ما تخلفوا إلا لتلك المعاذير وأنهم مع

¹ سورة آل عمران آية 169

² سورة آل عمران آية 178

³ سورة آل عمران آية 18

⁴ سورة آل عمران آية 188

المؤمنين. ومنهم لخبير يهود الذين حرفوا ما منلوها عنه من التوراة ويعبرون عن فرحهم بأنهم بلغوا ما عندهم من العلم، وأنهم أهل لأن يثنى عليهم لنشر ما أنزل إليهم. يقول الله لنبية. ولكل مؤمن. يحاول هذا النمط خداعه: لا تغفلن عنهم قد نجوا من العذاب، وأنه وإن قبلت أقوالهم في الظاهر، وأنه لا موجدة عليهم ممن قبل منهم ولكن الله سيجزيهم على خبثهم فيمذبذبهم العذاب الأليم. وصنيعهم هذا هو من كفرهم وسوء ظنهم بغير الله، فإن الله له ملك السموات والأرض يعلم كل حقيقة فيهما، ولو لا نقة علمه بالخفايا فيهما وإحاطته بما يجري فيهما ما انتظم أمرهما. ولو لا أن كل ما في الكون خاضع لقدرته لا يخرج عنها لعنت القوضى فيه. وبهذا فمن جهلهم وكفرهم ظنهم أن تمويباتهم تمر بدون عقاب.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ هَهُنَا وَقَعُودًا وَعَلَى خُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ زَكَاةً مَّا خَلَقَتْ هَٰذَا بَعْلًا مُّجْتَنِبًا لِّعَذَابِ النَّارِ ﴿١٩١﴾ زَكَاةً مَّا
تُدْخِلُ النَّارَ نَفْسًا مَّا خَلَقْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ زَكَاةً إِنَّمَا سَمِعْنَا نَقَادًا
يُنَادِي بِالإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ إِنَّا نَقْبِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفَرْنَا عَنْهَا
وَتَوَقَّانَا مِنَ الْأَنْبَارِ ﴿١٩٣﴾ زَكَاةً إِنَّمَا مَّا غَدَقْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَحْزَنُ يَوْمَ يَجْمَعُ
إِلَيْكَ لَّا تَحْزِنُ أَلَيْسَ لَكُم مَّا تَشْتَرُونَ ﴿١٩٤﴾ لَّا تَشْتَرُونَ بِهِمْ أَزْ لَا أَضِلُّ عَمَلٍ عَمِلَ لَكُمْ مِنْ
ذِكْرِ أَزْ أَهْلٍ يَعْصِيكُمْ مِنْ بَعْضِ الَّذِينَ مَا خَرُجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَوْدُوا فِي
سَبِيلِ وَقَاتُوا، فَبُيُوتُوا لَأَكْفِرُنَّ عَنْهُمْ سَبْعًا ۖ وَلَا دُخْلَ لَهُمْ جَنَّةُ قَهْرٍ مِنْ نَحْنِهَا
الَّتِي هُنَا أَوَّابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ مُّذْنِبًا ﴿١٩٥﴾

بيان معنى الآيات

باطلا: لغير غاية.

سبعاتك: تنزيها لك عما يقوله المبطلون.

لا نخزنا: لا نقضنا بما يخل منه المقصوح.

استجاب: اجاب.

بيان المعنى الإجمالي:

حث المؤمنين أن تكون حياتهم حياة اليقظين لا القافلين. فلي خلق السماوات والأرض على النظام الذي يسيرها ويحكمها. وكذلك تعاقب الليل والنهار وانقطاع هذا من ذاك والعكس. وفي تدخلها على نظام لا يتبدل ولا يختل. في كل تلك دلائل واضحة لأصحاب العقول النافذة مثابة بفكرة الخالق وحكمته وكماله يدفعهم هذا النظر إلى تيسير الله وتمجيده على أية حال كانوا سواء أكانوا قائلين أم قاعدين أم متكئين على جنوبهم، أي في جميع أحوالهم لأن وضع الإنسان الحي لا يخرج عن وضع من هذه الأوضاع الثلاثة. ثم تلهي ألفتهم وقد نطقها الإعجاب بما لاحظت وشاهدت: ربنا إنك خلقت هذا العالم لغاية لا عبثاً، تزهت في كمالك وحكمته عن العبث. فنجنا من النار. ربنا إننا مشركون بصلاب الأبرار لك من ترمي به في النار فقد سلطت عليه الخزي وقضتته بين الخالق ولعنته. وأنه لا مطمع له أن يجد نصيراً ينصره لا بشاعة ولا بدفع عوض عنه. ثم يشكرون ربهم: ربنا إن اعتدنا من فضلك ما اهتدينا إلا لأننا سمعنا كلامك ينادينا إلى الهدى والإيمان فتعلمنا به وأماناً. ثم يطلعون ربهم: ربنا اغفر لنا ذنوبنا بغضوك واستغرها ولا تقضعنا بها، ونولنا بفضلك فتح كل مينة قلنا بها نجد من كرمك ما يمحو آثارها وواصل علينا فو فتح رحمتك حتى يجمعنا الموت مع الصالحين من عبادك. ربنا حقق لنا ما وعدتنا على لسان رسلك من النصير على الأعداء. وتمكين الدين، والنيات على الإيمان حتى نقوز بروضاتك في جناتك. عجل لهم ربهم بإجابته لأبنائهم فطعناهم أنه لا يحبط أي عمل صالح نعلم به نكر أو لنش من الداعين، للذكر والأنثى سواء. في تحقق الوعد لجوار أعمالهم، إذ هم في أحوالهم سواء ويفصل القرآن أهم الأعمال الصالحة:

أ: الهجرة الأولى إلى الحبشة والهجرة الثانية إلى المدينة المنورة.

ب: تفضيلهم ترك الديار والاستيلاء على الأموال على الاقتتال في الدين.

ج: ثباتهم رغم الإذلية بسبب إسلامهم والصبر المظنون على العقيدة.

د: المقاتلة في سبيل نصرة الدين ومشاركت النساء في الجهاد بما كن يتولينه من القيام على ختمات ضرورية للمجاهدين.

هـ: بذل النفس في سبيل العقيدة في السلم والحرب.

هذه للنوحي الخمس قام بها المسلمون تكوهرهم وإثباتهم بما تعرضه غيرتهم، فلكد مرة ثانية أنه سيكثر عنهم ميولهم ليتدخلهم دار الكرامة في جنات تتخلها الأنهار

الجارية، لا مئة لأخت عليهم، ثوباً خلصاً من ربههم الذي شعوه، والثواب الكامل الحس هو من عند الله وحده.

بيان المعنى العام:

تنظم خاتمة سورة آل عمران مشهداً عجيباً بلغ غيات السمو بالتقابل بين الكون والإنسان وبين الابتهاال والثواب وبين آثار فصلاح والجزاء.

190- إن في خلق السموات والأرض - آيات لأولي الألباب

أولاً: هذا الكون الكبير السموات ما يدركه منها الإنسان ببصره أو ما يتحقق بعض ما تحويه بالعلم والبحث والآلات، والأرض التي يعيش على وجهها وما فيها من مظاهر تنقلب أمام نظره، وما يجري في بطنها من قوى لاكتشف له أو ما تزل تحمل أسرارها منتشرة من الإنسان أن ينفذ إلى تلكم الأسرار ليطوعها لخير التقدم الإنساني ورفاهيته، والحياة السرية فيها من الثبات إلى الحيوان إلى الإنسان كل هذا الكون الكبير المترومي الأملاك، يقرر لقرون أن في خلقه بالإيجاد، وأن في أسرار خلق كل جزء من أجزائه مهما مبدؤ أو عظم، وكذلك التقلبات الكبرى التي تتابع كل يوم من تعاقب الليل والنهار على حساب دقيق ولأثر تلكم التقلبات على كل الكائنات الأرضية يجد في ذلك أصداق للعقول البظفة (أولم الأكبش) دلائل القدرة التي لا تعد والعم الذي يتجاوز نمورات البشر والإرادة النافذة والحكمة البالغة. هي آيات شاهدة ونافذة بنسان حالها على أن النظام والتقدير المحكم قاعدة هذا الخلق، فيبلغ العقل اليقن بوجود الخلق وكماله.

191- الذين يتسكرون بالله سعادته

إنه إذا كان العلم مفتاح الأثواب لكل من يحضر له همته، ويواصل البحث الدؤوب، فيكتشف له بذلك ما يتكشف له حسب ما ررق من تكاء، وخطه صالحة، وحسن تعاون وموقعه من الميراث المعرفي البشري، فلي محصوله المعرفي هذا يكون مقطوع الرأس متيقناً إذا هو لم يربط كل ذلك بمبدع الأكون الله رب العلمين، إلى المحصول المعرفي إذا استقر في المقول ولم يتجاوزها إلى القلوب والأرواح لا يكون صاحبه منتعماً بعلمه. هو كمن يملك ثروة عظيمة، ولكنه لا يبلغ بها أن يمشتر جسمه ويغذي بنته، فالعلماء أصحاب العقول الكبيرة، علمهم غير فاعل إذا لم يهتدوا بذلك إلى ربط للكون بمبدعه، والاستعداد لما ينتظر كل فرد من حساب وجزاء.

فإذا امتلأ العقل من التكبر فليظف جميع القوى ليمير معها في موكب واحد، يتحرك اللسان بذكر الله، فيمجده ويحمده ويتسكروه. ويكون حضور المخزون المعرفي

مترجها في جميع الأزمان والظروف، سواء أكان قلما أم قاعدا أم مضطجعا. وأعلى مقامات الذكر والقرب من الله في الصلاة وتشير هذه الآية إلى أن المصلي مطلوب منه أن يصلي قلما فإن عجز صلى قاعدا فلا عجز صلى مضطجعا فعلى جنبه الأيمن ثم الأيسر ثم على ظهره.

لأن الذكر باللسان أمر مهم، ويبلغ كماله عندما ينطلق العقل منلما فيما كان عسر به الفكر من آيات الله في الأنفس والألق، فيطيه التصريح بالإعجاب بما نفثته يد الإبداع الإلهي، ويصرح تصريحاً نلياً من تتبعه لحقائق الكون وقوانينه الحاضرة في نهجه: ربنا ما خلقت هذا بطلا لا لغاية، وعيثا دون أن يترتب على ذلك نظام مرعى فيه صلاح، تزهت ربنا عن نفس العائنين.

192- ربنا إله من تدخل النار - من أنصار-

ثانياً: إثر هذا التصريح بما وفر في النفوس من إيمان يسمو بصلابه إلى مقامات يشعر فيها لله قريب من خالقه وخالق الأكرن، ترتفع الأيدي إلى بارئها داعية، وتطلق الأرواح مبتلة: ففنا عذاب النار. إن اليقين بالجزاء المبني على أن الخلق ليس عبثاً وأنه سيثبته الجزاء بدخول الجنة أو النار يتبعه: أحسننا ربنا من عذاب النار.

وترق الأشواق وينمو الشعور بالقرب، فيخاطب المؤمنون المتأملون الواعون أنهم منحصرون لما عجزهم عنه ربهم: أن من يدخل النار يصحب العذاب الحتمي العذاب للنفس من الخزي والمهانة، ومن الشعور بالضياع وفقد النصير والمعين، فتتطلع الأسباب والصلوات وبحس كل من خطها ناله لا مغيب له ولا نصير.

193- ربنا إلهنا سمعنا - مع الأبرار-

ويزداد إحصائهم بالقرب فيبتلون: ربنا إلهنا سمعنا ملأنا نفثت كلمته إلى قلوبنا وبلغ ندلوا أصلاً: أن اقتحوا قولكم وأرواحكم على ما يتضمه الإيمان، فاستجبنا وأمانا، هل هذا النداء هو نداء الرسول يا معاً وعنه لأن الصلابة أو لدلوا المسجل في كتاب الله ومئة رمولة المحفوظ على مدى الأمان؟ الظاهر عدي هو الثاني. بعد الإيمان يأتي العمل بما جاء به الإسلام، والإنسان ضعيف، وللنفس نزوات، وطائف للشيطان يحجب البصيرة، ويبعد للشخص عن منازل المساء والتقوى ويفقد به عن التزام رتبة التطبيق للكمال بصفة دائمة، فالإتهال التالي: ربنا قاعرو لنا دنوبنا، واسترها علينا، راعف عنا ولا تزلضتنا بما قصرنا فيه من عبادتك، وما كن من تدبنا على خلق فتولنا بتكفير أئمه عنا وأرضهم من فضلك بما يمح أثر تجاوزنا، وثبتنا ربنا على هذا المنهج إلى أن نكون في اليوم الذي

تتوفى فيه أنفسنا قد بلغت مرتبة الصفاء والقرب التي نجعلنا مع الأبرار المتقين الذين جمعوا الخير من أطرافه.

194- رَيْنَا وَأَتَمَّا مَا وَعَدْتَنَا... إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ.

تختتم الابتهالات بأن يحقق لهم الجزاء الذي وعد به الصالحين على إيمانهم برسالة من خيرى الدنيا والآخرة. طمأنينة في القلب، وحيا لله، ورضا بما قدره ويسره، ونصرة على الأعداء، وغلبة للإسلام، وانكساروا لأعدائهم، وغزوا بنعيم الجنة ووبرضا الله، ولن يبعدهم عن منزل القري والمهابة. مطمئنين وهم يدعون بأن فضل الله سيحقق لهم دعواتهم، لك سبحانه لعزتك وكمالك لا تخلف ما وعدت به.

ثالثا: هذه الابتهالات وتلك الأشواق، وقد ارتفعت إلى مولاها بدعاء القرب، رَيْنَا تكررت خمس مرات فأثبت سبحانه أنه لجاب عبده، وقريب إليه، لأنه رَبِّهِمْ الكلمة التي تربط الإنسان بخلقه في صورة من العناية به وتبليغ الحقائق عليه. قال الإمام جعفر الصادق: من حزية (نزل به أمر مهم أعظمه) فقال خمس مرات: رَيْنَا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أرك. قيل وكيف ذلك؟ قال: قرءوا لن سننتم الذين يذكرون الله قبلما يقرءوا وعلى جنوبهم... إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ

195- فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ. حَسَنَ الثَّوَابِ.

أكدوا أنكرنا أم إننا فلا جلس يرفع عمل العامل ولا هو يخفئه. إن العمل الإلهي يزن الأعمال بغيرها وصفاء مريضة لمصالحها، وقسوية بين الرجل والمرأة لا يشوبها تمييز في هذا الميدان. لأن الامتزاج بين الجنسين كامل في الحقيقة الإنسانية. فالذين هاجروا وتركوا نياهم وأموالهم في الهجرة الأولى إلى الحبشة أو في الهجرة الثانية من مكة إلى المدينة المنورة من الرجال والنساء وتوالى عليهم الإيذاء، وقد لاذي المؤمنون والمؤمنات في الله من المشركين المكين، ولم يستسلموا لنصوة لشرك العاتي بل ارتفعت عزائمهم للقتال والتمكين للإسلام من الانتشار ومات بعضهم في الجهاد من الرجال والنساء، وشارك النساء الرجال في ساحة الحرب يقمن بما يحمي ظهور المعطلين، ويمدنهن بما هم في حاجة إليه من لمعان الجرحى ونقل الأثقال والإمداد بالصلاح، هؤلاء لأجران ثوابهم بما يعمو ما ارتكبوه من سيئات، ثم لأصابع ثواب صالح أعمالهم فأدخلهم الجنة التي تتخلها الأنهار الجارية. وما لوفهم هو ثواب خالص صابر من عذبي لا منه فيه ولا خوف من انتقاعه. وأحسن الثواب ولكمه وأرفعه وأتمه هو ما كلف وأردا من عند الله مالك للملك.

لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آلِهَتِهِمْ ﴿٣٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ
الْمِهَادُ ﴿٣٧﴾ لِكَيْرِ الَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ ثُمَّ جَعَلْنَا عُجْرًا مِنْ عَنِينِنَا الْأَنْهَارَ خَالِيَةً
فِيهَا تَرَوْنَ مَا تُكْفِرُونَ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْفَعُونَ فِي الَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ ثُمَّ
قِيلَ لَهُمْ أُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ إِنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ الْجِبَابِ ﴿٣٩﴾ بِأَنفِهَا
الَّذِينَ تَأْمَنُوا أَصْهَرُوا وَمَضَى رُؤُوسُهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٠﴾

بيان معنى التقلبات

لا يغرك، لا يخذلك.

تقلب: تصرف.

متاع: ما يميل الانتفاع به.

زول: ما يمت إكراماً للضيف.

بيان المعنى الإجمالي:

لا يخذلكم ما لو تبه بعض الكافرين مما يتطرق بالحياة الدنيا وتصرفهم فيها
تصرفاً ناجحاً في السلم أو الحرب، لو كفراء، لو بعض الانتصارات في المعارك،
فلا تدرن لكل ذلك فهو مائل إلى زول وذل، وعاقبتهم جهنم أسوأ مصير.
بضعف نكالتهم ما تقرر للمتقين من جنات تتخللها الأنهار خالدين فيها لا يخرجون
منها، فهم ضيوف الرحمن أعد لهم ذلك إكراماً لهم، وما خباء الله للصلحين الأتقياء
هو خير من كل نعم.

ثم أتى القرآن على بعض أهل الكتاب ممن آمنوا بالله وأمنوا بما أنزله الله على
رسلهم، وواصلوا افتتاحهم على الحق بالإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم قروا إيمانهم بالكتاب، وحفظوا على ما تلقوه عن الله فلم يغيروا
منه شيئاً ولم يبيعوا ما أوتوا عليه بغيره، هو بخص مهما علا، أولئك لهم أجرهم
منحدر عند ربهم، وليطمئنتوا بأنهم سينالون فضل الله عليهم في الدنيا والآخرة بدون
تأخير.

وتختتم السورة بوصية جامعة للخير فتدعو المؤمنين إلى الصبر ومغالبة الصابرين
من الأعداء، وتطهدي فيهم: أن لازموا البينة فلا تزلخوا في حراسة للنقط والمداخل
فني يمكن أن يفلكم منها العدو، وتعلموا بالتقوى التي هي باب الفلاح في الدنيا
والآخرة.

فائدة

قال العلماء: يستحب لمن قتيه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه المشر الأيات لقضاء بالذي صلى الله عليه وسلم، ثم يصلي ما كتب له، فيجمع بين التفكير والعمل¹.

بيان المعنى العام.

196-198، لا يفرلكنه تقلبكم للأبرار.

من عناية القرآن بالمؤمنين الذين نوه بهم ووعدهم ما وعدهم مما فصلنا القول فيه في الأيات السابقة، من عناية أنه عمل على تحصينهم من مظاهر لافسة الأنظار مثيرة للتساؤل، إذ يشاهدون بعض الكفار ينقلبون في منامات من الثروة والصحة والأولاد ويناجرون هيربحون، ويحفظون في بعض المعارك لتحصينات كما وقع في غزوة أحد، والشيطان يسمى يومئذ إلى لغت الأنظار إلى ذلك فيوقع في النفوس إكباراً لما هم فيه من نعمه. وذلك أول مراتب لوتجاذب السمود. فيليه القرآن أولئك المتوء بهم إلى أن تلك المطامير أو الجولات هي منفعة عاجلة قليلة الأهمية مربعة لأزوال مقطوعة من الجزاء الدائم يوم القيامة، ثم إنها تنقلب عليهم لتكون الغاية التي يسيرون إليها ويفهمون فيها جهنم، فما أسوأ ما هيلوه لأنفسهم وما أسوأ ما هياه الله لهم! 198- وليبرز ما قصده بذكر ما أعد للمتقين من جنات تتخللها الأنهار، هي ما أعد الله لصيوقه من الكرامة. وما عبد الله من الثواب والكرامة هو أفضل من كل نعم، وخير من كل ما حصل عليه البشر في حياتهم الدنيا.

199- ومن من أهل الكتاب جرد الحساب

وليمكن في تثبتهم بذكرهم بأن حص أهل الكتاب جمعوا بين الإيمان بالله والإيمان بالحق الذي تلقوه من رسلهم والإيمان بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه للأمم. وهم قد أضلوا إلى الإيمان شعورهم بعظمة الخلق فهم متخللون خاشعون، ويكر عليهم أن يبيحوا ما تلقوه من الشريعة كما صنعه ألبار يهود حين بدلوا وغيروا مقابل رسلهم الذبوبة وما يفيضونه من أسوال. ويشر الله هذه الطائفة بأن الله سيجزها في الدنيا والآخرة جزاء مريعا لا يبطل.

200- يا أيها الذين آمنوا... لعلكم تتقون.

تختتم السورة بالوصية الجامعة التي ينادي فيها جميع المؤمنين بوصف الإيمان بما يشير إليه ذلك من وجوب الالتزام، لأنه من مقتضيات الإيمان. اصبروا الصبر الإيجابي صبر العزم على الثبات مهما اشتد الامتحان، اصبروا على الإيمان الذي نعمن به، اصبروا على نصره قديم ومقاومة أعدائه اصبروا على معكبات الحياة فالحياة جهاد وانصر فيها للصائرين، اصبروا على التعلم وعلى البحث وعلى مقاومة الشر. والصبر باب جامع لكل المواقف النبيلة الشريفة الفاجحة. وإذا بقيتم من أذنانكم من يصبر على اللقاء فكونوا لهم منه صبرا وأكمل. وكونوا يقطعين لرعاية المواطن التي يمكن أن يباغثكم المصنو منها لتكن كل عين من عيون المسلمين حارمة للجماعة شاعرة بمسؤوليتها في حفظ الأمة ومناعتها. وجماع الخير هو في أن تحل التقوى في قلوبكم حلولا يمتزج بكل ما تقومون به من قول أو عمل. اتقوا الله فإن التقوى سبيل الفلاح.

سورة النساء

هذه هي السورة الرابعة حسب ترتيب المصحف. وهي مسورة مدنية نزلت على رسول الله ﷺ بعد الهجرة. توأصل نزولها أعولما. وحسب ترتيب النزول عدت السورة الثالثة والتسعون نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الزلزلة. سميت في المصاحف. وفيما رواه أصحاب الصحيح بسورة (النساء) ووجه تلك افتتاحها بأحكام صلة الأرحام، وتشريع أحكام كثيرة متعلقة بالنساء.

نفاذ نكاح

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ مِثْلًا لَكُمْ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى الْغُلَامِ بِطَاعَتُهُمْ شَاءَ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى الْغُلَامِ بِطَاعَتُهُمْ شَاءَ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى الْغُلَامِ بِطَاعَتُهُمْ شَاءَ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى الْغُلَامِ بِطَاعَتُهُمْ شَاءَ

بيان معنى النكاح

بث: نشر.

تساءلون به: يسأل بعضكم بعضاً فيقسم عليه بالله.

الرفيق: حفيظ لا يعيب عنه شيء.

أنوا: احفظوا لهم أموالهم حتى يأخذوها إذا رشدوا

اليتامى: جمع يتيم. وهو الذي فقد أباه في حال صغره.

الخبيث: الحرام.

الحوي: الإثم.

بيان المعنى الإجمالي

ليفاظ ونداء وأمر لجميع الناس، من كان حاضراً وقت نزول الآية ومن سباني بعد ذلك إلى يوم القيامة، أن على كل فرد منهم أن يحذر غضب ربه، وأن يراعي حقوقه، إذ ما كان لأي فرد أن يخرج إلى الحياة لولا إرادة الله خلقه. تلك الخلق للعجيب المتين من نصر واحدة (الم الرجل الأول)، ثم يرز زوجه (حواء) منه.

ثم انتشر تسليما في الأرض نكورا وإنثاء. وكرر الأمر بتقواه وقرنه بأمره بمراعاة حقوق القرية التي تشكلت منها الأمر مطبلا تلك بل من الفطرة ما غرس في ضمير الإنسان من تعظيم الله وتعظيم القرية فقد جرت عادة قنلى أن من أراد أن يقسم على مخاطبته، سأل بحق الله وبحق القرية والرحم. واعلموا أن الله لا يغيب عنه شيء من تصرفكم. وإنه إذا كانت العلاقات بسبيل قوي القرى محمية يتهيئ الإنسان للنفخ عن حقوقه فلن القنلى الذين فقدوا آباءهم معرضون للاستيلاء على أموالهم لضعفهم. فصرحت الآية بأن لكل من ليتيم إثم كبير.

بيان المعنى العام

1- يا أيها الناس اتقوا ربكم... وقريباً.

بدء من رب العالم، يأمرهم بأن يلزموا تقواه فيحذروا موجبات سخطه وغضبه، وأن يحرموا على الوفاء بحقوقه وأوامره وأن لا يظنوا عن حقيقة التي جرى عليها وجودهم على هذا الكوكب. هذه الحقيقة التي مفادها أن أصل خلق البشر من نفس واحدة (أديم أبو البشر جميعاً). ثم نشأ من هذه النفس الواحدة روجا لها (هي حواء أم البشر أيضاً). وانتشر من تسليما منات الملايين الذين عسروا الأرض التي استخلفوا فيها. إن في هذا الخلق العجيب الإيمان في تركيبه المعقد والمنظم كأنهم ما يكون النظام. وقتشيق. ما يدعو الإنسان كي يكون يوما ذاكرا للفترة البديعة، التي خرت مما قدرت، في تركيبه أن يكون متفيا بخلقه، فأنهم خلق له روجا من نفسه. ومن هذه الرابطة نشأت الأسرة بفروعها، وتحقق ما أراد الله من استخلاف الإنسان بنوفاً على التعاون والوفاء لهذه الرابطة، فلم كل فرد أن يرفع صلات القرية فيعمل على ما يمتتها ويحذر ما يوجب تفككها.

وهنا نلاحظ أن المبدأ كان واحداً وأن التعدد نشأ عن هذه الوحدة لذا أمر الإنسان أن يسعى إلى الحفاظ على ما يجمع، خاصة وهو في علاقته عندما يسأل مخاطبته شيئاً ويريد أن يؤكد إجابته بعزم عليه بمطمة الله وبصلات القرى. وهذا هو ما ينسجم مع الفطرة في سنن الحياة وكذلك في العقيدة المقامة على التوحيد. وبه يشير إلى أن الله رقيب عليهم هل وفوا بما أمرهم به أو تركوا فيه ؟

2- وما اتوا الميثاق أمواتهم... صكيرة.

إن علاقات القرية محمية أيضاً بما ركز في فطرة البشر من حفاظ الفرد على حقوقه ومكتسباته. ومع الضعف لا بد من وازع يحمي تلك الحقوق من انتهاكها والتمدي عليها ومن اتخا غطاء القرية لتهب أموال الضعفاء. واليتم فقد أوليه معرض ماله للزوال. إما بحرمانه من طبرف الكبر من حقوقه، أو بالتصرف فيه

تصرفا يقضم منه باستمرار ما يفنيه ويذهب به. فأمر القرآن أمرا مؤكدا بحفظ مال اليتيم وجميع حقوقه العالية من تركته مورثه، وخاصة المقدم عليه ممن يتولى القيام على أمره الذي غالبا ما يكون من الأقارب. فلا يُستعطن لخيائته عن قرب. وصرح بأن الاستيلاء على ماله حرام ومقبيح.

وَأَنْ يَحْفَمُوا لَا تَقْبِضُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَادْبِكُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْقَىٰ وَتَلْتَمِزُوا وَتَزْنِعَ فَإِنْ جَفَتْ: أَلَا تَعْبَلُوا فَوَجَدَ أَوْ مَا تَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَا تَعْلَمُونَ
وَأَدَاؤُا النِّسَاءِ صَدَقَتُهُنَّ حَقًّا فَإِنْ بَيَّنَّ لَكُمْ غَيْرُ مَثْقَىٰ مَتَّهَ نَفْسًا تَكُونُ خِيَانَةً

مُرثاة

بيان معنى الألفاظ:

تقبضوا: تخذلوا.

تعولوا: تميّلوا.

نحلة: عطية.

هتينا مريثا: لا تخافون في الدنيا به مطالبة ولا في الآخرة نعمة.

بيان المعنى الإجمالي:

من وجوه التسلط على مال اليتامى أن بعض أوليائهم إذا كانت اليتيمة تحت رعايته جميلة ثرية يتزوجها ولا يقدم لها مهرًا يقتاسب مع مزايها، فهناهم القرآن إذا ظنوا أنهم سييخسون اليتامى اللاتي في رعايتهم حفظهن في الصداق. وبرر ذلك بأن الإناث كثير فليتزوجوا من غير اليتامى فتتقين أو ثلاث أو أربع نساء. ولكن نبههم إلى أن الزواج بأكثر من واحدة مراعى فيه العدل بينهم، في جميع النواحي التي هي في مقدوره. ومن لم يأخذ من نفسه اقتداره على العدل فليقتصر على واحدة. ويجوز للرجل أن يشترى بما يملكه من غير الحرث. والاعتسار على واحدة أقرب للعدل والبعد عن القيل، وبمناصفة ذكر صداق اليتيمة، شرع القرآن أن على الزوج، وعلى ولي المرأة أن يعدها من صداقها ولا يعود عليه ليأخذ شيئا منه إلا إذا رضيت بالتنازل عن كله أو بعضه. وعندها لا حرج على الزوج ولا على الولي.

بيان المعنى العام:

4-3. وَأَنْ يَحْفَمُوا لَا تَقْبِضُوا... فَكَلِمَاتُهُ هَتِينَا مَرِثًا.

اعتدت الآية السابقة بحفظ أموال اليتامى ونهت الأولياء عن التسلط على ممتلكاتهم لذكور كانوا أو إناثا. ومما كان غير منكر وقت نزول الآية، أن بعض أولياء

اليتامى كانوا لا يخرجون من الزواج باليتيمة التي تحت نظره إذا كانت ومسيمة وذات مال دون أن يقدم لها صداقاً يتناسب مع مزاياها ، ولكنه يتسلط عليها تبعاً لولايته عليها، فيضطها حقها، فهو عن ذلك بهذه الآية. ويرر ذلك:

(1) إن النساء كثير، فيستطيع أن يتزوج غيرها بستين أو ثلاث أو بأربع نساء. وحتى لا يفهم من ذلك أن القرآن فتح باب التزوج بأكثر من واحدة بشون ضوابط، فبمع ذلك بأن التزوج بأكثر من واحدة مشروط بأن يفسر المتزوج من نفسه أنه قادر على العدل بين زوجاته فلا يظلم إحداهن بما يكسر نفسيته فتفسر لها محفزة أمام صربها إذ كل واحدة منهم إنسان له حرمة الإنسانية وزوجة له، لها من الحقوق في العشرة والنفقة وحسن المعاملة ما لغيرها. وقد يجد الزوج من نفسه ميلاً لإحداهن دون أن يترتب على ذلك ظلم ومهانة، فهذا مما غفره الله للزوج بهذا الفيد.

(2) أن ينسرى (النسرى هو العشرة الجنسية للأثنى المملوكة) بمن ملك رقبتهما بشراء أو تبرع لو ميراث، لأنها غير حرة -

(3) أن الأكثر لم بهذه الضوابط هو مما يقرب الرجل من عدم الميل عن العدل، وبالتالي يبعده عن خطيئة الظلم.

فكاحد يحمل المجتمع الرجل مسؤولية التزوج بأكثر من واحدة ويعتبرون ذلك ظلماً للمرأة واقتصاص لحقوقها. والمثال المنصف يلاحظ أن الأنثى لا تجبر على الزواج برجل متزوج، أفلا تحمل الزوجة الرضاية أو الرضاية في الزواج من متزوج فسطها من المسؤولية ؟ فلو امتنعت النساء من قبول الزواج من المتزوجين لما وجد من يجمع أكثر من امرأة واحدة.

وبما أن الآية نهت عن ظلم اليتيمة بتزوجها دون صدق أمثلهاء، فبمع ذلك بأن شرع القرآن أمراً آخر قريباً منه. وهو أن على الأزواج والأولياء أن يعكسوا المتزوجة من صدقها الذي جعله الله عطية لها تملكه. وليس عوصاً عن التزوج بها. ولا منة لأحد عليها فيه. فبمع بذلك تسلط بعض الأولياء على صدق من هن تحت نظرهم. وكذلك إيجار بعض الأزواج زوجاتهم على التنزل عن الصدق بعضه أو كله. ونقت الآية بعد ذلك الحرج عن الزوج أو الولي إذا تنازلت الزوجة له عن بعض صدقها أو كله، دون ضغط أو إكراه، فله أن يستمع به ولا يخشى سوء العاقبة.

وَلَا تَوْنُوا السَّهْفَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا بِأَرْزَاقِهِمْ فِيهَا وَأَكْسُوهُمْ
وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَأَكْلُوا الْبَتْرَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ
رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا
فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا
عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

السَّهْفَاءُ: السفيه من لا يحسن التصرف في المال.

قِيَمًا: تصلح بها أموركم.

الْبَتْرُ: الخبز.

آنَسْتُمْ: علمتم.

الرُّشْدُ: انتظام تصرف العقل بحفظ المال وحسن التنبير فيه.

بِدَارًا: عجلة.

فَلْيَسْتَعْفِفْ: فليمتنع عن مال الغير.

بيان المعنى الإجمالي:

لا تمكنوا من المال الذين لا يحسنون التصرف فيه، ولكن أجروا عليهم ما يكفيهم
في معاشهم وليأسيهم ولحصنوا مصالحيتهم. وليعمل ولي السفيه على تمريضه حتى
يخرج من الحجر، وذلك بتكليفه شيء من التصرف بخبره به. فإذا بلغ اليأس وعلم
بالاختيار رشده فعلى وليه أن يمكنه من ماله. ونهى الأولياء أن يمارعوا
بإستهلاكها قبل الترشيده بمبارين بذلك قيل أن يكبر الأيتام، وضبط علاقة الولي
بمنظوره. فبين القرآن أن الولي إن كان غنيا فالواجب عليه أو الأفضل أن لا يأخذ
شيئا من مال اليتيم ومن كان فقيرا فله أن يكل منه بالمعروف، أي حسب سعة
المال وضيقة. وحسب مستوى الولي الاجتماعي. وأمرهم أن يشهدوا عند دفع
الأموال اليتامي بعد ترشيدهم قطعا للخصومات، وأعلموا أن الله يحاسبكم على
أعمالكم، وهو لا يتيب عنه شيء، فحاسبه لثق حساب.

بيان المعنى العام:

5- وَلَا تَوْنُوا السَّهْفَ أَمْوَالَكُمُ الْمَمْرُوءَ.

من حرمة المال في الإسلام واعتقله به، أن نهى من يتولى أمر السفيه لصغر
من، أو تنوير كبير، أو لكونه مظنة سوء التصرف، أن يمكنه بما هو في حاجة

إليه من ماله قبل رفع السعة عنه . وليرز قيمة المال في الحياة بأنه الوسيلة التي يصلح بها الناس أمور معاشهم.

6- وايتكوا اليتمى - وسكنى بالله حصية.

وإذا شرع للأولياء منع السفهاء من أموالهم . فإنه لمرهم يتمكينهم بمقدار ما هم في حاجة إليه من نفقة وكسوة . مع العنفة بأكرامهم في طريفة التعامل معهم حتى يتشكوا على أدب الخطاب . وفي الآية تنويه بالمال . ويرز لحرص الإسلام على حفظه . كما يفهم ذلك من التوصية برعاية أموال اليتامى من ناحية . ومن ناحية ثانية بالإشارة التعبيرية للطفقة في إسناد أموالهم إلى الجماعة الإسلامية (الموالكم) . الدالة على أن المال يتنفع به صاحبه بصفة مباشرة . وتحسن ثروة موقفا من موقوفات الأمة لتحقيق مناعتها وتطورها فلها علاقة بها . مع أن حقوق الملكية الخاصة واجبة الاحترام .

إن رلى اليتيم مطالب بأن يقدر من أول يوم يتحصل فيه مسؤوليته أن واجبه حفظ مال اليتيم أولا . وتهنته ليتولى التصرف . في ماله ثقتا . ولذا أمرت الآية أولياء اليتامى أن يذروا من هم إلى نظره على التصرف في المال حتى يبلغوا سن النضج الذي يمكن فيه الإجاب من ناحية . ويضمنوا إلى حسن تصرفهم من ناحية ثانية . وهو المعبر عنه بالترشد . وعليهم عندها أن لا يتكلموا وأن يسألوا بإعطاء اليتامى أموالهم . وإكمالا للعناية بحقوق اليتامى يحذر القرآن المقدمين عليهم من تدبير أموالهم تديرا يتساقون فيه مع الزمن حتى لا يجد اليتيم عند بلوغه سن الرشد مالا يطالب به . وهذه الأمانة فصل القرآن فيها لحال أولياء اليتامى . أمرهم أن كانوا أغنياء أمراء يحتمل أن يكون على الوجوب أو على القسب والإرشاد أن ينفوا عن أموال اليتامى فلا يستفيدوا منها شيئا لأنفسهم . وإن كانوا فقراء رخص لهم أن يأكلوا منها بما لا ينكر . المعروف العام . وهو يختلف في تقديره حسب مدة مال اليتيم وصنفه وحال الولي ومكانه الاجتماعية . وحتى تتوصل العلاقة الطيبة بين المرشد وبين ولية . ولا يحدث نزاع في المستقبل . أمر الولي بأن يشهد عند تسليمه المال لليتيم . وبحرك القرآن ما وفر في قلب المؤمن من موجبات الإيمان . فيذكره بأن الله لا يخل عن تصرفات الأولياء أنه مطلع على كل كبيرة وصغيرة ويكفى لليتامى رعاية الله لهم وحماية لمنظورهم . فهو بخلاف على اليتامى ما ضاع عليهم . ويجزي المحتالين بما ضموا .

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ٦ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٧ وَلْيَخْشَ
الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ذُرِّيَّةً مَفْسُومَةً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا
مَعْرُوفًا ٨ إِذَا لَيْتُمْ بِأَمْوَالِ النَّاسِ الْمَقْرُونِ فَلَمَّْا بِمَا أَكَلْتُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ثَارًا
وَصَغُفَاتٍ ٩ سَعِيرًا ١٠

بيان معنى الألفاظ:

مفروض: معين المقدار.

سعيد: صواب.

بيان المعنى الإجمالي:

أوردت الآية أن الرجال يرثون من تركة الوالدين والأقربين ، وأن النساء لهن
حظهن من تركة أوصياء ، وأن الرجال والنساء يأخذ كل واحد نصيبه من التركة لا
فرق بين ما كان له شأن من التركة وبين ما كان ثقلها ، ولا فرق بين أنواع المال
المخلف ، ولكل وارث نصيبه المعين المقرر من الله ، وأرشد القرآن الورثة عند قسم
التركة ، على طريق التذنب ، أن يعطوا لمن يحضر قسمة التركة من أقارب الميت
غير الوارثين ومن اليتامى والمساكين أن يعطوهم شيئاً من المخلف ، وأن يحسنوا
طريقة مخاطبتهم فلا يغلظون عليهم لو احتجروهم بسبب ما أنالوهم ، وعلى ولي
اليتيم أن ينفذ أنه يمكن أن يخلف أينما ضعفاً ، ويتقدم على مالهم مقدم يسيء لهم ،
وكل والد يخاف أن تنهب أموال نوريته من بعده ، فحاجة نوريته من بعده تكون
بقوى الله فيما ولي عليه ، وكذلك بقوى الله في كل شيء ، فبها حصص النورية من
التسلط عليهم ، كما عليه أن يخالطهم بما يعتبره العرف العام مقبولاً غير مسيء .

وليجدر لولياء اليتامى العاقبة فإن كل من استولى على مال يتيم ظلماً ، فليعلم أنه
إنما أدخل في كيانه نارا على معنى أنه سيصيبه في دنياه ما يحسرق عاقبته ويختلف
ما جمعه ، ومع عذاب الدنيا عذاب الآخرة .

بيان المعنى العام:

7- للرجال نصيب مما تركه مفروضاً.

بينت الآيات السابقة ما يتعلق بأموال اليتيم بعد موت وليه . فتابع القرآن بعض
أحكام المال في الميراث التي كانت غير مرعية قبل نزوله . إن ما كان مقبولا في

العرف العام الجاهلي: أن المال لمختلف عن الميت يستحقه الأقوى من قربانه، مما يمدد لسلطانهم على الضعفاء من الأهل والعشيرة. فجاء الإسلام لإتصاف جميع الورثة وتمكينهم من حقوقهم وخاصة المرأة التي إن كانت زوجة اعتبرت جزءاً من الميراث يتحكم في مصيرها إن لم تكن أما لكير الأولاد، وإن كانت غير ذلك زوج فلا تستحق شيئاً من مختلف وأنها ولا غيرها من قربانها غصبت الأية نصاً صريحاً أن كل أنثى تستحق من تركته الميت زوجها كان أو لبا أو أما أو قريباً، تستحق نصيبها من مختلفه، سواء أكان كسوة أو سلاحاً أو غلراً أو أثاثاً أو نفوداً، مما قل منه لو كثر. إنها العدالة والكرامة الإنسانية التي تتحد فيهما الذكور والإناث، والاعتبار بالخلق لا بالأوهام، فالذكر والأنثى كل واحد منهما يحصل الحقيبة الوراثية التي لأصولهما، وكل واحد منهما نسل للأبوين، يعمل من صفاتهما الأخلاقية الوراثية ما يحمل وينسب إليهما، فمن قسوهن إن تحرم الأنثى ويستقل الذكر بالميراث.

8- وإذا حضر القسمة... قولاً معروفاً.

وأرشدت الآية، على طريقة التنبؤ، ورثة الميت عندما يقومون بقسمة التركة، أن يعملوا من حضر من الأقرب غير الورثين ومن الأيتام ومن المساكين، شيئاً من التركة. ولعل في ذلك وصلاً لما كالي يقوم به الميت في حياته، فتميلية لهم على ففده بمكنون من ذلك. ومن التوابت في تربية القرآن لهذه الأمة أن يحرموا على لعب الخطيب، فلا يكسروا كلمة أي أحد بالخطيب الجاهلي ولو كان من حضر القسمة من المذكورين، بسب ما يعملونه لياه.

ثم وعظت الآية التالية كل من يصلح للموعظة وحذرتهم بتحذيرين لو تأملهما من يقرأ القرآن بقلب واع، ما وجد يتيم مظلوم من وليه.

9- وليخش الذين لو تركوا... وليقولوا قولاً عذيقاً.

لولا: ذكرت الآية أن من يتولى أمر التيسيم عليه أن يخشى أن تتوكل لولاده وهم ضعاف لا يفكرون على حماية أرزاقهم ولا السقاع عن كرامتهم. إن حمايتهم تتحقق برعاية الله لهم تبعاً لصلاح والدهم واستقلته. في قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام، فهما توليا إقامة جدل قريب من الاتهام، مما يترتب على التهامه ظهور كنز يتبين واستداد الأيدي له، حفظاً لأن والديهما كل صالحاً. (سورة التكيف الآية 76 و 81) فعلى أولياء يتعلم أن يحرموا على تقوى الله، فيها يقدمون مناعة وحفظاً لذريتهم لو ماتوا وتركواهم صغاراً ليطلبوا على أن الله

غير محمل: دون قصد الإضرار .

بيان المعنى الإجمالي.

قررت الآيات ما يستحقه بعض الورثين. وقسمته في شكل وصية فيها خير للمؤمنين وفيها إلزام لهم نظراً إلى أنها وصية من الله. ويتضمن هذا التشريع أموراً أولاً: أن قسمة التركة تتم بعد - أ: أن يأخذ الدفنون ديونهم التي لهم على الميت من التركة - ب: بعد أن تنفذ وصية الميت في الثلث فقل.

ثانياً: أن قسمة المخلف يتم على التفصيل التالي المنصوص عليه في هذه الآية وحسبما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من مسنده. (1) أن الأنثى من أولاد الميت تراث نصف ما يورثه الذكر. (2) أن البنات إذا لقون فلا أخ لهن يرش الثلثين - (3) أن البنت الواحدة إذا انفردت عن أخيها تراث نصف التركة - (4) أن ميراث الأبوين - أ) أن كل من معها فرع وارث من بن أو بنت أو بن ابن أو بنت ابن هو المس لك واحد منهما. ب) يقسمان التركة بينهما إذا انفردا ولم يكن معهما وارث. لأم الثلث وللأب الثلثان. ج) أن وجد مع الأم أكثر من أخ أو أخت للميت تراث الأم المس - وبجانب ذلك فإن صلة الزوجية توجب استحقاق كل واحد منهما نصيبه من الميراث:

الزواج يستحق نصف تركه زوجته إن لم يكن لها فرع وارث فإن كان لها فرع وارث من بن أو بنت أو بن ابن أو بنت ابن فللزوج ربع التركة.
الزوجة تراث ربع مخلف زوجها إن لم يكن له فرع وارث. وتستحق الثمن إن كان له فرع وارث.

القاعدة في هذا مارية - يقدم أولاً حقوق الدفتين ثم الوصية في حدود الثلث.

الإخوة للأب: إذا كان الميت لا ولد له ولم يشرك أباً وله أخ أو أخت لأم يراث من تركته المس. إذا كان الإخوة للأب أكثر من واحد قسموا الثلث بينهم بالسوية للذكر مثل حظ الأنثى.

وأكدت الآية في خاتمها على وجوب العمل بما نكره. وفيها حدود يحرم تجاوزها. وإن من طلع أو أمر الله ورسوله يلحق جزاءه جنات تتخللها الأنهار. وحددت من يعصى الله ورسوله بالعذاب المهين.

بيان المعنى العام.

11-14 يؤمىحه الله في أولادهك - ووله عذاب مهين .

حولت هذه الآيات التقاليد في توزيع تركه الميت التي كل يأخذ بها العرب في جاهليتهم وقوضت مبادئها. وقامت نظام لتوارث على القيم والعلاقات التي

أُسِّتَ بها رِبْطَةُ الأُمَرَةِ، ظَمَّ تَهْمِلُ حَظَّ أَيِّ حُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهَا مِنَ المِيرَاثِ حَسَبِ تَغْيِيرِ، أَحْكَمِهِ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَفُتْزِمَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ. افْتَحَتْهُ الْآيَةُ الْأُولَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى: بِوَصِيكُم. وَالْوَصِيَّةُ تَشِيرُ إِلَى لِيْنٍ مُضْمُونِهَا فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لِلْمَوْصِي، وَصَرَّحَ فِيهَا بِأَنَّهَا صَانِدَةٌ عَنِ اللهِ، فَهِيَ فِي قُوَّةِ الْأَمْرِ وَذَلَّةٍ عَلَى الْإِزْلَامِ. وَزَادَ ذَلِكَ تَأْكِيدًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي خَاتَمِهَا فَرِيضَةٌ مِنَ اللهِ، وَمَا كَانَ عَلَى هَذَا لِلنَّحْوِ فَعْلَى الْأُمَةِ كُلِّهَا أَنْ تَقُومَ عَلَى تَقْيِيدِهِ، وَأَنْ تَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ وَلِيْنِ وَرَاءِهِ رَقَبَةً اللهُ، فَصَرَّحَتْ الْآيَتَانِ (14/13) بِذَلِكَ. لِيْنِ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي حَدَّدَ مَا لِكُلِّ وَارِثٍ مِنْ نَسَبِيَّةٍ فِي المِيرَاثِ. لِيْنِ تَكْلِمِ الحُدُودِ الَّتِي حَدَّدَهَا اللهُ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْهَا، وَهِيَ وَاحِدَةٌ لِلتَّطْبِيقِ حَسْبَمَا يَرِيهِ اللهُ وَرَسُولُهُ لِمَنْ لَسَتْ عَلَيْهِ مَدْلُوعًا لِنَظْمِهَا بِالنَّظْمِ حَسْبِ مَنْ لَهُ رَبُّ الْعِزَّةِ، بِخَوْلِهِ لِلْجَنَّةِ الَّتِي تَتَخَلَّلُهَا الْأَنْهَارُ، وَالْخُلُودُ فِيهَا لَا يَبْرَحُهَا، وَلِيْنِ الْقُورُ بِالْجَنَّةِ لَهَا أَهْلُهَا وَأَنْفُسُهُ. وَكَوْنِ الْقُرْآنِ الْوَعْدُ بِالْوَعْدِ تَبَعًا لِقُوَّةِ الْأَهْتِمَامِ، فَمَنْ يَعْصِي لِوَامِرِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَيَتَجَاوَزُ بِالتَّغْيِيرِ لِمَا حَبَّسَهُ مِنْ حَقُوقِ كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْوَرِثَةِ، يَدْخُلُهُ نَارًا لَا يَبْرَحُهَا خَالِدًا فِيهَا، وَمَعَ عَذَابٍ لِلنَّارِ عَذَابُ الْإِهَانَةِ. وَاجْتِنَاعِ عَذَابِ النَّارِ بِعَذَابِ الْإِعْلَافَةِ فِيهِ حَذٌّ عَلَى قَبُولِ مَا فَصَّلَهُ اللهُ، لِأَنَّ الْفَسَادَ الْعَرَبَ فِي وَقْتِ التَّخَرُّبِ جَمْعُهُمْ رَبْعًا يَظْهَرُونَ فَتُجَدُّ لَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ لَكِنَّ لَا يَقْبَلُونَ الْمَهْلَةَ، مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَيْهِ أَنْ هَذَا الْقَطْعُ لَمْ يَسْتَوْعِبْ جَمِيعَ أَحْكَامِ قِسْمَةِ التَّرَكَةِ، فَفَدَّ لِكُلِّ لِرَسُولِهِ أَنْ يُلْفِئَهَا مَعَ الْحَوَالِثِ الَّتِي تَعْرِضُ عَلَيْهِ لِمَصَالِهَا، وَذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ (مَنْ يَطْلُعْ لِرَسُولِهِ وَغَنَوا بِهَا - وَمَنْ يَعْصِ اللهُ وَرَسُولَهُ) وَفَدَّ رَوَاهَا الصَّحَابَةُ رِسَالَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَغَنَوا بِهَا، وَاجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى تَطْيِيفِهَا.

الأحكام التي تضمنتها الآيات:

أولاً: له يقدم في التركة الذلتون فيصلمون دينهم.

ثانياً: له إذا فضل شيء بعد أداء الدين فإنه يتخذ وصية للميت بما لا يتجاوز ثلث التركة لي هو أو وصي. وما بقي يجري قسمه على الحدود التي جاءت في هذا النص.

مطلوب الولد: الابن الذكر والبنات. لفرع الموارث معناه: الابن وابن الابن وابن الابن، وابن الابن، وابن

ثالثاً: أن قسمة التركة بين الذكور والإناث من أولاد الميت تقوم على قاعدتين: (1) أن الأنثى لها حظها من كل نوع من أنواع المال المثلث (2) وأن حظها هو على النصف من حظ الذكر.

تتابع في هذه السورة الاهتمام بالنساء ورفع الظلم الذي كان مسلطاً عليهن، ومكن من حقوقهن، وناسب أن يعقب ذلك أن رعاية الأنثى لا يمنع من تلبيها وإصلاحها، باعتبار أنها عضو له تأثيره الكبير في الأسرة وفي المجتمع، فإذا انحرفت كان لانحرفها تبعه آثار سيئة. فمن الحزم والصالح تعريفهن بواجباتهن وما يترتب على إغلاظهن وتضييعهن للأمانة التي يتحملنها. تكوّن الآية أن المرأة المسلمة إذا ارتكبت الفاحشة وثبتت ذلك عليها بالطريق المقبول شرعاً وهو شهادة أربعة رجال مسلمين صالحين عليها، فبطلت أختي فامت بها، ومثل الشهادة إقرارها غير مكره بما فعلت، فمقبولها حينئذ أنها نجست في البيت لا تخرج حتى تموت أو يأتى ما يغير هذا الحكم فيحمل الله لها سبيلاً للخروج من حبسها ذلك.

هذه الفعلة، المعبر عنها بالفاحشة، يكاد جميع المنظرين في كتاب الله: أنها الزنا، وأن هذه العقوبة تشمل البكر والثيب. وأنها كانت العقوبة الواجب تطبيقها في أول الأمر بعد الهجرة في المدينة، وأن هذا الحكم قد نسخ بحديث البكر، ورجم المحصنة. ورأي آخر له قيمته من النظر، أن هذا الحكم هو في الساحقات (الشذور الجنسي هو الشذور الجنسي بين الأنثى ومثلتها) وأن عقوبتهن تسجن في البيوت سجنًا مؤبدًا، والعمل بالآية باقٍ ولا نسخ.

16- وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ سَوْحِقِمًا.

عرضت الآية بعد ذلك لحكم الذكورين (وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ سَوْحِقِمًا) إذا فعلا للفاحشة، وفُسرَت كما سبق في النساء بالذكريين الزانيين. البكر والمحصر والحكم هو إيداعهما بالتوبيخ والتعير. ورأي بعضهم أنهما يضربان ضرباً غير مبرح أيضاً.

17- إِنْمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ حَسْبُهُمَا.

وتقرر الآية أن هذا الحكم لا يلزم طيلة الحياة، فإذا ظهرت التوبة وفارها صلاح الحال، ومخالف الاستقامة، رفع ما كان من العقوبة. ويذهب من رأى أن صدر الآية نزل في الساحقات، إلى أن المقصود هنا عقوبة اللواط (الشذور الجنسي بين الذكور) ولأنهما يذنبان وتستمر عقوبتهما ولتحطاط مركزهما الاجتماعي إلى أن تتبين توبتهما توبة تجمع الشروط.

18- وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ عَدَاًبًا أَلِيمًا

ويقرب عودة الزاني والزانية لو من عمل عمل أهل لواط إلى الوضع الاجتماعي المقبول بعد التوبة، بأن الله وهو الكامل، من صفته الثابتة التوبة

والرحمة، وعلى المؤمن أن يقتبس من الكمال الإلهي طريقته في الحياة. ويحصر القرآن التوبة التي يتفضل بها الله على العصاة الذين يتحقق فيهم أمران أساسيان: - أن يكون إندامهم على ارتكاب المعصية كان نتيجة غفلة وعدم تقدير لأثار المعصية، وانقناع من الغريزة وقوى الشهوة تحجب البصيرة. وتقوم قوى الإيمان فينسى لحظة الخطيئة رابطته بخالفه، ولا يفهم بالمعصية تفضيلاً لها وإنكاراً لحكمها أو استهزاء به.

- أن يكون يقظاً لموع ما صنع فلا يستمر على تكراره ليمتدروا يصحبه إلى النزع بل يتوب قبل حضور النزع الأخير. فإذا لم يتحقق الشرطان في العاصي فإنه لا تقبل توبته.

كما أنه لا تقبل توبة الكافر المواصل لكفره ورفض الحق، إلى حضور النزع الأخير، الوقت الذي يحضره ملك الموت ويرفع الاختيار والتكليف، فمن آمن في هذا الوقت الضيق هو كتصريح للكافرين يوم القيامة أنهم كانوا في حياتهم ضالين وأنهم معترفون بالحق ولكن ذلك الاعتراف لا ينفعهم، هؤلاء جميعاً قد هبأ الله لهم عذاباً أليماً، إلا أن المؤمن العاصي لا يخلد في النار، لما الكافر يجري عليه ما لكده القرآن دائماً بأنهم مخلون في عذاب جهنم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْعَلْ لَكُمْ أَرْبَابًا إِلَهًا وَلَا تَعْضَلُوهُمْ لَتَذَّبُوا النَّفْسَ الَّتِي نَفَخْنَا فِيكُمْ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ لَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ أَلَمْ تَكُونُوا مِن قَبْلِكُمْ أَعْمَىٰ فَهَدَىٰ اللَّهُ لَكُمْ سَبِيلَكُمْ وَأَخَذْتُم مِّنْ عِشْيَرِكُمْ ثَمَنًا إِنَّ لَكُمْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن يَعْقِلُ وَكَذَّبْتُم عَنْهُ فَأْتِكُمْ فَأُولَٰئِكَ مَعْصِيَةُ الشَّيْطَانِ فَهُمْ عَلَىٰ سَبِيلٍ مُّضِلٍّ قُلْ إِنَّمَا يَنْهَىٰ النَّفْسَ الَّتِي حَفِيَٰهَا اللَّهُ بِالْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ إِنَّهُ قَدْ سَمِعَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰ عَنِ الْعَصْيَانِ إِنَّهُ قَدْ سَمِعَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰ عَنِ الْعَصْيَانِ إِنَّهُ قَدْ سَمِعَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰ عَنِ الْعَصْيَانِ إِنَّهُ قَدْ سَمِعَ الْمُؤْمِنِينَ

بيان معنى الآيات

لا يهل لكم: يحرم.

تعضلون: تملعون من الزواج.

المعروف: ضد المنكر. وهو ما جاء على ما يلائم الشرع ويتناسب مع ما يجري عليه أمر الناس.

بهتان: الباطل الذي يتحير من بطلانه.

الفضي: لمتزوج بعضهم ببعض.

بيان المعنى الإجمالي:

مما كان مقبولا قبل الإسلام أن المرأة تخضع لظلم الزوج لها، إذ كان ولي الميت أحق بامراته يرثها كما يرث ماله، وينفذ فيها إرادته من التزوج بها أو تسريحها أو منعها من الزواج. وكان بعض الأزواج ينفر من معاشرة زوجته ويبقيها عنده مع الإضرار بها ليستولي على ماله بعد موتها. وبعض الأولياء يمنع منظورته من الزواج حتى يكون ماله له ولا يذهب إلى من تتزوجه ومن تنجبه. وكان بعض الأزواج يضرب زوجته ويمنعها من حقها لتتنازل له عن بعض ما قدمه لها عندما تزوج بها. فهي الإسلام الذكور من التسلط فظالم على المرأة.

استثنى القرآن حالة لا حرج على الزوج من لا زوجته إلى القضاء. وهي إذا ما ثبت لديه ثبوتاً يقيناً أن زوجته قد زنت، وهذا الحكم كان قبل إنزال حكم اللعان وأما بعد تشريع العمل فليس للزوج أن يضرب زوجته ليسترجع بعض ما قدمه لها. ولوصفت الآية الأزواج بمعاشرة زوجاتهم بالطريقة غير المنكرة لأشرا ولا عرفاً. وفيه الأزواج عندما تتحول عواطفهم عن زوجاتهم من حب إلى كراهية أن لا يعملوا بقطع العلاقة الزوجية فمضى أن يجعل الله في تلك الزوجة خيراً كثيراً. وغريب أن يمد الزوج إلى إبقاء زوجته إلى قتلها له عن بعض ما تسلمته صداقاً لها عند العقد، بعد أن امتزجوا امتزاجاً كبيراً وحل لكل واحد منهما ما كان محرماً عليه من الآخر. وبعد أن أخذ من أرواحهن عهداً على حسن المعاشرة.

بيان المعنى العام:

19- يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا خيرا كثيراً.

يدعو القرآن المؤمنين إلى إصناف امرأة، ويقدر منع مننوف من الظلم كانت تسلط عليها، وضروب من قهر تجبر على قبولها بموجب ما جرت عليه عاداتهم. ولكل نوع من المحاطين، الأزواج والأولياء والحكماء، ما يليق به.

كان من حق كبير الأولاد أن يتحكم في مصير زوجه إليه بما أن يتزوجها رضوت أو أبت، أو يزوجه من يشاء لو يحبسها عنده حتى تموت، أو يسرحها، وكان هذا الحق أيضاً لولي الميت إذا لم يخلع لواء، فيسرع هذا الولي لإلقاء ثوب على زوجة الميت، ليتحكم في مصيرها كما يتحكم فيه. وكان بعض الأزواج لا يعاشر زوجته معاشرة الأزواج ولا يسرحها، ولكن يبقيها عنده ليرثها عند موتها. وكان بعض الأولياء يمنع منظورته من الزواج ليرثها بعد موتها، ولا يذهب ماله لزوجه ولم تنجبه من الفرية. فهي القرآن عن تلك وزلي هذا الاستبداد من

العلاقات الأسرية، وأعطى حرمة ومكانة لإرادة المرأة، ونوع آخر كان الرجل يرغب في تطليق زوجته، ويرغب في أن ولحد أن تقتدي منه بتفكيره مما أخذته منه صداقا، فيعقد إلى الإضرار بها وحرمانها من حقوقها حتى يستولي على بعض ما أخذته ظلما، ولحكم واحد في الجميع. واستثنى القرآن صورة واحدة هي أن يثبت زنا الزوجة، فله أن يطلب منها أن تقتدي منه ويطلقها مقابل ما يأخذها منها، وكان هذا قبل تشريع العلم. ويثبت للقرآن لتصوير الذي نسي به، والمصلحة الذي أراد أن يقيم عليه بناء الأسرة، فيخاطب الأزواج أن عليهم أن يقيموا العلاقات الزوجية على الوجه الذي لا ينكر، وينتهي منه الظالم الذي لا يقبله الإسلام. وينتهيهم إلى أنه في حالة تحول العولطف من الحب إلى الكراهية، فعسى أن يكون الله قدر فيما كرهه خيرا كثيرا أعظم عادة على الزوج من نفوته من بعض ما عليه زوجته.

20-21، وإن أوتيته استبدال زوج... وأخذت منك ميثاقا غليظا.

وظلم آخر مما كان شائعا في المجتمع الجاهلي، والذي يمكن أن يستمر في المجتمعات هو أن تتعلق لإرادة الزوج بأن يغير زوجته فيتزوج بأخرى ويطلق الأولى، ويستعين على تحقيق رغبته بحمل زوجته الأولى على التنازل عن بعض ما أخذته منه صداقا، خاصة إذا كان ما يناله لها مقدارا كبيرا له بأن تقسول له نفسه أنه لما كان سيفارقها، فلا حرج في استرجاع ماله، فيشنع للقرآن ويحبط هذا التبرير. بالتذكير بأن العلاقة بينهما بلغت من التواصل والامتزاج حدا كبيرا، وقد ارتبطا برباط الزوجية الذي أباح لكل منهما ما كان محرما. وأعطى للرجل لزوجته ميثاقا وعهدا أن يكرماها، ذلك أن شأن كل خاطب، أنه يعبر عن تعلقه بمن يطلب يدها، وعن حرصه على تمييعها، إن ما يقنعه الزوج لزوجته من الهدايا وما يبذلها لها من الصداق، وما يقنعه من اعتقال بالحدث، كلها مزايا ناطقة بالعهد الموثق المؤكد. فمن العجب أن يفكر في الاستيلاء على شيء مما قنعه. (وكيف نأخذونه)

وَلَا تَبْكُوا مَا كُنْتُمْ تَبْكُونَ ۚ وَأَنْتُمْ مِنْ الْإِنْسَانِ ۚ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۚ خَبَرْتُ عَلَيْكُمْ أَنْهَبَكُمْ وَنَبَاتَكُمْ وَأَخَوْتَكُمْ وَغَشَبَكُمْ وَخَلَقْتُمْ وَنَبَاتُ الْإِخْوَةِ وَأَنْهَبَكُمْ أَلَيْسَ أَرْضَعْتُمْ وَأَخَوْتَكُمْ وَأَخَوْتَكُمْ مِنْ الرُّضَعِ وَأَنْهَبْتُ بَنَاتِكُمْ وَنَبَيْتُكُمْ أَلَيْسَ فِي خُجُورِكُمْ مِنْ نَسَائِكُمْ أَلَيْسَ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونِ أَدْخَلْتُمْ بِهِنَّ وَلَا خَافَ عَلَيْكُمْ وَخَلُولُ

أَبْنَاهُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَحْمِلُوا بَنِي الْأَخْتَرِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٠﴾ • وَالْمُحْضَنَاتُ مِنَ الْأَبْنَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
 أَمْسُكُنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُنَّ: أَخْلَى لَكُمْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَلْحَقْ أَنْ تَحْمِلُوا مَا مَلَكَتْ
 تُحْضِنُ فَرْسَ نَسَبِهِمْ: فَمَا اسْتَحَقَّتْ لَهُمْ مِنْ بَنِيهَا فَهِيَ الْخَوَارِجُ وَبَنَاتُهَا
 وَلَا خِصَاصٌ: لَكُمْ فِيهِ مَرْصِيَّةٌ: مِنْ بَعْدِ الْعَرِضَةِ: بِأَنَّهُ كَانَ عِلْمًا حَكِيمًا
 بَيَانُ مَعْنَى آخِرَاتِهَا

التمتت: البتت. سمي العرب نكاح زوجة الأب مقار.

ماء محبلاً: طريق سيء مرفوض.

الزانية: جمع زانية وهي بنت الزوجة من زوجها السابق.

حلال: زوجات.

المحصنات: المحصنة المتزوجة في حل بقاء رباط الزوجية.

محصنين: متزوجين منهم على ما أحله الإسلام.

المسالح: الزاني.

بيان المعنى الإجمالي

تبين الآية النساء الثلاثي يحرم على الرجل أن يتزوج بإحداهن. وهن:

- 1) زوجة الأب بمجرد العقد عليها. - (2) الأم والدة ولها الجدة وإن علت - (3) البنت وإن نزلت كانت الابن وبنت البنت وإن نزلت - (4) الأخت شقيقة كانت أو لأب أو لأم - (5) عممة شقيقة كانت أو لأب أو لأم - (6) الخالة أخت الأم شقيقة كانت أو لأب أو لأم - (7) بنت الأخ شقيق أو لأب أو لأم - (8) بنت الأخت شقيقة كانت أو لأب أو لأم - (9) الأم التي أرضعته 1. (الأخت من الرضاعة - (11) أم الزوجة التي عقد عليها نخل بها أو لم يندخل - (12) بنت الزوجة التي دخل بها - (13) زوجة الابن التي عقد عليها - (14) الجمع بين أختين - (15) الأنثى المتزوجة وهي في عصمة زوجها.

وما كان من سبي النساء في الحروب التي تصبح الأميرة ملكاً لصاحبها فإن ملك رقيبتها من سيدها لا يمنعه من الاتصال بها جنسياً بعد استئذانها إذا كانت قبل ذلك متزوجة.

ولكنك الآية الأكثر لم تنجب ما حرمه الله من النساء لأنه قد كتبه الله على المؤمنين على سبيل الإلزام لا خيرة لهم فيه. ثم نصت الآية أن الله أحل للرجل أن يتزوج غير المتخصص على تحريمهن وذلك بعد تقديم مهر.

ولكنك الآية على بطل المهر كاملاً إذا دخل الزوج بزوجه واستمتع بها، وخصص للزوجة أن تتنازل عن بعض ما وجد لها من الصداق كما رخص للزوج أن يزيدا على ما ساء لها إذا كثر ذلك عن رضئ. والله الذي ضبط هذه الأمور ضبطها مستندة لعلمه وحكمته.

بيان المعنى العام

22-24، ولا تتكلموا ما نكح آباءكم من النساء لأن الله كان عليهما حكيمًا.

إن تكوين الأسرة قاعدة المجتمع ومحضر الأجيال القادمة، لا بد أن يكون خاضعاً لنظام دقيق ونظرة بعيدة للمصالح، والابتعاد عن مجرد قضاء الشهوة الغريزية. فمن ذلك ضبط ما يحرم على الرجل من النساء اللاتي في العقد عليهن مفاسد تم إيراد بعضها بالنظرة فكانت عند فتزول ثانية في أخلاق البشر وبعضها نبهت إليه الشريعة وجعلته في مستوى ما نفرت منه طبائع، ففي الآيات الثلاث تخصيص على النساء اللاتي يحرم العقد عليهن، فلتتبعها؛ زوجة الأب التي عقد عليها دخل بها لو لم يدخل. وهذه لم يتم الإجماع على منعها قبل الإسلام. بل كان ابن الميث له الحق في أن يجبر زوجة أبيه، إن لم تكن له أماء على الزواج منها. ولذا فرت الآية هذا الزواج بما يوحد الابتعاد عنه والنفرة منه حسب الفطرة، بوصفته بأنه فيج جداً، وهو مفقوت، حتى أطلق عليه العرب نكاح المفقت، وأنه طريق سيء لتكوين الأسرة.

الأم التي ولدت للرجل ولها جنة وإن علث. ذلك لأن صلة الولد بأبيه صلة أحرم وتقدير ووقار، فمن مناقضة للفطرة أن نهبط العلاقة إلى اللهو والعبث والرقص.

البلت، ومنها بنت الابن وبنت البنت، ومما يلحظ أن اللغة العربية لا يوجد فيها كلمة تدل على الاتصال الجنسي المحرم بين الولد وابنته الذي هو أمارة على انتفاء تصور ذلك. وفي اللغات الأوروبية يوجد هذا المصطلح.

الأخت سواء أكانت أختاً شقيقة، أم لأب، أم لأم.

للعمة سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم.

الخالة أخت الأم سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم.

بنت الأخ سواء أكانت شقيقة أم لأب أم لأم. وما تتناول منهن.

بنت الأخت سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم. وما تشمل منهن.

المرأة التي لرضعت للرجل، وهي أمه من الرضاعة، مادام لبنهما وصل إلى حوفه في خلال الحولين الأولين.

الأخت من الرضاعة أي التي رضعت من المرأة التي لرضعت للصبي، سواء أكانت من زوجها أو من غيره.

لم المفقود عليها. فبمجرد العقد على ثبنت يحرم الزواج بالأم.

ابنة المرأة التي عقد عليها ودخل بها، أمت إذا طلفت قبل أن يدخل بها جاز له التزوج من لبنها.

المرأة التي عقد عليها ابنه دخل بها أو لم يدخل. والمركب بالابن الابن الحفيظ لا الابن المنسوب إليه بالتبني، فالتبني. وإن كان حراماً إلا أن التمبني يحل له التزوج من زوجة متبناه إذا طلقها سواء لحل بها أم لم يدخل.

أخت زوجته ما دلت في عصمته. فإذا طلقها وخرجت من عصمتها جاز له التزوج بأختها.

المرأة التي هي في عصمة زوج، هي محرمة على جميع الرجال ما دامت في العصمة، فإذا طلفت وخرجت من العصمة جاز التزوج بها بشروطه وأركانها.

ولستئنت الآية الأميرة المتروجة قبل أسرها فليدنها أن يستمتع بها بعد استيرتها.

ونصت الآية بعد استيفاء المحرمات أن ما عداهن هو حلال في وقت نزول هذا التشريع. وما زاد على ذلك يعتمد فيه ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.

ولكن القرآن على المؤمنين أن يلتزموا باحتول ما قرره الإسلام في هذا الباب من التحريم والحلية.

ولرشدت الآية إلى أن الحلية لا بد أن يتوفر لها قصد الزوج للعقد على الوجه الشرعي بنحو أركان النكاح، وتقديم المهر للزوجة، وأن يكون القصد هو الإحصان بما يترب عليه من نسب والصبور والتحريم والتحليل والميراث، لا مجرد الاستمتاع الذي هو الزنا. وأن على الزوج أن يمكن زوجته من صدقها، وللزوج وللزوجة أن يتصرفا في الصداق بالرضا تصرفاً تتأزل فيه الزوجة عن بعض صدقها لزوجها، أو يسمح للزوج بالزيادة على الصداق تمكينا للمودة والألفة بينهما. حافظوا على تطبيق هذه الأحكام فهي منزلة من عند الله المتصف بطم الأمور على حقيقتها لا يخفى عليه شيء منها، الحكيم الذي لا يخطئ في تحقيق المصلحة في كل ما شرعه.

وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْصَحَ الْمُخَضَّتِ الْمُؤْمِنَتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ الْمُؤْمِنَتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
 فَادْكُوهُمْ إِنْ أَهْلَكُوا وَأَتَوْهُمُ الْخَوَارِجُ وَالْمَقْرُوبُ غَضَّتْ عَنْهُ مَسَافِحُهَا
 وَلَا تَحْجِزُ عَنْهُمُ أَخْدَانُ إِذَا أَحْصَى فَإِنْ أَتَتْ بِفَنَجِشٍ فَاعْلَمِي بِصَفِّ مَا عَلَى
 الْمُخَضَّتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِأَنَّ خَشْيَ الْعَذَابِ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِينَ يَخْلُقُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَيُثَبِّتَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 يَشْرُونَ الشُّهُورَ أَنْ يَجْلُوا مِلًّا عَلَيْهِمَا ﴿٦٩﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ
 الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٧٠﴾

بيان معنى الآيات

طولا الفترة.

الفتيات: جمع فتاة والمعصود بها هنا غير الحرة.

أهلهم: المالكين لهم.

مسافحات: المسافحة الزانية مع من ترغب فيه بدون تعيين.

الأخدان: جمع خدن وهو الخليل الذي تلتزم المرأة معاشرته وحده بدون عقد.

أحصن: تزوجن.

العتت: المشقة الزائدة من العزوبة.

بيان المعنى الإجمالي

من لم يكن له من المال ما يستطيع به أن يتزوج مسلمة من ذوات العفاف والصون
 فإنه يرخّص له أن يتزوج من مملوكة (أمة) مسلمة، والإنسان يسمو بإيمانه والله
 مطلع على الأرواح التي صفاها الإيمان فكأنها بإيمانها تخلصت من المقام
 الاجتماعي المنحط خاصة والصلة بين الأحرار والإماء مقررة بالتساوي للجميع
 لأب واحد ولم واحدة، وبينت الآية طريقة تنفيذ الزواج بأن يكون بإذن مالكيهن،
 وببذل الصداق. مع قصد التخفيف لا الزنا ولا المخالفة. وإذا تزوجت الأمة ثم
 زنت فحدها على النصف من الحرة خمسين جلدة. وأرشدت الآية المؤمنين أن لا
 يقدموا على الزواج بغير حرارتهم لم يبلغ الغلبة (حب الاتصال الجنسي) بأحدهم
 حدا يوقع صاحبه في مشقة قد تسوقه إلى ما هو لسوا من الزواج بأمة. فمن

مستطاع أن يصير على العزوبة فليصبر، وهو خير له حتى لا يكون أولاده الذين سيتسلطون منه بوسطة هذا النكاح مملوكين لسيّد الأمة، الأمر الذي يحول بينه وبين القيام على حسن تربيتهم ويقضهم الحرية والإقباله لا حرمة من النزوج بالإماء. والله فضله يغفر ما سلف من الذنوب بعباده، رحيم بخيله.

ما سبق في هذه السورة من الأحكام التي خالف فيها التشريع الإسلامي بعض الأحكام التي ألفوها وقبلوها كالتزوج من زوجة الأب، هو من فضل الله على هذه الأمة إذ بين بتلك الأحكام طريق التمسك في الحياة وكشف عن القواعد المرعية في فترات صلاح الأمم السابقة التي ما بلغوها إلا بعد تجارب ولخطاه إنه سبحانه يريد أن ينعم عليكم بقبول التوبة، وفي المستقبل فلن تأسوون باتباع الذات، المنقذين إلى اتباع شوقهم يعملون على أن تكفروا عن الطريق المستقيم، كل ما شرعه الله لكم لا يوقعكم عند تعليفه في مشقة، وكلما وقع المؤمن في عسر من أمره فإن الله يخفف عنه، وهو أعلم بأن الإنسان الذي خلقه معرض للضعف.

وبيان المعنى العام

25- ومن لم يستطع منكم ملولاً سرحباً.

من طرفة الإنسان ثوبه في تكوين أسرة. ومما يفوي لتفاحه إلى ذلك غريزته الجنسية العارمة. وقد فرض القرآن على من يرعب في الزواج أن يدخل امر يريد الاقتران بها الصداق الذي يرضيها. وكانت ثروة الأمم محدودة قبل أن تدخل الطاقة في الإنتاج، فمعظم الرجال يشك شوقه إلى الزواج ولا يجد المال الذي يبنه مبدقا، فحرص القرآن لمن لم يجد ما لا يتزوج به أن يتزوج بأمة مسلمة، وتضيف الآية أن الله يعلم ما اهتكت إليه قلوبكم من الإيمان، وهو يشير إلى جبر ما في المملوكة المؤمنة، من نقص اجتماعي، يلماها الذي هو محل عارمة الله، ويضيف أن الأحرار والعبيد رجالاً ونساء كلهم تتسلطوا مر لب واحد أدم، ولم واحدة حواء، وذلك ينفي ما جرى عليه أهل الجاهلية من احتقار غير الأحرار والحرار احتقاراً جعلهم لا يقربون غير الحرار إلا على ضرب من العبد وقضاء الشهوة بالزنا ونحوه. والتزوج بالإماء يخضع للنظام واجب التطبيق، من ذلك أن يكون النكاح بإذن مالكين وأن يتم الزوج لأوجه المملوكة مبدقا حسب ما جرى عليه العرف، ولي يكون التقصد من العبد عليهن العفة وإحصان المملوكة بأن تكون ذات زوج يعقها وتنفق، لا بغصد إفراغ الشهوة بالزنا ولا بائخادها خليفة بصطفها لنفسه دون أن يتوكل على ذلك أي حق من الحقوق.

إذا تحققت الشروط المعتبرة فإن الأمة المنخول بها إذا زنت كانت عقوبتها خمسين جادة على النصف من عقوبة الحران. ويؤكد القرآن على أن التزويج بخير الحران هو رخصة لمن يوقعه استمرار العزوبة في مشقة قد تفضي به إلى ما هو أسوأ من التزويج بخير الحرة. ومع هذا يحرص القرآن غير القول على الصبر وعدم التشرع وذلك لأن الأولاد ينشأون لهم في فرق، فيكونون عبيدا لسيدها، وهو ما يحرمهم من تربية أبيهم ومن ميراثه ومن كثير من الحقوق الاجتماعية، ويكفيك حرمتهم من الحرية. ويعقب القرآن على جميع الأحكام بأن الله منصف بأنه غفور لعباده ما وقفوا فيه من تجاوز وأن ما شرعه لهم هو لمصلحتهم ورحمة بهم.

26- يريد الله ليبين لكم... والله أعلم حكيم.

يحق القرآن الفطاء العام لكل ما شرعه ببيان ما يريد رب العزة لهذه الأمة؛ أنه يريد أن يبين للأمة طريقها السالك الذي يحقق لها سعادتها في الدارين بدون غموض ولا اشتباه، بما يحميها من الحيرة.

27- والله يريد أن يتوبكم سيلا عتيلا.

وإن يهديها للحقائق التي بلغت الأهم السابعة بعد تجارب وطول عناء فبقمتها لها واضحه المعالم بينة المقاصد تتقلها المغول وتألها النفوس.

أن يميز لهم بين ما يريد الله لهم، وبين ما يريد لهم الذين استعجبتم شهواتهم وانقادوا لمذلتهم الرخيصة والعصا في حماة الرذيلة، الذين يعملون على انحراف المؤمنين عن الطريق المستقيم انحرافا عظيما ينطبق عليهم الضلال والفساد.

28- يريد الله أن يختف عنكم... وخلق الإنسان ضعيفا.

هذه إرثته سبحانه التي خلقها بما شرعه لكم يريد أن يخفف عنكم، فسبحانه برعى قدراتكم المحدودة ولا يكلفكم ما فيه مشقة، وكلما حصلت المشقة أسرع التيسير والتخفيف. وهذه قاعدة من قواعد التشريع مرعية لدى الفقهاء والمجتهدين، الذين يفترونها تبعا لنعميقهم في الوضع وتقديرهم للتيسير الذي يرفع الحرج. وليس فذلك، بلها مفتوحا لمن لم يملك المستوى العلمي الذي يمكنه من بيان حكم الله، وتختم الآية بإعلان حقيقة قد يتفل الناس عنها: هي أن الإنسان بني تركيه على أنه يتألبه الضعف، والذي خلقه هو أعلم به براعي من رحمته وأفضله هذا الضعف فلا يتقبل عليه. والآية تشير إلى مبدأ من مبادئ التربية الإسلامية التي كون عليها النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمة، فارتفعت بذلك إلى مقامات سامية من الرشد الاجتماعي: على كل مؤمن أن يرعى أخاه المؤمن فلا يتقبل عليه هذا الخلق هو

مقتبس من الكمال الإلهي الذي يرفع المؤمن فيه إلى مستويات حسب طاقته وما قدره له ربه من الكمال. فلا تشجر أخك بالمقام عنده كأنه لا شغل له في الدنيا إلا الحديث معك، ولا تكثر المطالب على من تربطك بهم علاقة اجتماعية من زواج أو بنوة أو قرابة أو صدقة. فثرة دائما في تعاملك لن الإنسان ضعيف له حاجات فلا تستغل حياته، وتاملوا فيما كتب به القرآن مسحاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بإزالته: **فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْكِينٌ لِحَدِيثِ** **إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يَأْتِيكُمُ النَّبِيُّ لِيُنْذِرَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِيَ قَوْمًا شَاقِينَ** **وَالَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَعَدَاً فَأُولَئِكَ يُمِصُّهُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَكَانَ اللَّهُ بَصِيرًا** **إِنْ تَجْتَنِبُوا كُتُبَنَا نَبِيُّونَ إِنَّهُ لَكَثِيرٌ مِنْكُمْ يَخْفَوْنَ عَنْكُمْ فَخَلَّاهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ**

بيان معاني الألفاظ

لا تأكلوا: لا تستولوا.

بالباطل: بغير الطريق المشروع.

عدوايا: التسلط بالظلم.

بيان المعنى الإجمالي.

نهى القرآن المؤمنين أن يستولي أحدهم على مال غيره بغير وجه شرعي وقد فتح لهم أبواب التجارة الدائرة بينهم عن طريق التراضي للحصول على الرزق. ونهاهم أن يعتوا بالقتل. إن الله تعالى أن يكون مسزولا، رحيم بكم. فكيف لا تكونوا أرحماء فيما بينكم. ومن لم يمثل ولو تكذب ما نهى الله عنه بالتمسك على غيره بالظلم فاستولى على ماله أو قتله، فليطمأنه لا بقتل من عفا الله وسيصلى نار جهنم، ولا يجد ملجأ ولا طريقا للتجاة. يفتح القرآن الأمل للعصاة الذين لم يفسدوا بظلم الجرائم واجتنبوا الكبائر، أن الله سيتفضل عليهم محو ما ارتكبوه من صفائر الإثم. فيقدمون على ربهم وقد لمحت من صفائفهم آثار للذنوب، فيدخلهم الجنة بما أعده فيها لهم من كرامة.

بيان المعنى العام:

29- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ هَكَذَا

يهدف القرآن إلى تكوين مجتمع فاضل، تربط أفرادَه صلة متينة من الود، وهذا لا يتحقق إلا إذا كُنَّ كل فرد يحترم حقوق غيره ولا يتعدى عليها، بل إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا. ولذا نهى القرآن المؤمنين، ودعاهم بوصف الإيمان ليبني عليه أن عدم احترام هذا النهي يتلفض مع الإيمان. قدم في النهي ما يقرب حدوثه ويتهاون بعض الناس به، وهو الاستيلاء على مال الآخرين بتغير وجه شرعي. ويشمل ذلك الضار والسرقة والفسق والزنا والغصب وبصفة عامة: كلما كان انتقال المال من يد إلى يد بالقهر أو بالتحويل أو بطريق محرر أو غير رضا صاحبه، هو داخل تحت قوله تعالى: **لا تأخذوا أموالكم بينكم بالباطل**. وأخرج في سورة الاستثناء ما يحصل عليه التاجر من المكاسب التي تم التبادل فيها برضا الطرفين فإن ذلك حلال، وإن كُنَّ ما يحصل عليه التاجر في بعض الصفقات يكون أكبر بكثير مما قدمه من خدمات.

وثنى بالنهى عن القتل. والقتل من أعظم الخنوب، هو مخرب للمجتمع محطم للوحدة، مزرعة للفن، والقتل عدو الحياة التي يستوي فيها جميع الأحياء، فمن قتل غيره، بإعتباره متحيا على الحياة، فكأنما قتل نفسه، وإذا كانت معصية القتل يستوي فيها من قتل نفسه ومن قتل غيره. لا يقدم الجرم على القتل إلا من ضلقت الحياة أمامه فوصل به الأمر إلى أن أغلقت في عقله جميع الأبواب ونسدت كل المسبل. وصي عن سعة رحمة الله .

30- ومن يفعل ذلكا . يسيروا.

وحتى يفتح من نفوس البشر الإقدام على هذين الحرامين العظيمين أفصح القرآن عما ينتظره كل من أقدم على هاتين المعصيتين، ظلما ولستهانة بحقوق الآخرين، ينتظره أن يصل إلى نار جهنم، ولا يجد ملجأ لوجه ولا كسرة على الهرب فينساق إليها كما يندفع المصنوع إلى التبازي.

31- إن تجتنبوا مكابرا ما تنهوا عنه. حكرهما.

يفتح المولى أبواب الأمل لمن لم يستول قشر على نفسه ولكو ينزلق في فليل من الأحوال إلى ارتكاب بعض الخنوب الصغائر لكن خوفه من الله وقوة إيمانه ووضوح صلته بالله مكن ذلك يحول بينه وبين ارتكاب الكبائر. فوعده ربه بأن يحصو من صحائفه آثار ذنوبه الصغائر ليفهم على ربه نصفحة ببعضاء من الأثام، فيكون ماله دخول الجنة بما فيها من كرمة.

وفي التفرقة بين الذنوب الكبائر والصغائر اختلاف كبير بين علماء الأمة. فبعضهم بالغ بأى كل معصية هي كبيرة وبعض المعاصي أكبر من بعض ومنهم من حصرها في عدد: الشرب بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات الفحلات، وأكل مال اليتيم، والغرر يوم الزحف، والسحر، وعقوق الوالدين. وربطها بعضهم بما قالون النهي عنه وعيد النار أو عذاب لو لعنة.

ومنهم من تعمق فقال: يدر عظم الذنب، فيعتبر كبيرة بما يترتب عليه من الفساد وما يلحقه من قلة الكثرات صاحبه بنهى الله وتحريمه ووهن كينته.

وَلَا تَتَّبِعُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۞ وَلِكُلِّ جَمَلَةٍ مَوْلًى بِمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۞

بيان معنى الألفاظ

مولي: جمع مولى: القريب من الورثة.

عقدت أيمانكم: من كانت قريبتهم بغير القرب الطبيعي. كالخلف والتبني.

بيان المعنى الإجمالي

يطلب القرآن من الإنسان أن يكون واقعياً لا يعيش في الخيال، تتبع نصه ما أنعم الله به من نعم على غيره، لم يحصل هو عليها، فيستر الشعور بالحرمات منها في نفسه حتى تأخذ عليه فكرة، وقد يتحول متبعة التفكير وعدم الرضا إلى حالات تغد عليه حياته وربما تبعته على الحقد أو على الإحرام. فالآية تبه المؤمنين إلى الاعتصام بالرضا بالمعقور والنفاعة بما وصل إلى الإنسان من رزق دون أن يمنعه ذلك من العمل على ما يحوله إلى ما هو أفضل، ثم الاستعانة بالانتجاع إلى الله أن ييسر له أمره. ويؤكد القرآن ما تكلفت سورة النساء ببيانها من حقوق المرأة بصفتها الإنسانية الكاملة. فالمرأة لها حظها من الأعمال التي أنجزتها باختيارها والرجل نصيبه من نتائج الأعمال التي اكتسبها. وتلك الآية المفيدة أن الله شرع لكل تارك مال مولى يرثون عنه ماله من الأبناء والأقارب فلا تتمنوا الحصول على ما فضل الله به بعضكم على بعض من الميراث.

وعطفت على الوارثين قصلة الحاصلة بالعقد لا بالنسب ولا بالقصير، وكانت قرابة معتبرة يستحق بها المعافاة مسيئنا من الميراث، ثم نسخ هذا الحكم وانفرد الوارثون، المعينون بالنصوص، بمال الميت.

بيان المعنى العام:

32- ولا تتمنوا ما قتل الله به بعضكم..عليها.

يتفاوت البشر في حظوظهم من الخير، هم مراتب في الثراء والجمال والعلم والدين.... وتختلف النساء عن الرجال في الحظوظ التي يتأهلها كل جنس. ثم إنهم بعد ذلك مختلفون ففريق قنعوا بما قدر لهم. ففاعة الإيجابية التي لا تعطى عن السعي لتحويل الحال، وفريق المتبرمين بوضعهم الساخطين على ما قدر لهم في الحياة أو ما شرعه الله لهم. وبين الأطراف مراتب كثيرة. ويتوجه القاديب القراني للفرقيين

يرشد الفريق الأول إلى قطع سلسلة حديث النفس عن الأماني والاشغال بالمفود. وليس معنى ذلك أن يقطع طموحه فلا يخطط لتغيير ما هو أفضل في المستقبل، بما يتحول معه حاله إلى وضع يكون أرفق به وأسعد فسلك مخالف لطرة الإنسان التي خلقه الله عليها، بل مخالف لأمره أن يحقق خلافته في الأرض بالطموح الصالح (**واسئلا الله من فضله**) ولكن لا يلتحق بالفريق الثاني الذي يشقى بأمانيه.

وينتهي الفريق الثاني عن الإغراق في الأماني. وحصر التفكير فيما فقدوه. دون التفكير إلى ما حصلوا عليه من نعم. نلك أن حصر الإنسان همه فيما لم يحصل عليه، ينتهي به إلى السخط على وضعه. ثم يتطور إلى حسد من هو مفضل عليه، وقد يتحول إلى كراهية ثم إلى سعي ظالم للحيلولة بين المنعم عليه وبين تمتعه بما رزقه الله. وقد ينتهي إلى الكيد أو القتل.

ويدخل في الفريق الثاني تنسب النساء التنوية مع الرجال في كل شيء، في الجهاد والميراث. وقد روي أنه وقع التصريح بذلك من بعض النساء في العصر النبوي، والآية نزلت بحكم عام يتقف الرجال والنساء. ليوفى كل مؤمن ومؤمنة بأن ما صبطه الإسلام في الحقوق والواجبات، وما خص به كل جنس ومما قسم لكل فرد من الميراث، وفي حياته من الصحة والقوة أو الضعف والمرض، والجمال والومامة أو النعامة، والعلم والقصاحة أو الجهل والفهامة، والوجاهة والحظوة أو الخمول وقعدن للتوقيف والقبول، ونحو ذلك هو من العدل الإلهي الصادر عن علم كامل محيط بالكون ومن فيه وما فيه.

فانه عليم العلم الكامل بكل شيء ما عظم وما ناق فليطرد المؤمن ومعلوم للنفس التي يتبعها للتوقف أو الاعتراض، وذلك بالاعتماد على أن الذي ميز كل فرد بنصيبه في هذه الحياة النتياء هو الذي ومع علمه كل شيء، ومن التشريع العادل الذي لا يعطى أحدا حقه، ما قرره القرآن منذ أربعة عشر قرناً: أن تتلّج للعمل بقدر بما تقدمه العامل من جهد وجودة أي قيمة العمل لا بغية المتبجح الرجل والمرأة في ذلك سواء، إن هذه النسوية لم تتحقق في العالم بصفة شاملة حتى اليوم. ولم تلبس للمرأة النسوية في الحقوق والأجور في الغرب إلا غلب الحرب العالمية الثانية، وبعد احتجاجات واضطرابات،

وهذه الآية مرتبطة في بعض ما نل عليه، بالتفاضل الذي نظم به القرآن قسمة التركات، فهي متصلة بآية الموارث.

وتتبعها الآية التالية التي جاء نظمها بطريقة توجب على تاليفها التأمل في تروابط أجزائها لينتج له معناها فيمكن أن تفهم على المعنى التالي:

33- ولكل جعلنا موالى مما ترككم شهيداً.

التارك للمال من الرجال والنساء شرعاً لكل قريب منهم حفظه من الميراث من مواليه، وهم الوالدان الذال على عمود النسب فيدخل فيه الأبناء وما تتسل منهم، والأقارب فجوانح بالأخوة والعمومة. كما يمكن أن تفهم ولكل شيء من التركة التي خلفها الوالدان والأقربون شرعاً للذين هم مؤهلون للميراث من ذلك المخلف ما يؤول إليهم على مقادير مراعى فيها العدل والحكمة. فلا تتملوا ما فضل به بعضكم على بعض في الثراء في حياتهم ولا ما فضل الله به بعضكم على بعض في النصيب المحدد من الميراث. وتعرض خاتمة الآية لتنظيم اجتماعي كان عليه المسلمون في العهد الأول. إذ التركيبة الاجتماعية كانت تتركز فيها الوحدة العائلية من عناصر ثلاثة: وحدة النسب، ووحدة الصهر، ووحدة الولاء الذي كان يتحقق لها: تبعاً للعق فالمعق يستحق حظه من تركة معتقه، ولها بقدر بقدره لثان بينهما ويؤكدانه بالقسم أو يمسك كل منهما بيد الآخر: لهما ترابطاً ارتباطاً كاملاً يورث أحدهما الآخر ويلصره ويثقل له ويعادي من عاداه، ويكون سلماً لمن يسأله من تعاضد معه، ولها بعد التبنّي فقد كان بعضهم يتبنى ولد غيره فينصبه إلى نفسه فيستوي بذلك مع أولاد صلته في جميع الحقوق ومنها الميراث، وينضاف إلى ذلك ما عقده النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار فقد أختي بينهم أخوة تبعها الميراث. فلم تزعزع أية الموارث أثناء الاجتماع رغبة هامة بضربة واحدة، بل لبقت للولاء حطاً من الميراث إلى أمد محدود، حتى إذا مضى أمر الميراث على القسم

الذي حدثته الآية ولقوه، نزل مما يتسخ الميراث بالولاء في قوله تعالى: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله (خاتمة سورة الأنفال) وانتهى التوارث بغير القرابة والصهر وولاء المعق خاصة.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أُنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِلَّا فَضَّلَتْ لِنَفْسٍ لِنَفْسٍ بِمَا حَبِطَ اللَّهُ وَاللَّيْنِ تَخَافُونَ فَتَشُوهُمْ فَيَعْطُونَهُمْ مِنَ الْمَالِ مَآخِزَ مَخْرَجٍ وَأَنْتُمْ عَنْهَا كَارِهِونَ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَعْصُوا عَلَيْهِمْ نَبَلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَإِنْ جَفَنَتْ شِفَاؤُكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ طَائِفَتٌ مِنْكُمْ فَلَاحِقٌ لَكُمُ الْكُفْرُ بِمَا كُنْتُمْ عَلَى كَيْفٍ إِنْ أَتَيْتُمْ شَوَافِئَ الْمَدِينَةِ فَوُودُوا بِكُمْ فِي الْقُلُوبِ أَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ وَالْكَافِرِ لَكُمْ فِي الْأَنْفُسِ خِفَافٌ وَلَا لِلْإِيمَانِ فِي أَنْفُسِكُمْ أَثَرٌ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

بيان معنى الألفاظ:

قَوَّامُونَ: القوام: المكلف بالرعاية والحفظ.

فَتَكُنْتُمْ: جمع قاتنة: وهي المطيعة عن لادة ورجبة ومحبة.

تَشُوهُمْ: التشور: العصيان مع استعلاء وتمرد.

عَنِ: خلاف بعضي إلى الانفصال.

بيان المعنى الإجمالي:

حقيقة قوامها القرآن بين يدي الأحكام التابعة لها. هذه الحقيقة عر عنها في صورة قاعدة من قواعد الحياة التي بني عليها الله نظام الكون، هي أن القيادة في مؤسسة الأسرة للرجل. وينبني إلى أنه ليس في ذلك تسوية لشأن المرأة ولا إضعاف لدورها في الحياة ولكن هذا التنظيم مبني على ما خص به كلا من الجنسين، فإنه من الحقائق الأولية المدركة ضروريا لجميع البشر أن جنس الرجال أصلب في هيكل التركيب العضلي وأقدر على التحمل المخاوف والتغلب عليها، وذلك قدر فضل الله به جنس الرجال وأزهم تبعاً لذلك بواجبات لم تفرض على المرأة التي منها أن الرجل مطالب بالمسعى لكسب الرزق والإنفاق على الأسرة وتوفير ما هي في حاجة إليه من سكن وغذاء وكسوة ورعاية في حالتي الصحة والمرض، وليسود الوفاة في الأسرة، على المرأة أن تكون عضواً صالحاً فيها، وصالحها يتم بتركية نفسها لتحمل بذاتها على نشر الوفاق في الأسرة، فتكون مطيعة لزوجها بالطاعة التي تكفل الحياة الزوجية في أمن ووفاء، ولا يجوز للزوج أن يتعسف في تنفيذ ما يترتب على القوام فلا يعتبر نفسه سيذا للمرأة بل هوها فتخضع. ومن ناحية أخرى

فإنه لما كان سعي الزوج لكسب الرزق يصحبه مغيبه عن البيت، وتكون الزوجة مؤتمنة طول مدة مغيبه على ماله وعلى عرضه وعلى رعاية أولادهم، ذكرها القرآن بالصيغة الثانية الضرورية لصالح الأسرة. أن تكون بصفة لما كلفت به من رعاية ما تؤتمنت عليه من قلم والعرض وتقتسنة الأولاد على الفضل والخير، قد تنمرد الزوجة وتلغي حق زوجها في تسيير الأسرة على الخير، ويقصد الجوفي البيت على الزوج وعلى الأطفال، شرع القرآن ما يحو هذه النزوة للطفتة وذلك بدعوة الزوج إلى تذكرها بما أوجب الله عليهما من الطاعة، ومن حقوق الأولاد أن يعيشوا في بيت يسوده الوفاق لا الخصام، فبقي عانت الحياة الزوجية إلى سابق عهدها فيها ونعمت وإن استمرت على الترفع ولحقار روحها مخرجها في الفراش، فإن تمانت وكثنت من المحيط الذي كلفت فيه المرأة أن لا تحتورد للزوج إلا إذا ضربها، فليصربها ضرباً لا للتقصي ولا للإهانة، أما إذا كان الضرب يزيد في نورها وينمي تشفاق بينهما فلا يحل له أن يضربها، ويؤكد القرآن أن وسائل التأديب هذه إنما مكن منها الزوج لتعود الحياة الزوجية إلى صفائها، وليست تسلطاً قهر وإذلال للزوجة، ويذكر الأزواج بأن سلطان الله فوق الجميع فهو العلي الأعلى، وإله قوي على تعهد موجبات العدل من الذين يمتدون عليه.

وبنه حفاظاً على سيادة الوفاق في حياة الأسرة، وحسب لا يقع الإسراع بالطلاق يدعو العناصر المؤثرة الخارجية أن تتدخل إذا عجز الزوجان عن إزالة ما بينهما من خلاف، فأولئك المحترمين من أعضاء العائلة أن يتكون منهما مجلس عائلي، حكم من عائلة الزوجة، وحكم من عائلة الزوج يفوض لهما النظر في أسباب الخلاف، وينصف في حلها، لتبين أفضل السبل لإزالة أسباب الفرج، وعليهما أن يخلصا في إرادة الخير للأسرة التي تليق بالتمزق لتكوينها، وليستعينا بالله ليعود الوئام والامتزاج والصفاء ومع حصر القصد والتمسك لا يمتدان العون من الله، وتختتم الآية بتذكير الحكيم بأن الله عليم بيوطنهما خبير بنيةهما وما قاما به من سعي للتوفيق أو سعي أحدهما لتفليب من بطنه.

بيان المعنى المصام

34. الرجال قوامون إيان الله كان عليا حكيمرا.

أقر مضمون هاتين الآيتين ضجة متعلة مصر وألوا ظهورهم لأحكام الله وجعلوا أمراءهم وعقولهم شحكة في الحياة مقمة على ما أحكمه من تشريع. للتشيع ما ورد قيهما حسب قواعد الشريعة وما لود الإسلام أن يحقه من غايات، وحسب ما يقتضيه منطق الأشياء وبوجهه العقل الصافي من لوث الأهواء.

تفتح الآية الأولى بإعلان قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي: الرجل قولمون على النساء. على معنى أنه إذا لم تحترم هذه القاعدة اختل النظام الاجتماعي في الأسرة التي هي الركن الأساس الذي يقوم عليه المجتمع. فإن سلمت الأسرة سلم المجتمع وإن تحلت واختل تركيبها اهتز المجتمع كله في جميع مظاهره بما يتبع ذلكم الاختلال من ضعف ووهن وضاد.

فلنتبع لولا معنى القولة. القولة مأخوذة من القيام. بما تشير إليه هذه الكلمة من جد وجهاد وعافية، فمن أراد أن ينجح أمراً عاماً لا يباشره وهو قاعد، بل يقوم إليه ثم يوالي بعد قيامه متابعة الخطوات التي يبرر بها عمله على ما ينبغي أن يكون عليه. فالقولة مسؤولية يتحملها الرجل في السير بالأمرة على الوجه الذي يضمن للأطفال نمواً صالحاً، ومرفاً على حل معقد مشكل الحياة، وتربية متتابعة تشمل الزوج والعقل والملك. وتضمن للمرأة عفتاً وتيسيراً لمكائنها للتمسك مع الرجل في القيام بأمر الأسرة وتربية الأولاد. ويضمن للجموع الرزق. تشمل للمساكين والخداء واللباس والعلاج عند المرض. وبهذا يتبين لنا أن القولة ليست تسلطاً على المرأة تسلطاً يفرضها شخصيتها ويجرح أو يذهب بكرامتها يقول الله تبارك وتعالى: **(وَلَكُمْ فِيهَا نَفْسٌ أَنْتُمْ)** يستوي في هذه الكلمة الذكور والإناث، والرجال والنساء. وليس لأحد أن يسلط أو يتجاوز ما حكم به الله. فالقولة ليست تسلطاً ظاهراً ولا تعسفاً ولا إهداراً لهما. مع الله للمرأة من ذكاء وقدرات عظيمة وخلاصة تجارب. وليست تنرد بالسلطة كما يفوق طغيان بسير بها كما يريد إلى حيث شاء. وإنما القولة هي طبيعة النظام في جميع المؤسسات. والأمرة أهم تلك المؤسسات. فالمؤسسة التجارية أو المالية أو الإدارية أو الفلاحية لا يمكن أن تنجح إلا إذا عهد بها لأصلح الأفراد فيها وكسروهم على التسيير المحكم. الحليفة التي يجب أن تكون حاضرة. هي أن الرجل مسؤول عن نصرته بهذه القولة مراعى فيها أمور: رعاية مصالح العقل والعلم. والمحاسبة عليها.

نعم قد انحرف بعض الرجال فظلموا نساءهم كما شكوا شوقي ذلك لما قل:

ظلم الرجال نساءهم ونسفوا *** هل للنساء بمصر من نصار

هذا الظلم هو نتيجة عدم تطبيق الهداية الإسلامية في التعامل، وتربية اجتماعية بلغت من سوء والانحراف والخروج عن حدود الدين ما كادت نتائجه لخطوط العالم الإسلامي في كل شيء فتعنت منه الأمراض النفسية والخلقية واستعد لقبول التسلط الطام من القوى الاستعمارية المستكبرة، ومن أنظمة مستبدة متطامنة، ضرى ذلك في المجتمع، وتوسخ في النفوس المريضة مجاوزة الحدود والتسلط

للظالم بل أصبح القديم من هذا الوضع أو فتكوى جرماً وتذهب ما جاء به الإسلام من تحرير الإنسان من العبودية لغير الله وأصبح قبول الإذلال والاستعداد اليأس للنفس فتكى للمرأة نصيب من هذا الجو العام المنافس لما أثبت القرآن في عقول المؤمنين وفي نفسياتهم.

إنه في هذا المحضر الذي يلتقي فيه شأنا النفس (فلكم من أنفسكم واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) كما جاء في مفتتح هذه السورة أعطى القرآن في هذا المحضر لكل وحدة حقها. فالرجال بما زودهم للبري سبحانه من قوة عضلية تقوى عادة قوة المرأة، ومن تركيبة نفسية جعلتهم أكثر إقداماً وشجاعة في مخالطة الخطوب، فكانت استمداداتهم ميسرة لهم للعمل بعيداً عن البيت وفي الأعمال التي تقتضى تلكم القوة والسواعد، فأوكّل الله إليهم عملية الأسرة من ناحية وتحصيل الرزق لينفقه على جميع أعضاء الأسرة. **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما فلقوا من أموالهم.**

وأعطى للمرأة دورها الأسس المتجيب لطبيعتها النفسية والعضلية، فهي شريكة الرجل يستمع لأفهامها ويحترم ما تكشف عنه من حق ومصلاح. وقد سمع الله قول قتي تجادل رسول الله ﷺ في شأن زوجها¹ ومن مخالفة الهدي للمحمدي حنبها عن التعلم، فالتبني ﷺ خص النساء بأوقات يعلمن فيها. وقد كانت لمهات للمؤمنين مرجعاً لكثير الصالحة يأخذون عنهم العلم. فليس من الإسلام في شيء أن تكون حبيسة البيت عارفة في ظلام الجهل محجوبة عن نور المعرفة.

والمرأة الصالحة هي الفاتنة التي لا تظهر القمرد والتعدي، فالفتنة هي المعطية نتيجة اقتناع ورضا، والمرأة الصالحة هي التي تكون أليفة على ما تقتضها الله عليه من مال الأسرة، وغفلها، ومراقبة الأولاد في سلوكهم، وعدم التمسك على نزواتهم بل تستعين بزوجها على حسن تربيهم وتقويم ما اعوج من سلوكهم حتى يكون الزوج وهو بعيد عن البيت كأنه حاضر فيه لأن عين الزوجة عين للرقوب الصالح الشاغر بالمسؤولية والأمانة، حافظات للقيوب بالطريقة التي أمر الله بها في حفظ الزوج عند مغيبه.

ثم تعرض القرآن لحالة منقضة لما ينبغي أن تكون عليه الحياة الزوجية، هي حالة تصيد بالمرأة فيها تصورات ووسوس حتى ترى نفسها أرفع من زوجها وتتمرد على الأعراف المروعة عادة في الأسرة، وهذه الحالة يعبر عنها بالنشوز المشتق

من نشر الأرض للمكان المرتفع منها. يظهر منها التحدّي لمكانته في قيادة الأسرة من غير حق، تتباعد عنه، لا تقوم بما كانت تقوم به، هي حالة مؤنسة بالانفصال، وهي وضعية أثارها منمرة على الأطفال. وفي هذه الحالة أرشد القران الزوج ليقيم بعلاج الوضع الجديد، ففكر من الطرق لتعود الحياة الزوجية لسابق عهدها من الوفاق، الرعظ، والتكثير، والهجر في المضاجع فلا يكلمها ولا يلاعبها إذا ما اختلياً، الضرب التأديبي. ونؤكد على أن الإرشاد هو للعلاج، أي دواء لحالة غير سوية مرضية، ومن شأن الدواء أن يفرّ تغلّبه بما يتربّ عليه من الإصلاح، فلا يعطى الدواء إلا إذا ظن أنه يفيد المريض، ويحرم إذا كان يوقع أن يضاعف الضرر. فإذا كانت الزوجة من بيعة لا يضرب الرجل فيها زوجته بحال، ولو مدّ يده إليها فهي قطعية التي لا رجوع بعدها فإن الضرب يكون محرماً، وكذلك إذا كان الهجر يعرف الزوج أنه يضاعف نفرتها منه فلا بهجراً.

35- وإن خفتموه شقاقاً فليجسرا.

وإذا استمر الاضطراب الذي حدث في الأسرة وابن الوضع بالشتاق، فإنه حتى لا يسرع الزوج إلى الطلاق بما يتبعه من تمزيق للعائلة، دعا الله لأقرباء الزوج وأقرباء الزوجة أن يتخلوا فيكونوا بينهما مجلساً عاقلاً يبحث في الإشكال الحادث ولتعمق في البحث عن أسبابه ثم للعمل على اجتثاث الشر الذي ظهرت بولائه. يحضر ممثل لعائلة الزوجة من حكمائها، ويحضر ممثل محترم من عائلة الزوج أيضاً يكون ههما الإصلاح وإزالة أسباب الخلاف، ودعوة المتجاوز منهما إلى الرجوع إلى الطريق المستقيم، ويهدمها الله بالعون في مهمتهما إذا أخلصا النية في التوفيق. والله عليم بنية كل فرد منهما خبير بصنعهما، لا يستطيع أي منهما التلبس أو المغالطة.

• وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْإِنْسَانِ الْأَخْيَرِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ بَيْنَهُمَا فَاغْلَاظَ وَجْهَهُمَا فَمَهْلُومَةٌ ۖ وَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ لَخَبِيرٌ ﴿٣٦﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٣٧﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٣٩﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٠﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٢﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٣﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٦﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٨﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٤٩﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٠﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥١﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٣﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٤﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٥﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٦﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٧﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٩﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٠﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦١﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٢﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٣﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٥﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٧﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٨﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٣﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٤﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٥﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٨﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٢﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٣﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٤﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٥﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٦﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٧﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٨﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٨٩﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٠﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩١﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٢﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٣﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٤﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٦﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٧﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٨﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿٩٩﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ ﴿١٠٠﴾

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ وَكَانَ اللّٰهُ بِهِمْ
 عَلِيمًا ۝۱۰۱ إِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ۝۱۰۲ وَإِنْ تَكْ خَسَفَتْ رُسُوفُهَا وُتُوتَ مِنْ لَّدُنْهُ
 أَجْرًا عَظِيمًا ۝۱۰۳ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ۝۱۰۴ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ
 شَهِيدًا ۝۱۰۵ وَنُفِخُ بِنُفْثِ الْآلِيزِ كُفْرُوا وَعَصُوا الرُّسُولَ لَوْ تَشَؤْى يَمُ الْأَرْضُ وَلَا
 يَكْتُمُونَ اللّٰهَ حَبِيبًا ۝۱۰۶

بيان معنى الألفاظ

الجار الجنب: الجار الذي لا تربطك به علاقة قرابة.

المصاحب بالجنب: المصاحب الملازم كالضيف والرفيق في السفر.

المنفرد: المنكبر.

اختفا: هبانا.

القرين: المصاحب.

مقال ثرة: ورس بيضة لئمل أو ما يتطاير من التواب بالفتح، وهو تعبير عن
 النفاضة.

بيان المعنى الإجمالي

تذكير بالأساسيات التي تميز المسلم، وذلك بإداء ما لوجه الله من العبادات على
 المؤمنين، وتلبية للحز من مرقى الشرك، فلا يشركوا بالله شيئاً، وطلب الإحسان
 في المعاملة لأصناف ممن يتكون منهم المجتمع في الأسرة وفي الحياة بصفة عامة
 فيه على تسعة أصناف: الولدين فتجاوز معاملتهم حد الحقوق إلى الإحسان،
 وكذلك القرابة فلا يتهاون المسلم بالإحسان إلى قاربه، ويتصل هذا الإحسان
 بالزوجين الضعيفين في المجتمع اليتيم الفقار لواليه الذي كان يمزه ويحميه، والفقير
 الذي وهنت الحاجة منزلته، وكذلك الجار الذي اجتمع فيه حق القرابة، والجار الذي
 لا تربطك به ربطة سوى للجوار، كذلك إلى من يصحبك ويلزمك فسي إقامتك أو
 في سفر، والمسافر الذي ليس له رفيق ولا عصبة تحميه فكله لا سند له ولا
 يعرف إلا الطريق الذي يسير فيه، الأرقاء لعييد الفقدين للحرية.

وعرفت الآية في خاتمتها بإداء الذي يمنع من الإحسان وعاقبته، فنكرت أنه إذا
 توطنت جرثومة الكبر وارتفع وحالت بين الإتصال وبين الإحسان، فجرأه إن أن
 الله لا يسفه بالعون ولا يرقعه إلى منزلة القرب منه ويبعده عن منزل كرامته، ثم
 انتقلت الآية محذرة المؤمنين من أخلاق المنافقين واليهود، الذين يشحون بما لديهم

من فضل مال، ويحرضون غيرهم على الشح، ويخفون ما رزقهم الله من أموال مظهرين الفقر والحاجة. ومقالة أخلاق هؤلاء لا بضبيع جزاؤها فقد أعد الله لهم عذابا يهبهم. ومن المنافقين من يسبقون إلى التظاهر بالسفاهة والبذل لا نفعا لحاجة ولا إغاثة للمعروف، ولكن ليظهروا بمظهر الأجود للكرماء، وليرفعوا منزلتهم في المجتمع ويتحدث الناس بتبليهم وفضلهم. وذلك رشح كفرهم بالله واليوم الآخر ففصروا نظرهم على الحياة الدنياء وما ذلك إلا لأن الشيطان مسحبهم فمالزاحمهم عن صالح الأعمال التي تنفع المجتمع، وحصرهم في دائرة مصالحهم الخاصة وأخصها الحياء والكبر. ما أسوأ وضع من صحبه الشيطان واتبع ما يميله عليه. ثم يتوجه للقرآن يتوخي الفريقين الذين يحلون والذين ينتفون رضاء الناس، يويخ الفريق الأول بأنهم أغبياء، ظلام عقولهم حجب عنهم ما هو خير لهم. ذلك لهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر. وسمروا إلى الإنفاق من المال الذي ما اكتسبوه إلا من فضل الله، فكان ذلك خيرا لهم في الحال والمآل.

ويويخ الفريق الثاني بأن استيلاء حب المال عليهم، وما تولد عنه من شح مقيم، وعدم تحرّكهم للبذل ما كان إلا إيثارا للمحمدة من الناس دون أن يكون لهم حظ من الإيمان، كل ذلك لا يخفى على الله منه شيء، فيهددهم بأنه سيخلصهم. وهو معنى **(ولكن الله بهم غفيم)**. إن ما أعد سبحانه من العذاب للمهين وما هدد به الذين يخلون ويبرأون، ويكفرون، هو الجزاء العدل فإله لا يظلم قائلوا ولا يتجاوز بالعذاب ما يستحقه العاصي عن معصيته ولو بجزء قليل نكته. على خلاف جزاء المحسنين فإن الله يضاعف جزاء الحسنات بفضله وبما صاحب العمل الصالح من طيب الثواب وحسن القصد.

ويينتهي هذا المقطع بعرض مشهد عجيب، حقيق بأن يتعجب منه لأنه فوق ما يصوره الخيال، هو اليوم الذي تجمع فيه الخلائق، ويسلم الله أمره المنافذ فجسي، عن كل أمة شهيد يشهد على من آمن ويشهد على من كفر، ويتكلم محمد ﷺ ليقيم شهادته على قومه الذين رفضوا دعوته واستحبوا الكفر على الإيمان. يصور القرآن بإشارة خاطفة هول هذا المشهد: أن الذين كفروا وعصوا رسول الله لما شاهدوا ما حصل للمشهود عليهم من الأمم السابقة يبلغ بهم الخوف مبلغه فيجري في نفوسهم الوجلة لآتي: تخولهم في جوف الأرض حتى يستوفون مع مطعها. وتبرز خاتمة الآية أنهم في هذا المشهد لا يستطيعون كتمان كفرهم ولا معاصيهم. لنطق جوارحهم بما فمرو.

بيان المعنى العام

36- وأشهدوا بالله ـ مستقلاً متقرباً.

هذا المقطع يعنى بتوجيه الإيمان إلى ما يحق به سمائه في الدنيا والآخرة، فهو يربط بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في حياته وبين المصير المقصود للمؤمنين والكافرين.

موقع هذا المقطع مما سبق من الآيات أنه جرى على طريقة القرآن في طاقته بإصلاح الفرد والمجتمع إصلاحاً يقوم على موصلة التفكير بالقبوليات وتكرار الوصاية بها حتى تكون حية في القلوب والنفوس فاعلة لتحقيق الاستقامة على الطريق، فبعد أن فصلت سورة النساء كثيراً من الأحكام، كانت العودة إلى الأصل الذي يستند إليه كل تشريع ويقوم عليه صلاح الدارين فأمرت الآية:

أولاً: اعبدا الله العبادة التي تظهر في أركان الإسلام العملية الأربعة، وفي ربط المؤمن كل عمل بعمله بالإخلاص لله فيه وقصد تقوي على طاعته. وقرن سبحانه الأمر بالطاعة بالنهي عن الإشراك به ولو شينا يسيراً. وفي ذلك إيحاء للنصير كي يكون مستحضراً دائماً للإخلاص لله والاعتماد عليه وحده وهذا مما قد ينقل عنه المكلف.

ثانياً: الأصل الثاني: ما نرى عليه القرآن النظام الذي يمكن البشر من القيام بوظيفتهم في الكون الذي استخلقوا فيه. فابتداءً بالأمر مؤكداً على أن تقوم العلاقة بين الثرية وبين الوالدين على الإحسان، المرتبة التي تسمى على أداء الواجب، يظهر ذلك في طاعتها وطريقة الخطاب، وإكرامها في حياتهما وبعد موتهما، وهذا من خلق لوفاء لمن تقدم منه الجميل. وكذلك العلاقة مع الأقارب فسرى الأمر بالإحسان إلى القرابة التي تتكون منها الأسرة على نفس النحو فالأمر به في الوالدين مما يُستثنى بناءً، وذلك بالعناية بربط صلوات العودة، وعون المحتاج، وإحياء الروابط بالتزاور والتكريم، والتواصل، وعدم إهمال جامعة النسب والصهر وخاصة في الأعياد والأفراح والتكديت.

ثالثاً: رعاية المستضعفين في المجتمع، كالأيتام الذين فقدوا لعائل والنصير مما يجعلهم يشعرون أن اهتمامهم للإسلام بحميمهم في بولكير صباهم ورايطة الإيمان تدفع عنهم الحاجة. وكذلك المساكين الذين عضهم الفقر. فالإحسان للأمور به في الآية يحصنهم من جرثومة الحسد ويرقي بإسلاميتهم إلى الشعور بالمساواة مع بقية أعضاء المجتمع.

رابعاً؛ ولبطة الجوار: لقد كانت غلبة الإسلام بإحكام الصلة بين الجيران باعتبارها مقوماً من مقومات البناء الاجتماعي القوي الصامد للمخاطر والهزات، والأحاديث الشاذية لرعاية الجار والإحسان إليه كثيرة، وتتوعدت فيها طرق تحسيس المسلمين بها، قال صلى الله عليه وسلم: (مأزال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)¹

وقد يتأيد حق الجوار بوشائج أخرى كالتيقن والمصالح والاتحاد في المهنة ونحو ذلك، وأكد القرآن على لجتماع لبطة الجوار والقربة، ورفع قلوبهم عن إهمال الجار الذي لا يصلح به إلا الجوار، فغير المسلم وغير المصالح والذي لا يساعدك في العلمات له عليك حق الجوار كما تدل عليه الآية (**الجار الجنب**).

وبدخل في هذه الوحدة رابطة الصحبة، فالذي تألفت معه وأصبح ملازماً لك وأنت ملازم له (**الصاحب بالجنب**) عليك بصفتك مسلماً أن تحسن عشرته.

خامساً؛ نوعان من المجتمع قد لا يراعى جانبهم، أمر الإسلام بالإحسان إليهما إذ هما عنصران من المجتمع الإسلامي في حاجة إلى الاهتمام بهما وعودهما وهما:

(1) العبيد الذين كان أهل الجاهلية ينظرون إليهم نظرة احتقار وإذلال تنزل بهم عن مرتبة البشر، ورفع القرآن من شأنهم وأعطاهم في المجتمع وفرض الإحسان إليهم.

(2) المسافر المفرد الذي ليس معه رافعة، وليس له في المحل الذي نزل فيه ولي ولا خليل فكانه قد نبت عن الوجود ولم يبق له صلة إلا بالطريق الذي يسلكه، فحبر عنه بآمن الطريق.

إن الذي استبد بأهل جاهلية فخرطوا في الاعتناء بالأنواع المذكورة، هو تكبرهم وانتفاخهم بالفخر. وهذا القرآن المتكبرين في كل زمان ومكان بأن الله يهملهم ولا يعينهم ولا يقرهم منه ويحرمهم مما يتكبر به على عباده الصالحين. وهو معنى عدم حب الله لهم. فليحذر المؤمن من التكبر وما يجر إليه.

37- الذين يبخلون ويأمرؤن-عذابها مهيلة.

إن تراخي الكافرين والمنافقين عن فعل ما ينمجه في المجتمع كل بتأثير صفة محطمة للمروءة هي شحهم وبخلهم بما آتاهم الله من فضله، ونحريضهم على عدم القيام بواجب العولاسة، وكتماهم ما فضل الله به عليهم كلما دعوا إلى السماحة،

وذلك بإظهارهم الفقر كتباً. ويعلم الله أنه قد هبهم عدداً يتجاوز الألف الحسى إلى الإذلال والمهانة.

38- والذين ينفقون أموالهم سفهراً.

ويوضح القرآن فيما آخر لا يقل وضعمهم فسداً عن إخوانهم الباطلين. وهم الذين ينفقون الأموال ليزيدوا كبراً، مهمهم في نفق نظار الرعاع ليتحدثوا بوفرة أموالهم. قد انطمت قلوبهم بقدمهم للإيمان بالله وبالجزاء الأخروي. ووجد الشيطان في أرواحهم للخلوة مسرحاً معتداً يجري فيه، ليتمكن فيها للفاد الذي يفودهم إلى الشر ويحجزهم عن الخير.

39- وماذا عليهم لو آمنوا وسكان الله بهم عليم.

ويوجه القرآن بعد فضحهم إلى توبيخهم وإلزام ضعف عقولهم، وعماهم عما بعدهم، فيقول: إن هؤلاء المنافقين والكفرة لا يخسرون شيئاً ولا يتضررون لو أراحوا عن عقولهم حجاب الغد والاستكبار، فآمنوا بالله وثقوا بأن الله سيبيعتهم يوم القيامة وطاعت نفوسهم بالإحسان مما نحصلوا عليه من فضل الله، والله سبحانه عليم بما يجري في عقولهم وبما يختلج في قلوبهم، لا يغيب عنه شيء.

40- إن الله لا يظلم شيئاً.

بعد هذا التوبيخ وذلك التهديد، نصح الآية بحقيقة مركبة تنصرف للذات الإلهية في الكون. هذه الحقيقة مركبة من أمرين:

العدل المطلق الذي لا ظلم معه، والفضل مع الحكمة.

نفق الظلم عن الله نفيًا عاماً شاملاً في غياب العصاة لا يظلم أحداً ولا ينزل به عقوبة تتجاوز جرمه. وعبر عن العدل الإلهي الكامل النافي للظلم، بأنه لا يظلم وزن ببضة العدل ولا جزئية من الثواب تتطابق بمجرد المنفق عليها. وهذا تصوير في الوقت الذي ما كانت حماسية المولدين تستطيع ضبط ميزان الثواب مما يفيد نفي الظلم عنه سبحانه على أبلغ صورة.

ولما الفضل مع الحكمة، فسبحانه لا يجزي عن الحصة بقدرها ولكن يضاعف ثوابها كما يقصيه فضله، ويتفاوت الجزاء كما تقصيه حكمته. ويبلغ هذا الفضل درجات تتجاوز ما يتصوره البشر، إذ وصفته الآية بأنه صائر منه وله عظيم.

41- فاعلموا أن الله لا يظلم شيئاً.

المشهد بهذا السؤال المثير. سؤال مثير للعجب والتساؤل كيف يكون حال البشر وقد صدر الأمر من الولد الأحد بحضور شهود من كل أمة يشهد علوها بما بلغه

لهم، وموافقهم من دعوته، ويتقرب من بين الشهاداء محمد ﷺ فيختص بدعوته مفردا ويتصرف بالخطاب المباشر (**وَجَنَّتْ بِهِ**) ليشهد على ما قبله به قومه ومقدار التزامهم بهديته. فيصورهم المشهد وقد تضاموا حتى تنحصر رغبة الذين كفروا وعصوا الرسول في شيء واحد: أن تبطلهم الأرض ويغرقوا فيها وتسوى بهم. وفي طرف المشهد إعلان أنهم ميعصون أنفسهم بلسانهم ولا يستطيعون أن يكتفوا بمعاصيهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنًا إِلَّا عَذِرَىٰ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا وَإِذْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ تُنْمَسْ مِنَ الْإِنْسَانِ فَلَمْ يَجِدُوا مَا يَنْهَوْنَ عَنْهَا فَلَمْ تَجِدُوا لَهَا ظَهِيرًا فَأَتَسَحَّرُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٢٢﴾

بيان معنى الآيات:

الجنب: الوضع الذي يكون عليه الإنسان مطالبا بالغسل لأداء الصلاة.

عذر السبيل: المسافر.

جاء أحد منكم من الغائط: أصل الغائط: المكان المنخفض، وقد كان العرب يقضون حاجتهم في مكان منخفض يستترهم عن الأعين، والمعنى بل أو تبرز.

لم تنم من السماء: اللبس يشمل لللبس بلباد أو الجماع.

صعد: كل ما علا وجه الأرض.

طلب: طاهر.

بيان المعنى الإجمالي:

ذهبت الآية المؤمنين عن أداء الصلاة في الحالة التي تكون عقولهم مختلطة بما شربوه من الخمر (سكارى) حتى تعود إليهم يقظتهم العقلية، وذلك بأن يعلموا مفاهيم ما يفعلون. ويتصل بهذا الوضع أن يكون المصلح جنباً حصل منه اتصال جنسي، أو خرج منه مني في القطة أو في النوم نكرا كان أو نكثي، أو لمس الأنتى لأمم العادة الشهوية أو انتهى خروج الدم منها بعد نفاس. فيحرم على الجنب أن يصلي وهو على تلك الحالة، وعليه أن يظهر هيراع الجنبية عنه بغسل كامل بدنه بالماء الطاهر. ويمر الله على الجنب الفقد للماء أو الذي حيل بينه وبين الماء بأي سبب من الأسباب، أو المريض الذي يخشى من الاغتسال حدوث مرض لو زيادته، أو ضرراً بالغاً منه، أن يقصد إلى جزء من الأرض طاهر لم يتلوث بتجاسة فيلصق

كتبه به، ثم يمسح بهما وجهه ويديه. وبذلك يعتبر طاهرا تحل له الصلاة، وكذلك من اقتصر وضوءه لو كان على حالة من حالات الجنب وحضر وقت الصلاة لأن يتيمم ويصلي. وختمت الآية بالتذكير بأن الله غفور للذين فلا يأخذهم بالصلاة بالتيمم بدون غسل، وبأنه رحيم بهم يصحب تكليفه لهم التيسير عليهم.

بيان المعنى العام:

43. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ اللَّهُ كَانَ عَذُوبًا.

للمصلاة أبلغ مظهر من مظاهر العبادة للمؤمن بها بصفة عامة في المطلق السابق، فجاء الأمر في هذه الآية لأن يفهموا على أحسن الوجوه وأتمها بأن يكونوا مدركين تمام الإدراك لما يقولون، إذ بذلك تؤدي وظيفتها في ربط المصلي بربه وتركيزه نفسه وإعلاء مشاعره، فنهت هذه الآية المؤمنين عن الصلاة إذا كانت أثار السكر لغفوتهم لتحكم العقل فيما تنطق به ألسنتهم، ومن قبله لى المنطق دليل العقل.

لقد نحن الشعراء في التثوية بالخمر ومجالسها، وسجلوا ما أحدثه فيهم من نشوة تضاعف تأثيرها بمساجيح الحياة، وترصف إحصائهم، وتبعث فيهم أروحية تدفعهم للبلل، ولتمزاجا يتبعه إقبال على اللذة والمجون، وشجاعة تذوب بالخوف ومن ناحية أخرى تولع برقعة الكرم والحياء. لقد تساقع قبحر على شرب الخمر، وألقوا مجالسها التي تجمع وجوه القوم والظرفاء، ويأثرون إليها بقلبان والاث للهو. ولم يعرف أنه نهى عن شربها قبل الإسلام، فكانت في أول الإسلام جارية على الإباحة الأصلية. ولما كان الإسلام هو الدين الذي ختم الله به هدياته للعالمين، وأنه بلغ بهم في التشريع والتنظيم أعلى الدرجات. فإنه تبعاً لذلك اختص بتحريم الخمر. ونظراً لإلتهام شربها، وأنه لا ينظر إليها في المجتمع العربي وفي بقية المجتمعات قبل التشريع الإسلامي، على أن شربها منكراً أو لا يليق، راعى الإسلام في تحريمها التدرج فلم يغطيهم عنها مرة واحدة، ففرد في سورة البقرة بين وصفين فيها الإثم والمنافع (يسألونك عن الخمر والميسر قل أتوبهما الله كبير ومنافع للنفس) وقد بينا وجه الفرق بينهما في تفسير هذه الآية في سورة البقرة، وأن تحريمها من الآية هو الظاهر. ولكن لم ينه عن شربها كل المؤمنين بعد نزول هذه الآية وقال بعضهم تشربها لما فيها من منافع. ونزلت هذه الآية تحرم عليهم قربة الصلاة وهم سكارى. وهو تعبير يبلغ في إقناع المنع من الصلاة في حالة السكر، لأنه إذ منع من قرباتها في حالة السكر، منع إقامة الصلاة فعلاً يكون

لتحريم أولى، وجعل لذلك حدا وهو أن تنتهي أثار السكر ويظموا ما يقولون. ومعلوم أن الصحابة كانوا أحرم ما يكون على إقامة الصلوات في لوقاتها، فحريم قربان الصلاة يضيق عليهم من وقت شربها. ومن هنا بدأ التغير منها والنظر إليها نظرا يختلف عن نظورهم السابق. إذ أصبحت حالة دنينة تلقى شرف الصلاة. ونهايات العقول والمشاعر تقول الإقلاع عنها بتحريمها. وقرئت الآية حكم تحريم قربان الصلاة مع السكر المنافي لمقام تتوجه إلى الله الذي يتحتم أن يكون العابد فيه على وضع ملم عبر عنه الشيخ عبد الله ابن أبي زيد رحمه الله بقوله: والمصلّي يتلجى ربه، فأى مقام يرقى فيه المؤمن لهذه المرتبة التي يكون فيها بحال قرب ومناجاة لربه للقرئت الآية ذلك بحرم الصلاة عندما يكون للمسلم جنباً، والجنب هو الوضع الذي يكون عليه عقب الاتصال الجنسي، أو خروج المني منه ذكراً كان أو أنثى يقظة أو مناماً، أو عند انتهاء دم الحيض (العادة الشهرية) أو عند انتهاء دم اللقح. ففي هذه الحالات يجب على الجنب أن يتطهر بوضئ كامل بدنه بالماء. وقد فصل الفقهاء بناء على السنة طريقة الفضل وأحكامه.

ولما كانت الصلاة على المؤمنين فرضاً حتمياً خمس مرات في اليوم، وتعرض حالة الجنابة للإنسان بداعي غريزة الجنس القوية، أو تبعاً لطبيعة الخلقة، وقد يكون الجنب غير قادر على الغسل، كحالة المسافر أو المقيم الذي لا يجد من الماء ما يكفيهِ، وكالمريض الذي يخشى من غسل كامل بدنه مضاعف مرضه وتعرضه للخطر، أو نادر برئه، وكذلك حالة العاجز عن بلوغ الماء لنفسه أو للحيولة بيده وبينه كحالة الخوف. ففي هذه الأحوال يسر الله على المؤمنين، وراعى ظروفهم فرخص في تعويض الفضل وأمرهم بالتيمم، وذلك بأن يقصدوا إلى جزء من الأرض (وهو الصعيد) طاهر لم يتلوث بنجاسة (وهو الطيب) فيمسح بيديه بعد لصفيهما بالصعيد وجهه ويديه. ويستحضر المؤمن في تلك الحالات أن الله تفضل فعاً عن الممثلين في الأحوال التي بيناهما، وذلك لرحمته التي صاحبها لتكليف. إلى الله كن عذراً.

وكما رخص للجنب في التيمم فكذلك رخص لمن انتقص وضوءه بمسبب من أسباب الجنابة، أو لكونه مريضاً بالحاجة البشرية (أو جاء أحدكم من ثغقف) أو لمسه بلبدة امرأته، أن يتيمم ويقوم بداء ما فرض عليه من الصلاة.

والأصل في عبادة التيمم أن شأنها كشأن العبادات في ضبط طرائقها ومقاديرها وأوقاتها لأنها تعبدية، القيمة الكبرى فيها أن القائم بها يستحضر أنه عبد لله أمره فأطاع، ولكن لا يمنع ذلك من الاجتهاد والبحث عن حكمة لا يجزم بأنها مراد الله،

ولكن على معنى أنه يمكن أن تكون مقصودة بالتشريع. يقول: إن كل إنسان خلق من ماء ، فإذا أُرِدَ القيام للصلاة وتوضأ بنشاط من ناحية، وتذكر أن أصل خلقته من ماء وتتابع الفضل الإلهي عليه فزعاه ووقفه حتى أقبل على العبادة، ويجنس للماء الذي خلق منه يستعد للصلاة ويروح إلى خالفه عابدا مناجيا. ومن ناحية أخرى فإن أصل الخلق البعيد هو التراب. قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)¹ وتكرر التقسيم على أن أصل الإنسان التراب ست مرات في القرآن قبلًا عدم المصلى الماء الذي هو أصل خلقه القريب، فيعود إلى الأصل البعيد ويستحضر بالقصد إلى التراب أصل خلقه ونعم الله عليه وأنه أهل التقوى وأهل المغفرة حقيق بأن بعيد بإخلاص. فهذا الملحظ يكون المكلف قد استعد للصلاة استعدادا روحيا مبالغا، روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ وسلم قال: جعلت لى الأرض مسجدا ومطهرا فاي رجل من أمى تركته للصلاة فليصل². وتناولت الآية حكم الجنب إذا أراد الصلاة: أنه مأمور بالاغتسال ورخص للمسافر في التيمم ولمح في الآية الترخيص في التيمم بدل الوضوء. وكل ذلك عند العجز عن استعمال الماء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَجِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن يُضَلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أََعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ ۚ وَكَمْ بِآلِهِ زُكُوفٌ وَأَنَّهُ نَصِيرًا ۚ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَيَقُولُونَ نَجَعْنَا لِعِصْيَانِهِمُ عَرَبٌ فُسِّحَ لَهُمُ الْبَيْعُ وَمَطَعْنَا لِي الْفَوَاحِشِ أَلَّا يُكْفَرُوا بِهَا ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءُوكَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا نَجْعًا لَّنَا بِأَلْسِنَتِهِمُ وَطَعْنَا لِي الْفَوَاحِشِ أَلَّا يُكْفَرُوا بِهَا ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءُوكَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا نَجْعًا لَّنَا بِأَلْسِنَتِهِمُ وَطَعْنَا لِي الْفَوَاحِشِ أَلَّا يُكْفَرُوا بِهَا ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءُوكَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا نَجْعًا لَّنَا بِأَلْسِنَتِهِمُ وَطَعْنَا لِي الْفَوَاحِشِ أَلَّا يُكْفَرُوا بِهَا ۚ

بيان معنى الكلمات

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ: يعيدون عن دلالة الواضحة إلى لتأويل الباطل.

نَجْعًا: غير مأمور بل تسمع.

اللي: الالتئاء، يقولون السنتهم عند النطق بالكلمة لتكون غير واضحة وتحتل غير الوجه الظاهر.

¹ سورة طه آية 11

² رياض الصبر ج 1 ص 576 ح 1174

بيان المعنى الإجمالي:

تعجب من حالة قوم من اليهود أخذوا نصيباً من الثوراة، ولم ينتفعوا بما أوتوه، إذ عملوا على تحريفه وتحويل معانيه إلى ما يتجمل مع أهوائهم فقد اختاروا الضلالة على الهدى، خبثت نفوسهم فهم يودون أن تضلوا مثل ضلالهم فلا تسيروا في طريق الإيمان وما يتبعه، والله عليم بأعدائكم وما يكتونه لكم، وكفيكم في رد ما يدبرونه عون الله ورعايته لكم فهو وليكم وهو نصير لكم، ويشير بفريق منهم كانوا يحضرون مجالس الرسول ﷺ فحينما يثلو عليهم ما أوحى الله به إليه يقولون: سمعناك وعصيناك، وسمع منا، يلحقون بها (غير مسمع) على أن ظاهر كلامهم أنه غير مأمور وباطن كلامهم: الدعاء عليه بالصمم، ويتوجهون إليه بالقول (راعياً) على أنهم يفسدون: ترفق بنا ولا تعجل، وباطنهم سب: يا لرعين أي يا أهوج، ويهدفون من تحليلهم في التعبير إلى الطعن في صلة الرسول ﷺ بالله، على أنه لو كفى رسولا لأخبره ربه بما قصدوه، وقد كشف الله خبث نفوسهم لرسوله.

ويسجل القرآن عليهم أنهم اختاروا لأنفسهم طريق الضلال، فلو استجلبوا للرسول وقالوا ما يجب أن يقال مما يناسب حرص الرسول ﷺ على هدايتهم: سمعنا وأطعنا، وسمع منا، وانظرنا نفهم ما قصد إليه، لكأن استباحهم للحق خيراً لهم في الدنيا فلا يكونون ملعونين غير مطمئن لهم، ولكن اتبعوا لئلا يضلوا على سبيل في المنطق والتفكير ولكن حلت عليهم اللعنة فلا ينفذ الإيمان إلى قلوبهم.

بيان المعنى العام:

44- ألم تر إلى الذين بأن تضلوا السبيل

تكررت هذه الصيغة (ألم تر) خمس مرات في سورة النساء ووردت في غيرها ثوب أن قبل هذا العدد. وهي تفيد التعجب من أمر حصل على أن جميع الظروف والمعطيات تقتضي عدم حصوله، وكلها مرتبطة بيهود المدينة، تتضمن هذه الآية أن فريقاً منهم قد أوتوا نصيباً من الثوراة التي كان من المفروض أن تؤيدهم وتمق إيمانهم وتزيدهم ارتباطاً بالفضيلة والاستقامة، ولكنهم على العكس من ذلك اختاروا طريق الضلالة والشر. وهذا ما دعيت الآية إلى التعجب منه. لقد كان ترجيحهم للضلالة على الهدى واضحاً سجله القرآن بقوله (ألم تر) بل لم تعلم، لأن ضلالهم كان من الظهور حتى كأنه يرى بالعين. ثم إنهم أضلوا أنفسهم الذاتي الباطني والعقلي، أنهم يودون لو يؤثرون فيكم فيصعدونكم عن الإيمان ويحولونكم إلى مسيرتهم في ضلالهم، والابتعاد عن الطريق المستقيم الذي هديتم إليه. إن هذه

الضغينة التي هيمنت هي أمر له خطر، وذلك بما كان لهم من قسوة مقلية وتضامن بين قبائل يهود في المدينة.

طمأن القرآن المؤمنين بأن الله ولهم وناصرهم، والله عليم بما يظلي في قلوب أعدائكم، فلا تخشوهم، يكفيكم الاعتماد عليه فهو سبحانه سيغسل عيوبهم ومخطئاتهم في إعرانكم، وينصركم فيحط مكانهم.

45-46، والله أعلم بأعدائكم -نعمير-

تفصل الآية التالية بعض وجوه مكر يهود الذين بلغت بهم الجراءة إلى صرف التوراة، التي أزلت هدى ونور، عن تحقيق غايتها، وإلى الوقاحة مع رسول الله ﷺ، وللتحاول على إخفاء ذلك، فضحهم القرآن: كانوا يؤولون كتابهم تساويلات بعيدة عن سياق النص، غريبة عما يتبادر منه فيحملونها معاني تشهد لأحرفهم وتبرر ما أخذوا أنفسهم به، كما كانوا يتلون بعض نصوص التوراة ويملأون بها إلى ما يشاء في اتباعهم من صلات،

بلغ بهم العناد أن النبي ﷺ عندما كان يبلغهم الوحي المنزل عليه حرصا على هدایتهم، بجيبونه بكل صفاقة: سمعنا كلامك وعصيتك. فجعل القرآن عليهم وقاحتهم. كانوا يعقون على رفضهم لسابق، بطلانهم من رسول الله ﷺ أن يسمعهم، فيخاطبونه بقولهم: اسمع غير مسمع. إن هذه الجارة لها طاهر فيه لب، وباطن مقصود به الإذنية. فظاهرها أنهم قالوا لرسول الله: اسمع منا ما نقوله لك. ولهم تأديرا بقرن الأمر بالسماح بالاحتراس بأنهم لا يفصدون الأمر (غير مأمور بالسماح) وباطنها قصد الدعاء عليه أن يصيبه الصمم ولا يسمع. وبهذا يكونون قد جمعوا بين متناقضين: لب، وإذنية. فإذا كانوا في مجمع المؤمنين يكونون قد حصنوا أنفسهم من رد فعل صحابته رضوان الله عليهم، الذين كانوا يقومون بأنفسهم، وإذا انقلبوا إلى اتباعهم عرفهم بقصدتهم للخبيث.

أصلها لما تقدم مولجتهم لرسول الله ﷺ يقولهم: راعا - مما ظاهره، تأنف بما ولا نجعل علينا في عرضك ما تقول، ولكنهم يفصدون منه بأنه (راعر) أي أوج في منطقته. ويولون المنتهم بها يفصدون منه بالعبرية (راعون) يقول الشيخ لبر محمد عبد الحق ابن عطية: وهذا الذي باللسان من اليهود، إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن (أي في النصف الأول من القرن السادس الهجري) في بني إسرائيل، ويحفظ منه في عصورنا أمثلة، إلا أنه لا يليق ذكرها في هذا الكتاب.

وما يزالون على هذه الطريقة الفجيحة حتى يومنا هذا في القرن الخامس عشر. كانوا يسرون إلى أتباعهم بمقاصدهم الخبيثة ويقولون لهم: لو كان محمد نبيا لأعلمه ربه بمطاعنا. وهو معنى قوله تعالى: وطعنا في الدين.

يعقب الله على ما صدر من يهود، بتجديد دعوتهم إلى ترك التعصب ضد الإسلام فيعرض عليهم ما يحولهم عن المنهج الذي يسيرون عليه من إستمات العداء وقلب الكلام وتحريفه والتساعلة في التعامل، يحولهم إلى ما هو خير لهم في الحاضر والقال، فلوهم لو اتخذوا موقفا مغايرا فقالوا: سمعنا وأطعنا، لكان ذلك خيرا لهم، ولبعد عن الالتواء، منينا عن استقامة في التكفير ومداد في الموقف. ولكن قد حلت عليهم اللعنة التي أنصبتهم عن رحمة الله، فلا ينفذ الحق المنجي إلى قلوبهم، وبذلك هم أبعد ما يكون عن الإيمان، بمعنى (تسليلا ما يؤمنون): أن قلوبهم قد أغفلت فلا ينفذ إليها نور الهداية، والقليل الذي امتد من يهود ودخل في الإسلام يؤكد الطبع على أرواح علمتهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الْكُفْرَ، وَأَمِنُوا بِمَا قَوْلُنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ قَوْمٍ قَدْ كَفَرْنَا عَنْ أَدْبَارِهِمْ أَوْ لَئِنَّا أَصْحَبْنَا السَّيْفَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۚ يَغَيِّرُ مَا دُونُ ذَلِكَ إِنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۚ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُزَكِّي مَرِيشًا ۚ وَلَا يَكْفُرُونَ فِيمَا ۚ أَذْكُرُ أَنَّهُمْ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَانَ

بِمِثْلِهِ شَيْءًا ۚ

بيان معنى الألفاظ

نطمس: من الطمس وهو إذهابه عن صورته.

أمر الله مفعول: ما يريد فعله، وقضاء نافذ.

لنرى: كذب كذبا لا شبهة له فيه.

يزعمون: أصل للتزكية التطهير والتبرئة من الذنوب.

لنيل: لفتيل شبه الخيط في شق النواة بضرب مثلا للشيء لثاقفه جدا.

بيان المعنى الجمالي:

يدعو الله اليهود أهل الكذب أن يسارعوا إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، لأنه منزل من عند الله ويصدق ما جاء في التوراة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها. ويهددهم بأنهم إن لم يفعلوا فسيختم على عقولهم فلا يتدخل إليها لئول الحق،

ويظنون بذلك إلى حالة الصلاة التي كانوا عليها قبل أن ينزل عليهم التوراة، أو أن تحل عليهم اللعنة كما حلت على العصاة من أهل القرية الذين اعتدوا في السبت. وما قدره الله بقدر لا مرد له. ومما يحدث على ذلك أن الله لا يغفر لمن قطع صلته بالله وأنكر وجوده أو وحدانيته، وهو بوسع رحمته يغفر ما دون التشرك للمؤمنين الذي كان إيمانهم بالله ورسوله لا يدخله ريب ولا شك، ولكنهم لم يلتزموا بتطبيق شرعه دتماما ففقدوا التوب ولم يتوبوا عما فقدوه حتى ماتوا. والفرق بين المؤمنين وبين العصاة وبين المشركين واضح لأن التشرك ككذب عظيم خطيره، جزاؤه الخلود في النار.

ويثير القرآن العجب من اليهود الذين يسلطون أنسار بالثناء على أنفسهم وعلى بعضهم بعضا، ليؤكدوا في نفوس العامة الثقة بهم، ويخدعهم بأنهم أبناء الله وأحباءه، وأنه لا يعذبهم، وأنه يخبرهم على البشر. وكل ذلك كذب والفتراء. فالشهادة بالصالح هي ممن يملأ بولط البشر وحفائهم ولا يعلم ذلك إلا الله فهو الحقيق بتركية من يشاء، ولا يظلم هؤلاء الذين زكاهم، ولا يغفل أي عمل صالح من أعمالهم ولو كان قليلا ناقها، لينال كل ناصر في كذب يهود المضطوح على الله، وهو ما يقوم وحده شاعدا بالثناء الإثم عليهم على أوضح ما يكون.

بيان المعنى العام:

47. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الكتابية مفتولا.

عرفهم القرآن في الآية السابقة بالطريق المتجنى لهم عندما يستمعون لدعاء الرسول لهم. دعى تكلم الدعوة بنذرتهم بالوصف المتضمني ترك العناد **بهم أيها الذين آمنوا الكتابية** خبرهم بأن يؤمنوا بما جاءهم به محمد ﷺ، المتضمن ما يوجب عليهم اتباعه، لأنه منزل من عند الله، ولأنه لا يختلف في أصوله عن التوراة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها، فهو يصدقها ويؤكد لها في أصول العقيدة. وهدمهم بأنهم إذا لم يمارعوا بالاستجابة فإنه سيظلم على وجوههم ويردها على أنبارها، بمعنى أنه سيحكم على عقولهم فلا ينفذ فيها شيء من التوراة الحق، وأنهم سيفقدون بذلك إلى الصلاة التي أخرجتهم للتوراة منها والظلام الذي لطبق على الكافرين قبوا مختلفين. ويمكن أن يكون الظلم المقصد به عذاب مادي بإزالة حواسهم من وجوههم وتحولها إلى الخلف. والمعنى الأول أولى، أو أن يسلط عليهم عذابا كعذاب أهل القرية الذين اعتدوا في السبت. وقد ثبتت قصصهم في سورة الشقرة آية 63، وكل ما قدره الله وأراد تحقيقه نافذ لا راد لما قضى به في الحال

والاستقبال. وحجزهم ليؤمنوا بأن من لم يشرك هو على رجاء من مغفرة توبته. فدخلهم في الإسلام سيجعلهم على طمع من الفوز.

48- إن الله لا يفرق بين عتقهما.

آية: إن الله لا يفرق بين شرك به... تعتبر محورا قامت عليه المناقشات بين الطوائف الإسلامية فلنتتبع أولا ما يعهم من ظاهرها.

إن الله لا يفرق بين يتعدى الإنسان فيظلم الظلم الأعظم على الإطلاق، وبشرك بالله إشراكا يعطي به الخصائص الإلهية لغيره سبحانه. فإذا فسدت العقيدة إلى هذه الدرجة فمعنى ذلك أنه أخرج تغل العالم والنظام الفكري له إلى الفوضى والفساد. والشرك يتبعه فساد العمل والأخلاق، ويقعد بالإنسان عن القيام بدوره التعميري الذي امتثلته الله به في هذا الكون. وأنه سبحانه سيغفر ما دون لشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده. كيف فهم المسلمون هذه الآية ؟

أولا: إن الشرك بصورتيه:

(1) الكفر بالله: ينفي الألوهية وليس للعالم خلق يتصرف فيه. ومن هؤلاء الذين يدعون أن الطبيعة وحدها هي التي تدير الكون حسب قوانين ذاتية مثبتة فيها (2) الإيمان بل ش شركاء، يتصرف كل واحد منهم في قوة وناحية من تواجي الكون.

لن المشرك لا يفرق الله له ذنبه العظيم هذا (الشرك) ولا بد أن ينال جزاء كفره مما أوعده الله به في كتابه، تحقيقا لما تواتر في القرآن والسنة ثواترا بلغ درجة اليقين أن الله سيعتقهم على كفرهم. وهم خاللون في العذاب لا يخفف عنهم ولا يجنون ولما ولا مصيرا.

ثانيا: من أمر بالله ولم يؤمن بمحمد ﷺ وكفر برسالته. وهذا القسم هو كافر تضاعفت الأدلة على أنه لاحق بالقسم السابق، غير داخل في قوله تعالى (والمشرك ما دور ذلك لمن يشاء) لأن الله أخبر في قرآنه أن كل من رفض الإيمان بسيدنا محمد يحبط ما عمل من خير، ويخلك في العذاب.

ثالثا: المؤمنون الذين لم يرتكبوا إثما، وكانت رقبتهم لربهم نصيبهم في جميع ظروف حياتهم، فصفت أرواحهم وصلحت أعمالهم. هم أولياء الله المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وهؤلاء مصيرهم جنات النعيم بإجماع المسلمين. ويلحق بهذا القسم من الذنب ثم استيقظ من غفلة وتك. وقد قامت الأدلة المتواترة من الكتاب والسنة على أن مصيرهم إلى رسول الله وجنات النعيم. وأجمعت جميع الفرق والطوائف على أن الله محقق ما وعدهم به.

رابعاً: من آمن بمحمد وأرتكب المعاصي ولم يشب من ذنوبه حتى أرتكبه منيئته. وهذا القسم قد اختلفت طوائف المسلمين في مصيره يوم القيامة: ذهب جمهور علماء المسلمين من أهل السنة والجماعة، إلى أن مصير هؤلاء بين أن يسمعوا بفضل الله عليهم، فيمحو ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم الجنة بمشيئته التي وقع للتصميم عليها في هذه الآية (**ويكفر من ذنوبك لمن يشاء**) وبين أن يدخلهم تحت فسطاط عذابه، فيعذبوا بمقدار ما عصوا عذاباً يطهرهم من لوث الخطيئة، وأضرار الخطايا، وجرائم الإثم، ثم يدخلهم ربهم الجنة، على معنى أن من آمن بالله وبرسوله وبما جاء به من الحق ولم يلتزم العمل بأحكام الإسلام في حياته، ولم يشب من إثماته إلى أن مات، فإنه لا يهلك في النار تحقيقاً لما قامت عليه الأئمة من الكتب والسنة ومن ذلك هذه الآية.

وذهبت المعتزلة إلى أن فاعل الكبيرة لابد أن يعذب، وهو خالد في النار، وأن هذا هو ما يقتضيه العدل الإلهي، وأولوا: (**و يكفر من ذنوبك لمن يشاء**) لمن يشاء القوة أي يتوب من ذنوبه، ومن لم يشب لا يكفر له. وذلك لأنه في منزلة بين منزلة الكفر والإيمان.

ومذهب الخوارج أن مرتكب الكبيرة إذا لم يشب من ذنوبه قبل الموت كالقار، وأنه يهلك في النار. ومذهب الإباضية منهم أنه كقار كقار نعمة، وقالت المرجئة من أمم بالله وبرسالة محمد وبالشريعة التي بلغها فإنه لا يضرمه ما ارتكب من معاصي، وذنوبه مغفورة كلها، وهو من أهل الجنة قطعا. وقد أخذ الجدل والاحتجاج أوقانا كبيرة وجهودا فكرية عظيمة، دأبوا على ذلك في بعض الفترات تدخل السلطة ناصرة مذهبا من المذاهب متكللة بمن خلف ما أخذته.

واعتمد الخوارج على القوة وقيل من خلفهم، فسلبت أفعال من دعاه للمسلمين، وقطعت الطرق، وكثرت الفتن وبلغ التنكيل بمن خلفهم حدوا مرعبة. وتختتم الآية ببيان فطاعة الإشراف بالله وأن المشرك يكون بإعلانه عن الشرك قد كذب كذبا لا شعبة له فيه، هو معرض عن الدلائل والشواهد المنتشرة في صفحات الكون المنادية بعظيم القدرة وكمال التقدير.

وبالتالي هو مستحق لأن ينفذ فيه الوعيد، ولا مطمع له في العفو الإلهي، إذ أقطعوا ما بينهم وبين آلهم فحرموا، عدلا منه وإصلاحا، رحمته الواسعة وحجبوا دونها بحجاب الإشراف المصفيق

49- ألم تر إلى الذين يزعمون-ولا يظلمون شيئا.

ويحرك القرآن العجب من الذين يعملون على مغالطة الناس بإعلانهم عن تقواهم ولستقامتهم ونصياعهم للحق، وإن الله قد تخبرهم على سائر البشر لأنهم من نسل إسرائيل، وأنهم أحباء الله وأوليأؤه، ويمروون ذلك ويعيدونه ليتنبؤوه في الفكر العام، ويعوزوا بالتقدير وما يتبعه من حظوظ دنياوية. إن ثناءهم على أنفسهم ليخدعوا به أتباعهم والسذج من معاصريهم، أمر مثير للعجب لأنهم مذكرون أن كل ما يرووجه مفتریات، وأنهم يتكلمون بادعاءات باطلة لا سند لها ولا أثر حقيقي لها. إن الشهادة بالسلاح والخير التي تترقب عليها آثارها الشهادة التي يزكي بها من يشاء تركيته وهم الصالحون من عباده الذين يخشون ربهم فلا يفترون عليه الذين يجازيهم فلا يظلمهم ولو شيئا نقفا مما قدموه.

50 - النمل وكيف... إلخا صبيحا.

يلزم الله كل ناظر والرسول صلى الله عليه وسلم أول من يتوجه له بالخطاب، أن يتأمل في رفاة هؤلاء اليهود الذي يتجرؤون فيكذبون على الله ويزعمون أنهم لشدة قربا وأعظم مكانة عنده، وأنه لا يعذبهم لقربهم منه. سلسلة من الأكاذيب يغفرونها على الله، بلغت من الشناعة أنه لا منزلة في القصد والإثم أوضح منها. إن حال كثير من المسلمين اليوم لا يختلف عن حال يهود الذين شنع بهم القرآن ليعتروا مسلكهم، وبالتالي عاقبة أمرهم عند الله، أنهم يزكون أنفسهم بما تفصل به على أسلافهم الذين اختارهم على العالمين وأخلص عليهم من التأييد ما أفاض مما جعل هؤلاء الأخلاف يظنون أن تلك الكرامات منسجمة عليهم بمجرد الانتماء، والله خلق الخلق وكلهم عبده يتفاضلون بأعمالهم وصلاتهم واستقامتهم لا بأسابيهم ومكانة أصولهم وخيريتهم وخشيتهم من ربهم. واليوم يظن كثير من المسلمين أننا خير أمة أخرجت للناس، ويتساءلون لماذا لم يحقق الله لنا وعده؟ إن الله لا يخلف الميعاد (لينصروا الله من يهزمه) نحن خير أمة أخرجت للناس إذا قمنا حياتنا على الفضيلة والخير وعلى الأصول التي أحرى عليها سنن الحياة، وقلنا كل نافلة ضارة من المجتمع، وكنا حازمين في هذا كما يقتضيه ما نعمت به أمة الخيرية (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله). فبماذا نشهد وقلنا؟ إننا نؤدي أسوأ شهادة ضد الإسلام منكرة منا ومن ديننا، مجبلة لأعمالنا، تجذبنا إلى التفرق والتخلف. وإلى الله المشتكى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نِعِمًّا مِنَّا فَمِنَ النَّاسِ مَن يُؤْمِنُ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَقَوْلُونَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سُبْحَانَ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَبَلَّغَ اللَّهُ لَلَّهُنَّ غَيْدَ لَهُنَّ عَصِمًا ﴿١٠٠﴾ أَمْ هُنَّ نَصِيتُ مِنَ الْغُلَامِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿١٠١﴾ أَمْ حَسِبُوا أَنَّ الْأَمْوَاعَ عَلَى مَا أَنشَأَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنُفَدَّ نَائِقًا ؕ قَالَ إِنَّمَا يَنْزِئُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَاتَّيْنَتْهُمْ أَمْكَانًا عَظِيمًا ﴿١٠٢﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَرُوا بِهِمْ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِفَاتِنَا سَوَاءٌ نُضِلَّهُمْ أَمْ كُنَّا نَهْدِيهِمْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَرِيبًا حَكِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلَتْهُمْ أَبْوَاقٌ

ظليلاً ﴿١٠٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

الجهنم: لا وجود لهذه المادة ج ب ت - في العربية. وقد يكون المراد بها للشيطان والسموم وما عبد من دون الله.

الغلاظوت: كل ما عبد من دون الله.

صد: أعرض.

سعرًا: تلها وكناية عن العذاب بالاحتراق.

يصلون لمرأ: النصليّة شيء يجمع على قفار.

الظل الظليل: الظل البالغ غاية ما يمكن أن يتصور عليه الظل.

بيان المعنى الإجمالي:

إشارة لمعجب رسول الله ولكل من يتكبر الآية، تعجب من اليهود الذين مكذبهم الله من بعض التوراة فخالقوا أصوح ما جاء به كتابهم: توحيد الله، وأمنوا بالضلالات المختلفة من السحر والأصنام، وأضاقوا إلى تلك تضليلهم لمن سألهم عن طريق الشوك وطريق الإسلام فقلوا: إن الشوك أهدى سبيلا من نبي محمد. إن ما صدر منهم يكشف عن نقاد لعنة الله عليهم فلا يجنون نصيرا يأخذ على انتقاعاتهم ليردهم إلى سبيل الحق كما لا يجنون لتقصير في ساعات العمر والأزمات.

لقد طبع اليهود على الحسد والفتن: فمن شحهم أنهم لا يعرفون السماحة، فلو أنهم أوتوا نصيبا من ملك الله الواسع في هذه الأرض فإنيهم لا يؤتون للناس ولو جزءا ناهيا من ملك العريض غير المحدود. بل إنيهم لفساد طويتهم يحسدون محمدا والمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله يحزنهم أن يتفضل الله على غيرهم، مع أن

كتابهم والواقع يشهد أن الله لم يختص بفضلته جنسا ولا أمة من عباده فقد أتى الله آل إبراهيم الكتاب وبعث منهم مرسلين ومكن بعضهم من ملك عظيم، ثم إن بعضا من أهل الكتاب قد فتح الله على بصيرته فأمن محمد ومنهم من أعرض عنه وعاند بعد أن تبين له الحق، وهؤلاء يكفبيهم في مقابلة قسادهم جهنم تستمر، ولفضل عذابها بأن الله سيثويهم ينزل جهنم كلما احترقت جلودهم لئلا يلذ لهم الله جلودا غيرها ليكون عذابهم ملازما لا يتعطل، والله لا يظلم لهرا، حكيم لا يظلم عليه إيذاء الجلود، وإمعانا في لفكالية بالذين كفروا بالآيات الواضحة يعرض القرآن تفصيل ما أعد لمن آمن وعمل صالحا فقد أعد الله لهم جنات تتخللها الأنهار الحارئة، آمنوا بقاءهم في النعيم إلى أبد الأبد، تكمل كرامتهم بلزواج مطهرة من كل نقص، وهم في ظلل من الجنة لا يصحبها ظلمة ولا تقطع.

بيان المعنى العام:

51-52، ألم تر إلى الذين... فلن نجد له نصيرا.

تكررت الآية السابقة أن اليهود يتلون على أنفسهم ليخدعوا الناس، فجلت هذه الآية معلنة بعض مخازيهم وكذبهم ومناقضة أفعالهم لأقوالهم، فضحتهم بأنهم يدعون التمسك بالتوراة التي من أبلغ ما اهتمت به تركيز التوحيد ونفي شركاء من ناحية، وسحلت عليهم من ناحية أخرى أنهم يؤيدون عبدة الأصنام تثبوتا لهم وطعنا في الإسلام دين التوحيد.

ترتبط هذه الآية بما دبره يهود المدينة بعد ما تم في غزوة أحد، وطعموا في الإجهاز على الإسلام، فبعثوا وفدا منهم لأهل مكة، يقرؤون للمشركين بمحمد وجماعته ليمت النساء عليهم، جمع الوفد بعضا من علمائهم ومن المقسمين فيهم ليزولوا للمشركين حرب المسلمين بعد تكاملهم في أحد، وحرضوهم على عرو المسلمين في المدينة وقتلوا لهم أنهم سيكونون معهم يشا واحدة للنساء على الإسلام، فقال لهم للمشركون: إنكم أنتم أهل كتاب، ولعلكم ستكفون إذا حد الحد أننى لمحمد منا، فكل جواب يهود: أن ما عليه المشركون هو أراضى عند الله من دين الإسلام، فقالوا لهم: لسنجوا لأهنتا إن كنتم صالحين، فسنجدوا، فأنزل الله على رسوله ما فصيحهم وسجل عليهم أنهم آمنوا بالحيث والطاوع والجبث كلمة بخيلة من لغة الحيثية مادة (ج ب ت) مهملة لم يرد لها ذكر في معاجم اللغة العربية واختلف في المراد منها على التدقيق، وكل فتوحيات لا تخرج عن التمسك والإيمان بباطل لا أصل له، وفي مفتاح الغيوب: وبالجملة فإن الأقاويل كثيرة وهما (الجبث والطاوع) كلمتان وضعتا علمين على من كان غاية في الشر

والفصل (ح 9 ص 129) وقالوا للمشركين: أنتم بما حافظتم عليه من القيام على بيت الله الحرام أهدى طريقا من المسلمين، وما صدر منهم هو نتيجة حتمية لما نتم من أمر الله لهم، فإن من بلغه الله بقدر التفسير الذي يأخذ على انتفاعاته ويهديه إلى الحق، كما يقد التفسير في ساعات الحرج والمسر.

53-54. أم لهم نصيب من الملك؟ أم نعذبهم؟

طبع لليهود على الفتح وعلى الآثار، يؤوم ما بنعم به غيرهم وإن كان لا بمنهم ما قدره الله لهم. فضح الله ما كنه نفوسهم المريضة ووبخهم فقال: ما لهم يضطرمون غيظا على ما فضل به رب العزة على محمد وأمه؟ إنه لو كان لهم حظ من ملك الدنيا لوسع لخلقها، ولا يصل إلى أي إنسان منهم ولو شيء تلبه لقوة بخلهم، بشهد لذلك، ما جرى عليه يهود في تاريخهم القريب والبعيد، من ترتوب مكر شديد، يمكنهم من امتصاص أموال العاملين للكلابين وخيراتهم وأموالهم. وخير مثال على ذلك قيامهم على التعامل الربوي الذي جعلهم يستثرون بنتائج ما يبتله للبشر من جهود إثماء الثروة التي فتحوا قلوبهم لابتلاعها وخرزلتهم للاستحوا عليها. إنه إذا ترك الكداح حظه العاتق، صا قناره، وهو مصداق هذه الآية لا يرحم معصرا بل يمحقه سحقا. إن من المبادئ التي تبرز خبيثهم: أن للمدين عندما يدفع قسطا من الدين، يعتبر ذلك القسط هو ما هو متين به من الربا، فإذا تم استخلاص جميع ما وطف من الربا، ينقص من دينه بقدر ما يدفع إذن.

إنهم يحسدون محمدا على ما أناد الله من فضله من الوحي، ومن حب أمته له، ومن اتصالاته، ومن الكمالات التي جمعها الله فيه كما يحسدون أمته على الهداية التي مكلمهم الله منها. إن حسدهم ينبئ عن مرض خلقى وضاد في الطبع لأنهم لو نظروا في لومال فضل الله، بما هو مسجل في التوراة، لوجدوا أن فضل الله قد شمل آل إبراهيم فكانهم الله الكف السماوية، من الصحف والتوراة والإنجيل، والنبوة التي هي الحكمة للخلاصة، ومكن كثيرا منهم من ملك واسع.

55 ثم سجلت الآية وضع الذين كانوا حاضرين في زمن الوحي من هؤلاء الحاسدين، أن منهم من اهتدى ومنهم من أعرض، وبعد التيقن فكفى بعذاب جهنم بلقح ليه أوصام المعرضين.

56- إن الذين سخطوا بأهل الكتاب عذبناهم عذابا.

من هذه الخاتمة الأخيرة المهدة بعذاب جهنم سميرا، فنقل القرآن مفصلا تلك التهديد فقال: إن الذين جاعهم الأدلة البينة الظاهرة الواضحة، المنبئة في الكون

كله، فكفروا بها وأفكروا ما توجبهم ضروريا، سوف يشوي أيداهم بنار جهنم، لا يفلح عنهم العذاب، كلما أحرقت جلودهم وقُذِّتْ بِلِقَائِي قِدْرَتَهَا عَلَى نَقْلِ الإِحْسَاسِ بِالْعَذَابِ بِلَهْمِ اللَّهِ جُلُودًا غَيْرَهَا تَقُومُ بِوُضُفَةِ نَقْلِ الْعَذَابِ عَلَى أَشَدِّهِ لِيَحْسُوا الإِحْسَاسَ بِإِقَامِ بَالَامِهِ. لَنْ اللَّهُ عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ مِنْ تَبْدِيلِ الْجُلْدِ، فَسَيُحْسِنُ كَلَامًا أَحْرَقَ بِجِلْدِ غَيْرِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ، فَتَفْعِيزُ إِرَادَتِهِ تَتِمُّ عَلَى لِكْمَلِ وَجْهِهِ مُتَصَوِّرٌ وَأَمَامُهُ.

57 - وَالَّذِينَ آمَنُوا - خَلَّا خَلِيلًا.

ومما يضاعف للثواب بهؤلاء المكذبين بايات الله تنويه القرآن بما سيلقاه المؤمنون من نعم وتكريم وجزاء، وعرف بهم:

أولاً: أنهم قابلوا تلك الآيات بإيمان عميق حل في قلوبهم فوصلهم ببريم صلة لا تنقطع أنوارها.

ثانياً: أن إيمانهم ملوع بجميع ملكاتهم وجوانسهم وقواهم للعمل الصالح، كما أمرهم به ربهم.

سيكون جزاؤهم بذلك جنات تتخللها الأنهار الجارية بما يبهج النفس وتنساب معه المشاعر في رضى وتمعن لا يحد وصفها ومما يضاعف نعمتهم ليقانهم بأن نعمتهم هذا دائم لا ينقطع وتتضاعف لعمه بجمع الله بينهم وبين أزواج مطهرة من الفسق والزنىلة والتبدل والأخطاء وأعراض الهرم والمرض والنفص، ويتم المشهد بالإلماع إلى جانب من جمال تلك الجنات: ظلها ظليل غير متقطع ولا مظلم.

• إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنَّ تَزِدُوا إِلَى الْإِيمَانِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ خَبِيرًا جَبَرًا بِإِيمَانِهِ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُلَ وَأُوْبِئِ الْأَمْرَ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرُّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٧﴾

بيان معنى الآيات

الآيات: جمع أمانة الشيء الذي يعطيه لمن يحفظه له إلى أن يطلبه منه، أهلها: أصحابها.

العدل: المساواة بين الناس ليصل كل ذي حق بحقه طلبه لو لم يطلبه.

نعمنا: نعم اتصلت بها ماء، نعم صيغة مدح.

التنازع: الاختلاف الشديد.

تأويلًا: أحسن ردا.

بيان المعنى الإجمالي:

هذا طلب مؤكد صادر من الله جل جلاله يتضمن أمرين يقوم عليهما بناء المجتمع، ولا يجوز التهاون بأي منهما. أحدهما موجه لكل مسلم ومسلمة مهما كان دوره الاجتماعي، أن يحفظ ما أوتى عليه، وأن يسلمه لصاحبه بمجرد طلبه، وثانيهما: أنه وإن خوطب به كل الناس لكن لا يتحقق الطلب بالنسبة للشخص إلا إذا ابتلي بالحكم بين الناس فهذه الآية تتناول رؤساء الجمهوريات، والولاة والقضاة ورجال الشرطة، وكل من حكم بين اثنين أو كانت له سلطة لتطبيق قوانين في أي ميدان كان، وكذلك من اختكم إليهم فهؤلاء جميعاً مأمورون بالعمل المطلق محاسبون يوم القيامة عن الحكم الذي أئزموا به المتحاكمين إليهم، وما أحسن ما وعظ الله به عباده، والله لا يخفى عليه شيء فهو السميع لكل قول، الذي لا تخفى عليه خفايا الأمور. هذا الأعلان العظيم يستعدن مستفهما من طاعة الله وطاعة رسله. ونصت الآية على تكرار لفظ طيعوا مع الرسول لينفي كل تعلق بالاعتصام على القرآن وحده، طاعة رسول الله في كل ما شرعه مأمور بها كمثل ما ثبتت تسريعه بقراء، وثالث سبحانه طاعة كل من يتحمل مسؤولية القيادة في أي مستوى من المستويات، كالخلفاء والأمراء والملوك ورؤساء الجمهوريات والولاة والقضاة وكل من يسير جماعة من الجماعات، كرؤساء المؤسسات والزوج في الأسرة وهكذا، إذ لتقاء الطاعة لمن هم في نظر المفسر معناه الفوضى والتشتت، والخبيثة. وفيهذه الآية بلى يكون هؤلاء الرؤساء منا، أي مسلمين، في تسلط التفكير على فكر من الأفكار وجب على مكانه عصيانهم ومقابلتهم بالجهاد الحربي وبالجهاد المدني بعدم طاعتهم. ومنه من سنن الله في الخليقة، أن يولى تركيبيهم على التنوع تنوعاً يتجاوز الجنس إلى التمايز بين الأفراد فلا نجد إنساناً نسخة مطابقة لإنسان آخر، ومن طبيعة هذا الاختلاف في المواهب والمحيط والميثرات، أن يكون الناس مختلفين. إن ظاهرة الاختلاف أساس من أسس رقي المجتمع، كما أنها يمكن أن تؤدي إلى خرابه ونحله. ولحمية الاختلاف من الأحرف يأمر القرآن بالرد إلى تشريع الله في القرآن وسنة رسول الله ﷺ، فهما يتحصن الفرد والمجتمع من الشر، ويهتدي إلى الخير المحقق في الحاضر وفي العاقبة.

بيان المعنى العام:

58- **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتَ إِلَيْنَا** بعبارة.

موقع هذه الآية مما سبقها جاز على منهج القرآن الذي يعتنى بإصلاح البشر أولاً وبالذات. يتواصل تسجيله لما يريد أن يسجله، وينخل تلك من الموعظة والتذكير

ما يحيي الأرواح ويحركها للخير. والله أعلم بطبائع النفوس التي إذا نوالى سرد موضوع واحد وطال ذلك، تقطع حبيل الانتباه وترخت القفظة، فإذا تحول نظم الكلام من موضوع إلى موضوع آخر، كثر ذلك التحول منشطاً للذهن ليقبل على لتجديد بعناية فيكون رموزه في المشاعر المتأنية لفقد وأتم. إن مضمون الآية هذه من القضايا التي اعتنى بها الإسلام لإقامة النظام الاجتماعي على القيم الحافظة لقوته وتماسكه، ولإبراز نظافة العلاقات الاجتماعية وثقة بها.

فتحت الآية بإبراز الأمر من الله **(إِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ)** بما يليق به هذا التركيب في النفس من مهابة يتبعها إيمان. يأمر الله بضمته وجلاله لسراً ولجبا محتماً أن كل من أومن على شيء يجب عليه أن يؤدي الأمانة ولا يخونها، والأمانات أنواع؛ فمن أودعك شيئاً فوكله الله عليك إلى أن تمكنه مما أئتمنتك عليه، وما عندك من العلم هو هبة من الله إليك للتمكك على تبليغه لمن هو في حاجة إليه، فكل المجتمع الإسلامي إما عالم أو متعلم. وما أتاك الله من العلم بصيب الغفراء منه لئلا أنت مسؤول عنها لتمكين مستحقيها منها، وعلاقة الزوج بزوجه الذكر والأنثى سواء كل منهما مؤتمن على تلك العلاقة وعلى مال صاحبه وعلى أسراره. وبهذا تكون الأمانة تعني تارة تمكين صاحبها منها، وتكون تارة بالحفاظ عليها وعدم التعرّيط فيها على النحر الذي يريده صاحبها، وعلى هذا النحو تفهم الآية في شمولها وفي واسع أبعادها، ومن توسع، إذا يمر الله في هذا المعنى عند بيان ما يتعلق بقوله تعالى: **(إِنَّمَا يَرْضَى الْأَمَنَةُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَ اللَّهُ)**

والحكام بما مكثوا به من السلطة التي تنفذ بها أحكامهم، لهم دور أسس في تطور المجتمعات وميادة الأمن وتخصيق العزة للفرد. فهذه الأمانة التي حملوها، ارتبطت بالأمر العلم الأول والفكرت به، إذ العدل الملازمون به يحقق أداء الأمانة. وتختتم الآية بالتقوية بهذين الأسس: أداء الأمانة والعدل. فما أحسن القيام بهما (نعماً) وكم يكون المجتمع الراعي لهما المحقق عليهما متمكناً من السعادة والرفق ! ويحذر أصحاب الأمانات وأصحاب السلطة بل الله مسمع لا يفوته شيء من الأسرار التي تجري في الخفاء، عليم بحقائق الأمور لا يخدع.

ثم حركت الآية التالية مقتضيات الإيمان التي بها يتمكنون من الاستجابة لما أمروا به من أداء الأمانة والعدل في الأحكام، في هذين الأسس لا يكون لهما دورهما في

صلاح الفرد والمجتمع إلا إذا كان المرجع في الحق ولحدا وإضحا بيننا، لا اختلاف فيه، وانتفت الفوضى في إدراك مقتضياتها.

59- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ... تَأْوِيلًا.

إن تصور الحق والعمل به له مرجع واحد في الإسلام، هو طاعة الله وطاعة رسوله. فالأمانة تحفظ وتؤدي حسب ما شرع الله وأمر به رسوله، والعدل هو العدل المتلقى عن الله. وعن رسوله الكريم. لموت الآية طاعة الله وثبت طاعة رسوله تنصيصا، وذلك لينفي كل التصورات والاضلالات التي قد يتعلل بها المبتلون والمفسهاء، الذين يبررون تصلبهم من تطبيق كثير من أحكام الإسلام، بأن صدق إيمانهم يقتضي أن يقتصروا على القرآن وحده. فهذه الآية مبطللة لاعتلتهم هلمة لما يروجونه من ضلالات، فهم يصدمون نصا صريحا، ثم تثبت الآية بأن عطفت على طاعة الله وطاعة رسوله طاعة أولى الأمر، مما يقتضي أن طاعتهم من دين الله. ويتعلق بأولي الأمر:

أولاً: أن المراد بهم الذين من طبيعة المجتمع المتمسكين بأن يتولوا فيه المناصب التي تدير أمر الجماعة على نظام كالخليفة، أو الملك، أو رئيس الجمهورية، والوزراء والولاة وأعيانهم للقائمين على تطبيق أسس التعايش بين أعضاء الأمة، رجال القضاء الذين يقيمون العدل فيما يمرض عليهم من نزاعات. أمر المؤمنون بطاعتهم لأنه لا يستقر أمر الجماعة، ولا يتحقق تقسم ولا نظام إلا بالطاعة وعدم الانتفاض على أولي الأمر في هذه المناصب السياسية وقضائية.

ثانياً: لا يقتصر منلول أولي الأمر على هؤلاء، فلزوج في الأسرة هو صاحب الأمر الذي تتعم طاعته من الزوجة والأولاد والمساعدين. وكذلك القائلون على المصانع والشركات والمؤسسات وكل تجمع له رئيس يدير العمل فيه.

ثالثاً: إن المرجع الذي أثبتته القرآن وأكد عليه ووسط به لتصوير الإسلام في القضايا الجزئية وفي المبادئ العامة، هو الاحتكام إلى شرع الله وأوامره في كل شيء، فما الإسلام إلا إسلام الوجه لله. ولذا فإن طاعة أولي الأمر هي في حدود ما جاء به الإسلام، وإن الفيق من هذا الإنزول يتحقق بما يلقه علماء الأمة. ومن هنا جاء ما قرره كثير من المجتهدين أن طاعة أولي الأمر تبع لطاعة العلماء. وليس معنى ذلك أن للعلماء سلطة سياسية فوق سلطة رجال السياسة والقضاء، وأن هناك تقارعا بينهما. بل المقصود من ذلك هو وجوب خضوع كل فرد من أفراد المؤمنين لشرع الله إن علمه فذاك وإن جهله فإن علماء الأمة هم المرجع، وصاحب السلطة واجب عليه أن لا يخرج عما يبيحونه. ومما ينبغي أن يعلم توضيحاً لذلك، أن فقهاء

الأمة تفقوا على أنه لا يتولى منصب الإمامة أي الخلافة (الولاية العظمى رئاسة الدولة) إلا من بلغ درجة الاجتهاد في الدين إن وجد وإلا فلي مصلحة حفظ كيان الأمة مقم على هذا الشرط

رابعاً: ثبت الآية أولى الأمر يكونهم مفا: أي مسلمين. وهذا يقتضي أنه إذا تسلط على المسلمين من ليس منهم، فإن الواجب عليهم أن يعقوا العزم على عدم طاعته، ورفض وجوده، بلجهادين: جهاد الحربي والجهاد الفخري (العصيان) الذي يحرمه من تثبيت لوكانه. هذه ثوابت لا تغل التؤيل ولا لتراخي في تنفيذها.

إن شأن الكثرة البشرية أن يصحبها اختلاف وهذه سنة من سنن الله في المجتمعات الإنسانية، وكلما وقع خلاف أمدته المواطن. وأجته نزاع للشيطان لينقلب إلى نزاع، يريد كل فريق أن ينتصر. إن وجود مرجع يكون هو الحاكم، وحكمه يقبل جميع الأطراف به، وينتق من العقيدة، ويتمثل في الرجوع إلى حكم الله وحكم رسوله، إن هذا المرجع للمأمور بالقرء إليه بجمع بين كونه هادياً للحق، وبين كونه يسمو بالخلاف إلى تحقيق غاية، هي تحول المتنازعين من الانتصار للراي إلى السعي إلى تثبيت المصلحة الخاصة والعامة معا.

هذا المقطع يرتبط بما منقوت به الآية من طاعة الله وطاعة رسوله، فلا يشعر أي طرف أنه خضع للآخر، بل كان الخضوع لله رب العالمين. والرد إلى الله ورسوله فيه إشارة إلى وجوب مراقبة الله والاستعانة به لتبصير المتنازعين حتى يدجلي النزاع بذهاب أسبابه، والتعليق بقوله: **(إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَلِلَّهِ الْآخِرُ)** مع أن لافتاح الآية بدعوة للمؤمنين بهدف إلى أمرين:

الأول: المبالغة في التحريم على الفرد ونجريد كل متنازع من أهواله ونواعي ألدائه .

الثاني: التلميح إلى اعتبار أن عدم الامتثال بجعل الإيمان بالله واليوم الآخر قلناً غير ثابت، وهذا ما يخشاه كل مؤمن بلغ خشية بالخوف من إبطاء العمل. فجمع هذا التعليق بين الحث والتهديد.

وأكد هذين الأمرين بقوله: **(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)** فيه نفع لكم فيكم من انزلاق النزاع إلى ما يجلب الشر. وهو أحسن عبارة ففسكو بارتباطكم بما بهتكم إليه القرآن، وما سنه لكم رسوله صلى الله عليه وسلم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُرْسِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُرْسِلَ مِنْ قَبْلِكَ
يُفَرِّدُونَ أَنْ تَحْمِلُوا إِلَى الظُّلُمَاتِ وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ
يَضِلَّهُمْ مُنْذَرًا لِمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُرْسِلَ إِلَيْهِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ
أَلَمَّ بِمُوسَى بِمَا كَذَبَ ۖ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ خَلْفُهُمْ وَأَلَّاهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ وَإِلَيْكَ أَلِيتُ
مَعْلَمُ اللَّهِ مَا فِي لُطُوفِهِ نَاعِزُ عَذَابٍ وَعِظُهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۚ

بيان معنى الألفاظ:

برغم من: مضارع زعم: وهذه المسألة تتضمن الإيحاء إلى كَيْفِ المخبِر أو عدم الوثوق بكلامه.

كعبتو ۱۔ ائتو ۱۔

الغلاخوت: أصل معناه المنع، وإطلاق هنا على كراه اليهود تشبيهاً له بالصلصم المعبود لظن قومه في تخليصه.

عظيم مرهم بفعل ما هو خبير، والإتكاف عن الشر، بالتأثير في القلوب
والمشاعر.

بیمان المعنى الإجمالي

تجيب من تناقض المنافقين وواجبتهم. يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبالآيات مما يفرض عليهم أن يتحاكموا إلى شئع في خلافاتهم، ولكنهم يتحاكمون إلى الطاغوت (كبير كهان اليهود) مع أن الكتابين يؤكدان عليهم أن يحكموا بالتحاكم إلى الطاغوت. وما ذلك إلا لأن الشيطان قد تسلط عليهم فأضلهم ضلالا بعد بهم كثيرا عن منهج الحق. وبلغ بهم العناد وتواصل الكفر إلى حد أنهم إذا سمعوا: أقبلوا على ما أزل الله من الحق وما يحكم رسوله بيانه ظهر فسقهم بإعراضهم عن الرسول ثم إعراض. فلا تسأل عن وضعهم، لما تصيبهم مصيبة بسبب ما قدموا ثم يتقدمون إليك معتزلين وليس لأخزي ثمرة وجوههم، وهم في ذل يحلفون: ما أردنا باحتكامنا للكاهن إلا أن نزيل أسياب الخلاف فنحسب إلى المتخاصمين ونوفق بينهما، أنهم لا يضرؤنك بنفاقهم والله عليهم بما يَكُونون فهو قذي يتولاك بالتأييد

وأظهر لهم ثباتك بالإعراض عما قدموا ويعتمد الأكثرات بهم، وتول مواعظهم ببيان الحق وتهديدهم بسوء العقوبة وليكن قولك لهم قويا ينفذ إلى قلوبهم ويرعدهم.

بيان المعنى العام:

60- أنه قرأ إلى الذين سيهدوا.

هذه هي الآية الرابعة في سورة النساء المصدرة بقوله تعالى: (لن تر) وقت قدعنا ما يتعلق بهذا الأسلوب قريبا في الآية (44) من هذه السورة. وقد اختلف الزواة في ربط الآية بما وقع قبيل نزولها. والذي يستخلص من روايتهم أن بعض من طاهره الإسلام قد حصل بينه وبين شخص آخر خلاف، فدعاه الخصم إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، فقبل وأثر أن يتحاكم إلى الكاهن. شنع الله عليهم وأبرز موقفهم هذا في سورة تبنى على التاريخ متعجبا منها ذلة على غدا وحماقة هؤلاء.

لبرز القرآن صورتهم في تلخيص غريب: تسمع مقالاتهم: إنهم آمنوا بما أنزله الله عليك، وبما أنزله الله على أنبيائه من الحق، وتدخل إشارة لطيفة، كل هاتكا يصحبهم عند شهادتهم هذه بنادي: إنهم غير ضالين، وذلك باختيار كلمة يزعمون ملتصقة بقولهم. وبهذا يبرز بتلخيصهم الأول بين ما يضمنون وما يصرون به.

التلخيص الثاني: ما وعدوا عليه عزمهم من التحاكم إلى الكاهن، فمعظم من اليهود كنعظيم عبدة الأوثان للسنة الأكبر. المعبر عنه بالطاغوت وقد أمروا أن لا يعظموه ولا يعتمدوه ولا يصدروا عن حكمه، للتلخيص بين ذلك وبين توحيد الله، قاعدة جميع الشرائع، بما يقتضيه التوحيد من رفض كل حاكمية لغيره. لتلخيص عزمهم مع ما يحب عليهم تشريعا من عند الله في التوراة وفي القرآن.

التلخيص الثالث: ما يروجونه من أنهم على هدى من الله، ثم هم يتبعون ما يؤمنون به للشيطان في مداركهم، والإيمان بسير بهم إلى الهدى والوضوح ويفرهم من الله، والشيطان يعمل على دفعهم إلى الضلال يتبعون كلما أوغلوا في اتباعه ويريدون بعدا عن الله.

61- وإذا قيل لهم تعالوا سمعوا.

التلخيص الرابع: أنهم يدعون كما نكر في صدر الآية إيمانهم بما أنزل على رسول الله وبالتوراة المنزل، ومن لوزم هذه الدعوى أنهم إذا غلوا فأنحرفوا عن مقتضيات الإيمان وذكرُوا عداوا سريرا إلى ما أعطوا التزامهم به. ولكنهم إذا أوقفوا إلى الضلال الكبير وقوا فيه ودعوا إلى تحكيم ما أنزل الله وإلى التطبيق السليم للوحي عند رسول الله ﷺ، برز نفقهم وإعراضهم إعراضا كبيرا.

62- فكيف إذا أصابتهم مصيبة -خولا بيثفا.

رَبِّتِ الْآيَةَ عَلَى مَوَاقِفِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، التهديد بما سيصيبهم جزاء ما قدموه، ولم يفصل نوع المصيبة التي ينتحق بها التهديد الذي يترصدهم. ويثير الصور الدالة بقوله: كيف يكون حالهم إذا جازوك بطروهم الخزي، ويتملقون فيقسمون بالأيمان لهم ما أزلوا من تحاكمهم إلى الطاغوت إلا تمهيدا لفض النزاع وتوقيفا يرفع الخلاف، وهي أيمان لا تخفي ما وراءها من الكذب والنفاق. 63- يوضح القرآن دجلهم بأن الله يعلم ما تتطوي عليه صمائرهم. ويمتد القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم، فيوصيه بأن لا يكثر بما صدر عنهم، فهم أضغاث من أن يضروا الدعوة، أو أن يطفئوا نور الله بإطاعتهم وخداعهم، وأن يبرز لهم نقه الكاملة في الحق الذي هو عليه، فيلقى عليهم المواعظ التي تكشف لهم عن وجه الخير، ويخوفهم سوء عاقبتهم ويجلي ما سيلقاه الثائرون الصالحون. ولا تقصر في إلاغهم ما ينفذ إلى عقولهم ويحرك مشاعرهم ليرتدعوا.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْتُمْ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ جَاهِلُونَ فَاستَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرُّسُلُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُونَ لِمَا شَهِرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٦٥ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ احْتَزُّوا مِنْ دِينِكُمْ مَا تَفَعَّلُوا إِلَّا لِبَلِيلٍ مِثْلِهِمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ تَعَلَّوْا مَا وَعَدُوا بِيَوْمَ لَكَانَ حُزْرًا لَهُمْ وَأَشَدُّ الْعِقَابِ ٦٦ وَإِذَا لَاتَبَنَتْهُمْ بَيْنَ أَدْنَىٰ أَمْرٍ عَظِيمًا ٦٧ وَلَهَيْتُنَّهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٦٨ وَنُرِيعُ اللَّهُ الرُّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَيْنَ الْأَمْنِيِّينَ وَالْمُسْلِمِينَ ٦٩ وَالشَّهَادَةِ وَالْمُصْلِحِينَ ٧٠ وَحَسْبُ أَوْلَٰئِكَ لَهْفًا ٧١ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا ٧٢

بيان معنى الانكسار:

شهر: الاختلاف الذي لم يبين فيه وجه الحق.

حرجا: ضيقا شديدا.

بيان المعنى الإجمالي:

ما بعث الله أي رسول من رسله عبثا، بل الواجب الحزم أن يبين كل واحد من المبعوث إليهم في طاعته. وكان الأجدر بالمنافقين الذي أضلهم الشيطان أن يسرعوا إليك معلنين توبتهم مستغفرين من ذنوبهم لتستغفر لهم، ويقوزوا عندها

بغفران ما سلف منهم، والله تواب رحيم لا يردهم خائبين. ثم أكد ببلوغ تأكيد أنه لا يكون الإيمان مقبولا إلا إذا حكمك صاحبه فيما وقع من خلاف، وفوق ذلك يكون راضيا بحكمك مطيعا مسلما بعقله، لا ساخطا، ويعطي القرآن صورة فرضية مؤداها أنه لو طوَّلب مدعى الإيمان بقتل نفسه أو لخروج من وطنه، فإن المستجيبين لهذا الابتلاء لا يكون إلا قلة. مع أن الذين يسرعون للاستجابة يفوزون بما هو خير لهم في العقبة ويقوى ثباتهم على الحق ويحفظون بالأجر العظيم الذي لا يوصف بأكثر من العطية. ويصور القرآن منزلة المطيعين لله ورسوله، بأنهم سيكونون في موكب الأخيار المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والمشهد لهم من الله بالصالح، وما تشد حرس هذا الموكب وأكرم بها رفقة، يتنزل عليهم الفضل الذي لا يحده ولا منه فيه، من الله الذي يعلم حقائق الناس فيولف بين الصالحين منهم.

بيان المعنى العام

64- وما أرسلنا من رسول مستقوابا رحيمًا.

يوصل القرآن بيان ما يتصل بالمعاقبين الذين قنعوا الطاغوت وأعرضوا عن التحاكم لرسول الله، فيقرر قاعدة من القواعد التي بنى الله عليها الله بعثة الرسل للعالمين، من الرسل الأول إلى محمد صلى الله عليه وسلم: هذه القاعدة تُعرف البشر أن الله ما بعث رسولا إلا ليطيعه المبعوث إليهم فيما يبلغهم عن ربه، ولا خيرة لأحد بعد معرفة حكم الله الذي بلغه الرسل الأمين. وهذا هو أمر الله للواجب تمليقه، ويربط هذا بموقف المناظرين، الذين رفضوا التحاكم لشرع الله فظلموا أنفسهم بهذا الإعراض، وعرضوها لفضيل الله ولو لم يتملخوا على عنادهم، ففتموا على رسول الله مستخفين من ذنوبهم ثائبين من العصية، لمسدوا بثوبه الله عليهم ولوجنوا في واسع رحمته ما يظهرهم من الذنوب، لأن الله من صفاته الأزلية أنه تواب رحيم.

65- فلا وربك لا يؤمنون حتى يصلوا تسليما.

حق ببلوغ تأكيد، أن الإيمان لا يقبل ولا يكون صاحبه صائفا في دعواه، ولا تتروى عليه آثاره، إلا إذا حكم مدعى الإيمان في كل شؤون حياته شرع الله المنزل، وبخاصة في كل نزاع يحدث بينه وبين غيره، ولا يكون تحكيم الرسول مبلغا رسول الله ومثبتا لصفة الإيمان الكامل لصاحبه، إلا إذا كان الفحكم راضيا بالحكم غير رفض له ولا قلقا من تطبيقه، وبناء على هذه الآية قلبي من يرفض التحاكم لشرع الله، إن كان رفضه مرتبط باعتقاده بعدم صحة فمريضة المنزلة، فهو

كافرو. وإن كان إعراضه عن الاتقياء لحكم الإسلام والتحاكم لغيره، لأعن رفضه. ولكن اتباعا لهواه ولمصالحه الدنيوية، فهو أثم إنما عظيمًا.

66-68 • ولو أنا صكتنا عليهم صراطًا مستقيماً.

فرض متبوع بما ينبغي عليه لو تحقق، وهذا الفرض يفهم على صورتين:

الصورة الأولى: أن الطاعة لرسول الله غير محددة بحد، فالمؤمن الحق هو الذي يتفد كل ما طلب منه، استجابة لأمر الله وأمر رسوله، حتى إنه لو أمر بقتل نفسه، أو الخروج من وطنه فإن المؤمن للكامل الإيمان الذي يستقر نور الإيمان في ضميره استقراوا بلغ به أن كل محبيات النفس شذول قيمتها بحاسب طاعة الله، إن المؤمن الذي بلغ هذه الدرجة يستجيب لهذا الأمر، وإن كان الذين سموا إلى هذه الدرجة قليل من المؤمنين، وهو من بصفات القرآن للحقيقة وتركه للمبالغة. وبينهم لهم لو أقسموا على تنفيذ هذا الأمر الصعب تنفيذه، فإن ذلك يكون خيرا لهم في الحاضر والعاقبة، وأعظم تثبيتا للإيمان في قلوبهم. على معنى أنهم لا يترددون في كل ما أمرهم به ربهم، ويجدون لذتهم العظمى في طاعة الله وتنفيذ أوامره. هؤلاء سينالون جزاءهم من ربهم اجرا لا يقتر قتره توصفه الله بأنه عظيم وذلك تبع لهدفهم الطريق المستقيم. وإن كان الأجر العظيم تليقا للهداية إلا أنه تقدم في الآية تعجيلا بالشارة.

الصورة الثانية: أن الله لو أوجب على الناس أن يلجموا جميع شهواتهم فلا يتركوا لأي منها سبيلا للظهور ولا مطمع في الإشباع، وعبر عن هذا بقتل النفس، لو أمرهم أن ينخلعوا عن مكاسبهم ومناوئهم التي تحصرهم من الحر والقر ليمحضوا أنفسهم للعباد، فإن مثل هذا عظيم تنفيذه، ولكن قوة الإيمان تجعل قليلا من الناس يسارعون للتنفيذ. وهؤلاء، بترك كل متاع الدنيا وراءهم وفعل ما وعظوا به سيحصلون على خير كثير ويزيدهم هذا الإقبال، الذي يلغى حظوظ النفس، ثباتا على الحق وإثباتا له. ويعظم أجرهم إلى حدود تفوق الوصف بثباتهم على الصراط المستقيم.

69-70 • ومن يجتج الله والرسول عليمًا.

وبفصل القرآن بعض مظاهر هذا الأجر العظيم لمن يطيع الله ورسوله، أنهم سيكونون مصاحبين للذين أعم الله عليهم، هؤلاء الذين مثروا بالكرامة في الدار الآخرة، من الذين آمناء الله على وجهه، والصادقين الذين سبقوا إلى تصديق المرسلين وأيدوهم بمجرد ما خاطبت لورق فوحي الأولى قلوبهم والشهداء الذين

بنلوا حياتهم لترسيخ الإيمان في قلوب العالمين. والصالحين الذين استقاموا فكانت خشيتهم لله حاوية لهم من ارتكاب المعاصي. وما أصح هذه الرقعة في المقامات العليا من الكرامة والتعظيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا نَاسًا أَوْ فِرْقًا جَمِيعًا ۚ وَإِنْ بَنَكَزَ لَكُمْ لِمُعِيقٍ مِنْ أَسْبَابِكُمْ فَاصْبِرْ ۚ فَإِنَّ أُنْجِيَكُمْ اللَّهُ عَلَىٰ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۚ وَإِنْ أَصْبَحَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ بَلْ هِيَ كَيْدٌ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۚ • فَلْيَقْبَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَنْ يُقْبَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَيُقْبَلْ أَجْرًا مُكْرَّمًا ۚ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ قِبْطُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبِّهِمْ أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أُهْلُهَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا بِقُوَّةٍ ۚ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُغْنِيَنَّ عَنْهُمْ سَبِيلُ الْمُنَافِقِينَ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَيُغْنِيَنَّ عَنْهُمْ سَبِيلُ الْمُنَافِقِينَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُغْنِيَنَّ عَنْهُمْ سَبِيلُ الْمُنَافِقِينَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُغْنِيَنَّ عَنْهُمْ سَبِيلُ الْمُنَافِقِينَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُغْنِيَنَّ عَنْهُمْ سَبِيلُ الْمُنَافِقِينَ ۚ

بيان المعنى الإجمالي:

انفروا: اخرجوا للحرب.

نكث: جمع نكث بمعنى جماعة.

ليقبطن: مضارع بطن ثقيل عن الجهاد.

شهيديا: حاضرا.

مودة: صديقة، ومحبة.

يشرون: يبيعون.

المستضعفون: من يدهم الناس ضعفاء.

القرية: مكة.

الظالمون: الأصنام.

بيان المعنى الإجمالي:

نهيت الآية المؤمنين أن يكونوا يقظين لما يدهمهم العدو من مكائد. وأن يرتبوا لكل معركة ما يتناسب مع طبيعتها الخاصة فليخرجوا للجهاد جماعات جماعات لو

يخرجوا جميعاً صفاً واحداً مترابطين. ويفضح القرآن الجبناء من المؤمنين الذين يستخفون من الناس عند نداء الجهاد متساهلين عن الانضمام لصف المجاهدين، ثم ينزويون مترقبين ما سفير عنه المعركة، فإذا أصيب الجيش الإسلامي قتلوا؛ نعم الله علينا فلمنا إذ لم نخرج معهم، وإذا تفصل الله على المسلمين يقولون اسفين: يا ليتكأ خرجنا معهم فتكون لنا مكافأة عند رسول الله وعند الناس، ونصيب من الغنائم كما أصابوا. كأنهم لم يكونوا وقت التغير حاضرين، ثم يكره القرآن للمؤمنين للمجاهدين كأنهم هم وحدهم فمعول عليهم بالتهوض بنشر دين الله، بأمرهم بالقتال منوها بهم بألهم بأعوا منافع الحياة بما أعده الله لهم في الآخرة. ويحقق الله ربح مصفقتهم سواء قتلوا فكتلوا من الشهداء لم فتصروا وغمروا فحقوا بنشر دين الله. ويؤكد بأن أجرهم عظيم لا يعلم مقداره إلا مغيضه عليهم ربهم للرائي عنهم.

ثم وثقت القرآن للجميع حتى المتوردين بحرك كواثر الإيمان فيهم فوافي موالاً منكراً تقاسمهم مثيراً للعجب من ترددهم، ويبرر الدواعي للتغلب على ضعفهم: فيذكرهم بأنهم يقتلون في سبيل الله الذي تعلو به قيمتهم الإسلامية فيرتفعون عن الأهداف القريبة الهابطة، وليناولوا شرف الاستجابة لهذا النداء الذي جازت به حناجر المستضعفين من أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، الذين تسلط عليهم طغاة الكفر فعذبهم وقتلهم وضاعت بهم السبل، حتى ينسوا من كل عون إلا من عون ربهم فرفعوا أوتابهم منهلين راحلين أن يخرجهم من مكة التي استند أهلها وبالموا في مظلمهم وأن يجعل لهم ولها حصر بالعذاب المسلط عليهم والإهانة التي للمنصبه عليهم حسباً فيؤلى حصرهم.

وقارن القرآن بين الفريقين: المؤمنين الذين يستنون إلى الله ويقااتلون في سبيل نصره دينه لتكون كلمة الله هي العليا، والكافرين الذين يقااتلون ليميد البشر الأصنام من الجسارة أو العبد أو الشهوات. وما يكيد به للشيطان ويزيله في قلوبهم. فأنبتوا وقااتلوا المستدين إلى للشيطان، فإن ما يكيد به لضعفهم إلى القتال لا يصمد أمام إيمانكم وقيمكم.

بيان المعنى العام:

71- يا أيها الذين آمنوا... أو انصروا جميعاً.

هذه الآية تثير حمية المؤمنين للدفاع عن دينهم الذي ارتضوه، هم مسلمون أن يخرجوا للجهاد. ويذكرهم القرآن بأن يأخذوا كل الاحتياطات لحماية أنفسهم ورفع كبد أعدائهم. وهو الحزم في مباشرة أمور الحرب، فيضوقى المحاصرون أن يصابوا

في أرواحهم ألقى ألبانهم، ويخبر المجاهدون طبيعة كل معركة وما تقتضيه،
نُشر إلى ذلك بقوله: ففروا جماعات متفرقين، لو تفروا صفًا واحدًا.

72-73. وإن منكم لمن ليبطئن فإنما له عظيم.

استهض القرآن همة بعض ذوي القسوصات الضعيفة، رغم أنهم في الصف
الإسلامي، بالكشف عما يجري في نفوسهم وما تطوي عليه ضمائرهم. جسم حالهم
مع الانتصار والتمسك. هؤلاء الذين رغم أنهم من الجماعة الإسلامية إلا أنهم
لاستلاء الخوف على قلوبهم نراهم في هذا الوضع السخيف. فتراهم إذا أُن
بالجهاد يتقلّبون، يزوون حتى لا يصره الأعين وهم في ثرقب. فإذا أصيب
المسلمون بضرر، ولا يهمل إلا أنه سلم، فيهنئ نفسه ويصرح بقوله: قد أكرم الله
على لا فرت بجلاي ولم تشاركهم، ولم أحضر هذه الواقعة التي مات فيها العديد من
الناس. وبالمقابل، إذا انتصر جيش الإسلام فاتحه الله من فضله نصرا على
الأعداء، وغنم استولوا عليها، وعزة الغلبة، يعود بالثناء على نفسه التي تؤنّيه،
اسفًا أن حرم من مشاهد الظفر والانتصار قلاليًا ليتى كنت مشاركًا فأحظى بفوز
عظيم، أكرم وبرضى على رسول الله، ويشهد لى الناس بالبطولة كأنه ما كان
حاضرًا وقت الظفر، وهذا شأن الجبناء لصحب النفوس المريضة لا يهمهم إلا
مصالحهم، ولا يرتفعون إلى منازل الشرف.

74. فليقاتل في سبيل الله. أجرة عظيمة.

وصح هؤلاء المترددين وضع روي يتلقى مع عزة الإيمان والثوق في تأييد الله،
فأعرض عنهم القرآن زيادة في تفرعهم وتوهين شأنهم، ولتفت الخطاب إلى من
استقر الإيمان في قلوبهم استقرأوا على كل شيء فجعلهم الأحناء بالأمر
بالقتال. ولوء بهم بأنهم يقاتلون في سبيل الإسلام لا تعصيا لقينة ولا لحزب، ولا
لطبيعة أو مجد شخصي وتفاخر بالبطولة، ولا للسيطرة على الناس وعلى خيرات
أرضهم. هم يقاتلون في سبيل الله الواحد الأحد؛ قد استأثروا ما عند الله من حسن
نواب الأخرة الباقي بمئات الدنيا لآزال، وتجلونهم نجارة راحة.

أكد أن تجارتهم راحة على جميع الأحوال، فيم إن قتلوا فازوا بأجر الشهادة وإن
انصروا وعليوا كتب لهم في ميزان حسناتهم فضل نشر دين الله وبذل حياتهم في
سبيله، والأجر الموعود به أكرم عظيم لا يعلم مقداره إلا الله فهو مما يتجاوز
الوصف.

75. وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله محمداً.

يؤالي القرآن حث المتقاعسين المترددين ولا يبلى من صلاح حالهم، فيوجه خطابه للجميع مقرونا بالإنكار في صيغة تدعو إلى تعجب: ما بلى الناس لا يسارعون للقتال في سبيل الله، والعقيدة تدفع إليه وترجحه ما يلهيهم لا تنهض حميتهم لإخوانهم الذين خضعوا عن المقاومة وعن القرار بدينهم وعن حملة أنفسهم من الإذالية الذين احتجزهم كفار مكة من فرجسج والنساء والولدان ونقلت في وجوههم الأبواب. يحرك ما في قلوبهم من حمية، وما في أرواحهم من إيمان، بتصوير المشهد وقد امتكت أيدي هؤلاء المستضعفين وشخصت أعمارهم إلى خيط الأمل الوحيد الباقي، إلى الله تعالى الأعلى، نسمع أصواتهم وهم يجارون بالدعاء إليه يطلبون شيئا واحدا: ربنا أخرجنا من هذه القرية (مكة) رعم لهم بحيوتها حيا شديدا فقد ولدوا في أروصها المباركة نشأوا في ساحاتها بجوار قبوت العتيق ولكن ظللم السلاط عليهم من أهلها لزال كل ما في تلك القرية من نلتور، يطلبون الاتحاق من الكساجوس الذي خنق عليهم الحياة وغتتهم في عقيدتهم وكرستهم وأن يجعل لهم ولأبا يحس بما يحسون ويعمل على استعادهم، ويكون لهم نصيرا.

76- الذين آمنوا يقاتلون بخصيتهم.

يستلخص القرآن لهم ويلفت الأنظار إلى القوة التي يستند إليها صف المجاهدين المؤمنين، وصف الكافرين، فيميز بين الفريقين في البراءات النفسية وفي الأهداف المرسومة لكل فريق. الذين آمنوا يقاتلون بدافع من العقيدة وبفهم من الإيمان ويمتد من الله، ولهم غاية واحدة أن ينتشر دين الله في الكون فينفع كل إيمان بالمنزلة السامية منزلة الكرامة فلا يخضع ولا يسجد إلا لله، ويتم بأمين العدل لجميع حقوقه موهورة، فهم يتنفعون من تكلم المبداي، وتلوح لهم الغاية من جهادهم واضحة رفيعة، كل كل واحد منهم أصبحت أمان البشرية معلقة عليه.

لفريق الثاني فريق للتكفر، قلوبهم خاوية من الإيمان، لم يتحركوا إلا من أجل منافع مادية هائلة، لا تهم قلوبهم رحمة ولا حس للآخرين، وإنما طمع في التسلط والاستبداد، والاستيلاء والتهيب للخيرات، ليحولوا من تسلطوا عليهم إلى مهانة الفقر وظل الاستيلاء. فجميعهم في جميع قصور إنما يريدون أن يقيموا للناس أمنا من الحجارة أو من العباد أو من قسوة والجسد يلهثون وراءها مستعدين، ليحرقوا منافع لهم. ولذلك نجدهم أن مالوا ساعة قفسهم مفلوج عن قريب، وتنفاعهم واه، أن ما يبول لهم الشيطان وما يخدعهم به ليمضوا في القتال وما يكيد به لجمعهم لا أسار له ولا ملاد. فكروا وتكلم من أن فتصاركم عليهم محقق لا محالة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَكَانَ كَيْدُ
 عَلَيْهِمُ الْغِيَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ خَشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا لَنَا
 بِهِ عَهْدُ اللَّهِ فَلَمَّا أَخَذْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْنَا لِلَّذِينَ قَبِلُوا وَالْآخِرَةُ
 خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرُ وَلَا تَلْمِزُونَنَا ۖ إِنَّمَا تَكُونُونَ تَذَكُّرًا لِلْمَوْتِ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي
 بَرَجٍ مُشْتَدٍّ وَإِنْ تُصِيبْتُمْ خَسَفًا لَمَوْلُوا مِنْهُ ۚ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْتُمْ سَيْفًا
 يَمْشُوا مِنْهُ ۚ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّمَا هِيَ أَقْوَامٌ لَا يَكَادُون
 يَفْقَهُونَ حَقًّا ۖ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ
 وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ
 أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ خَفِيضًا ۖ يُعْمَلُونَ طَاعَةً ۖ إِذَا بَرَزُوا
 مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ نَجَسًا فَمِمَّا زَكَّرُوا يَقُولُوا ۖ وَاللَّهِ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
 وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ: تَرَكُوا الْقِتَالَ.

كَيْدُ عَلَيْهِمُ الْغِيَالُ: خُصْمٌ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ وَلَزِمُوا بِهِ.

بَرَجٍ مُشْتَدٍّ: حَصُونٌ مَبْنِيَّةٌ بِنَاءً قَوِيًّا مَثَبًا.

الْحَسَنَةُ: الْحَاصِلُ الْمُلَاقَمُ لِلْإِنْسَانِ.

النَّجَسُ: عَكْسُ الْحَسَنَةِ.

حَقِيقًا: يَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ: يَحْفَظُهُمْ مِنَ الْوَقُوعِ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، أَوْ لِيَحْفَظَ
 مَسَافِهِمْ وَيَقْدِمَ عَلَيْهِمْ.

تَوَلَّى: عَصَى وَلَمْ يُصِغْ إِلَى دَعْوَةِ الرَّسُولِ.

بَرَزُوا: خَرَجُوا.

بَيَّتَ: قَدَّرَ أَمْرًا فِي السَّرِّ.

تَوَكَّلَ: الْقَانِمُ بِالْأُمُورِ، الْمَصْلُحُ لِمَا يَخَافُ ضُلُوهَ.

بيان المعنى الإجمالي:

وَضَعَ عَجَبُ آثَرِ قُرْآنِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَنْظُرُوا فِي تَقَرُّصِ أَصْحَابِهِ. فَقَدْ كَانَ بَعْضُ
 الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ فِي مَكَّةَ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُسَمِّحَ لَهُمْ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَأْذَنْ

لهم، لأنه لم يؤمن له من ربه بالقتال وقصر هم على إقامة الصلاة وأداء الزكاة. ثم إنه بعد الهجرة أمروا بالقتال فذبحوا بطيئون القسام به، وعوض أن يبتهلوا بهذا الأمر الجديد، فأم عامل الخوف في تقوس هذا البعض، واختل القميران الذي كان يحكم أرواحهم، وإذا خشيتهم من المشركين تبلغ حداً يساوي خشيتهم من الله بل لشد. ومضى في تفكيرهم لستفهام، ما التضرع من فرض القتال على المؤمنين؟ وتمنوا أنه إن كان ولا بد فهلا نأخر إيجابه! وأعطى القرآن ما كان يسري في بواطنهم من الخوف ومن القتر. فكان هذا الإعلان، الإيفاض الأول لهم من غلظتهم. ثم عطف عليه بيان الحكمة التي تبصرهم لينثبوا إلى رشدكم: الموازنة بين متاع الحياة الدنيا بما بني عليه من نقص وزوال، القليل الناقص، وشواحب الآخرة السرمدي الموعود به للمجاهدين في سبيل الله. ومن ناحية أخرى قلبن الخروج للجهاد لا بنفس من العمر شيئاً، فإن الموت يدرك كل حي ولا يمنع منه المحصون المحكمة البناء القوية الأساس. ثم أتبع تزييع الموجلين الخائفين بفصح المنافقين وإعلان ما يجري في قلوبهم وبينهم وبين أتباعهم، فكان مما جرى على ألسنتهم: أن ما يحصلون عليه من خير وفضل من وفر الإنتاج وريح التجارة ونحو ذلك هو من فضل الله وما يصيبهم من نكبات هو تابع لحلول النسيء بين أظهرهم. تولى القرآن رد مقالاتهم بجواب حاسم: إن كل ما يقع في الكون من خير أو شر هو بقدره الله وإرادته. ما أئمد غناههم كبأنهم مجتنبين لا يستركون معاني الأخلاقيات التي يسمونها. ذلك أن القاعدة التي يجري عليها أمر الحياة الدنيا هي ارتباط المسببات بأسبابها، ونفلاً من الله التي منها أنه فطر جريان الحياة على انتقاء الصنعة، ورزق كل إنسان العقل الذي يكشف له عن الصلاح والفساد، وأقام دلائل تفصح عن الكون في الأشياء والأفعال من خير أو شر. فإذا لم يستطع الفرد من سجن الله هذه فما يصيبه هو من نصيره وهو مسؤول عنه. ثم أكد ذلك بإعلان أنه بعث محمداً رسولاً يبلغ ما يوحى له به لا دخل له فيما يصيبهم من خير أو شر. شأنه في ذلك شأن المرسلين جميعاً. ولا أتم ولا أبلغ من رغبة الله على الناس وشهادته على ما يعملون.

إن شرع الله الهادي للخير الحاسي لهم من الفساد لا يصل إليه بشر إلا بواسطة الرسول. فمن أطاع الرسول فهو في الحقيقة قد أطاع الله فيما أمر به أو نهى عنه. لا يهلك إعراضهم فما أنت بمسؤول عن إعراضهم. إنهم لفسادهم وتلونهم وجباهم إذا كانوا في مجلسك يحرون عن تفكيرهم لما تبلغه من تشريع وهديّة. ولكنهم بمجرد ما يخرجون من عنك تأخذ طائفة منهم يدبرون في خفاء ومكر الطريقة

لأني بها يتخلصون من كل ما كفروا به. فلا يحزنك أمرهم وأعرض عنهم
وثوكل على ربك فإنه سيمن نوراً ويغنيك أمرهم .

بيان المعنى العام:

77- ألم تر إلى الذين قيل لهم قتلوا

هذه هي الآية الخامسة والأخيرة من الآيات الواردة في سورة النساء مفتحة بـ **بِأَمْرِ** التي تفتت لظنار للمؤمنين، وتثير العجب من التناقض الحاصل. وبيانه: أن مشركي مكة قد أدوا المؤمنين وقتلوا في القتال بهم كما هو معلوم، وطلب بعض الذين أودوا من النبي ﷺ أن يأن لهم في القتال فلم يأن لهم لأنه لم يؤمر من ربه إلا بالابلاغ والاحتجاج. ولعلمهم كانوا ينجون في صدورهم حرجاً من قبول الضيم والسكوت عنه. كل ما أمروا به باعتبارهم مسلمين هو أن يصبروا ولا يثيروا أعداءهم بالقتال، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فبعد أن هاجروا واستقروا في المدينة وتضمن الأنصار للمهاجرين. لأن الله أنبيه في قتال المشركين، وهو أمر من به معظم المؤمنين وأصبحوا يتربصون بغلغ الصير أن يعوزوا بإحدى الحسنين الشهادة في سبيل الله أو النصر وما يصبح به من غنائم. ولكن فريفاً من المؤمنين عند تشريع الجهاد ممن كانوا يطلبون من رسول الله أن يأن لهم في القتال خلفوا لقاء المشركين. فهي حالة غريبة من التناقض تدعو للعجب، فبعد القرآن بأسلوبه المعجز أن يصور لهؤلاء أنفسهم ويبرز ما حدثوا به أنفسهم وأن يرفع ما غشيتهم من الظلمة. مؤزهم للمؤمنين لأنفسهم أنه بلغ بهم الخوف والجبن أن ما أعزهم الله به من الإيمان قد اهتز، فقد أصبحوا بهذا التعرض الذي عرض لهم بخشون المشركين ويخافونهم خوفاً ملوئ خوفهم به بل تجلوه. وفطرت جبنهم قالوا في نفوسهم: ربنا لماذا ألزمنا بالقتال وفرضنا علينا بهذه السرعة؟ ربنا لولا آخرتنا إلى أجل قريب غير بعيداً فأظهرت الآية شدة اضطرابهم وكثفت ما كانوا يحدثون به أنفسهم مما لا يمكنهم أن يبيحوا به في مجتمع الإسلام بالمدينة، هذا المجتمع المتمسك حول رسول الله ﷺ.

كان هذا التشهير أول خطوة ترفع الفضل عن بصائرهم لا لبنا الله رسوله والمؤمنين بما كان يجري في سواطين هذا الفريق الخلف الوجل. ثم أتبع ذلك بالحكمة التي تبلغ شعاب الروح والعقل والضمير فتوقظها. ليظهر إلى الميزان الذي اختل لميتكروا أن متاح الحياة الدنيا قل محدود بجميع المعايير، قليل بالنسبة لما أعد الله للمتقين، وإله لا يفوتكم أي حظ من حظوظكم بالجهاد ولو كان قليلاً. والأجل المقدر لكم لا ينقص منه لحظة بالقتال.

78- أولئنا تـكونوا بـدرككم الموت- بمـتقون حديثا.

إن الحرص على الحياة لا يؤثر في الحقيقة السرمدية: أنه لا يستطيع أي فرد أن يفر من الموت الذي يلاحقه فيلحقه في المكان والزمان المقرر، لا بحول بين الإنسان والموت التجاوزه إلى حصون العقيدة الأصل المحكمة البناء، الرقعة العالية، المانعة للجيش والألحة والذبابات من فتحها، فالموت أقوى من أن يمنعه مانع.

79- ما أصابكم من حسنة فمن الله. وكفى بالله شهيدا.

لنقل القرآن في معالجه لأوضاع المجتمع المعنى الذي كان معظمه ملتصقا حول رسول الله، مطيعا لأمر مولاه، فتعرض لبعض الجبناء وحركهم للجهاد، ورفع ما عسى بصائرهم من تقديم الحياة الدنيا ومتاعها على ما عند الله. ثم تعرض لقريب آخر منحرف في صفوف الجماعة وخطره لشك هؤلاء هم المنافقون الذين عالج القرآن دسائسهم بفضح ما كانوا يشرونه سرا بين المقربين منهم وبما تحدثهم به أنفسهم، بلغ بهم التزوير وصدا الطوبى فيه إذا نالهم ما يحبون فربحت التجارة وأنت قفلاحة ثمراتها ونجت الأعمار، أعلوا أن هذا من عند الله، وإذا انعكس الأمر فأصابهم ما يكرهونه قالوا: هذا بسبب محمد فهو طالع شوم علينا، وكان الرد حاسما ليقطع رواج هذا التصور القامد، فقال تعالى: إن المتصرف في الكون هو الله وحده لا شريك له، فما وقع فيه مما رضى به الناس لو سخطوه لا متدخل لأي كائن فيه، وهذه هي الحقيقة الواضحة ولكن هؤلاء الذين ربطوا الحسنة بالله والسنة بمحمد، هم قد عطلوا عقولهم، هم كالمجاهدين الذي يسمعون الأحاديث ولا يفهمون معنى ما يقال. إن مفالته تلك قد تروج على بعض المغفلين فذلك عيبها الله بالإعلان عن الحقيقة التي أجرى عليها أمر الكون، ومسؤولية الإنسان فيه، على أنصر وجه ولقمة، فقال تعالى ما معناه:

أولا: إن ما خلق عليه نظام الكون هو ارتباط المسببات بأسبابها فلا سبيل لمصدفة ولا لوفوق أي شيء دون أن يكون مرتبطا بأسبابه وهذا التنظيم لله وحده لا متدخل للإنسان فيه، والله مكن الإنسان من قوى العقل التي يميز له بين الخير والشر، ويكشف له ما يحميه من الاختلال والفساد والخسوف. وهذا كله من خلق الله ومن عنده، وإن الله نصب على تلك الأبواب وما يترتب عليها علامات قبي طوق العقل أن يصل إليها وهذا من خلق الله. فهذا هو الجانب الذي فرره قوله تعالى: (كل من

عند الله) وما عفيه بقوله: (ما تساب من حسنة لمن الله)

ثانياً: ما يصيب الإنسان من أمور يكرها مرده في معظم الأحوال إلى تقصير الإنسان في الاستقامة من سنن الله في الخلق، وتباعه لهواه لا لما يقتضيه صالحم العقل وحق النظر، أو تكفير لما تفرغه من الخبث والمعاصي. روى الترمذي بسنده إلى أبي هريرة قال لما نزل: **(إِن يَفْعَلْ سَوْءًا يَجْزِ بِهِ)** شق ذلك على المسلمين، فشكروا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **قلربوا وسندوا، وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشلكها وتكتبة ينكها** ^١.

وبناء على هذا صرح القرآن بهذه الحقيقة: هي أن الله أرسل محمداً مبلغاً لما يصل إليه من وحى الله ليس مؤثراً فيما يحدث للناس من أمور تلتهم أو سبواهم، ولا لهم ولا يبلغ من شهادة الله على ما يقوم به كل فرد من الحيطة والجد أو الكمل والتقريط، ولا أعدل منه سبحانه فيما يربيه على ذلك من أجزاء.

80 من يطلع الرسول فقد أحاط الله بحقيقته.

إن تفرقة المنافقين بربطهم الخير الذي يصيبهم بالله والشو من شؤم الرسول، هي تفرقة بين الله ورسوله، ورد عليهم رداً جازماً بأن من طوىع الرسول فقد أطاع الله. إنه إذا كان الخير في اتباع شرع الله، وشرعه إنما يصل إلى البشر بواسطة رسوله، فلا جرم أن هذه القاعدة تصبح قاعدة ضرورية من أفكارها لا سنده إلا اللحد. فمن أعرض عن قبول الدعوة فلا يلومن إلا نفسه وما أرسلناك لتكون حارماً عليهم ولا مسؤولاً عن إعراضهم عن الحق.

81 ويقولون طاعةً وسكناً.

ثم فضح القرآن مكرهم بالتلون، وفساد طبيعتهم، فهم لا يفتون جهاراً ليعرّجوا بما عدهم ولكنهم يظهرون الطاعة إذا كثقوا في مجلسك ويقولون بطريقة لا ليس فيها: **أمرنا؛ أأنا نطيعك في كل ما تبغنا من تشريع ونصل به، ولكنهم بمجرد ما يخرجون من عندك تعد طائفة منهم سوا الطريقه التي يمكنهم بولسطنها أن يتصلوا مما قالوه والزموا به.**

فلا يبعك أمرهم ولا تكثر بهم، ولا تخش خلافتهم بالله رهيب عليهم بسجل كل ما أعدوه في الخفاء، سيولجهم به في صلبهم فتوكل على الله واعتمد عليه فإنه حافظك وراعيك وكفاك رعاية الله لك واعتلاك عليه.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٥٤﴾
 وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى
 أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
 لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيَاطِينَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٥﴾ فَقَبِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَذِّبُوا نَفْسَكَ وَخَرَضِ
 الْكُوفِينَ غَضَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَى بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ نَأْمًا وَأَشَدُّ عِقَابًا ﴿٥٦﴾
 مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ
 كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٥٧﴾

بيان معنى الآيات:

يتذكرون القرآن: يتأملون في مضامينه.

جاءهم أمر: معوا خبرا.

أذاعوا به: أفضوه.

ولو ردوه: لو أبلغوه لرسول الله.

يستبطلونه: يعلمون الحقيقة الخفية منه.

يتذكرون القرآن: يتأملون معانيه.

تكيل: للذئاب الذي يرتدع من شهادته فضلا عن المسلم عليه.

كل: نصيب من الخير أو الشر.

مقيمًا: مطلقا.

بيان المعنى الإجمالي:

عجب للمناقضين كيف لا يتأملون في القرآن، يخبرهم عما يحدثون به أنفسهم، لو
 يتأملون به في خلواتهم ثم هم لا يجدون أي اختلاف بين الواقع وما لحبرهم به،
 كما أنهم لا يجدون في مضامين القرآن لاختلافا على عكس المثل البشري. إن في
 ذلك لدليلا على أن محمدا صادق أمين فيما يبلغه عن ربه.

ثم تولى القرآن تربية صفة المؤمنين الذين يعمدون إلى نشر ما يبلغهم من الأخبار،
 دون تثبیت، مع أن مختلفيها إنما بثوها ليشنوا بها حربا على المسلمين للتضليل،
 بلإهمهم بقرب حصول الخوف، ليرتكبوا، لو الوضع وضع لمن ليرتاضوا. وجه
 إليهم اللوم وعلمهم أن عليهم أن يعودوا لرسول الله لو لأهل الخبرة والرأي
 ليعرفوهم بحقائق تلك الشائعات وما تخفيه وراءها. إن هذا التأليب والتعطيم والهداية

هو من فضل الله عليكم، أخرجكم بواسطتها من اتباع الهوى والشيطان وبهذا الفضل خذل للشيطان فليس له عليكم من ميل إلا قليلا مما أثره لضعف البشري.

بعد ذلك أعاد القرآن التأكيد على لقل في ميل الله فأسر رموله بالقتال في ميل الله أولا ثم أمره أن يستحث المؤمنين عليه ثانيا . وتشير الآية من طرف خفي إلى أن الله مؤيدهم ومينصرهم لأن بأسه سبحانه أقوى وأعظم، وأن تتكلمه سيكون بلغا درجة لهم سيكونون عبرة وموعظة لغيرهم. ثم أرشد المؤمنين كي يراعوا في شفاعتهم إبراز الحق، وأن من يتوسط بشفاعته ليحق الحق ينال حظه من أجر العادل الذي توسط لديه، وأن من توسط للظلم يكتب له فسطه من الإثم. والله مطلع على ما يجري في السر فليستقم النفعاء.

بيان المعنى العام:

82- ألا يتدبرون القرآن... كثيرا.

تولى القرآن الرد على المتدبرين في الآيات المبينة، وأضاف إلى ذلك ما ورد في هذه الآية. كيف يرفضون رسالتك، ومعجزاتك القرآن، وتوصيه بين أيديهم! فمن المحبب لهم لا يتأملون في معانيه ليوقنوا أنه من عند الله وأن الذي جاء به هو رسول الله، ولقد نظروهم إلى ناحيتين: إحداهما أنه يخبرهم بما حدثتهم أنفسهم به دون أن يطلع على ذلك أحد وما فضحه ما تكلموا به في سر مع أتباعهم، فكان القرآن موافقا لما تم في الواقع لا يختلف ما صرح به عما كتموه.

ولو كان من عند غير الله لظلم على الغريب لاختلف ما يخبر به عما حصل ولظهر تنافسه مع الواقع طبعيا. وثانيهما أن القرآن تسابح نزوله السفين المتواليه، ولا يجد التناظر فيه اختلافا بين ما تضمنه من معاني وأحكام وقصص وتهذيب، مما يدل على أنه محكم من عند الله.

83- ولا جامعه أمر من الأمن...إلا قليلا.

تولى القرآن تربية المؤمنين في عصر الرسالة وقبيل يلبه من الأعصار. لذلك أن الأعداء يحاربون الحق بطرق عديدة، منها القتال بالسلاح، ومنها الحرب النفسية وإشاعة الأخبار الزائفة ليربكوا مسيرة الأمة ويدخلوا الشكوك والأوهام هم يعملون على بث الخوف حيث لا خوف، وينشرون الأخبار المظمتة ليتولخس المؤمنون في اليقظة والاستعداد. هذه الحروب النفسية لها أثرها البالغ في خلخلة المجتمع، وربما تيمر للأعداء تنفيذ مخططاتهم ومكرهم. وليس كل المؤمنين على درجة واحدة من الفطنة والنبه، ولم تكن المعطيات الخفية والبعيدة حاضرة عند جميعهم. وبناء على ذلك حصل في مجتمع المدينة، كما يمكن أن يحصل في كل

مجتمع، أن الأعداء يختفون الأخبار الزائفة ويروجونها، فيتلفها المسلمون من غير ذوي الخبرة ويتحدثون بها، ومن المعلوم أن الخبر إذا راج وسمعه الناس مكررا أثر ذلك في قناعاتهم به وارتفع من احتمال الصنق والكتب احتمالا متساويا إلى ترجيح صدقه ؛ فيكون هؤلاء الأغتر الذين روجوا ما سمعوه قد أعاثوا الأعداء على تحقيق ما خططوا له من مكر. فوجه لهم القرآن اللوم على هذا التسرع بالحديث بكل ما يسمونه، ورياءهم القويبة الاجتماعية ، بما يفرض عليهم أنهم إذا سمعوا خبرا لا يفتلونه بمجرد سماعه، وإنما عليهم أن يتثبتوا في صدقه بالعودة به إلى رسول الله : « لو إلى المئثرين للأمور لتنظيمية في الدولة، المظلمين على خفايا الأمور .

وحرب الممانعات ما نزال من أشد من أنواع الحروب، ومساعدة مروجيها على تحقيق مكائدهم خطر كبير، وما يزال الدهماء لصعب تكويهم السيلسي والاجتماعي يتلفون كل ما يسمعون ويروجونه، وينفقون لذلك لينزروا في مستوى الذين يعلمون ما خفي على غيرهم، ولكنهم في الحقيقة كانوا إلى الماكزين، وحربا على أنفسهم من حيث لا يشعرون. ويمش الله على المؤمنين بأنه فضله قد نكلهم من تحكيم أوليائهم، والانسباق مع شوائبهم التي منها تروج كل ما يسمونه حيا في الظهور، وأنهم كانوا بأسورين لغواية الشيطان الذي يظلمهم فيتموه فنولي الله فضله تثبتكم على الحكمة ورفع مسئولكم الإنساني. فلم يبق للشيطان عليكم من سبيل إلا في حالات قليلة، هي أثر للصنف البشري.

84- قتال في سبيل الله تحكيلا.

تابع القرآن بناء على ما أمر به من قتال، وما أرشده لحمالية المسلمين من مكر المنافقين والأعداء، مؤكدا أمره بالقتال الذي يهدف إلى إعلاء كلمة الحق، وإعزازه البشرية بالمبادئ له وحده لا لإذلالهم وتحويلهم ودون طمع في خيرائهم ولا الاستيلاء على أوليائهم وأراضيهم، فأمر رسوله ألا بالقتال في سبيل الله، ثم أمره أن يحض المؤمنين على الاستعداد للقيام بهذا القومر نفسيا وماديا. وبث الرجاء في قلوبهم بأنه سيفل شوكة الذين كفروا. والله سبحانه في عزته وقدرته قوي منهم وسينكل بهم . فلا تترأخوا فيما هو موكل إليكم من الاستعداد والجهاد.

85- من يشفع شفاعة حسنة...مقينا.

تبع القرآن إرشاده للمؤمنين عندما تبلغهم أخبار مؤثر في الأمة، بلرئادهم إلى ما كان جاريا أيضا فيهم، قبل أن تتألف منهم هذه الأمة التي أعدها لقادة العلم إلى

الخير. كانت لوساطات شائعة في الخير لوفى الشر، وفي إقامة العدل أو الظلم والجور، وفي التأليف أو التفريق، كانت هذه الوساطات تتطلق من العلاقة التي بين الشافع وبين المشفوع فيه، ولا تحتكم لميزان الخير ولا تنظر إلى ما يترتب عليها في المجتمع، والقرآن يعضد الأمة لتحمل عبء الهداية العامة التي لا تستطيع أن تقوم به إلا إذا كانت هي مستمسكة بقيم الصلاح والعدل، فإين لهم أن الشفاعة يتحمل فيها الشافع قسطه من آثار شفاعته، وإن العلاقات الخاصة والمواطف لا يقوم بها مجتمع يدعو بمسلكه إلى الهدى، وحمل تبعاً لذلك كل وسيط مسؤوليته، فإن أعلن الحق وعترف المشفوع عنده بما يبعده عن الجور، كان له من الأجر مثل العادل وفاعل الخير الذي اهتدى بشفاعته، وبالمقابل فقبضه إذا شفع فأعلن الظلم على ظلمه وفاعل الشر على شره فإنه يتحمل قسطه من الإثم. ركز القرآن هذه القيمة في المجتمع بأن الله مطلع على ما يجري من صور الشفاعة التي عادة ما تكون في صورة المعنى المباشر غير الظاهر. وهذا أحد معاني العقيدة الذي يعبر أيضاً عن الحافظ والمقدر وموصل الأقوات، والظاهر أن أقرب المعاني لموقع العقيدة في الآية هو المطالع.

وَإِذَا خِيفَ حِجْرُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ مِنْهُمْ أَوْ دُفِعُوا إِلَى اللَّهِ أَوْ إِلَى رَسُولِهِ فَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَهُمْ وَإِنْ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ حِسَابًا ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجْمَعُونَ إِلَى اللَّهِ الْغَيْبَةِ لَا يَتَذَكَّرُ بِهِ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ خَبِيرًا ﴿٢﴾ • فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُبْذَرُونَ أَنْ تَهْذَبُوا مِنْ أَصْلِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴿٣﴾ وَدُّوا أَنْ يُكْفَرُوا لَكُنَّا أَكْفَرُوا فَأَكْفَرُوا سَوَاءً فَلَا تُنْفَعُوا مِنْهُمْ آوِيَاءُ حَتَّى يَسْجُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا لَنَحْذَرَنَّ مِنْهُمْ وَإِنِّي لَأَتْلُوهُمْ حَشِيًّا وَخَسِمُوهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا مِنْهُمْ ذَلِكُمْ فَصِيرًا ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَبْثُوحٌ أَوْ جَاءَكُمْ خَيْرٌ فَيُدْوَغُهُمْ أَنْ يُغَيِّبُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا أَوْ مَنَّهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَغَلَبُوكُمْ عَلَى كُلِّ مَقْعَةٍ فَلَقَاتَكُمُ أَهْلَكُوكُمْ فَلَمْ يُغَيِّبُوكُمْ وَالْقَوَى أَلَمُ الْإِسْلَامِ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٥﴾ سَخِمُونَ وَآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَأَمَّا تُمْنُونَ كُلٌّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ

أُرْكَبُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ زُلْفَى الْبَرِّ السَّلَامِ، يَكُونُوا أَعْيُنُهُمْ تَخَذُونَهُمْ
وَأَقْتُلُونَهُمْ حِينَ يَفْقَهُوهُمْ، وَأُولَئِكَ كَفَرْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ لَعْنًا مِمَّا جَاءَ

بِإِيَّانِ الْمَعْنَى الْإِفْطَاحِ

الحسب العليم، المحصى.

فَتَنَيْنَ الْفَرَقَيْنِ.

ولما: صديقاً ثبته موك، وتعهد عليه.

حَصَرَتْ صُحُورُهُمْ: ضاقت صدورهم وكفوا في حرج.

الْفَتْنَةُ: المحنة في الرجوع إلى الكفر.

لُرْكَبُوا فِيهَا: رجعوا إلى الكفر على ألبوا ما يكون الرجوع.

بِإِيَّانِ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي.

أمر الله المؤمنين بالتزام لبب لتخاطب من حياه أخوه فالواجب عليه أن يرد عليه
تحيته مساوية لو أحسن منها، وعلى المسلم أن لا يستهين بما لبب الله به هذه الأمة،
فإن الله يحصي كل ما يصدر من الإنسان ليجازي عليه، إنه الله المتقرد بالأكوهية
ربب خلق البشر على أنهم مجزيون بأعمالهم، الجزاء الذي يلقاه كل فرد يوم
القيامة، اليوم الذي يحشر فيه الناس جميعاً لرب العالمين، إنها حقيقة لا يدخلها
الشك، أخبر الله بها، وكلامه سبحانه أعلى أنواع الحديث الصادق الذي لا يتخلف.

ثم انتقل القرآن إلى عرض حالة عجيبة يتكلمها، حاصليها أن المؤمنين، قد انفرقوا
إلى فرقتين في موقفهم من بعض الذين اختاروا البقاء بمكة ولم يلتحقوا بالمهاجرين،
وكانوا المسلمين بالمدينة وأخبروهم بأنهم أسلموا، وقد استغلهم المشركون فوكلوهم
بالقيام على تجارتهم، حتى تسلم لهم في طريقها إلى الشام، فبدا أصبح تحت رقابة
المسلمين، خذع بعض المسلمين بهد وقالوا لا تعرض لهم فويخهم القرآن إذ
تخذعوا بهم، وديهم إلى أن الله قد أركبهم فقلهم إلى الكفر تبعاً لما كسبوه بفساد
عقائدهم وخبث تدبيرهم، ثم واصل توبيخهم عن طريق مذاق إنكاري: فتريدون أن
تهدوا من حكم عليه الله بالضلال، ومن بضلال الله فمن تجد له ميلاً بجله إلى
الحق، ثم كشف سوء دخيلتهم بأن كل ما يجيئون أن يصلوا إليه هو أن يردوكم إلى
الكفر لتكونوا سواء في الضلالة، فإياكم أن تتقوا فيهم لو تفرّبوهم لأنفسكم فتقضوا
إليهم بأسر فرمكم لو تعاونوا عليهم في نصركم، إن ثبتوا على ما هم عليه فلا تهلوا في
شأنهم وخذوهم وقتلوهم في أي مكان وجنتوهم فيه، واستثنت الآية من كان من
هؤلاء له صلة بقوم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمن المتبادل.

كما أن الله لن يقول الذين قتلوا طالحين لدخول في الإيمان وهم مخرجون فلا يريدون قتلكم ولا قتال قومهم. إنيهم وإن كفوا لنم يكن التزامهم بالانضمام إلى الإسلام صريحا كاملا إلا أن الله لن لنبيه في قبولهم، لأن عدد المسلمين كان قليلا مع صولة كبيرة للشرك، فهؤلاء لو لم يقول الله هدائهم أبقاهم على الكفر لتسلطوا عليكم، فقبولهم على هذا النحو، مع استسلامهم وفقدانهم لكم خير لكم، وانتهى الإذن بقتلهم.

بيان المعنى العام

86-87، إذا حميتهم بتحيتهم ومن أسدق من الله حديثا.

يتابع القرآن هدايته لهذه الأمة في علاقاتها الاجتماعية، فيقيم قاعدة التواصل بين أعضاء المجتمع على أسس المساواة أولا ثم على تمكين تلكم العلاقات. أرشدت الآية (وإذا حميتهم بتحيتهم...) المسلمين عند لقاءهم بالابتناء بتحية بعضهم بعضا، وتحية المسلمين هي: السلام عليكم. ومن بدأ صاحبه بالتحية فالواجب أن يرد للمسلم عليه بأن يسلو مقلته أو يكون الرد أحسن: وعليكم السلام ورحمة الله، على من سلم مقصرا على: السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته لمن أضاف ورحمة الله أو أضاف ورحمة الله وبركاته. وهذا الأدب يليق أن يكون خلفا للمسلمين، فلا نغصره على: السلام عليكم، ولكن كلما تلطفت معك أخوك المسلم فحيك بمناسبة عيد أو نجاح أو عزم أو مولود... مباشرة أو بآي واسطة من رسالة أو خطاب بالهاتف أو بوسائل الاتصال، فإن المسلم بما هداه الله في هذه الآية يسرع إلى رد التحية بأحسن منها أو بمثلها.

وقطع هذا الأدب ما كل يخيّل لبعض المستكبرين أن التكافؤ في القيمة الاجتماعية هو الذي يوجب رد السلام، أما المستضعفون فهم لخط من أن يرد السلام عليهم عليه القوم وكبراه. ويؤكد القرآن بهذا الأدب، أن الله عليم بحصى ما يصدر من الإنسان: الكبير والصغير، وما كان من الأدب، وما كان من الشكر لومن القول للطيب أو من القول للسهل. فلا يتهاون المؤمنون بما يؤكد تقاربهم، والله سبحانه يجازي الإنسان بما يصدر منه من أدب أو تهاون به.

ويؤكد القرآن ما تصف به الله من كونه عليمًا محصيًا، بالتذكير بما تصف به سبحانه من صفات الألوهية: فهو الله المتفرد بالألوهية وقدرة تقديره لا خلف فيه أنه سيجمع البشر جميعا ليوم القيمة لا يستثنى أي إنسان من هذا المصير المحتوم وهو أن يفنى لا شك في ذلك. أخبركم الله به وعرفكم بخومته وما ينتظر البشر فيه. وما يخبر به الله سبحانه في كماله وجلاله هو الصدق الذي لا يخالف الواقع

أبداء، ولا يبلغ أي إخبار في أحقيقته وصحته كلام الله. وهذه الآية تحتل ثلثيها الآية الواردة بعدها.

88- فما نكته في المنافقين- فلن تجد له حيلة.

إنه من أوائل سورة البقرة وما تلاها، يتبع التحذير من خطر المنافقين المتسعين في صفوف المسلمين، وأن على المسلمين ألا يتخدعوا بظواهرهم ولا يكاذبيهم وقد وقع في المجتمع المسلم اختلاف في شأن بعض المنافقين، فحين تمكنوا من إخفاء حقيقتهم على بعض المؤمنين فصلوهم، وترجع عنهم أنهم مؤمنون صالحون. ويذكر ابن عباس أنهم قوم من أهل مكة كتبوا إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالمتنبية لهم مؤمنون بالزعم من أنهم لم يتمكنوا من الهجرة لأسباب وجوها وواصلوا إقامتهم في بلد الكفر، ومعلوم أن الرسول ﷺ كان من مؤمنيه، أن ضروب حصارا على تجارة المكيين. وذلك لإخضاع أهل مكة المتقوين بالفتنة التي هي سبب وفرة أموالهم وبالتالي عوهم واستكبارهم، وأصبحت الطرقات الواصلة بين مكة والشام غير آمنة بموقع المدينة في وسط طريق التجارة، ومكة بولد غير ذي زرع، فكان الحصار شديدا عليهم ومؤنسا بأنبياءهم. لذا كلف أهل مكة هؤلاء الذين ملأوا بعضا من أهل المدينة بأنهم مؤمنون، فسلموا لهم أموالهم ليأجروا بها في أمن من تعرض جيش المؤمنين لهم، واتحاز بعض مسلمي المدينة لهم، والتسعين بضيقهم ولم يررض معظم الصحابة بهذا الإيمان المزيف، فوبخ القرآن المصنفين لهؤلاء المنافقين، وكان السؤال سؤال إنكار، كيف تختلفون في شأنهم والله قد أركبهم، فظلمهم إلى الحالة التي كانوا عليها من الكفر، وما كان ذلك ظلما لهم، إنه سبب تضليلهم وإصرارهم على الكفر ومحاوله خداع المسلمين، وهو مؤذي قوله: **(ما سمعوا)** ثم واصل تأليب المخدوعين: ما هو هدفكم من تضليلهم وهم قد ضلوا، أتريدون أن تجعلوا الذين أصلهم الله بما كسبوا مهينين؟ إن من جازاه الله بما صنع، يستحيل أن تجد له طريقا يعود به إلى الإصلاح.

89- ودوا لو تسكبرون- ولها ولا تسبر.

ثم كشف عن دخليتهم بأنهم يحبون لكم الكفر وأن تسبوا معهم في ضلالهم. بهذا يتبين لكم الفارق الفاصلة بينكم وبينهم، فلا صلة تجمعكم بهم. فليأكم أن تركتوا إليهم، ولا تكن بينكم وبينهم موالاة تتأصرون بها، وحتى لا يختلط عليكم الأمر لو تخدعكم الشبه، فإن السمة التي تدل على صدق الإيمان هي المهلجنة في سبيل

مرضاة الله إلى المدينة المنورة فمن قد قعد فعوده شارة ضلاله وكفره، فطبقوا عليه أحكام الكفرة.

بهذه العلامة الفارقة يكون موقفكم منهم، فإن هم سكنوا إلى البقاء في مكة ولم يهاجروا فعاملوهم معاملة الكافرين الذين لشهروا الحرب على الإسلام، كونوا أقوياء في مواجهتهم، خذوهم وقتلوهم في أي مكان كانوا، وإياكم أن تعتصموا على مواليتهم فتقتلهم أسراركم أو ترتبوا جهالكم على الانتصار بهم.

90- إيا الذين يصلون إلى قوم، سبيلا.

ولما كان من توليت الأمة الإسلامية لها تقى بعبودها ولا تفضيها، استنكس القرآن من أولئك الذين حرص المسلمون على قتالهم.

أولاً: الذين ينسبون إلى قوم عامتوا رسول الله ﷺ على عهده القتال

ثانياً: الذين وردوا إلى المدينة مسلمين يمينت مع رسول الله ﷺ لا يقتلون قومهم معه، ولا يقاتلون المسلمين، وكان ذلك قبل فتح مكة. ثم نسخ هذا الحكم لما قوي المسلمون فمن يدخل في الإسلام لا يتخير من أحكامه ما يوفق روابطه السابقة. اهتت الآية بهؤلاء فأوضحت أنهم صنفون في إيمانهم، لأنهم كانوا محرجين (حسرت صدورهم) موزعين بين إوفاء لأهل ملتهم الجديدة (المسلمين) لا يرضون أن يقتلهم وبين ما تامل في نفوسهم من احترام صلة القرابة التي تجمعهم بمن بقي مشتركاً من أهلهم، ولكنني منهم رسول الله ﷺ بذلك ليأمن جانبهم ويضعف بذلك حزب الكفر في أول الأمر، ومن كان من المسلمين يحد في هذا الاستثناء مهانة للكفر، عرفه القرآن: بأن الله لو شاء أن يمدحهم الإيمان لسلطوا، عليكم فوضعكم مع مهانتهم خير لكم، في الوقت الذي ما زلتم فيه قليلي العدد، فلما أمنت جانبهم، وعبروا عن إنيادهم لكم ورضاهم بالإسلام، فإن الله الذي أمركم بقتال الكافرين لم يأذن لكم بقتال هؤلاء.

91- مكنما ردوا إلى الفتنة أو كسوا ألبها، مكنما مهيئا.

ثم تعرضت الآية لنوع آخر عرفهم بأنهم لا يهمهم إلا أن يضمموا الأمر لأنفسهم هادنوا المشركين ليأمنوا على مكاسبهم وهم في مهانتهم هذه يرضون بالعودة إلى الكفر على أسوأ وجه، فقد طلب منهم كفار قريش أن يسجدوا لغير الله فسجدوا، ويريدون أن يأمنوا بطشكم فظهروا لكم الإسلام، وهم في بواطنهم لا يهمهم الإسلام ولا الشرك ولكن كل مهم أن يقرزوا بالأمن من جميع الأطراف، فعلاقة هؤلاء بالمسلمين علاقة غير واضحة، ولذا خالف القرآن بينهم وبين ما تقدم، فعلى

للمسلمين أن يكونوا منهم على حذر، ولا يكتفى منهم بالقول، فإذا لم يعتزلوا قتلهم، ولم يقتلوا لهم ما يفيد طاعتهم نكس، وأعلموا أعداءكم عليكم أو علموا ما يؤذيكم، فادفعوا مكرهم بالاستيلاء عليهم وقتلهم أينما كانوا، وهؤلاء لئلا عجبهم، قد جعل الله لكم عليهم الحجة الواضحة من أفعالهم فلا نخشوا ملأما على التشكيل بهم.

وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقِيٍّ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقِيٍّ مُؤْمِنَةٍ إِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ يَتَنَبَّهُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ فَإِذَا هِيَ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقِيٍّ مُؤْمِنَةٍ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ فَيْسَاهُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوَفَّا مِنْ اللَّهِ بَرَاءً اللَّهُ عَلَيْهِمَا هَيْكَمَا بِهِ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ كُلَّهَا لِيَهَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

رقية: رقيق، إنسان فقد لحريته.

فدية: المال الذي يدفع لعائلة القتيل ونوعه ومقداره يعلم من الشرح.

بصدقوا: يتكفلوا عن طلب الدية.

ميتلق: عهد مسالمة.

بباز المعنى الإجمالي:

حفظ الإسلام للمؤمنين حياتهم، فالمؤمن في المجتمع الإسلامي لا يخشى على حياته، ولا يتصور من مسلم أن يقتل أخاه المسلم إلا إذا كان عن خطأ. ومن قتل مؤمناً خطأ فالواجب، لجبر هذه الواقعة الأليمة أن يحضر عبداً مسلماً فيعوض للأمة الإسلامية عن خسارتها بتكميل إنسانيته. وأن يدفع لسرة القتل (العاقلة) دية لعائلة القتيل مقدر نوعها حسب ثروة مجتمع القتيل من أهل النعم لو من أهل النقود. وإذا كان القتيل مؤمناً وأهله كثر ليس بيننا وبينهم عهد مسالمة فالواجب تحرير رقية مؤمنة فقط. أما إذا كانت بيننا وبين قومهم معاهدة عدم اعتداء فالواجب في هذه الحالة الدية تُسلم إلى أهله المعاهدين وتحرير رقية مؤمنة. ومن لم يتمكن من تحرير رقية مؤمنة لغزوه أو لنعم وجودها، كما هو الحال الآن، فعلى القاتل خطأ أن يصوم شهرين، ستين يوماً، يتلح الصوم، فلو قطع صومه وجب عليه استئناف الصوم للمتتابع. وذلك قصد لي يتوب الله عليه، لأنه لقي أمراً عظيماً، إذ الخطأ

يتحمل المخطئ فيه نصيباً من المسؤولية لأنه في معظم الأحوال لا يكون إلا عن تقصير قل أو كثر.

الحالة الفظيعة الرابعة أن يقتل مؤمناً متعمداً. ومن قتل مؤمناً متعمداً فالوعد الذي حكم به الله عليه أنه سيخله جهنم وسيخل في العذاب، على معنى طول الأمد الذي يقضيه في جهنم، لو أنه لا ملجأ له في الخروج منها أصلاً، ومع ذلك لعنة تلحقه لا يجد منها فكاكاً، وعذاب عظيم لا شك في إهلاكه وتعذيبه به.

بيان المعنى العام.

92- وما كان لمؤمن ولا مؤمنة...عليهما حكيماً.

بعد تفصيل بعض ما يتعلق بقتل الكافرين وقتلهم فصل القرآن تشريع من يقتل نفساً بشرية في غير الجهاد في سبيل الله، وهو تفصيل وتوضيح أيضاً لبعض العلاقات الاجتماعية وما يترتب على الخطأ والعمد فيها إذا بلغت إلى القتل.

للتحدث الآية بأن صلة المؤمن بأخيه المؤمن سميت إلى حد أن الإيمان مسيرهما كشخص واحد، يفهم هذا من قوله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) أي إنه لا يتصور أن يفسد المؤمن إلى قتل أخيه، إلا أن يكون ما وقع ثم على سبيل الخطأ، فالمسلمون قد حولهم الإيمان من قوم هانت عندهم حياة مجرمهم أخذوا بثأر أو ردا لمهانة أو للاستيلاء على مال حولهم إلى أن القتل أصبح مجرم متصور بينهم إلا أن يكون خطأ لا عمداً.

والقتل نعد على الحياة، لا بجساع الإيمان الذي من ثوابه أن الحياة مصبونة لا ينصرف فيها إلا الله وحده ولا يقدم أحد على إزهاقها إلا بإذنه. ولم يبق من أمور القتل إلا أن يقع على سبيل الخطأ. فنحقق بهذا الدين أن للناس على حياتهم التي هي من أعراسا بحرص البشر عليه، وهي من أعظم مهمات الدول والحكومات.

علاج الإسلام ما لا يمكن التحرز منه (قتل الخطأ) وفصل لعناته كما يلي:

أولاً: إذا قتل مؤمن مؤمناً خطأ، فكون القتل وقع خطأ لا يوقع الواقع المؤمن: أن نفساً بشرية قضى عليها، وما يهدف إليه القرآن في هذه الحالة هو التخفيف من وقع المصيبة التي رزنت بها عائلة القاتل بفقدانها عنصراً من عناصرها، ورزنت بها الأمة الإسلامية بموت أحد أعصاتها، والمؤمن عزيز على المؤمنين. وتخفيفاً من وقع المصيبة لوجب على القاتل أن يحرر مؤمناً من أسر الرق، فيجبر للأمة الإسلامية ما خسرت باستكمال الرقيق المؤمن شخصيته، بفكاكه من أسر الرق، فيتحول بتحريره إلى عضو كامل في المجتمع الإسلامي. وتجبر العاقلة وهي الأسرة الكبيرة للقاتل، تواسي القاتل فيما وقع فيه وتواسي عائلة القاتل، فتتفق لعاقلة

الدية. التي تختلف بين كون القاتل من سكان المدن، فتدفع لهم مائتين وخمسين ولربعة الاف غرام من الذهب (250 ك 4) من الذهب أو ما يوازي قيمتها من العملة المحلية. وإذا كان من أهل البادية الذين ثروتهم من الإبل، فإن قيمة الدية مائة من الإبل معين منها بالمئة للنبوية، وإن كانت ثروتهم من الشاة فثلثا شاة. ولأسرة القاتل أن تنفو عن الدية ويحطوا بنصف المطالبة، وتدفع موزعة على ثلاث سنين. والدية لحكام مفصلة تفصيلاً بيّنا في كتب الفقه.

ثانياً: إذا قتل مؤمن مؤمناً خطأ، وعائلته كفارة معدية للأمة الإسلامية، فالواجب في هذه الحالة تحرير مسلم من أسر الرق. ولادية.

ثالثاً: إذا كان القاتل مؤمناً من قوم كافرين بينهم وبين الدولة الإسلامية عهد مسالمة، فالواجب تحرير رقبة مؤمنة. ومعها الدية كما نقرر في القسم الأول.

إنه في جميع الأحوال المذكورة التي يجب فيها على القاتل أن يحرر رقبة، ولكلّه أن كان فقيراً لا يتمكن من قيمة العبد الذي سيحرره، فإن قواجب عليه في هذه الحالة أن يصوم شهرين متتابعين.. سنين يوماً.

واعلموا أن هذا التشريع هو فاتح للأمل في توبة الله على القاتل لأنه أنى أمراً عظيماً، وإن كان عن خطأ. لأن المخطئ في معظم الأحوال ما أخطأ إلا لكونه ناسئلاً في بعض الاحتياطات، وقصر في الحذر.

93. ومن يقتل مؤمناً متعمداً عذابه عظيم.

رابعاً: فصد القاتل لإزهاق روح مؤمنة، هذا القاتل هو عنصر فسد وفقد إحساسه بصلاته الإنسانية والإيمانية، وقُست روحه ومداركه فمسوة فطع بها الرزايط التي تجمعها بالبنوية وبالأمة الإسلامية. إن شاعة قتل تتجاوز كل وصف وتترسّل إلى أخط دركات المصعقة. إن القاتل لا يتطلى ثم ما أقدم عليه كفارة، لا صيام ولا دية. لا يأمل في أي فضل من الله وهو معنى الغضب. وأعلن أنه أبعد بعداً لا أمل معه في رحمة الله التي وسعت كل شيء: البشر والحيوان والجماد والصالح والمعرّف على نفسه، فهو مستكبر منها والعياذ بالله، إن جزاءه في الآخرة أنه خالد في النار. وهل خلوده تعبّر عن طول مكثه في النار طويلاً مسترسلاً إلى أملا بعيدة، لو هو لا يخرج من النار أصلاً، وهل تقبل توبة القاتل أو لا تقبل ؟ اختلف علماء الدين في ذلك اختلافاً كبيراً، وقد يكون من الحكمة أن يفقد قاتل الطمأنينة في بقية عمره، فهو لا يعلم مصيره ولا يستطيع أي عالم أن ينفث في روحه برد اليقين، فيكون هذا أول جزائه من العذاب.

يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقِيُنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَنَّا إِلَيْكُمُ الْكَلِمَ الْكَافِرَةَ ءَمُومًا يَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ لَدُنَّا فَعِندَ اللَّهِ مَغَابَهُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ لَمَنْ أَلْفَنَّا عَلَيْكُمُ فَتَقِيُنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۖ لَا يَتَّبِعُ الْمُتَّقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَرَضَ أُولَى الضَّرَرِ وَالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۖ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَمْدَ ۖ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ دَرَجَتَيْنِ ۖ غَيْرَ رَحْمَةٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝

بيان معنى الألفاظ:

الضرب في الأرض: السير فيها.

تقينا: تأملوا وتنبأوا.

عرض الحياة: مخاض الحياة.

أولي الضرر: من بهم نقص بقعد بهم عن القتال.

وعد الله الحمى: وعد الله الجنة.

بيان المعنى الإجمالي:

خرجت سرية من جيش المسلمين فلقبت في طريقها رجلا على جمل ففلكته بالزعم عن كونه خاطبهم بما يعيد إسلامه. ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بالحادثة أنكر على القاتل لشد الإنكار، ونفع دينه لأهله. ثم أنزل الله هذه الآية إنكارا وتوبيخا للقاتل، وإرشادا وتشريعا عاما، فالتشريع في إيجاب التثبت وعدم العجلة في جميع الأمور. والتوبيخ كإن شديدا مولانا للفعلة المنكرة. وبخهم على الإمراع بالقتل والدفع إليه حب الاستيلاء على الغنيمة، وبخهم على عجلة نالبة لأن الله وعد المؤمنين بالنصر، مما يترتب عنه مغانم كثيرة، وبخهم ثالثا لأن حلهم كان كحال القاتل، كانوا كافرين فعبروا عن دخولهم للإسلام بكلمة الإسلام، فلم لم يُصنقوا لقتلوا. ولقد إرشادهم إلى عدم العجلة وحرك ضمائرهم ليرهبوا، وذلك لأن الله يعلم الدوافع الخفية.

ثم نوه القرآن بالمجاهدين بعد اللوم الموجه للذين لم يتثبتوا منهم. وفي تنبيهه بهم ميز المجاهدين عن المؤمنين الذين لم يشاركوا في الجهاد، مبدعا عذر غير الممكنين منه لعجزهم عنه. وقد وعد الله في هذه الآية وعدا مؤكدا للمجاهدين بأموالهم

وأنفسهم في سبيل الله بالمنزلة الرقيقة في الجنة، وأنهم سيدخلونها بصحيفة أعمال غير ملوثة بذنوب، لأن من جزائهم أيضا مغفرة لتبويهم وتكسروا عليهم الرحمة بما يكسبهم الرضا. ولرفع كل ليس صرح لقرآن بأن الله وعد ووعد لا يخلف: أن مآل المومنين للمجاهدين وغير المجاهدين، مآلهم الجنة، لا يحبط تخلفهم عن الجهاد صالح أعمالهم.

بيان المعنى العام:

94- يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في طريق

فصلت الآيات السابقة بعض ما يتعلق بقتل المؤمن وغيره. فذكرت قتل الخطأ وقتل العمد. ومن صور قتل العمد ما فصلته هذه الآية التي نزلت عند حادثة رواها البخاري وغيره. أن سرية لقيت رجلا على بعيره فظفقه كقرا رغم أنه سداهم بالسلام. فتقدم له أحدهم وقتله وغنموا جملة وما كان معه من متاع. ولما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم عتب من قتله عتبا شديدا. ونزل الله هذه الآية جامعة بين توبيخ القاتل، ومفصلة تشريعا وإرشادا للمسلمين عندما يعترضهم من لا يعرفون أنه مسلم، أن عليهم أن لا يتعجلوا وأن يتكلموا. وكان نسخ الآية مرتبطا بالحادثة، إذا عرضت الأمر يكون المسلمون مسلمين (إذا ضربتم في الأرض) مع أن الحكم واحد في السفر والحضر. فالأمر بالثبوت وعدم التسرع في الحكم على من لا يعلم كفره، والإقدام على قتله أمر لا يقبل من المؤمنين الذين عظم الإسلام في قلوبهم حرمة الحياة. ثم ضاعف التوبيخ بأن القتل قد نفذ بعد أن صبر القاتل بما يعيد إسلامه. وكُنْ بغير دليل. وأعطت الآية عر قدفع للعجلة أن القاتل كان يريد الفوز بالغنيمة: للجمال والمتاع، وما قيمة ما غنم إلا متاع الحياة الدنيا لقليل الزائل. ومبالغة في إنكار ما تمه نكرهم:

أولاً: بأن الله وعد المؤمنين بأنه سيفتح عليهم بصره، وسيغفون لغناهم للكفارة ثانياً: خاملهم: إن وضعكم كل شيئا بوضع هذا الرجل الذي قتلتموه. إذ كنتم كفارا فمن الله عليكم بهديكم للإسلام فسلمتم بكلمة الإسلام، فلو كنتم في دعوكم وأعمل السيف في رقابكم أكن يرضيكم ذلك؟ وإذا قد أنصبت فتائب قبيل، أعاد التأكيد على وجوب التحلي بالثبوت وعدم العجلة، وحذرهم بأن الله يعلم الدوافع الخفية للكامنة في النفوس.

95- يستوي القامعون - مغفورا رحيمًا.

وبعد أن وبخ المتعجلين غير المثبتين من المجاهدين. فنزل القرآن إلى التوبة بالمجاهدين، فنكر أن المجاهدين لهم مقام رفيع. وقسم المسلمين إلى ثلاثة أقسام:

(1) المجاهدين.

(2) الأصحاء القاعدين الذين لم يشاركوا في الجهاد.

(3) الذين بهم عاهة من عي أو عجز عن المشي أو مرض ونحو ذلك. فعذر القسم الثالث، ولم يدخلهم في الموازنة، وإن أجرهم يتبع حسن نيّتهم وما يسهمون به في الجهاد من أموال وسلاح وتجهيزات.

ولإبراز مزايا الجهاد، عقد القرآن مقارنة بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد، وبين المؤمنين المجاهدين بأموالهم التي يبذلونها لتجهيز الجيوش، وبأنفسهم بما يتعرضون له من أخطار الحرب على حياتهم أو سلامة أعضائهم فصرح بأنهم متفاوتون في مقامهم عند الله رغم اتحادهم في كونهم مؤمنين، فقد فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على بقية المؤمنين الذين لم يشاركوا في الدفاع عن الأمة ونشر دين الله، فضلهم سماً بهم عن غيرهم بدرجة عظيمة، ويشعر التوبة وتذكير الدرجة بأنها مقام عليّ عند الله، وحتى لا يظن بالمؤمنين القاعدين نقص في إيمانهم أو حطة في مالهم، إنه القرآن على أن الله وعده، ووعده لا يخلف، أن كل من حلت بشاشة الإيمان قلبه فإن جزاءه الجنة بما شمله من الرضا والنعيم.

وإذا جمع بين كل المؤمنين في حسن العقوبة، شئ بالتصميم مرة أخرى على تفصيل المجاهدين على القاعدين بالأجر العظيم، وفسره بأنه درجات يعلون بها متميزين بها على غيرهم، وأل الله هو الذي يتولى منحهم لياها بشون واسطة كما تشير إليه (منه) ومع هذه الدرجات، التظهير من جميع الذنوب فيقبلون على ربهم صفحة بيضاء نقية خالية من ظلمة الذنوب وغش التفصير، فتتوزل عليهم الرحمات التي تسكن معها القلوب والأرواح إلى ما رزقوه من فضل وكرامة، وهذا جار على ما ثبت لله من كونه الغفور الرحيم.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغُلَامَ الْغَالِي أَلَمِيعِ أَلَمِيعِ قَالُوا يَمُومُ نَبُومُ قَالُوا كُنَّا مُتَضَاعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُرْ الْأَرْضَ أَلَمْ نَسْغَ لَهَا جُزْأَ بِهَا قَالُوا لَيْكَ نَارُومُ خِيَمُومُ وَسَاءَتْ مَصِيرُومُ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَعْلِفُونَ جِلْدَومُ وَلَا يَخْشَوْنَ سَبِيلَومُ قَالُوا لَيْكَ عَنَى أَلَمْ يَتَفَوَّعْهُمْ وَكَانَ أَلَمْ يَغْفُورُومُ • وَمَنْ يَمَاجِزْ فِي سَبِيلِ أَلَمْ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرْعَومَ كَبِومَ وَسْغَومُ

وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ أَوْفَى أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

بيان معنى الألفاظ

يُؤْفِقُهُم: تقض أرواحهم.

قُلْتُ قَتَلْتُمْ: أن يفعل الإنسان فعلا يؤول إلى مضرته.

مُسْتَضَع: الذي يعده المتسلط عليه ضعيفا فلا يعا به.

مَوَاضِعًا: مكانا من الأرض يذهب فيه.

وَقَعَ: ثبت.

بيان المعنى الإجمالي:

لما أذن للنبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة خرج معه معظم المسلمين، وبقي البعض بمكة، فملهم من فتن في دينه وكفر، ومنهم من بقي مستخفيا مؤمنا بقلبه بعيدا عن الرسول وعن الجماعة الإسلامية. وهؤلاء خرجوا يوم بدر مع المشركين، ومنهم من قتل واختلف المسلمون فيهم فيمصده أعلن أن المقيمين في مكة إخوانهم كانوا يؤمنون بثنائهم على الإيمان، ورأى معظم الصحابة أنهم بغعدهم في بلد الكفر قد ارتكبوا أمرا عظيما فسادا، كبير شره، فنزلت هذه الآية التي وصفت حالتهم عندما ماتوا. فقد صاحب قرض أرواحهم من ملائكة الموت، توبيخهم وتغييرهم بأنهم قد ظلموا أنفسهم، وأنهم سألواهم سؤال تزييع وتوبيخ: في أي وضع كنتم إذ تخلفتم عن الهجرة؟ كان جوابهم أنهم قبلوا اضطهادهم تسلط الكفار عليهم، وأصل الملائكة سؤالهم: لما إذا لم تهاجروا في أرض الله الواسعة وبغيت تحت الفهر؟ فلم يجيبوا لأنفسهم عذرا، وأعلم القرآن بأن مصيرهم إلى جهنم أسوأ مصير. ثم إن القرآن وهو بصيف ما حصل لهؤلاء الباقين في مكة، استثنى الذين كانوا فعلا مستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين ليس لهم من التجربة والتمكك ما يجحدون معه حيلة للخروج من مكة، والذين أقعدتهم الضمير الملام لهم كالعمى، عن الامتداء إلى المدينة. ولذا قال الله يظلمهم في العفو عنهم، ويقرّب لهم الأمل بأن الله عفو غفور. وحرك الهمم والعزائم للهجرة، بأن أرض الله واسعة لا تضيق بالبشر، فكل من هاجر وترك موطنه لينجو بدينه يجد في أرض الله التراب الواسع الذي يأويه ويوفقه. ومع التنبيه على الجوانب العديدة الميسرة للهجرة عرض القرآن فضلا آخر من الله على من خرج من موطنه مهاجرا إلى الموضع الذي يحقق فيه

رضوان الله ورسوله، ثم يموت في الطريق. فلن الله يدخر له ثواب هجرته غير منقوص. والله غفور رحيم.

بيان المعنى العام:

97- إن الذين توفاهم الملائكة موتاً حين أخرجهم من مساكنهم مصيراً.

أَنَّ الله نبيه أن يهاجر مع المؤمنين من مكة إلى المدينة. وفقد الجميع أمر الله، وبقي البعض بمكة لم يهاجر، فمنهم من فن في دينه ورجع إلى الكفر، ومنهم من بقي مستخفاً لا يظهر الكفر ولا الإيمان إلى أن فتحت مكة وساد الدين الإسلامي فيها. ومن هؤلاء الذين لم يهاجروا من خروج مع المشركين يوم بدر، فبعضهم أسر، ومنهم من مات على تلك الحالة. فما هو وضعهم؟ نزل القرآن كأنسفاً مجيباً عن هذا السؤال، مجسماً مصيرهم وما ينتظرهم. وكان المطلوب أسلوباً بث الحياة والحركة في المشهد.

للصورة تتضمن حدثاً ومحاورة لم يطلع على تفاصيلها إلا الله، فسجلها القرآن بأدع تصوير في هذه الآية؛ حيث جماعة ظالمة لنفسها بتفادها عن الهجرة، وفقد كبير أمرها ببقائها بمكة في الوقت الذي اختلثت الكثرة الكاثرة من المؤمنين الهجرة مع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، وبخسهم الملائكة لما اقتضوا أرواحهم وجرت بينهم المحاورة التالية: قالت لهم الملائكة في أي وضع كنتم بأخياركم لبقاء في مكة؟ أجابهم بأنهم لم تكن لهم شوكه تمنعهم ولجبرهم أهل مكة على طاعتهم. وهذه طعة غير مقولة بفعل لهم الملائكة: ألا تعلمون أن أرض الله واسعة لم تضيق عليكم، يمكنكم أن تجدوا في فضائها الرخاء ملوى لكم ومتسعاً من العيش؟ وإذا قد سقطت كل نعماتهم وألزموا بتقصير والتقصر والرضا بالبقاء مع أهل الكفر، أعلن القرآن حزامهم: أن العاوى الذي يصيرون إليه، جهنم أسوأ مصير يصير إليه الإنسان. والظاهر أن هؤلاء لم يرتكوا، وإنما مالوا الكفار ولم يهاجروا في الوقت الذي كانت الهجرة فيه إلى المدينة من لؤك الوجبات. تلك أن هذا الحوار لا يواجه به الكفار، وواجه به هؤلاء لتقصيرهم التقصير غير المتصور. لأنه في الوقت الذي كان فيه المسلمون في حاجة إلى تقوية صفهم، ويوبقهم أن يغفل بعضهم بمصالحه ولا يلتحق بالصف المسلم.

98-99- لا المستضعفين من الرجال نسفوا.

والله، الموصوف بالعدل والفضل، راعى المستضعفين حفاً، من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم من ظلم المشركين المستكبرين، وليس

لهم من التذكاء والنباهة ما يمكنهم من التخلص، أو لا يهتدون للطريق الذي يؤمن لهم بلوغ المدينة كالمعيني، لولئك يرجى عفو الله عنهم فلا يحاسبهم على عدم هجرتهم، ولكد رجاء العفو بأن الله متصف بالعفو والمغفرة.

ولما كان العفو صادرا من الله وهو العليم بما قرره في شأنهم علما لا احتمال فيه، فلماذا عبر بعض النبي بقيد الاحتمال لعله من بلاغة القرآن إبراز هذا العفو في صورة الرجاء ليتوكل المخطئون عزته وأنه لا يتحقق إلا بما يقرره الله الذي لم يُطلع أحدا على غيبه هذا. ولحكم المستفاد من هذه الآية كان مرتبطا بوضع الجماعة الإسلامية في الفترة السابقة لفتح مكة، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن أن لا هجرة بعد الفتح لأن مكة أصبحت دار إسلام، فتمسح حكم الهجرة بعد الفتح. وقد غيب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله على هذه الآية، بأنه وإن تمسح حكمها إلا أن العلماء في إعطائهم للنظر عن طريق القياس بحثوا في حكم إقامة المومن في غير بلاد الإسلام، وهو تحقيق نفيس اعتمدته ولخصته، والأحوال الأصلية التي يتعرض لها المسلم في غير البلد الذي تطبق فيه الأحكام الإسلامية ينصور بست صور:

الصورة الأولى: أن يكون مكان إقامة المسلم بلدا يفتن فيه المسلم في دينه، بما يجبره على مفارقة الإسلام. وحكم هؤلاء أنهم يستنون مع الذين نزلت فيهم الآية، والواجب عليهم أن يهاجروا ليسلم لهم دينهم.

الصورة الثانية: أن يكون الموضع لا يبلغ الفتنة في الدين، ولكن لا تسلم للمقيم حياة تحقق له أمنه على نفسه ومكانه، سلكي يكون عرضة للقتل أو التعذيب أو مصادرة مكانه. وهذا يجب عليه أن يهاجر إلى بلد يكون أمنا فيه.

الصورة الثالثة: أن يكون مقيما ببلد استولى على مقلد الحكم فيه غير المسلمين، وصنعوا للمشاكين حرية العقيدة، ويجبرون الجميع على التمسوخ لأحكامهم في جميع القضايا، وهذا وضع للمسلمين المقيمين في اقرب قيوم. وتذكر أنه اختلف فيه قول المالكية فكرهه مالك كراهة شديدة، وحمل الكراهة بعض خذاق علماء المذهب على الحرمة. إنه نظرا لأوضاع المسلمين الاقتصادية اليوم، وقد انتشر الفقر فيهم، ونظرا إلى أن معظم الحكومات الإسلامية لا تلتزم في لحكامها بالإسلام، ونظرا إلى ما يستويده المهاجرون من التمكن العلمي والتقني وفر العمل الدقيق مما يعكس أن يسمو بالموضع الاقتصادي والعلمي في بلدانهم عندما يعودون إليها أو عندما يقيمون بها مشاوير تقرب الشقة التي تزداد تناسعا وعصا كل يوم بين العالم المتقدم اقتصاديا وبين عالمنا الإسلامي، لكل ذلك فإنه يترجح عدي أن المقيمين في بلاد

الغرب لا حرمة عليهم في إقامتهم بها. وعلى الدول الإسلامية أن تضمني بهم بما يثبتهم على دينهم ويبقى على الصلة التي تجمعهم بوطنهم قوية مشعة.

الصورة الرابعة: أن يتسلط الكفار على بلد إسلامي فيمسلبون منه السلطة السياسية ويمسكون الحرية الدينية ولا يتدخلون في الأحكام التي تجري على المسلمين، كما وقع في صقلية عندما استولى عليها النورمان. وكما وقع في غرناطة في المعاهدة الأولى التي صممت للمسلمين لإجراء حياتهم الدينية على أصول الإسلام عبادة ومعاملات وقضاء، فقام بها بعضهم وهاجر قسم آخر. ولم يعد المهاجر على المقيم، مما يفيد أن الهجرة ليست واجبة.

الصورة الخامسة: أن يتسلط غير المسلمين على بلد إسلامي فتكون لهم السلطة العليا، ولا يغيرون أنظمة حكمها تغييرا كاملا. ويبقون على المسلم صاحب السلطة فيها، ولا يتدخلون في الحياة الدينية ولا في الأحكام، وخاصة الأحوال الشخصية. كما تم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين في مصر وتونس والعراق والمغرب وسوريا وليبيا... وهذه الصورة واضح أنه لا يجب على أهلها الهجرة من بلدهم.

الصورة السادسة: أن يثب في بلد قائمة المسلم المناكر والبدع، وتغيير بعض الأحكام على ما يخالف الأحكام الشرعية مخالفة صريحة، ولا يستطيع للمقيم الإنكار ولا التغيير إلا بالقول، أو هو لا يستطيع ذلك. والمنقول عن مالك وجوب الخروج منها. ويلاحظ الشيخ ابن عاشور أنه وقع مثل هذه الحالة في القيروان سنة تسلم العبيديين، ثم يخرج منها علمائها ولا الصالحون. وضرب مثلا ببقاء الشيخ محمد بن أبي زيد. وهو من هو علما وفضلا وتقوى وصلاحا. ويلاحظ أمران على هذا التفتيق العلمي:

أولهما: أن الأوضاع السياسية قد تغيرت تغيرا كبيرا فلا يستطيع أي مسلم أن يقيم في بلد غير بلده إلا بجواز سفر وموافقة مسبقة من سلطات البلد المفضود ولمدة محددة.

ثانيهما: أن على المسلمين الذين قهرهم العدو وتسلط عليهم أن لا يستسلموا للفهر استسلاما نهائيا فإن الاستسلام الكامل والخروج من الأوطان هو عبارة عن موت للشعب من ناحية، وتأييد للغاصب من ناحية أخرى.

فالحل الواجب عليهم في نظري: أن يصيروا صبرا مجابيا بفعل يشي الطوق الظاهرة والخفية لمقاومة تسلط الباغى، وأن لا يستسلموا ولا أن يسلموا وطنهم ويفرغوه لمن غزاهم. وأن يتحدوه بتخطيط محكم يحقق لهم مياثرة عباداتهم الضامنة لاستمرار الارتباط بالجامعة الإسلامية وبقاء النش في خلفهم. وأن

يميلون: يكرون ويشنون عليكم.

ميلة واحدة: متصلة لا تحتاج إلى ثانية.

بهنه: بمنحكم بالحمل عليكم.

كفت لهم: أتيها على فوجها فكلل بركابها وطريفة أدائها لا كيفما تفق كحال المسافة الذي يؤدي فيه الصلاة على الوجه الممكن.

كلها موقوتها: فرضا محددا بأوقات.

لا تهوا: لا تضعوا.

ابتقاء الذوم: طلبهم.

بيان المعنى الإجمالي:

أمرين أساسيين أكتنهما الآيات، الأول: أن المكلف مطالب بإقامة الصلاة في جميع الظروف والأحوال التي هو مخاطب فيها ببدء الصلاة، وأن الله يمسر عليه إذا كان يحد مشقة، والثاني: أن على المؤمن أن لا يتراخي وأن يكون حازما في الاستعداد للجهد، فإذا كان مسافرا مجاهدا فلا يتم عليه إذا صلى الظهر ركعتين وكذلك العصر والمساء. وأنه إذا كل المؤمنون في غزوة بزمهم فيها النبي ﷺ، وكل واحد من المسلمين يرغب في الانتماء برسول الله ﷺ، فيقه يقسم للجيش إلى فرقتين: تصلي الفرقة الأولى معه ركعة وتكمل الصلاة وحدها وتسلم؛ وفي هذه الحالة يكون باقي الجيش يحرس المصلين، فإذا كُتبت قدمت الفرقة الثانية وصليت مع رسول الله ﷺ ركعة يسلم إثرها رسول الله ﷺ، وتكمل هذه الفرقة الثانية ركعة وتسلم، وعلى كل فرقة أن تأخذ سلاحها عند أداء الصلاة، ولا يتهاون قلى الأعداء يترصنون منكم غفلة لينقضوا عليكم بضربة ساحقة، ومن تعذر عليه حمل سلاحه في الصلاة لمرض أو حزن أو لوجع ماطر فليأخذ الله لا يكلف الإنسان إلا ما يطيقه، لكن المهم أن تكونوا بفضلين. ويضمن الله جيش الإسلام بأن الله سيسعفهم بتأييده ويوهن أمر الكافرين فيسلط عليهم من العذاب ما يهينهم به. ولا تغفلوا عن ذكر الله بعد إتمام الصلاة على أي حاله كنتم قائمين أو قاعدين أو على جنوبكم.

إذا حصلت لكم طمأنينة بختفاء المعركة أو برجوعكم إلى بولركم فلتنموا الصلاة ولا تغفلوا عن أدائها في أوقاتها. إن الصلاة ركن وفرض مؤكد مضبوط بأوقات محددة، ولا تضعوا في طلب الكفار فليكنم في استويتهم معهم فيما من شأنه أن يصيب المقاتل، فليكنتم تميزون عليهم بوثوقكم بتأييد الله. فليكنتم بذلك على رجاء من النصر أو الشهادة، والله عليم بما تعملون وما يجري في صماتركم فسوف يجزيكم ما وعدكم، وهو الحكيم الذي أرشدكم إلى ما يهديكم في الحاضر والمستقبل.

بيان المعنى العام:

101 وإذا ضربته هي الأرض فليمن عليه جراح ساعدوا مبيها.

تتلعب هذه الآيات. وهي في مجموعها تؤكد وتبين المؤمنين على قيمة الصلاة والحرص على أدائها في أوقاتها، باعتبار أنها تحيي الروح وتظهر النفس مما يمكن أن يكون قد غلق بها من أوضاع المادة، وتجسد صلة الإنسان بربه، هذه الصلة التي تهدي إلى الطريق المستقيم وتساعد على التقوى وفعل الخير. وبصفة عامة تعمق الإيمان وتبني عن الفحشاء والمنكر.

والصلاة لا تنقطع عن المكلف إلا عند فقد الوعي. فواء أكان مريضاً أو مريضاً، مقيماً أو مسافراً، في حالة جهاد أو في حالة سلم، هو في جميع الظروف مطالب بأداء الصلاة في وقتها. وتأخيرها عن وقتها المحدد ليس ضرورة من الضرورات المعيرة شرعاً، كبيرة من الكبائر تحتم على المتخلف التوبة وقضاء ما فاتته والالتجاء إلى الله أن يغفر له ذنبه. كيف لا وهو قد نعت قطع صلته بالله.

والله الذي فرض الصلاة متكررة في اليوم وفي كل يوم، راعى بفضله ما يمكن أن يتعرض له المصلي من منة في بعض الظروف فيسر عليه أداءها في وقتها مع التخفيف. ومن ذلك المسافر والمجاهد في سبيل الله وقت الحرب. فنكر سبحانه في هذه الآية حكم صلاة المسافر المحاذ. وساقط على شرح معنى الآيات على ما يقتضيه ظاهرها، وأحيل القارئ الكريم الذي يرغب في الاطلاع على تفاصيل أحكام صلاة الخوف على ما فصله الفقهاء.

أعلم الله المؤمنين أولاً: أنهم إذا خرجوا للجهاد في سبيل الله، أنه خفف عنهم، وأنه لا إثم عليهم إذا قصرُوا صَلَاتِهِمُ الرَّبَاعِيَّةَ إلى ركعتين. الظهر والعصر والعشاء. وعلى ذلك باحتمال أن ينقض الذين كفروا عليكم عند أدائكم الصلوات كاملة كحال الأمن، وقد بين لكم أن الكافرين أعداء لكم عدوة ظاهرة.

102 وإذا جعلت فيهم أئمة لهم -أعد للكافرين عدواً مبيهاً.

ثم تعرضت الآية إلى حالة ثانية فيها تخفيف على المجاهدين إذا كان الرسول معهم وهم حريصون على الاعتماد به. أن يقسم الجيش الذي معه إلى قسمين. قسم يصلي مع النبي ٣ ركعة، ويكون القسم الثاني في مواجهة العدو، ويتم هذا القسم الأول الركعة الثانية وحده، وبعد تسليمهم، يأتي القسم الآخر الذي كان في مواجهة العدو فيصلّي مع النبي ٣ ركعة، ويسلم النبي ٤، ويتمون صلاتهم بعد سلامه. وبذلك يكون الجيش كله قد فُزَّ بالصلاة معه. ورأى معظم الفقهاء أن لمرء الجيش إهم هذه المزية بالصلاة بالجيش على فرقتين. تصلي كل فرقة مع قائد الجيش ركعة.

ورأى بعضهم أن هذا الحكم خاص برسول الله ﷺ فإذا لم يكن حاضرا مع الجيش صلى كل فريق بإمامهم ركعتين.

وعلى المصلين مع الرسول أولا أو ثانيا أن يكونوا حذرين، فلا يتركوا أسلحتهم وأمتعتهم بل يحملونها معهم في الصلاة. وهو ليحفظ للمؤمنين أن لا يعولوا على إيمانهم فقط فيما أجرى الله عليه سننه في الحرب. فإنهم وإن كانوا في حالة جهاد وصلاة، وذلك أفضل ما يكون عليه المؤمن، إلا أنه لا يسمح له بالتراخي وترك البقعة والاستعداد على أنم وجه ولكم، فإن الكافرين يتربصون لكم ليبيدوا مذكم غفلة، فيكروون عليكم بكل ما لديهم من القوة والعنف ليستأصلوكم.

وإذا أمرهم بالخطوط الكامل وأن لا يتخلوا عن أسلحتهم، وأن يكونوا متصفين باليقظة والحزم في مواجهة العدو ولو كانوا في الصلاة، يسو عليهم إذا كان الوضع الذي هم عليه يحدون معه عسرا كبيرا، ومشقة في حمل أسلحتهم، كحال المطر أو حال بعض المجاهدين المنهكين بالمرض. رخص لهم في هذه الحالة أن لا يحملوا أسلحتهم. والتأكد المتواصل أن يكونوا يقظين، فيأخذون لكل احتمال حسابه الذي يمد جميع الثغرات، ويؤمنهم حسبما يقتضيه فن القتال والتحصن من كل مباغت، ويتقون من ناحية أخرى في تأييد الله لهم، أن الله قد هب الكافرين مصيرا لا محيد عنه، أن الله سيكسر شوكتهم ويبيدهم بالهزيمة والقتل والأمر مما ينظهم ويمحق عزتهم ويبيدهم على أيديكم.

103- فلا قضيتهم الصلاة موقوتة.

ثم يذكر الله المؤمنين أن يكون أسلحتهم رطبا يذكر الله، للمقوي لظوبهم على الصمود، يذكرونه كيفما كانوا وهم يقاتلون العدو، لا يلهيهم القتال عن ذكر الله، فالذكر يربط على القلوب ويثبت الأقدام.

ثم بين للمؤمنين أنه إذا ذهبت موجبات التخفيف من الخوف أو من السهر قلوا الصلاة على الوجه الأكمل الذي سنه لكم رسول الله ﷺ. وتكرر هنا بحكم هو من الثواب كما وصحناء في أول بيان معنى الآية: أن الصلاة فرضت فرضا حتما وركنا من أركان الإسلام في أوقاتها المحددة.

104- ولا تهنوا هي ابتغاء القوم مستحيما.

ثم شجعهم وأمرهم أن تكون عزيمتهم ماضية في طلب الكافرين لا يملون ولا يضمفون حتى يكسروا شوكتهم وتكون كلمه الله هي العليا. وحركهم على المضى في نصره الدين، بالمقارنة بينهم وبين الكافرين. فمخاطر القتال واحدة بينكم،

ولكنكم تميزون عليهم بأنكم آمنون في جهادكم، ترجون إحدى الحصنين النصر أو الشهادة، فالمجاهد المؤمن يتجاوز حدود المعركة إلى ما وراءها، يتصور أنه ناجح لا محالة فإن هو قهر عدوه فذلك منه القريب من الجهاد، وإن حصل له مكروه في حياته لو في بدنه، فهو الأجر الكبير الذي يرقبه من ربه، والله عليم بما يجري في نفوسكم حكيم ولكم على سبيل النصر وفصلها لكم.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَخُذْ مِنَ النَّاسِ مَن أَرَادَ أَن يَتُوبَ وَلَا تُكْرِ لِلْمُكَافِرِينَ خَصِيمًا ۖ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٥﴾ وَلَا تُجِدَ عَنِ الَّذِينَ مَنَّائُونَ أَنفُسَهُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ۖ يَسْتَحْشِرُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْشِرُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۖ عَنَّا مَنُوءٌ ۖ حَدَّثَكَ عَنْهُمْ فِي الْخَبْرَةِ الْكُفْرَ فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ سَكِيمًا ۖ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَكْلِمْ نَفْسَهُ أَوْ يَسْتَفْهِمِ اللَّهَ جِدَّ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۖ وَمَن يَكْسِبْ إِلَّا مَنَّا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ لَمَّا ثُمَّ يَرَوْهَا بِيْحًا لَّغَدٍ أَحْتَمِلْ بَهِتًا ۖ وَإِنَّمَا مِثْقَالُهَا ۖ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ لَهَا فِتْنَةٌ يَوْمَ أَنْ يَضْلُوكَ وَمَا يَضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِن شَيْءٍ ۖ وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۖ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿٥٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

خصيما: الخصيم المنتصر المدفع.

يخشرون: يخونون.

يستحشرون: يحاولون الاختفاء والتمتر.

يبينون: يديرون أمورهم بالليل.

يعمل مواء: عمل المواء مع الناس.

يظلم نفسه: يرتكب المعاصي بغير إذنية لغيره.

احتمل بهتًا: علق به الكذب الفاض.

بيان المعنى الإجمالي.

أحيث الآية حقيقة، وإن كانت مستقرة في نفس رسول الله ﷺ، إلا أن القرآن ذكر بها لترتيب عليها ما يتبع ذلك، هذه الحقيقة أن الله أنزل القرآن منسجماً بالحق بشئيه ويهدي إليه، ليحكم بين الناس حكماً مستقداً إلى تلك المبادئ التي رفع البشرية وعلى رأسها رسوله لإبرائها إيجاباً ووضوحاً من القرآن، ويمكن اعتمادها من تبين الحقيقة وإنشاعة العدل، ويتبع ذلك أنه بعد تبين الحقيقة فالموقف الأول أن لا يكون مدافعاً عن الخائنين الذين يدبرون الطريقة الفاسدة التي بها يخونون أنفسهم يدفعها إلى الخطيئة والأبتلاء عن قصد وهوؤلاء الذين يختلون أنفسهم لا يحبهم الله، لأن الله يفت كل خول من نفسه في الإثم والمعصية، ويؤكد القرآن أن الله هو الذي تولى بعنايته أنزل القرآن منطوياً على الحق ليكون لك دليلاً بما أرك الله في الحكم بين الناس، ولا تزيد الخائنين بخصام من خصامهم، ووالله على الاستغفار فالله غفور رحيم، ولا تتول الدفاع عن الذين يخونون أنفسهم بالخصام الموبقات، فإن الله يفت الخائنين، عجب من غيبتهم هم يخونون مفاسدهم عن أعين الناس، ويمضون التواني في تغيير الفكر من الأقوال الكاذبة والله مطلع عليهم لا يغيب عن علمه شيء، يحذر المؤمن من الاغترار بمظاهرهم والدفاع عنهم، فإنهم لا يجدون من يدافع عنهم يوم القيامة أو يكون وكيلاً عنهم في تقديم براءتهم، إن من يقوم بمعصية تضر غيره أو تضر نفسه ثم يستيقظ ويعود إلى ربه طالباً عفوه فلنيسر بل الله غفور رحيم، ومن ناحية أخرى فإن من يرتكب معصية ثم يحاول أن يلبيها على بريء فإنه يضم إلى معصيته الأولى حملاً ثانياً، وكذباً قبيحاً واضحاً، ويظن رسوله بأنه في رعايته وفضله لا تضره محاولات الماكرين، فما تعلقت به منهم من إضلالك يعود الضلال عليهم، ولا يلبفون الاضرار بك، لقد اكتسب قلبك مناعة بما عمر به من الكتاب المنزل عليك والحكمة، وفوق ذلك فقد علمتك ما لم تكن تعلمه من قبل، وفضلتي عليك عظيم.

بيان المعنى العام:

105-106- إن أنزلنا إليك الكتاب بمكان غفورا رحيمًا.

توجهت الآية بالخطاب أولاً للنبي ﷺ يؤكد له حقيقة مطلوبة عنده وعند المؤمنين جميعاً، لترتيب عليها ما سيرد بعد ذلك. هذه الحقيقة: هي أن الله أنزل على رسوله القرآن، كله حق ويمكن كل ذي حق من حقه، فهو والحق سواء. وترتب على هذه الحقيقة أنه باعتباره رئيس الأمة والقاضي في جميع الخصومات التي تعرض عليه، فإن تأمله في كتاب الله يهتدي إلى الحق ليحكم به بين المتخاصمين بناء على هذا

للتعليم الإلهي في تناول القضايا المعروضة عليه حسبما قرره القرآن من المبادئ والأحكام. وما أفاض على نبيه من التوفيق، وما تميز به من ثاقب النظر، يجعل اجتهاده في تطبيق المبادئ الكلية على القضايا الجزئية يسير به إلى إعطاء كل ذي حق حقه. وحذرت الآية من تأييد من يخاصم المحقين. وأمرت بالاستغفار لكون العودة إلى الله واللجوء إليه، مطلب المغفرة ملازماً للمؤمنين، فالآية في مجموعها أرشدت المحكم إلى التلزم في الكليات التي جاءت في القرآن لتكون هي السند الذي يعود إليه الحاكم لينظر فيه نظراً متعمداً ليفتح له تلك وجه الحق فيما يحكم فيه من القضايا بين المتخاصمين. ومن يخاصم الخائفين فأثمة. ولا تنك له خصماً.

روي في الحادثة التي صحبت نزول الآية أن صحابياً اشترى طعامه بغيره، وخزنه مع سلاحه، فسرق في الليل. وقد قامت له قرأتان فهم بها المظنون فيه، ورفع الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعند المنهم إلى إلقاء المسروق في بيت يهودي، ثم حاول هذا المنهم السارق أن يتأيد ببعض الصحابة ليؤشدهوا له عند رسول الله بالصلاح والتقوى، ووجه الرسول ﷺ التهمة لمن اتهمه فسارق الحقيفي. لأن كل الملابس للمصاحبة تنفي عنه التهمة، شهادة من شهد له بالصلح، كون المسروق ليس في حوزته، أن الذي وجد عنه المسروق يهودي ومعروف أن اليهود لا يتورعون عن الإضرار بأي مسلم. فكدت تفلت من التهمة، فأنزل الله على رسوله هذه الآية التي برأت يهودياً وكشفت هذا وخيانة لصدي كان يظن به الخير.

وإذا كان ظاهر الخطاب في بعض أجزاء الآية، قد توجه إلى النبي ﷺ فإن الأحكام لرشاد إلى الأمة في جميع الأعصار.

107- ولا تجادل عن الذين... من حكام خولنا أئيمه.

إنه ما يزال الخبيثاء لخائنون يرتكبون الآثام ويستنصرون على الفضيلة، ويتهمون غيرهم في مكر مسيء مقيت، ومن خبثهم أنهم يتظاهرون بالتقوى والصلاح ويغترون بذلك نوى النوايا الطيبة ليؤثروا الدفاع عنهم. فليقتطع هذه الآية المؤمنين جسيماً أن لا يكونوا مدافعين عن الذين بلغت بهم السفالة أنهم يؤذون أنفسهم لأنهم مردوا على الشر فهانت عليهم أنفسهم.

108- يستخفون من الناس... بما يملكون محيطة.

فضحهم بلغت الأنظار إلى التعجب من غيبتهم: أنهم يشيرون أمرهم في خفية من الناس، وظلوا عن كون الله يرقبهم وهو بصير بكل حركة في الفكر أو العمل تصدر منهم، فلم يتكفوا عن الشر مع علمهم بذلك.

109- ها أنتم هؤلاء جادتم... وكيلًا.

وأعاد القرآن التحذير من الاعتزال بالظواهر، والتدخل في القضايا بدون بينة يقينية قصد ثرثرة الخائفين في الدنيا، تنبهوا بهم لا يجنون من يتقدم للدفاع عنهم يوم القيامة أو يكون وكيلًا في الآخرة يدفع عنهم .

110- ومن يعمل سوءا... عشورا رحيمًا.

وتواصل الآية تنبه المؤمنين في مباشرة الحياة فتفتح لهم أبواب الرجاء، ولا تدخلهم في كابوس اليأس، فقال تعالى: إنه من يعمل عملا سيئا مع المؤمنين مما نهى الله عنه، لو يعصى الله في دائرة علاقته مع نفسه، ثم يستيقظ فيعود إلى ربه، دائما متارعا طالبا من ربه المغفرة لما صدر عنه: فلأبواب الفضل الإلهي مشرعة مفتحة، لينها بقبول تضرعه، إنه واجد ربه متصف دائما بالمغفرة والرحمة. إن الله وحيد التوابين، هؤلاء الذين إذا غم الشيطان على بصائرهم تكلنوا وأسرعوا إلى العودة إلى استحضار عيوبهم وقورهم من ربه.

111- ومن يكسب خطيئة أو إثما... عليما حكيمًا.

يتتابع في الآيات، تسجيل الحقائق التي على المؤمنين أن تكون حاضرة في أذهانهم: أن من يقصد إلى ارتكاب محرم من المحرمات فلن يثمه واقع على نفسه لا يتحمل غيره شيئا من وزره. والله عليم بكل ما وقع في الوجود، حكيم ومن حكمته أنه لا يحمل أحدا جريرة أفعال غيره.

112- ومن يكسب خطيئة أو إثما... عليما حكيمًا.

هذا المفهوم من الآية يقدم إلى التحذير مما يقع في الوجود من تضليل فمن يعص الله معصية كبيرة أو صغيرة ثم يتهم بريئا فورا من تحمل ثبئة أعماله فقد أثقل نفسه بمضاعفة مسؤوليته بانضمام كذبه الفاضل المفقوت إلى ما عمله من سوء ليحزى عنهما معا.

113- ولولا فضل الله عليكم... عليهما.

ثم تعرض الآية للتأييد الذي خص به رب العالمين نبيه في ذلك قبحو المشحون بالعداء للدعوة وتكبير النفس، وإعداد أنواع المكر في الخفاء، فيعلن القرآن أن فضل الله على نبيه بالتأييد، وتخصيصه بثواب الرخصة له في جميع المواقف، تلكم الفضل وتلكم الرخصة تصد على المضللين مخططاتهم وتكشف لرسوله مكرهم، وتصمم من أذهامهم. لقد هموا لغيبتهم أن يضلوك، وهم الذين ضلوا باعتقادهم أنهم يستطيعون أن يؤثروا فيك بما يحدث لك عن الحق. وهم عاجز من أن يضروك

ولو بأقل الضرر. إن الله قد ثبتك وفتح بصيرتك بما أنزله عليك من الوحي في القرآن، وما طبع به قلبك من الحكمة التي لا تحيد بها عن الصواب، إن ما أنزله عليك ما كنت لتصل إلى علمه لولا أن الله هو الذي تولاك فعلمك، وتتوحد بتلك المنن بخطاب نبيه خطاب التقريب والتشريف بأن فضل الله عليك يسا محمد كان فضلا عظيما لا يحده.

على المؤمنين أن يكونوا واعين بكتبتهم ويهتدوا بهتوته ويتسلموا في مضامينه، فهو الذي يسر بهم في مقامات الفهم والحكمة، وهو أعظم فضل لوتوه في الحياة.

• لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ نَعْوَةٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ اتَّبَعْنَا لَهُ نِعْمَتَ رَبِّهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٦﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا يَبَيِّنُ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَمَّ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلَّوْا مَا تَوَلَّوْا وَنَصَلُّهُ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ

النجوى: حديث السر الذي لا يسمعه إلا المخاطب.

يشاقق: يخالف علادا وقصدا للخلاف.

توله ما تولى: تعرض عنه.

بيان المعنى الإجمالي

إذا تحدث أحد إلى غيره في سر لا يسمعه أحد، فإن ذلك مما يؤثر الرزية في نفوس الآخرين، وخاصة عندما كان المسلمون في المدينة على حذر من مباغضة المشركين ومكرهم. فعلى الله المؤمنين عن التناجي المتثير للريب، واستثنى من ذلك أن يسار المؤمن لأخاه ليستعين برأيه في إيصال الخير كمساعدة في إيلاغ صدقة أو تنفيذ أمر معروف ينفع الجماعة، أو إصلاح بين متخاصمين. إن من يفعل هذا له أجر عظيم عند الله. ومن يخالف المنهاج الذي شرعه رسول الله ﷺ ويولي ظهره للطريق الذي يسلكه المؤمنون، يهمل الله ولا يكتسب به، ويحق عليه وعيده بأن يدخله جهنم يصلى حرها ولا أموا مصيرا منها.

بيان المعنى العام

114 لا خير في كثير... أجرا عظيما.

نطينا الآية سورة لوضع المسلمين في المدينة يوم كانوا يخشون المكائد التي يهددها المشركون للقضاء عليهم. فكثروا حذرين من ذلك يظلمين، وقد كان المبالغون

يعملون على زرع الرزية والخوف في قلوب المؤمنين. ومن مكروهم انه كان أحدهم يدعو منافقا مثله ويساره في حديث لا يسمعه أحد ليوهبوا من بواهم أن هناك أمرا خطيرا بلغهم، فينبني على تلك ثلويلاث نحقق لهم زعزعة الثقة . ولذلك نكرر النهي عن انتشار النجوى. وبينت الآية أن النجوى أغلبها شر. واستثنت الآية بعض ما يتاجى به أهل الخير، وحسنه في ثلاثة فواع:

- (1) المناجاة في إسماعيل المحالوج، فيتجاني لثان من صالحى الأمة لإبلاغ نولهم بما يتلقى خصاصة بعض القراء دون أن يسمع أحد بذلك سعي إخفاء الصدقات.
- (2) أن يتجاني لثان لإنجاز أمر من المعروف الذي تدعو إليه الشريعة.
- (3) أن يتجاني لثان لترتيب طريقة لإصلاح ما فسد في علاقة بعض المؤمنين. وإخفاء هذه الثلاثة الفضل من إعلاها. فمن يتاجى لينجز تلك طلبا لمرضاء الله، يشره القرآن بأن الله سيؤتيه أجرا عظيما يقب به حسن قصده ومعوه إلى الخير.

115- ومن يشاقق الرسول سوسات مصيرا.

توعد القرآن من يقصد إلى مخالفة الرسول عذابا واستكبارا عن اتباع الحق بعد أن قامت عليه الحجة وتبينت الحقيقة ومن ينصرف عن الطريق الذي يتبعه المؤمنون في عقيدهم وفي منهجهم في الحياة، فإن الله يتوكة وشائه وهو مهين لا يؤثر في الدعوة الإسلامية. وسحق وعيده عليه بأن يصلبه عذاب جهنم. ولا أسوا مصيرا من جهنم.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا عَظِيمًا ۖ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْئًا مِمَّا يَرِيدُ ۖ لَنُغْنِيَكَ اللَّهُ ۖ وَقَالَ لَا تُخْذَنْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۖ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَتَّعْتَهُمْ وَلَا مَرَّعْتَهُمْ فَلْيُقْسِمْ الْأَرْحَمُ ۖ إِذَا دُتِ الْأَتَمِ ۖ لَا تَرْجُهُمْ فَلْيَغْرِبْ خَلْقَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا عَظِيمًا ۖ يَبْعَثُهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَمَا يَعْلَمُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَخْرِجًا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَذَّابُ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا

بيان معاني الألفاظ:

مريداً: المبلغ في العصيل المتجرد للنشر والقولية.

لنصه: لبعده مع مخطوط وغضب.

مفروضاً: مقدراً من الله.

مناد: وعده ما لا يتحقق.

ينقض: ينقض.

محيط: ملجأ.

بيان المعنى الإجمالي:

يؤكد القرآن ما سبق في الآية ﴿﴾ من هذه السورة: أن الله هو الواسع الرحمة الغفور. ومن إذا شاء على عباد بالمتفرقة لذنوبهم، ولكن المشركين لا مطمع لهم في غفرانه. لأن المشرك قد انحرف عن الهداية لحرافاً بعيداً عن الحق. هؤلاء المشركون يخفونهم قد اتخذوا آلهة ابتغاء بدعوتها لتؤيدهم وفي عرفهم الإثبات أحط من النكور، وهذه المخالفة تبع اعتمادهم على الشيطان الذي ناصب العباد للجنس البشري من اليوم الذي أطرد الله. عرف الشيطان مدخله في نفوس البشر من الشهوة وبسط الأمانى وحب التسلط فسأ على أتباعه منافذ للتور فأتبعوه. قطعوا أذان الأنعام ورعوا أنها تحت رعاية آلهتهم، وعمدوا إلى الدين فحرفوه. ولا عجب فيما انحروا إليه، فإن من يتخذ للشيطان سنداً من دون الله فقد خسر دينه وأخزته، وهو الخسران الواضح. وكل ما يعنيه الشيطان به هو تفرير بهم. وإن مال أتباعه الخلود في نار جهنم ولا يجدون طريقاً ينفلتون به من عذابها. وفي المقابل فإن الذين آمنوا وصحبوا إيمانهم بالعمل الصالح سيخلصهم ربهم جنات فيها من النعيم ما تشتهيhe الأنفس وتلك الأعين لا يخشون الخروج منها. اطمئناوا فإن هذا وعد الله، وهو الحق لأن كلامه هو صدق الكلام وأتمه لا يلحقه نقص ولا نقص.

بيان المعنى العام:**116- إن الله لا يخفى أن يشرك به - ضلّ ضلالاً بعيداً -**

تأكيد لما سبق تقريره في هذه السورة الآية (48) من أشرك بالله لا مطمع له في المغفرة ولا في الغفر. لأنه قد ابتعد عن الحق بعداً شامعاً وسلك طريقاً معاكساً له، فانتكث كل صلة له به.

117- إن يدهمون من دوله - مريداً -

ثم أخذ القرآن بفصل ضلالات المشركين، إتهم لما ولوا ظهورهم للإيمان توجهوا إلى الصدام ومن قوة ضلالهم أنهم عبدوا قبائل، وحصب ما استقر عليه عرفهم

الجاهلي: إن الأتني أحد قيمة من الذكر. عجننت قمريش السلات. وعبد مشركو الأوس والخزرج مناة. إن لحرافهم وعمامم عن الهدى تابع لتطلقهم بالمشيطان الذي أبعد الله وطرده، وهو الذي حمل لهم عبادة الأصنام. ويطلق المريد على الخارج عن السلطة.

118-119. لعنه الله وقال يسخر حسراتنا مبهنة.

فضح القرآن موقف الشيطان الذي تقبوه فتكر ما بدر من وقاحتة وحرافتة. إنه لما طرده الله، وكان قد علم من التركيب البشري مداخل إغوائهم وتضليلهم أعلن أنه سيتخذ من تلك المداخل النصيب الذي قدره الله وينفذ منه للعقول فيفسدها، وللأرواح فيقتبها ويقطعها عن بلربها، وللشعوات فيحرکہا، وللأنانية فيقطعها، وبذلك يصبح متحكماً في الذين يقبلون غوايته، بعدهم بالفاء، ويفتح لهم أبواب الأمان فينتقلون بالخيالات، وما تلكم الأمان إلا للتغريب بهم. لطلقت الشعوات بدو رادع من الروح أو العقل، وتمردت الأنانية فقام التسلط وحسب الغلبة بالباطل، وأسلموا قيادهم للشيطان فنفذوا كل ما يأمرهم به. إن هذا الشيطان الأول إن يخرجهم من واضع للتوحيد إلى الشرك، فحسب لهم أن يفتسروا أذن الأنعام تخيلاً منهم أنها أصبحت تحت رعاية الآلهة فلا تركب ولا تحطب، وهو تغيير عن الصافي العفص بما ليس له أدنى حظ من التقدير في منطق الواقع والعقل. ومنه اتخاذ تماثيل وتمسح بها ويركع إليها أو يقورا بحج إليها وينذج عندها القرابين، ثم ترقى أنه بعد أن يستولي على عقولهم بمثل تلك الأمور، يأمرهم أن يغسروا خلق الله، وخلق الله هو دين الإسلام دين الفطرة كما عرفه القرآن في قوله تعالى: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله لتك لدين القويم) وما أكثر الضلالات التي يزين بها الشيطان لمن يقع تحت سلطانه تغيير الدين بوجهه المتعمق في الدين، وخطر هذا الخلط شديد إذ فاعل ذلك يظن نفسه على هدى فلا يفيق للتوبة.

حمل بعض المعمرين تغيير خلق الله على نفس المرأة شعر وجهها، وبعض ما تتخذ النساء للتجميل، الذي يفي أثره كالوشم، وهذا بعيد، إذ لرباط الأمر بالمصالح وارتباط النهي بالمفاسد يفيد قطعاً أن كل عمل لا يصحبه ضرر خاص أو عام لا يدخل تحت طائلة التحريم. فأي ضرر إذا أزيلت المرأة شعر وجهها مع أنه ينسب لها شرف إبطها وخلق ما حول المولتين من الشعر، ومما يبعد تحميل الآية هذه الأمور أن ما جاء بعد ذلك، وهو الموجه لقصد الشيطان وتغيير الناس من كيد، أن من يتخذ الشيطان ولياً يستد إليه ويعتمد من دون الله فقد خسراً بيناً. فأي امرأة تزيل شعر وجهها تكون قد اتخذت الشيطان ولياً واعتمدته وتركزت توليها

لربها ؟ إن هذا بعيد جدا في نظري وفيه خلط وبعيد كبير عن الأدلة اليعقوبية المفرقة بين مباني التحليل والتحريم.

120-122. بعدهم ويمنيهم ومن أصدق من الله قيلا.

إن من يقع إغواء الشيطان وتضليله علقبته جهنم ولا يجد طريقا للانفلات منها. وفي المقابل فإن الشق الآخر الذي لفتل منافذ الشيطان فسهل عليه عمل الصالحات وقام بها، فإن الله سيدخله جنات الكرامة بما تشتمل عليه من مباحج للنفس وطمانينة على دوام نعيمها، وتلك هذا الوعد بأنه وعد صادق من الله. وقول الله لا يلحقه نقص فلا أحسن ولا أكمل منه.

لَسَرَّ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْعَصَبِ مَنْ يَفْعَلْ سُوءًا تَجَزَّ بِهِ وَلَا يَحْذَرُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ زُلْمًا وَلَا نَصْرًا ۖ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْ كَصَلِحْتَ مِنْ ذِكْرِ أَوْ أَمْنِي وَفَوْزٍ مُؤَمَّرٍ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَنْظُمُونَ نَجْمًا ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا يَمُنَّ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ فَهُوَ عَرِيسٌ وَأَتَمُّهُ وَلَهُ إِزْمِيَةٌ خَبِيثًا وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِزْمِيَةً خَبِيلًا ۖ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِرًا ۖ

بيان معاني الألفاظ:

لمنيكم: جمع لمنية.

تجاوز: النكته في ظهر الفواة، وذلك مثل للقاهرة.

بيان المعنى الإجمالي:

بيئت الآية أن القصور برضولى الله لا يتحقق بالأمانى ولكن العمل الإلهي بحكم مصير البشر، فمن يرتكب ما نهى الله عنه يجد جزاءه، ولا يفلت من عذاب الله فلا يلقه قريب ولا حليف. ومن يجمع بين الإيمان والعمل الصالح من تكوّن بني آدم وإلتهم فليشتر بأن جزاءه الجنة، ولا يضع شيء من صالح أعماله ولو كان قليلا. إن من يتبع هذا الدين يبلغ به الغاية في الحسن والتوفيق في الحياة، لأنه أسلم عظه وحواصيه وقراء جميعها لله، وجعل غايته هي كل ما يصدر عنه أن يكون على درجة عالية من الإخلاص والصدق والكمال الممكن. كيف لا ومنبع هذا الدين ملتزم بالتوحيد الذي كان عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام. هذا النبي الذي ارتقى في الكمال الإنساني فوق صلته بالله فكان في جميع أوقاته مستحضرا لله مع ربه. فقبله الله وقربه منه قريبا يورعاه به في كل لحظة، كما يفعل الخليل بخليله. وهذا القرب يفهم

على أن الله هو مالك ما في السموات وما في الأرض، ومسيئنا إبراهيم واحد من هذا الكون الذي وسعه علم الله سبحانه.

بيان المعنى العام:

123- ثَمَرِ بِأَمَالِكِكُمْ وَلَا آمَالِي أَهْلِ الْكِتَابَةِ وَلَا نَصِيرًا.

تمثل هذه الآية العدل الإلهي الذي أجرى عليه سبحانه جزاء الأعمال. فنفث الآية وثبتت: نفث الأوهام التي تسبق لها بعض الظنون فيما لما يستقر في قلوب من آمن، هذا الظن المعنوي الذي ترتب عليه، أن كل فريق يظن أنه هو الناجي وأنه لا يجزى بسوء ما صنع. فاليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحبلاؤه لا يعذبهم تبعاً لذلك، والنصارى يؤمنون بأنهم باعقادهم أن الإيمان بتعذيب المسيح يكفر عنهم كل سيئاتهم. وقال بعض المحاورين لهم من المسلمين: إن أمة محمد وحدها هي الناجية. فجمع سبحانه في هذه الآية كل هذه التصورات المبنية على التعتبات، والتي تتسحب أيضاً على ما يمكن أن يحدث في المستقبل كمن يذهب به خياله إلى أن شرف نفسه أو صلاح أصوله تفتح له أبواب القبول عند الله، جميعها كلها ونفى أحقيتها وأكد بطلانها، ونفى نفعها قطعاً حصول الجزاء الصالح بالأماني، وثبتت تنصيصاً أمرين:

الأمر الأول: أن من عصى الله يلقى جزاءه المائل عما ارتكبه، ولا يعفيه من ذلك قريب ولي، ولا حليف يصره.

124- وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَلَا يَظْلُمُونَ تَقِيرًا.

الأمر الثاني: أن الفوز بدخول الجنة مرتبط بالمرتين لا بد من اجتماعهما: الإيمان والعمل الصالح. يستوي في هذا الذكر والأنثى، نفي لما ينوهمه المشركون من أن الأنثى لا ترقى إلى مساواة الرجل في مراتب القبول، وأكدت الآية على أن أي عمل صالح بالمعيار الإسلامي ولو كان قليلاً يسعد فاعله بجزائه ولا يهمله الله، وثبتت الآية أن المؤمنين بموسى الذين قنوا إيمانهم بتطبيق شريعته، وأن المؤمنين بيسى المطبقين لشريعته، والمؤمنين بمحمد العاملين بشريعته ناجون مجزيون. ولما زلت الآية وجد فيها المسلمون الصالحون من المسحاة شدة غير ما يستقر في قلوبهم من أن الدين الإسلامي يمر لا شدة فيه. روي أن بعضهم سأل النبي ﷺ: لما فهم عموم الآية وشمولها. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله ما أشد هذه الآية! فقال: يا أبا بكر! أما تحزن؟ أما نمرض؟ أما تصيبك الحلاوة؟ فهذا بذلك. على معنى أنه يجزى بها في الدنيا حتى يلتقي ربه بدون ذنب. والذي أرجحه أن الكافر مظلوع الصلة بالله فلا أمل له في مغفرة أي ذنب من ثوبه فهو يجزى بها جميعاً،

ولما المؤمن فهو على رجاء أن تغفر له ذنوبه، فمعنى الآية أن المؤمن يلقى جزاء ذنوبه ما لم يتب، أو يتفضل الله بمغفرتها، وهو معنى: أن على المؤمن أن يكون دائما بين الخوف والرجاء، وذلك مما يزيد صلة بربه وتعلقا به. ومنذ ذلك الجمع بين ما تقيده نصوص القرآن والسنة من المغفرة والفضل، ومن العدل المطلق لله بالإسلام يسمو بالإنسان إلى مستوى المسؤولية، للمسؤولية التي مؤداها أنه يتحمل تبعات أعماله السيئة والخيرة، وذلك شرف الإنسان الذي يسمو به عن جميع الكائنات الأرضية، وهو بهذا يخرج به من دائرة الأوهام ويجعله يواجه صرامة الواقع كما بآشرو.

125- ومن أحسن دينا ممن واتخذ الله إبراهيم خليلا.

إله لا أحسن ولا أكمل من هذا الدين، إن معتقه متفقا لجميع حوله ويعطيه إخلافة. وهو ما يفيد: لإسلام، أي لتقدياد الوجه، والوجه مجمع الحواس ومستقر الإدراك والفهم، فإسلام الوجه تعبير عن عمق لطاعة نبيها لصادق الإيمان. وتُسبِّح الآية بأنه محسن، ينفذ ما يقوم به من أعمال على أكمل الوجوه، ولا يكون محسنا إلا إذا صاحب عمله حسن القصد ونفذ أعماله على خير الوجوه، مطبقا الحدود التي حددها الله في عبادته، ومبتعدا عن الغش والتقصير في أعماله الدينية. إنكم لها المؤمنون بمحمد ورثة دين إبراهيم في التوحيد والإخلاص. وإبراهيم قد سما في مقام العبودية فقد اتخذ الله خليلا، ومعنى إخلاؤه خليلا أنه طهر قلبه وحواسه ومداركه، فخلع من إخلاصه أنه أصبح متصلا بربه اتصالا دائما، حاضرا للقلب مع الله، أبعد عنه ربه للغفلات، فهو في كل عمل يقوم به وفي كل حركة، وفي كل خاطرة، هو مع الله شأن الخليل مع خليله بلازمه ولا يبعد عنه. وقبل الله منه هذا الحضور فغربه كما يغرب الخليل خليله، وليس معنى ذلك مملوأة إبراهيم نوب العزة، ولكنه الفصل الذي بفضل به الله على إبراهيم، وممر أشرو أن جعل في ذريته النبوة للموحدة.

126- ولله ما في السموات وما على الأرض وما بينهما.

تصريحا بهذا التنزيه، تتبع آية (لكن الله إبراهيم خليلا) بقوله سبحانه: (وله ما في السموات). فالتكثير بأن الله مالك ما في السموات وما في الأرض من ملائكة وبشر وأجرام متفاوتة في الكبر والصغر من القدرة إلى المجرات، يؤكد التصور الإسلامي، بأن جميع الكائنات مملوكة له خاضعة لإرادته بصرف

شؤونها تبعاً لعلمه المحيط بكل شيء. وما ميراثه سينتأ إبراهيم الخليل من قرب لا يحد أن يكون صورة من صور فضله العظيم.

وَتَسْتَغْفِرُكَ فِي الْبَسَاءِ قُلِ اللَّهُ الْغَفُورُ ذُو الْعَرْشِ وَمَا يُظِلُّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي بَسْمِ الْبَسَاءِ أَلَيْسَ لَا تُؤْتُونَهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُمْ وَالْمُسْتَظْفِعِينَ مِنَ الْوَلَدَانِ وَأَنْ تَقُولُوا لِلنِّسَاءِ بِالْبَسَاءِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ أَمْرًا جَاءَتْ مِنْ بَعْثِهَا نَشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَازِمًا خَيْرًا ﴿١٠٧﴾ وَلَنْ تُعْذَبُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِمَا الْبَسَاءُ وَلَمْ تَحْزَنْهُمْ فَلَا تَتَّبِعُوا كَلَّ الْأَمَلِ وَتَعَذُّوهُمْ كَالْمُعْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا، تَقْتَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٨﴾ وَإِنْ يَشْرَقَا فِي اللَّهِ كَلًّا مِنْ أَعْيُنِهِمْ وَكَارَ اللَّهُ وَبِمَا حَكَمُوا ﴿١٠٩﴾

بيان معاني الألفاظ

يَسْتَلْتُونَكَ: استفتي طلب الفتيا.

تَرْغَبُونَ: هذا الفعل إن عدي بـ (إلى): رغب في كذا فمعناه طلب تحصيله، وإن عدي بـ (عن) رغب عنه فمعناه الإعراض.

كُتِبَ لَهُمْ: فرض لهم من الصدوق.

أَنْ تَقُولُوا: تكبروا ما يصلح لمواقفهم وأحوالهم.

نَشُورًا: الترفع عن الزوجة نرفعا يؤذيها أو يجرمها المكائنة التي هي للزوجة عادة.

إِعْرَاض: أن يبتعد عنها، وهو إيذاء دون القتل.

خَيْر: أي فيه خير.

الشُّح: ما جبلت عليه النفوس من المشاحة وعدم المسامحة وخاصة في حال الخلاف.

الْمُعْلَقَةُ: الإعراض الذي يطول معه الهجر لها فلا هي زوجة ولا هي مطلقة.

بيان للمعنى الإجمالي

التحول الكبير الذي أنجزه الإسلام في نطاق الأسرة وإيراز مكانة المرأة فيها، دعا كثيرا من الصحابة أن يتوجهوا إلى النبي ﷺ يسألونه. وكان النبي ﷺ يجيبهم بما ينزل عليه من وحي. وفي هذه الآية كل الجواب قرأنا. والقضية أن بعض القائلين

على شؤون اليتامى يتصرف تصرفاً يمكنه من غايته دون نظر لحقوق ومصالحه لليتيم التي هي حجرة. فإن كانت حميلة ثرية اختلط ماله بزوجها ولا يعطيهما الصداق الذي هو نظير صداق أمثلهما، وإن كانت غنيمة ثرية منعها من الزواج لتبقى ثروتها تحت يده، وإن كانت فقيرة ولها حظ من الجمل لم ينصفها في صداقها، فأمرت الآية أن يميز وليها في القرارات التي يتخذها على ما يقتضيه العدل، وكذلك في شأن اليتامى المذكور يجري ما يقوم به على قانون العدل. وحرصهم على فعل الصالح بأن الله لا يخفى عليه صلاحهم ومجازيهم.

ومن فضائل الأسرة أن الزوجة إذا احست أن العلاقة بينها وبين زوجها ضعفت ولها سائرة إلى ترفعه عنها وحرمتها من حقوقها لو أن يصرف عنها، فإن لها أن تختار بكامل حريتها أن تتنازل عن بعض حقوقها إذا رأت أن ذلك الفصل لها، فلها مثلاً أن تبذل له مالا على أن يطلقها، أو تتنازل له عن بعض حقوقها لتبقى في بيت الزوجية، وشأن النور أن حرصها على استيفاء جميع حقوقها جلي في نفسها، ولذا لا لوم عليها إذا اختارت عدم التنازل. ويدعو الأرواح إلى حسن المعاشرة والتزام تقوى الله، والله سيجزيهم عن ذلك.

وفصية أخرى من فضائل الأسرة أن الزوج إذا كان متزوجاً بأكثر من واحدة، فإنه مأمور بالعدل بين زوجاته. ويمس القرآن حقيقة أن العدل الكامل صعب تحقيقه، ولكن يحرم عليه أن يميل في علاقته الظاهرة عن إحداهن فيتركها كالمعلقة لا يعاملها معاملة الزوجات ولا يطلقها فتكون حرة ممكنة من الزواج بغيره. ومن عاد إلى العدل فإن الله يفر له ما مضى ويرحمه.

وإذا تذكر أن تسيير الحياة الزوجية على مقتضى المصوابط الإسلامية وتم لفراق بينهما فعليهما أن يكونا بعد هذا الانقسام لمعين في المستقبل، فإن الله يفتي كل واحد منهما عن صاحبه بما ييسره له، لأن ملك الله واسع وهو حكيم في تصرفه في هذا الكون.

بيان المعنى العام

127. ويستفتونك في النسا-فلان الله مكان به عليها.

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نكية للنفاد، قوية الذاكرة لما شهدته من الأحداث التي صاحبت كثيراً من الأحكام. ففيها في الدين، فكان الصحابة يرجعون إليها في كثير مما يشكل عليهم، روى أصحاب الصحيح، واللفظ لمسلم. عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أنه سأل خلقه عن هذه الآية: (**وإن خلتن...**) قالت يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه ماله وجمالها،

قيريد أن يتزوجها بغير أن يسط في صدقها فيعطيا مثل ما يعطيا غيره، فهوا أن ينكحهن إلا أن يسطوا لهن ويبلغوا بين أعلى منتهن من صدق. وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء. واهن. قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية فيهن قلنزل الله قللبنكحوا ما في النساء. وترغبون أن تنكحوهن قالت: والذي نكر الله: أنه ينكح عليكم في الكتاب. الآية الأولى التي قال فيها: وإن ظنتم أن لا تقسطوا فيهن فليكن ما طلب لكم من النساء. قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: وترغبون أن تنكحوهن. رغبة أحكم عن يئيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال. فهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من ينكح النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إن كن قليلات المال والجمال.

كانت الأنثى مظلومة في العصر الجاهلي، فرفع الإسلام عنها الظلم وحول وضعيتها فرفعها إلى وضعها الحقيقي بما لها من قيمة إنسانية. وهذا الوضع الجديد دعا الصحابة أن يعودوا للنبي لا يطلبون منه أحكام النساء في كثير من الأحوال. فمن ذلك ما جاء في هذه الآية. ولما كانت هذه الأحكام تدخل في صميم الأمور وكانت على غير ما فقهه نبي القرآن على أن الذي يتولى إجلابهم هو الله. وكان من عائلتهم أن الأنثى إذا كانت بتيمة محجورة، فوليتها بتصرف في حظوظها حسب هواه. فلن كانت ثرية جميلة وكان قد خلط مالها بماله ويخشى أن يتزوجها أجلبى فيقاسمه المال، يتزوجها هو ولا يعطيا صدق أمثلها. وإن ففدت المال والجمال أعرض عنها. فكانت الآية داعية للعقل في معاملة البتلى. وكذلك من هم في الولاية من الصغار، أمروا أن يقوموا على شؤونهم العامة بالعقل الذي يرضى الله عنه. وأعلموا أن ما تقومون به من رعاية للأيتام وما تعملونه معهم من خير، فلن الله يعلمه وسيجازيكم، وليكم أن يكون ظاهر أعمالكم مناقضا لحفي مقاصدكم.

128 وإن امرأة خافت من بعلها بما تعملون خبيراً.

وسما يمرض للعائلات الأسرية أن تغد العلاقة الزوجية السود والسكن، فيميل الزوج عن زوجته، وتضعف رغبته فيها. هيرد العلاقة وتنفذ بتحول، إما إلى ترفع الزوج وإيذاء الزوجة بالكلام الخالي من اللطف، لو تعبيرها أو بالتفكير عليها في النفقة، وهذا من التشو، أو بالابتعاد عنها فلا يجالسها ولا يتحدث إليها ويهملها، وذلك تبعاً لميل نفسه عنها. هذا الوضع ليس وضعاً عالياً ولا كثيراً، عمل القرآن على علاجه

حتى لا يزول إلى هدم الأمرة بالطلاق. وهو لا يحدث فجأة، ولكن يتطور شيئاً فشيئاً حتى ينتهي إما إلى الإضرار أو الطلاق. والنساء أسرع في الإضرار بهذا التقدير في سلوك الزوج لأنه أمر عاطفي وقد وهب الخالق للمرأة قوة في عاطفتها حرم منها الرجل إذ بها تصير على الحمل وما يتبعه من الحضانه والعناية بالمولود إلى أن يبلغ سن النضج. قبل خلو الزوج من بلوغ هذا التقلب غاية مداه، أرشدها القرآن إلى ما يمكنها أن تقوم به لعلاج هذه الحالة في أول مراحلها. فللمرأة في هذه الحالة أن تختار وتقرر لعواقب يكمل حريتها وتقرر للحل الذي نعتقد أنه أنسب لها مما يحل لها. فلها أن تطلب طلاقها وتقدم للزوج ما لا مقابل فك عصمتها منه، وهو المعبر عنه بالخلع. وما يأخذه الزوج من مال مقابل طلاقها خلال، إذا كان برضا الزوج وبدون إضرار تعسف منه. وقد يكره الزوج أن يعاشرها العشرة العادية لكرهها أو لملئتها، أو تغير عواطفه لأمر من الأمور، أو تكون ضررها مثلاً قد استولت على عواطفه. فهي مثل هذه الحالات للزوجة أن تختار طريقة نرضاهم للبقاء مع زوجها، كل تنقزل عن قسم العسل ولا تطالب بحبها في الفرائس، أو تنقزل عن نوع من النفقة التي عودما بها. نفقت الآية الإنتم عن الزوجين عند اختيارهما لحل فيه تنقزل عن الحقوق. بل إن الآية حثت على السعي للمصالحة مع الحبيطة، لأن شأن المصلح أنه لا يستل إلا بتنازل من الطرفين أو من أحدهما. ولأن المصلح كله خير. ونكر القرآن بأن كثيراً من النفوس تشج بحقوقها ولا تتسامح. ولكن النفوس التي روضها الإيمان وعمرن فيها وشائج الأخوة والحب والرحمة، لا ترضى أن يكون تصرفها كتصرف النفوس التي لم يدخل نور الإيمان في قلوبها، ويحرض القرآن الزوجين في هذه الحالة على للتخلق بصفة الإحسان وما يصحبه من تقوى الله ووزن كل طرف قراره بهذه التقوى التي تظهر النفوس من الأمانة وما يتبعها من قصر النظر على الحياة الدنيا.

129- ولئن لمستعصموا أن تعدلوا بين النساء شفقتن رحمهما.

ثم علاج القرآن وضعاً آخر من لوضاح الأمرة عندما يتزوج الزوج بأكثر من واحدة. فبطن حقيقه مفادها: أن للطبيعة التي خلق الله عليها الإنسان لا تمكنه من العدل بين زوجته مائة بالمائة، وهو العدل الكامل. ولما كان العدل على مراتب، ولم بعضها هو مذهب التكليف، وبعضها نابع لميل الطبع لا يستطيع له الإنسان حولاً، فميل نفس الزوج إلى إحدى زوجاته أكثر من ضرورتها هو أمر خارج عن نطاق التكليف لا يؤخذ به ولا يعاقب عليه، وأما ما يترتب على هذا الميل من تمكين الزوجة، التي هي أقل تأثيراً عليه، من حقوقها من إنفاق وحسن معاملة وقسم

عادل، فهو مسؤول عنه معرض لجزاء الظلم أو العدل. ولذا نهت الآية الزوج أن يهضم حقوق زوجته التي مال قلبه عنها، فيتركها كالمعلقة التي لا هي خلية من زوج تتعرض للزوج بمن يكرمها ويرعى حقوقها، ولا هي زوجة تتمتع بما شرعه الإسلام لها من حقوق ومنزلة في الأسرة. وحرض سبحانه من فرط في حقوق المرغوب عنها أن يثوب ويثوب، بأن يصلح سلوكه. ويحترم زوجته بما لها عليه من ميثاق الزوجية، ويستحضر فيما يستقبل تقوى الله التي تعطله أن يجور لو يهمل، إن من فرط وتآب يجد من ربه المغفرة لما سلف منه وينعم برحمته بما يفتح له من عون في حياته .

130- وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنَسَا حَكِيمًا.

ثم فرضت الآية الحل الآخر إذا نفر الزوج من زوجته وتعدت إقامتها معه على ما أوصى به القرآن، ولم كرض هي بالتفراق عن أي حق من حقوقها، ولم يرض هو أن يطوع قلبه لما ترغب فيه، فإن الفراق هو الحل. والله يقضي كل واحد عن صاحبه ويفتح له مبيلا في الحياة. يؤكد ذلك أن الله الذي لا يحد ملكه فخير يخضع له ما تعلقت إرادته بتحقيقه، حكيم في تسييره للعالم.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكَفَرُوا قَرَّبُوا بِلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا غَنِيًّا ۖ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكُلٌّ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۚ إِنَّ يَتَنَبَّأُ مُذِخِبَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَهَلْ يَسْتَخْرِجُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ إِلَٰهٍ قَدِيرًا ۚ مَنْ كَانَ يُرِيدِ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا نَصِيرًا ﴿١٣٠﴾
تَبَٰئِبُ الْأَوَّلِ ؕ ائْتُوا كُتُوبَ الْأَوَّلِينَ بِالْقِسْطِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِمَا تَعْبُدُونَ أَنْ تَعْبُدُوا
وَأَنْ تَقُولُوا أَوْ تَعْرِضُوا ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۚ

بيان -عائى الألفاظ

تَوَامِين بِالْقِسْطِ - ملتزمين بالعدل في الأحكام.

اللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا - أحق بالنظر في شأن الغني والفقير .

تَلَوُوا - التي هو خروج الإنسان من العدل إلى الظلم في الحكم لو عن الصدق إلى التزييف في الشهادة.

تعرضوا: تستعوا من الحكم بعد ظهور الحق لو تمتعوا من أداء الشهادة.

بيان المعنى الإجمالي:

تذكر هذه الآية بما استقر في قلوب المؤمنين من أن الله هو المتقود بملك السموات والأرض. لثرت على هذه الحقيقة الامتثال للتشريعات والإرشادات التي وردت في الآيات السابقة ولترتب على ذلك استقراض لهم لمراعاة تقوى الله في الحياة، التقوى التي هي ركن هام، تولت الوصاية بها على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ومن قبله من رسل الله عليهم السلام. وبناء على ذلك فإن من أعرض عن التقوى وكفر بالله فإن كفره لا ينقص شيئا من سلطان الله، فالله هو الغني عن عباده للمستحق للحمد دائما، وبما أنه مالك الكون كله، فهو الضامن لسيرونها على المسار الذي سنها، ويتوعد الكافرين بأن قدره الله لا يعجزها أن يقضي للمعرضين عنه ويأتي بأخريين مطيعين خاضعين له، ويذكر البشر بأن مزية هذا الدين أنه يفتح لمعتقيه العلمين به أسباب النجاح في الدنيا والآخرة. ولا يتأقصر بين العمل للدنيا مع العمل للآخرة، والنجاح في الحياة يقوم على العدل فإذا ذهب العدل اختلت الحياة، ولذا أمر المؤمنين أن يكونوا مستعنين دائما لنصرة الحق في القضاء لا يتراخون إذا ما أحسوا بخالف للظلم تمزق حصن للحياة الأمتة. وعلى من يتولى القضاء أو الشهادة أن لا يتأثر بوضع المتخاصمين، من الفقر أو الغنى أو المكانة الاجتماعية، ولا بعلقة الأبوة أو القرابة، فإن الله هو الذي يتولى عباده وليس لكم أن تراعوا أحد الخصمين على الآخر. ولتحتذروا الانحراف عن العدل في الحكم أو الميل لأحد الخصمين وتقويته على خصمه، لوتربيف الشهادة، أو أن تمتعوا من القضاء أو من أداء الشهادة إذا كفى في ذلك نصيب الحق، فإن الله يعلم خفية ما تعملونه، ولا يغيب عنه باطن قصدكم ويجازيكم على ذلك.

بيان المعنى العام:

132-131 وثله ما في السماوات وما في الأرض... وسكنى بآله وسكنا

فصلت الآيات السابقة الجزاء على الأعمال. وبعض أحكام الأسرة التي إن صلح أمرها استطاع الإنسان أن يؤدي مهمة الخلافة في الكون، وإن فسدت قصر في ذلك. وأعلنت هذه الآية الحقيقة التي تستند إليها تلكم الأوامر والتعاليم والإرشادات: هي أن الله يملك وحده ما تحتوته السموات والأرض، وأنه لما كان مالكا لها وحده فهو العليم بما ينفع للناس ويصلح لأمرهم، وأنه حفيق بأن يتولى البشر برعايته ويكشف لهم ما خفى عنهم، فيصوبهم بما فيه خيرهم مما يحجبهم عن إدراكه شهورات النفس ومحدودية علم. تلكم الحقيقة تتبعها حقيقة سرمدية باقية هي

الأساس الذي يبنى عليه صرح السعادة، أوصى الله بها البشر في عهد الرسالة وفيما سبق من الأزمان، فما من رسول إلا دعا إليها وكرر الدعوة، هي تقوى الله التي كانت أكثر كلمات القرآن ترددا، أي أن يكون الله حاضرا في قلب الإنسان وفي مشاعره، يصحبه عند كل عمل أو ترك، فيرقب ربه ويستحضر منته عليه، ويتكشف له ما تقوى أن الله لا يحفى عليه حقائق الأعمال والقوى ولا تحجبها المظاهر فهي امرأة من كل غشاء كاذب، ثم تمت بمقبيل التقوى والأرجاء بالله، بأن من قطع صلته بالله وكفر، فإن كفر من كفر لا ينقص شيئا من سلطان الله على الكون. إنه سبحانه هو الذي عن عبادة العابدين وشكر المتكبرين ولا ينقص من ملكه وعظمته كفر الكافرين ولا جحود الجاحدين، إنه المحمود الحقيق بالحمد، حمده الإنسان لو لم يحمده، ويؤكد القرآن تلك الحقيقة: أن الله وحده مالك السموات والأرض وهو لا يكتل أي المنصرف فيها كما نشاء حكمته وتقديره.

133- إن يشا يذهبكم.. على ذلك نصيركم.

إن هذا المنصرف المطلق يبين أن من مضموه أنه لا راد على أن يمحى هؤلاء المعاندين قناتين لديه، فإسعين في أوضه فسادا تبعا لكونهم واستكبارهم بخير الحق. وإن من مقتضيات ذلك الملك المطلق والقدره التي لا تعدها حدود أن يذهب هؤلاء والإتيان بالآخرين بقوى الله ويخشونه من ليسر ما يتصور بالنسبة للقدره الإلهية.

134- من كان يريد الدنيا.. سميها بصيركم.

بعد تلك التهديد يعود القرآن لاستجلاب البشر لمطاعته ويفتح لهم فيصا برغبونه من فضله، ويؤكد لهم أن التقوى والقرآن منه تنبعهما لموضوع الدوال والخير الشامل لمباح الدنيا والشوق في الحياة الآخرة، والله لا يغيب عنه شيء يقع في الكون، سواء أكل حوتا يسمع وإلى خفي، أو ذاتا من شأنها أن ترى مهما حذرت، فهو يجزي عن الكلمة الحسنة وعن فعل الخير.

هذه الإسلام هو الذين الذي يجمع بين الدنيا والآخرة، وينبغي أن يكون بينهما تضاد، وأن التوسعة على الإنسان في الدنيا لا تأتي أن يفوز بالكرامة في الآخرة متى آمن والتزم بتطبيق شرع الله في تعامله لشؤون حياته.

135- يا أيها الذين آمنوا.. كما تعلمون خبيركم.

ثم يدعو القرآن المؤمنين أن يكونوا قائمين على سيادة العدل في القضاء. وإشراف المؤمنين جميعهم في القيام بنصرة العدل بضحي إلى محاربة الجور حتى يصبح

المعرف السائد في المجتمع الإسلامي هو إجراء العدل ومقت الظلم والائتمار منه ومن مرتكبه. ولا يتم قيامهم بالعدل إلا إذا استقاموا فسلوا الشهادة فتني يعتمدها القاضي في فصل القضايا شهادة صادقة يرعى فيها الشاهد ما أوجبه الله من الصدق ويؤدبها على الفصل وجه يكشف الحقيقة، ولا يكتف أو يحول بعض الجزئيات التي تؤثر فيها. فربط الشهادة بالله بحتم على الشاهد أن يرقب الله عند أداء شهادته. وبينه القاضي والشاهد لما يمكن أن يؤثر عليه في حكمه، لوفي شهادته فيحكم الشهادة أو ينصر من تفاصيلها أو يضيف في ثناياها شيئا مما يحولها عن وجهها. عليه أن يلتزم ما ينصبه للحق والعدل ولو كان الأمر متعلقا بذاته في الحكم والشهادة.

فليرد الشهادة على وجهها، ولو كانت على نفسه، ولو كانت على من تربطه به لشدة الروابط الاجتماعية كالوالدين والأقارب بصفة عامة من زوج أو ولد أو صديق. ومن قوة العناية بالعدل نصت الآية على الولدين والأقربين بعد التفسير، لأن بعض الناس يكون لهم من الشجاعة ومزق النفس ما يقضون به على أنفسهم أو يقرون به، ولكن إذا نطق الأمر بالوالدين أو للزوجة قامت الحمية والتأثيرات الجانبية تنصير وتضبط، فأكد القرآن على الالتزام بالعدل، وكما نبه القرآن المؤمنين أن لا يتراخوا في إجراء الحق مع الناصر أو مع الولدين والأقراء، فبها حماية لهذا النظام الاجتماعي الذي يحرص عليه، لتسلف إلى ذلك، لتحذير من لتأثر بالوضع الاقتصادي، فمن الناس من يعامل الغني لغناه وإن كان مبطلا، ومنهم من يراف بالتفكير لغناه فيقوي جانبته باطلا بالحكم أو الشهادة، فيبده القرآن للمؤمنين إلى أن يحموا أنفسهم من هذه الأوهام، وينكر بأن الله وحده هو الأولى بالفقر والغني ولا يكون الفقر أو الغنى عاملا على توجيع جانب المبطل.

إياكم أن تتكفروا بالهوى وما يزينه لكم، فإن الإسلام إنما جاء لإخراج الإنسان عن داعية هواء المضلة، ولا يكون عبدا له حقا إلا إذا طفر بالتحكم في دواعي النفس. إن الهوى يدعو للانحراف عن العدل وينفع إلى العدول عن الحق في الحكم أو عن الصدق في الشهادة، وهو معنى **(ان تنكروا)** وقد يدعوكم إلى المطالبة في الحكم حتى يضييع الحق، أو الانتداع عن الشهادة ليمعز المحق عن إثبات حقه.

وينوع القرآن في حثمة ما قررره، بأن الله لا يحصى عليه الدواعي الباطنية التي تنحرف بالإيمان، ولا يشتبه عليه الحق بالباطل والنجور بالظلم، على معنى أنه ميحازي كل إيمان بحقيقة فعله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَهُ وَكُفِّرْ وَرُسُلَهُ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ إِذَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا
ثُمَّ إِذَا دُأُوا لِكُفْرٍ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَجِدُ سَبِيلًا ۝ يَمْشِي الْمُنَافِقُ أَنْ
هُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَبْغَضَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْغَيْرَةَ لِلَّهِ الْغَيْرَةُ بَيْنَهُمَا ۝ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ
إِذَا جِئْتُمْ إِلَى غُفْرَةٍ أَوْ غُفْرَتَيْنِ يَسْتَضِيءَا بِهَا نَارُكُمْ فَلَا تَقْعُدُوا عَنْهَا حَتَّى تَخْرُجُوا إِلَى غُفْرَةٍ
غَيْرِهَا ۝ إِنَّكُمْ إِذَا تُثْلَغْتُمْ ۝ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ أَنْ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۝ وَإِنْ
لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَهُ جَمْعُكُمْ
بِمَنَاصِقِكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝ وَلَنْ يَحْتَمِلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝

بيان معاني الألفاظ

أولياء من دون المؤمنين: جمع ولي: نصير قريب.

يتربصون بكم: ينتظرون ما سيحل بكم.

نصيب: حظ قليل من النصر.

نستحوذ: ندفعكم للقتال بما خططنا لكم لتحقيق ما تم من الغلبة.

بيان المعنى الإجمالي:

يذكر القرآن المؤمنين بأن يكون شعورهم بعبوديتهم حيا في نفوسهم ليواصلوا التبات
عليها. هذه العقيدة التي تشمل الإيمان بالله المتمصف بصفات الكمال، ورسوله
محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وبالقرآن المنزل عليه، وبالكتاب الذي أنزلها الله على رسوله،
والتي لم تحفلها الأمم المنزلة عليهم، ففرطوا فيها، فاندست لو خربت. فالإيمان
بها إيمان إجمالي لا تفصيلي، ومن يكفر بذلك لو ينكر البعث في اليوم الآخر، فقد
سلك الطريق المقابل للاتجاه الصحيح وضل ضلالا كبيرا. ولشنع أحوال هؤلاء
هو حال الذين تردوا بين الكفر والإيمان، فكما نزلوا في الإيمان قليلا عادوا إلى
كفرهم، وهكذا إلى أن فارقوا الحياة على الكفر: فهؤلاء لا أمل لهم في مغفرة الله
ولا في بلوغ الهدية إلى الحق. هؤلاء المتلاعبون بالدين هم المنافقون فيشرهم بأن

به اعد لهم عذابا يبلغ ألمه كل جزء من كيالهم، إيهم قد اقتصروا واقتسبوا الكافرين ويلقي القرآن سؤالا يوضح سوء اختيارهم، ما الذي يبعثون أن يحققوه عوالاتهم للكافرين؟ ليبعثون أن يمشكوا من منازل العزة بهم؟ كلا! في العزة لله حصصا، يمكن منها من امتدح للايمان فقط.

احتر القرآن من مصلحة المنافقين الذين بلغ مكرهم، أنهم كانوا يعملون على رخصة تقديس آيات الله فيمشكزون بها في المجاس، ويخفون قصدهم الخبيث حتى ما أرادوا إلا التزويج والتخفيف من ثقل الجسد. كل شهى سارما عن القعود معهم إذا استهلوا بآيات الله، في التفاضل عهده مال من يجالسهم في هذه الحال أنه يكون مثلهم. وقد تقرر أن الله سيجمع الكافرين والمنافقين في نار جهنم. اعلموا أنهم لا ينفوا الموضوع وبالتالي القبول الذي يظهرون به دأما، فيا لكرمكم الله بفتحكم وتصرفكم على جيوش الكافرين وحاولوا مقابلتكم بأنهم جزء منكم وحضروا عصر مجامعكم العامة كأداء الصلاة معكم فلا يخذلكنم تقابلهم. وفي المقابل إذا حقق المشركون أقل نصر وأهونه انفضوا بحورهم يذكرونهم بما أعالهم به من رحمة وتأييد، به فتموا على غزو المسلمين، ولهم زيادة على تلك كانوا يطمحون لمسلمين ويمسحونهم مختلف أنواع المكر من الجهاد. إن الله سيحكم بينكم يوم قيامه فيظهر المنافقين على حقيقتهم مخزيين.

ثبت الله المؤمنين بوعد أنه ينصر دينه ويؤيد المؤمنين، فمن يستطيع المشركون لامن يكون معهم أن يستولوا على المؤمنين الصالحين المطيعين لشرع الله في حياتهم.

باسم العن العام:

136 يا أيها الذين آمنوا صولوا سديا تعملون خيرا.

ناه للمؤمنين ليكرنوا نوما مستحضرين لقاعدة الأولى التي يلي عليها الدين الإسلامي، هي الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزله بواسطة ملك جبريل عليه السلام، ويأن الله لم يهمل البشرية فأنزل أيضا كتابا بلغهم إياها سلهم، ولكنهم فرطوا فيها فلم يحتفظ بصحتها الذي أنزلت عليه، فلو اها الزمن أو حرفت تحريفا فقتت معه كل حجية، فالإيمان بها هو إيمان إجمالي لا تفصيلي. لزيادة البيان والتأكيد صرح القرآن بالوجه المقابل للإيمان وهو الكفر ومبائيه التي هي ضد الأولى، وفصلها تفصيلا أتم. فمن كفر بالله بالإنكار الالهية أو يدعاء غيرك له، أو فكر وجود الملائكة، أو جحد أن الله أنزل كتابه وحيا إلى رسوله، أو شب الزمئل جميعهم لو كذب واحدا منهم، أو لم يؤمن بالبعث وما كشف عنه

القرآن مما يجري يوم القيامة (اليوم الآخر) من كفر بكل ذلك أو بولحد منها فقد ابتعد عن الحق بعدا كبيرا فقد معه الاعتداء. هو كمن طلب أن يبلغ مكانا عر يمينه فاتجه وجهة الشمال فكلما زاد خطوة ولوغل في سيره زاد ضلوعا وضل ضلالا كبيرا.

137- إن الذين آمنوا ولا يهتديهم سبيلا.

إن هؤلاء الكافرين على مراتب. فاشدهم ضلالا فمتلاعبون بالدين الذين أظهروا الإيمان ثم ارتدوا فكفروا، ثم أظهروا الإيمان من جديد ثم رجعوا إلى ضلالهم وكفرهم، وتمكن الكفر من قلوبهم وغشى على بصائرهم واستمروا على كفرهم إلى الموت هؤلاء ما قدر الله لهم من واسع مغفرته شيئا، وحرمهم من كل هداية، لطبق عليهم ظلام الكفر فلا يبين لهم أي خيط من ألوار الإيمان.

138-139، بشر المنافقين بأن لهم عذاب نلهم جميعا.

هؤلاء المنافقون الذين كانوا يسخرون من المؤمنين ويتلاعبون بالدين، توجه القرآن على طريق النهك بهم، فدعا النبي ﷺ أن يبشرهم، وبما ذا يبشرهم؟ يبشرهم بعذاب يبلغ ألمه كل جزء من كيافهم، ثم شنع بهم وفضحهم ميرزا ضمعهم مذركهم، إذ كانوا في باطن أمرهم يتولون مشركي مكة فيخلصون لهم ويؤيدونهم ويظهرون لهم قود ويعدونهم بأنهم معهم ولهم من ناحية أخرى لا يعتمدون إلا عليهم، يفعلون ذلك مضادة للمؤمنين، ويبلغ للتشنيع بغياتهم مبلغا كبيرا بالغ، السؤال التالي: لماذا ذا يتولون المشركين؟ ليتولودهم ليعتزوا بهم؟ إن العزة لله لا يشركه غيره فيها إلا من أولد الله أن يعزوه، وذلك بين، لأن أمر المشركين إلى زوال وضعف، والإسلام يزداد كل يوم امتدادا وانتشارا وقوة. فهم قد خرجوا من دائرة العزة والدعوة إلى دائرة الهوان والضعف.

140- وقد أنزل عليكم في الكتاب ما يحذرهم من المنافقين الذين كانوا يخفون ثم يظهرون.

ثم التقت القرآن إلى المؤمنين يحذرهم من المنافقين الذين كانوا يخفون ثم يظهرون إلى أمر ربما يتغل عنه بعضهم. ذلك أن المنافقين وقد كانوا منسجين في المجتمع المدني ويبالقون في التلخي، بلغوا من خبيثهم أنهم يعتمدون إلى المقدس. إلى آيات الله فيخفون بها ويستهنون بها، ويظهرون لهم بما يفعلون ذلك ترويح للنفس ولعيا، وهو ما صرحت به الآية (ولمن سألهم ليتوان إنما نسوا لغوهم

وتلعب فكر لياض وأيقته ورموله كتتم تستيزون¹ فيه القرآن المؤمنين الصادقين: أن عليهم بمجرد ما يبلغ المنافقون هذا الحد من الجراءة، أن يقوموا من تلك المجلس ويقاطعواهم، إظهاراً لفضيحتهم وتفضيحه التجري على آيات الله. وهذا الموقف هو الموقف المبتلى. ففي المجالس القولية إذا تعدى أحد الخطباء على مقاصد دولة من الدول خرج وقد تلك الدولة حالاً رفضاً لما سمع وإنكاراً. وعرف المؤمنون بما يترتب على مصالحتهم والبقاء معهم إذا تعدوا السخرية من الحق الذي أنزل عليكم، إنكم إن بقيتم تكفونوا معانين لهم، وأعظم بذلك إنكاراً ووعظاً. ولا فرق بين عقوبة الكافرين الصرحاء وبين المنافقين، إن الله سيجمعهم في جهنم ماوى المذاب والمهانة.

141 الذين يتوحدون بحكمهم على المؤمنين سيلاً.

نايمت الآية لثالية الكشف عن نفسية المنهين الظفة، فهم بين ما يحسون تحقيقه، وبين الواقع الذي يكذب أمانيتهم في معظم الأحوال. هم منتظرون، ليس لهم موقف صريح، فكل صدام بين الكفر وبين جماعة الإيمان، سواء إلى أنزل الله تليده وقتح على المسلمين ما يثبت الصادقين ويضع الكافرين، قال المنافقون: ألم يكن معكم، بما أعلنوه، كذبا، من إيمانهم، وحضورهم مشاهد التجمعات الإسلامية، وإن كان للكافرين نصيب قليل من الغلبة، طاروا فرحاً وألغوا بما كان لهم من فضل في ذلك، تكروا المشركين بأنهم هم الذين تولوا الخطيئة ما أقسموا عليه في حروب المسلمين، وفصلوا لهم ما يجب فعله وما يتحتم تركه، ثم دفعوهم إلى قتل المسلمين، وهونوا عليهم أمر المعركة، فهذا هو معنى الاستحالة في الآية. ذلك أن هذه الصيغة ذاتي بمعنى الاستبلاء والغلبة كقوله تعالى **استعدوا عليهم تشيطن²** ووردت في هذه الآية، وتأتيها على الغلبة كما جرى عليه المفسرون السابقون فيه تحل وحمل على معنى بعيد لا يجمع مع ما جاء تألوا لها **(ولسنعلمكم)** فهم بين دفع وحماية.

إن إدلال المذنبين على المشركين ورد مركبا من أمرين، أنهم أحاطوا بالمشركين بتقلدهم في حملهم على الهجوم على المسلمين بتوحيين قوة المسلمين، وبمدهم بأخبارهم، وطلاعهم على الثغرات التي يأتون منها، وضغفوا نواحي الضعف فيهم، حتى دفعوهم إلى شن الحرب، ثم إنهم من ناحية أخرى ألدوا بما كانوا

¹ سورة التوبة الآية 65.

² سورة المجادلة آية 19.

يقومون به من حماية الكافرين من المسلمين، بترويح الإغاثات التي يرمون من ورائها بث الخوف في المجاهدين، ومن عونهم بالسلاح والعتاد خفية، ومن خروجهم مع المسلمين للجهاد ثم رجوعهم قبل المعركة ليدخلوا الاضطراب في الجيش الإسلامي، كما كان موقفهم الذي سجله القرآن عليهم في وقعة أحد كما سبق بيانه في هذه السورة. فكلما استحوذ، مأخوذة من الحوذ: السوق السريع أو العنيف وقال الفيروز آبادي في القيصرة: (استحوذ، استقلهم مستوليا عليهم من حاذ الأبل يحونوها إذا استقلها سوقا عنيفا) فهم يخلون بأنه لولا ما قدموه للمشاركين ما كانت المعركة لتنتهي، فهم يريدون أن يقتلوا المشاركين بأنهم هم الذين دفعوا إليها ويمسروا لهم أمرها ونولوا مع المسلمين من التكاية بهم. وبهذا يترجح عندي أن ما يرغب المنافقون فيه ليس التحصيل على حظ من المغنم، كما خرج الآية عليه معظم المفسرين وإنما الذي يبطون تروجه، أن يثق بهم المشاركون وأن يطمئن إليهم المسلمون، وما كشفه القرآن من مكر المنافقين مع أنفسهم في صفوف المسلمين، وعدم تميزهم، اتبعه القرآن بأنهم وإن استطاعوا أن يفلتوا من تسلط المؤمنين عليهم في الحياة الدنيا فلأنهم سيذلون لجزاء قتالهم يوم القيامة وسيفضحهم في ذلك اليوم بإحضارهم للمحاكمة بين يديه. ثم طعن القرآن المؤمنين بأن الله فتر أن لا يكون للكافرين عليهم السلاطن الذي يطهرون به على الإسلام، وتكون لهم الغلبة عليهم.

وهذا يثور سؤال حاصله: أن الكافرين قد أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم في الأندلس، وأجبروا من بقي منهم على التمسك، ومجل التاريخ التكتيل المعزري بأوامر رجال الكنيسة، وكذلك الأمر في صقلية، ثم إن الاستعمار قد اكتسح بلاد العالم الإسلامي واستولى الكافرون على أموالهم وأراضيتهم، وتحكموا في رقابهم، وبخروهم نصرتهم في حروبهم. والله لا يخلف وعده.

والجواب عن ذلك: هو أن المؤمنين الذين وعدهم بالحماية والتأييد ليسوا الذين ينتسبون إلى الإسلام بأقوالهم أو بأمانيتهم، ولكن المسلمين الذي كتب الله لهم العزة ووعدهم أن لا يجعل للكافرين عليه سبيلا، هم المسلمون الذين يطيفون ما جاء عن الله في الأسس التي أسروا بمراعاتها في السلم والحرب. ففي الحرب أسروا بالاستعداد والجهاد. الاستعداد الذي يحتم عليهم أن يكون مستواهم العلمي في صناعة الأسلحة ومستواهم في فنون الحرب يتطور مع الزمن، يثبتون دتما على

لأن يكونوا في مقعة الأمم في هذا الميدان برهبهم أعدائهم، وتصغر أي دولة عن أن تحتلها نفسها بالاعتداء عليهم، وبالجهد بما يقتضيه من التدريب العالي وتربية القنوس على العزة وبذل النفس في سبيلها.

وفي العلم بأن يكونوا صفًا واحدًا متعاونين لا يفرق وحدتهم لطماع دنيوية حقيرة، وأن يكونوا في ميدان العلوم لغة بما يبذل في سبيله من عزم قوي وبذل سخي، وأن تكون راية العدل المنيرة للحق مؤكدة للعزة لا ينكسها أي سلطان، مصونة من العبث ومن تصغيرها للأغراض الضيقة، وأن يكون الالتزام بالقيم الخلفية يمثل عقداً بين المؤمنين جميعاً على مختلف مستوياتهم. وأن يكون الالتزام بالعبادة الحارس لهذا البناء، يملئ الشعور بلذة الطاعة. فهل المسلمون عندما غلبوا على أمرهم كانوا على هذه الحال؟ التاريخ يشهد أنهم ما فهموا إلا بعد الفترات العقد الرقيق الذي نظمته الإسلام فتاثرت حياته، وتمزق النسيج المتميز فتاثرت لحيته ومداه، ولم يبق من الإسلام إلا لشباح بدون روح.

إِنَّ الْمُتَفِيعِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُمْ -حَدِّثُهُمْ- إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾ مُتَعَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى مَوْلاَةٍ وَلَا إِلَى مَوْلاَةٍ ﴿٢﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٣﴾ يَتَّبِعُ الَّذِينَ قَامُوا لَا تَتَّبِعُوا الْكَاذِبِينَ أُولَئِكَ فِي دُورِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْمُتَفِيعِينَ فِي الدِّينِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ حَصِيرًا ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَسُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ وَنُوفِ بِنُوفِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧﴾ مَا يَقُولُ اللَّهُ يُعَذِّبُكُمْ إِنَّ شُكْرَكُمْ وَءَامِنُكُمْ وَكَذَلِكَ اللَّهُ شَاحِكٌ عَلَيْكُمْ ﴿٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

يخدعون: يظهرون خلاف ما يطمنون نموها وتضليلها.

كسالى: جمع كسلان وهو من كان فترا متغلا في القيام بعمله.

المتنبي: المتردد بين امرين

الدركة: المنزلة في الهبوط

بيان المعنى الإجمالي:

فصح القرآن المتألفين بأن صورة أصلهم كمسورة من يسعى لخداع الله، إنهم يجتمعون مع المسلمين في بعض المجالات الصالحة فقد يجتمعون للصلاة مع الجماعة، وقد يتكلمون لرسول الله ﷺ بالسؤال أو طلب فصل قضية نزاع ونحو ذلك، وهم يظنون أن الله لما لم يعجل بعقوبتهم ولم يوقف كيدهم، أنهم آمنوا جانيبه وخذعوه. وثبت القرآن أن الله لما لم يعجل عقابهم ولم يستأصل شوكتهم هو قد أملى لهم، فهم في الحقيقة مخدوعون لا خادعون، لأن جزاءهم مؤجل و ثابت لا شك فيه.

والمؤمنين سمات وتفتح بها ما أخفوه من خيفة لمرهم. فهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متأملين، فهم أن يظهروا للناس بظهر الغناد رياء. ووهت صلتهم بالله فلا ينكرون إلا في حالات قليلة مما جرى على الأكنسة أو في الظروف التي يظنون أن هناك من يراقبهم. وهم أيضاً اعتدوا العلمانية في العقيدة والحياة فهم مرة مع المشركين يتوددون إليهم ويبنون لهم ما يكفهم من مآوأة الإسلام والمسلمين، ومرة مع المسلمين يظهرون لهم أنهم معهم حتى يلبسون بالمال إخفاء لمكرهم، وهم بذلك كانوا معززين بين الكفر والإيمان، فلا هم مؤمنون حقا ولا هم معتنون بكفرهم فيؤمنون. وقد كتب الله عليهم الضلالة بسوء أعمالهم وفساد طوبيتهم فلا تنتظر أن يهدوا لسبيل الحق.

ولما كان وصع الكفر الظاهر وأخفي ما بينه القرآن، نبيه الله المؤمنين إلى خطرهم فحتم عليهم أن لا يعتمدوا عليهم ولا يعاملوهم معاملة الأولياء، حذرهم سوء العاقبة بأن من يتولى الكفارون لا يجد يوم القيامة جوابا ولا عذرا ينجيه. فلا بد أن يتحقق في الكون صفاء التركيب الاجتماعي الإسلامي، ومشد التحذير من المتألفين بأن مصيرهم هو في أحط المنازل وأسونها في النار ومع العذاب المهيين اليأس من المستقبل فلا يجنون نصيرا يخفف عنهم يوما من العذاب.

وكشأن الثوران يعمل دائما على جلب الناس لطريق الهدى لا للانتقام منهم فيبشر المتألفين، على علم حرمهم، بأنهم إذا تراءوا وأصلحوا عيبتهم وعلمهم ووتقوا بعصل ربهم وأخلصوا فطردوا كل شبهة من شبه الشرك وكل تخيلة من رياء، فإن مصيرهم هو مصاحبة المؤمنين الذين لم يخاطب التفات قلبهم، المؤمنين الذين أعد الله لهم أجرا عظيما لا يحط مقداره. ويؤكد هذا المعنى بأن الله لا يريد التتكيل بعبداء الذي عرفوا حق نعمه عليهم وأمنوا، فإن الله يشكر لعباده بحسن الجزاء للمالحين. والله من صفاته أنه شاكرا وهو العليم الذي لا يلتبس عليه أمرهم ومقاصدهم.

بيان المعنى العام:

142- إن المنافقين يخادعون، ولا يذكرون الله إلا قليلا.

وأصل القرآن كشف حقيقة المنافقين وفضح خيلتهم. إن أهم سمة للمنافقين هي قدرتهم على التخفي، والظهور بمظاهر تحمل لناظر الجاهل بهم الخير والكمال، وفي الحقيقة هم يبتلون خلاف ذلك. يحضرون الصلاة مع الناس، وقد يبتلون من المال ما يبعد تصور عدائهم للإسلام، يعملون على هذا التمسك ليتمكنوا من الاندساس في صفوف المسلمين ويطلعوا على أسرارهم، ويمكروا بهم كلما وجدوا الفرصة سانحة، وهمهم أن يسهوا في القضاء على الإسلام. فاعمالهم الظاهرة تعتمد على غيلة الآخرين. ومن غيلتهم وفسادهم أنهم يظنون أن الله غور مطلع على ما يسجونه من مكر وما يبتقونه من بغض لنبيه وما يخططونه للإجهال عليه، ولأنه لما أمهلهم ولم يسلط عليهم عاجل عقوبته، أنهم بذلك قد حققوا ما يريدون دون أن يسهو أذى. ويعلم القرآن أن ما يترصد من جزاء يوم القيامة يكشف لهم أنهم هم المخدوعون، والله لعل من أن يخفى عليه ما تنطوي عليه صدورهم وما يدونه في الخفاء. وحتى يعرفهم المزمعون كشف القرآن عن بعض سماتهم التي تميزهم.

أول سمة: لهم إذا حضروا وقت أداء الصلاة مع المؤمنين يظهر عليهم التثقل والوان، على عكس المؤمنين الصالحين الذين يشعرون لأداء الصلاة. وثانيها: أن صلاتهم صلاة الرياء والإظهار للناس. تنفصل طواجرهم عن مواطنهم. إنه إذا خضع القلب سكنت الجوارح وبدأ على القلب ملامح الإقبال على الله، أما المنافق المرئى فإن وضعه الملقط لشعور الاتصال بالله لا يكاد يخفى على المحققين.

وثالثها: أنهم لا يذكرون الله إلا قليلا.

هذه السمة لا تكاد تخفى، فإن المزمع ينطلق لسماته بذكر الله مقارنا لمعظم أوضاعه، بالتسمية والتكبير وقراءة القرآن ومختلف أنواع الذكر التي تطعن للقلب.

143- مذبذبين بين ذلك، فتن نجد له سهيلا.

ورابعها: أنهم لكثرة تلونهم وبعدهم عن الاختيارت البينة والمبلج الواضح، صاحبهم في حياتهم اضطراب في كل شؤونهم ومن أهمها عيقتهم، فهم ليسوا مؤمنين يعيشون مع المسلمين عيشة المسلم وجهه ندى، ولا من الكفار الرافضين للدعوة المحمدية، فهم يظهرون انصياعهم للإسلام ويأتون من الأعمال ويتخذون من

المواقف ما لا يرضى عنه إلا الكاهرون، ويثليثون بالكفار ويسرون إليهم بالإخلاص لهم.

إن الله قد حرمهم هدايته ومنع عنهم لطفه، فلا يجشون مع ذلك سبيلا إلى الهدى ورياض الإيمان.

144- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا سُلْطَانًا مِثْلًا

وإذا قد مضى القرآن المنافقين وما يتآمرون به مع الكفار للانقضاض على الإسلام وسحقه من الوجود، وأن عداوتهم له عتاء قد تأصل في قلوبهم وأعمالهم، فالواجب على المسلمين أن يجشوا موالاتهم، والاقتراب منهم اقتراب المودة، والتعاون معهم، وتقديمهم على المؤمنين، إذ التعاون مع الغير ضرورة لا مبدل عنها في الحياة وإذا ولوا المشركين، فمعنى ذلك أنهم قدموه على المؤمنين، وضعت الرابطة الإيمانية عن التأثير في الحياة الجماعية تأثير القوة وتمكين السود، ويبلغ التحذير من القوة أن من يربط صلاته بالكافرين يفقد كل حجة وكل عذر يمكن أن يخفف من جزاء ضلأ ملوكه وما تثبت عنه موالاته من نخل في عقيدته، ويفقد كل جواب عندما يتعرض للسؤال يوم القيلة عن هذه المواقف.

145- إِنْ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ سُوءٍ تَجِدْ لَهُمْ نَصِيرًا

أكد القرآن الذي عن نولي المشركين الذي هو ثلث المنافقين، بإعلان مصير المنافقين، وأن موعدهم الدركات للنازلة في نار جهنم، فحتى في المذاب يكونون لحط أهل النار، والتصريح بأنهم لا يجنون نصيرا ينفع لهم لو يؤيدهم هو تعبير عن اليأس الذي يصحب عداوتهم البتة.

146- إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَسْلَمُوا بِمَا جَاءَهُمْ عَقِبًا

ولستللي القرآن من المنافقين الذين استنقظ ضميرهم وفتش لهم باب التوب فالتجوا عن اللجاج، وتابوا منه عاكدين إلى ربهم، ولتبعوا التوبة بصلاح العمل. ووثقوا بفضل الله وأن هدايته هي الطريق المنجي، وتمكن الإخلاص لله من قلوبهم ولروحهم فكل تكينهم لا تشوبه شائبة شرك ولا تخيلة رياء، فهؤلاء مع المؤمنين، لا يضرهم ما سبق منهم. وهذا التوكيد جرى عليه القرآن، ومفاده أن التوبة إذا لم يقرنها لوأزمها من التحول عن المسيرة التي كثر يسير عليها الأتسم، إلى ما يضادها من التزام واستقامة وتطبيق عملي لشرع الله هي توبة فارغة من محتواها معطلة عن آثارها. وحث المنافقين على التوبة، بأنهم بما يفضل الله به عليهم من قول

توحيهم وحشرهم في زمرة المؤمنين، بأن ما وُعد به المؤمنون، الذين سيصبحونهم، من تكريم، هو أجر يفوق في عظمتهم للتصور ولا يحد مداه، لقد تتابع الوعد بعذاب القمطين والمشركين في الآيات السابقة وعُفيت هذه الآية على وهم: أن تمليط عذاب الله عليهم هو تشف منهم.

147- ما يفعل الله بعد ذلككم شاكركم عليهما.

أعلن القرآن للناس جميعاً أن الجزاء هو من ينالهم بحكمة الإلهية، وهو من الارتباط بين الأسباب والمسببات فمن آمن وتقى يكون قد هيا لنفسه موجبات الكرامة والطمأنينة في الحياة الدنيا ونعيم الجنة والفوز يوم القيامة. ولما من كفر مصرأ وأعرض معانداً فقد أعد لنفسه الخسارة في الدارين، وأن الله لا ينتقم بعذابيهم. فمن شكر بصرف النعمة فيما خلقت له والبعثت أعماله عن عقيدة مصدقة بآركان الإيمان مطلقة لمقتضياتها، فإن الله يشكر للمالحين أعمالهم ويثيبهم ويثقتهم، وهو العليم بحقائق الأمور وواعث الأعمال.

الفهرس

- 13 سورة الفتحه :
- 13 الحمد لله رب العالمين..... وياك نستعين (1-40) :
- 16 اخذنا الصراط..... ولا الصالحين (5-70) :
- 19 سورة البقرة :
- 19 لم..... الى الله على كل شيء قدير (1-206) :
- 32 يا ايها الذين آمنوا..... وانتم تعلمون (21-220) :
- 33 ولما كنتم في ريد..... ان كنتم مستأمنين (24) :
- 35 فلي لم يعملوا..... أعذت للكافرين (24) :
- 35 ويمن الذين آمنوا..... وهم فيها خالدون (29) :
- 36 الى الله لا يستعجل..... ألملك هم المفسدون (26-270) :
- 39 كيف تكفرون بالله..... وهو بكل شيء عليم (28-290) :
- 40 واذ قالوا ربك للملائكة..... أأنزلنا من السماء ماء فلهذا هم فيها خالدون (30-390) :
- 49 يا بني اسرائيل..... فوهو (40) :
- 50 واموا بما أنزلنا..... لئلا يفتنكم (41) :
- 51 ولا تلبسوا الحق بالباطل..... وانتم تعلمون (42) :
- 52 وقيموا الصلوات..... ولا كفوا مع الزاني (43) :
- 52 اتلوا القرآن بالقرآن..... كما ينزلون (44) :
- 53 وانصبروا واصبروا..... فلهذا هم فيها خالدون (45-460) :
- 54 يا بني اسرائيل..... ولما هم ينصرون (47-480) :
- 55 ولا تخفوا..... فلهذا هم فيها خالدون (49) :
- 56 ولا فهاكم المخرج..... وانتم تظنون (50) :
- 57 ولا واعلم موسى..... لعلكم تتقون (51-520) :
- 58 ولا اتينا موسى..... لعلكم يتقون (53) :
- 58 واذ قال موسى لقومه..... فيه هو الرب الرحيم (54) :
- 59 واذ قلتم يا موسى ان نؤمن لك..... لعلكم تتقون (55-560) :
- 60 وطللنا عليكم الغمام..... ولكن كفوا انفسهم بظنهم (57) :
- 61 واذ قلنا لنخلدك هذه القرية..... بما كانوا يصنعون (58-590) :
- 63 ولا استمعي موسى لقومه..... ولما تقول في القرص مضيق (60) :
- 63 واذ قلتم يا موسى..... بما عصوا وكفوا بظنهم (61) :
- 66 ان الذين آمنوا..... ولا هم يخزفون (62) :
- 67 واذ أخذنا ميثاقكم..... لكنتم من الخاسرين (63-640) :

- ولقد علمتم الذين... وموعظة للنعص (65-66) : 68
- وإذ قال موسى لقومه... وما كانوا يعقلون (67-71) : 69
- وإذ قلتم يا هذا لئن لم تعطنا قوتنا... نطعنكم بطنونا (72-73) : 72
- ثم هبت قلوبكم... وما الله بمعايل عما تعملون (74) : 73
- فأسطمنون أن يأمروا... وهم يعلمون (75) : 74
- وإذ أفرأ الذين آمنوا... وما يُظنون (76-77) : 74
- وملئهم أمثون لما يعملون... فما يكسبون (78-79) : 75
- وقالوا لن تمسأ لنا الأرض... ثم فيها جبالون (80-82) : 76
- وإذ أخذت ميثاق بني إسرائيل... وأنته مغضون (83) : 78
- وإذ أخذنا ميثاقكم... ولهم ينصرون (84-86) : 79
- ولقد أتينا موسى الكتاب... وقرعنا نهارون (87) : 81
- وقالوا قلنا علف... فقلنا ما يأمون (88) : 82
- ولما جاءهم كتاب... وللكافرين عذاب مهين (89-90) : 83
- وإذ هيل لهم أمرا... والله عليم بالظالمين (91-95) : 84
- ولقد نهضت أفرص الناس... والله بصير بما يعملون (96) : 87
- فل من كفر عنوا التحريل... فإن الله عتو للكافرين (97-98) : 88
- ولقد أدرأنا إليك آيات بديع... لو كانوا يعلمون (99-103) : 89
- يا أيها الذين آمنوا... وللكافرين عذاب عليم (104) : 94
- ما يؤذ الذين كفروا... والله ذو الفضل العظيم (105) : 94
- ما ينسج من أدة لو يشهد... من ولي ولا يصير (106-107) : 95
- لم يؤذون أن تصالوا... إن الله بما تعملون بصير (108-110) : 98
- وقالوا لن يدخل الجنة... فيما كانوا فيه يلتفتون (111-113) : 100
- ومن أنتم من مع ساعد الله... عذاب عليم (114) : 102
- والله العزير المعز... إن الله واسع عليم (115) : 103
- وقالوا اتحد الله ولدا سبحانه... كن فيكون (116-117) : 103
- وقال الذين لا يعلمون... ولما تنزل عن أضخف الجحيم (118-119) : 105
- ولن نرأسي عك البهز... من ولي ولا يصير (120) : 106
- للذين أتياهم الكتاب... فلأولئك هم الخاسرون (121) : 107
- يا بني إسرائيل... ولا هم ينصرون (122-123) : 108
- وإذ أنفنى إبراهيم وأمه... بك آف العزيز فحكيم (124-129) : 108
- ومن برأعيه عن ملة إبراهيم... وبخز له سنئون (130-133) : 114
- تلك أمة قد حلت... عما كانوا يعملون (134-141) : 116
- سيعوق سمعان من الناس... وشكروا لي ولا تكفرون (142-152) : 124
- يا أيها الذين آمنوا... وأولئك هم الضالون (153-157) : 131
- إن الصفا وقمروة... ولا هم ينظرون (158-162) : 133

- 137 والله كما وجد... وما هم بأول من قدم (161- 167):
- 142 يا أيها الذين آمنوا... فلهذا لا يغفلون (168- 171):
- 145 يا أيها الذين آمنوا... إلى الله حاكم (172- 173):
- 147 يا أيها الذين آمنوا... لا تأكلوا أموالكم بينكم (174- 176):
- 149 ليس لكم في أموالكم حظ... إنما لكم فيها نصيب (177):
- 151 يا أيها الذين آمنوا... لا تأكلوا أموالكم بينكم (178- 179):
- 153 كتب عليكم إذا حضر... في الله حاكم (180- 182):
- 155 يا أيها الذين آمنوا... لا تأكلوا أموالكم بينكم (183- 187):
- 162 ولما تأكلوا... إنما لكم بينكم (188):
- 163 يداؤلكم عن أموالكم... إنما لكم فيها نصيب (189):
- 164 ولما تأكلوا... إنما لكم فيها نصيب (190- 195):
- 167 ولما تأكلوا... إنما لكم فيها نصيب (196- 203):
- 174 ومن أكل من أموالكم... إنما لكم فيها نصيب (204- 209):
- 177 هذا يغفلون... إلى الله مرجع الأمور (210):
- 178 مثل من سرق... إنما لكم فيها نصيب (211- 212):
- 180 مثل الذين آمنوا... إنما لكم فيها نصيب (213):
- 182 لم يصدقوا... إنما لكم فيها نصيب (214):
- 183 وما أولئك... إنما لكم فيها نصيب (215):
- 184 كتب عليكم الفسق... إنما لكم فيها نصيب (216- 218):
- 187 وما أولئك... إنما لكم فيها نصيب (219- 220):
- 191 ولما يصدقوا... إنما لكم فيها نصيب (221):
- 194 وما أولئك... إنما لكم فيها نصيب (222- 223):
- 196 ولما يصدقوا... إنما لكم فيها نصيب (224- 225):
- 198 للذين آمنوا... إنما لكم فيها نصيب (226- 227):
- 199 والفاسقون... إنما لهم نصيب (228- 232):
- 207 ولما يصدقوا... إنما لهم نصيب (233):
- 210 ولما يصدقوا... إنما لهم نصيب (234- 237):
- 214 حافظوا على الصلوات... إنما لهم نصيب (238- 239):
- 216 ولما يصدقوا... إنما لهم نصيب (240):
- 217 ولما يصدقوا... إنما لهم نصيب (241- 242):
- 218 ألم تر إلى الذين خرجوا... إنما لهم نصيب (243- 244):
- 219 من آل الذي يرأسهم... إنما لهم نصيب (245):
- 220 ألم تر إلى الذين آمنوا... إنما لهم نصيب (246- 252):
- 228 ذلك أولئك... إنما لهم نصيب (253):
- 229 يا أيها الذين آمنوا... إنما لهم نصيب (254):

- 231 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255):
 234 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فِي الدِّينِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256):
 236 اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257):
 237 أَلَمْ يَرِ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258):
 238 أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259):
 240 وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260):
 241 مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغَضُونَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (261-262):
 242 قَوْلٍ مِثْرُوفٍ وَمَغْفِرٌ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (263-264):
 245 وَحِثَّ الَّذِينَ يُبْغَضُونَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265):
 246 أَلَمْ يَأْمُرْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ لِمَنْ تَكْفُرُونَ (266):
 247 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (267-274):
 253 الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (275-281):
 259 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (282-283):
 267 اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284):
 269 أَمَّنِ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (285-286):
 272 مِثْرُوفٌ أَلْ عَصْرَانِ :
 272 أَلَمْ هُوَ تَعَزَّيْزُ الْحَكِيمِ (1-6):
 275 هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَا يُغْلَبُ الْعِمَادُ (7-9):
 279 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ شَمِيدٌ الْعَظِيمُ (10-11):
 279 قُلِ الَّذِينَ كَفَرُوا سَتَلْقَوْنَ لَأُولِي الْإِلْبَاسِ (12-13):
 281 رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ حُجَّةَ الشَّهَادَاتِ وَالْمُسْتَخْفِرِينَ بِالْأَسْحَرِ (14-17):
 283 شَهِدَ اللَّهُ لَهُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِمَادِ (18-20):
 286 إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (21-25):
 288 قُلِ اللَّهُمَّ سَالِكُ مَسَلِكِكَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (26-32):
 293 إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَسَمِعَ بِالْغَيْثِ وَالْإِنْفَارِ (33-41):
 297 وَإِذْ فَتَنَّا الْمَلَائِكَةَ آدَمَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (42-51):
 301 فَلَمَّا أَحْسَنَ عَيْنِي مِنْهُمْ تَفَكَّرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمُتَّقِيهِ (52-63):
 306 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (64-68):
 309 وَذُتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (69-74):
 312 وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ (75-78):
 314 مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَفِّيَهُ فَلَوْلَئِكَ هُمُ الْغَالِبُونَ (79-82):
 316 أَفْضَرُ دِينِ اللَّهِ يَتَفَوَّنَ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (83-91):
 319 لَنْ تَقَالُوا تَبَرًا فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92):
 320 كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِطًّا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ الْمَقْتُولِينَ (93-95):
 321 إِنَّ لَوْثَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (96-97):

- 324 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... إِلَى حَبْرَاءِ مُسْتَقِيمٍ (98-101):
- 325 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (102-103):
- 328 وَلَتَكُنْ مَتَكُمُ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيِّ... وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (104-109):
- 331 كَذَّبَتْ خِزْرًا أَمَةً أُجْرَبَتْ لِلنَّاسِ... وَخَفَا يَكْتُمُونَ (110-112):
- 334 لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... وَلَكِنْ أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَيَكُونُنَّ أَهْلًا لِيَوْمِ الْعَذَابِ (113-117):
- 337 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ شَهِيدٌ (118-120):
- 339 وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ رَحِيمٌ (121-129):
- 343 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (130-132):
- 345 وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ... وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (133-136):
- 348 فَلَا جُنْدَ مِنْ دُونِكُمْ مَن... فَذَرُوا آلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلْيَتَنَزَّلُوا (137-143):
- 352 وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ... وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (144-148):
- 355 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَاللَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ الْمُؤْمِنِينَ (149-152):
- 358 إِذْ تَصِفُونَ وَلَا تُلَوُّونَ... إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (153-155):
- 361 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (156-160):
- 366 وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ أَنْ يَقُولُوا... وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (161-163):
- 367 لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ... إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ... (164-175):
- 373 وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْفَعْلِ... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (176-180):
- 375 لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ... فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (181-186):
- 379 وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (187-189):
- 381 إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَنْعَامِ... وَاللَّهُ عِنْدَ حُسْنِ الثَّوَابِ (190-195):
- 386 لَا يَحْزَنُكَ تَعَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا... وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (196-200):

- 389 مِمَّا سَأَلُوا النَّبِيَّ... مِمَّا سَأَلُوا النَّبِيَّ... (201-205):
- 389 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إِنَّهُ كَانَ خَوَافًا كَثِيرًا (206-210):
- 391 وَإِنْ خِفْتُمْ قَاتَا فاضطربوا فِي الْبَيْتِ... فَكَلِمَةً مِمَّا مَرَّبْنَا (211-215):
- 393 وَلَا تَوَدُّوا السُّعْيَاءَ أَمْوَالَكُمْ... وَكُلَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (216-220):
- 395 لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ... وَمِمَّا يَصِلُونَ حِجَابٌ (221-225):
- 397 يُؤْتِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ... وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (226-230):
- 400 وَلِلنِّسَاءِ يَأْتِيَنَّ الْعِلْفَةُ... أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (231-235):
- 403 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَآخِذْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (236-240):
- 405 وَلَا تَتَكَبَّرُوا مَا تَكِبَ آبَاؤُكُمْ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (241-245):
- 409 وَمَنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْكُمُ حُكْمًا... وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ حَسَبًا (246-250):
- 412 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَتَلَقَّيْنَكُمْ مِنْكُمْ كَرِيمًا (251-255):
- 414 وَلَا تَقُولُوا مَا لَمْ يَكُنْ بِه... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (256-260):
- 417 الرَّجُلَ قَوْلًا مَرْغُوبًا... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (261-265):

- واعتقدوا بالله ولما تشركوا به شيئا.... ولما يكتفون الله حديثا (36-42): 421
- يا أيها الذين آمنوا... إن الله كان غفورا (43): 427
- لهم ثم إلى الذين آمنوا نصيبا... لما يؤمنون يا أيها (44-46): 430
- يا أيها الذين آمنوا الكتاب أصفوا... وكفى به أثما مبينا (47-50): 433
- لهم ثم إلى الذين آمنوا نصيبا... ونجعلنهم مثلا طغيانا (51-57): 437
- إن الله يلمزكم أن تؤثروا الملمات... ذلك خير وأحسن تأويلا (58-59): 441
- لهم ثم إلى الذين يراغمون... وإن لهم في أنفسهم أوقا يلبغا (60-63): 446
- ما أرسلنا من رسل إلا ليطاع بإذن الله... وكفى بالله عليمنا (64-70): 448
- يا أيها الذين آمنوا... إن كيد الشيطان كان ضعيفا (71-76): 451
- لهم ثم إلى الذين قبل لهم... وكفى بالله وكيلنا (77-81): 455
- لما ينتهون القرآن... وكان الله على كل شيء متقيا (82-85): 460
- وإذا حثيفم بحقبة... مططفا مبينا (86-91): 463
- وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا... وأعد له عذابا عظيما (92-93): 468
- يا أيها الذين آمنوا... وكان الله غفورا رحيمنا (94-96): 471
- إن الذين يوفاهم الملائكة... وكان الله غفورا رحيمنا (97-100): 473
- وإذا حشرتم في الأرض... وكان الله عليما حكيمنا (101-104): 478
- إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق... وكان فضل الله عليك عظيما (105-113): 482
- لا خير في كثير من نجواهم... ونصله جهنم وساعت مصيرا (114-115): 486
- إن الله لا يغفر لأبى يشرك به... ومن أضق من الله قيدا (116-122): 487
- ليس بيمانكم ولا لمانى أهل الكتاب... وكان الله بكل شيء محيطا (123-126): 490
- ويستفتونك في النساء... وكان الله وليما حكيمنا (127-130): 493
- والله ما في السماوات وما في الأرض... فإن الله كان بما تعملون خبيرنا (131-135): 497
- يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتب... على المؤمنين مبينا (136-141): 501
- إن شاكفين يخادعون الله... وكان الله شاكرا عليمنا (142-147): 506

